

قررت اللجنة المكونة لمناقشة هذه  
الرسالة منح صاحبها درجة "الدكتوراه" مع  
مرتبة الشرف الأولى في الأدب والنقد  
«المناقشة»  
تاريخ الحصول على هذه الدرجة

جامعة الأزهر  
كلية اللغة العربية

١٧ مايو ١٩٧٩ م

كتابة البيرة النبوية في أدبنا الحديث

عرض ونقد وتحليل

الجامعة الإسلامية بالدرية المنورة  
دائرة شؤون الكتب - قسم المخطوطات  
٥٢٢  
التسجيل العام  
الخاص

رسالة دكتوراه

مقدمة إلى كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر)،  
كفيل درجة الدكتوراه في الأدب والنقد

إعداد

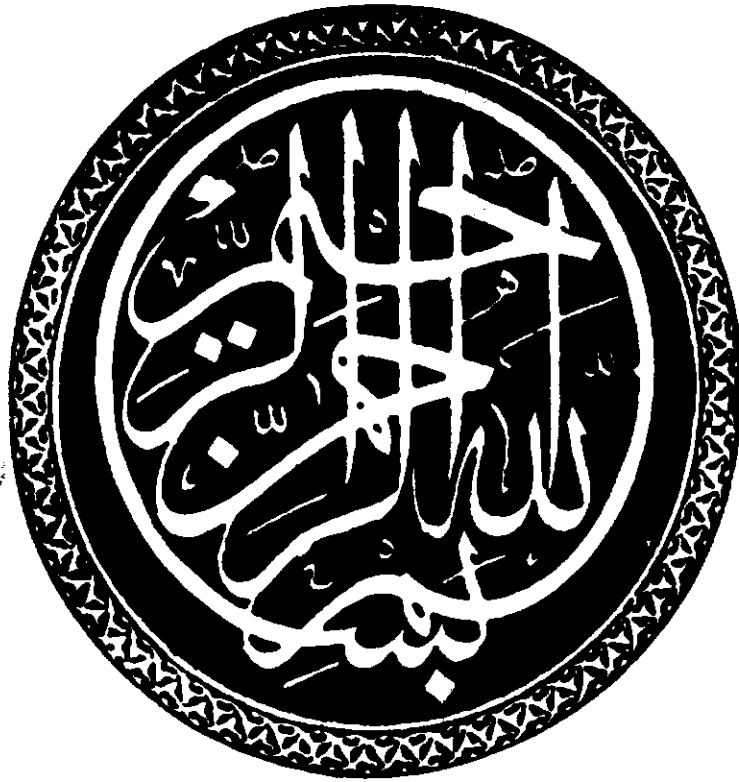
محمد عارف محمود حسين  
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

إتلاف

الأستاذ الدكتور / عبد السلام سرحان

٥٢٢ / ١٤

التسجيل العام  
الخاص  
التاريخ / / ١٤



نسخ و طبع و تجلید  
الجریسی

ت ۹۰۹۰۵۰ ۶۵۴۶۹

## ٖٖ مقدمة ٖٖ

الاهتمام بالسيرة النبوية  
الاهتمام بالسيرة النبوية في العصر الحديث  
اتجاهات الكتابة عن السيرة النبوية في الفكر  
العربي الحديث موضوع البحث وسراختصاره  
ومجاله السرفى اختيار هذه الكتب بالسرفى  
فى تحديد مجال الدراسة وعدم شموله  
منهج الباحث وجهده فى هذه الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الاهتمام بالسيرة النبوية

الحمد لله ، والسلام على رسول الله ، محمد بن عبد الله ،  
الذي أرسله الله بالهدى والحق ليظهره على الدنْيَا كُلِّهَا (١) ، وأنزل  
عليه كتاباً " لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ " (٢) ، أَخْبَرَتْ  
آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (٣) ، " تَهْنِئَاتُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُسْدَى  
وَرَحْمَةٌ " (٤) ، مهدي به الناس من الضلالة ، واستنقدهم من الجبالسة ،  
واستخرجهم من التَّهْلُكَةِ ، فصلوات الله وسلامه عليه ، هما يَهْتَمُّانِ مِنْ طَرِيقٍ ،  
وما رسم من سهل ، وما أظلم من حَجَبٍ ، وما أوضح من حَجَبٍ .

ومـــــــد

فما لا شك فيه أن السيرة النبوية — على صاحبها أفضل الصلاة  
وأتم التسليم — قد حظيت باهتمام المفكرين من الكتاب والأدباء — على  
اختلاف طرائقهم، وتجانف أساليبهم، ومختلف مناهجهم، وطون أفكارهم — بل  
لا تزال تحظى بهذا الاهتمام، بل سوف تظل محظية به في مستقبل  
الأزمان والأعصار .

وليس الاهتمام بالسيرة النبوية قاصراً على فكر بعينه ، أو جيل خاص ،  
أو عصر محدد ، بل كان الاهتمام بها من قِبل الفكر الإسلامي وغيره ، ومن  
قِبل جميع الأجيال والدهور .

وإذا ما حاولنا أن ننظم مواضع الاهتمام بالسيرة النبوية — من قِبل  
الكتاب العرب والمسلمين — وجدنا هذا الاهتمام واضحاً بارزاً منذ المصهور  
الإسلامية الأولى حتى عصرنا هذا .

(١) الآية ١ من سورة " الصافات " (٢) الآية ٤٢ من سورة " فصلت " .

(٣) الآية ١ من سورة " هود " (٤) الآية ٨٩ من سورة " النحل " .



ففي العصور الاسلامية الأولى تناول السيرة النبوية - تدوينها وتأليفها وتصنيفها - رُوَادُّ أعلام من أمثال : عُرَّة بن الزَّيْعَر ، وَأَبَان بن عثمان ، وعاصم بن عُمَر بن قَتَادَة ، وابن شهاب الزُّهْرِي ، وموسى بن عُقَّة ، ومحمد ابن اسحاق ، والواقدي ، وابن سعد ، وابن هشام ، والكثير . . .

وفي العصور التي تلت العصور الأولى والعصور الوسطى ، تناول السيرة النبوية - تأليفها ، أو اختصارا للمؤلفات السابقة ، أو شرحا وتعليقا عليها - مؤرخون أعلام من أمثال : الأصبهاني ، والمازدي ، وابن خزيمة ، والبيهقي ، وابن عبد البر ، والقاضي عياض <sup>(١)</sup> ، والسهولي ، وابن الجوزي ، وأبي ذر الخفائي ، وابن الأثير ، وابن سيده الناس ، وابن كثير ، والمقريزي ، والسيوطي ، والقسطلاني ، وشمس الدين <sup>(٢)</sup> ، والدين الشامي ، ونور الدين <sup>(٣)</sup> الحلبي . . .

وفي العصر الحديث تناول السيرة النبوية - دراسة وشرحاً وتنقيحاً وفلسفة وصياغة - كثير من المفكرين والأدباء ، من أمثال : رفاعة الطهطاوي ، ومحمد الخضر ، وعبد الرحمن عزام ، ومحمد أحمد جاد المولى ، ومحمد حسين كهل ، وطه حسين ، وعبد الحميد المشهدي ، ومصطفى صادق الرافعي ، وتوفيق الحكيم ، ومحمد فريد وجدي ، وأحمد الخلاوي ، وأحمد حسن الزيات ، وهما محمد العقاد ، وعبد الحميد جودة السحار ، ومحمد عزة دروزة ، ومحمد الفزالي ، وعبد الرحمن الشرقاوي ، ومحمود شمت خطاب ، ونظمي لوقا ، وخالد محمد خالد ، ومحمد شوكت التتوي ، وعبد الرزاق نوفل ، ومحمد

(١) هو : عياض بن موسى بن عياض بن عمرو ، أبو الفضل ، عالم المفسر

وامام أهل الحديث في وقته ، ولد عام ٤٧٦ هـ وتوفي عام ٥٤٤ هـ . من تصنيفه : " الكفا بتمريف حقوق المصطفى " في السيرة النبوية .

(٢) هو : محمد بن يوسف بن علي بن يوسف شمس الدين الشامي ، محدث عالم بالتاريخ . توفي عام ٩٤٢ هـ ( ١٥٣٦ م ) من تصنيفه : " سبيل

الهدى والرشاد في سيرة خير المباد " ويعرف بالسيرة الشامية .

(٣) علي بن برهان الدين الحلبي . ولد عام ٩٧٥ هـ وتوفي عام ١٠٤٤ هـ من تصنيفه : " إنسان الميمون في سيرة الأمين المأمون " ويعرف بالسيرة الطهية .

سميد رمضان البوطي ، ومصطفى محمود ، وغير هؤلاء ، وأولئك .

ولن يقف الاهتمام بالسيرة النبوية عند العصر الحديث ، بسـل سـيظل الاهتمام بها قائما على امتداد العصور — ان شاء الله — ولا عجب في ذلك ، فلقد كانت السيرة النبوية — وستظل — ان شاء الله — الميدان الفسيح الذي يجول فيه كل عقل ، وسبح معه كل فكر ، وستبقى المادة الخصبة الثرية التي تمد كل ذى لسان وقلم . . بما يشاء ، ويهوى ، لما تحتوى عليه من صفحات مشرقة ملهية بالأحداث الغضة ، والمواقف الباهرة ، والمعطيات الجليلة ، والحكم البالغة ، التي نهل من معينها الخطباء ، والمفكرون والأدباء : فتناولها الخطباء في خطب بليغة مبينة ، يكشفون عما فيها من مواضع المظة والمبرة ، ومواطن الفخر والمظمة ، كما تناولها المفكرون على اختلاف سبلهم واتجاهاتهم — بأساليب مختلفة وطرائق متباينة — اذ تناولها المطلون : المؤرخون ، والسياسيون ، والنفسيون ، والمسكرهون . كما تناولها الأدباء من الكتاب والشعراء ، حيث وجدوا فيها المادة الدسمة التي تلهمهم التعرف الى المواقف المظمية ، وادراك سر الأحداث الجليلة ، وتمييز الشخصيات الغضة ، التي راحوا يتخذون من مواقفها وأحداثها — وشخصياتها مادة يصوغون منها أدبهم على اختلاف أشكاله ، وتعدد أنماطه : من قصيدة ، وقصة ، ومسرحية ، ومقالة ، وخاطرة ، وفكرة . .

ولا غرو ، فالسيرة النبوية هي تلك الصفحات المشرقة لحياة الرسول — صلى الله عليه وسلم — تلك الحياة التي كانت تطهيرا علما للقرآن الكريم : عقيدة وسلوكا وعلا وقولا وأدبا وتشريعا ، فلا عجب أن تكون هذه السيرة — بما حوت من أعماله وأقواله وتشريعاته ، وما رصفت من أخلاقه وسلوكه وآدابه ومعاملاته — منهاجا قويا ، وصراطا مستقيما ، يهتدي بهما المهتدي ، ويقتدي بهما المقتدي ، ولا عجب — لهذا كله — أن تكون تلك السيرة النبوية محط أنظار العقول البشرية ، وحل اهتمامها

على اختلاف الأزمنة والأعصار ..

### الاهتمام بالسيرة النبوية في العصر الحديث :

وإذا كانت العناية بالسيرة النبوية تعد قدرا مشتركا بين جميع الأزمنة والأعصار ، فإنه مما يلفت النظر ويسترعى الانتباه أن العصر الحديث كان صاحب الحظ الأوفى والنصيب الأوفر في الاهتمام بالسيرة كَمَا وَكَيْفًا ، فخرجت عشرات الكتب والمؤلفات والبحوث والدراسات والمقالات ، تتناول السيرة النبوية دراسة وشرحا وتطبيلا وفلسفة وصياغة .. بل <sup>كأنه يكون</sup> من التقاليد الأدبية أن يقدم كل كاتب رؤيته الخاصة لهذه الشخصية الفذة العظيمة الأثر في حياة العرب والمسلمين والبشر جميعا ... وكان ثمرة هذا كله ثمرة هائلة احتوتها مكتبة " السيرة النبوية " .

### اتجاهات الكتابة عن السيرة في الفكر العربي الحديث :

ونظرة الى ما أُلّف عن السيرة في عصرنا الحديث ، ترينا أنه يختلف عما أُلّف في المصور الأولى والوسطى .

فالمؤلفات في المصور الأولى كانت تُعنى بتدوين السيرة وعرضها وجمع ما يستصل بها ، وفي المصور التي تلتها اهتم بترتيب أحداثها ووقائعها ، والمؤلفات في المصور الوسطى حتى العصر الحديث كانت تتجه الى تلخيص الكتب السابقة ، أو التعليق عليها ، أو شرح غريبها ، أو تجميع المعلومات منها ، أو الاهتمام بدلائل النبوة وشمال الرسول وصفاته وأحواله كما سنشير الى ذلك في موضعه .

والمؤلفات في العصر الحديث تتجه الى دراسة السيرة النبوية وتطهيرها وفلسفتها أو صياغتها وسحابة كتابتها على نسق جديد يختلف

اختلافا كبيرا عن النسق الذى كتبت به قبل ذلك . . . سواء فى الطريقة أو الأسلوب أو المنهج ، نظرا لما جدد من ثقافات ، وما طرأ على الفكر العربى من تغيير، نتيجة الاحتكاك الفكرى بين الشرق والغرب .

ونظرة ثانية الى هذه المؤلفات ترينا أنها اختلفت فى اتجاهاتها وطرائقها وأساليبها .

فمنها ما هو تاريخى بحت ، يسير فى فلك الكتابة التاريخية القديمة ، وهى التى تتسم بطابع سرد الوقائع والأحداث، وحشد الأخبار والروايات ، فى أسلوب على تفرير لا تظهر عليه روح التجديد السبى طرأت على الكتابة الحديثة .

ومن الكتب التى تمثل هذا الاتجاه كُتُبُ : " نهاية الابدان فى سيرة ساكن الحجاز " (١) ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، و" نور اليقين فى

---

(١) يُعَدُّ هذا الكتاب بداية الجزء الثانى من كتاب : " أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل " وهو الجزء الذى يقسم تاريخ مصر بعد الاسلام ، وقد بدأ رفاعة ينشره فى ملاحق مجلة " روضة المدارس " فى سنتها الثالثة ، ولكن رفاعة مات قبل أن يتم طبعه ، وترك الباقي من الكتاب مَسودَّات قام عليها من بعده ولده " على " . ومنهج رفاعة فى هذا الكتاب - خاصة ما يتعلق بأحداث السيرة النبوية بعد الهجرة - هو منهج مَسْنُون سبى من المؤرخين كالطبرى وابن الأثير ، فقد مضى يؤرخ لحماسة الرسول فى المدينة عا ما بعد علم ، فيذكر فى كل سنة أعمال الرسول فيها ، وفروعاته ، وما نزل فيها من أحكام ، أما أسلوبه فيغلب عليه الترسى والهسارة والسهولة ، والاهتمام عن التقيد والتقمصه والتحرر الكايل من قواعد الزينة اللفظية ، الا أن يأتي السجى طبعها غير مقصود ، على عكس ما نجده فى الجزء الأول الذى تغلب عليه الصنعة اللفظية - راجع كتاب : رفاعة رافع الطهطاوى ، . أحسن =

سيرة سيد المرسلين " (١) لمحمد الخضرى ، و "مورد الصفا فى سيرة المصطفى" (٢)  
لأحمد الحمالوى .

ومنها ما هو تاريخى تحليلى فلسفى ، وأغنى به الكتب التاريخية الحديثة التى تتجه الى الشرح والتفسير وتحليل الأحداث وفلسفتها، ومحاولة النفاذ الى أسرارها ودقائقها وكشف خباياها ، وسوق هذا كله فى أسلوب علمى لا يمت الى الأسلوب الأدبى بسبب .

ومن الكتب التى تمثل هذا الاتجاه كُتُبُ : " محمد المثل الكامل " (٣) لمحمد

أحمد بدوى . الطبعة الثانية - ١٩٥٩ . ط لجنة البيان العربى .  
صفحات : ١٢٤ - ١٣٠ . وراجع كتاب : محمد صلى الله عليه وسلم " نهاية الایجاز فى سيرة ساكن الحجاز " دراسة وتحقيق  
د . فاروق أبوزيد . الجزء الأول . صفحات : ٣ - ٢٩ . ط دار  
الفكر والفن .

(١) ألف هذا الكتاب فى العشرينيات وقد طبع عدة طبعات ، وينهج فيه صاحبه نهج الدراسات التاريخية القديمة التى تعنى بسرد الأحداث والوقائع حسب وقوعها ، كما يؤرخ الأحداث بعد الهجرة مرتبة حسب السنين ، كما فعل الطبرى وابن الأثير ، أما أسلوب الكتاب فعلمى تقريرى سردى لا يميل الى شرح أو تحليل أو تعليق الا فى حالات قليلة كتعليقه تنافس قرئش على وضع الحجر الأسود ، وتعليقه عدم اسلام أبى طالب .

(٢) ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٣٩ ، حيث ظهرت الطبعة الأولى منه ، وهو كالكتاب السابق نهجا وأسلوبا وطريقة .

(٣) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٣١ ، وطبع بعدها عدة طبعات ، والكتاب فى حقيقته مجموعة من البحوث التاريخية التى تدور حول النبى صلى الله عليه وسلم ، كالحديث عن فضائله ومكانته بين الرسل ، والأسباب التى اقتضت بعثته ، ومراحل النبوة ، والأدلة على صدق نبوته ، وكونه أكبر المصلحين نجاحا ، وكونه أوفى الأنبياء دينا . . . ثم يتناول المؤلف فى آخر الكتاب - السيرة النبوية فى إيجاز ، والمؤلف فى كتابه ينهج نهجا تاريخيا فى طريقته وأسلوبه .

أحمد جاد المولى ، " وسيرة الرسول : صُورٌ مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية <sup>(١)</sup> " لمحمد عزة دروزة ، و " الرسول القائد <sup>(٢)</sup> " للواء :

(١) ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٤٧ ، وهو كتاب ذو منهج جديد ، حيث يعالج السيرة النبوية من خلال ما ورد عنها في القرآن الكريم ، والذي دفع المؤلف الى سلوك هذه الطريق ، هو أن القرآن يعد أصدق مصدر للسيرة النبوية ، وهو ان كان خاليا من التواريخ والأسماء والأعلام والأرقام يعطى في النهاية صورة صادقة وصحيحة عن السيرة تغاير الكثير مما هو مستقر في الأذهان أو ورد في كتب السيرة ، والكتاب لا يجرى على نسق تاريخي ملحد شأن معظم كتب السيرة ، بل صنفه مؤلفه من خلال ما ورد عن السيرة في القرآن من آيات مكية ومدنية ، وقام بتصنيفها وترتيبها في مجموعات متناسبة ، كل مجموعة تحوى العديد من الآيات التي تدور حول موضوع واحد ، وضعها المؤلف في فصل خاص ، ففصل عن شخصية النبي عليه السلام ، وفصل عن مواقف العرب من الدعوة ، وفصل عن اليهود ومواقفهم في العهد المكي ، وفصل عن الجهاد في هذا العهد وهكذا . . ثم أخذ المؤلف يحلل الآيات الواردة في كل مجموعة ، ويفلسف ما فيها من دلائل وإشارات وأحكام ، والناسخ منها والمنسوخ ، والمتقدم والمتأخر . أما أسلوب الكتاب فملئى تقريرى . .

(٢) ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٥٨ ، وهو دراسة تحليلية لحياة الرسول العسكرية ، وما حدث فيها من حروب ، على أسس المصطلحات العسكرية الحديثة ، مبرزاً ما في هذه الحياة العسكرية المصدية من سبق في هذا المجال لأغلب النظم والقوانين العسكرية الحديثة ، وقد ملأ هذا الكتاب مكاناً كان شاغراً عن حياة الرسول العسكرية ، فكل ما تقدم من كتابات عن هذه الناحية ، كان معلومات متناثرة غير وافية ، فجاء هذا الكتاب ملماً بهذه المعلومات ، منسقا لها ، مرتباً للأفكار ، فكرة ففكرة ، مبتدئاً في كل غزوة - بالحدث عن مواقف الفريقين قبل المعركة ، ثم أهداف المعركة ، ثم قوات الطرفين ، ثم سير الحوادث ، ثم نتائج المعركة ودروسها المفيدة . . على أن هذا كله كان مشغوعاً بمسائل الإيضاح من خرائط وأشكال وصور ورسم لمعركة مواقع القتال ، ورسم أدواته

محمود شيت خطاب ، و " محمد رسولا نبيا " (١) لعبد الرزاق نوفل ، و " فقه السيرة " (٢) لمحمد سعيد رمضان البوطي . . كما أن من المقالات

المستعملة وأسلحته الفريية عن العصر الحديث ، مع التعريف بها .  
 هذا من ناحية طريقة الكتاب ومنهجه . أما أسلوبه فعلى وصفى ،  
 وتمتاز ألفاظه وعبارات بالسهولة والبساطة .  
 (١) ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٦١ ، وفيه يأخذ المؤلف فى التدليل على صدق رسالة الرسول وصدق دعواه هذه الرسالة من واقع حياته صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة ومعهها . . أما قبل الرسالة فكانت أخلاقه الحميدة ، وما اشتهر به من سمات وعادات وشيم خير دليل على أن المتصف بها جدير بأن يكون نبيا . أما بعد الرسالة ، فالأدلة كثيرة ، فهذا القرآن السدى أنزل عليه أصدق دليل على صدق محمد فى دعواه النبوة والرسالة بما اشتغل عليه من اعجاز بيانى وعصير يلخ لأحوال الآخرة وحديث عن الأمم الفائرة ، ودعوة الى مكالم الأخلاق ، وما حواه من تشريعات فيها سعادة الانسان فى دنياه وأخراه ، وما فيه من اعجاز علمى فى كثير من الأشياء التى يكتشفها علماء اليوم . ومن الأدلة التى ساقها المؤلف تجرد دعوة محمد صلى الله عليه وسلم من الأغراض الشخصية . ومنها الحاجة الماسة لهذه الرسالة . ومنها ما تقدم ميلاد الرسول من خوارق وارهصات وتنهات ، وما وقع منها فى حياته أيضا . ومنها ما تحدثت به الكتب السابقة عن الرسول محمد وما فيها من أوصاف لا تنطبق الا عليه . ومنها انتشار الاسلام فى أكثر بقاع العالم . ويأخذ الكاتب فى تحليل هذه الأدلة فى أسلوب سهل يسير ، فيه سلاسة واشراق ، يشع منه صدق الماطفة وروح الايمان .

(٢) ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٦٧ ، وفيه يتناول المؤلف أحداث السيرة النبوية ووقائعها بالشرح والتفسير والتحليل ، وذلك حين يورد الحادثة أو الواقعة ، ثم يأخذ فى شرحها وتفسيرها وتحليلها ، مستنبط ما يمكن استنباطه من دروس ودلائل وعبر وحكم وقواعد وأحكام شرعية يمكن أن تؤخذ من أحداث السيرة ووقائعها ، من خلال أعمال الرسول وأقواله وتقريراته . والكاتب ينهج نهجا تاريخيا فى عرضه لأحداث السيرة ، وتقسيمها إلى

التي تشمل هذا الاتجاه ، مقالات محمد فريد وجدي ، التي كتبها في  
السيرة النبوية بعنوان " السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة " (١)

مراحل ، كل مرحلة تمثل مدة زمنية لها أحداثها ووقائعها ، كما  
أن الكتاب في طريقته ينفج نهجا مدرسيا ، حيث يعقب على  
الحادثة أو الواقعة بما يستفاد منها " والكتاب ذو أسلوب علمي  
تحليلي .

(١) هي مجموعة من المقالات التي كتبها محمد فريد وجدي في السيرة  
النبوية بهذا العنوان ، وقد نشرت في مجلة الأزهر ابتداء من  
السنة العاشرة لصدور هذه المجلة سنة ١٣٥٨ هـ وفيها يتناول  
الكتاب جوانب عدة من السيرة النبوية ، وخاصة الجوانب المتصلة  
بالنبوة والرسالة والوحي ، وغير ذلك من الأمور الروحية والغيبية .  
وقد اعتمد الكاتب في تحليل هذه الجوانب على الأدلة المادية  
الطبيعية المحسوسة ، بقصد التدليل على إمكان وقوع هذه الأشياء ،  
لأنك الذين لا يؤمنون إلا بهذه الأدلة من مادي المصير  
الحديث . أما أسلوب هذه المقالات فهو أسلوب علمي تحليلي  
فلسفي ، يعتمد على الشرح والتحليل والتفسير وإيراد النصوص  
والأدلة والموازنة بينها ثم الاستنتاج . ومن هذه المقالات :  
" ما هي النبوة ، وما هي الرسالة ، والأدلة العلمية على إمكان  
الوحي ؟ " . المقالة الثانية : صفحات : ٩٠ - ٩٨ - المجلد  
العاشر - مجلة الأزهر . " الشكوك في إمكان الوحي وعلاجها  
بافتوحات العلمية الحديثة " - المقالة الثالثة : صفحات : ١٦١ -  
١٦٨ - المجلد العاشر - مجلة الأزهر - " حظ الأمم من  
النبوة قديما وحديثا " - المقالة الرابعة : صفحات : ٢٤١ -  
٢٤٦ - المجلد العاشر : مجلة الأزهر - " نصيب العالم من  
رسالة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم " - المقالة الخامسة :  
صفحات : ٣٢١ - ٣٢٥ المجلد العاشر : مجلة الأزهر .



ومنها ما هو تحليلى فلسفى تاريخى ، ينحو نحو الشرح والتفسير وتحليل الأحداث وفلسفتها ، ولكنه لا يغفل أن يسوق أحداث السيرة النبوية ووقائعها فى أسلوب أدبى محب الى النفس ، لا أقول : انه الأدب الخالص ، بل انه قريب من هذا الأدب .

وهذا الاتجاه - اذن - يجمع بين الحقيقة التاريخية والمهارة الأدبية ، أو ما يسمى - بالصياغة الأدبية للتاريخ .

ومن الكتب التى تمثل هذا الاتجاه كتب : " حياة محمد " لمحمد حسين هيكل ، و " عمقيرة محمد " (١) لمعاس محمود العقاد ، و " فقه السيرة " (٢) لمحمد الفزالي ، و " انسانيات محمد " (٣) لخالد محمد خالد ، و " محمد الرسالة والرسول " (٤) لتنظمي لوقا ، و " صور من حياة

- 
- (١) سيرد القول عنه بالتفصيل فى باب خاص من هذه الرسالة .
  - (٢) سيرد القول عنه بالتفصيل فى باب خاص من هذه الرسالة .
  - (٣) سيرد القول عنه بالتفصيل فى باب خاص من هذه الرسالة .
  - (٤) ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٥٩ ، وفيه يتناول المؤلف بعض الجوانب الانسانية فى شخصية الرسول الكريم ، من الرحمة والمسدل والحب والسمو ، والعناية بمشاكل الناس ، وقد نهج المؤلف فى الكشف عن هذه الجوانب منهجا تحليليا نفسيا ، حيث أخذ يتتبع هذه الصفات ، ويتقصى تلك السمات من خلال أفعال الرسول وأقواله ، ويسوق من الأمثلة والشواهد ما يدل على عظمها ، بل انه ليقصص نفس أعماق نفس الرسول الكريم ليكشف عن بواعث هذه الصفات ودوافعها ، وقد انتهى المؤلف الى أن يبحث هذه الصفات وتلك السمات من أجل جعل عليه الرسول من رحمة وحب وعدل ، وانسانية عالية رفيعة ، والمؤلف بهذا المنهج - يبدو وكأنه متأثر بطريقة العقاد فى كتابته " عمقيرة محمد " . أما أسلوب الكتاب الذى صاغ من خلاله هذه الجوانب الانسانية فهو أسلوب أدبى خطيبى ، فيه جزالة وقبولة ، كما أن فيه سلاسة وإشراقا وحرارة تنبع من صدق عاطفة الكاتب وإيمانه وإخلاصه .
  - (٥) ظهرت الطبعة الثانية منه سنة ١٩٥٩ ، وفيه يتحدث المؤلف عن

الرسول (١) " لأمين دويدار . ومن المقالات التي تمثل هذا الاتجاه ، مقالات : مصطفى صادق الرافعي التي كتبها حول السيرة النبوية (٢) .

= الرسالة المحمدية والرسول محمد ، وفي الفصول الأولى من الكتاب يتناول المؤلف هذه الرسالة ويبين أنها قد جاءت مناسبة لظهور البشرية الحليمة ، ملهمة حاجة الإنسان الطبيعية ، موفقة بـسـين دينه ودينه ، ومتألفة تلك القصة المسقية بين الروح والبدن في السر والعلن ، وفي الفصول الثلاثة الأخيرة من الكتاب يتناول المؤلف الحديث عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . والحديث يدور حول التدليل على صدق الرسول في دعواه الرسالة ، وعلى أنه رسول حق . ويسوق المؤلف أدلة ثلاثة ، وهي : إيمانه بدعوته وشبائه عليها وتحمله في سبيلها كل صنوف الأذى والعنت . وعدم ادعائه لنفسه صفة أو ميزة ليست له ، أو حقاً يستعلي به على أحد . وسجده لنفسه وترويضه إياها على التواضع والحلم والزهد . وقد ساق المؤلف هذه الفصول الثلاثة في أسلوب أدبي يخاطب العقل وينفذ إلى القلب ، تحسن منه صدق العاطفة وصدق التمهير .

(١) ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٦٨ ، وفيه تناول المؤلف السيرة النبوية تناول المؤرخين ، الذين يسوقون أحداث السيرة ووقائعها مرتبة ، لكنه صاغها من خلال أسلوب قصصي ، وذلك منح المؤلف بين الحقيقة التاريخية والمهاورة الأدبية ، وذلك بقصد تهيئ للنشئ إلى مطالعة السيرة والوقوف على ما فيها من صفحات مشرقة ودروس مفيدة ، تنعكس عليها أفعال الرسول وأقواله ، بقصد أن يتأسى أولئك النشئ ويقتدوا برسولهم الكريم . والمؤلف متأثر في سلوكه الطريفة القصصية بظه حسين في كتابه " على هامش السيرة " .

(٢) هي مجموعة من المقالات التي كتبها مصطفى صادق الرافعي حول السيرة النبوية في مناسبات عدة ، خاصة مناسبة الهجرة ، تبليك المناسبة التي أنشأ لها الكاتب مقالات عدة ، نشرها في مجلة الرسالة . وفي هذه المقالات يتناول الكاتب جوانب عدة من السيرة النبوية . وأسلوب هذه المقالات فلسفي أدبي تحليلي ، يخلب عليه أسلوب الرافعي المشهور . ومن هذه المقالات : " وحى الهجرة " وهي أولى مقالاته في الرسالة ، أنشأها لعدد الهجرة "و" السمو الروحي الأعظم " و" الجبال الفنى فى الهالة النبوية " وقد أنشأ

ومنها ما هو أدبي، يعنيه أن يعرض السيرة في قالب أدبي يحسب إلى النفس الاطلاع على السيرة النبوية ، ويشوق القلب إلى الاستماع اليها .

ومن الكتب التي تمثل هذا الاتجاه كتب : " على هامش السيرة " (١) " لطف حسين ، و " صور اسلامية " (٢) " لعبد الحميد المشهدي ، و " محلا " (٣) لتوفيق الحكيم ، و " محمد رسول الله والذين معه " (٤) " لعبد الحميد جودة السحار ،

المؤلف هذا البحث جوابا لرجاء جمعية الهداية الاسلامية فمسي بغداد سنة ١٣٥٢ هـ - و " فلسفة قصة " وقد أنشأ هذه المقالة لعدد الهجرة سنة ١٣٥٥ هـ - و " فوق الآدمية " ( الاسـراء والمعراج ) وقد أنشأها برأى صديقه محمود أبي رية - و " حقيقة المسلم " وقد كتبها لجماعة " الكشاف المسلم " في بيروت في ذكرى المولد النبوي - و " الانسانية العليا " - و " سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم " - و " درس من النبوة " - راجع هذه المقالات في " وحى القلم " الجزء الثاني من صفحة ١١ - ٢٠ ، والجزء الثالث من صفحة ٣ - ٣٠ - الطبعة السادسة .

سيرد القول عنه بالتفصيل في باب خاص من هذه الرسالة . (١)

كان هذا الكتاب في بداية أمره مجموعة من الفصول التي كتبها المؤلف في السيرة النبوية ، وكان ينشرها في مجلة " الصرخة " في الثلاثينيات ، وفي هذا الكتاب يستعرض الكاتب السيرة النبوية بأحداثها ووقائعها من خلال أسلوب قصصي ، بما فيه من سرد ووصف وتصوير . (٢)

سيرد القول عنه بالتفصيل في باب خاص من هذه الرسالة . (٣)

يقع هذا الكتاب في عشرين جزءا ، وقد بدأت أجزاء هذا الكتاب في الظهور في منتصف الستينيات . وقد طبعت أكثر من مرة . وهذا الكتاب يروي أحداث السيرة ووقائعها من بدايتها إلى نهايتها في أسلوب قصصي جميل ، بل ان الكاتب لم يهمل للحديث عن السيرة بالحديث عن آباء الرسول وأجداده : عن ابراهيم واسماعيل ، وجزهم وحنى هاشم وعبد المطلب ، والحديث عن أحداث وقعت قبل ميلاده - صلى الله عليه وسلم - مثل حفر زمزم وواقعة الفيل ، وذلك يخطى الكاتب للمقاري صورة عن الحياة قبل ميلاد الرسول . (٤)

و" محمدرسل الحرية " (١) لعبد الرحمن الشرقاوى ، و" محمد فى طفولته

هى بمثابة المقدمات والبشائر لميلاد الرسول الكريم ، وقد استغرق هذا التمهيد عددا من الأجزاء الأولى من الكتاب . ثم أخذ الكاتب بعد هذا التمهيد فى الحديث عن أحداث السيرة ووقائعها فى ترتيب زمنى ، مبتدئا بميلاد الرسول ومنتها بوفاته صلى الله عليه وسلم ، والكتاب يعد أوسع كتاب تناول السيرة النبوية بهذه الطريقة القصصية .

بدأ المؤلف يكتب فصول هذا الكتاب فى الخمسينيات ، وبدأ فى الستينيات ، وقد هجم الكاتب ووجه اليه نقد من قبل الكثيرين آنذاك . ثم طبعت هذه الفصول فى كتاب أكثر من مرة . والكتاب يروى أحداث السيرة ووقائعها من خلال أسلوب قصصى أشبه بالرواية ، وأما طريقة المعالجة فان الكاتب يعالج أحداثها ووقائعها من خلال فكرة خاطئة تقول : ان الاسلام ثورة اجتماعية جاءت لاصلاح حال الانسان . . . المذهب بنيران المظلم والمبودية والاضطهاد - واسماده ، وأن محمدا صلح اجتماعى جاء لانصاف الانسان واعطائه حقه فى الحياة الكريمة ، وأن محمدا حين كان يخلو بنفسه فى غار حراء انما كان يفكر فى أمر هذا الانسان المضطهد . وفى كيفية انقاذه ما هو فيه . وأن محمدا حين يدعو الناس الى دينه ودعوته ، وحين يقاتل ويحارب من جحد وأنكر فانما يحارب من أجل الانسان المذهب المستضعف . . . هكذا يطوِّع الكاتب أحداث السيرة ووقائعها لهذه الفكرة الآتية ، ونسى الكاتب - أو تناسى - أن الهدف الأساسى من رسالة الاسلام ، هو انقاذ الانسان من ظلمات الشرك والوثنية السى نور التوحيد ومهادة الله وحده . ويرى الكاتب أن الجوانب التى تحدث عنها من الحرية والعادل والانصاف والمساواة والتكافل الاجتماعى من تلك المبادئ التى جاء بها الاسلام - هى الجوانب الايجابية فى هذا الدين ، ويضرب الكاتب صفحا عن النبوة والوحى والقرآن وكل ما يحصل بالجوانب الروحية ، لأنها - فى نظره - جوانب سلبية . والكتاب مليء بالأخطاء والمفاهيم والأفكار اللاحادية التى يجب أن ينأى عن التفكير فيها - فضلا عن اظهارها للناس - كل مسلم مخلص .

صبا (١) " لمحمد شوكت التونى ، و " جهاد النبى (٢) " لمحمد محمود زيتون .

ومن المقالات التى تمثل هذا الاتجاه ، مقالات أحمد حسن الزيات حول السيرة النبوية (٣) .

(١) ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٥٩ ، والكتاب لا يروى أحداث السيرة من أولها الى آخرها ، كما يفعل غالبية الكتاب بل يروى - كما يظهر من عنوان الكتاب - جزءا من أخار حياته صلى الله عليه وسلم ، هذا الجزء هو الحقبة الواقعة بين ميلاده وزواجه بالسيدة خديجة - رضى الله عنها - أى ان الكتاب يتناول ميلاد الرسول وطفولته وصباه وشبابه ورجلته قبل البعثة ، والكتاب يتحدث عن هذه الحقبة وما تخللها من أحداث فى أسلوب قصصى تصويرى جميل ، بما يعتمد عليه من سرد ووصف وتصوير وخيال .

(٢) يقع هذا الكتاب فى جزأين ، وهو يصور مراحل الجهاد التى خاضها الرسول الكريم ، والتى قابلها بصبر وإيمان وشجاعة فى سبيل الدعوة الى دين الاسلام ، من يوم أن كلف بالرسالة والدعوة الى عبادة الله وحده حتى وفاته ، وفى خلال هذه الحياة الحافلة بضروب الكفاح والجهاد ، يصور الكاتب مراحل الجهاد وتنوعها بين الجهاد بالقول والموعظة الحسنة والجهاد بالسيف حتى غدت راية الاسلام خفاة عالية - والجزء الأول تهدأ أحداثه من عام الفيل وميلاد الرسول ، وينتهى بفزوة بدر - والجزء الثانى يهدأ بفزوة أحد ، وينتهى بحجة الوداع . والكاتب يصور هذه المراحل من خلال أسلوب يعتمد على ما يعتمد عليه الأسلوب المسرحى من فصول ومشاهد ومناظر وحوار .

(٣) هى مجموعة من المقالات التى كتبها أحمد حسن الزيات حول السيرة النبوية ، فى مناسبات عدة ، وخاصة مناسبات الهجيرة وذكرى المولد النبوى ، وقد نشر هذه المقالات فى مجلة الرسالة . وفى هذه المقالات يتناول الكاتب بعضا من جوانب السيرة النبوية ، وأسلوب هذه المقالات أدبى يغلب عليه أسلوب الزيات المشهور بالصناعة اللفظية .

### موضوع البحث وسر اختصاره وسجله :

ونظرة على ما ألف من كتب فى إطار الاتجاهين الأخيرين : التاريخى  
الأدبى ، والأدبى - وهذا ما يعنى الباحث الأدبى - ترىنا أن هذه  
الكتب اختلقت فى طرائقها وأساليبها ومناهجها ، كما اختلقت فى البواعث  
عليها والدوافع اليها . فكل كتاب له طريقته الخاصة التى سار عليها

ومن هذه المقالات مقالات بعنوان : " ذكرى المولد " فى  
أول ديسمبر ١٩٣٣ ، و ٢٥ يونيو ١٩٣٤ ، و ١٠ يونيو  
١٩٣٥ - راجع هذه المقالات فى " وحى الرسالة " المجلد  
الأول - الطبعة الثامنة ، صفحات : ٣٠ - ٣٢ ، ١٣٣-١٣٦  
٢٣٣ - ٢٣٦ .

ومنها مقالات بعنوان " العلم الهجرى " فى ٢٣ إبريل ١٩٣٤ ،  
١٥ إبريل ١٩٣٥ ، و ٥ إبريل ١٩٣٧ ، ٣١ مارس ١٩٣٨ - راجع  
هذه المقالات فى " وحى الرسالة " المجلد الأول ، صفحات :  
١١٢ - ١١٥ ، و ٢١٠ - ٢١٣ ، ٣٦٥ - ٣٦٨ ، ٤٢٥ -  
٤٢٧ ، ومنها مقالة بعنوان " محمد الزعيم " أنشأها فى ٤ مارس  
١٩٤٠ - راجع هذه المقالة فى " وحى الرسالة " المجلد الثانى :  
الطبعة السادسة - صفحات : ١٦٢ - ١٧٠ .

ومنها مقالة بعنوان " يومان من أيام الرسول " أنشأها فى ٣ مارس  
١٩٤٦ - راجع هذه المقالة فى " وحى الرسالة " المجلد  
الثانى . صفحات : ٢٦٢ - ٢٦٥ .

ومنها مقالة بعنوان " رسالة الرسول " أنشأها فى ٢٦ يناير ١٩٤٨ -  
راجع هذه المقالة فى " وحى الرسالة " . المجلد الثالث - الطبعة  
الخامسة ، صفحات : ١٠٥ - ١٠٩ .

ومنها مقالة بعنوان " كيف أظن محمد حقوق الانسان " أنشأها  
فى أول يناير ١٩٥١ - راجع " وحى الرسالة " المجلد  
الرابع - الطبعة الثانية . صفحات : ٥ - ٨ .

بمالها من خصائص وسمات تنفرد بها عن طريقة كتاب آخر ، ولكل كتاب أيضا أسلوبه المنفرد الذى صيغت من خلاله أحداث السيرة ووقائعها بماله من سمات وصفات ينفرد بها عن أسلوب كتاب آخر ، كما أن لكل كتاب أيضا منهجه الخاص الذى يتسم به بما يعتمد عليه من أسس ومبادئ ، تعكس منهج الكاتب وفكره اللذين يرجعان الى عوامل مختلفة ، قد تكون ثقافته التى تتقف بها ، وقد تكون مبادئه التى آمن بها ، وقد تكون أفكاره التى عاشت فى عقله ووجدانه ، ولكل كتاب كذلك بواحه التى بحثت عليها ، ودوافعه التى دفعت اليه ، وهذه جوانب تستحق الدراسة ، وتستوجب التحليل والنقد .

وعلى الرغم من كثرة ما ألف فى السيرة النبوية ، وما كتب فيها بأسلوب نثرى أدبى أو قريب منه ، لا نكاد نجد أحدا حاول أن يفتح هذه المؤلفات ، وأن يتناولها بالدراسة والتحليل من حيث الجوانب التى أشرنا اليها ، للكشف عن بواحيها ودوافعها ، وطرائقها الكتابية ، وأساليبها التعبيرية ، ومناهجها الفكرية . . مع أن كل جانب من هذه الجوانب صالح لأن يكون موضوعا قويا لدراسة جادة وعيقة فى أدب السيرة النبوية .

ومن هنا وجدت فى هذا اللون من الأدب مكانا شافرا شجعنى على أن اتخذ طريقى الى الكتابة فيه ، حسانى أن أملا جزءا من هذا المكان ، واتجهت النية الى أن يكون موضوع الرسالة هو : " كتابة السيرة النبوية فى أدبنا الحديث " . وأعنى بكتابة السيرة النبوية : طرائق الكتابة ، وأساليب التعبير ، ومناهج التفكير ، ومواضع هذه الكتابة . . وأعنى بأدبنا الحديث : الأدب المصرى الحديث . ومن هنا أيضا أخذت أتفحص ما كتب فى السيرة النبوية فى أدبنا الحديث من مؤلفات ، وأنتقى منها أبرز ما فيها فكرا وأثرا وخصائص وسمات وأسلوبها وطريقة ، وما يمثل أبرز أساليب الكتابة فى السيرة ، وما يعكس الفكر الحديث واتجاهاته فى كتابتها ، وما

يكشف عن البواعث والدوافع وأثرها في كتابة السيرة، حتى أستطيع أن أكشف من خلالها عن ملامح الكتابة في السيرة في أدبنا الحديث، فكان اختياري لهذه الكتب الخمسة ، وهي : " حياة محمد " لمحمد حسين هيكل ، و " على هامش السيرة " لظه حسين ، و " محمد " لتوفيق الحكيم و " عبقريّة محمد " لمها من محمود المقاد ، و " فقه السيرة " لمحمد الفزالي .

#### السرفى اختيار هذه الكتب:

وليس اختياريًا لهذه الكتب من قبل المصادقة والاتفاق، وإنما هو اختيار مقصود ، ذلك أن كل كتاب يمثل طريقة معينة من طرق الكتابة ، وأساليبها خاصة من أساليبها ، أصدق تشيل .

فـ " حياة محمد " يمثل الطريقة العلمية الحديثة التى تعتمد على الشرح والتحليل والتفسير والموازنة والاستنباط - أصدق تشيل .

و " على هامش السيرة " يمثل الطريقة القصصية أصدق تشيل ، بما تعتمد عليه من سرد ووصف وتصوير .

و " محمد " يمثل الطريقة ذات الطابع المسرحى أصدق تشيل ، بما يعتمد عليه من فصول ومناظر ومشاهد وحوار .

و " عبقريّة محمد " يمثل طريقة التحليل النفسى وفلسفة الجوانب النفسية فى الشخصية التى يترجم لها - أصدق تشيل ، بما تعتمد عليه هذه الطريقة من شرح وتحليل، وتفتح وتعمق للصفات والسمات ، وكشف عن بواطنها الأساسية ، ودوافعها الأصلية .



و " فقه السيرة " يمثل طريقة التحليل التاريخي للأحداث والوقائع ،  
والكشف فيها من عبر ودروس وعظات وحكم ، ومحاولة فلسفتها وتحليلها -  
أصدق تمثيل .

وبالإضافة الى هذا السبب الأصيل في اختيار هذه الكتب وترك  
ما عداها ما يشابهها طريقة وأسلوبا - وهو أن هذه الكتب تمثل الطرائق  
والأساليب التي كُتبت بها أصدق تمثيل - بالإضافة الى هذا السبب ،  
نجد هناك أساليباً أخرى دفعت الى اختيارها ، وهي :

١ - أنها أقرب الكتب والمؤلفات الى الطابع الأدبي من غيرها مما  
يشابهها في الطريقة والأسلوب .

٢ - أنها من أشهر ما كتب في السيرة النبوية في عصرنا الحديث  
وأكثرها شيوعاً وديعاً .

٣ - أن هذه الكتب كان لها أثر بارز في الفكر المصري الحديث في  
مجال الكتابة في السيرة النبوية ، بما رسمت من طرائق جديدة  
في كتابتها ، وما حاكت من أساليب في صياغتها ، وما خطت من  
مناهج في معالجتها ، حيث تلت هذه الكتب كتب أخرى ، تسلك  
طرائقها ، وتحاكي أساليبها ، وتترسم مناهجها ، وكانت نتيجة هذا  
كله ثروة هائلة من الكتب والمؤلفات زخرت بها المكتبة المصرية .

٤ - أن معظم هذه الكتب ألف في حقبة هامة من حقبة النهضة المصرية  
فكرياً ووطنياً ، وهي المدة الواقعة ما بين الثلاثينيات والخسينيات ،  
وهي مدة مليحة - بلا شك - بالمواقف الوطنية ، والآراء المذهبية  
والتيارات الفكرية ، التي كان لها أثرها البارز في حياتنا الفكرية  
والأدبية .

### السرف فى تحديد مجال الدراسة وعدم شموله :

والسرف فى عدم شمول هذه الدراسة لكل ما كتب عن السيرة النبوية فى أدبنا العربى الحديث ، وفى اقتصارها على الأدب العربى الحديث ، أنه من الصعب والمسير على باحث - أى باحث - أن يتناول بالدراسة الدراسة ، والتفصيل المفصل ، والنقد المؤصل ، جميع ما كتب فى السيرة النبوية أدبنا العربى الحديث من الجوانب التى أسلفنا الحديث عنها - على اختلاف أعمار الوطن العربى - إذ الإحاطة بدراسة ما كتب من مؤلفات عن السيرة فى الآداب العربية المختلفة ، دراسة واسعة وعميقة - عمل موسوعى يحتاج الى سنين طويلة ، من جماعات متضامنة .. لكثرة جوانبه ، وتشعب موضوعاته ، ونهاين مسائله ، ولهذا قصرنا الدراسة على لون واحد من هذه الآداب ، وهو الأدب العربى .

والسرف فى اختيار الأدب العربى بالذات مجالا للدراسة دون غيره من ألوان الأدب الأخرى ، هو أن مصر والعربيين رأس فى هذا الشأن ، وأن أغلب ما كتب فى السيرة فى أدبنا الحديث كان بأقلام عربية ، وهذا يجعله حاملا لأغلب السمات والخصائص التى امتازت بها كتابة السيرة فى أدبنا الحديث ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الفكر العربى يمثل حجر الأساس فى الفكر العربى ، وهذه وتلك تجعلانه أحق بالدراسة ، وأجدر بالتفصيل .

ومن الأسرار - أيضا - فى عدم شمول هذه الدراسة كل ما كتب فى السيرة النبوية من مؤلفات فى أدبنا العربى الحديث - على اختلاف بواطنها وظواهرها وأساليبها ومناهجها - دراسة تفصيلية تفصيلية - أن تلك الدراسة على هذا النحو من الشمول والتفصيل عمل يحتاج الى بحوث عميقة ، وإطلاقات واسعة ، تتجاوز الفرد أيا كان ، وقد تعجز الجماعة

فضلا عن أن هذه الدراسة الشاملة المفصلة تحتاج الى دراسات متعددة تتناول جوانبها وتلم بأطرافها ، اذ كل أسلوب من هذه الأساليب التى أشرنا اليها - بما يندرج تحته من مؤلفات ودراسات - صالح لأن يكون - وحده - رسالة مستقلة ، فالأسلوب العلمى - بما يندرج تحته - من مؤلفات - صالح لأن يكون موضوعا بعميقه ، جديرا بالدراسة والتطويل ، والأسلوب القصصى - بما يندرج تحته من كتب - صالح - أيضا - لأن يكون رسالة مستقلة ، وكذلك الأسلوب ذو الطابع المسرحى ، ومثله الأسلوب التحليلى الفلسفى النفسى ، وشبهه الأسلوب التحليلى الفلسفى التاريخى كل على حدة بما يندرج تحته من مؤلفات .. صالح لأن يكون رسالة مستقلة ..

ومن أجل ذلك لجأت الى طريقة تجميع معظم أساليب الكتابة فى السيرة النبوية ، ونحوى أبرز سماتها وأشهر خصائصها ، حين حاولت أن أجمع بين هذه الأساليب ، وحين اخترت من كل أسلوب منها مؤلفا يمثل خصائص الأسلوب الذى يندرج تحته هذا المؤلف أصدق تمثيل ، ثم تناولته بالدراسة والتحليل والنقد ، ومن هنا ألفت بين الكم والكيف حين جمعت بين أساليب الكتابة فى السيرة ، فى الوقت الذى حققت فيه الدراسة التحليلية لكل أسلوب من هذه الأساليب من خلال الكتب التى اخترتها مثلا لهذه الأساليب .

#### منهج الباحث وجهده فى هذه الرسالة :

وللكشف عن معالم الكتابة الأدبية فى السيرة النبوية فى أدبياتها الحديثة ، من خلال هذه الكتب الخمسة التى اخترتها ، قمت :-

أولا : بدراسة هذه الكتب وتحليلها دراسة وتحليلا دقيقين ، لكى تتكشف أعمى بواطنها وطرائقها وأساليبها ومناهجها ، وبعد مرحلة الدراسة

والتحليل قمت :

ثانيا : بالملاحظة والاستنتاج ومحاولة كشف المعالم العامة لاتجاهات الكتابة من الجوانب الآتية الذكر ، وهى : البواعث ، والطرائق ، والأساليب ، والمناهج ، التى تدر من خلال هذه الكتب .

ومعد مرحلة الملاحظة والاستنتاج ، قمت :

ثالثا : بالكشف عن هذه الجوانب وتحديد ها ، ومبان سماتها وخصائصها وما يمتاز به كل لون من ألوان الكتابة من رسوم ورسوم وشارات .

ومعد مرحلة الكشف والتحديد لهذه الجوانب ، قمت بنقد هذه الكتب المختارة ، وحاولت تقويمها على ضوء ما قدمت بين يديها من دراسة وتحليل ، وعلى ضوء قواعد النقد الأدبى الممتدة المركبة .

هذا بالإضافة الى أننى عقدت بحثا تمهيديا تناولت فيه - بإيجاز - موضوع كتابة السيرة النبوية قديما ، وكيف نشأ علم السيرة ، والمراحل التى مر بها حتى استقل تماما عن علم الحديث ، كما تناولت دراسة بواعث الكتابة فى السيرة آنذاك ، كما عشت مع مؤلفي السيرة القدامى ، وعرضت لمناهجهم ، وما امتازت به هذه المناهج من سمات وخصائص .

هذه الأسس العامة للمنهج ، اقتضت أن تكون الرسالة جامعة لأبواب خمسة ، ويبحث تمهيدى بمصدر الأبواب الخمسة وخاتمة .

أما البحث التمهيدي ، فقد تناولت فيه : كتابة السيرة النبوية قديما ، متحدا فى هذا الموضوع من نقاط ثلاثة : الأولى : عن تدوين السيرة النبوية ومواقعها .. والثانية : عن كتاب السيرة النبوية القدامى ومناهجهم ، والثالثة : عن نقد أهم كتب السيرة النبوية القديمة وتقويمها ..

وأما الباب الأول : فقد تناولت فيه كتاب " حياة محمد " لهيكل ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب العلمي الحديث ، وقد شمل هذا الباب فصولاً خمسة . وقد تناولت في الفصل الأول منها : بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند هيكل .

وتناولت في الفصل الثاني : طريقة هيكل وسماتها . وتحدثت في الثالث : عن أسلوب هيكل في " حياة محمد " وخصائصه .

وفي الفصل الرابع : تناولت منهج هيكل في " حياة محمد " وأسسـه . أما الفصل الخامس ، فقد خصصته لنقد كتاب " حياة محمد " وتقويمه .

وأما الباب الثاني : فقد تناولت فيه كتاب " على هامش السيرة " لطله حسين ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب القصصى ، وقد اشتمل هذا الباب على ستة فصول : تحدثت في الفصل الأول منها : عن بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند طه حسين ، كما تناولت في الفصل الثانى : الموضوع والفكرة في هذا الكتاب . وفي الفصل الثالث : تحدثت عن أسلوب كتاب " على هامش السيرة " .

وفي الفصل الرابع : كان حديثى يدور حول الألوان القصصية فى " على هامش السيرة " أما الفصل الخامس : فقد تناولت فيه طريقة طه حسين في " على هامش السيرة " وألوانها . . وأما الفصل السادس : فقد تناولت فيه " على هامش السيرة " بالنقد والتقويم .

وأما الباب الثالث : فقد تناولت فيه كتاب " محمد " لتوفيق الحكيم ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب المسرحى ، وقد حوى هذا الباب خمسة فصول . تحدثت في الفصل الأول منها : عن الحكيم والأدب المسرحى . وتناولت في الفصل الثانى : الحكيم ومسرحياته الدينية . كما تناولت في الفصل الثالث : الفكرة والمنهج في كتاب " محمد " وتحدثت في الفصل الرابع :

عن جوانب السيرة في هذا الكتاب . أما الفصل الخامس : فقد تناولت فيه كتاب " محمد " بالنقد والتقييم .

وأما الباب الرابع : فقد تناولت فيه كتاب " عقبة محمد " للمقاد ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب الفلسفي النفسي . وقد شمل هذا الباب فصولاً ستة . الفصل الأول : يتحدث عن بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند المقاد ، وأما الفصل الثاني : فقد تناولت فيه الفكرة والموضوع في " عقبة محمد " وأما الفصل الثالث فقد تناولت فيه : خصائص طريقة المقاد في " عقبة محمد " وسماتها . وقد تناولت في الفصل الرابع : أسلوب المقاد في " عقبة محمد " وخصائصه . وفي الفصل الخامس : تناولت : منهج المقاد في هذا الكتاب وأسلوبه . وأما الفصل السادس ، فقد تناولت فيه " عقبة محمد " بالنقد والتقييم .

وأما الباب الخامس : فقد تناولت فيه كتاب " فقه السيرة " للفرزالي ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب الفلسفي التاريخي ، وقد اشتمل هذا الباب على أربعة فصول . تناولت في الأول منها : بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند الفرزالي ، وفي الفصل الثاني تناولت : طريقة الفرزالي في " فقه السيرة " وخصائصها . وأما الفصل الثالث ، فقد تحدثت فيه عن : أسلوب الفرزالي في " فقه السيرة " وسماته . وأما الفصل الرابع ، فقد خصصته لنقد الكتاب وتقويمه . وأما الخاتمة : فقد شملت موجزاً للرسالة ، وما اشتملت عليه من أبواب وفصول ومباحث ومسائل ، كما اشتملت على ما توصلت إليه من نتائج ، وما انتهت إليه من آراء .

ولقد قابلتني في سبيل إعداد هذه الرسالة صحبات وعقيات قصبت - بحسن الله وتوفيقه - بتذليلها والانتصار عليها ، فحمد أن وفقني الله - لاختيار هذا الموضوع الذي لقي من أستاذي المشرف كل تأييد وترحيب لأنه - من موضوعات حساسية من تلك الموضوعات التي تهتم المسلمين جميعاً في حاضرهم وغدهم ، إذ أنه متصل بشخصية رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان سرور أستاذى عظيما حين يتناول هذا الموضوع ابن من أبناء الأزهر الذين شهبوا فى رحابه الفسيحة، وشربوا من معينه العقيدة الاسلاميـــــة  
نقية صافية ...

أقول : بعد هذا الاختيار الموفق ومعد هذا التأييد المطلق  
لهذا الموضوع قابلتنى صحفيات وعقبات عدة :-

### ١ - المشكلة الأولى: وهى مشكلة تتصل بالموضوع :

حيث ان هذا الموضوع له جلاله وخطره وقدره وعظمته لأنه يعنى  
بشخصية جليلة وخطيرة، وهى شخصية الرسول الكريم - صلوات  
الله وسلامه عليه - ومن أجل ذلك كثرت الكتابات عنها ، وتوفرت  
على الحديث فيها أقلام وأقلام، سواء من الشرق أو من الغرب،  
وتباينت فى هذه الشخصية الآراء، واختلفت فيها الأنهام ، وتناولها  
هؤلاء وأولئك حسب عقائدهم وأفكارهم ومذاهبهم ، ومن هنا  
كثرت فيها الاتجاهات، وتعددت اليها الطرائق ، واختلفت معها  
السهل ، وكان على باحث مثلى يتناول الحديث عن هذه السيرة  
النهوية فى الأدب المصرى الحديث أن يقرأ ما وسعه الجهد مما  
تناول هذا التاريخ المشرق من كتب فى الأدب المصرى  
كى يقف على وسائل الفكر المعنى فى تناوله للسيرة النهوية، وهذا  
مجهود ضخم لكثرة ما كتب فيها حديثا .. وكان عليه - أيضا -  
أن يقرأ ما كتب عنها قديما حتى يقف على اتجاهات <sup>هذه</sup> الكتابات  
ومناهجها، ويستطيع أن يكشف عن الفرق بين الكاتبين : القديمة  
والحديثة ، وبالتالى يكشف عما طرأ على الكتابة فى السيرة النهوية  
- على أيدي الكتاب المحدثين - من تحوُّل وتغيير.

هذا بالإضافة الى أن الموضوع - نفسه - يفرض على الباحث نوعا  
من الحيطة والحذر فى تدوين النصوص، وإيراد الشواهد ، والتثبت

من الآراء ، وتحصيل المرويات ، والتوثيق في الحكم على الآراء المتضاربة ،  
لأهميته وجلاله وعظيم قدره . .

ولأهمية الموضوع وقداسته وخطورة الحديث عنه ، وكثرة ما ألف فيه  
قديما وحديثا ، واختلاف آراء الكتاب حول هذه الشخصية الغدّة - أنفقت  
من عمرى العلمى ما يقرب من ثلاث سنوات ، كت فيها أقرأ وأصنف وأتأمل  
ما كتب هنا وهناك ، كي تتكشف أمامى - من خلال القراءة والتصفح والتأمل -  
ملاحج الكتابة واتجاهاتها ومناهجها ومواضعها ، وكان على أن أقف على الرسم  
الأولى للكتابة فى السيرة ، وكيف بدأ تدوينها ، والمراحل التى مرت بها  
مواضع الكتابة فيها ، وكان على أن أقف - أيضا - على مناهجها القديمة  
وما امتازت به هذه المناهج من سمات وشارات ، وأن أتعرف على مؤلفيها  
ومصنفيها فى بدء تاريخها المجيد ، وأن أتحسس ما لكل منهم من مزية  
وفضل . . وكان على أيضا أن أقرأ توجهات هذه السيرة التى سالت على  
أسلات الأقلام بأنامل قادة الفكر العربى الحديث ، حتى أتعرف على  
اتجاهات الكتابة الحديثة ومعالمها وسماتها ، معطيا للأدب العربى  
أهمية خاصة فى القراءة ، لأنه موضوع دراستى ومجال بحثى .

## ٢ - المشكلة الثانية: وهي فصل الكتب المختارة لتكون مجال البحث والدراسة :

وإذا كان جلال الموضوع وخطره يشلان مشكلة أسلفنا الحديث  
عنها آنفا ، فإن اختيار الكتب التى تمثل اتجاهات الكتابة  
الأدبية فى السيرة النبوية حديثا ، وتكشف عن معالمها - تخلق  
مشكلة أخرى ، ذلك لأن الكتابة فى السيرة النبوية فى أدبنا  
الحديث قد تنوعت وتلونت فى طرائقها وأساليبها ومناهجها ، كما  
تنوعت وتلونت فى الهوامش عليها والمصاحف لها . . ودراسة



- في -

تناول تلك السيرة من كتب ومؤلفات شىء فوق الطاقة ، لذا كان لا بد من الانتقاء والاختيار ، ومن هنا كان من اللازم أن تكون هذه الكتب المختارة مثلة لألوان الطرائق والأساليب والمناهج والبواعث ، وهذا يعنى أن تسبق عملية الانتقاء والاختيار عملية القراءة والدراسة والتحليل ، حتى يختار ما كان أكثر تشبهاً لهذه الطريقة أو تلك ، ولهذا الأسلوب أو ذاك . وفى هذه وتلك من الحاجة الى الجهد ما هو واضح معروف .

### ٣ - المشكلة الثالثة: وهى تتصل بالدراسة والملاحظة والتحليل :

بعد مرحلة الانتقاء والاختيار للكتب التى ستكون موضوع الدراسة ، كان على أن أقوم بالتأمل الدقيق والتفحص العميق ، كي استخلص من خلالهما ملامح الكتابة فى السيرة واتجاهاتها ، من حيث الطرائق والأساليب والمناهج والبواعث ، وقد أنفقت فى هذه الدراسة وما تظللها من قرابة سنتين ، استطعت خلالهما أن أكشف عن سمات الكتابة فى السيرة وخصائصها من الجوانب السالفة الذكر ، وفى ثنايا هذه الكتب المختارة ، وقد خصصت لكل كتاب باباً مستقلاً به ، درست فيه ما يتعلق بهذا الكتاب من بواعث وطرق وأساليب ومناهج ، ومن خلال الكشف عن هذه الجوانب فى كل كتاب تجمع لدى مجموعة من عوامل التشجيع المختلفة والدوافع المتباينة التى كانت وراء الكتابة فى السيرة النبوية ، وتعرفت الى عدة طرائق لأنماط الكتابة فيها ، وأساليب الصياغة التصويرية فيها ، ووسائل العلاج لها ، بالإضافة الى أننى أهتمت هذه الجوانب فى كل باب فصلاً خاصاً يتعلق بنقد الكتاب ، وبيننا قهقهة ومزلة بين الكتب الأدبية ، ناقداً طريقته وأسلوبه ومنهجه ، ومورداً آراء النقاد وأقوالهم التى وردت عنه ، ولعلنى به هذه الدراسة وذلك التحليل أكون قد كشفت الستار عن هوى كتب السيرة النبوية واتجاهاتها من حيث بواعثها وطرائقها وأساليبها ومناهجها .

ولا شك أن الكشف عن هذه الجوانب يتطلب مجهوداً ضخماً وعملاً

متصلا ، فالكشف عن البواعث والدوافع يلزم الباحث بأن يتعرف على نفسية الكاتب والظروف المحيطة به ، وثقافته ومذهبه الفكري ، حتى يستطيع أن يستشف من خلال ذلك البواعث التي حركته والدوافع التي حفزته الى الكتابة في السيرة النبوية ووجهته الى طريقة السير التي بها سار .

والكشف عن الطرائق الكتابية والأساليب التعبيرية لكتابة السيرة النبوية يلزم الباحث أن يدرس الكتاب الذي يتناوله ، وأن يفهم الفكر فيه والنظر اليه ، بل وأن يتعمق ويدقق ويبحث ويحقق ، حتى يستطيع أن يكشف الطريقة التي ينتهجها ، والأسلوب التعبيري الذي يملكه ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل ان الباحث ليلتزم بأن يتعمق في دراسة تلك الطرائق ويتفحص تلك الأساليب ، حتى يكشف عن خصائصها وسماتها وما تمتاز به كل طريقة من سمات وصفات ، وما ينفرد به كل أسلوب من خصائص وألوان وأن يحدد هذه وتلك في اطار بارز محدد ، يبرز جهد الكاتب وأثره ومنزلته لا سيما اذا كان صاحب طريقة وأسلوب معين ، يؤثر فيمن بعده من الكتاب الذين اتبعوه وناصروه ، كما أن هذا الكشف عن تلك الطرائق بسماتها ، وعن هذه الأساليب بخصائصها ، يقصر الباحث على أن يورد من الأمثلة ما يكشف عنها ويدلل عليها ، وهذا كله يتطلب من الباحث تأنيبا فسي الدراسة ، وتركيزا في التحليل ، وعمق النظر في الكشف عما هناك من أسرار ، ودقة في الحكم على هذا الكتاب أو ذاك ، وتأبيدا لما يراه ويذهب اليه مدعوما بالحجج البهينة ، والبراهين الساطعة .

والكشف عن مناهج الكتابة للسيرة النبوية يلزم الباحث أن يتمسرف على الكاتب نفسه ، ويتابع أطوار حياته وثقافته ومذهبه الفكري ، وما يؤمن به ، لكي يستطيع أن يزيح الستار عن منهجه الذي التزمه في كتابة السيرة ، كما يوجب على الباحث أن يكشف عن السر في سلوك الكاتب لهذا المنهج أو ذاك ، وأن يفسر بهجته عما في هذه المناهج من آيات الحسن أو سمات

## الجمال والجلال .

كما أن نقد الكتاب يتطلب من الباحث أن يكون ملما بالقواعد النقدية للأساليب الأدبية ، وأن يكون لديه رصيد من الخبرة النقدية والسذوق الأدبي ، حتى يستطيع أن يحكم على الأشياء حكما دقيقا ، محاولا أن يطبق ما عرفه على ما أمامه من أساليب ، مستخرجا ما في هذه الأساليب من حسن وقبح ومحاسن مساوي . على أن جانب الدراسة والتحليل في الكتابة الحديثة لم يأت على حساب الكتابة القديمة ، فقد قمت - أيضا - بالقاء الضوء على كتابة السيرة قديما ، كاشفا في إيجاز - عن ملامحها ومواضعها ، وكتابتها ومناهجهم ، وأثر كل واحد منهم في هذا المجال ، وما له من مزية وفضل ، محاولا في عرض سريع تقوم هذه الكتب التي تناولت السيرة قديما وأثرها وقيمتها ..

### ٤ - المشكلة الرابعة: وهي تحصل بمصادر البحث ومراجعته :

ما لا شك فيه أن خطر هذا الموضوع وجلال قدره قد وسع من دائرة الكتب التي تناولته وتوفرت على دراسته ، وهذه الكثرة الكثيرة من المؤلفات التي تناولت السيرة النبوية ، قد ألزمت الباحث أن يتطالع عليها وأن يتفحصها ويتأملها ، وأن يرجع إلى القديم منها والحديث فضلا عن المصادر موضع الدراسة ومجال التحليل ، وأن يحاول أن يتعرف على البصيرة منها والقريب ، ومن هنا كنت لا أدخر جهدا حين أعلم أن هناك - في مكان ما - كتابا يتناول حديثا - ولو طبرا - عن السيرة النبوية ، كما أنني لم أكن أدخر وسعا ولا مالا في الحصول على هذا المرجع أو ذاك ، ولقد رجعت فسي هذه الرسالة إلى نحو مائة مصدر ومرجع ، تنوعت إلى ألوان عدة :

فهناك مصادر اعتمدت عليها في الكشف عن سمات الكتابة في السيرة

النبوية وجعلتها موضع بحثى ودراستى ، وهناك مراجع فى السيرة رجعت اليها فى الكشف عن سمات الكتابة وخصائصها - فى ايجاز - من الكتب التى لم أتمرض لها بالدراسة والتحليل ، أو اعتمدت عليها فى الاستشهاد منها .

وهناك مراجع تاريخية رجعت اليها لأنها تتناول حديثا عن كاتب فى السيرة ، وترسم منهجه ، أو لأن فيها من النصوص والشواهد ما أريد الاستشهاد به .

وهناك مراجع أدبية ونقدية اعتمدت عليها فى تحليل ونقد الكتب التى تناولتها بالدراسة والتحليل ، بالإضافة الى مراجع أخرى فى التراجم والأعلام والمعارف العامة ، غير ما تصفحناه من الصحف والمجلات .

\*\*\*

ولقد كان من حسن الطالع وتمام التوفيق أن تكون دراستى وكتابتى فى هذا البحث إبان بعثتى الى الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة حيث مشى الرسول الكريم ، وحيث الأرض التى انطلقت منها الدعوة الاسلامية - بعد رسوخها - الى بقاع العالم ، تلك الأرض التى كانت مهدية لاجل الرسول الكريم ومرتج كفاحه ومشوى جسده الطاهر .

ولقد كان فى جوارى لمسجد الرسول العظيم ، وقربى من قبره الطاهر ما يدفعنى الى الكتابة ، ويحضى على المزيد من البحث والدراسة ، ولقد كنت أتمثل النبى الكريم أمامى حينئذ ، وأتخيل الرسول العظيم بين يدي وهو يمشى ويجول على شرى هذه الأرض الطيبة ، فأرجع الى كتبى وظمسى وكلى حمائى وإيمانى بما أدرس وأكتب ، وكان هذا كله يزيدنى نشاطا الى نشاط وقوة الى قوة .

\*\*\*

ومعد فهذه كلمة عن موضوع البحث وأهميته وسراختباره ، وعن منهج دراستي ، وعلى فيه وجهدي معه ، فان كان هذا البحث قد قارب الكمال فذلك فضل من الله ، وان كان قد عراه النقص فحسبي أنني لم أدخر وسعا في اخراجه على وجه يحقق له الكمال ، وهذا على أن هذا الموضوع نفسه فيه متسع لدراسات ودراسات أرجو أن ينشط لها الباحثون والدارسون ، حتى يتحقق له ما نصبو اليه من وصول الى أعنان السماء .

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة الا أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير الى فضيلة أستاذي الجليل الدكتور / عبدالسلام أبو النجاس سرحان ، الذي كان لي شرف اشرافه على هذه الرسالة - على ما أسداه اليّ من نصيح وارشاد ، وتوجيه وتعميد ، وعلى ما كان له - حين مراجعته هذه الرسالة - من فضل التصويب والتشذيب والتوضيح والتتقيق ، الذي ظهر واضحا فيها ، وعلى ما أبداه من ملاحظات قيمة ، وآراء مفيدة ، وأفكار سديدة ، حتى غدت هذه الرسالة على هذا النحو الذي هي عليه .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن يعم النفع به ، وأن يلهمنا الرشد والتوفيق والهدى فيها نقوم به من أعمال ، وسأ توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

محمد عارف محمود حسين  
المدرس المساعد بكلية الشريعة الإسلامية  
جامعة الأزهر بالقاهرة

:: بحث تمهيدى ::

" كتابة السيرة النبوية قديماً "

- أ - تدوين السيرة النبوية ومواعيده :
- ١ - تعريف بالسيرة النبوية
- ٢ - السيرة والحديث
- ٣ - بداية تدوين الحديث
- ٤ - حركة التصنيف والتأليف
- ٥ - بواعث الكتابة فى السيرة النبوية \*
- ب - كتاب السيرة القدامى ومناهجهم :
- ١ - الطبقة الأولى :
- أ - أبان بن عثمان - ب - عروة بن الزبير - ج - شرحبيل  
ابن سعد - د - وهب بن منبه \*
- ٢ - الطبقة الثانية :
- أ - عاصم بن عمر بن قتادة - ب - محمد بن شهاب الزهري  
- ج - عبد الله بن أبي بكر بن حزم \*
- ٣ - الطبقة الثالثة :
- أ - موسى بن هبة - ب - معمر بن راشد - ج - أبو معشر  
المدنى - د - ابن اسحاق - هـ - الواقدي \*
- ٤ - السيرة على يد ابن هشام وابن سعد \*
- ٥ - السيرة على يد الطبرى \*
- ٦ - السيرة بعد الطبرى \*
- ج - نقد وتقويم \*

## أ - تدوين السيرة النبوية ومواجهته

### ١ - تعريف بالسيرة النبوية :

إذا أطلقت كلمة " السيرة النبوية " فإنها تعنى تاريخ حياة  
النبي صلى الله عليه وسلم منذ ولادته حتى لحوقه بالرفيق الأعلى ، وما  
تخلل هذه الحياة من نشأة وشباب وحياة قبل البعث ومعه ، وما اشتملت  
عليه حياته بعد البعث من دعوة في سبيل الله الى الاسلام ، وما لاقاه  
من اعراض عنها وايقاد ، وكبد وخس ، في مكة ، وهجرة الى المدينة  
وحياة فيها جديدة ، وما أعقب هذه الحياة الجديدة من جهاد  
وغزوات وحروب في سبيل دعم عقيدة الاسلام ونشرها ، والعمل على  
اقامة الدولة الاسلامية واعلاء صرحها : دينها واداريا واجتماعيا .

كما أن كلمة " السيرة النبوية " تشمل ما يقدم بين يدي أخبار النبي  
صلى الله عليه وسلم من أخبار الجاهلية كأخبار جرحهم ودفن زمزم وحديث  
قصي بن كلاب وجمعه قريشا ، ونحو ذلك مما هو شأن لبعض أخبار آباء  
النبي صلى الله عليه وسلم وأحوالهم وأحوال من عاشهم .

### ٢ - السيرة والحديث :

والسيرة النبوية في مبدأ أمرها كانت مجموعة من الأحاديث التي  
تتعلق بحياة النبي في مكة وهجرته وحياته في المدينة ، وقد ظلت هذه  
الأحاديث - كما ظلت أحاديث الرسول كلها - رواية يتناقلها الناس على السنتهم بعدما  
حفظتها ذاكراتهم ووعتها قلوبهم ، دون كتابة أو تدوين ، ولم يحدث  
ذلك منهم اتفاقا ، ولا صرفتهم عن الكتابة والتدوين فيه شواغل ، ولكن  
كان أمرا مقصودا عن تفكير وروية ، ذلك أنهم كانوا يخافون أن يخطئ  
بعض ما يكتبونه بالقرآن الكريم ، فيدخل في كتاب الله تعالى ما ليس

منه ، أو يلتبس بعض القرآن ببعض ما كتبه من غيره ، فيسقط من الكتاب الكريم بعض ما هو منه ، لذا رأوا ألا يكتبوا الا القرآن .

### ٣ - بداية تدوين الحديث :

ولقد ظل الأمر على هذا الحال حتى انقضى العصر الأول من عصور الاسلام ، أى: عصر الخلفاء الراشدين ، وانقضى أكثر عصر بنى أمية ، حتى جاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز ففكر فى الأمر ، ورأى كثيرا من العلماء الذين رويوا حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخباره ووعوا علوم المسلمين يموتون دون أن يخلفوا شيئا من مروياتهم ، وخشى ان دام الحال على ذلك أن تضيع علوم المسلمين وتذهب أخبار رسولهم اذا بعد العهد وطال الزمن ، لا سيما أن رقعة الدولة الاسلامية قد اتسعت وكثرت طبقات الرواة، وتفشى الكذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قبل الزنادقة وأصحاب الأهواء ، وَقَلَّ الاعتماد على قوة الذاكرة وملكة الحفظ .

حينئذ كتب عمر بن عبدالعزيز الى أبى بكر بن حزم أحد شيوخه المحدثين وكبارهم ونائب عمر بن عبدالعزيز فى الامرة والقضاء على المدينة - كتب اليه يقول : " انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثبه فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل الا حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وَلْتَقَسُّوا العلم ، وَلْتَجْلِسُوا حتى يعلم من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا " (١)

وكان أمر عمر بن عبدالعزيز أبا بكر بن حزم بتدوين أحاديث الرسول حينذاك أمرا معقولا ومقبولا ، انه قد زال السبب الذى من أجله امتنع

(١) سيرة ابن هشام - المقدمة ص : ٧ تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحسيد . مطبعة المدنى .



الصحابة ومن بعدهم عن الكتابة والتدوين ، وهو الخوف من اختلاط ما ليس من القرآن به ، وقد أصبح القرآن الكريم محفوظا في الصدور ، مكتوبا في المصاحف ، ثابتا مقروءا في الأمصار ، وقد قام أبو بكر بن حزم بتدوين ما كان يحفظه من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في كتاب بعث به الى الأمصار ، وكما أمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر بن حزم بذلك أمر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أن يدون حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففعل في ذلك كتابا .

ولا يعني هذا أن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسدون منها شيء قبل أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينها ، بل سبق الى تدوينها وكتابتها بعض الصحابة ، أمثال عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال : " ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب " . (١)

وهذا يدل على أن عبد الله بن عمرو بن العاص ، كان من أسبق الصحابة الى كتابة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويدل أيضا على أنه كان يكتب في الأوقات التي امتنع فيها الصحابة عن الكتابة والتدوين . ولكن مثل هذه الكتابات لم تكن تُكتب من أجل اذاعتها وإشاعتها ، كما أنها لم تكن أمرا دائما شائعا بل كانت شيئا خاصا ، لأن من كتب من هؤلاء الصحابة كان يكتب لنفسه ، وهذا يعني أن هذه الكتابات كانت تمثل حالات فردية ، لم تأخذ بعد طابع الذبوع والشبوع .

#### ٤ - حركة التصنيف والتأليف :

##### أ - مرحلة الجمع العام :

يُؤمِّدُ أَمْرُ عمر بن عبدالمعز أبا بكر بن حزم بتدوين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَمْرُهُ محمد بن مسلم بن شهاب الزهري كذلك - بدايةً لحركة تدوين وتصنيف لأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - على نحو رسمي .

وإذا ما نظرنا إلى الكتابات التي تمثل تلك الهداية ، فإننا نجد أنها لم تتقيد بنهج خاص في التنسيق والترتيب . . . فكان المالم يجمع ما يرويه من الحديث في كتاب غير متقيد بتمييز الموضوعات ، وضم ما يندرج من مروياته تحت مسألة واحدة ، أو مسائل متشابهة في باب واحد ، وربما صنف أحدهم كتاباً من الحديث في باب واحد من أبواب التشريع ، وكانت أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى التحاقه بالرفيق الأعلى بعض ما عني المحدثون بروايته ، كما كانت بعض ما عني العلماء بتدوينه على أنه جزء من الحديث .<sup>(١)</sup>

##### ب - مرحلة الترتيب والتنسيق :

ثم دخلت حركة تدوين الأحاديث وتصنيفها في طور جديد ، حين أخذ المحدثون يرتبون الأحاديث وينسقونها ، فكانوا يضمون الأحاديث التي يستدل بها على شيء واحد ، أو على مسائل يجمعها شيء واحد تحت باب واحد ، ومن هنا كان هناك باب للوضوء ، وباب للصلاة ، وباب للزكاة ، وباب للهجرة ، وكان من بين هذه الأبواب الجامعة باب لأخبار النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سيرة ابن هشام - المقدمة ص ٨ . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة المدني .

عليه وسلم ، يذكرون فيه ما يروونه عن ولادته ورضاعه وما بعدهما الى بعثته ، ثم يفصلون أحواله بعد البعثة في مكة .. ثم يَفَصِّلُونَ كذلك أخباره في غزواته وجهاده .. الى غير ذلك ، وقد خصوا ذلك الباب باسم " المفازي والسير " (١)

وتعد هذه الأحاديث التي تتعلق بحياة النبي وأخباره أساسا لما ألف بعد من كتب السَّيَرِ والمَفَازِ .

ومن هنا يظهر أن السيرة النبوية كانت أول أمرها مجموعة من الأحاديث المنهقة بين تلك الأحاديث التي جمعت ودونت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، دون ترتيب أو تنسيق ، ثم أخذت السيرة نوعا من الاستقلال حين أُفِرَّ دَلِهَا بِأَبْخَاصٍ بِاسْمِ " المفازي والسير " وذلك حين أخذت حركة تدوين الحديث تدخل في مرحلة الترتيب والتنسيق والتهيؤ .

#### ح - مرحلة استقلال علم السيرة عن علم الحديث :

ثم دخلت السيرة النبوية بعد ذلك في مرحلة جديدة ، تتسم بظاهج الاستقلال التام ، حين أُفِرَّتْ لَهَا كُتُبٌ ، وتصنيفات خاصة ، حملت اسم " المفازي والسير " . ولكن على الرغم من ذلك ظل المَحَدِّثُونَ يدخلونها ضمن أبوابهم ففي البخاري - مثلا - كتاب " المفازي " وفي مسلم كتاب " الجهاد والسير " وفي مسند أحمد كتاب " المفازي " الى غير ذلك من الأبواب المتصلة بتاريخ النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سيرة ابن هشام - المقدمة ص ٨ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة المدني .

٥ - بواعث الكتابة في السيرة النبوية :

أ : السيرة جزء من الحديث

ومن خلال ما تقدم من قول عن بدء تدوين أحاديث الرسول عامة ، والسيرة خاصة ، نستطيع أن نقول : ان الباعث السهم والدافع الأكسبر والسبب الأول الذي أدى الى عناية المسلمين الأوائل واهتمامهم بتدوين السيرة النبوية التي تشكل أخبار حياة الرسول ومغازيه - هو أن السيرة - بما فيها من أخبار عن الرسول وحياته ومغازيه - جزء من الحديث وشرع له ، ولذا جاء الاهتمام بها نوعاً من اهتمامهم بالحديث .

ب - اشتغال السيرة على الكثير من الجوانب التشريعية :

ونستطيع أن نقول - محللين سر اهتمام المسلمين بتدوين مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم - ان اهتمام المسلمين بتدوين مغازي الرسول وحرصه ، يشبه - على وجه التقريب - اهتمام العرب الجاهليين بتاريخهم وما كان فيه من أيام وحروب . ولعل المسلمين قد ورثوا هذا الاهتمام عن هؤلاء العرب . . يضاف الى ذلك أن المسلمين كانوا في حاجة الى تدوين هذا الجانب الهام من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو جانب الحروب والغزوات ، وما كان يفعله الرسول وما يتركه ، وما يأمر به أو ينهى عنه لاستكمال مصادر التشريع ووسائل التقنين ، ولكي يكون لديهم سند من سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذا المجال ، يتخذونه دليلاً هادياً في فتوحاتهم الاسلامية .

والى هذين الباعثين يرجع بعض الباحثين سر اهتمام المسلمين الأولين بتدوين سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو يرى أن المسلمين كتبوا سيرته تحت مؤثرات أخرى ، تفرد منها بالتمييز عاملين كبيرين :

الأول : أن سيرة الرسول جزء من السنة ، فهي والحديث مصدران هامان من مصادر التشريع ، ومنهما تستفاد الأحكام ، ولذلك كان لا (١) بد من جلاستها في دقة بالغة لكي تكون أعماله - إلى جانب أقواله - مشرعا واضحا لرجال الشريعة وأهل الافتاء والقضاء .

والثاني : أن المسلمين كانوا قد ورثوا ( إلى حد ما ) نظرة الجاهلية إلى التاريخ ، وهي نظرة قائمة على " الأيام " وطبيعة الحروب وشؤون القتال ، ولذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء بمغازي الرسول ، وتصوير ذلك الدور الحربي الذي أدى إلى انتصار المسلمين في النهاية .

ولم يكن هذا محض تقليد لنظرة الجاهليين ، بل كان في مستلزمات الجماعة الإسلامية ما يؤيده ويدعو إليه ، ذلك لأن الفتوحات الإسلامية التي انبثقت عن انتصار الإسلام في الجزيرة ، كانت في حاجة إلى سند من سنة الرسول في هذا المجال : كيف يعامل الأسرى والنساء والأطفال ، ويقسم الفى ، وهل يروى عن الرسول ما يوضح فنون الحصار ، وهـل تبيح الأعمال الحربية قطع الشجر وتخريب الزروع ومنع المون ، ليلجأ العدو إلى التسليم ، وماذا فعل الرسول بالاقطاعات ؟ ، وطى أى شىء ممن الأحكام تحتوى كتبه التي كتبها لوفود العرب جماعات وأفرادا ؟ .

كان المظهر الأكبر للإسلام هو الجهاد ، فلا غرابة - إذن - إذا رأينا في السيرة على يدى موسى بن عتبة ، وابن شهاب الزهري وغيرهما ، ثم على يد ابن اسحاق وريث كتاب المغازي الأولين - تسجيلا دقيقا للممارك الحربية ، وما دار فيها من فنون (٢)

---

(١) في الأصل : " ولذلك فلا بد " وهو خطأ شائع صححه ما فعلناه .

(٢) فن السيرة ص ١٣ ، ١٤٠ بتصرف ومضى التصحيح .

### ح - رغبة المسلمين في تدوين سيرة الرسول الكريم :

ويمكن أن يضاف الى هذين العاملين عامل آخر : وهو ما يشمر به المسلمون نحو نبينهم من حب وتقدير ، ولعلمهم رأوا في تدوين سيرته وتخليد آثاره ما يشبع ميولهم الدينية التي ترى في الرسول - بلا ريب - قدوة المسلمين ، وهدى المهتدين <sup>(١)</sup> كما رأوا فيه ما يحقق لهم نوعاً من الفخر بنبينهم ، كما فخر أهل الكتاب - يهودا ونصارى - بموسى وعيسى ...

وعن هذا العامل ، وعن العاملين السابقين له يقول د . حسين نصار : " كان الحديث من عوامل ظهور الكتابة التاريخية ، إذ أن المسلمين بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن ويستنبطوا منها أحكام الدين ، وكان من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة النبي والصحابه فُجِيعَتْ فيما جمع وكانت أساس كتب السيرة والمغازي فيما بعد " <sup>(٢)</sup>.

ويقول في موضع آخر : " ظهرت كتب السير والمغازي التي تتناول حياة الرسول بالدرس ، وقد رأينا أن من عوامل ظهور هذه الدراسة جمع الأحاديث ، سواء ما تناول الناحية الفقهية ، وما تناول الناحية التاريخية من حياته بدافع من الرغبة الدينية ، وكذلك كان للمسلمين ينظرون الى النبي نظرهم الى بطل من الأبطال ، وتجدد هم وهماهم لهداية <sup>(٣)</sup> الأم ، فعملوا بتاريخه ، كما عملوا بتاريخ أبطالهم في الجاهلية ، ولا ننسى مع ذلك أنهم أرادوا أن يضعوا الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) راجع تهذيب السيرة ج ١ ص ٥٥ .

(٢) نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ص ١٢٥ .

(٣) في الأصل : " لفتح الأم " ، وهو تعبير غير دقيق ، وفيه رائحة استشراقية مع الأسف الشديد .

بلقاء موسى وهارون اللذين فخر بهما أهل الكتاب في القرون غلبا القسوس  
وأحاطوهما بالقصص الصحيحة وغير الصحيحة . كل ذلك وغيره اجتمعت  
فأشهر كتب العقازي والسير . (١)

هذه هي البواعث التي كانت وراء كتابة السيرة النبوية فليلاحظ  
والتي يمكن تلخيصها في أمور ثلاث :

الأمر الأول : أن السيرة جزء من الحديث ، فكان الاهتمام بهما  
نوعا من الاهتمام بالحديث .

الأمر الثاني : أن الجزء الأكبر من السيرة تمثله الحروب والفروقات  
التي خاضها الرسول وصحبه في سبيل دعم العقيدة الإسلامية ، وقد حرص  
المسلمون على تدوين هذا الكتاب لأنه يمد دستورهم لهم في هذه الناحية  
يتأسسون به في فتوحاتهم الإسلامية

الأمر الثالث : جاء تدوين السيرة نوعا من الحب والولاء للذين  
يشعر بهما المسلمون نحو نبيهم ، ولعلمهم وأوا في تدوين سيرته صلى الله عليه  
عليه وسلم ما يشبع ما في قلوبهم من ميل دينية وما يعبر عما في قلوبهم  
من حب وتقدير للرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا أراهم لا أوافق د \* حسين نزار فيما ذهب إليه من  
أن العرب المسلمين كانوا ينظرون إلى النبي نظرتهم إلى بطل من الأبطال ،  
وجاءت عنايتهم بتاريخه كعناية الجاهليين بتاريخ أبطالهم . . . - فالعرب  
المسلمون حين دونوا سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يسود  
بخلدهم هذا المعنى الذي يعتمد على تقديم الأشخاص تقديمًا ماديًا ،

بل كان يدفعهم الى تدوين سيرته أنه رسول موحى اليه ، ويرون في هذا التدوين تدوينا للوحي نفسه ، لأن الرسول لا ينطق عن الهوى " إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى " (١) فليس التدوين - اذن - راجعا الى شخص محدد بقدر ما هو راجع الى محمد النبي الذي تمثلت فيه كل المعاني الروحية التي تعد في حقيقة أمرها - تشيلا وتجسيدا وترجمة لما جاء به الوحي من السماء . ومن هنا كانت عنايتهم بالسيرة النبوية بعد عنايتهم بالقرآن وجمعه وتوزيعه على الأمصار .

### ب - كتاب السيرة القدامى ومناهجهم

#### ١ - الطبقة الأولى

##### أ - أبان بن عثمان بن عفان :

يعد المؤرخون أبان بن عثمان - المتوفى سنة ١٠٥هـ - أول من اشتهر بالتأليف في المغازي ، وقد كان واليا على المدينة لعبد الملك ابن مروان سبع سنين ، كما كان معروفا بالحديث والفقه . يقول ابن سعد في المفيرة بن عبد الرحمن : " وكان ثقة قليل الحديث ، الا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذها من أبان بن عثمان فكان كثيرا ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها " (٢) .

ويبدو أن المغازي التي رواها المفيرة عن أبان ليست كتابا بالمعنى الدقيق ، بل كانت - فيما يظهر - صحفا فيها أحاديث عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يدل على ذلك قول ابن سعد السابق

(١) الآية ٤ من سورة " النجم " .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥ : ٢١٠ .



فى المنيورة بن عبدالرحمن ، ويظهر - أيضا - أن هذه الصحف الستى  
تحتوى أخبارا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد ضاعت ، وعدا عليها  
الزمن ، ولم يأخذ عنها أحد من كتاب السير قائلين ، فلم يأخذ عنها  
ابن اسحاق ولا ابن سعد ولا ابن هشام .

ومن هنا لا نجد لأبان ذكرا فى كتب التاريخ ، ولا نجد أحدا  
من كتاب التاريخ والسير روى عنه خبرا ، سوى ما ذكره ابن قتيبة فى كتابه  
" الشعر والشعراء " (١) عن أبان ، من أنه هو راوى الخبر القائل :  
" إن مملوكة اشترى البردة التى أعطاها النبى لكعب بن زهير مكافأة له  
عن قصيدته " بابت سعاد " وأن الخلفاء كانوا يلبسونها فى الأعياد .

#### ب - عروة بن الزبير بن العوام :

هو عروة بن الزبير بن العوام ، وأمه أسماء بنت أبى بكر ، وخالته  
عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ولد عروة سنة ٢٣ هـ ، وتوفى  
سنة ٩٤ هـ . ونشأ بالمدينة وأخذ الحديث والأخبار عن كثير من الصحابة  
مثل زيد بن ثابت وأبى هريرة وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس ، كما  
أن نسبه مكث من أن يروى الكثير من الأحاديث والأخبار عن النبى صلى  
الله عليه وسلم وحياة صدر الاسلام ، فروى عن أبيه الزبير وأمه أسماء ،  
كما روى الكثير عن خالته عائشة .

وقد عد عروة أحد الفقهاء السبعة الذين انتهى اليهم العلم  
بالمدينة ، وروى عنه ابنه هشام ، وابن شهاب الزهري ، ووصل اليه كثير

---

(١) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٩١ .

من روايات عروة وأحاديثه في كتب ابن اسحاق والواقدي والطبري ، بل  
ان كتب السيرة الأولى التي وصلت إلينا كسيرة ابن هشام ، وطبقات ابن  
سعد ، وتاريخ الطبري - مَدِينَةٌ في جزء كبير منها لما رواه عروة .

وكان عروة يعيش في عصر أبان ، كما كان من أقدم من ألفوا في  
التاريخ والسيرة النبوية ، فلم يقتصر على الروايات الشفوية بل دون بمضى  
الأحداث التي طلبها منه عبد الملك بن مروان ، وابن أبي هنيذة الذي  
كان صاحب الوليد بن عبد الملك ، في رسائل بعثها إليهما ، وقد وصل  
بعض هذه الرسائل في صفحات ابن اسحاق والواقدي والطبري .

وتتناول رسالة عروة الأولى إلى عبد الملك هجرة الحبشة ، وتتناول  
الثانية موقعة بدر ، والثالثة تتناول فتح مكة ، كما تناول عروة - في  
تدويناته الأخرى - وفاة خديجة رضي الله عنها ، وهجرة النبي وأصحابه  
إلى المدينة . وقد روى هذه الأخبار عنه ابنه هشام .

أما رسالته لابن أبي هنيذة ، فرواها الزهري ، وتتناول المناسبة  
التاريخية لنزول الآية العاشرة من السورة الستين . (١) " يا أيها الذين آمنوا إذا  
جاءكم المراسلون فاجتنبوا جملتهم " سورة الممتحنة .

وتعد هذه الأخبار المشار إليها والتي دونها عروة عن بعض  
الحوادث الخاصة في حياة النبي من أقدم المدونات التي وصلت إلينا ،  
وان كانت لم تصل في مصنف خاص بعروة ، بل وصلت روايات في كتب  
ابن اسحاق والواقدي والطبري .

وهذا الوضع - بدوره - يطرح سؤالاً : ألم يكن لعروة مصنف  
في السيرة والمغازي ؟ والجواب أن المراجع القديمة لا تذكر أي كتاب

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ - تحقيق محمد محيي الدين  
عبد الحميد - ط - دار الفكر - بيروت .

ألفه عروة عن المفازى • ولكن حاجى خليفة يقول : " ويقال : أول من صنف فيها عروة بن الزبير " (١)

وهذا - على كل حال - لا يمنع أن يكون لعروة <sup>صنف</sup> فـ...  
المفازى • ولكنه ضاع كما ضاعت مصنفات كثيرة • ومن هنا يكون من الصعب أن نتبين النهج الذى سار عليه عروة فى كتاباته التى دونها فى السيرة والمفازى • ولكننا على أى حال نستطيع أن نلمع نهجه من خلال كتاباته التى روتها كتب السيرة التى جاءت بعد ذلك •

وأول شئ نلمحه : أن عروة تأثر فى كتاباته فى السيرة والمفازى بعلم الحديث من حيث العناية بالاسناد • إذ أن علم السير والمفازى قد تفرع من علم الحديث • ولذلك رأينا الاسناد واضحا عند عروة • كما رأيناه عند أبان أيضا لأنها أول كتابين فى علم السير والمفازى • ولكن عناية عروة بالاسناد لم تكن شديدة • فهو أحيانا يذكره • وأحيانا لا يذكره • (٢)

الشئ الثانى : أن كتابات عروة تعنى بالاشارات القرآنية التى  
الحوادث الاسلامية • فتحاول شرحها • بل انها لتجاوز ذلك التى  
استعمال الألفاظ القرآنية • لتشير الى مدلولها القرآنى • مثل استعماله  
لكلمة " الفتنة " فى حديث عن المهجرتين : الحشية والمدنية • متبهما  
الآية التاسعة والثلاثين من السورة الثامنة • (٣)  
<sup>(١)</sup> " وكانوا همى بدعوة فتنة ويؤوه  
المسيه كمدلذذات يوم انهموا فبانه لدمعما يعماونه بعير " <sup>(٢)</sup>  
<sup>(٣)</sup> سورة الشرفال

الشئ الثالث : أن عروة كما عنى فى كتاباته بالحديث • عنى  
بالوثائق المكنية • مثل كتاب النبى الى ررته بن ذى يزن (٤) وكتابه الى  
أهل هجر (٥)

- 
- (١) كشف الظنون ج ٢ ص ١٧٤٧ • (٢) راجع نشأة الكتابة الفنية ص ١١٥ •  
(٣) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ١١٦ •  
(٤) فتوح البلدان للبلادى القسم الاول ص ٨٣ • ٨٤ •  
(٥) المرجع نفسه ص ٩٦ • ٩٧ •

وشيء رابع يلحظه قارىء كتابات عروة - أو بعبارة أدق ، الروايات التى نقلت عنه - وهو أن عروة كان يورد فى كتاباته شعرا ينشره نفسى الحوادث على السنة المشتركين فيها " وعلى الرغم من فقه عروة ودينه ، لم يكن خصما للشعر ، بل كان ينشره فى الحوادث على السنة المشتركين فيها ، مثله فى ذلك مثل النموذج المعروف عن التاريخ الجاهلى " (١)

هذا كله بالإضافة الى انتهاء المأثور ، ووقوفه عند الحديث ، وخوفه من ابداء رأيه فى الحوادث بقول ابنه هشام : " ما سمعت أبى يقول نفسى شئ قط برأيه " (٢) وحيث أنه فى ايراد الأخبار ، اذ نجده يشير الى الأشياء التى لا يطمئن اليها أو يخاف أن يتحمل مسئوليتها بكلمة زعموا " (٣) .

وهذا مثال من كتابات عروة - وهو رسالته الى عبدالملك بن مروان عن أبى سفيان ومخرجه - كما وردت فى تاريخ الطبرى ، " حدثنا أبان المطار قال : حدثنا هشام بن عروة ، عن عروة ، أنه كتب الى عبدالملك : " أما بعد ، فانك كتبت الى أبى سفيان ومخرجه ، تسألنى كيف كان شأنه ؟ كان من شأنه أن أبى سفيان بن حرب أقبل من الشام فى قريب من سبعين راكبا من قبائل قريش كلها ، وكانوا تجارا بالشام فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجاريتهم " (٤) الخ .

ح - شَرْحِيلُ بْنُ سَعْدٍ :

شرحيل بن سعد ، من موالى الأنصار ، مات سنة ١٢٣ هـ ، وقد

- 
- (١) نشأة الكتابة الفنية ص ١٩٦ .
  - (٢) تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢ : ١٨٣ .
  - (٣) راجع نشأة الكتابة الفنية ص : ١٩٧ .
  - (٤) تاريخ الطبرى ح ٢ ص ٤٢١ مع تصرف وتصويب .

روى كثيرا عن زيد بن ثابت وأبى سميد الخدرى ، وأبى هريرة . وقال فيه  
سفيان بن عيينة : ((ان أحدا لم يعرف المغازى وغزوة أحد معرفته  
ولكن لم يكن من الثقة حيث كان أبان وغرة)) يقول فيه ابن سعد :  
" . . . وبقي الى آخر الزمان حتى اختلط واحتاج حاجة شديدة ، ولله  
أحاديث ، وليس يحتج به " (١) .

ومن أجل ذلك لم يرو عنه ابن اسحاق والواقدي شيئا ، وان كان  
ابن سعد روى عنه خبرا في انتقال النبي صلى الله عليه وسلم من قباء  
الى المدينة (٢) .

وقد روى عنه أنه كتب " نَهْثًا " بأسماء من هاجر من مكة الى  
المدينة ، وأسماء من اشتركوا في غزوة بدر وغزوة أحد .

د - وَهْبُ بْنُ مَنبَّهٍ :

وهب بن منه ، يعنى من أصل فارسي ، كما يقال ، ويقال أيضا  
انه من أهل الكتاب الذين أسلموا ، وقد ولد في اليمن ، وأمضى حياته  
بها ، ولكنه زار الحجاز ، وتوفي عام ١١٠ هـ .

ويعد وهب بن منه من أوائل من دون في السير والمغازى ، بسبب  
انه لِيَذْكُرُ في عِدَاد الطبقة الأولى التي قامت بتدوين السيرة ، ويقول عنه  
حاجي خليفة عند كلامه في علم المغازى والسير : " ويقال : أول من  
صنف فيها عروة بن الزبير ، وجمعها أيضا وهب بن منه " (٣) .

- 
- (١) ضحى الاسلام : ج ٢ ص ٣٢٢ و ٣٢٣ - لجنة التأليف والترجمة والنشر .  
(٢) الطبقات الكبرى : ج ٥ ص ٣١٠ .  
(٣) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢٣٧ .  
(٤) كشف الظنون : ج ٢ ص ١٢٤٧ .

ومع ذلك لم تذكره كتب السيرة القديمة، على أنه أحد رُواة السيرة، كما أن كتاب السير الأولين لا يُسندون إليه شيئاً في كتبهم، اللهم إلا ما كان من ابن اسحاق، فقد روى عن وهب في القسم الأول من السيرة<sup>(١)</sup>، وينسب ابن النديم الى وهب كتاب "المبتدأ"<sup>(٢)</sup>، ولعل في هذه النسبة ما يهدد أخذ ابن اسحاق عنه، إذ يشير هذا القول الى احتمال التشابه بين هذا الكتاب وبين القسم الأول من السيرة التي ألفها ابن اسحاق، بل يشير أيضاً الى احتمال أن يكون ابن اسحاق قد اقتبس اسم القسم الأول من سيرته من اسم كتاب وهب.

ويذكر المؤرخون أنه قد عثر على قطعة من مغازي وهب، ضمن مجموعة أوراق بردى شت رنهارت المخطوطة في هيدلبرج بألمانيا<sup>(٣)</sup>، وقد كتبت سنة ٢٢٨ هـ وراوها "محمد بن بكر عن أبي طلحة عن عبد المنعم عن أبيه عن أبي الياس عن وهب"<sup>(٤)</sup>.

وتتناول هذه القطعة :بيعة العقبة الكبرى، واجتماع قريش في دار الندوة، وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وغزوة بني خيصة، وما يدل على أن وهباً تناول تأريخ الحقبة المكية والحقبة المدنية من حياة الرسول<sup>(٥)</sup>.

كذلك فإن لوهب قطعة من المغازي حفظتها "حلية الأولياء" للأصبهاني، تناول وفاة النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup>.

- 
- |     |  |
|-----|--|
| (١) | راجع : مقدمة "المغازي" للواقدي ص ٢٢.                               |
| (٢) | راجع : "الفهرست" ص ١٤٤.  |
| (٣) | راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠٠.                                  |
| (٤) | راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٣ - النهضة المصرية                      |
| (٥) | نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠٠. وضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٣ - النهضة المصرية |
| (٦) | راجع : حلية الأولياء ج ٤ ص ٧٣ - ٧٩.                                |

أما بالنسبة للقطعة التي خر عليها في " هيد لبرج " فان وهبا أهمل فيها الاسناد وعنى بالشعر . " ويقول بعض من رأى هذه القطعة : ان وهبا يهمل فيها الأسناد ويعنى بالشعر " (١) . وأما بالنسبة للقطعتين الآخرين ، فانه يذكر الاسناد فيهما . (٢)

وهذا نموذج من كتابات وهب ، وهي القطعة التي تتناول وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " ... فلما كان يوم الأحد ، ثقل في مرضه ، فأذن بلال بالأذان ، ثم وقف بالباب ، فنادى : " السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، الصلاة يرحمك الله " فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال ، فقالت فاطمة : " يا بلال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم مشغول بنفسه " فدخل بلال المسجد ، فلما أسفر الصبح قال : " والله لا أقيها أو استأذن سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . الخ " (٣) .

## ٢ - الطبقة الثانية :

وهؤلاء الأربعة : أبان ، وعروة ، وشريحيل ، ووهب ، هم الذين وضعوا البذور الأولى لعلم المغازي والسير وخططوا أسسه ولبناته الأولى ، ومن هنا عدوا الطبقة الأولى من طبقات مؤرخي السيرة .

وقد جاء بعد هؤلاء الأربعة طبقة ثانية ، غنيت بالمغازي والسير ، بل دخلت السيرة على يدها في مرحلة جديدة ، ومن أشهرهم : عاصم ابن عمر بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، ومحمد بن مسلم بن شهاب

(١) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠٠ . وضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٣ - النهضة المصرية

(٢) راجع نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠٠ .

(٣) راجع نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠١ .

الزهري المتوفى ١٢٤هـ . وعبدالله بن أبي بكر بن حزم المتوفى ١٣٥هـ .

أ - عاصم بن عمر بن قتادة :

هو عاصم بن عمر بن قتادة الظفري - من قبيلة بني ظفر -  
الأنصاري ، المتوفى ١٢٠هـ ، كان جده قتادة أنصاريًا شهد مع الرسول  
غزوة بدر ، وكان أبوه عمر بن قتادة يروي الأخبار عن أبيه ، وقد روى عاصم  
عن أبيه عمر ، واشتهر بأحاديثه عن حياة الرسول عامة ، حتى قال  
فيه ابن قتيبة : " انه صاحب السير والمغازي " <sup>(١)</sup> ومع ذلك لم يُنسب  
إليه كتابٌ خاصٌ في هذا الموضوع <sup>(٢)</sup> .

وقد أخذ عنه ابن اسحاق مباشرة ، وروى الواقدي عنه بطريق  
محمد بن صالح ، ويونس بن محمد الظفري ، وسماذ بن محمد الأنصاري ،  
ويعقوب بن محمد ، وموسى بن محمد ، وعبد الرحمن بن عبد العزيز <sup>(٣)</sup> .

وقد عني عاصم بالحَقِّقِ المكيَّة من حياة الرسول ، كما توضح اقتباساً  
ابن سعد في طبقاته ، إلى جانب عنايته بالحَقِّقِ المدنيَّة ، كما توضح  
مقتطفات الطبري ، بالإضافة إلى اهتمامه بتاريخ الخلفاء الراشدين ، خاصة  
أخبار فتنة هُمام <sup>(٤)</sup> .

وعاصم ينهج نهج عروة وأبان في الاعتماد على السند ، حيث  
يذكر سند رواياته في غالب الأحيان . . ولكنه مع ذلك يهمله في أحيان كثيرة <sup>(٥)</sup> .

(١) المعارف ج١ ص ٤٦٦ .

(٢) راجع " المغازي " للواقدي - المقدمة ص ٢٢ .

(٣) راجع المرجع السابق ص ٢٢ .

(٤) نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٢١٠ .



هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، نراه يورد الشعر على السنة المشتركة في الحوادث <sup>(١)</sup> . ومن ناحية ثالثة نراه يمتاز بأنه لم يقتصر على جمع الحوادث وروايتها ، بل كان يبدى رأيه فيها ويعلق عليها . <sup>(٢)</sup>

وهذا مثال من أخباره في وصف بيعة العقبة : " قال ابي اسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة : " أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال العباس بن عباد بن نضلة الأنصاري ، أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج هل تدرون علم تهايمون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : انكم تهايمونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه اليه على نهككم الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفيها ؟ قال : " الجنة " قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فهايموه " ، فأما عاصم بن عمر بن قتادة ، فقال : والله ما قال ذلك العباس الا ليشد المقعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فمضى أعناقهم " . <sup>(٣)</sup>

ب - الزُّهْرِيُّ :

هو محمد بن مسلم بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن شهاب الزُّهْرِيُّ <sup>(٤)</sup>

- (١) نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٠ (٢) المرجع السابق ص ٢١٠ .  
(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط دار الفكر - بيروت .  
(٤) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٥ . مطبعة النهضة المصرية .

نَسَبَهُ إِلَى بَنِي زُهْرَةَ - المتوفى عام ١٢٤ هـ : وقد ولد بمكة عام ٥١ هـ ،  
وطاش بالمدينة ودرس فيها حتى غادرها إلى دمشق عام ٨١ هـ أو ٨٢ هـ<sup>(١)</sup>.

كان ابن شهاب الزهري من أسبق الناس إلى تدوين علمه ، على  
حين أن علماء زمانه كثيرا ما كانوا يتخرجون من ذلك ، قال الزهري :  
" ما نشر أحد من الناس هذا العلم نَشْرِي ، ولا يَذْلُهُ يَذْلِي " <sup>(٢)</sup> . ولم  
يكن الزهري مُجَدِّدًا في جمع الحديث وتدوينه فحسب ، بل كان مُجِيدًا -  
أيضا - في جمع وتدوين ما جاء عن الصحابة . قال صالح بن كيسان :  
" كنت أطلب العلم أنا والزهري ، فقال : تَعَالَ نَكْتُبُ السُّنَنَ ، قال : فكُتِبْنَا  
ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : تَعَالَ نَكْتُبُ ما جاء  
عن الصحابة ، قال : فكتب ولم أَكْتُبْ ، فَأَنْجَحَ وَضَيَّقَتْ " <sup>(٣)</sup> . ومن أجل  
ذلك عدّه ابن حجر أحد الأئمة الأعلام ، وعالم الحجاز والشام فسي  
الحديث . <sup>(٤)</sup>

ولم يكن الزهري علما من أعلام الحديث فحسب ، بل كان علما  
بارزا من أعلام السير والمغازي . . . " وواضح من كثرة الأخبار التي رويت  
عنه من ابن اسحاق والواقدي أنه (كان) من أَجَلِّ علماء السيرة " <sup>(٥)</sup> . بل يكفي  
للتدليل على مكانته في هذا العلم وقدره أن كلا من ابن اسحاق وموسى  
ابن عقيّة ، ومالك بن أنس ، وأبي معشر ، وميمر بن راشد ، ومحمد  
بن عبدالله بن أبي سبرة كان من تلامذته الذين أخذوا عنه <sup>(٦)</sup> .

- 
- (١) راجع : " المغازي " للواقدي - المقدمة ص ٢٢ .  
(٢) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٦ مطبعة النهضة المصرية  
(٣) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٦ مطبعة النهضة المصرية  
(٤) راجع المغازي " للواقدي - المقدمة ص ٢٣ .  
(٥) المرجع السابق ص ٢٣ .  
(٦) المرجع السابق ص ٢٣ .

ويظهر أنه كان للزهري كتاب في المغازي ، ويظهر - أيضا - أنه ضاع وعدا عليه الزمن ، كما ضاعت مصنفات الطبقتين : الأولى والثانية ، ولم يصل منها البنا شيء ، ويدل على ذلك قول حاجي خليفة - عند الكلام على المغازي - : " ومنها مغازي محمد بن مسلم الزهري " (١) كما يدل على ذلك أيضا ما نسب له شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي من أنه ( كان ) له كتاب يسمى " مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم " رواه عنه يونس بن يزيد (٢) ولكن يبدو أن كلتا التسميتين : " مغازي " و " مشاهد " تدل على شيء واحد ، أو بمعنى آخر ، ليس لهما إلا مدلول واحد . وأيا ما كان الأمر فقد ضاع الكتاب ، ولم يصل إلينا للأسف ، والكتاب من الأهمية بمكان ، بحيث لا يحتاج الأمر إلى المبالغة في تقدير أهميته ، ويكفي للتدليل على بيان قدره ، كثرة الاعتماد عليه في كتب ابن اسحاق والواقدي . . . (٣)

ولقد دخلت السيرة على يد الزهري في طور جديد ، فقد كان الزهري أول من يقرن بين الأحاديث المختلفة المصادر لموضوع واحد ، بادماجها في حديث واحد اجماعي ، يصدره بأسماء الرواة مجتمعين ، وكانت هذه خطوة إلى الأمام في العرض التاريخي (٤) .

ويقول د . مارسدن جونز : " ويبدو أنه أول من جمع - رواه التابعون من السيرة - وأضاف إليها ما رواه هو أيضا ، وحمد ذلك

- 
- (١) كشف الظنون ج ٢ ص ١٢٤٧ .  
 (٢) راجع : الاعلان بالفتح لمن ذم التأريخ ص ٨٨ .  
 (٣) " المغازي " للواقدي - المقدمة ص ٢٣ .  
 (٤) نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٢ .

رتب هذه الأخبار ، على شكل السيرة النبوية المعروفة عند ابن اسحاق وموسى ابن عبة والواقدي<sup>(١)</sup> .

أما منهجه في الكتابة ، فقد سار الزهرى على منوال غيره من المؤلفين في ذكر الاسناد تارة ، وحذفه أخرى ، وفي العناية بادخال الشمر في أخباره<sup>(٢)</sup> .

وهذا مثال من أخباره ، يتناول مبحث الرسول صلى الله عليه وسلم : قال ابن اسحاق " : فذكر الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها ، أنها حدثت : أن أول ما بدئ به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من النبوة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به — : الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومها لا جاءت كلفى الصبح ، قالت : وجب الله تعالى اليه الخلوة ، فلم يكن شئ أحب اليه من أن يخلو وحده<sup>(٣)</sup> .

ح — عبد الله بن أبي بكر بن حزم :

هو عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، المتوفى عام ١٣٥ هـ ، وهو ابن أبي بكر بن حزم الذى كتب اليه عرب بن عبد العزيز ، يأمره بتدوين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجده الأعلى عمرو بن حزم من كبار الصحابة ، بعثه رسول الله الى أهل اليمن ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعاليم الاسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم<sup>(٤)</sup> .

(١) المفازي " للواقدي — المقدمة ص ٢٣ .

(٢) نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٢ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط . دار الفكر — بيروت .

(٤) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٤ . مطبعة النهضة المصرية .

ولا ينسب الى عبدالله أنه ألف كتابا في السيرة ، ولكن ابن اسحاق والواقدي يذكرانه بكثرة ، فقد روى عنه ابن اسحاق مباشرة ، والواقدي بطريق عبدالرحمن بن عبدالمزيز ، ويحيى بن عبدالله بن أبي قتادة وابن أبي سبرة (١) .

كما نقلت عنه أخبار كثيرة ذكرها ابن اسحاق والواقدي وابن سعد والطبري وغيرهم له أخبار تتعلق ببداية حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ووفود القهايسيل الى رسول الله ، وأخبار في الردة (٢) .

وهذا يعني أن عبدالله بن أبي بكر بن حزم كان له أثره في كتب المغازي والسير ، وكان له من يحميه العظيم في الأنصار ، وتزوج به بفاطمة . . . التي تزوي عن عمه . . . التي تزوي عن عائشة - رضى الله عنها - ما يفسر له جميع الأحاديث التي تتصل بالمغازي (٣) .

وفي سيرة ابن هشام : " قال ابن اسحاق ، وحدثني عبدالله بن أبي بكر عن امرأة فاطمة بنت عمارة عن عمه بنت عبدالرحمن بن سعد ابن زُرارة عن عائشة كذا . . . " .

وفي الطبري عن محمد بن اسحاق أنه " دخل على عبدالله بن أبي بكر فقال لامرأته فاطمة : " حدثني محمدا ما سمعت من عمه بنت عبدالرحمن ، فقالت : سمعتُ عمه تقول : سمعتُ عائشة تقول الخ . . . (٤) " .

- 
- |     |  |
|-----|--|
| (١) | المغازي - المقدمة . ص ٢٣ .                   |
| (٢) | ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٤ . مطبعة النهضة المصرية |
| (٣) | المرجع السابق ص ٣٢٥ . مطبعة النهضة المصرية   |
| (٤) | المرجع السابق ص ٣٢٤ . مطبعة النهضة المصرية   |

### ٣ - الطبقة الثالثة :

محمد هؤلاء الثلاثة : عاصم بن عمر بن قتادة ، ومحمد بن مسلم  
ابن شهاب الزهري ، وعبدالله بن أبي بكر بن حزم - جاءت طبقة ثالثة ،  
عاشت في العصر الحباسي ، أشهرهم : موسى بن عقبة المتوفى عام ١٤١هـ ،  
ومحمد بن اسحاق المتوفى عام ١٥٠هـ ، ومعمربن راشد المتوفى عام ١٥٤هـ  
وأبو محشر البسدي المتوفى عام ١٧٠هـ ومحمد بن عمر الواقدي المتوفى  
عام ٢٠٧هـ .

وأشهر هؤلاء جميعا : محمد بن اسحاق ، ومحمد بن عـــــ  
الواقدي ، لأن مؤلفاتهما في السيرة هي أولى المؤلفات التي وصلت إلينا  
أيدينا من مؤلفات كتاب السيرة الأولين ، ولأن السيرة قد دخلت - على  
أيديهما - مرحلة جديدة ذات منهج جديد ، يدل على أصالتها وأثرهما  
في هذا العلم ، ولأنهما قد تركا بصماتهما على هذا العلم واضحة ،  
وظهر أثرهما جليا في آثار أولئك الذين جاءوا بعدهم ، فاقفوا أثرهم ،  
وترسموا خطاهم ، بل إن منهم من لم يزد كثيرا على ما فعله ابن اسحاق  
وهو ابن هشام الذي تناول سيرة ابن اسحاق باختصار والشرح والتعليق ،  
ولم يضيف جديدا إلى منهج ابن اسحاق . . ومنهم من اعتمد على  
تصنيفات أستاذه الواقدي ، ولم يضيف سوى أشياء قليلة ، وهو ابن سعد  
الذي اعتمد على مصنفات الواقدي في كتابه الشهير " الطبقات الكبرى " .

ومن أجل هذا كله سنوليهما مزيدا من البحث والدراسة ، ملقين  
الغرض على كتابيهما ومنهجهما مكتفين بإشارة موجزة إلى من سواهما  
من رجال هذه الطبقة ، ومن هنا سنجعل الكلام عنهما آخر الحديث في  
هذا المقام .

# أ - موسى بن عَقَبَةَ :

هو موسى بن عَقَبَةَ بن أَبِي عِيَّاشٍ الْأَسَدِيُّ ، المتوفى عام ١٤١ هـ ، وقد كان موسى مولى لآل الزبير بن العوّام ولعله استفاد من هذه الصلة بعض علمه ، إذ كان عروة بن الزبير وابنه همام من أشهر علماء المفازي وقد عني موسى وأخواه : إبراهيم ومحمد بمدارسة العلم في مسجد المدينة واشتهر ثلاثتهم بالفقه والحديث ، وعرف أصغرهم موسى بالمفازي <sup>(١)</sup> حتى قال فيه مالك بن أنس : " عليكم بمفازي موسى بن عَقَبَةَ فإنه ثقة " وفي رواية : " عليكم بمفازي الرجل الصالح موسى بن عَقَبَةَ فإنها أصح المفازي " وفي رواية <sup>(٢)</sup> أخرى : " فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن ، ولم يُكْتَرَر كما كثر غيره " <sup>(٣)</sup> .

وقال ابن حجر : " وقال إبراهيم بن المنذر أيضا عن محمد ابن طلحة بن الطويل ، قال : ولم يكن بالمدينة أعلم بالمفازي منه " <sup>(٤)</sup> وقال حاجي خليفة عن مفازي موسى : " ومفازيه أصح المفازي " <sup>(٥)</sup> .

وقد ألف موسى في المفازي كتابا رواه عنه ابن أخيه : إسماعيل ابن إبراهيم المتوفى عام ١٥٨ هـ ، ولكنه لم يصلنا مع أنه كان موجودا حتى القرن المباشر للهجرة <sup>(٥)</sup> بل وصلتنا منه شذرات قليلة ، ويظهر أن كتاب

- (١) راجع : " المفازي " للواقدي - المقدمة ص ٢٤ . وراجع " ضحى الاسلام " ح ٢ ص ٣٢٧ . - مطبعة النهضة المصرية
- (٢) تهذيب التهذيب ح ١٠ ص ٣٦١ .
- (٣) تهذيب التهذيب ح ١٠ ص ٣٦١ .
- (٤) كشف الظنون : ح ٢ ص ١٢٤٧ .
- (٥) راجع : المفازي للواقدي - المقدمة ص ٢٤ .

موسى فى المفازى، كان أصغر حجما من كتب المفازى الأخرى ، لقول مالك بن أنس السابق " .. ولم يكثر كما كثر غيره " ويقول بعض الباحثين عن سيرة موسى أو مفازيه : " ... وكانت سيرته التى كتبها مختصرة موجزة ، كما يروى الرواة " (١).

وإذا كان كتاب موسى فى المفازى لم يصلنا ، على النحو الذى وضعه ، فإنه قد وجد بالألمانية - فى المكتبة " البروسية " الرسمية - قطعة من مفازيه ترجمها الأستاذ : " إدوارد سخاو " الى الألمانية عام ١٩٠٤م ، ولكن الناظر فى هذه القطعة لا يستطيع أن يكون فكرة شاملة عن الكتاب نفسه - من خلالها ، ولكن يمكن أن يكون هذه الفكرة من المقتطفات التى وصلت - من مفازى موسى ، من خلال النقل التى وجدت عند ابن سعد والطبرى وابن سيد الناس وابن كثير (٢).

فقد اقتبس ابن سعد كثيرا منه عن طريق أستاذه الواقدي ، وعن طريق ابن أخى موسى : اسماعيل بن ابراهيم السابق ذكره ، وتكشف لنا اقتباسات ابن سعد - أو بعبارة أخرى ، مقتطفاته من مفازى موسى - أن مفازى موسى كانت تحتوى على قوائم بأسماء المهاجرين الى الحبشة ، والمشاركين فى بيعتى العقبة ، والمحاربين فى بدر (٣).

وقد اقتبس الطبرى فى تاريخه منه أخبارا كثيرة : بعضها يتصل بالسيرة النبوية ، وبعضها يتصل بالخلفاء الراشدين ، وبعضها يتصل ببني أمية ، .. بل يروى فى الأغاني " خبر " يدل على أن موسى بن عقبة

(١) ضحى الاسلام ح ٢ ص ٣٢٢ . مطبعة النهضة المصرية

(٢) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٤ ، وراجع " المفازى " المقدمة ص ٢٤ .

(٣) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٥ .



اهتم بالأحداث الجاهلية أيضا ، إذ ~~ذكر بعض الكتب~~ أن الأغاني نقل عنه أخبار زيد بن عمرو الذي كان يتأله في الجاهلية . (١)

ومن خلال هذه المقتطفات التي نقلها عنه ابن سعد والطبري يستطيع الباحث أن يقول : أن موسى بن عقبة ، انفرد عن المؤلفين قبله بعنايته الزائدة بالقوائم ، وتدوينه لتاريخ الخلفاء الراشدين ، ومض الأمويين بل التاريخ الجاهلي أيضا . كما أنه يعني أكثر من غيره بنظام الاسناد ، وإن تركه أحيانا . كما أنه يعني أيضا بالأخذ عن مدونات من سبقه ، مثل ابن عباس ، كما يعني بالوثائق المكتوبة ، وبالإضافة إلى كل ذلك نراه يقتبس بعض الأشعار ، ويحاول ترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا . (٢)

ومن خلال هذه الخصائص التي يراها الباحث في كتابات موسى بن عقبة والتي تشكل منهجه الذي سار عليه - نستطيع أن نقول : أن السيرة دخلت على يديه مرحلة جديدة ، بل أن نقول : أن موسى بن عقبة وضع مع ابن اسحاق والواقدي الأسس التي بنى عليها المتأخرون كتبهم مثل الطبري ، وابن سعد ، والناس ، وابن كثير . (٣)

بل يذهب بعض الباحثين إلى القول ، بأن النمط الذي سارت عليه كتابات موسى بن عقبة ، يشبه النمط الذي سارت عليه سيرة ابن اسحاق ، بل يشبه كتاب موسى في المغازي سيرة ابن اسحاق في كثير من تفصيلاته ، وينتهي من هذا إلى القول بأن نمط السيرة النبوية كان مألوقا قبل تأليف ابن اسحاق . (٤)

---

(١) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٧ ، والأغاني ج ١ ص ٣٦٨ - ٣٧١ .

(٢) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٥ .

(٣) راجع : المغازي - المقدمة ص ٢٤ .

(٤) راجع : المرجع السابق ص ٢٤ .

ب - مَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ :

معمر بن راشد ، كان مولى لِّلْأَزْدِ ، وقد ولد ونشأ بالبصرة ثم رحل الى اليمن ، وظل يتنقل بين اليمن والبصرة الى أن توفي باليمن في صنعا سنة ١٥٠ هـ أو ١٥٢ هـ .<sup>(١)</sup> ويرى بعض الباحثين أنه ولد في الكوفة ، وتوفي بصنعا سنة ١٥٤ هـ .<sup>(٢)</sup>

ومعمر من كتاب السيرة الموالي ، كابن اسحاق وأبى معشر والواقدي ، الذين دخلت السيرة على أيديهم مرحلتها الأخيرة في المدينة . ومع أن المصادر سكنت عن ذكر أية صلة له بالمدينة ، نرى هناك احتمالا كبيرا يوحى بأنه زار المدينة ، فقد روى أخبارا عن الزهري وعاصم ابن عمر بن قتادة . . .<sup>(٣)</sup>

وكان معمرو واسع العلم بالحديث والسير . ومعمر بن راشد من الرجال الذين وثقهم أصحاب الحديث والمغازي .<sup>(٤)</sup> يقال يعقوب بن شيبة : مَعْمَرٌ ثِقَةٌ ، صالحٌ ثِقَةٌ ، وقال النسائي : ثِقَةٌ مَأْمُونٌ . وقال أحمد بن حنبل ، عمن عبد الرزاق ، عن ابن جريج : عليكم بهذا الرجل فإنه لم يبق أحد من أهل زمانه أعلم منه ، يعني معمرا ، وذكره ابن حبان في الثقات .<sup>(٥)</sup>

وقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن له كتابا في المغازي ، ولكن لم يصلنا من هذا الكتاب سوى مقتطفات منجدها عند الواقدي ، وأبى

(١) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٨ . مطبعة النهضة النصرية

(٢) راجع : المغازي - المقدمة ص ٢٧ . مطبعة النهضة النصرية

(٣) راجع المغازي - المقدمة ص ٢٧ . مع بعض المتن .

(٤) راجع المغازي - المقدمة ص ٢٨ .

(٥) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٤٥ .

سعد ، والطبري ، والبلاذري . . . وأكثر ما يقوله معمر ينسبه الى الزهري ، وقد كان شيخه <sup>(١)</sup> .

#### ج - أَبُو مَعْشَرِ الْمَدَنِيِّ :

هو نَجِيعُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّنْدِيُّ ، الْمَكْنِيُّ بِأَبِي مَعْشَرِ الْمَدَنِيِّ ، كان مولى لهنى هاشم ، وقد روى ابن حجر : انه من اليمن ، ويقال : ان المهدي لما جاء الى المدينة سنة ١٦٠ هـ ، طلب أبا معشر ليرافقه عند رجوعه الى العراق ، وهاجر من المدينة الى بغداد ، ومات هناك سنة ١٧٠ هـ <sup>(٢)</sup> .

صح أن علماء الجرح والتعديل ، جرحوه في الحديث ، لأنهم كان ضعيف الاسناد من وجهة نظر رجال الحديث ، يحد ثقه صدوقاً في المفازي والتاريخ ، وقد روى ابن أبي حاتم الرازي عن عبدالرحمن قال : سمعت أبي ، ذكر مفازي أبي معشر ، فقال ~~ابن أبي حاتم~~ كان أحمد ( بن حنبل ) يرضاه ، ويقول : كان بصيراً بالمفازي <sup>(٣)</sup> .

وقد قال ابن النديم ان له كتاباً في المفازي ، ويظهر من الفقرات التي أوردها الطبري في تاريخه انه ما ن مفازي أبي معشر كمفازي موسى ابن عتبة ، فقد اشتملت على أخبار من حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل الهجرة . <sup>(٤)</sup>

#### د - ابْنُ اسْحَاقَ :

هو أبو عبدالله ، ويقال : أبو بكر محمد بن اسحاق ، بن يسار

---

(١) راجع ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٨ . مطبعة النهضة المصرية

(٢) راجع : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤١٩ ، ٤٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٢٠

(٤) راجع : " المفازي " المقدمة ص ٢٨ ، ٢٩ .

ابن خيار ، ويقال : ابن كوتان ، المطلبى ، المتوفى عام ١٥٠ هـ تقريباً<sup>(١)</sup>  
 وكان يَسَارُ بْنُ خِيَارٍ جَدُّ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ مَوْلَى لَقَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ  
 ابن عبد المطلب بن عبد مناف - وفى بعض روايات الخطيب البغدادي<sup>(٢)</sup> أن  
 الذى كان مولى هو خيارٌ أبوجده .

وقد ولد محمد بن اسحاق بالمدينة سنة ٨٥ هـ وهى ناشأ حتى  
 أدرك سن الشهاب ، ولقى كثيراً من علمائها ، وأخذ عنهم الحديث من  
 أمثال القاسم بن محمد بن أبى بكر ، ونافع مولى ابن عمر ، وابن شهاب  
 الزهري ، وأبان بن عثمان بن عفان . . . وكان يجمع الأحاديث ، خاصة  
 ما عمل منها بالمغازى حتى اشتهر بها ، ولذا روى عن الشافعى أنه  
 قال : " من أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على محمد بن إسحاق  
 اسحاق " .<sup>(٣)</sup>

ثم ترك ابن اسحاق المدينة - فيما بعد - ويذكر ابن سيد الناس  
 أن من أهم أسباب ترك ابن اسحاق المدينة عداوة هشام بن عروة ومالك  
 ابن أنس له<sup>(٤)</sup> . وقد قدم ابن اسحاق الى الاسكندرية سنة ١١٦ هـ ، أو سنة  
 ١١٥ هـ كما يرى البعض<sup>(٥)</sup> . ولقى فيها كثيراً من أساطين علمائها ،  
 مثل يزيد بن أبى حبيب ، وعبيد الله بن أبى جعفر ، والقاسم بن  
 قزمان ، وعبيد الله بن المنيرة ، ويظهر أن زيارة ابن اسحاق لمصر

- 
- |     |   |
|-----|---|
| (١) | وقيل عام ١٥١ هـ ، وقيل ١٥٢ هـ ، وقيل ١٥٤ هـ .                               |
| (٢) | تاريخ بغداد ( ١ : ٢١٦ ) . نشر مكتبة الخانجي                                 |
| (٣) | تاريخ بغداد : ( ج ١ ص ٢١٩ ) نشر مكتبة الخانجي                               |
| (٤) | راجع : المغازى - المقدمة ص ٢٦ .   |
| (٥) | راجع : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥ / تحقيق محمد محيى الدين / دار الفكر - بيروت . |

كانت قبل أن يفادر المدينة نهائيا ، إذ يبدو أنه كان في المدينة سنة ١٢٣ هـ (١) .

ثم رحل بعد ذلك الى نواح كثيرة ، فرحل الى الرى والكوفة والجزيرة والحيرة ، ثم رحل الى بغداد ومنها اعصل بأبى جعفر المنصور . ولكن متى غادر ابن اسحاق المدينة نهائيا ؟

يقول د . مارسدن جونز : " ٠٠٠ " ولا يمكننا أن نحدد تاريخ مفادته للمدينة ٠٠٠ وعلى أية حال يحتمل أن يكون قد ترك المدينة قبل بلوغه سن الأربعين " (٢) قال ابن حجر : وكان خرج من المدينة قديما فاتى الكوفة والجزيرة والرى وبغداد ، فأقام بها حتى مات سنة ١٥١ هـ (٣) .

وقد ألف ابن اسحاق سيرته المشهورة في كتاب أسماه " المفازي " فإذا به يفتى على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين ، ويجذب اليه أنظار المتأخرين على الدوام ، ويُعَدُّ ابنُ اسحاق أولَ كاتب في السيرة وصلنا كتابه ، وإن كان هذا المؤلف العظيم لم يصلنا في صورته الأصلية ، بل وصل إلينا قسط عظيم منه في سيرة ابن هشام .

وقد ألف ابن اسحاق كتابه " المفازي " من مجموع الأحاديث والأخبار التي سمعها في المدينة والتي سمعها في مصر ، ويبدو أنه قد جمع كتابه قبل أن يرحل الى العراق (٤) .

- 
- (١) راجع : المفازي - المقدمة ص ٢٥ .  
(٢) راجع : المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ . مع بعض التصرف  
(٣) راجع : المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .  
(٤) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٣٠ . مطبعة النهضة المصرية

ويقال : ان سبب تأليفه "المغازي" انه دخل ذات يوم على المنصور وبين يديه ابنه المهدي ، فقال له المنصور: أتعرف هذا يا ابن اسحاق ؟ قال : نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين ، قال : اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى يومك هذا ، فصنف ابن اسحاق هذا الكتاب ، فقال له المنصور : لقد طولته يا ابن اسحاق ، اذهب فاختمه ، وحفظ المنصور الكتاب الكبير في خزائنه .<sup>(١)</sup>

وقد وصلت اليها سيرة ابن اسحاق بطرق عدة ، وأشهرها رواية ابن هشام عن البكائي ، وأحد تلاميذ ابن اسحاق ورواته ، ومن أهمها رواية ابن بكير التي لم يعمل اليها كاملة ، ولكننا نجد قطعا كثيرة منها ، عند ابن سعد وابن الأثير ، وأخيرا وجدت قطعة منها مخطوطة في مسجد القرويين بفاس ، وهي تشتمل على الجزء الأول من الكتاب<sup>(٢)</sup> .

ومن أفضل الطرق التي وصلت اليها - من خلالها - سيرة ابن اسحاق ، رواية سلمة بن الفضل الأبرشي ، أحد تلاميذ ابن اسحاق ورواته .

يروى الخطيب البغدادي فيقول : " قال الحسن وسمعت أبا الهيثم يقول : صنف محمد بن اسحاق هذا الكتاب في القراطين ، ثم صير القراطين لسلمة - يعني ابن الفضل - فكانت رواية سلمة مفضل على رواية غيره لحال تلك القراطين " .<sup>(٣)</sup>

(١) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) المغازي - المقدمة ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٢١ مع تصرف دار الكتاب العربي بيروت .

وقد اعتمد الطبري على رواية سلمة بن الفضل ، بل كان يروى عنه أكثر مما يروى عن ابن اسحاق (١) .

وقد علمنا آنفا أن ابن هشام اعتمد على رواية البكائي ، أما ابن سعد فقد اعتمد - زيادة على رواية ابن بكير - على رواية هارون بن سنان (٢) .

وما هو معلوم أن السيرة التي بأيدينا والمعروفة بسيرة ابن هشام ، هي سيرة ابن اسحاق ، بعد الحذف والاختصار والتغيير الذي ألحقه بها ابن هشام .

ويبدو من سيرة ابن هشام وما اقتطفه الطبري وغيره من المؤرخين المتأخرين من سيرة ابن اسحاق ما هو محذوف عند ابن هشام - أن سيرة ابن اسحاق في صورتها الأصلية كانت مقسمة الى ثلاثة أجزاء : المبتدأ ، والمبعث ، والمغازي .

أما المبتدأ : فيتناول التاريخ الجاهلي ، وينقسم هذا الجزء الى أربعة فصول ، يتناول أولها تاريخ الرسالات السابقة على الاسلام منذ خلق آدم حتى ظهور عيسى . ويتناول الفصل الثاني : تاريخ اليمن في العصور الجاهلية ، ويتناول الفصل الثالث : تاريخ القبائل العربية وعباداتها . ويتناول الفصل الرابع : أجداد النبي صلى الله عليه وسلم وديانة أهل مكة .

---

(١) ضحى الاسلام - ٢ ص ٣٣٢ . مطبعة النهضة المصرية

(٢) المغازي للواقدي - المقدمة ص ٢٧ .

وقد خص ابن هشام هذا الجزء - أعني : المبتدأ - من سورة ابن اسحاق بالحذف أكثر من غيره ، ولكن الطبرى حفظ جزءا كبيرا منه فى تاريخه وتفسيره ، وخاصة ما يتعلق بالأنبياء منه ، كما حفظ الأزرقى أخبارا كثيرة منه تتناول تاريخ مكة القديم .<sup>(١)</sup>

وقد رجع ابن اسحاق فى الفصل الأول - أعني تاريخ الرسائل السابقة على الاسلام - الى وهب بن منبه وابن عباس وأهل الكتاب ، بل رجع الى التوراة ذاتها ، الى جانب رجوعه الى القرآن ، وقد أورد فيه أخبار أهل الكتاب والقباطل المموية التى ذكرها القرآن مثل عاد وثمود ، بل التى لم يذكرها مثل طسم وجديس .

أما الفصل الثانى - أعني تاريخ اليمن فى المصور الجاهلية - فيرجع بعض الباحثين غناية ابن اسحاق به الى وجود الاشارات القرآنية المعديدة اليهم ، مثل اشاراته الى أهل الأخدود وأصحاب الفيل<sup>(٢)</sup> . وقد روى ابن هشام والطبرى جزءا كبيرا من هذا الفصل .<sup>(٣)</sup> <sup>(١) دأب عنه هذه الحاشية فى تجميعه بالميدان على يدى يريه دى تراسى اليهودى</sup> ويلاحظ أن ابن اسحاق لا يفتنى فى هذا الجزء - أعني المبتدأ - بالأسانيد الا نادرا ، وأغلبها فى الفصل الأول .

وأما المبعث : فيشمل حياة النبی فى مكة ، والهجرة ، وهما الحام الأول من نشاطه فى المدينة . وفى هذا الجزء يصدر ابن اسحاق الأخبار الفردية بموجز حافلها ، كما أنه بدون مجبوبات كاملة من القوائم : فقايسة بمن أسلم من الصحابة بدعوة أبى بكر ، وأخرى بالمهاجرين السى

(١) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٥ .

(٢) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٦ .



أرض الحشة ، وثالثة بمن عاد من أرض الحشة لما بلغهم اسلام أهل مكة . . . الخ

وبلاحظ أنه توجد في هذا الجزء وثيقة انفرد بها ابن اسحاق من بين المؤرخين الآخرين ، وهي معاهدة النبي التي كتبها لينظم التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود بعد هجرته إلى المدينة مهاجرة ، كما يلاحظ أنه يفتي في هذا الجزء بالترتيب الزمني للحوادث ، كما يلاحظ أنه ترداد عنايته بالأسانيد التي يرجع معظمها إلى شيوخه المدنيين .

وأما المغازي : فتتألف حياة النبي في المدينة ، وتلا الفسزوات الحربية هذا الجزء ، ويصور ابن اسحاق في هذا الجزء على خطبة معينة ، هي : أن يبدأ الخبر بملخص حاوٍ لمحتواه ، ثم يتعمق بخبر من جميع الأقوال التي أخذها من رواة ، وفي النهاية يكمله بما جمعه هو نفسه من المصادر المختلفة .

وفي هذا الجزء يدون أيضا مجموعات من القوائم : فقايسة بمن حضر بدرًا من المسلمين ، وأخرى بمن استشهد من المسلمين يوم بدر ، وثالثة بمن قتل ببدر من المشركين . . . ويفعل مثل ذلك في الفسزوات المختلفة .

وفي هذا الجزء يلتزم ابن اسحاق بإيراد الأسانيد ، وجميع من روى عنهم - هنا - من المدينة ، وأهمهم الزهري وطائفة ابن عسبر ابن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم ، الذين أمدهم بما ساعدوا في ترتيبه الزمني للحوادث . وقد زاد ابن اسحاق المادة التي أخذها منهم بما جمعه بنفسه من غيرهم من الرواة ، ومن أقارب المشركين فسي الحوادث المؤرخة .

والناظر في سيرة ابن اسحاق هذه ، يرى ابن اسحاق قد  
خطا بالسيرة خطوات الى الامام : من حيث الموضوعات التي اشتملت عليها  
السيرة ومن حيث طريقة التأليف التي عالج بها السيرة ، ومن حيث  
المنهج الذي سار عليه في كتابة السيرة .

أما من حيث الموضوعات : فقد وسَّع ابن اسحاق أفق هذه  
السيرة ، ولم يجعلها قاصرة على عرض سنوات حياة الرسول صلى الله  
عليه وسلم فحسب ، بل جعلها تاريخا للرسالة الالهية عامة . . فادخل  
فيها تاريخ الأنبياء المتقدمين . . وتاريخا للمصور الجاهلية التي كانت  
قبل الاسلام . . بل جعلها تاريخا للخلفاء بعد الرسول صلى الله عليه  
وسلم . ولعله في مد سيرته لتشمل تاريخ الخلفاء بعد الرسول كان  
متأثرا بمصنف بن عمر بن قتادة وموسى بن عتبة . .

أما من حيث طريقة التأليف التي سار عليها في كتابة السيرة :  
فهى جمعه الأحاديث المختلفة المصادر في خبر واحد ، يحوى ما تشمل  
عليه تلك الأحاديث من أخبار ، والمنايا بتأليف خبر عام موحد . . من  
تلك الروايات المختلفة ، وقد اتبع ابن اسحاق في تلك الطريقة أستاذ  
الزهري ، الذى يعد أول من جمع بين الأحاديث في موضوع واحد ،  
لادماجها في حديث اجزاء يصدره بأسماء الرواة مجتمعين ، كما  
سبق أن ألمحنا الى ذلك ، وبعد ذلك يتبع هذا الخبر العام بخبر  
من جميع الأقوال التي أخذها من رواة (١) .

أما من حيث المنهج الذى انتهجه في سيرته ، فيهدو ففى  
الخصائص الآتية :-

أولا : جُمعَ الأحداث وترتيبها وتهويبها وسلسلتها على هذا النسق والنظام الذى يراه القارىء فى سيرة ابن هشام : " ولا بن اسحاق فضل جمع الأحداث وترتيبها وتهويبها وسلسلتها " وهما كان هو أول من فعل ذلك ، وحذا حذوه من بعده " (١)

ثانيا : قلّة عنايته بالاسناد فى الجزء الأول - المبتدأ - وعنايته بسـ فى الجزأين الآخرين : البحث والمغازى ، خاصة الأخير " المغازى " ، ولعلّ عنايته بالاسناد فى الجزأين الأخيرين راجعة الى أن الرواة الذين أخذ عنهم ابن اسحاق فيهمسا ، من علماء أهل المدينة الذين غنوا بالاسناد من أمثال عاصم بن عمر بن قتادة ، وابن شهاب الزهري ، وعبدالله بن أبى بكر بن حزم .. كما ترجع الى اتصاله بكثير من الزيريين وموالمهم ، وأخذ عنهم علم عروة بن الزبير وهشام بن عروة (٢) ، .. ومصرف أنهم كانوا يمتنون بالاسناد ..

ثالثا : توسّع ابن اسحاق فى الأخذ عن الرواة ، فلم يرجع فى سيرته الى علماء المسلمين فحسب ، بل رجع الى غير المسلمين ، ففى أخباره عن الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية ، ولذلك نراه يذكر بين رواة " بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول (٣) . أو " أهل التوراة " (٤) أو " من يسوق الأحاديث من الأعاجم " (٥) . بل يذهب ابن اسحاق الى أبعد من ذلك ، فيورد فقرات من

- 
- (١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٣٢ . (٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٣١ .  
 (٣) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٨ . وضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٣١ .  
 (٤) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٨ . وضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٣١ .  
 (٥) المرجعان السابقان الصفحات ١٠٤١ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢٩ تحقيق محيى الدين - دار الفكر - بيروت .

المهدين : " القديم والجديد " • مترجمة ترجمة حرفية • وربما كان ابن اسحاق أول من نقل عن التوراة • والانجيل نقلا حرفيا • " (١)

ولعل توسع ابن اسحاق في الأخذ عن الرواة • وتوسيعه دائرة رواته • تبعاً لذلك • وقبوله بعض الأحاديث والأخبار غير المرضية • لعل ذلك كان سبباً في تجريح مدرسة المدينة له • وعلى رأسها ~~مالك~~ ~~يسين~~ أنس • فكانت له التهم • وسجت منه ثقتها " ولعل السبب الآخر في عداوة مالك بن أنس لابن اسحاق • كما يقول ابن سيد الناس • هو : تنهيه غزوات النبي صلى الله عليه وسلم من أولاد اليهود ~~ابن اسحاق~~ ~~ابن اسحاق~~ وحفظوا قصة خيبر حتى قرينة والنضير • وما أشبه ذلك من الشرائع عن أسلافهم " (٢) .

وقد خَلَفَ ابنُ اسحاق • في تقبله الأخبار غير المرضية • ونَقْلِهِ عن رواية لا يمدون مصدر ثقة • خاصة عند أهل الحديث • وَهَبَ بِسَنَنِ مِنْهُ • بل نحا منحاه • بل • أحياناً - كان يأخذ بعض الأخبار عنه (٣) .

رابعاً : يمتاز ابن اسحاق في سيرته بكثرة الأشعار التي حوتها هذه السيرة • كثرة لافتة للقارىء ولم يكن ابن اسحاق يُعْنَى بالتحقق من صحة هذه الأشعار قدر عنايته بإدخالها في السيرة وكفى • فكان يَدْخُلُ ما يُحَلُّ اليه منها دون تحقيق • ولذلك نجد عنده أشعاراً منتحلة ظاهراً انتحالها • مثل تلك التي قبلت عن عهد عاد وشمود •

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٣٢ • مطبعة النهضة المصرية

(٢) المفازى - المقدمة - ص ٢٦ •

(٣) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٨ •

يقول ابن التميمي عن ابن اسحاق في ذلك : " ويقال (إنه) كان يُعَمَّلُ له الأشعار ويؤتى بها ويُسأل أن يدخلها في كتابه فسي السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواية الشعر<sup>(١)</sup> .

وقد التمس بعض العلماء العذر في ذلك لابن اسحاق ، بأنه اقتبس هذه الأشعار لتزيين تاريخه لا لصحتها عنده ، فهو ما كان يتمسك بأنها صحيحة لو أثبت له غير ذلك ، وكل ما في الأمر أن فن الكتابة التاريخية كان قد اعتاد ادخال الشعر للتغطية منذ الجاهلية<sup>(٢)</sup> . كما اعتذر هو عن نفسه بأنه ليس عالما بالشعر ، وأنه يدون ما يُعَمَّلُ اليه<sup>(٣)</sup> .

خامسا : يتم ابن اسحاق في سيرته بالأمانة العلمية والموضوعية ، اذ كان يدون آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة ودون تحيز ، حتى لقد روى أشعار المشركين في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه<sup>(٤)</sup> .



عهد ابن اسحاق بمنهجه هذا المؤرخ الذي تتمثل فيه كـل التيارات التاريخية الموجودة في عصره - أو بمعبارة أخرى - تتمثل فيه كل المدارس التاريخية الموجودة في عصره . فقد تناول محمد بن اسحاق في سيرته : التاريخ الجاهلي والرسالات السابقة على الاسلام ، وتاريخ اليمن .

- 
- (١) الفهرست : ص ١٤٢ .  
(٢) المفازي الاولى ومؤلفوها لهورفتتر ترجمة د . حسين نصار ص ٩١ .  
(٣) راجع : طبقات الشعراء لابن سلام ص ٧ ، ٨ .  
(٤) انظر - على سبيل المثال - شعر عبد الله بن الزهري يوم أحد : سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ . تحقيق محيي الدين / دار الفكر بيروت .

وقد تأثر ابن اسحاق في ذلك بالتهار الجاهلى القائم على الأسماء والحروب ، وهو تيارٌ قديم يتألف من القصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب ، والتي كان يرويها القصاص المتقلون عن العرب الشماليين وأنسابهم وأيامهم ..

كما تأثر ابن اسحاق ، في هذا الجانب - أعنى التاريخ الجاهلى - بالمدرسة اليمنية التى يمثلها عهدُ بنِ شَرِيَّةَ وَوَهْبُ بنِ مَنَهْ ، والسببى كانت تُعنى بأخبار أهل الكتاب وتاريخ اليمن وتسرّد التاريخ قصصاً خيالية ، وأساطير شعبية .

وتعد هذه المدرسة استمراراً للتهار الجاهلى ، بل تنمّله أصدق تشيل .

.. تأثر ابن اسحاق بهذا كله فيما أورد من قصص شعبية وأشعار لتحطية القصص ، وأخبار عن أهل الكتاب .

وقد تناول ابن اسحاق في سيرته : السيرة النبوية وحياة الرسول فى مكة والمدينة ، متأثراً فى هذا بالمدرسة المدنية التى يمثلها أبان وعسيرة والزهرى ، تلك المدرسة التى عُنيَتْ بتاريخ حياة الرسول الكريم ، كما كان متأثراً بخصائص هذه المدرسة التى عنيَتْ - فى كتاباتها للسيرة - بالإسناد فنجد الاسناد واضحاً عند ابن اسحاق ، خاصة فى البحث والمغازى .

كذلك تناول ابن اسحاق فى سيرته : تاريخ الخلفاء ، وقد تأثر فى هذا بمدرسة العراق التى يمثلها الكلبي وعوّاة وأبو مخنف ، تلك المدرسة التى كانت تعنى عناية خاصة بتاريخ الخلفاء ، بالإضافة إلى عنايتها بالتاريخ الجاهلى ، والتاريخ الاسلامى .. (١)

وخلصة القول : أن ابن اسحاق قد التقت فيه خصائص هذه المدارس : الموضوعية والمنهجية ، وكان ابن اسحاق - بحق - المؤرخ المثل لهذه المدارس أصدق تمثيل " ٠٠ ثم نجد هذه المدارس الثلاث تلتقى فتخرج لنا محمد بن اسحاق ، فيتناول هذا المؤرخ تاريخ اليمن ، وأهل الكتاب ، مثل اليمنيين ، ويتناول السيرة مثل المدنيين ، وتاريخ الخلفاء مثل المراقبين ، بل نجد عنده خصائص المدارس الثلاث - من قصص شعبية وأسانيد وأشعار لتغطية القصص - ومن أخهار أهل الكتاب ، واختصار كان جميع ما في هذه المدارس موجودا عند محمد بن اسحاق " . (١)

### هـ - الواقدي :

هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد الواقدي ، المتوفى عام ٢٠٧ هـ على أرجح الأقوال (٢) . ولد الواقدي بالمدينة عام ١٣٠ هـ في آخر خلافة مروان بن محمد ، فيها يذكر ابن سعد (٣) ، وكان الواقدي مؤلف لبني هاشم ، وقيل مؤلف لبني تميم ، أحد بطون بني أسلم (٤) .

وقد اجتهد الواقدي منذ سن مبكرة في جمع الأحاديث والأخبار والمعلومات المتصلة بالمغازي والسيرة النبوية ، وكان اجتهاده هذا موضع إعجاب وإشادة لدى الكتاب والمؤرخين ، ولم تكن عنايته متجهة إلى السير والمغازي خاصة ، بل كانت جامعة لها وللعلوم الإسلامية بوجه عام ، إلا أنه اشتهر بالمغازي والسير ، لأنه في الحقيقة قد أعطاها جهدا

(١) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ٢٣٨ ٠٠ مع عصفه

(٢) راجع : المغازي للواقدي - المقدمة ص ٥٥

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٣٥

(٤) راجع : المغازي للواقدي - المقدمة ص ٥

وعناية خاصة ، وكانت له طريقة فريدة في جمع المعلومات المتصلة بهـــــــــــــــــا  
تدل على حرصه على تحرى الحقيقة وعلى دقته في الحصول عليها ، فقد  
روى عن الواقدي أنه قال : " ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء  
ولا مولى لهم الا سألته : هل سمعت أحدا من أهلك يخبرك عن مشهده  
وأين قُتِلَ ؟ فاذا أعلمني مضيت الى الموضع فأعابنه ، ولقد مضيت  
الى المَرَبِيعِ " فنظرت اليها ، وما علمت غزاة الا مضيت الى الموضع حتى  
أعابنه " (١)

وقد رُوِيَت أخبارُ أخرى تدل على حرص الواقدي وتحريه الدقـــــــــــــــــة  
في أخباره ، منها ما يروى عن هارون الفروي قال : " رأيت الواقدي بمكة  
ومعه رَكَّةٌ " (٢) فقلت : أين تريد ؟ قال : أريد أن أضي الى خُـبَينِ  
حتى أرى الموضع والوَقْعَةَ " (٣)

بل لعل في الخبر الذي نسوقه الآن ما يدل على نهاية شأن  
الواقدي في هذا المضمار وذيع صيته وطو منزلته .

يُروى أن هارون الرشيد ويحيى بن خالد البرمكي — حين زارا المدينة  
في حجتهما — طلبا من يدلّهما على قبور الشهداء والمشاهد فدلوهمــــــــــــــــا  
على الواقدي الذي صحبهما في زيارتهما ، ولم يدع موضعا من المواضع  
ولا مشهدا من المشاهد الا مر بهما عليه . (٤)

لا غزو أن نجد — لكل ما تقدم وغيره من أخبار وروايات عــــــــــــــــن  
مكانة الواقدي في علم المنازى والسير — كثيرا من الكتاب والمؤرخــــــــــــــــين

- 
- (١) راجع : المنازى للواقدي — المقدمة ص ٥  
(٢) الركة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .  
(٣) المنازى ص : ٥٥ . (٤) كتاب " المنازى " ص ٥٥ .



يشيدون بمنزلة الواقدي ومكانته في العلوم الإسلامية عامة والتاريخ خاصة ،  
والسيرة النبوية ومغازي الرسول على وجه أخص .

يقول ابن سعد - تلميذ الواقدي وكاتبه - عنه : " وكان عالما  
بالمغازي واختلاف الناس وأحاديثهم " (١)

ويقول ابن النديم عنه : " كان عالما بالمغازي والسيرة والفتوح  
واختلاف الناس في الحديث والفقه ، والأحكام والأخبار " (٢)

إلى غير ذلك من الأقوال والآراء التي تدل على مكانة الواقدي  
في علم المغازي والسيرة ، ويمكن للقارئ أن يرجع إلى كتاب : تاريخ  
بغداد ، للخطيب البغدادي ، ليرى الكثير من هذه الأقوال والآراء .

وقد خلف الواقدي ثروة هائلة من المصنفات والمؤلفات التي تتناول  
العلوم الإسلامية عامة والتاريخ والسيرة خاصة ، ولعل أشهر كتاب ألفه  
الواقدي ، وترك صدى واسعا ، هو كتابه : " المغازي " ، الذي يتناول  
حياة الرسول في المدينة من خلال الحديث عن غزواته وحرجه .

ويعني هنا أن نهيئ للقارئ طريقة الواقدي ومنهجه في هذا  
الكتاب ، وإن الناظر في مقدمة كتاب " المغازي " للواقدي ، يرى أنه  
قد أعطى القارئ فكرة عامة عن منهجه الذي التزمه في تناوله غزوات  
الرسول صلى الله عليه وسلم ووصفها ، وعرضها . ذلك المنهج الذي  
يمكن لنا أن نصفه بأنه منهج تاريخي علمي فني متكامل ، التزم الواقدي  
في وصفه للغزوات على نحو موحد ، لم يتغير ولم يتبدل من غزوة إلى

(١) الحليقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) الفهرست ص : ١٥٠ .

أخرى .. ذلك المنهج الذى خطا بالسيرة وطريقة تأليفها خطوة السى  
الامام ، والذى جعل الواقدى فى منزلة خاصة بين أصحاب السير والمغازى  
نفى هذه المقدمة - وقبل أن يتناول مغازيه بالتحليل والتفصيل -  
يقدم لنا الواقدى قائمة طويلة بأسماء الرجال الذين نقل عنهم تلك  
الأخبار .. ثم يذكر بعد ذلك المغازى واحدة واحدة ، مع تاريخ  
محدد للغزوة بدءا ، وغالبا ما يذكر تفاصيل جغرافية عن موقع الغزوة .. ثم  
يذكر المغازى وأسماء الذين استخلفهم على المدينة أثناء غزواته ، وأخيرا يذكر  
شعار المسلمين فى القتال .

ومعد هذه المقدمة يبدأ الواقدى فى وصف كل غزوة على حدة  
متبعا أسلها موحدا فيها جميعا فيذكر أولا اسم الغزوة وتاريخها وأميرها  
ويكرر فى بعضها اسم المستخلف على المدينة وتفاصيل جغرافية مما كان  
قد ذكرها فى مقدمة الكتاب .

هذا فيما يتعلق بمنهج الواقدى فى كتابه " المغازى " بصفة  
عامة .. أما اذا حاولنا أن نستكشف سمات منهجه على نحو مفصل ،  
فانها تبدو على النحو التالى :

١ - قلنا سابقا : ان الواقدى يبدأ الغزوة بذكر اسمها كما يذكر  
تاريخها ، ويذكر أيضا اسم المستخلف على المدينة أثناءها .. فيقول  
مثلا عن غزوة أحد : " غزوة أحد . يوم السبت لسبع خلون  
من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرا " (١) . فيها هوذا قد  
ذكر اسمها وتاريخها .. ثم يذكر من استخلفه الرسول على المدينة

أثناءها .. فيقول " .. واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم " (١).

٢ - غالباً ما يذكر الواقدي بعض التفاصيل الجغرافية عن موقع الفزوة أو عن بعض الأماكن التي وردت في أثناء الحديث عن الفزوة، مما قد يحتاج إلى بيان وإيضاح .. فيقول مثلاً : ... فقدم طلحة بن عبيد الله وسعيد المدينة اليوم الذي لاقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدر ، فخرجوا بمترضان النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقياه بترهان - وترهان بين ملل والسَّيَّالَةِ على المَحَجَّة - وكانت منزل ابن أذينة الشاعر .. " (٢)

ويقول في موطن آخر " .. وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدى بن أبي الزغباء وَتَسْبَسُ بن عمرو من بيوت السَّقِيَاء ، قالوا : وجاء عبد الله بن عمرو بن حرام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ، فقال : يا رسول الله ، لقد سرنى منزلك هنا ، وعرضك فيه أصحابك ، وغفالتُ به ، إن هذا منزلنا - بني سَلَمَةَ - حيث كان بيننا وبين أهل حُصَيْكَةَ ما كان - حُصَيْكَةُ الذَّبَابِ - والذَّبَابُ جبلٌ بناحية المدينة ، كان بِحُصَيْكَةِ يَهُودٌ ، وكان لهم بها منازل كثيرة " (٣)

٣ - في المفازي الهامة يذكر الواقدي أسماء الذين شهدوا الفزوة ، وأسماء الذين استشهدوا أو قُتِلُوا فيها ، مع ذكر قهاظهم البتي ينتسبون إليها ، ومع ذكر الرواة الذين روى عنهم هذه الأخبار ..

(١) المفازي : ج ١ ص : ١٩٩ .  
(٢) المرجع السابق : ج ١ ص : ٢٠ .  
(٣) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٢ ، ٢٣ .

فمثلا يذكر في غزوة أحد أسماء من استشهد من المسلمين ومن قتل من المشركين ، فيقول — تحت عنوان : ذكر من قتل بأحد من المسلمين . . . حدثنا محمد بن شجاع قال : حدثنا الواقدي قال : حدثني سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : قتل من الأنصار بأحد سهمون ، وحدثني ابن أبي سبرة ، عن هبة بن عبد الرحمن ، عن أبي سعيد الخدري مثله ، وحدثني عمر بن عثمان ، عن عبد الملك بن عبيد ، عن مجاهد مثله ، أربعة من قريش وسائرهم من الأنصار — المزني وابن أخيه ، وابننا الهيثم . . . أربعة وسهمون ، هذا المجتمع عليه ، ومن بني هاشم : حمزة بن عبد المطلب قتلته وحشي ، هذا الأصح لا اختلاف فيه عندنا ، ومن بني أمية : عبد الله بن جحش بن رثاب ، قتلته أبو الحكم بن الأخنس بن شريك . . . ومن بني عبد الدار : ضعب بن عكر ، قتلته ابن قبيصة . . . (١)

وهكذا يأخذ في ذكر أسماء الشهداء على هذا النحو ، بل ويذكر أسماء القاطنين . . . ويقول — تحت عنوان : تسمية من قتل من المشركين : . . . من بني أسد عبد الله بن حبيد بن زهير بن الحارث ، قتلته أبو دجاجة ، ومن بني عبد الوهاب طلحة بن أبي طلحة يهمل لواءهم ، قتلته علي بن أبي طالب عليه السلام ، عثمان بن طلحة ، قتلته حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه . . . (٢) . . . وهكذا يأخذ في سرد أسماء القتلى وقاطنيهم .

٤ — وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن ، فإن الواقدي يفردنا وحدها مع تفسيرها ويضعها في نهاية الغزوة . . .

(١) المفازي : ج ١ ص : ٣٠٠ .  
(٢) المرجع السابق : ج ١ ص : ٣٠٧ .

فيقول ٠٠ تحت عنوان : ما نزل من القرآن بأحد — : قال الواقدي :  
 حدثني عبد الله بن جعفر عن أم بكر بنت المسور بن مخرمة ، قالت :  
 قال أبي المسور بن مخرمة لعبد الرحمن بن عوف : حَدَّثَنَا عَنْ أَحَدٍ .  
 فقال : يا ابن أخي عد بعد المشركين ومائة من آل عمران فكانك حضرتنا :  
 " وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُهَوِّىُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ٠٠ الخ (١) " قال  
 غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أحد ، فجعل يصف أصحابه  
 للقتال كأنما يُقِيمُ بهم للقداح إن رأى صدرا خارجا قال : تأخر —  
 وفى قوله تعالى ، " إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ٠٠ الخ (٢) " قال :  
 هم بنو سلمة وبنو حارثة ، هموا ألا يخرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم  
 الى أحد ، ثم عَزَمَ لهما فخرجوا ٠٠ (٣) ٠٠ وهكذا يأخذ الواقدي  
 فى إيراد الآيات الواردة فى هذه الغزوة ، كما يأخذ فى تفسيرها .

٥ — فى أماكن كثيرة يقدم الواقدي قصة الغزوة باسناد جامع — أى يجمع  
 الرجال والأسانيد فى متن واحد — وقد عيب عليه ذلك ، عابه  
 عليه رجال الحديث ، كما عابوا ذلك على الزهري وابن اسحاق  
 من قبله ، وإن كان الواقدي قد اعتذر عن هذا بأن الأمر  
 يطول .

فشلا يقدم الواقدي غزوة أحد باسناد جامع ، فيقول — بمسند  
 أن يذكر أسماء الذين حدثوه عن هذه الغزوة ، وروى عنهم — :  
 " فَكُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي بِطَائِفَةٍ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَبَعْضُ الْقَوْمِ كَسَانِ  
 أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ ، وَقَدْ جَمَعْتُ كُلَّ الَّذِينَ حَدَّثُونِي ، قَالُوا : لِمَا  
 رَجَعَ مِنْ حَضْرَةِ بَدْرًا " من المشركين الى مكة ، وَالْمِيزُ الَّتِي قَدِمَ  
 (١) الآية : ١٢١ من سورة آل عمران . (٢) الآية : ١٢٢ من السورة نفسها .

(٣) المفازي : ج ١ ص : ٣١٩ .

بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار الندوة — وكذلك كانوا يصنمون — فلم يحركها أبو سفيان ، ولم يفرقها لفخية أهل المير<sup>١</sup> مشيت أشراف قريش إلى أبي سفيان بن حرب : الأسود بن عبدالمطلب ابن أسد ، وجبير بن مطعم<sup>٢</sup> . فقالوا : يا أبا سفيان ، انظر هذه المير التي قدمت بها فاحتبتها ، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيفة قريش ، وهم طهروا الأنفس ، يجهزون بهذه المير بجيشا لمحمد ، وقد ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرتنا ، قال أبو سفيان : وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فانا أول من أجاب إلى ذلك ، ومنو عبد مناف معي<sup>٣</sup> . (١)

٦ - من أهم خصائص منهج الواقدي في معارضة النظام المتكامل للتواريخ ، وكثير من المغازي غير المؤرخة عند ابن اسحاق مثل غزوة الخرار ، وغزوة بني قينقاع ، وغزوة دومة الجندل ، وغزوة القرطاء ، وغزوة بني سليم ، وغزوة ذات السلاسل . . . نجد لها عند الواقدي تأريخا معتمدا محددًا ، وإن كان ما يؤخذ عليه - أحيانا - اختلاف نص تاريخ بعض الوقائع والأحداث في موضع عنه في آخر . . . فشلا في قصة غزوة " القرطاء " ، يقول الواقدي : " قال محمد بن مسلمة : خرجت في عشر ليال خلون من المحرم على رأس خمسة وخمسين شهرا<sup>(١)</sup> " بينما يقول في مكان آخر : " أربعة وخمسين شهرا<sup>(٢)</sup> " . وفي غزوة بني إحيان ذكر الواقدي في أول خبر الغزوة أن النبي خرج من المدينة في هلال ربيع

(١) المغازي : ج ١ ص : ١٩٩ ، ٢٠٠

(٢) المغازي ص : ٥٣٤

(٣) المرجع السابق ص : ٥٣١

الأول سنة ست (١) بينما في نهاية قصة الغزوة ، يؤرخها في المحرم سنة ست . (٢)

ولكن هذه الاختلافات وما شابهها لا تعدج في دقة تأريخ الواقدي لمغازيه . . . وعلى الرغم من هذه الاختلافات في التأريخ ، نجد لها ( عامة ) أدق وأثبت في نظامها من التأريخ المماثلة فسي كتب السيرة الأخرى (٣)

٧ - ومن أهم خصائص منهج الواقدي : خَاصَّةُ النقد ، فلم يكن الواقدي يكتفى بإيراد الأخبار وسرد الروايات ، بل كثيرا ما كان يذكر آراء الشخصية في الأخبار التي كان يسجلها ، وكثيرا ما كان يقول " وهو المتيقن " و " والثابت عندنا " و " والمجتمع عليه عندنا " و " ولا اختلاف عندنا " و " والقول الأول أثبت عندنا " و " وهو أثبت " و " وهذا الثبوت عندنا " و " ومجمع عليه لا شك فيه " إلى غير ذلك من المبارات التي تبرز رأيه الصريح في تقويم تلك الأخبار . . (٤)

٨ - ويضاف إلى ما تقدم الاسهاب في التفصيل والدقة في الترتيب عند سرد الأحداث المشهورة مثل أحد والطائف بأكثر وأحسن مما هو مذكور في المراجع الأخرى للسيرة .

٩ - ويضاف إليه - أيضا - أن الواقدي ألقى الضوء على مشاهد كثيرة من الحياة في فجر الاسلام مثل الزراعة والأكل والأصنام

(١) المغازي ص : ٥٣٥ (٢) المرجع السابق ص : ٥٣٧

(٣) المرجع السابق - المقدمة - ص : ٣٣ . مع تصرف

(٤) انظر على سبيل المثال : المغازي ج ١ ص : ٣٠٠

والمعادات في دفن الموتى .. وعلى تكوين وتنظيم المعيرات .. وغيرها  
من مظاهر الحياة في المجتمع الاسلامي في المدة التي بين الهجرة وسوت  
النبي .

هذا هو منهج الواقدي في كتابه " المفازي " وتلك طريقته  
وعلى الرغم من تضعيف المحدثين له لتقديمه الأخبار بأسناد جامع - كما  
مر - أو رجوعه في أخباره - أحيانا - الى كتب وصحف رآها واعتمد  
عليها ، أو سح عن رآها ما يحدده المحدثون عينا في المحدث - على  
الرغم من هذا كله ، يبقى الواقدي ركنا من الأركان البارزة التي قام  
عليها علم المفازي والسيرة ، وسيظل الواقدي بكتابه " المفازي " مرجعا  
هاما لكل باحث في السيرة والمفازي في الحقبة المدنية من حياة الرسول  
صلى الله عليه وسلم . . . ويعد هذا الكتاب - بسماته وخصائصه السنوية  
أسافنا الحديث عنها - الصورة الأخيرة من الصور التي تمثل مراحل  
أطوار السيرة النبوية في القرنين : الأول والثاني للهجرة .

#### ٤ - السيرة على يدي ابن هشام وابن سعد :

ويجيء بعد ابن اسحاق والواقدي علما بارزان من علماء " السيرة  
النبوية " كان لهما دورهما المميز ، ومنهجهما الواضح فـ  
كتابة السيرة النبوية ، وهما ابن هشام وابن سعد .. وان كان  
دورهما هذا في حقيقة أمره امتدادا لدور العالمين اللذين  
سبقاهما ، وهما ابن اسحاق والواقدي ، ولذا كان من المنطوق  
أن يُذكر البحث بهما هشام وابن سعد وأن يشير الى منهجهما  
- ولو بإيجاز - بعد أن أوجز أخبار ابن اسحاق والواقدي .

والواقع أنه كلما ذُكر ابن اسحاق ذُكر ابن هشام ، وإذا ذُكر  
الواقدي ذُكر ابن سَعْد ، إذ أن ابن هشام هو الذي تناول سيرة



ابن اسحاق بالتهذيب والتشذيب . . حذفاً واختصاراً وشرحاً وتعليقاً ،  
ولهذا كان من المنطق الدقيق - كما قلنا - أن نشير الى ابن هشام ومنهجه  
بعد ابن اسحاق .

وأما ابن سعد فقد كان تلميذ الواقدي وكاتبه ، حتى لقب بكاتب  
الواقدي ، وقد سار ابن سعد على نهج أستاذه ، فيما يعمل بالسيرة  
النبوية في كتابه : " الطبقات الكبرى " بل ربما زاد عليه بعض المعلومات ،  
ولذا كان من المنطق العادل - أيضا - أن نشير الى ابن سعد ومنهجه  
بعد الواقدي .

\*\*\*

#### أ - ابن هشام :

وابن هشام هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِمْيَرِيُّ  
الْمَعَاوِيَّيُّ ، الْبَصْرِيُّ ، الْبَصْرِيُّ ، الْمُتَوَفَّى عام ٢١٨ هـ ، وأصله من البصرة  
ومها ولد ، وفيها درج ونشأ ، ثم رحل الى مصر ، ولقى فيها عالم قريش  
الامام محمد بن ادريس الشافعي .

وابن هشام له شهرة ذائعة في عالم السير والمنازى ، وإذا ذكر  
ابن هشام ذكرت سيرته المعروفة بسيرة ابن هشام التي هي - في الأصل -  
سيرة ابن اسحاق .

وقد روى ابن هشام سيرة ابن اسحاق عن أبي محمد زياد بن  
عبد الله بن الطَّحِيلِ الْبَكَّائِيِّ الْمَاصِرِيِّ الْكُوفِيِّ ، المتوفى في عام ١٨٣ هـ .

وقد تناول ابن هشام سيرة ابن اسحاق بالتهذيب والتلخيص والحذف  
والاختصار والتفحيح ، حتى صارت على الوضع الذي هي عليه الآن ، وان كانت  
تنسب الآن لابن هشام .

قال ابن خُلِّكَّان : " ٠٠ ابن هشام هو الذي جمع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من " المنازى " و " السير " لابن اسحاق ، وهذه كلها ولخصها وشرحها السهيلي المذكور وهي الموجودة بأيدي الناس ، والمعروفة بسيرة ابن هشام " (١)

وقال السيوطي في " بَيِّنَةُ الرَّوَاةِ " : " عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المصنف وقيل الذهلي أبو محمد البصري ، النحوي ، نزيل مصر ، مهذب السيرة النبوية ، (التي سمعها من زياد الهكاثي ، صاحب ابن اسحاق ونقحها وحذف من أرقامها جملة . (٢) "

ويحسن قبل أن نتموض لدور ابن هشام وصنيعه وأثره في سيرة ابن اسحاق - أن نورد كلام ابن هشام نفسه عن دوره هذا وطريقته حينما تناول سيرة ابن اسحاق بالحذف والاختصار والتهذيب .

يقول ابن هشام : " وأنا - ان شاء الله - مهتدي هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ، ومن وُلِّدَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم من وَلَدِهِ ، وأولادهم لأصلهم الأول فالأول من اسماعيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يمرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل على هذه الجهة ، للاختصار الى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ذكر ، ولا نازل فيه من القرآن شيء ، وليس فيها شيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص : ٥٢٠ .

(٢) بَيِّنَةُ الرَّوَاةِ ص : ٣١٥ .

ولا شاهدا عليه - لما ذكرت من الاختصار - وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يَشْنُحُ الحديث بسببها ، وَمَعْنُ يسوء بَعْضُ الناسِ ذِكْرَهُ ، وَمَعْنُ لم يَقْرَأْ لنا البكائي بروايتها ، وَمَشْتَقِي - ان شاء الله تعالى - ما سوى ذلك منه ، يبلغ الرواية لسببها والعلل به أهـ<sup>(١)</sup> .

ويتضح من كلام ابن هشام دوره البارز وأثره الواضح في سيرة ابن اسحاق ، ذلك الدور وذاك الأثر اللذان يظهران من خلال السمات الآتية :-

١ - ترك ابن هشام جزءاً كبيراً مما كتبه ابن اسحاق ، وذلك حديث ما قبل اسماعيل وابراهيم من بدء الخليقة ، وحديث أبناء اسماعيل على التفصيل ، وأخبار ليست من سيرة النبي في شيء ، ولا هي مؤدية في جملتها وتفصيلها الى شيء من ذلك . وأشعاراً لم يجد أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها . وأشياء يَقْبَحُ ذكرها . . وغيرها مما أشار اليه في كلامه الذي أوردناه آنفاً .

٢ - ما أبقاه ابن هشام من سيرة اسحاق ، قد حافظ فيه على عبارة ابن اسحاق ، لم يغير كلمة بل أداها كما رواها له زياد البكائي عن ابن اسحاق ، وآية ذلك أنه يأتي بمباراة ابن اسحاق ، ولولم تكن موافقة لما يعلمه هو ، ثم يعقب عليها بقوله : قال ابن هشام ، ويذكر ما يراه صواباً . .<sup>(٢)</sup>

٣ - وابن هشام لا يكتفى بهذا بل نراه يشن كلمة يراها غامضة بكلمة أخرى أوضح منها .<sup>(٣)</sup> أو يذكر رواية أخرى في كلمة من

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص : ٤ تحقيق محيى الدين - ط الحلبي .

(٢) انظر على سبيل المثال ص ٩٤ ، ٩٥ من سيرة ابن هشام ج ١ / تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ط . دار الفكر بيروت .

(٣) انظر على سبيل المثال ص ٣٢٣ - ٣٣٥ من المرجع السابق .



٦ - يمتاز ابن هشام - أيضا - بروح العدل والانصاف ، فكثيرا ما حذف ابن هشام شعرا لأن فيه من الاقذاع والفحش ما يصرف عن روايته ، وخاصة الذي يرويه ابن اسحاق بعد الغزوات الستى كانت بين المسلمين والمشركين . ولم يجعل ذلك قاصرا على الشعر الذي قاله شعراء المشركين في الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، بل طبق ذلك أيضا على شعر قاله شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم وهَجَّوْا به المشركين ، حين وجد فيهم من الاقذاع ما يصرف عن روايته أيضا .

هذا ما استهان لنا من طريقة ابن هشام ومنهجه وعمله في سيرة ابن اسحاق ، وهو عمل - لا شك - يستحق الثناء والحمد ، وليس هذا كل ما صنع ابن هشام في سيرة ابن اسحاق ، بل تجاوز ذلك إلى تحقيق الأعلام وذكر أوام ابن اسحاق ، ثم التعليق على عبارات السيرة تعليقا فيه من الشرح والنقد ما يدل على سعة اطلاع وكبير فضل .

ب - ابن سعد :

هو محمد بن سعد بن مَسْعُودٍ البَصْرِيُّ الزُّهْرِيُّ ، المَكْنَى بِلُبَيْسٍ عبد الله ، المتوفى عام ٢٣٠ هـ . وقد ولد ابن سعد في البصرة عام ١٦٨ هـ فنصب اليها ، وكان ابن سعد من الموالى ، فأباه موالٍ للحسين بن عبد الله بن عُمَيْدٍ الله بن العباس<sup>(١)</sup> . ولكن ابن سعد نفسه كان قد تحلل من عهده بالولاء<sup>(٢)</sup> .

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٣٧ . مطبعة النهضة المصرية .

(٢) الطبقات الكبرى - المجلد الأول - ص ٦ .

وقد ارتحل ابن سعد الى المدينة والكوفة ومخداد ، وأقام  
فى الأخيرة ملازماً لأستاذه الواقدى يكتب له ، حتى عرف باسم : " كاتب  
الواقدى " .

وقد كان همُّ ابن سعد فى أثناء حَظِّهِ وتَرحاله الى هذه البلاد ،  
هو لقاءَ الشيوخ وكتابةَ الحديث وَجَمَعَ الكُتُب ، فقد اعمل بأعلام عصره  
من المُحدِّثين ، فروى عنهم وقيد رواياته ، وأفاد منها فى تصنيف كتبه ،  
حتى وصف بأنه كان كثير العلم ، كثير الحديث والرواية ، كثير الكتب  
والإضافة الى هذا كان ابن سعد محل ثقة كثير من المُحدِّثين ، قال فيه  
الخطيب البغدادى : " محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة ، وحديثه  
يدل على صدقه ، فإنه يتحرى فى كثير من رواياته " .<sup>(١)</sup>

واذا ذُكِرَ ابنُ سَعْدٍ ذكر كتابه الشهير " الطبقات الكبرى " الذى  
يعد من أشهر المراجع التاريخية الاسلامية ، التى تؤرخ سيرة الرسول  
صلى الله عليه وسلم وحياة القرنين : الأول والثانى من تاريخ الاسلام ..  
" ففى صفحاته كثر لا ينفص من المعرفة لمن شاء أن يدرس سيرة الرسول  
وحياة القرنين الأولين من تاريخ الاسلام ، وهو المنبع الذى يمد الباحثين  
بموضوعات جديدة فى كتابة السير ، والبحث عن طرق الاسناد وكيفية  
تدوين الحديث ، ويعلمنا الشئ الكثير عن الأمور الاجتماعية المتعلّقة  
بحياة البيت والنسوق وأمور الزَّيِّ والطعام والشراب وعن جوانب من الأعمال  
والمهن والحياة التجارية ، وعن كثير من النواحي الثقافية والأحكام  
الفقهية ، والصراع بين السنة والأهواء ، وعن عشرات من الموضوعات ، كل  
ذلك فى لغة سهلة مستوية جزلة وفى اعتدال وقصد وموضوعية وتجرد .. " .<sup>(٢)</sup>

(١) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٢١ دار الكتاب العربى . بيروت

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد — المجلد الأول : ص : ١٦ و ١٧ .

ويقع الطبقات الكبرى فى ثمانية أجزاء ، وخصص ابن سعد  
الجزأين الأولين لسيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومغازيه ، وخصص  
الأجزاء الستة الأخرى لأخبار الصحابة والتابعين<sup>(١)</sup>.

وقد استفاد ابن سعد فى تصنيف كتابه " الطبقات الكبرى " خاصة ، وفى كتبه الأخرى عامة ، بأستاذه الواقدي ، بل ان ابن سعد اقتفى خطأ أستاذه الواقدي ، حين ألف هذا الكتاب - أعنى " الطبقات الكبرى " - ان ألف الواقدي كتابا باسم " الطبقات " أيضا ، وقد شمل " طبقات ابن سعد " رواية الواقدي لنفسه فى السيرة والتراجم مضافا اليها روايات أخذها ابن سعد عن غير الواقدي فى السيرة والتراجم أيضا . . . فاذا كان ابن سعد صورة أكمل وأوسع لأنه يمثل نشاط المحدثين والإخباريين والنسائين فى عصره وفيما قبله<sup>(٢)</sup>

فمن الفصول التى أضافها ابن سعد الى السيرة النبوية والستى لم يرد فيها ذكر للواقدي اطلاقا : " ذكر كنية رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، و " ذكر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمود به ويعمده به جبريل " (٣)

كذلك أضاف ابن سعد الى طبقاته ما كان ينقص كتاب الواقدي من أخبار الجاهلية ، ان كان الواقدي قليل الاهتمام بأمر التاريخ الجاهلى ، وقد استعان ابن سعد فى هذه الأخبار بهشام بن محمد ابن السائب الكلبي ، ولذا نجد رواية هشام هذا قد غلبت على الفصول المتصلة بتاريخ الأنبياء ، وبالأنساب القديمة على وجه الاجمال . (٤)

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص : ٣٣٧ مطبعة النهضة المصرية

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ٩

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٠٤

(٤) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٠

وكما استعان ابن سعد بهشام الكلبى فى تلك الأخبار .. استعان -  
فى مواضع أخرى - بخبره من العلماء ، كابن اسحاق ، وأبى معشر ،  
وموسى بن عقبة وغيرهم . (١)

وعلى الرغم من استعانة ابن سعد بخبر الواقدى - فيما سبق  
أن ذكرنا من أخبار لم يهتم بها الواقدى - نجد أن الفصول التى لم  
يذكر فيها الواقدى قليلة ، وأهم فصول " الطبقات الكبرى " لابن سعد إنما  
هو من اجتهاد الواقدى وتحريره ، حتى ليصدق قول ابن النديم على  
ابن سعد : " ألف كتبه من تصنيفات الواقدى " (٢)

ولم يقف اعتماد ابن سعد فى طبقاته - فيما يتصل بالسيرة النبوية ،  
- على كتاب : " المغازى " للواقدى فقط ، بل اعتمد على كتب أخرى  
للواقدى - أيضا - فاستقى منها معلومات قيمة ، مثل كتاب " أزواج النبى  
صلى الله عليه وسلم " وكتاب " وفاة النبى صلى الله عليه وسلم " وكتاب " أخبار  
مكة " وكتاب " السيرة " وكتاب " طعم النبى " ولكن يظل للاعتماد ابن  
سعد على مغازى الواقدى المكان الأول ، إذ يدخل هذا الكتاب ضمن  
طبقات ابن سعد (٣)

\*\*\*

هذا فيما يتصل بالموضوعات والمعلومات التى شملها كتابه ، والمصادر  
التى استقى منها مواد كتابه ، أما فيما يتصل بمنهج ابن سعد فى طبقاته ،  
فاننا نستطيع أن نقول :

- ١ - ان منهجه فى تراجمه للصحابة والتابعين قام على أساسين هامين ،  
أو عنصرين شاملين ، هما : عنصر الزمان وعنصر المكان .

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص : ٣٣٧ . مطبعة النهضة المصرية

(٢) الفهرست ص : ١٥١ .

(٣) الطبقات الكبرى المجلد الأول ص : ١٠ .



أما المنصر الزمانى ، فقد تدخل فى بناء الطبقات من أولها إلى آخرها ، وكانت السابقة إلى الاسلام هى المحور الأكبر فيه ، سواء اتصلت بالهجرة إلى البشة ، ثم بموقعة بدر ، أو وُثِّتَ بها قبل فتح مكة أو غير ذلك من الأسس الزمنية التى وجهت التقييم فى ذلك الكتاب ، ومن ثم بدأ بالمهاجرين البدرين ، ثم بالأنصار البدرين ، ثم بمن أسلم قديما ولم يشهد بدرا ، وانما هاجر إلى البشة أو شهد أحدا ، ثم من أسلم قبل فتح مكة وهكذا (١).

أما المنصر المكانى : فقد أخذ ابن سعد يترجم للصحابة ومن بعدهم على حسب الأمصار التى نزلوها غسى من كان بالمدينة ، ومكة ، والطائف ، واليمن ، والهامة ، ثم من نزل الكوفة ، ثم من نزل البصرة ، ومن صار موطنه الشام أو مصر أو غيرها... (٢)

٢ - اعتمد ابن سعد فى تراجمه على الرواية ، ومن هنا نجده يفيض القول فى تراجم الصحابة وكبار التابعين ، بينما نجده يوجز القول فى تراجم من عاش فى عصرهم .

وهناك مظهر آخر لهذا التقسيم نتج من الاعتماد الكلى على الرواية وذلك هو أننا كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى التى تنهم الرواية عنها ابن سعد من جميع النواحي ، أخذت الترجمة تتضاءل وتقل قيمتها ، ودلا من أن يكتب ابن سعد ترجمات مستفيضة لمن عاشوا فى عصره ، نجده اكتفى فى هذا بقولة موجزة ، وأفاهى كثيرا فى تراجم الصحابة وكبار التابعين " ... (٣)

(١) راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٢ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٢ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٣ . مع بعض التصرف

ونظرا لاعتماد منهجه الكلى على الرواية اهتمت شخصية ابن سعد ،  
أو كادت وراء السند بل انه يمكن أن نَعُدَّ كتابه " الطبقات " رواية  
نقلها تلميذه : الحارث بن أبي أسامة ، ويدل على ذلك أننا نجد فى  
بعض المواطن هذه العبارة : " حدثنا محمد بن سعد " أى أَنَّ الذى  
يروى النص تلميذه لا هو (١).

٣ - يتمتع ابن سعد بقدرة نقدية لا بأس بها ، وذلك لما يبدو فى  
الكتاب من بعض التعليقات والتعقيبات على بعض الأخبار والروايات  
التي تدل على رأيه الشخصى وملكته النقدية ، وإن كانت هذه  
التعليقات ليست بكثيرة كالتي توجد عند أستاذة الواقدي .

ومن ذلك قوله - تعليقا - على اختلاف العلماء فى نسب مَعْقُودٍ :-  
" ولم أر بينهم اختلافا أن معدا من ولد قيدر بن اسماعيل (٢) ، وهذا  
الاختلاف فى نسبه يدل على أنه لم يُحَفَظْ وإنما أُخِذَ ذلك من أهل  
الكتاب ، وترجموه لهم ، فاختلفوا فيه ، ولو صح ذلك لكان رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أعظم الناس به ، فالأمر عندنا على الانتهاء السبى  
معد بن عدنان ، ثم الامساك بما وراء ذلك الى اسماعيل بن ابراهيم (٣)

ومنه ما أورده من رواية يستفاد منها أن النبی بكى عند قبر أمه  
لما فتح مكة ، ويعلق عليها بقوله : " وهذا غلط وليس قبرها بمكة ، وقبرها  
بالأبواء " (٤)

ومنه ما نقله عن هشام الكلبي من أن الذى حضر يدرا " هو السائب

- 
- (١) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٣ .  
(٢) فى القاموس المحيط : " وقيدر بن اسماعيل أبو العرب " د / سرحان .  
(٣) الطبقات الكبرى : المجلد الأول - مقدمة الكتاب ، ص ١٣ ، ١٤ .  
(٤) المرجع السابق ، المجلد الأول ص : ١٤ .

ابن مضمون ( لا السائب بن عثمان بن مضمون ) فيملق عليه بقوله  
" وذلك عندنا فيهم وعملٌ عداى ضعف أو غلطٍ لـ لأن أصحاب السيرة  
ومن يعلم المنازى يشتمون السائب بن عثمان بن مضمون فهن شهد  
" بدرا " وشهد " أحدا " و " الخندق " والمشاهد كلها ٠٠٠ الخ " (١).

أضف الى ذلك آراء الخاصة في بعض الأشعار التي يرويها وتضعيفه  
لحمضها أحيانا ..

#### ٥ - السيرة على يد الطبرى :

ويجيء بعد ابن سعد وابن هشام عالم بارز ، له أثره ومكانته  
في صفوف كتاب السيرة النبوية ، هو محمد بن جرير الطبرى ، وله هذا  
كان من حق البحث علينا أن <sup>بإيجاز</sup> نتناول الحديث عن الطبرى ومنهجه ففى  
كتابه للسيرة ~~بالدراسة والتحليل~~ على وجه خاص ومنهجه فى كتابه  
" تاريخ الأمم والملوك " بوجه عام :

والطبرى هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ، المتوفى  
عام ٢١٠ هـ - ولد الطبرى بأمل عاصمة إقليم طبرستان فى آخر سنة  
٢٢٤ أو فى مطلع سنة ٢٢٥ هـ ، ولم يكد أبو جعفر يبلغ السن الستى  
توكله للتعلم حتى يعهد به والده الى علماء " أمل " ، وسرعان  
ما يشتج عقله ، وتهدو عليه مخايل النهوغ ، وهو حَدَّثٌ ، فقد قال عن  
نفسه : " انى حفظت القرآن فى سبع سنين ، وكتبت بالناس وأنا ابن

---

(١) الطبقات الكبرى - المجلد الأول - مقدمة الكتاب ص ١٤

ثمانى سنين ، وكتب الحديث وأنا ابن تسع سنين (١)

وقد شُفِّفَ الطبرى بالعلم منذ صغره ، فجدَّ فيه ورحل فى طلبه الى كثير من الأقطار وجاب الآفاق ليسمع الأساتذة والشيخوخ الذين دَوَّى صيغتهم . . . وقرأ ما استطاع أن يقرأ مشغولاً بالمعركة كَلِّفَ بالاطلاع .

\*\*\*

وكان من نتائج شغف الطبرى بالعلم على اختلاف ألوانه وجِدَّة فى تحصيله ورحلاته المتعددة فى سبيله وصبره عليه وشرقه له : أن خَلَّف ثروة عظيمة من المصانيف والمؤلفات الكثيرة المظمية ، المتعددة الألوان والأنواع ، نذكر منها : " جامع البيان فى تفسير القرآن " و " تاريخ الأم والملوك " و " كتاب ذيل المذيل " و " اختلاف الفقهاء " ، و " كتاب لطيف القول فى أحكام شرائع الاسلام " . . . الى غير ذلك من المؤلفات التى عثرت من الشاكين مؤلفاً (٢) .

ويعنيها - هنا - من كتبه التى أشرنا اليها بإيجاز ، كتابه : " تاريخ الأم والملوك " من حيث هو الكتاب الذى تناول السيرة النبوية ، وان لم يتناولها على نحو خاص ، بل تناولها على أنها حلقة من حلقات التاريخ العام الذى تهتدى أخواره من بدء الخليقة حتى سنة ٣٠٢ هـ .

وهذا الكتاب ينقسم الى قسمين : القسم الأول ، وقد تناول فيه الطبرى بدء الخليقة ، فتكلم عن الزمان ما هو ؟ وكَم سنة مضت منذ بدء

(١) معجم الأدباء : ج ١٨ ص : ٤٩

(٢) راجع : " الطبرى " للدكتور : أحمد الحوفى ص : ٨٨ - ٩٨ .

الخلقة ، متى تنتهى ؟ وذكر ابليس وما قيل فى حقيقته ومكانته قبل خلق آدم ، ثم عصيانه وطرده من رحمة الله . وعقب على هذا بالكلام على آدم وامتحان الله اياه باطاعة الأكل من الجنة هو وزوجه عدا ثمر شجرة واحدة ووسوسة الشيطان لهما ، وأكلهما من هذه الشجرة ، وطردهما من الجنة الى الأرض .

ثم عرض للأحداث التى كانت فى الزمن الذى قضاه آدم على الأرض وأولها قتل قابيل أخاه هابيل ، وذكر بعد ذلك الأحداث التى كانت فى أيام أبناء آدم منذ ملك ابنه شيث .

وعرض فى هذا القسم للأنبياء : نوح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحاق ، وإيوب ، وشعيب ، ويعقوب ، ويوسف ، وموسى ، والياس ، وداود ، وسليمان ، وهود ، وصالح ، ويونس ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

وأما الأمم التى أرخ لها فهم الفرس والروم والمصر واليهود ، فذكر تاريخ الفرس منذ زمن قديم . . حتى عهد كسرى الذى فتح العرب بلاد الفرس فى زمنه .

وتحدث عن أنبياء بنى اسرائيل وعن قصة الخضر مع موسى وعن قارون وعن رؤساء بنى اسرائيل بعد يوشع بن نون ، وعن الياس بن ياسين ، وعن شمويل بن هالى ، وتغلب العمالة هم وملكهم جالوت على بنى اسرائيل ثم خلاصهم على يد النبى داود وقتله جالوت .

وذكر غزوات سليمان بن داود وعلاقته ببلقيس وغرق الملكة بعده . . ثم تحدث عن غزو بختنصر لبنى اسرائيل وتخريبه بيت المقدس ، وتغريق بنى اسرائيل ونزول بعضهم فى الحجاز بمشرب ووادى القرى وغيرها .

وذكر ملوك الروم منذ المسيحية الى الاسلام . . . وتحدث عن عاد وشمود وذكر أخبار كشم وجديس ، وذكر جرهم واصهار اسماعيل اليهم . . . وذكر ملوك اليمن وعلاقتهم بالحش والفرس ، كما تحدث عن بعض المشهورين من الأفراد ، مثل عمرو بن الظرب والزباء . ثم ذكر أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من عدنان الى عبدالمطلب ، وذكر طرفا من أخبار الرسول قبل أن يبعث (١) .

أما القسم الثاني : فقد تناول فيه حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره وغزواته . . . ثم ذكر تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم ، وجعل يتتبع تاريخ المسلمين بعد ذلك في الدولة الأموية والدولة العباسية الى سنة ٣٠٢ هـ (٢) .



وقد اعتمد الطبرى في تاريخه على مصادر عدة ، فاعتمد في تاريخ الرسل والأنبياء على كتب التفسير وكتب السير ، خاصة " سيرة " ابن اسحاق ، وكتاب " البتدأ " لوهيب بن منه ، واستمد الطبرى تاريخ الفرس من ترجمات عربية لكتب فارسية ، خاصة كتب ابن المقفع ، كما استمد من كتب هشام الكلبي . . . وعول الطبرى في تاريخ الروم على ما نقله من كتب نصارى الشام . . . ونقل تاريخ اليهود من مصادر بعضها كتب اسرائيلية ، واعتمد الطبرى في تاريخ العرب قبل الاسلام على ما كتبه عبيد بن شريك الجزيي ومحمد بن كعب القرظي ووهيب بن منبه وهشام الكلبي وابي اسحاق فروع في السيرة النبوية على مؤلفات أبان بن عثمان

(١) الطبرى ص : ١٨٤ - ١٨٧ .

(٢) الطبرى ص : ١٨٧ .

وَعَرَّةَ بْنِ الزَّيْبِرِ وَشَرْحَبِيلَ بْنِ سَعْدٍ وَمُوسَى بْنَ عُقْبَةَ وَطَاصِمَ بْنَ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَابْنَ شِهَابٍ الزَّهْرِيَّ ، وَابْنَ اسْحَاقَ ، وَاعْتَمَدَ فِي حَرْبِ السَّرْدَةِ وَالْفَتْوحِ عَلَى مَا كَتَبَهُ سَيْفُ بْنُ عُمَرَ الْأَسَدِيُّ وَالْمَدَائِنِيُّ ، وَاعْتَمَدَ فِي أَخْبَارِ مَوْقَعَةِ الْجَمَلِ وَمَوْقَعَةِ صَفَيْنَ عَلَى مَا كَتَبَهُ أَبُو مَخْنَفٍ وَالْمَدَائِنِيُّ وَسَيْفُ بْنُ عُمَرَ ، وَاعْتَمَدَ فِي تَارِيخِ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى مَا كَتَبَهُ عَوَانَةُ بْنُ الْحَكَمِ الْكَلْبِيُّ وَأَبُو مَخْنَفٍ وَالْمَدَائِنِيُّ وَالْوَاقدِيُّ وَعُمَرُ بْنُ شَيْبَةَ وَهَشَامُ الْكَلْبِيُّ ، وَاعْتَمَدَ فِي تَارِيخِ بَنِي الْمُبَاسِ عَلَى كُتُبِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ وَأَحْمَدَ بْنِ زُهَيْرٍ وَالْمَدَائِنِيِّ وَعُمَرَ بْنِ رَاشِدٍ وَالْهَيْثَمِيِّ بْنِ عَدُوٍّ وَالْوَاقدِيِّ . (١)

\*\*\*

وأما منهج الطبري في كتابه فقد اعتمد على أسس عدة :

١ - الاعتماد على الرواية : فقد اعتمد الطبري في أكثر ما دونه على الروايات التي أخذها عن الرواة ولم يعلق عليها بتعريب أو تغنيد أو إبطال ، بل تسرك للقارئ أن يميز ويحكم ويختار ، وكان قلبيلا ما يدلي برأيه ويرجع رواية على أخرى ، ولذا دون الأخبار على عهد روايتها ، وعرضها عرضا موضوعيا محايدا ، وغزا كل رواية إلى صاحبها ، ولم يقتصر على ما يوافق فكره أو رأيه .

يقول الطبري في مقدمة كتابه : " ولعمري الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادى في كل ما أحضرت ذكره فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها إلى روايتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستهبط بفكر النفوس إلا القليل

اليسير منه . . . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين  
— مما ينكره قارئه أو يستشعره سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهها من  
الصحة ولا معنى في الحقيقة — فليعلم أنه لم يوت في ذلك من قبلنا ،  
وانما أتى من قبل بعض ناظميه الينا ، وأنا انما أدينا ذلك على نحو  
ما أدى الينا " (١)

وقد كان اعتمادنا على الروايات وإيرادها دون تعديل روايتها أو  
تجريحهم ، وسياقة الأخبار دون تحييص وتحقيق ، ماثرا للنقد عند بعض  
الباحثين ، لأن سياقة الأخبار دون تحييصها أمر لا يليق بالمؤرخ الناقد  
البصير ، ومن هنا لا يصح له أن يعتمد على الرواية وحدها ، خاصة  
في تاريخ عصره الذي عاش فيه وشاهد أحواله ، ولا سيما رجل مثل الطبري  
لا يقصر بآه عن ذلك ، وهو من علماء الحديث وفي استطاعته أن يطبق  
منهجهم فيوثق الروايات أو يجرحها خاصة أنه وقع في هذا التاريخ كثير  
من الأخبار الواهية والقصص الزائفة كالاسرائيليات وبعض أخبار الفرس ، كما  
ورد فيه كثير من الأحاديث الواردة في بدء الخلق ، وسير الأنبياء ، مما لا  
يرتفعه المحدثون ، (٢) فلا مندوحة إذن من نقد الروايات والرواة والرجوع إلى  
الوثائق الأصلية . (٣)

٢ — الحرص على السند : فقد حرص الطبري على أن يذكر في كل حادثة ما قيل  
فيها من روايات وأن يذكر سند كل رواية موصولا إلى صاحبه على طريقة  
علماء الحديث ، فإذا نقل من كتاب ذكر اسم مؤلفه ، مثل قوله : " قال  
ابن الكلبي " أو " قال محمد بن اسحق " أو " قال الواقدي " ،

(١) تاريخ الطبري ج ١ ص : ٧ ، ٨

(٢) تاريخ الطبري ج ١ ص ٢٥ .

(٣) الطبري ص : ٢٠٤ .



أو " ذكر لمن الكلبى " ، ولعلنا كان يذكر اسم الكتاب ، وإذا سمع من  
انسان مشافهة ، قال : حدثنى فلان ، فإذا اشترك معه فى المسامحة  
آخرون ، قال : حدثنا فلان ، وسلسل السند الى مصنفه الأول .  
ولكن يعتمد أحيانا على المراسلة ، فيقول مثلا : كتب الى السدى عن  
فلان عن فلان الخ .

وقد كان حرصه على السند والرواية المتصلة سمة بارزة فى الكتاب  
كله ، الا بعض مواضع يظهر فيها اعتياده على النقل من الكتب ، فأهمل  
اسم المحدث كقوله : حدثت عن فلان ، والا بعض مواضع يظهر فيها  
تساهله فى السند كقوله : ذكر لى بعض أصحابى ، وذكر لى جماعة ممن  
أصحابنا .. (١)

وقد أخذ على الطبرى أنه كان يذكر العلماء والرواة ولا يذكر  
مؤلفاتهم التى نقل منها ، ولا أكثرهم كتب عدة ، فلا يستطيع الباحث أن  
يحرف عن أيها نقل ؟ (٢)

كما أخذ عليه - أيضا - أنه كان فى سرد الروايات المخلقة يقطع  
الرواية اذا ما وصل الى موضع خلاف ليدكر الرواية أو الروايات المختلفة ،  
فإذا ما انتهى من ذكر الخلاف طه الى استئناف الكلام هو حيث توقف  
وقطع ، وهذا كانت الروايات كثيرا ما تتداخل وتتشابه ما يجرى الى  
تشبيث القارى وشغله بالفرع عن الحادث الأصيل . (٣)

٣ - نظام السنين : فقد راعى الطبرى ترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا عاما

(١) الطبرى ص : ١٩٤ و ١٩٥ .

(٢) الطبرى ص : ٢١٦ . (٣) الطبرى ص : ٢٩٧ .

بعد عام ، فى القسم الخاص بالاسلام وما بعده منذ الهجرة الى سنة ٣٠٢ هـ . فذكر فى كل سنة ما وقع فيها من حوادث تستحق الذكر ، فاذا كانت الحادثة تستغرق سنوات جزأها أو أشار اليها ، ثم عاود اليها بالتفصيل فى موضعها الملائم . أما فى القسم الأول الخاص بما قبل الاسلام فقد عرض الحوادث غير مرتبة على حسب السنين اذ أن ذلك كان غير مستطاع .<sup>(١)</sup>

وقد سبق الخلبري الى هذه الطريقة التهيئ بن عدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ والواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ثم طلاه فيها ابن عسكته وابسن الأثير وأبو الفداء .<sup>(٢)</sup>

وكانت طريقته هذه من المآخذ التى أخذت عليه ، اذ اضطره هذه الطريقة الى تقطيع الحوادث وتوزيعها على أوقات حشوها وفى هذا تشتت لها وتزريق لوحدها .<sup>(٣)</sup>

٤ - تسجيل النصوص الأدبية : أورد الطبرى فى تاريخه الكثير من النصوص الأدبية من شعر وخطابة ورسائل وخطابات فى مناسباتها التاريخية ، والطبرى فى ذلك يجرى على عادة الذين سبقوه من المؤرخين والأدباء الذين كانوا يحرصون على تسجيل الشعر المتصل بالموضوع الذى يؤرخونه ، كلفا بالشعر من ناحية ، ورغبة فى توثيق الحادث أو الخبر ، والتشويق اليه من ناحية ثانية ، كما نرى فى كتاب " التيجان فى ملوك حمير " لمحمد بن شريك ، برواية أبى محمد عبد الملك بن هشام ، وفى كتاب " نهج السيرة

(١) الطبرى ص : ١٩٥ . (٢) الطبرى ص : ١٩٦ .

(٣) الطبرى ص : ٢٢٠ .

الأوب في أخبار الفرس والعرب " للأصمعي ، وكتاب " السيرة النبوية " لابن هشام . (١)

هذه هي السمات البارزة التي اتسم بها منهج الطبرى في تاريخه ، وسهما يكن من شيء ، فان تاريخ الطبرى هو أول كتاب فى التاريخ العام ، أكمل به الطبرى ما ابتدأه سابقوه من التأريخ للأحداث أو الأقاليم أو طوائف الرجال كابن سعد واليعقوبى والدبستورى والواقدى والبلاذرى وابن اسحاق ، وهو تشهد لمن جاءوا بعده وصدر أصيل من مصادره كالمسمودى وابن يسكرى وابن الأثير وابن خلدون ، ومازال مصدرا للباحثين الى اليوم . (٢) " وأياما كان (الأمر) فان كتاب " تاريخ الرسل والملوك " سيظل بما اشتمل عليه من الروايات الأصيلة ، والنصوص النادرة ، ففى أسلحه الرائع الرصين ، أشمل كتاب للتاريخ عند العرب . (٣)

## ٦ - السيرة بعد الطبرى :

إذا كنا نطلق على المرحلة التى تبدأ منذ نشأة الكتابة فى السيرة النبوية حتى نهاية القرن الثالث الهجرى اسم مرحلة التدوين ، والتصنيف فاننا نستطيع أن نطلق على المرحلة التى تبدأ من القرن الرابع حتى الماشر الهجريين اسم مرحلة الشرح والاختصار وتجميع المعلومات والاهتمام بدلائل النبوة وشماثل الرسول وأحواله وصفاته وخصائصه وفضائله .

وهذا الاتجاه الذى أشرنا اليه خلال هذه الحقبة ، هو الاتجاه الغالب ، ذلك لأن بعضا من المؤرخين قد تناول السيرة بالتأليف

(١) الطبرى ص : ١٩٨ (٢) الطبرى ص : ٢٢٦

(٣) تاريخ الطبرى ج١ ص : ٢٦

وأفرد لها أقساماً من تاريخه العام من أمثال ابن الأثير <sup>(١)</sup> الذي كتّـب  
عن السيرة النبوية في كتابه " الكامل " وابن كثير الذي تناول السيرة  
النبوية في كتابه " البداية والنهاية " <sup>(٢)</sup>.

وهذا الاتجاه الغالب بنواحيه المتعددة التي أشرنا إليها - من  
شرح واختصار وتجميع للمعلومات - واتجاه نحو الشائـل والدلائـل -  
نراه واضحاً في مؤلفات كثيرة :

فالاتجاه نحو الكشف عن شمائل الرسول وخصائصه وصفاته وأحواله  
ودلائل نبوته ، يظهر واضحاً في هذه المؤلفات : " دلائل النبوة " <sup>(٣)</sup> للأصبهاني

- (١) هو : علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشهباني الجـزري  
أبو الحسن عرّ الدين بن الأثير : المؤرخ الإمام من العلماء بالنسب  
والآدب . ولد عام ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) وتوفي عام ٦٣٠ هـ ( ١٢٣٣ م )  
ومن مصنفاته : " الكامل " في التاريخ ، وهو مرتب على السنين ،  
بلغ فيه عام ٦٢١ هـ وله : " أشد الغابة في معرفة الصحابة " .
- (٢) طبع القسم الخاص بالسيرة النبوية من كتاب " البداية والنهاية " في  
كتاب مستقل باسم : السيرة النبوية ، وقد وقع في أربعة أجزاء  
بتحقيق د . مصطفى عبد الواحد . مطبعة الطبى . طبع الجزآن :  
الأول والثاني سنة ١٩٦٤ هـ والثالث سنة ١٩٦٥ هـ والرابع سنة ١٩٦٦ هـ  
في هذا الكتاب يخوض أبو نعيم لقضايا الرسول ويتقدم نبوته  
وطيب مولده وحسبه ونسبه وأقسام الله بحمائه وغير ذلك ، ثم  
يتناول ذكره في الكتب المتقدمة ، وما سنع من الجن وأجواف الأصنام  
بالأخبار عن نبوته ، ثم يستعرض حياة الرسول مشيراً إلى جانب  
المعجزة أو حجة الصديق في كل موقف من المواقف ، والكتـاب  
تخطط فيه الأخبار الصحيحة بالأخبار الواهية والمنقطعة ( راجع :  
مقدمة الرفا بأحوال المصطفى " تحقيق مصطفى عبد الواحد ) .
- (٣) هو : أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني : أبو نعيم ، حافظ ،  
مؤرخ ، ولد عام ٣٣٦ هـ ( ٩٤٨ م ) وتوفي عام ٤٣٠ هـ ( ١٠٣٨ م ) ومن  
مصنفاته : " طبقات المصنفين والرواة " ودلائل النبوة " الذي  
أشرنا إليه آنفاً .

و "أعلام النبوة" (١) للمأوردى (٢) ، و "دلائل النبوة" (٣) للبيهقى (٤) ،  
و "الوفاء بأحوال المصطفى" (٥) لابن الجوزى (٦) . كما يظهر فى غير هذه

(١) فى هذا الكتاب يؤرد المأوردى الأدلة على اثبات نبوة محمد صلى  
الله عليه وسلم ، ويبدأ بمعرض حجج المانعين لنبوته من الميهود  
والنصارى ، ويرد عليهم بأدلة العقل ، ولكنه لا يكفى بذلك ، بل  
يسوق الأدلة والبراهين والمعجزات الدالة على نبوة الرسول الكريم ،  
وفى مقدمتها القرآن الكريم ، ويمتاز هذا الكتاب باعتداده على الحجة  
العقلية الى جوار ما ينقله من آثار . ( راجع : مقدمة "الوفاء بأحوال  
المصطفى" )

(٢) هو : على بن محمد بن حبيب : أبو الحسن المأوردى ، من أصحاب  
التصانيف الكثيرة النافعة ، ولد عام ٣٦٤هـ ( ٩٧٤م ) وتوفى عام ٤٥٠هـ  
( ١٠٥٨م ) ، ومن كتبه : "أدب الدنيا والدين" و "الأحكام  
السلطانية" و "أعلام النبوة" الذى أشرنا اليه آنفا .

(٣) فى هذا الكتاب تتيج البيهقى وتقصى الدلائل والآيات على نبوة  
محمد صلى الله عليه وسلم من خلال حياته ، وقبل أن يولد عليه  
الصلاة والسلام ، ومن خلال أحواله وصفاته وشأطه وخلقه ، وهذا  
الكتاب معرض للمعجزات الحسية بتفصيل كبير ، وهو يمتلى بالأخبار  
الواهية والمقدومة الى جانب عرض المؤلف للسيرة فى بداية الكتاب .

(٤) هو : أحمد بن الحسين بن على ، أبو بكر : من أئمة الحديث ، ولد  
عام ٣٨٤هـ ( ٩٩٤م ) ، ومات عام ٤٥٨هـ ( ١٠٦١م ) ، ومن تصانيفه :  
"السنن الكبرى" و "السنن الصغرى" و "المعارف" و "الأسماء  
والصفات" و "دلائل النبوة" الذى أشرنا اليه آنفا .

(٥) فى هذا الكتاب يعرض المؤلف سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من  
بدايتها الى نهايتها ، وفى خلال ذلك يدرج المؤلف دلائل نبوته  
وشواهد صدقه فى دعوته ، كما يوضح خصائصه ويجمع شأطه  
وجوانب هديه ، وما يتعلق بنواحي حياته ونظام معيشته ، والكتاب  
- بذلك - يجمع عناصر أربعة : ١ - سيرة الرسول - أى : وصف  
حياته وذكر أخباره منذ ولادته الى وفاته ، وعرض غزواته وشأطه .  
٢ - شأط الرسول ، أى الحديث عن أخلاقه وعبادته وهدى  
وصف سلوكه فى نواحي حياته الخاصة والعامة . ٣ - خصائص الرسول ،  
أى فضائله وما ميزه الله به ، وما منحه له من أبواب الثواب والفضل .  
٤ - دلائل نبوته ، وتشمل معجزاته الحسية والمعنوية ، والاستدلال على  
صدقه بالأدلة التى تتراعى من مواقف حياته .

(٦) هو : عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرشى البغدادي ، =

المؤلفات ما يشابهها منهجا وطريقة ، مثل : " شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه " لابن كثير <sup>(١)</sup> ، و " إمتاع الأسماع بما للرسول من خولقه وحفده ومتاع " للمقريزي <sup>(٢)</sup> ، و " الخصائص الكبرى " أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب " للسيوطي <sup>(٣)</sup> و " المواهب اللدنية في المنهج المحمدية " للقسطلاني <sup>(٤)</sup> .

= أبو الفرج : علامة عصره في التاريخ والحدث . ولد عام ٥١٠ هـ (١١١٤ م)

وتوفي عام ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . له نحو ثمانمائة مصنف ، منها : " تلخيص فہم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار " و " الأذكياء وأخبارهم " و " مناقب عمر بن عبد العزيز " و " الوفا بأحوال المصطفى " الذي أشرنا إليه آنفا .

(١) هو : اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضامن بن زرع القرشي الهذلي تميمي الدمشقي ، أبو الفداء ، عماد الدين : حافظ مؤرخ فقيه ، ولد عام ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) وتوفي عام ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م) . ومن تصانيفه : " الهداية والنهاية " في التاريخ ، و " شرح صحيح البخاري " و " طبقات الشافعية " و " تفسير القرآن الكريم " و " شمائل الرسول " . السدي أشرنا إليه آنفا .

(٢) هو : أحمد بن علي بن عبد القادر ، أبو العباس ، تقي الدين المقريزي : مؤرخ الديار المصرية ، ولد عام ٧٦٦ هـ (١٣٦٥ م) ومات عام ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) . من تأليفه : " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " ويعرف بخطوط المقريزي ، و " إمتاع الأسماع " . الذي أشرنا إليه آنفا .

(٣) هو : عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير السيوطي جلال الدين : إمام حافظ مؤرخ أديب ، ولد عام ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) وتوفي عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) . له نحو ستمائة مصنف ، منها " الجامع الكبير " و " الخصائص الكبرى " الذي أشرنا إليه آنفا .

(٤) هو : أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني المصري ، أبو العباس ، شهاب الدين ، من علماء الحديث ، ولد عام ٨٥١ هـ (١٤٤٨ م) وتوفي عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) . ومن مؤلفاته : " إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري " و " المواهب اللدنية في المنهج المحمدية " المشار إليه آنفا .

أما الاتجاه نحو تخصيص كتب السيرة السابقة وتجميع المعلومات منها ، فيظهر واضحا في المؤلفات الآتية : " الدرر في اختصار المغازي والتسير <sup>(١)</sup> " لابن عبد البر <sup>(٢)</sup> ، و " جوامع السيرة " <sup>(٣)</sup> لابن حزم <sup>(٤)</sup> ، وما ينحو منحاهما كتاب : " عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والتسير " لابن سيدي

- (١) في هذا الكتاب اختصر المؤلف مبحث النبي صلى الله عليه وسلم ، وابتداء نبوته وأول أمره في رسالته ومغازيه وسيرته فيها مما أورده موسى ابن عقة وابن اسحاق وغيرهما ، مقتصرا فيه على العميون والزبد من الأخبار ، ألفه بطريقة المحدث الخافظ ، مهتمدا عما لم يصح عنه من الروايات ، مع مناقشة ما رواه غيره من ضعيف الأخبار ، وذلك بميزان الجرح والتعديل ، وأداره بروح المؤرخ الأديب ، والناقد الصوفي الخبير ، مقتصر على المحض اللباب دون الحشو والتكرار ( راجع : تصدير كتاب " الدرر في اختصار المغازي والتسير " تحقيق شوقي ضيف ، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ) .
- (٢) هو : يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري ، أبوعمر : من كبار حفاظ الحديث ومؤرخ أديب بطلان ، ولد عام ٣٦٨ هـ ( ٩٧٨ م ) وتوفي عام ٤٦٣ هـ ( ١٠٧١ م ) . ومن كتبه : " الحقل والمقابلة " و " الاستيعاب " و " الدرر في اختصار المغازي والتسير " المشار إليه آنفا .
- (٣) هذا الكتاب قصد منه مؤلفه وضع مختصر قريب المأخذ ، سهل التناول في أيدي طلابه ، وفي هذا المختصر يضع المؤلف الأصول التي لا يستغنى عن تذكرها أو استظهارها كل من اشتغل بالسيرة النبوية من طلاب العلم . ( راجع : مقدمة " جوامع السيرة " لابن حزم تحقيق : أحسان عباس ، وناصر الدين الأسد ، مراجعة : أحمد محمد شاكر ، ط . دار المعارف )
- (٤) هو : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، أبو محمد : عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمة الإسلام ، ولد عام ٣٨٤ هـ ( ٩٩٤ م ) وتوفي عام ٤٥٦ هـ ( ١٠٦٤ م ) ومن أشهر مصنفاته : " الفصل في الملل والأهواء والنحل " و " المطي " و " جهنم " الأنساب " و " الناسخ والمنسوخ " و " الإحكام لأصول الأحكام " و " جوامع السيرة " المشار إليه آنفا .

## الناس . (١)

وأما الاتجاه نحو شرح بعض الكتب السابقة والتعليق عليها فيظهر  
في كتاب : " الرِّوضُ الْأَنْفُ " (٢) لِلْسَّهِيلِيِّ (٣) ، الذي شرح فيه سيرة ابن  
هشام وعلق عليها ، وما ينحو منحاه " شرح غريب السيرة النبوية " لأبي  
كَرِّمِ الْخَشْنِيِّ (٤)

- (١) هو : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس ، أبو الفتح ، ففتح الدين ، مؤرخ ، عالم بالأدب ، من حفاظ الحديث ، ولد عام ٦٧١هـ (١٢٧٣م) وتوفي عام ٧٣٤هـ (١٣٣٤م) ، ومن تصانيفه : " عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير " ومختصره " نور الميرون " .
- (٢) هذا الكتاب قصد منه مؤلفه - كما يقول - : " إيضاح ما وقع في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم - التي سبق إلى تأليفها أبو محمد ابن اسحاق المطلبي ، ولخصها عهد الملك بن هشام المصنف المصنف النساب النحوي ، مما يلحق عليه ، ويسر لي فهمه ، من لفظ غريب ، أو أعراب غامض ، أو كلام مستغلق ، أو نسب عويص ، أو موضع فاتمه التنبه عليه ، أو خبر ناقص يوجد السبيل إلى تتمته . . . . . وقد تحصل - في هذا الكتاب من فوائد العلوم والآداب وأسماء الرجال والأنساب ، ومن الفقه الباطن اللهاج وتعليل النحو وصنعت الأعراب - ما هو مستخرج من نواف على مائة وعشرين ديوانا سوى ما أنتجته صدرى " ( راجع : مقدمة " الرِّوضُ الْأَنْفُ " - تحقيق : عبدالرحمن الوكيل - نشر دار الكتب الحديثة - الطبعة الأولى ) .
- (٣) هو : عبدالرحمن بن عبد الله بن أحمد الخشني السهيلي : حافظ عالم باللغة والسير ، ولد عام ٥٠٨هـ (١١١٤م) وتوفي عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) . من كتبه : " التمهيد والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام " و " الرِّوضُ الْأَنْفُ " في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، الذي أشرنا إليه آنفا .
- (٤) هو : مصعب بن محمد أبي بكر بن مسعود الخشني ، أبو ذر ، قاض من العلماء بالحديث والسير والنحو ، ولد عام ٥٣٣هـ . وتوفي عام ٦٠٤هـ . وله كتب منها : " شرح غريب السيرة النبوية " للسيدى أشرنا إليه آنفا و " شرح الإيضاح " و " شرح الجمل " .



### ح - نقد وتقويم

وإذا ما حاولنا أن نلقى الضوء على ما ألف في السيرة من لـسـدن  
عصر التدوين حتى القرن العاشر الهجرى - لكى نتبين أهم هذه المؤلفات  
وقيمة ما سواها من مصنفات ، ومنزلة هذه وطك - فانتا نستطيع أن نقول :

١ - ان المؤلفات الأولى فى السيرة النبوية - كمؤلفات عروة بن الزبير  
ابن المصوام ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وموسى بن عقبة - وان كانت  
قد ضاعت - كانت أوفر صدقا وأكثر التزاما بتسجيل ما دق وجل  
من الأمور مما يتعلق بالسيرة النبوية ، واحكامها عن اعمال الهوى  
فى الانتقاء ، وكان المؤلف فى السيرة أشبه بالمحقق الذى يجمع  
ما بوسعه جمعه من المعلومات والحقائق .

وترجع سمة الصدق والصراحة فى هذه المؤلفات الى أسباب أهمها :  
أ - أن أكثر مؤلفى السيرة الأوائل كانوا من علماء الحديث ،  
ومن ثم طبقوا معايير علم الحديث والمناهج التى التزموا  
بها فيه من التحرى الشديد والدقة المتناهية والحرص على  
المناية بالسند .

نعم . . . طبقوا هذه المعايير على كتابة التاريخ والسيرة  
النبوية ارتضاها بها الى عوالم الصدق ، والسير المضى الى  
معالم الطريق . . . أضف الى ذلك الورع الشديد الذى  
التزموا به أثناء تأليفهم سواء أكانوا يكتبون فى النفس  
أو الحديث أو التاريخ ، وكان الورع فى التأليف عندهم ،  
يعنى التزام الصدق والأمانة ، وهما ما يسميان فى زماننا  
هذا بالروح العلمية ، أو بالموضوعية .

ب - أن القيم والمعايير والأذواق في عصرهم المقارب لعصر النبي لم تكن قد طرأ عليها بعد تغيير كبير ، وأن أحاديث الصحابة وأهل عصر النبي عن أحداث زمانهم وأفعال النبي وأقواله كانت لا تزال حية في أذهان التابعين . . أضف الى ذلك أن اعجابهم الشديد بشخصية النبي وحرصهم على الاحاطة بكل ما كان يصدر عنه من أقوال وأفعال ، وكل صغيرة وكبيرة تتعلق به ، ومن أجل ارساء دعائم الفقه والشرعة وصحة حكم الدين في أدق تفصيلات الحياة اليومية دفعاهم الى تسجيل كل ما يسمعون عنه ، لا ينتقون ولا يتخيرون ، ولا يستشعرون بحرج ازاء تدوين هذه الواقعة أو تلك ، فكل ما صدر عن النبي خليق بالتوقيف والدراسة ، وان كان هناك من الأفعال ما يصعب فهم بواطنه ، أو ما لا يتفق مع المرف الشائع ، فان المشكلة انما هي نفس تصور فكرهم عن ادراك المغزى الذي قد تكشف الأيام عنه ، أو الحكمة التي قد تتضح لأجيال لاحقة ، وكان هذا دون أدنى ميل منهم الى تقديم نبيهم ، ودون أن تنفي عن أذهانهم فكرة أن محمدا انما هو بشر مثلهم يوحى اليه . .

٢ - تعد سيرة ابن اسحاق ، من أهم كتب السيرة ، لأنها أول كتاب في السيرة النبوية وصل الى الأيدي ، كما تعد من أوفى الكتب في السيرة النبوية بالنسبة الى ما سبقها . أما أنها أول كتاب في السيرة وصل الى الأيدي ، فلأن ما ألف في السيرة النبوية على أيدي رجال الطبقة الأولى والثانية قد ضاع واندثر ، كما أن معظم موطئات رجال الطبقة الثالثة - التي يعد ابن اسحاق من رجالها - قد ضاع واندثر - ايضاً - ولم يبق من هذه المؤلفات جميعاً

شیء سوی نُقولِ وفقرات آوردتها کتب ابن اسحاق والواقدي وابن سعد والطبری . وأما أنها أوفى كتاب فی السيرة ، فلأن ما سبقها من مؤلفات ، كانت تتناول أجزاء من السيرة ، وحقا معينة منها ، ولم تكن بطبيعتها تنحو نحو الشمول والمصموم . أما سيرة ابن اسحاق فقد شملت السيرة كلها ، وكانت مرجعا هاما وأصيلا لكل من ألف فی السيرة من بعده ، ولذا صدق الشافعي حين قال : " من أراد أن يتبحر فی المغازی فهو عیال علی محمد بن اسحاق " .<sup>(۱)</sup>

(۱) تاریخ بغداد : ۱ : ۴۱۹ - الخافجی

٣ - لا يستطيع أحد أن ينكر فضل كتاب " المفازى " للواقدي ، الذي يورخ حياة الرسول في المدينة تأريخاً قائماً على منهج جديد لم يسبق إليه ، وهو بهذا يعد مرجعاً هاماً وأصيلاً لكل من حاول أن يكتب في السيرة ، خاصة الحقبة المدنية من حياة الرسول الكريم ، كما لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك الحرص والدقة والأمانة العلمية من تلك السمات التي امتاز بها منهج الواقدي ، وهو يصف الفزوات ، ويتحرى المشاهد ، ويتبع المواقع السببية كانت مسرحاً للعمليات الحربية - ومن هنا كان كتاب " المفازى " من الكتب الأولى الرائدة في كتب السيرة النبوية .

٤ - أما " الطبقات الكبرى " لابن سعد ، فيعد - أيضا - من أشهر المراجع التاريخية الإسلامية التي تؤرخ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة القرنين الأولين من تاريخ الإسلام ، حتى قال عنه بعض النقاد : " .. وهو المنبع الذي يمد الباحثين بموضوعات جديدة فى كتابة السير ، والبحث عن طرق الاستناد وكيفية تدوين الحديث ، ويعلمنا الشئ الكثير عن الأمــــــــــــــــور الاجتماعية المعقدة بحياة البيت والسوق وأمر الزى والطمــــــــــــــــام والشراب ، وعن جوانب من الأعمال والمهن والحياة التجارية ، وعن

كثير من النواحي الثقافية والأحكام الفقهية ، والصراع بين السُّنَّة والأهواء ... " (١)

٥ — يعد ما كتبه الطبرى فى السيرة النبوية ، فى كتابه : " تاريخ الرسل والملوك " رابع مصدر هام فى السيرة النبوية بعد " سيرة ابن اسحاق " و " مغازى الواقدي " ، و " طبقات ابن سعد " ، وذلك لما امتازت به هذه الكتابة من حرص على السند ، وأمانة فى النقل ، ودقة فى الرواية ، وتسجيل للنصوص التى وردت فى الروايات ، وما الى ذلك من السمات الموضوعية التى اتسم بها منهج الطبرى فى كتابه هذا . وهو بهذا يعد مرجعا هاما ومصدرا أصيلا لكل من كتب فى التاريخ العام أو فى السيرة النبوية .

والحقيقة أنه ما من كتاب من الكتب التاريخية والاسلامية التى جاءت بعده الا جُمِلَ تاريخ الطبرى مصدرا من مصادره " وأياما كسان ( الأمر ) ، فان كتاب " تاريخ الرسل والملوك " سيشمل بما اشتمل عليه من الروايات الأصلية ، والنصوص النادرة ، فى أسلوه الرائع الرصين ، أشمل كتاب للتاريخ عند العرب " (٢)

٦ — وبناء على ما تقدم نستطيع أن نقول : ان هذه الكتب الأربع : ( سيرة ابن اسحاق ، ومغازى الواقدي ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبرى ) هى — بالإضافة الى القرآن الكريم <sup>الحي</sup> — أهم مصادر السيرة . لما تمتاز به هذه الكتب من أمانة ونزاهة وموضوعية ، ولئن كانت هناك هناك تتعرض فى هذه الكتب — كما سبق أن أشار الباحث إليها — ان هذه الهنات لا تغض من منزلتها ، ولا تنقص من

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد . المجلد الأول ص ١٦ ، ١٧

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ج ١ ص ٢٦ .

أهميتها ، وستظل هذه الكتب هي المصادر الأصلية للسيرة النبوية .

٧ - لكن كتابة السيرة النبوية - بعد الطبرى - طرأ عليها تغيير ، وبدأت تتحرف عن هذا النهج الكتابى العربى الذى يمثل فنى الالتزام بالسند ، والحرص على الرواية ، والعناية بتسجيل الأحداث كما وقعت - وذلك نظرا لتعاقب الأجيال ، وهر القرون ، وتغيير الأذواق والقيم ، خاصة أن الذين تَوَلَّوْا الكتابة فى السيرة بمبدأ ذلك هم بعض الموالى<sup>من</sup> ذوى المعايير والمفاهيم المخالفة لمعايير العرب ومفاهيمهم ، فقد شُفِّلَ العرب أساسا بإدارة شؤون الدولة والامساك بدفة الحروب ، وعكف هؤلاء الموالى على الدراسة والكتابة فى مختلف العلوم والأخص علوم الدين ، حتى كان لهم التفوق فى مضارها .

وقد بدأ هذا الانحراف فى كتابة السيرة على أثر الفتوحات الاسلاميه ، ومحاولات نشر الاسلام فى البلدان المفتوحة ، وما أدت اليه هذه المحاولات من دخول الفاتحين فى مجادلات دينية مع أهلها ، خاصة من اليهود والنصارى ، فقد كان هؤلاء فى دفاعهم عن غفوق دينهم بشيرون السبى المعجزات الخارقة لأنبياء العهد القديم ، أو الى ترفع المسيح عن الشهوات والأغراض الدنيوية . وكان أن اختار المسلمون فى جدالهم أن يردوا بنسبة قدر متزايد من المعجزات الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، شبيهة أو غير شبيهة بمعجزات المسيح وأنبياء اليهود . .

وكان أن بدأت الأيدي تمتد الى السيرة لطمس بعض الحقائق أو اختراع القصص من أجل التخفيف من تأثير معين أو ازالته ، أو خلق تأثير معين أو تقويته ، وقد شجع ذلك على تناول بعض جوانب السيرة بالتزوير والتطفيق .

وكان نتيجة ذلك كله أن طرأ تدهور ملحوظ على أسلوب المؤلفات في السيرة ومنهجها بعد ما كتبه ابن اسحاق ، والواقدي ، وابن سعد ، والطبري . ومن هنا اتجهت معظم المؤلفات في السيرة بعد الطبري الى الاهتمام بدلائل النبوة وشمال الرسول فضائله وخصائصه ، وكان أن باتت هذه المؤلفات أقرب الى السيرة التي تتسم بتقديم الكاتب للمترجم - أو باظهاره بمظهر مثالي . ولم يجد بعض الكتاب ما يمنع من الاختراع والتلفيق والاضافة الى السيرة . . كي يخدموا أهدافهم ويحققوا أربهم .

وهذه المؤلفات - وان كانت لها قيمتها ومكانتها - لا يمكن أن تعد كتب سيرة بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة فقد باتت هذه الكتب أقرب الى الوعظ والارشاد منها الى الكتابة التاريخية .<sup>(١)</sup> وصار الغرض هو الكتابة عن مثل أعلى يحتذى لا العناية بتسجيل الحقيقة من أجل الحقيقة ، وذلك على أساس التشكك في قيمة الحقيقة ما لم تكن تخدم غرضا خلقيا أو دينيا ، وهو موقف يمكن أن يقبله فريق من الناس وأن يراه مشروعا الى يومنا هذا . ولم يجد بعض هؤلاء الكتاب ضيرا من الاختراع ان كان من شأن الاختراع تعزيز الايمان ، وطبقوا هذا المقياس في السيرة والحديث على السواء ، ومرار الزمن على وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - تضافت في الكتب والأذهان ملامح الصورة الواقعية الحية لبشر نبى خلق من لحم ودم ، ونمت الخرافات التي لا يقبلها عقل ، وقصص المعجزات التي لم ينسبها النسبي الى نفسه ، ولا الصحابة اليه ، ولا تحدث عنها القرآن الذي لم يستترك في سهيل اقناع خصم الدين بعدده - دليلا من دلائل نبوة محمد الا ذكره<sup>(١)</sup>

يقول . . احسان عباس : " وقد أضفت الكتب المتأخرة نوماً من

---

(١) راجع : مجلة المصطفى : المجلد ٢١٥ - صفحة ١٠٩ مع تصرف وتصويب .

التفديس على شخصية الرسول لا يُلمَح في المصادر الأولى ، ويظهر الرسول في أكثر الروايات المبكرة ، كما صوره القرآن " قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا " (١) ثم انصرف الكاتِبون في السيرة الى تدوين دلائل النبوة وشمال النبي ، وذلك أخذت العناصر التاريخية تتضاءل أمام الجوانب الخلقية في كتابة السيرة ، واتجه كتاب " الدلائل " من أمثال أبي نعيم والبيهقي ، ومؤلفو أعلام السيرة كالسجستاني والماوردي الى إثبات أكثر ما يمكن من المعجزات ونسبتها للنبي " . (٢)

\*\*\*

---

(١) الآية ٩٣ من سورة " الاسراء " .

(٢) راجع : فن السيرة : صفحة ١٧ مع تصرف

## باب الأول ::

## المسيرة النبوية والاسلوب العلمي الحديث

من خلال

"حياة محمد" لہیکل

- الفصل الأول : هواعث الكتابة فى السيرة عند هيكل  
 الفصل الثانى : طريقة هيكل ومعاتها  
 الفصل الثالث : أسلوب هيكل وخصائصه  
 الفصل الرابع : منهج هيكل وأسلوبه  
 الفصل الخامس : " حياة محمد " فى ميزان النقد



## الفصل الأول

:: بواعث الكتابة في السيرة عند هيكل ::

بواعث عامة .

بواعث خاصة :

- ١ - جهل الغرب بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .
- ٢ - التحول الفكري في حياة هيكل .
- ٣ - الرغبة في كتابة السيرة بأسلوب علمي :
- أ - المستشرقون والدعوة ضد الاسلام .
- ب - الحملات التبشيرية .
- ج - تنقيح السيرة ما شابهها .

### بواعث عامة :

في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن الميلادي حفلت المكتبة العربية بالمديد من الكتب التي تتناول الموضوعات الإسلامية ، سواء منها ما يتصل بالاسلام نفسه ، كشفا عن محاسنه ، وتوضيحا لمبادئه وتشريعاته وآدابه ، وإبرازا لآثاره المتعددة في ميادين الحضارة والمدنية . . . أو ما يتصل بالعالم الاسلامي ودراسة أحواله الماضية والحاضرة . . . أو ما يتصل بالشخصيات الإسلامية التي كان لها أثر بارز في تاريخ الاسلام ، وطبى رأس هذه الشخصيات ، شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، هل ان شخصية الرسول كانت صاحبة الحظ الأوفر فيها صدر من كتب في تلك الحقبة .

ويكفي للتدليل على ذلك أن نقول : ان أكثر من عشرين كتابا ، صدرت عن الاسلام ونسبى الاسلام في أقل من عام ، هذا عدا مجلات اسلامية كثيرة ، ومقالات عن الاسلام متفرقة .

وقد استغنت هذه الظاهرة نظر عدد من الباحثين ، فحاولوا تفسيرها ومعرفة أسبابها ، وهاهنا ومن هؤلاء الباحثين الاستاذ عباس محمود العقاد ، الذي كتب في أغسطس ١٩٣٥ - وقبل أن يكتب بحقيقاته - في جريدة " روز اليوسف " يقول : " نحو عشرين كتابا صدرت عن الاسلام في أقل من عام ، من أشهرها : " الاسلام والحضارة العربية " لكردي علي ، و " ضحى الاسلام " لأحمد أمين ، و " حياة محمد " للدكتور هيكل ، و " الاسلام والتجديد " لمتروجه عباس محمود العقاد ، و " طمس هامن الميرة " لطف حسين ، و " الشرق الاسلامي " لحسين مؤنس ، و " من أخلاق العلماء " للأستاذ محمد سليمان ، و " حاضر العالم الاسلامي " لمجاج نويهض ، وكتب أخرى عن حياة النبي لفريد وجدي ورشيد رضا ، وغيرهم من أفاضل العلماء ، وهذا عدا " مجلات اسلامية " كثيرة . . . وكل أولئك ظواهر اجتماعية هامة تستحق الدراسة والبحث ، ويزيد ههنا

استحقاقا ( لذلك ) أن معظم المؤلفين هنا من غير الدينيين المتفرغين  
للمسائل الدينية الذين لا يستغرب منهم طرق هذه الموضوعات " (١)

والمقاد يرجع هذه الظاهرة - بعد دراسته وتحليله لها - إلى  
سببين رئيسيين عامين : سبب عالمي ، وسبب شرقي .

يقول المقاد : " إن السبب العالمي الأكبر لهذه الظاهرة ، هو  
فشل الفلسفة المادية في اقناع العقول ، وإرضاء النفوس ، وطمأنة الضمائر  
بعد اجتياحها العالم زهاء قرن كامل ، واغترار الناس بها في غير طائل ،  
وانتظارهم منها التعليلات والتفسيرات التي تعبوا في البحث عنها والرجوع  
بها إلى الجامدين المتفنين وهم لا يفقهون بم يجيبون ، ولا يبجسون  
للناس أن يفقهوا ما يجهلون . أما السبب الشرقي فهو " البقعة المصرية "،  
واللياذ بالعتيدة التي تعيد ذكرى المجد القديم ، وتحصى أصحابها من  
غارات أعدائها في العصر الحديث ، ففي الحجاز واليمن والعراق وسوريا (٢)  
وفلسطين ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش والسودان والصحاري الأفريقية  
والهند والجزر الآسيوية : تحديث دائم عن الإسلام والمسلمين ووجهة دائمة  
في القرائن عن تاريخ المسلمين وزعماء المسلمين ، وما يرجى بعد اليوم  
للإسلام والمسلمين ، ومن كان قد اطلع على طرف من العلم " المصرية "،  
من أبناء هذه الأقطار المتراصة فهو يشتاق أن يرى الإسلام على هدى  
هذه الملهم المصرية " وأن يحكم الصلة بين زمانه وآرائه وبين ما سلف  
من الأزمنة والآراء ... (٣)

ويضيف المقاد إلى هذين السببين الرئيسيين أسبابا أخرى لا تقل  
عنهما قوة وخطورة ، ومن هذه الأسباب : الحركة التهشيرية ، والفرع من

(١) أعضاء على الأدب العربي المعاصر : ١١١ مع تصويب وتصرف

(٢) كذا يكتبها الناس وهو خطأ ، والصواب : سورية ، د سرحان

(٣) أعضاء على الأدب العربي المعاصر ص ١١١ .

## • الشيوعية

يقول العقاد : " والتشير على هذه الأسباب فى العمق والقوة ، فان حركة المبشرين قد اشتدت أثناء الأزمة المالية والضنك السياسى فحولت اليها كثيرا من سخط الناس عن الحالة الاقتصادية والحالة السياسية فسوق ما أثارته من غيرة على الدين وغيره الناقصين على الاستعمار . ويحيط بهذه الأسباب جميعا سبب شامل ، ذلك هو الفزع من الشيوعية والاعتصام منها بالمعائد الروحية التى لا تسخى المذاهب المادية (١) " .

والأسباب التى ذكرها العقاد تعليلا لهذه الظاهرة تشكل - فى الأعم الأغلب - الأسباب الرئيسة ، والبواعث الجوهرية وراء كتابات الغالبية العظمى من كتابنا المحدثين ، الذين تناولوا هذه الموضوعات بالبحث والتطيل ، وهذا يعنى أن هناك دوافع خاصة وبواعث معينة تتعلق بكل كاتب ، كانت وراء كتابه أو كتابته ..

\*\*\*

## بواعث خاصة :

وبهنا - ونحن نتحدث عن كتاب " حياة محمد " للدكتور محمد حسين هيكل - أن نستعرض البواعث والدوافع التى كانت وراء هذا الكتاب . والمتتبع لهذه البواعث وطك الدوافع ، يستطيع أن يرجعها إلى ما يأتسى :-

١ - جهل الغرب بحقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم :  
فمنذ بزغ فجر الاسلام وانتشر نوره ، والمسيحية لم يهدأ لها مضجع ،

---

(١) أضواء على الأدب العربى المعاصر ص ١١١ ، ١١٢ .

فوقفت من الاسلام ونبيه موقف الخصام . . والمداء ، بدأ بالمجادلات السلمية ، وانتهى الأمر بها أخيراً الى معارك قتالية ضروس ، ظلت مستمرة بين أتباع الاسلام وأعدائه . . قروناً متتالية ، ولم يقف القتال عند حرب الأسنة والمدافع ، بل انتقل كذلك الى ميدان الجدل والنضال الكلامي ، وفي الوقت الذي حال فيه الاسلام بين المسلمين والخط من مقام عيسى ، نرى الكثيرين من المسيحيين يتناولون الرسول بالتعرض ، وينعتونه بأوصاف يبرأ منها معروف الرجال ، شفاء لما في نفوسهم من غل ، واستفزازاً وحفزاً لشهوات الناس الدنيا .

يقول الدكتور هيكل : " . . . ورغم (١) ما وضعت الحروب الصليبية أوزارها منذ مئات السنين ، فقد (٢) ظل تعصب الكنيهة المسيحية ضد محمد على أشده الى عصور قريبة " . . (٣)

الشبهة

ويبحث الدكتور هيكل عن سبب هذه المداوة ، وتلك الخصومة الهوجاء والحرب المنيفة ، التي تثيرها المسيحية على الاسلام ونبي الاسلام ، وينتهي به البحث الى أن السبب في هذا كله ، هو جهل الغرب بحقيقة الاسلام وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يرى أن الجهل من أعقد أسباب الجود والتعصب وأشدّها استعصاء . (٤)

وإذا كان هيكل يرى أن جهل الغرب بحقيقة الاسلام وسيرة الرسول سبب من أسباب التعصب الأحق الذي قام به متعصبو المسيحية ضد الاسلام ونبيه — فإنه رأى لزاماً عليه أن يسهم بقلمه ، ويقوم بواجب الكشف عن حقيقة الاسلام ومبادئه ، وأن يزيح الفهار عن سيرة الرسول صلى الله عليه

(١) كذا يكتب الناس في المصور المتأخرة وهو خطأ ، والصواب : وعلى الرغم

من وضع الحروب ، الخ ، د / سرحان .

(٢) كذا يكتب الناس في المصور المتأخرة وهو خطأ ، والصواب حذف " فقد " .

(٣) حياة محمد ص ٣ (٤) المرجع السابق ص ١٢

وسلم • ذلك الفهار الذى أثاره أعداء الاسلام على تاريخ الرسول بقصد  
التزييف والتشويه •

## ٢ - التحول الفكرى فى حياة هيكل :

لعل هيكل قد اتجه الى كتابة السيرة النبوية خاصة ، والتاريخ  
الاسلامى عامة ، نتيجة تحول طبيعى فى تفكيره ، فقد حاول أن يتخذ  
من ترجمة الأدب الأوربى وسيلته الى خلق ثقافة عربية جديدة ،  
فلم يجد السبيل مهيئاً الى ذلك دون ارتباط حاضر الأمة  
بماضيها ، فاتجه الى الفرعونية ، محاولاً أن يربط بينها وبين  
حاضرنا ، فلما لم يجد ذلك هو الطريق الأمثل ، اقتنع بأن الطريق  
هو فى بحث تاريخنا العربى الاسلامى ، وذلك فى اجلاء صورة  
الرسول صلى الله عليه وسلم وصحه : أبى بكر وعمر ...

يقول هيكل : " خَيَّلَ إِلَى زَمَانَا - كما لا يزال يخيّل الى أصحابي -  
أن نَقَلَ حياة الغرب العقلية والروحية ( هو ) سبيلنا الى هذا  
النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي فى أنا ما نزال فى حاجة  
الى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله -  
لكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما نفسى  
الغرب ، منها ما هو غير صالح لأن ننقله ، فتاريخنا الروحى غير  
تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته ، خضع الغرب للتفكير  
الكينسى<sup>(١)</sup> على ما أقرته الباطنية المسيحية منذ عهدها الأول ، وفى  
الشرق برهنا من الخضوع لهذا التفكير ، بل حوربت المذاهب  
الاسلامية ، التى أرادت أن تقيم فى العالم الاسلامى نظاماً كينسياً<sup>(١)</sup>

---

(١) كذا فى الموضعين وهو خطأ وقع فيه جميع الكتاب: كبارهم والصغار ،  
والصواب : الكينسى وكينسيا • د / سرحان •

(تذيقه فيه) أهوال الحرب ، فلم تقسم لها فيه قائمة أبداً . . . كيف  
نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق ، وبين الغرب  
فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ؟ ، لا مفر إذن من أن  
نلتصق فى تاريخنا وفى ثقافتنا ، وفى أعماق قلوبنا وفى أطوار ماضينا هذه  
الحياة الروحية ، نحى بها ما فُتّر فى أذهاننا وجدد من قرائننا . وقد  
خفى هذا الكلام منذ سنوات كان لا يزال خفياً على كثيرين منهم ، وقد  
حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية ، وحياة الروحانية ،  
لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً ، لكننى أدركت بعد لى أننى أضع البذر  
فى غير مَنبَتِهِ ، فإذا الأرض تهضمه ، ثم لا تتمحض عنه ، ولا تهتم الحياة  
فيه ، وانقلبت ألتمس فى تاريخنا الحميد فى عهد الفراعنة مؤثلاً لوحى هذا  
المصر ، ينشأ فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن ، وإذا الركود العظمى ، قد  
قطع ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب ، ورويت فرأيت أن تاريخنا  
الاسلامى ، هو وحده البذر الذى ينبت ويشمر ، ففيه حياة تحرك النفوس ،  
وتجعلها تهتز وترى ، وعدت آمنا الى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها  
خليفة أن تضل السبيل ، وأن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها ،  
ومن ثم كانت الهوة التى زادت عمقا بين سواد الأم فى الشرق ، والدعوة  
الى اغفال ماضينا والتوجه الى وجهة الغرب ، بكل وجودنا ، وكان النفور  
عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية ، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته ، والحياة  
المعنوية هى قوام الوجود الانسانى للأفراد والشعوب ، ولذا لم يكن لنا مفر  
من العودة الى تاريخنا ، نلتصق فيه بمقومات الحياة المعنوية ، لنخرج من  
جمودنا ونتقى الخطر الذى دفعت الفكرة القومية الغرب اليه ، فأدامت فيسه  
الخصومة بسبب الحياة المادية التى جعلها الغرب إلهه .

ولم ألبث حين تهيئت هذا الأمر أن دعوت الى احياء حضارتنا  
الشرقية ، ومصدر الحضارة لنا الأرواح الضيئة لى ، كم فى ماضينا من

أرواح ذات<sup>(١)</sup> ضياء باهر ، قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الاسلامية خلقا جديدا ، كما بحث فلاسفة اليونان الحضارة الفهرية المدنية ، ومحمد ابن عبدالله هو النور الأول ، الذي استمدت هذه الأرواح منه ضياءها ، وهو الشمس التي أمدت كل هذه الأقمار بسناها ، لذلك جعلت سيرته موضع دراستي ... (٢)

### ٣ - الرغبة في كتابة السيرة بأسلوب علمي :

كانت الرغبة في كتابة السيرة النبوية بأسلوب علمي باخا من بواعث الكتابة في السيرة عند هيكل ... وكان وراء هذه الرغبة أسباب تدفع اليها وتحت عليها ..

#### أ - المستشرقون والدعوة ضد الاسلام :

لم تنته المعركة التي أثارها قديما - ضد الاسلام ونهيه - هؤلاء الحاقدون من متعصبين المسيحية ، بل ظلت المعركة مستمرة حتى العصر الحديث ، ولقد أخذ متعصبو العصر الحديث - من المستشرقين - دعاة مناهج البحث العلمي الحديث - من تخلف الشعوب الاسلامية وما أضيف الى كتب السيرة النبوية مدسوسا عليها من أشياء لا يصدقها العقل - أخذ هؤلاء المتعصبون من هذا كله ، سهيلا للطعن في الاسلام ، والافتراء على الرسول صلى الله عليه وسلم ، مُدَّعِينَ أنهم في كتابتهم عن الاسلام والرسول لا يبتغون سوى الحقيقة وحدها ، المبنية على أسس البحث العلمي .

(١) كذا يخطئ كثير من الكتاب ، والصواب : ذوات ضياء ، وفي القرآن

الكريم عن الشئ : " ذواتا أفنان " د / سرحان .

(٢) أضواء على الأدب العربي المعاصر ، ص ١٠٧ - ١٠٩ ، الجزء الخامس (فصل في)



والحقيقة أن هوى نفوسهم المريضة، هو الذى كان يحركهم الى ذاك الطمن وهذا الافتراء .

.. فاز أنت وقت عندما كتبه هؤلاء، رأيت تلمية شهوة الجدل والتجريح مصوغا فى عبارة لا تخلو من براءة، تستهوى اخوانهم فى المفيدة الى الظن بأن البحث العلمى المجرد النزاع الى الحقيقة وحدها، يريد أن يستشفها من وراء كل الحجب، هو الذى وجه هؤلاء المتعصبين من الكتاب والمؤرخين (١).

ولقد ساعد هؤلاء المستشرقين على ذلك، أن أحدا من المسلمين لم يقف فى وجههم كى يرد عليهم افتراءاتهم وأباطيلهم، بالأسلوب الذى يهتمون .. هذا بالإضافة الى تأييد الاستعمار الغربى لهم، وتأيسده كذلك دعاة الجود من المسلمين فى وقتهم ضد علماء المسلمين الذين تصدوا لمطاعن المستشرقين المتعصبين بحجة أن البحث فى الأمور الدينية ومناقشتها على هذا الوضع كفر والحاد، وكل ذلك بهدف القضاء على حرية البحث والرأى ..

ويتضافر مع هذا كله العمل على تأييد ما دس على الاسلام مما يبرأ منه الاسلام، وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يسوغ قبولها العقل.. وعلى تأييد الطاعنين على الاسلام والرسول .

هذا ما يراه هيكل، ويرى لزاما عليه ازاء هذه الأهداف الخبيثة

أن يحاول كتابة السيرة النبوية بطريقة علمية حديثة، فى محاولة ترد على أولئك الحاقدين حقدهم ..

هذا القول له نكهة كثرية، وهو من كلام  
مؤلف كتاب السيرة النبوية  
الذي هو من أهل زمانه  
أولئك المستشرقين

يقول هيكل : " .. وشعرت بأن على واجبا أقوم به في هذا الموضوع لافساد الفاية التي ترمى هذه الخطة اليها ، والتي تضر الانسانية كلها ، ولا يقف ضررها عند الاسلام والشرق .. ولذلك فكرت في هذا وفكرت طويلا ، وهداني التفكير آخر الأمر الى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الاسلامية ، وهدف<sup>(١)</sup> مطاعن المسيحية من ناحية ، وجمود الجامدين المسلمين من ناحية أخرى ، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة ، خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده " (٢) .

#### ب - الصلات التثييرية :

قلنا سابقا : ان من بواعث الكتابة للميرة النبهية ، في العصر الحديث ظهور تلك الحركة التثييرية ، التي استشرت في أوائل هذا القرن ، وتزيد القول السابق إيضاحا فنقول :

في نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات اتسع نشاط المبشرين المسيحيين في مصر اتساعا مخيفا ، حتى تناولت الصحف أخبار هذا النشاط ، وقالت : ان الجامعة الامريكية بالقاهرة هي مصدر هذه الدعايات التثييرية ، وان بها أركان الحرب التي تنظم هذه الدعايات ، وكان غيرها حقا هذا النشاط الذي أبسده المبشرون ، والذي لم يسمع بمثله من عشرات السنين ، فقد امتد هذا النشاط من القاهرة الى بور سعيد ، وإلى غيرها من المدن والأقاليم .

---

(١) كذا في كتاب " حياة محمد " واللغة لا تساعد عليه ، والصواب : " واستهداف مطاعن " ، أو " بهدف نقض مطاعن " أو " والههدف الى مطاعن " .. د / سرحان .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

وقد تحدثت الصحف عن وسائل الاغراء التى يلجأ اليها المبشرون  
لحمل السذج على اعتناق المسيحية ولتنصير الأطفال الأبرياء من أبناء  
المسلمين الفقراء .

وقد كان الدكتور هيكل من أشد المتحمسين لمقاومة هذا التهشير  
اقتناعاً منه أن هذه الحركة ، يقصد بها اضعاف ما فى النفوس من  
ثقة بدين الدولة ، ولما تتطوى عليه من قصد سياسى ، هو اضعاف  
معنويات الشعب باضعاف عقيدته ، كما أنه يرى فى هذه الحركة مقاومة  
لما يؤمن به من حرية الرأى ، فلغراء الناس بالوسائل المادية لحملهم على  
تغيير مذهبهم أو رأيهم ، هو محاولة دنيئة ، ومحاربة دنيئة أيضاً - لهذه الحرية ،  
وهو استغلال للضعف الانسانى ، كاستغلال المراهب حاجة مدينه ليقضه  
بالربا الفاحش ، كما أنه يرى فى التهشير - فضلاً عن هذا - منافاة لقواعد  
الخلق مادام يتم فى الظلام ، ولا يصارح القائم به الناس برأيه ، ليناقشوا  
هذا الرأى ، وليتبينوا ما فيه من زيف أو فساد .

وعن هذا النشاط التهشيرى يقول هيكل فى مذكراته :

" فى هذا الطور ظهر نشاط المبشرين بالمسيحية فجأة فنى  
ثوب مخيف ، وقد تحدثت الصحف عن وسائل الاغراء ، التى يلجأ اليها  
المبشرون لحمل السذج على اعتناق المسيحية ، ولتنصير الأطفال الأبرياء  
من أبناء المسلمين ، وارتاع الناس لهذه الحملة التبشيرية أيما ارتضاع ،  
وجعلوا ينظرون الى موقف الحكومة منها نظرة كلها عدم الرضا ، وتآلفت  
جمعية لمقاومة هذا التهشير ، كانت تجتمع فى دار الشبان المسلمين ، وكنت  
من أعضائها ، كذلك الشيخ محمد مصطفى المراغى ، الذى كان شيخاً  
للأزهر فى سنة ١٩٢٨ ، وكان انضمامه لهذه الجمعية التى تقاوم التهشير  
ما زاده قوة فى نظر الرأى العام ، وما دعا صدق<sup>(١)</sup> لحسب لهذا

(١) كذا وهو خطأ شائع بين الكتاب المعاصرين ، وصوابه : " صدقياً " =

الجو الجديد كل حساب ، وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفى منها ، أن دفعنى التفكير فى مقاومتها بالطريقة المثلى التى يجب أن تقام بها ، ورأيت أن هذه الطريقة المثلى توجب على أن أبحث حياة صاحب الرسالة الاسلامية ومبادئه بحثا علميا ، وأن أعرضه على الناس عرضا يشترك فى تقديره المسلم وغير المسلم " (١)

ج - تنقية السيرة النبوية مما شابها :

لعل من الأشياء التى رعى بها المستشرقون والمتعصبون الاسلام لعل من الأشياء التى رعى بها المستشرقون والمتعصبون الاسلام ونبى الاسلام ما وجد فى كتب السيرة من اضافات تتصل بالنسب صلى الله عليه وسلم وحياته ، مما لا يصدق المقل ولا حاجة اليه فى ثبوت الرسالة ..

يقول هيكى : " .. وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه المستشرقون واعتمد عليه الطاعنون على الاسلام ونبيه ، وعلى الأمم الاسلامية ، واتخذوه نكأتهم فى مطاعنهم المثيرة لنفس كل منصف ، واعتمدوا عليه وعلى ما ابتدعوه من عندهم وما زعموا أنهم يكتفونه على الطريقة العلمية الحديثة " .. (٢)

وكان لا بد ازاء هذا كله من جهة قوية تدحض مزاعم أولئك المتعصبين ، فقام بعض علماء المسلمين بهذه المهمة ، وكان على رأسهم الامام الشيخ محمد عبده ، وعلى الرغم مما بذله أولئك العلماء المسلمون من جهود فى هذا الصدد لم يفد بذلهم .. لأنهم لم يسلكوا فى ردودهم على مزاعم هؤلاء المتعصبين الطريقة العلمية

سواء بتشديد الياء على النسب أو تخفيفها على غيره . د / سرحان .

(١) مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٣٢٨ .

(٢) حياة محمد ص ١٥

التي زعم أولئك الكتاب والمؤرخون الأوروبيون أنهم يسلكونها ، لتكون لحجتهم قوتها في وجه خصومهم ، اذن لا بد من محاولة جديدة تعيد كتابة السيرة على منهج علمي حديث ، يصحح الكثير من الخرافات التي شاعت في الكثير من كتب السيرة ، وترد على المستشرقين والمتعصبين مزاعمهم وافترائهم . . . ذلك المنهج هو الذي يعتمد على الحقل وحده في اثبات ما يمكن اثباته ونفى ما يراد نفيه . .

هكذا رأى هيكل ، وأحسن - ازاء هذا - أن من واجبه القيام بهذه المحاولة الجديدة التي تهدف الى دراسة السيرة دراسة علمية حديثة . . . وكان على هيكل - قبل أن يشرع في هذه المحاولة - أن يراجع ما كتب في السيرة النبوية قديما وحديثا بأقلام اسلامية وغير اسلامية ، حتى يستطيع أن يقف على ما في هذه الكتابة من آراء ومذاهب ، سواء أكانت جادة أو منحرفة . .

يقول هيكل : " بدأت أراجع تاريخ محمد ، وأعيد النظر في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ومغازي الواقدي ، وعدت الى كتاب : سيد أمير على " روح الاسلام " ثم حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين فتلوت كتاب " دَرْمِنْجَم " وكتاب " وَاشْنَطُونْ إِرْفَنْج " ثم انتهزت فرصة وجودي في الأقصر في شتاء سنة ١٩٣٢ ، هذأت أكتب . . " (١) .

ولكن الطريقة العلمية الحديثة التي عالج بها هيكل كتابة السيرة النبوية ، جعلته يخشى ما يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد عليه ما يريد ، ومن هذه الزاوية أخذ ينشر ما كتبه عن " حياة محمد " فصولا في ملاحق السياسة وقدمها على أنها من تأليف

---

(١) حياة محمد ص ١٨ .

"أميل درمنجم" وترجمة وتعليق إميل . . . ولكن ما لقيه من إقبال وتشجيع طائفة من شيوخ المهاد ، جعله يفكر تفكيراً جدياً في تنفيذ ما اعترم عليه من كتابة " حياة محمد " على الطريقة العلمية الحديثة ، كتابة مفصلة ، وجعله يفكر في أمثل الوسائل في تحقيق السيرة تحييصاً علمياً . . فكان كتابه " حياة محمد " الذي نشر أول مرة عام ١٩٣٤ ، وأعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات .

## ٖٖ الفصل الثاني ٖٖ

... طريقة هيكل وساتها ...

تعريف بطريقة هيكل  
ساتها

- ١ - التحليل والتعليل للأحداث والوقائع
- ٢ - التعليق على الأحداث
- ٣ - التحقيق والتحصيل للوقائع والأحداث
- ٤ - الوصف والتصوير

### تعريف بطريقة هيكل:

ان الناظر في كتاب " حياة محمد " لهيكل ، يرى أن الكاتب قد فاجأ القارئ في تلك البرهنة التي ظهر فيها هذا الكتاب ، بطريقة جديدة ، لم يألها القارئ منذ مدة طويلة ، ولا أعنى بالطريقة أساس الطريقة . . فأساسها موجود في كتب السيرة القديمة المهذبة ، أمثال : ابن هشام ، وابن سعد ، وابن جرير الطبري وغيرهم . . وانما أعنى بالطريقة طريقة المعالجة .

وطريقة معالجة هيكل السيرة النبوية فيها جدُّ وفيها ابتكار ، لم يكونا مألوفين في الكتابات التي سبقت كتابة هيكل في العصر الحديث .

ذلك أن الكتابة في السيرة النبوية — منذ مطلع هذا العصر — الى أن جاء كتاب " حياة محمد " — كانت تسلك الطريقة التقليدية ، تلك الطريقة التي تعتمد على سرد الحوادث والوقائع التاريخية مجردة من التحليل والتعليل والشرح والتفسير ، ومناقشة الروايات وتمحيص الأدلة ، ومجردة من وقوف الكاتب أمام الحدث التاريخي يستطقه ، ومعاله ، كما أنها مجردة من رؤية الكاتب الخاصة وتفسيره الشخصي للأحداث والوقائع وما ينتهي اليه بعد ذلك من رأى .

وكما كانت الطريقة التي كانت السيرة تكتب بها مجردة من كل ما تقدم ، كان الأسلوب الذي تكتب به السيرة مجردا من الصبغة الأدبية التي تضاف على الفكرة جاذبية ورقة<sup>(١)</sup> ، ويستطيع القارئ أن يرى تلك الطريقة التقليدية واضحة في مثل كتابات الشيخ رفاعه الطهطاوى ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ رشيد رضا . . . في كتب " نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز " و " نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين " و

هذا التعليل ظهر منذ كتب السيرة النبوية  
الأسلوب الأدبي شىء من هذا السبيل  
الفاعل بنى الدلائل .



خلاصة السيرة المحمدية " وغيرها من الكتب التي تتحـو هذا النحو .

وظلت الكتابة في السيرة على ذلك النهج التقليدي حتى جاء هيكـل بكتابه هذا ، وفتح به لونا جديدا في مجال الكتابات الاسلامية ، أطلق عليه من بعد اسم " تأديب التاريخ " .

واذا كانت الطريقة التقليدية على النحو الذي ذكرنا ، فان طريقة هيكـل التي عالج بها السيرة جاءت مخالفة تماما لتلك الطريقة السابقة في المعالجة والأسلوب ، فلم يكن هيكـل يعنى بسرد الحوادث والوقائع فقط ، كما كان سابقوه ، بل كان يستعرض السيرة ، ويقف أمام الحوادث والوقائع شارحا ومحللا ، كما يقف أمام النص والدليل يوثقه ويحققه ويحصه ، ان كان يحتاج الى توثيق وتحقيق وتحصيل . . كما أنه كان يقف أمام النصوص موازنا بينها ان تعددت ، ويناقش الروايات ان اختلفت ، ويختار الراجح منها ويرفض المرجوح . . ولا يكتفى بذلك ، بل يضيف الى ذلك كله فهمه الخاص ورؤيته الخاصة ، وقد يخرج من خلال هذه الرؤية بتفسير جديد ، يدلل عليه ، ويسوق له الحجج والبراهين .

هذا من ناحية طريقة هيكـل في معالجة السيرة ، أما من ناحية الأسلوب فلم يكن هيكـل يعرض السيرة ، كما عرضها سابقوه في أسلوب سردي تاريخي جاف ، بل كان يعرض ما يعرض من أحداث ووقائع فـى أسلوب أدبي جميل ، بما يضيف من ذات نفسه على هذه الأحداث وتلك الوقائع ، من عواطف جياشة ، وخيال مهدع ، وتصوير جميل .

وهيكـل بطريقة معالجته السيرة على النهج الذي ذكرنا ، وأسـلـوبه الذي كتب به هذه السيرة ذو منهج متكامل ، يجمع بين التحليل والتحقيق والتعليق والتصوير . . . هذا المنهج الذي أطلق عليه هيكـل " الطريقة العلمية

## الحديثه .

يقول هيكل : " لعلى أكون أدنى الى الحق اذا ذكرت أنسى بدأت هذا البحث فى المربية على الطريقة العلمية الحديثه " (١)

ويشرح هيكل أساس طريقته هذه فيقول : " وقد تأخذ القارئ الدهشة اذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثه من شبه قوى ، فهذه الطريقة العلمية تقتضيك اذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة لك فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستتباط القائم على هذه المقدمات العلمية ، فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتحقيق ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هى أسس ما وصلت اليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته " (٢)

وطريقة هيكل هذه جديدة بالنسبة للحقبة التى ظهرت فيها ، ولكنها ليست جديدة فى تاريخ الدراسات الاسلامية المربية ، فقد اهتمها أسلافنا من علماء الاسلام ..

يقول الشيخ محمد مصطفى المراغى فى تقديمه لكتاب " حياة محمد " :

" أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن ، فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكماً والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المتكلمين ،

(١) حياة محمد ص ٢٢ .

(٢) حياة محمد ص ١١٢ ، ١١٣ .

وأنب من يتبع الظن ، وقال : " ان الظن لا يغنى من الحق شيئا " . .  
وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه ، وقد سائر الدكتور  
غيره من العلماء في هذا ، . . . ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف  
هو ، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين . . . وقد جرى الامام الفزالي  
على الطريقة نفسها ، وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع  
الآراء ، ثم فكر وقدر ، ورتب ووازن ، وقرب وباعد ، وعرض الأدلة وهذبها  
وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله الى أن الاسلام حق ، والى ما اهتدى  
اليه من الآراء " . (١)

وقد سبق أن ألمحنا آنفا الى طريقة هيكل ، وانتهينا الى أن  
طريقته قد جمعت بين التحليل والتعليق والتحقيق والتصوير ، وبنا نحن أولاً بصدد  
الحديث عن هذه السمات التي احتوتها طريقته في معالجته السيرة .

\*\*\*

### سماتها

#### ١ - التحليل والتعليق للأحداث والوقائع :

ولقد عني هيكل في هذا الجانب بإبراز الأحداث التاريخية  
والوقوف أمامها طويلاً بالشرح والتحليل والتفسير ، سائراً أغوارها  
ومفلساً نتائجها وغاياتها ، مخاطباً بذلك العقل والوجدان .

والمتصفح للكتاب يجد فيه الكثير من وقفات هيكل التحليلية  
للأحداث والوقائع وفلسفته لها ، ويكفى هنا أن نشير الى بعض

---

(١) مقدمة حياة محمد ص د .

هذه الوقفات - أمثلة ونماذج - محيلين القارئ الى صفحات الكتاب ،  
ليقف بنفسه على مالمح هذه المسمة . .

فى صفحة ٢٤٧ و ٢٤٨ ، يحدثنا هيكى عن واقعة اجلاء يهود  
بنى قينقاع بعد غدرهم ونكثهم المصهد ، وحرص الرسول على اجلائهم عن  
المدينة ، وعدم ابقائهم فيها ، وأمام هذه الواقعة وقف هيكى يشرح ويحلل  
ويحلل لماذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا على اجلائهم عن  
المدينة ، وينتهى من تحليله هذا الى أن الرسول كان يهدف من  
وراء ذلك الى هدف سياسى غاية فى الحكمة ومعد النظر : أن تخلص  
المدينة من العناصر غير المسلمة حتى يحفظ للمدينة وحدتها السياسية .

يقول هيكى : " خلت المدينة من اليهود بعد جلاء بنى قينقاع  
عنها ، فقد كان سائر اليهود المنتسبين للمدينة بمجيدا عنها بخيبر  
ووادى القرى ، ولهذا النتيجة كان يقصد محمد <sup>(١)</sup> من اجلائهم ، وهذا  
تصرف سياسى آية فى الدلالة على الحكمة ومعد النظر ، وهو مقدمة لسم  
يكن منها بد ، والآثار السياسية التى ترتبت بعد ذلك على خطة محمد ،  
فليس شئ " أضر على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها ،  
واذا كان نضال هذه الطوائف لا بد منه ، فهو لا بد منه الى تغلب  
طائفة على سائرهما غلبة تنتهى الى سيادتها .

وقد تحدث بعض المؤرخين منتقدا تصرف المسلمين ازاء اليهود  
زاعما أن حكاية المسلمة التى ذهبت الى الصائغ كان من المصير تسويتها  
مادام قد قتل من المسلمين رجلى ومن اليهود رجلى .

---

(١) كذا يكتب أكثر الناس ، والأولى : " كان محمد يقصد " . فسرطان .

وقد نستطيع دفع هذا القول ، بأن مقتل اليهودى والمسلم لسميح ما لحق المسلمين من اهانة فى شخص المرأة التى عبت اليهودى بها ، وأن مثل هذه المسألة عند العرب أكثر منها عند غيرهم من الأمم ، جدية أن شور لها التأثيرات وأن يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة ، وفى تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المظلمسون على هذا التاريخ ، ولكن هنالك الى جانب هذا الاعتبار اعتبارا<sup>(١)</sup> آخر أقوى منه ، فحدث المرأة كان من حصار بنى قينقاع واجلاهم عن المدينة ( مثل ) ما كان مقتل ولى عهد النمسا سيرواجيفو سنة ١٩١٤ من الحرب الكبرى التى اشتركت فيها أوروبا<sup>(٢)</sup> جميعا ، هو انما كان<sup>(٣)</sup> الشرارة التى ألهمت ما تَأَجَّجُ به نفوس المسلمين واليهود جميعا . . ( كان ) لهبها أدى الى انفجارها والى كل ما يحدث الانفجار من آثار . والحسب أن وجود اليهود والمشركين والمنافقين الى جانب المسلمين بالمدينة ، وما أذكى ذلك من أسباب الفرقة ، قد جعل المدينة من الناحية السياسية على بركان لا مفر له من أن ينفجر ، وقد كان حصار بنى قينقاع وجلالهم عن المدينة أول مظاهر هذا الانفجار<sup>(٤)</sup> .

وفى صفحات : ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ — يحدثنا هيكل عن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم رسله الى الملوك والأمراء بكتب يدعوهم فيها الى الاسلام ، ويبين هيكل بالشرح والتطيل والتعليل حكمة الرسول محمد نظره فى ارسال هؤلاء الرسل ، مع أن التفكير السائد فى ذلك الوقت كان يخشى منية هذا الارسال ، نظرا لمكانة دولتى الفرس

(١) كلمة " اعتبار " معناها الاتعاض ، والأولى : وجهها أو سببها أو داعيا .

(٢) كذا يكتبونها ، والصواب : " أوربة " بتاء التأنيت ، د / سرحان .

(٣) أسلوب فيه ركة وثقل ، والأولى " فكان الشرارة . . الخ " د . / سرحان .

(٤) حياة محمد ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

والروم ، التى قد تعرض العرب جميعا لنير كلتا الدولتين - وهى حكمة قائمة على أساس نظرة بعيدة المدى ، وعلى أساس رؤية نافذة على مستقبل الاسلام على أرض الدولتين كليهما .

وفيلسوف هيكى تلك النظرة البعيدة وهذه الرؤية النافذة ، حين يبين أن الرسول كان يعرف الأساس الذى قامت عليه كلتا الدولتين بحكم تحليله لكيانهما ، وهو كيان قائم على أساس مادى لا روح فيه ولا حياة ، وخلقى بدولتين تقومان على هذا الكيان أن تضمحلا وتزولا ، اذن فالرسول كان يعلم أن نهاية الدولتين قريبة ، وأنه اذ يرسل رسله الى هؤلاء الملوك والأمراء .. يرى أن الاسلام سوف ينتشر فى وقت قريب فى بلاد الفرس والروم ، لأن الدين الذى أتى به فيه جانب روحى افتقده الكيانان اللذان قامت عليهما الدولتان ..

يقول هيكى شارحا مصطلحا وفلسفا : " ويسير عليك اذ تذكر مكانة الدولتين أن تقدر ما يبعثه اسمها من الرهبة الى النفوس ، ومن الهيبة الى القلوب ، حتى لا تفكر دولة فى التمرض لهما ، ولا يدور بخلد أحد أن يفكر فى غير خطبة ودهما ، واذا كان ذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعا ، فقد كان أجدر ببلاد العرب أن يكون ذلك شأنها ، وقد كانت اليمن والعراق تحت نفوذ الفرس ، وكانت مصر والشام تحت نفوذ هرقل ، فكان الحجاز وسائر شبه الجزيرة ( العربية ) محصورا فى دائرة نفوذ " الامبراطوريتين " ، وكانت حياة العرب وقفا على التجارة مع اليمن ومع الشام ، فكانت بذلك محتاجة أشد الحاجة الى مصانعة كسرى وهرقل جميعا ، حتى لا يفسدا بسلطانهما عليها تجارتها .

ثم ان العرب لم تكن تريد على قبائل تشتد الخصومة بينها حينما وتهدأ حينما آخر ، ولا تهبط بعضها ببعض رابطة تجعل منها وحيدة

سياسية تستطيع أن تفكر في مواجهة نفوذ الدولتين العظيمتين ، ولذلك كان عجيبا أن يفكر محمد يوشد في أن يرسل رسله الى الملكيين العظميين ، والى غسان واليمن ومصر والحشة ، يدعوهم الى دينه دون خشية مما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربما تجر على بلاد العرب كلها الخضوع لنير فارس أو بيزنطة ، لكن محمدا لم يتردد في دعوة هؤلاء الملوك جميعا الى دين الحق . .

أليس ارسال محمد هؤلاء الرسل عجا يثير الدهشة ! أو ليس أشد اشارة للدهشة ألا تمضي ثلاثون عاما بعد ذلك ، حتى اذا هـذه البلاد <sup>(١)</sup> التي أرسل محمد اليها رسله قد فتحتها المسلمون وقد اعتنقوا كبرها الاسلام ؟ لكن هذه الدهشة ما تلبث أن تتلاشى حين نذكر أن الامبراطوريتين العظيمتين - اللتين كانتا تزعمان تحضير عالم ذلك العصر ، وكانت حضارتهما هي الغالبة على العالم كله - انما كانتا تتنازعان الغلب المادى ، على حين كانت القوة الروحية فيهما جميعا قد انحلت واضمحلت ، فقد كانت فارس مقسمة بين الوثنية والمجوسية ، وكانت مسيحية بيزنطة قد اضطربت بين مختلف المذاهب والفرق ، فلم تظلم عقيدة سليمة تحرك النفوس ، وتقوى القلوب ، بل انقضت طقوسا يهيم بها رجال الدين على عقول السواد لحكمه واستفاله .

أما الدعوة الجديدة التي يدعو محمد اليها فكانت روحية صرفة ، وكانت ترتفع بالانسان الى أعلى مراتب الانسان وحيثما التقت المادة والروح ، وحيثما انتطح هم الحاضر بأمل الخلود ، انهزمت المادة وعنا وجسده الحاضر . . . <sup>(٢)</sup>

---

(١) واضح أن هذا التمييز ركيز ان لم يكن فاسدا ، والصواب : حتى

كانت هذه البلاد . . . الخ ، د / سرحان .

(٢) حياة محمد ص ٣٥١ - ٣٥٤ .

وللقارئ أن يتصفح — بالاضافة الى ما أوردنا من أمثلة — صفحات : ١٣٨ الى ١٤٥ ، ليرى كيف تناول هيكل بالشرح والتحليل والتعليل الأسباب التي منعت قريشا من متابعة الرسول . . . ويتصفح — أيضا — صفحات : ٤٤٥ الى ٤٥٠ ، ليرى — أيضا — كيف تناول هيكل بالشرح والتحليل والتعليل أسباب نزول سورة براءة . . .

وما أوردنا من أمثلة ، وما أظننا القارئ الى مثلها في الكتاب ، إنما هو على سهيل المثال وليس الحصر ، ويستطيع القارئ أن يلمح — بيسر — خصوصية التحليل في غالب صفحات الكتاب .

## ٢ — التعليق على الأحداث والوقائع :

وكما قام هيكل بشرح الأحداث وتحليلها وتعليل أسبابها وكشف نتائجها — كما سبق أن أوضحنا — كان — أحيانا — يكتفى بعد استعراض الأحداث والوقائع ، بالتعليق عليها ومحاولة القاء الضوء حواليتها .

ففي صفحتي : ١٠٥ ، ١٠٦ يعلق الكاتب على دعوة محمد قومه الى عبادة الله وحده لا شريك له ، دون اتخاذ وسطاء أو أنداد أو شركاء . . . يعلق الكاتب على دعوة محمد هذه ، ويرأها دعوة الى الحرية ، لأنها دعوة تنتزع من دعوا اليهيا من برائن التقليد الأعى واليهودية المقوتة التي وجدوا عليها الآباء والأجداد ؟ . . . تنتزعهم من داء التقليد وذل المبودية الى عبادة اله واحد ، ليس بينه وبين من يعبدونه وسطاء أو شركاء . . . وتلك هي الحرية بأسمى معانيها . . . فلا وسطاء ولا شركاء يحولون بين الاله الواحد وبين من يعبدونه . . .



يقول هيكل - بعد استعراضه دعوة الرسول الناس الى عبادة الله وحده ، ونهذ ما يعبدونه من دون الله - : " وأى شيء خير مما يدعو اليه محمد ؟ إ أليس هو يدعو الى الحرية إ الى الحرية المطلقة التى لا حدود لها إ الى الحرية العزيزة على نفس المربى اعزازه حياته . نعم إ أليس يطلق الناس من التقيد بأية عبادة غير عبادة الله وحده إ أليس يحطم كل ما بينهم وبينه من أغلال : لا هبل ولا السلات ولا المعزى ، ولا نار المجوس ولا شمس المصريين ولا نجوم عباد النجوم ولا الحواريسون ولا أحد من الانس أو من الملائكة أو من الجان يَحْجُبُ بين الله والانسان ، وأمام الله ، أمامه وحده لا شريك له 'يَسْأَلُ' الانسان عما قدم من خير أو شر ، وأعمال الانسان هى وحدها شفيعه ، وضميره هو الذى يزن أعماله ، وهو وحده صاحب السلطان عليه ليتقدم يوم تُجْزَى كل نفس بما كَسَبَتْ . .

أية حرية أوسع مدى من هذه الحرية التى يدعو محمد اليها ؟ وهل يدعو أبو لهب أو أبو سفيان الى شيء من مثلها ؟ أم هم يدعون الناس لتظل نفوسهم فى رِق وعبودية بما تَكْدَسُ عليها من خرافات حُجِبَتْ عنها نور الحق وضياء الهدى " (١)

والناظر فى كتاب هيكل يرى كثيرا من مثل هذه التعليقات السقيمة تعقب استعراض الأحداث أو الوقائع استعراضا يلقى الضوء عليها ، كما أشرنا آنفا . . .

### ٣ - التحقيق والتحميص للوقائع والأحداث :

وكما رأينا هيكلنا واقفا أمام الأحداث والوقائع شارحا ومحللا

(١) حياة محمد ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

ومحللا ومفسرا ، وكما رأيناه محلقا على الأحداث والوقائع ، ملقيا الضوء عليها - كما مر في الجانب التحليلي - نجد هيكلا لا يكتفى بذلك ، بل كبيرا ما يقف أمام الأحداث والوقائع محققا ومحصا ، وذلك اذا كان الحدث التاريخي أو الواقعة التاريخية يحتاجان الى تحقيق وتحصيل ..

وهو في ذلك يستعرض أولا الحدث التاريخي ، ثم يتناول جوانبه المختلفة من ايراد الأدلة والنصوص التي تؤيده ، ثم يحقب على ذلك بمناقشة لتلك الأدلة والنصوص ، وما يترتب على تلك المناقشة من تأييدها أو تضعيفها .

وقد يستلزم ذلك ايرادا لروايات ونصوص مؤيدة لتلك الأدلة أو مضعة لها .. ثم ما ينتهي اليه الأمر بعد ذلك من اختيار للدليل القوى المدعوم بالروايات القوية ، وفي المرور بطك المراحل وصول الى تحقيق الحدث أو الواقعة ووضع كل منهما في مكانه الصحيح من مسار الأحداث التاريخية ..

ولتوضيح الجانب التحقيقي في كتاب هيكل ، يكفي أن نشير الى بعض الأحداث والوقائع التي حققها ومحصها وانتهى فيها الى رأى وموقف - أيا كان هذا الرأى وذلك الموقف - خاصة تلك الأحداث والوقائع التي كثر حولها اللغط والجدل ، وكانت مثار طعن وموضع افتراء من جانب المستشرقين والمتشككين .

وها هي ذى بعض الأحداث والوقائع التي رأينا الإشارة اليها من خلال استعراضنا للكتاب مثل : " قصة زواج الرسول بزینب بنت جحش " ( ص ٢٨٣ - ٢٩٤ ) ، و " الفزوات الأولى والفرص منها " الفصل الثاني عشر " ، وقصة " الفرانيق " .

ولعله من المفيد أن نختار أحد هذه الأحداث - ولتكن - قصة " الفرانيق " - لنتناولها بالشرح والتحليل ، ولنقف من خلالها على طريقة هيكل في تحقيق الأحداث واستعراض الأدلة ، ومناقشة الروايات .

في الفصل السادس من الكتاب يتناول الكاتب قصة " الفرانيق " بالشرح والتحليل ويمرض للآراء التي وردت في شأنها ، ثم يمرض للأدلة ويناقشها ، ثم يضمنها في موضعها الصحيح ، وينتهي من ذلك إلى الرأي الحق في هذه القصة ، كما يتناول الكاتب بالشرح والتحليل الحدث التاريخي الذي صاحب هذه القصة ، وهو عودة مهاجري الحبشة إلى مكة ، ويبرهن على أن قصة الفرانيق لم تكن سببا لعودتهم - كما زعم الكثيرون - ثم هو لا يقف عند نفى سببية حادثة الفرانيق لعودة المهاجرين ، بل يشرح الأسباب الحقيقية التي أدت إلى عودتهم . . . كل ذلك بأسلوب علمي منطقي يعنى بتحليل الأحداث وعرضها عرضا علميا مدعوما بالأدلة والبراهين .

ويتخذ الكاتب من الحديث عن عودة مهاجري الحبشة إلى مكة مدخلا إلى قصة الفرانيق ، فبعد استعراضه لحدث عودة مهاجري الحبشة إلى مكة وتحليله لهذا الحدث التاريخي ، وجريه وراء الأسباب الستة أدت إلى عودتهم - يأتي الحديث عن قصة الفرانيق ، لأنها - كما يزعم الكثيرون - من أسباب عودة المهاجرين إلى مكة ، وكان لا بد - اتصالا للحديث واستكمالا لجوانبه - من أن يستعرض قصة الفرانيق هذه ويحللها على طريقته التي أشرنا إليها ليضعها في موضعها الصحيح ، من أحداث السيرة النبوية . .

يقول هيكل : " . . أي داع حفز مسلمي الحبشة إلى العودة بعد ثلاثة أشهر من مقامهم ؟ . . . هنا يرد حديث الفرانيق . . (١) "

ويأخذ الكاتب في عرض هذه القصة وتحليلها وتحقيقها فيقول : " . . . وحديث الفرانيق : أن محمدا لما رأى من تجنب قريش إياه وأذاهم أصحابه تمنى ، فقال : ليته لا ينزل عليّ شيء <sup>١</sup> يُنْفَرَهُمْ عني ، وقارب قومه ، ودنا منهم ، ودنوا منه — ، فجلس يوما في ناد من تلك الأنديسة حول الكعبة ، فقرأ عليهم سورة " النجم " حتى بلغ قوله تعالى : **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمُرَيَّ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (١)** . فقرأ بعد ذلك : تلك الفرانيق العلاء . وان شفاعتهن لترتجى " . ثم مضى وقرأ السورة كلها وسجد في آخرها ، وسجد القوم جميعا لم يتخلف منهم أحدا ، وأعلنت قريش رضاها عما تلا النبي ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، أما إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك ، ولذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم وفشا أمر ذلك ففى الناس حتى بلغ أرض الحبشة ، فقال المسلمون بها : عاشئنا أحب إلينا ، وخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لَقُوا رُكْبًا من كِبَاةٍ فَسَأَلُوهم ، فقالوا : ذكر آلهتهم بخير ، فتابعه الملاء ثم ارتد عنها ، فعاد لستم آلهتهم ، وعادوا له بالشر ، واَثْتَمَرَ المسلمون — يصنمون ، فلم يطيقوا عن لقاء أهلهم صبرا فدخلوا مكة " (٢)

ثم يروى هيكلا ما ذكرته الروايات من ارتداد محمد عن ذكر آلهة قريش بالخير ، وهو أنه كبر عليه قول قريش : " أما إذ جعلت لآلهتنا نصيبا فنحن معك " وأنه صلى الله عليه وسلم جلس في بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل وعرض النبي عليه سورة " النجم " ، فقال جبريل : **أَوْحِثُكَ بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ ؟** مشيرا الى : " تلك الفرانيق العلاء . وان شفاعتهن

(١) الآيتان : ١٩ ، ٢٠ من سورة النجم .

(٢) حياة محمد ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

لترتجى " . قال محمد : قلت على الله ما لم يقل ، ثم أوحى اليه :  
 " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا  
 لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا <sup>(١)</sup> الخ " .

ويعلق هيكلى على حديث " الفرانيق " هذا بقوله : " . . . وهو  
 حديث ظاهر التهاوت ، ينقضه قليل من التحيص ، وهو بحد حديث ينقض  
 ما لكل نبي من العصمة فى تهليخ رسالات ربه ، فمن عجب أن يأخذ  
 به بعض كتاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين ، ولذلك لم يتردد ابن  
 اسحاق حين سئل عنه فى أن قال : انه من وضع الزنادقة " <sup>(٢)</sup>

ومعد أن أورد لنا هيكلى حديث " الفرانيق " ، شرع فى ايراد  
 أدلة القائلين بهذا الحديث ، ثم شرع فى مناقشتها مناقشة علمية . .

يذكر هيكلى أن هؤلاء القائلين قد احتجوا بالآيات الكرسيّة :  
 " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ . . . " وهذه الآيات : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ  
 رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسُجُ اللَّهُ مَا يَلْفِظُ  
 الشَّيْطَانُ " <sup>(٣)</sup>

كما يذكر هيكلى حجة لبعض هؤلاء القائلين وهو " السير : ولهم  
 موير " - يراها قاطعة بصحة حديث الفرانيق ، وهى عودة مهاجرى  
 الحشّة الى مكة ، ولم يك قد مضى على هجرتهم اليها غير ثلاثة أشهر  
 أجارهم النجاشى أثناءها وأحسن جوارهم .

(١) الآية : ٢٣ من سورة الاسراء .

(٢) حياة محمد ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) الآية : ٥٢ من سورة الحج .

وهو يرى أنه لو لم يكن قد تراسى اليهم خير الصلح بين محمد وقريش، لما دفعهم دافع إلى العودة، حرصاً على الاتصال بأهلهم وعشائهم وان هذا الصلح لن يكون إلا إذا سعى محمد إليه، لأنه الأقل نفراً والأضعف قوة ..

ومع أن يذكر هيك الحجاج القائلين بهذا الحديث - يشرح في تحليلها ومناقشتها ، ومناقش هيك هذه الحجج ، ويبدأ بمناقشة حجة سير : ولیم مویر ، ودفعها، بذكر الأسباب الحقيقية التي دفعت هؤلاء المهاجرين نحو العودة إلى مكة ، ويرجمها إلى سببين : أولهما : اسلام عمر الذي تم بعد هجرتهم بقليل، وما حصل بعده من هدنة بين المسلمين وقريش ، بلغ خبرنا مهاجري الحشة ودعاهم إلى التفكير في العودة إلى مكة . ثانيهما : تلك الثورة التي شبت في الحشة على النجاشي ، والتي كان من أسبابها عطفه على المسلمين ، فخير لهم أن يدعو الفتنة وراء ظهورهم ، لا سيما أنهم ترامت اليهم أخبار الهدنة بين محمد وقريش ، هدنة أنجت المسلمين مما كان يصيبهم من الأذى وينتهى من ذلك إلى أنه ليس الصلح الذي يشير إليه المستشرق : مویر ، هو اذن الذي دعا المسلمين إلى العودة من بلاد الحشة ، فتأييد حديث الفرانيق بحجة الصلح تأييد اذن غير ناهض .

ثم يتناول بعد ذلك الآيات التي احتج بها المحتجون من كتاب السير والمفسرين ، فيقول : " أما احتجاج المحتجين من كتاب السير والمفسرين بالآيات : " وان كادوا ليفتنونك .. " والآيات : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان فـ في أمنيته .. " فهو احتجاج أشد تهافتاً من قصة السير مویر ، ويكفى أن نذكر في الآيات الأولى قوله تعالى : " ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا " لنرى أنه ان كان الشيطان قد ألقى في أمانة الرسول حتى

لقد كاد يركن اليهم شيئا قليلا ، فقد ثبته الله فلم يفعل ، ولو أنه فعل لأذاقه ضعف الحياة وضعف السمات ، واذن فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مطلوب ، فقصة الفرانيق تجري بأن محمدا ركن السي قريش بالفعل ، وأن قريشا فتنته بالفعل ، فقال على الله ما لم يقل ، والآيات هنا أن الله ثبته فلم يفعل .

فاذا ذكرنا ذلك أن كتب التفسير وأسباب التزول جعلت لهذه الآيات موضعا غير مسألة الفرانيق ، رأينا أن الاحتجاج بها في مسألة تتنافى مع عصمة الرسل في تبليغ رسالاتهم ، وتتنافى مع تاريخ محمد كله ، احتجاج متهاافت ، بل احتجاج سقيم .

أما الآيات : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي .. " فلا صلة لها بحديث الفرانيق ألبيته ، فضلا عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ، ويجعله فتنة للذين في قلوبهم مرض ... " (١)

ومعد أن ناقش هيكل حجج القائلين بحديث الفرانيق نقاشا انتهى منه الى رفضها ودفعها - انتقل منه الى تحييص قصة الفرانيق تحييصا علميا لا يدع مجالا لأي ناظر اليها الا أن يؤمن بعدم صحتها ، وذلك بعرض العديد من الأدلة المتنوعة التي تدل على تهافت القصة وعلى أنها موضوعة ..

يقول هيكل : " وأول ما يدل على ذلك تعدد الروايات فيها ، فقد رويت كما سبق القول على أنها : " تلك الفرانيق العجلا . " وان شفاعتهن لترتجى . " ورواها بعضهم : " الفرانقة العجلا . " ان شفاعتهن

ترتجى " وروى آخرون : ان شفاعتهن ترتجى . دون ذكر الفرائقة أو الفرائيق . وفى رواية رابعة : " وانها لهن الفرائقة العلا " وفى رواية خامسة : " وانهن لهن الفرائيق العلا . وان شفاعتهن لهن التى ترتجى .

" وهذا التعمد فى الروايات يدل على أن الحديث موضوع ، وأنه من وضع الزنادقة ، كما قال ابن اسحاق ، وأن الغرض منه التشكيك فى صدق تهليخ محمد رسالات ربه .

ودليل آخر أقوى وأقطع وهو سياق سورة النجم وعدم احتماله لسألة الفرائيق ، فالسياق يجرى بقوله تعالى : " لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى . أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَازَى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْثَى وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى " (١) وهذا السياق صريح فى أن اللات والمزى أسماء سماها المشركون هم وأباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان ، فكيف يحتمل أن يجرى السياق بما يأتى : " أفرايتم اللات والمزى . ومناة الثالثة الأخرى . تلك الفرائيق العلا . ان شفاعتهن لترتجى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك اذن قسمة ضيزى . ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان .

ان فى هذا السياق من الفساد ومن الاضطراب والتناقض ، ومن مدح اللات والمزى ومناة ، ومنها فى أربع آيات متعاقبة ما لا يسلم به عقل ، ولا يقول به انسان ، وما لا تنفى معه شبهة فى أن حديث الفرائيق مفتري وضعه الزنادقة لغاياتهم ، وصدقه من يسيفون كل غريب ، ومن تعجل عقولهم ما لا يسوغ العقل " . (٢)

(١) الآيات : ١٨ - ٢٣ من سورة النجم .

(٢) حياة محمد ص ١٢٨ ، ١٢٩ .



ثم يسوق هيكل حجة لقوية للامام محمد عبده ، يقول هيكل :  
« وحجة أخرى ساقها المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده ، حين كتب  
يفند قصة الفرانيق ، تلك أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الفرانيق لسم  
يرد في نظمهم ولا في خطبهم ، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان  
جاريا على المنتهم ، وإنما ورد الْفَرَنْوَقُ وَالْفَرَنْيَقُ على أنها لطائر مائى  
أسود أو أبيض ، وَالْفَرَنْيَقُ الشَّابُّ الأَبْيَضُ الجميل ، ولا شئ من ذلك  
يلئم معنى الالهة أو صفها عند العرب » . (١)

ثم يورد هيكل حجة قاطعة الدلالة على استحالة قصة الفرانيق ،  
استشفها من حياة محمد نفسه وهى أن حياة الرسول كلها كانت صدقا  
فى صدق ، فلم يجرب عليه كذب طيلة حياته حتى سمى بالأمين ، وإذا كانت  
أخلاقه وصفاته تمنعه من الكذب على الناس فكيف يكذب على الله ويقول عليه  
ما لم يقل ؟ .

يقول هيكل : " فالرجل الذى عرف بالصدق فى صلاته بالناس  
منذ نعومة أظفاره الى كهولته ، كيف يصدقُ انسانٌ أنه يقول على راسه  
ما لم يقل ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه .

هذا أمر مستحيل يدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القوية  
المتأزة التى تعرف الصلابة فى الحق ، ولا تداجى فيه لأى سبب ، وكيف  
تَرَى يقول محمد : لو وضعت قرىش الشمس فى يمينه والقمر فى شماله على  
أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه ما فعل ، ثم يقول على الله ما لم  
يَوِّ اليه ، ويقول له لينقض به أساس الدين الذى بعثه الله به هدى ومشرى  
للمالين ! !

حتى يرجع الى قريش يمدح آلهم بعد عشر سنوات أو نحوها  
من بعثهم <sup>(١)</sup> ومعد أن احتل هو وأصحابه في سبيل الرسالة من السوان  
الأذى وصنوف التضحية ما احتل إلا ، ومعد أن أعز الله الاسلام بحمزة وعمر إلا  
ان القول بذلك حديث خرافة ، وأكذوبة مسجوجة " (١)

ثم يذكر أن الذين اخترعوا هذه القصة شعروا بسهولة افتضاحها  
فأرادوا سترها بقولهم : ان محمدا ما كاد يسمح كلام قريش ، اذ جعل  
لآلهتهم نصيبا في الشفاعة حتى كبر ذلك عليه وحتى رجع الى الله  
تائباً أول ما أمسى ببيته وجاءه جبريل فيه .

لكن هذا الستر أخرى بأن يفضحها .

يقول هيكل : " فإدام الأمر قد كبر على محمد منذ سبع مقالة  
قريش ، فما كان أحراه أن يراجع الوحي لساعته وما كان أحراه أن يُجْزِي  
الوحي الصواب على لسانه " (٢) .

ثم يذكر في النهاية دليلاً على بطلان هذه القصة وهو أن  
الذين اخترعوا هذه القصة ونسبوها الى الرسول الكريم ، قد فاتهم أن ما  
اُفْتَرِوهُ على الرسول وادَّعَوْهُ عليه يُعَدُّ اقترافاً في لب الدعوة الاسلامية  
وهو التوحيد .

يقول هيكل : " وأعجب ما في جرأة هؤلاء المفترين أنهم عرضوا  
للاقتراف في أم مسائل الاسلام جميعاً : في التوحيد ، في المسألة السني  
بعث محمد لتبيينها للناس منذ اللحظة الأولى ، والتي لم يقل فيها منذ

---

(١) حياة محمد ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠ .

تلك اللحظة هوادة، ولا أماله عنها ما عرض عليه قريش أن يحطوه ما يشاء من المال أو يجعلوه ملكا عليهم ، وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد اتهمه من أهل مكة إلا عدد يسير ، وما كان أذى قريش لأصحابه ليجمعه يرجع عن دعوة أمره به أن يملأها الناس . . . .<sup>(١)</sup>

ومن خلال قصة الفرانيق ، رأينا طريقة هيكل ومنهج في تحقيق الأحداث، وتحصيل الوقائع، ومناقشة الأدلة، وتحليل الحجج ، ورأينا طريقته في عرضه أدلته التي يسوقها تدليلا على صحة ما يذهب إليه . . .

ففي هذه القصة يبدأ بشرحها، ثم يورد بعد ذلك حجج القائلين بها ، وبعد ذلك يتناول هذه الحجج بالمناقشة والتحليل، حجة اثر حجة مبينا بالمنطق القاطع والبرهان الساطع بطلانها وعدم صحتها ، ثم ينتقل بعد ذلك الى أدلته هو التي يراها قاطعة في التدليل على بطلان هذه القصة . .

وهيكل في الأدلة التي ساقها هو تدليلا على تهافت هذه القصة ، بل على اختلاقها - يترقى من دليل الى دليل .

فهو - أولا - يدلل على تهافت القصة بتعدد رواياتها - - - يقوى أنها موضوعة .

ثم يسوق - ثانيا - دليلا أقوى من سابقه ، وهو أن سياق سورة " النجم " يأبى عقلا ومنطقا مسألة الفرانيق ، لما يترتب على ذلك من فساد السياق واضطرابه وتناقضه .

ثم يسوق - ثالثا - دليلا لفيها ، وهو أن كلمة الفرانيق - - - ترد في كلام العرب ، وما ورد من هذه المادة ، وهو الفرنوق والفرنيق ،

لا شيء منه يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب .

ثم يسوق — رابعا — دليلا تاريخيا ، استقاه من تاريخ الرسول نفسه ، وهو صدقه وأمانته ، وإذا كان صدق محمد وأمانته يمنعانه — من الكذب على الناس ، فكيف يكذب على الله ؟ .

ثم يورد هيكل — خامسا — دليلا ، لعله في نظري ، أقوى الأدلة على اختلاق قصة الترانيق وكذب مخترعيها ، وهو أن قصة الترانيق لا يمكن أن تقع ، لأنها تتعارض مع الهدف الأصلي لرسالة الرسول ، وهو الدعوة إلى التوحيد . فلا يعقل أن يقول الرسول مثل هذا الكلام ، وهو — الذي جاء لينشر التوحيد بين العالمين !

وهكذا يترقى هيكل ، فينتقل من دليل إلى دليل .. بل ينسجع بين هذه الأدلة ، فمن دليل على .. إلى دليل بيماني قرآني . . إلى دليل لغوي .. ثم إلى دليل تاريخي .. ثم إلى آخر عقدي .. فإذا بالقارئ في النهاية قد سلم بما سلم به الكاتب ، وهو مطمئن النفس بأريته الفؤاد .

\*\*\*

#### ٤ — الوصف والتصوير :

وفي هذا الجانب نرى هيكل الأديب الفنان ، الذي يصور بخلجات نفسه ، وخواطر قلبه بعض أحداث السيرة ووقائعها ، تلك الأحداث التي أثارت عاطفته وهذه الوقائع التي هزت فؤاده ، فإذا به يصوغها في قالب أدبي جميل ، يبرز فيه انفعاله بالحدث وتأثيره به ، ويرسم فيه نوازع النفس وخواطرها ، كما يصور انفعالاتها وما تمر به من عواطف ومشاعر .

ولعل من المواقف التي هزت عاطفته ، وحركت مشاعره ، ذلك الموقف الذي صور فيه نفسية الرسول الكريم ، يوم سمع ما سمع من كلام يتصل بشرف زوجه الطاهرة السيدة عائشة رضى الله عنها .

سَمِعَ رَسُولُ

لقد استطاع هيكَل أن يصور نفسية الرسول وما تجيش به من هواجس لِرَأْسِ الْفَدَا  
وما يعتل فيها من خواطر ، وما تضطرب به من نوازع الحيرة والقلق ، والجدول ما رَأَى  
ولقد استطاع بمهارة واقتدار أن يصور لنا طبيعة النفس البشرية فسى مثل بل عبد المفسر  
هذه الظروف ، مهما بلغت من الرفعة والسمو ، ويصور لنا ما ينتابها من  
مشاعر القلق والحيرة حين يدب فيها دبيب الشك والارتياب . .  
رَأَى الْمُرْسَلَةَ -

يصور هيكَل ذلك كله فيقول : " . . . ولغت هذه الأخهار  
محمدا ، فاضطرب لها .

ماذا ؟ ! عائشة هذه تخونه ! هذا مستحيل ، انها الأنففة  
والاباء ، وان لها من جه اياها وشدة عطفه عليها ما يجعل مجرد ظن  
كهذا اثما دونه كُلِّ اثم . نعم ! ولكن أف للنساء ! من ذا يستطيع  
أن يسبر غورهن ، أو يصل الى قرارة ما فى نفوسهن ، وعائشة بمحمد  
طفلة ، يافعة الشباب ، وأى شىء هذا الحقد الذى فَقَدَتْ ، فذهبت  
تلتسه جَوْفَ الليل ؟ ! وما بالها لم تُحَدِّثْ له - وهم ما يزالون فسى  
المعسكر - من أمره ذكرا ؟ ! وَتَكَلَّبَ النَّبَى عَلَى أَشْوَاقِ الْحَيرة ، مَا  
يدرى أصدق أم يكذب " (١)

وكما صوّر هيكَل ذلك . . صور - أيضا - فى هذا الموقف المواقف  
والانفعالات التي كانت تجيش فى نفس السيدة عائشة رضى الله عنها حين

علمت بهذا القيل عنها ، وحين علمت - أيضا - أن جفا الرسول اياها  
انما كان نتيجة لهذا القيل .

كما عرض هيكل صورة للحيرة التي استهدت بالسيدة عائشة ، وللخواطر  
التي كانت تحدثُ بها نفسها ، وما كان يفشى هذه الخواطر من قلق  
وحزن وألم .

يقول هيكل مصورا ذلك : " . . . وانتهى الخبر آخر الأمر الى  
عائشة . . حدثتها به امرأةٌ من المهاجرين ، فلما عرفته كادت يُغشَى  
عليها من هولهِ ، وانطلقت تبكى لا يحس دمعها حابس ، حتى شعرت  
أن كبدها تتصدع ، وذهبت الى أمها ، وقد أثقل الهم كاهلها ، حتى  
كاد ينوء بها ، وقالت لها - والعبرةُ تخنقها - : يغفر الله لك يا أمساء !  
تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا !!! ورات أمها  
الهم الذى بها ، فحاولت تخفيف أثره فى نفسها ، فقالت : أى بنينة !  
خفى عليك الشأن ، فوالله لعلما كانت امرأة حسنة عند رجل يحبها  
ولها ضرائر الا كثرن وكثرَ الناس حولها ، ولكن عائشة لم تتعز بهذا القول  
وزادها ألما أن ذكرت جفا النبى اياها بعد الذى كان من لطفه بها ،  
وأن شعرت بأنه قد وقع فى نفسه من هذا الحديث أثر ، وقامت بنفسه  
منه ريبة .

لكن ! ماذا عساها تستطيع أن تفعل ؟ ! أتفاته القول وتذكر له  
الخبر ، وتقس له أنها بريئة ؟ !

هى اذن تتهم نفسها ، ثم تدفع التهمة بالإيمان والتوسلات ،  
أفتَمْرِضُ عنه كما أعرض عنها وتجفوه كما جفاها ؟ لكنه رسول الله وهو قد  
اصطفاه على نساءه ، وليس من ذنبه أن تحدث الناس عنها بسبب تأخرها  
عن الممسك ، وعودها مع صقوان .

رباه ! ألهمها في هذا الموقف الدقيق مخرجا ، يتضح لمحمد  
معه الحق في أمرها ليمود الى مثل ما كان من حبها والمطف عليها  
واللطف بها . (١)

\* \* \*

ومن المواقف التي هزت فؤاده وحركت مشاعره فراح يصورها ففى  
لوحة فنية أدبية ، ويبرز ما فيها من جمال وروعة - موقف مشهور رائع:  
يوم خرج المسلمون الى مكة كي يؤدوا عمرة القضاء .

ففى هذا المشهد الرائع ، استطاع هيكل أن يصور مشاعر وأحاسيس  
المسلمين وأن يرسم البشر والابتهاج على وجوههم ، فرحا بقدمهم على  
بيت الله الحرام ، واستطاع هيكل أن يصور باللفظ ، ويرسم بالمعبرة ، ويصف  
بالكلمة هذا الموكب الحافل بأعداد المسلمين ، وقد علّت قسما وجوههم  
آيات الفرح والسرور ، وقد تهيأوا لأداء عمرة حرموا منها قبل عام ،  
كما تهيأوا للقديم على بلد عزيز حرموا الإقامة فيه ، وعلى بيت كريم حرموا  
المقامة فيه ، فاذا بملك - وأنت تقرأ ما كتبه هيكل في هذا المشهد - كأنك  
أمام مظاهرة ابتهاج وموكب فخر وسرور . . أمام صورة حية نابضة  
بالحياة والحركة . . . تراءت لك من خلال السطور .

يقول هيكل - واصفا وراسما ومصورا - : ويسير عليك أن تقدر  
كيف أقبل المسلمون يلبون هذا النداء ، ومنهم المهاجرون الذين تركوا  
مكة منذ سبع سنوات ، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة ،  
ولهم الى زيارة البيت الحرام هوى ، لقد لك زاد الركب الى ألفين بمقد  
أن كان ألفا وأربعمائة (٢) في العام الذى سبقه ، وتفيذا لمحمد

(١) حياة محمد ص ٣٢٨ .

(٢) كذا ورد فى " حياة محمد " ص ٣٦٢ ، وهو خطأ مشهور ، والصواب :  
" أربعمائة وألفا " د / سرجان .

الحديمية لم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحا إلا سيفا في قرابه ، ولكن محمدا كان يخشى الفدر دائما ، فجهز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مسلمة ، ومعهم طليعة له على ألا يتخطوا حرم مكة ، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا "مرَّ الظَّهْرَانِ" ، إلى واد قريب منها ، وساق المسلمون - ومحمد على رأسهم يركب ناقته القصوى <sup>(١)</sup> - الهدى أمامهم ستين ناقة ، وساروا من المدينة يحدوهم شَغَفٌ أَي شَغَفٌ بالدخول إلى أم القرى والطواف بهيت الله ، ويقرّب كل واحد من المهاجرين البقعة التي ولد فيها ، والبهيت الذي شَبَّ عن الطوق بين جدرانها ، والأصحاب الذين غادر ، وأن يَتَنَسَّم عَرَفَ هذا الوطن المقدس ، وأن يَلْمِسَ في إجلال واعزاز ثرى القرية المباركة الميمونة التي أنجبت الرسول ، والتي نزل فيها أول ما نزل من الوحي .

وتستطيع أن تتصور هذا الجيش من المسلمين وعدتهم ألفان - يُفِيدُونَ سيرهم تُطْفِرُ أمامهم قلوبهم ، وترقص جَدَلًا أفئدتهم ، فاذا أناخوا جعل كل واحد منهم يقف على أصحابه آخر عهده بمكة ، أو أيام طفولته بها ، أو يحدث عن أصدقائه فيها ، أو عن المال الذي ضحى به في سبيل الله عند هجرته منها .

تستطيع أن تتصور هذه المظاهرة الغضة من نوعها ، يُزْجِي سَيْرَهَا الايمان ، وَيَجْذِبُ أصحابها إليه بهيت جملته الله مثابة للناس وأمانا ، وانك اذن لترى بعين بصيرتك أي طرب كان يستخف هؤلاء الذين حول بينهم وبين هذا الغرض المقدس ، ان يسيرون إليه ليدخلوا مكة آمنين ، مطلقين رؤسهم وقصرين ، لا يخافون . . . " (٢)

(١) كذا ورد في " حياة محمد " ص ٣٦٧ ، وهو خطأ والصواب " القصواء " .

(٢) حياة محمد ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .



والمصنف لكتاب هيكل يرى الجانب التصويرى واضحا فى مواطن  
كثيرة ، وحسبنا أن نشير - بالاضافة الى ما أوردناه آنفا - الى بعض  
هذه المواطن ، مثل : ثلاثة أيام بمكة ( ص ٣٢٠ ) ومثل : أمسات  
محمد حقا ؟ ( صفحة ٤٨٠ ، ٤٨١ ) .

### ٖٖ الفصل الثالث ٖٖ

#### ( أسلوب هيكل وخصائمه )

- ١ - الفرق بين السيرة<sup>التاريخية</sup> والترجمة الأدبيية .
- ٢ - خصائص أسلوب هيكل مجموعته بين الأسلوبين : العلمي والأدبي  
وغلبة الأول عليه .
- ٣ - نماذج تطبيقيه على أسلوب هيكل .
- ٤ - " حياة محمد " سيرة تاريخية ، وليس تاريخا ولا ترجمة أدبية .

## ١ - الفرق بين السيرة والترجمة الأدبية :

من المرض والتعطيل السابقين لطريقة هيكل في كتابه " حياة محمد " الجامعة بين التعطيل والتعليل والتحقيق والتصوير - من هذا كله نستطيع ببسر أن نتعرف على ملاح أسلوب هيكل وهل هو أسلوب علمي أو أسلوب أدبي ؟ كما نستطيع أن نحدد مكان كتابه هذا بين الكتب الأدبية ، أو بين الكتب التاريخية البحتة ، وهل هو ترجمة أدبية أو سيرة تاريخية ؟

ولعله من المفيد - قبل أن نحدد مكان هذا الكتاب بين كتب الأدب أو التاريخ - أن نتعرف على الفرق بين السيرة والترجمة .

يذهب البعض الى أنه لا يهـ في الفروق اللغوية ما يبين الفرق بينهما على وجه التحديد ، إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا ، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها ، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة <sup>(١)</sup> .

وجاء في " دائرة المعارف الاسلامية " مادة " سيرة " : " السيرة هي الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد عليه السلام . . . على أن ثمة شاهدا آخر على استعمالها بمعنى الترجمة لحياة النبي عليه السلام . ثم ان كلمة سيرة كانت تستعمل في تلك الأيام ( الاسلامية الأولى ) حقا للدلالة على ترجمة الحياة بصفة عامة " <sup>(٢)</sup>

---

(١) التراجم والسير ص ٢٨ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ١٢ ص ٤٣٩ .

ورأى ثالث يذهب الى أن السيرة ترجمة فنية لتاريخ رجل نجس<sup>(١)</sup>.  
ورأى رابع يرى أن التراجم " تشتمل المنصرين الأساسيين للعمل الأدبي :  
" التجربة الشعرية " ، والمباراة الموحية عن هذه التجربة " ، لأن احساس  
المؤلف بحياة من يترجم له ، وظروفه وحالاته النفسية وتطبيقها على تجاربه  
هو في عالم الشعور والحياة . . . . . ومحاولة استنفاد الملاحظات التي أحاطت  
بحياة بطله . . . . . كل هذا يجعل عنصر " التجربة الشعرية " :  
ذا وجود حقيقي في ترجمة الشخصية ، أما القيم التعبيرية فهي بطبيعتها  
ستوجد بوجود التجربة الشعرية على هذا النحو من القوة والوضوح .

فإذا خلت الترجمة من هذين العنصرين أو من أحدهما امتحالت  
سيرة أو تاريخا بعيدا عن عالم الأدب ، فجرد سرد الحوادث والوقائع -  
مهما بلغ من الدقة والتفصيل والتحقيق - ليس هو " الترجمة " ، إنما هو  
المادة الخام التي تمنع منها الترجمة حين يتناولها مؤلف موهوب ، فينفخ  
فيها روحا وحياة . . .<sup>(٢)</sup>

هذه أربعة آراء نجد الأول منها يفرق بين السيرة والترجمة على  
أساس الكم وطول النفس ، وهذا لا يمكن التعليم به ، والثاني يدل على  
استخدام الكلمتين بمعنى واحد منذ المصور الأولى ، وهذا التزواج فنى  
استعمال الكلمتين قد يكون مسئولا عن اضطراب المعنى فى رأى الثالث .

بقى الرأى الأخير الذى يمكن الاطمئنان اليه ، لأنه يميز بين  
السيرة التى تعد تاريخا وتجميعا لحوادث ووقائع . . . والترجمة التى تعد  
ضربا من الأنواع الأدبية ، فتشمل التجربة الشعرية بعد أن تختلط

(١) الأصمى : د أحمد كمال ص ٤٠

(٢) النقد الأدبي . سيد قطب ص ٨٨ .

الوقائع والحوادث بنفسية الأديب ووجدانه فيخرجها مستترجة بنفسه وهو روبروحه ، ومعارته الموحية عن تلك التجربة التي نقلها من الواقع التاريخي الى الحيز النفسي الذي صيرها وأخرجها شيئا جديدا . .

وعلى هذا يختلف عمل المؤرخ عن عمل الأديب ، فالأول ينقل البناء الحقيقية كاملة ، في الوقت الذي يقدم فيه الأديب تجربة فنية كاملة بمسدد أن ثقف حياة المُترجم له ، واتصحت أمام نفسه معالم شخصيته — بحسه الأدبي وذوقه الفني .

ونخلص من هذا الى أن هناك فروقا جوهرية بين السيرة التاريخية والترجمة الأدبية ، وإن كانت المادة الخلقة بالنسبة لهما واحدة .

فالسيرة تُعنى بسرد الحوادث والوقائع وتحترم النص ولا تفسره ، وإن كانت تناقشه ، كما لا تستطيع أن تكمل الحقائق الناقصة في تاريخ إنسان اذا ما أهملها الرواة وأهل الأخبار .

أما الترجمة الأدبية فهي تتطلب من الإنسان الأديب أن يصهر تاريخ الإنسان الذي يترجم له في نفسه ويُقدِّم لنا تجربة نفسية كاملة الطقات وإن كانت غير كاملة في الواقع ، بالإضافة الى الأسلوب الأدبي الذي تتطلبه كل الأعمال الفنية في الأدب .

ومن المفيد أن نذكر هنا رأى " بودلير " الذي يوضح هذه الحقيقة فهو يرى : " أن المبقرية الأدبية عمقرية مدركة واعية تعتمد على العقل كما تعتمد المبقرية العلمية تماما ، غير أنها تمتاز على المبقرية العلمية بأنها قادرة على اكتشاف الملاقات بين المشاعر والأشياء (١) بعضها في نطاق أشمل وأوسع من النطاق الذي تعمل فيه المبقرية العلمية " .

(١) ما هو الأدب ؟ ص ٨٤ .

٢ - خصائص أسلوب هيكل وجمعه بين الأسلوبين : العلمى والأدبى  
وغلبة الأول عليه :

لعلنا نستطيع الآن - بعد أن اتضح الفرق بين السيرة التاريخية والترجمة الأدبية ، ومحد أن عرضنا نماذج من كتاب " حياة محمد " تدليلاً على طريقة هيكل ، وما فيها من تطيل وتحقيق وتصوير .. معتمداً على مناهج البحث العلمى ، التى تقوم على الشرح والتطليل والتعليل والموازنة ومناقشة الأدلة واستنباط الأحكام والنتائج ، مسوقاً هذا كله فى أسلوب أدبى جميل ، وبغارة بيانية رائعة ..

لعلنا بعد أن اتضح ذلك كله نستطيع أن نقول : ان تناول هيكل للسيرة النبوية بهذا الأسلوب العلمى ، الطريقة ، الأدبى اللفظ ، يجعلنا فى حيرة حين نحاول أن نرجع هذا الكتاب الى أحد هذين اللونين : السيرة التاريخية أو الترجمة الأدبية .

فالطريقة التى عالج بها هيكل كتابة السيرة النبوية ، التى أسلفنا الحديث عنها ، تجعل الكتاب ذا طابع علمى بعيداً عن الترجمة الأدبية التى سبق أن أوضحناها ، والتى تعتمد على التجريبية الشعرية ، ثم على صب هذه التجربة فى قالب تعبيرى مـوـج .

ولكن طريقة هيكل العلمية التى جعلت كتابه بعيداً عن الترجمة الأدبية ، لا تعنى أن هيكلًا تخلص من عاطفته الدينية ، فالواقع أنه لا يمكن أن يعصور ذلك .

فالكاتب مسلم مؤمن بدينه ورسوله ، وفى ذهنه قبل أن يدافع عن الدين والرسول المفترى عليهما ، فلا بد أن تستقر الماطقة فى ذهنه وان لم تؤثر على الطريقة العلمية التى اتهمها ، ولذلك

نجد أن سيرة الرسول وحياته لم تغب في متاحف المناقشات والموازنات والردود التي امتلأ بها الكتاب .

ومعنى هذا أن هيكله لم ينس على الرغم من هذا كله صورة الرسول الكريم وحياته على مر السنين مرحلة اثر مرحلة ، حسب التاريخ الزمنى والمنطقى للأحداث ، أى : ان الصورة المظيية النقية التي أراد أن يرسمها في مؤلفه ظلت مشرقة وضاعة مصورة ما قام به الرسول من جلائل الأعمال وما نادى به من عظيم المبادئ والآراء ، وفي الوقت نفسه لم تنسه عاطفته الدينية التي تمسك بها أثناء كتابته أصول المذهب العلمى في البحث الذى أعلن أنه سيتمسك به .

ومن هنا خرج كتاب " حياة محمد " زاخرا بمنطقية العلم ورقصة الماطقة ، تجد فيه متاعا للعقل وللقب معا ، وهذه الثنائية بين العلم والأدب تجعلنا في حيرة - كما قلنا سابقا - حين نحاول أن نحدد بالضبط مكان هذا الكتاب من الأنواع الأدبية ، لأنه بهذه الصورة يجمع بين خصائص السير التاريخية والتراجم الأدبية .

ولكن نظرة فاحصة في الكتاب كله ، تجعلنا نضع الكتاب في مكانه الصحيح ، فالكتاب الى السيرة التاريخية أقرب منه الى الترجمة الأدبية ، ذلك لأن الناحية العلمية طغت على الناحية الأدبية .

ولعل منهج هيكل العلم وطريقته الحديثة يتضحان في كتاباته الفكرية والتاريخية والأدبية ، خاصة في كتاباته التاريخية الاسلامية .

يقول الاستاذ سيد قطب - في معرض الموازنة بين مناهج الكتاب في كتابة السير والتراجم - :

" ولدينا الطريقة المقابلة لطريقة المقاد ، وهى طريقة هيكل فى " حياة محمد " و"الصدى أبو بكر " وفى " الفاروق عمر " ولكن

هيكلا تنقصه الحساسية الشعرية ، وهى عنصر أصيل فى الترجمة ، لأنها  
هى التى تكفل الحياة للسيرة وتضمن عملية البحث ، فليست الترجمة  
حوادث تروى بل حياة تعاد . . . . .

والقارئ لكى يهيكل هذه سردا للحوادث وتعليقا عليها ،  
ومناقشة للآراء فيها ، وهذا كله يحدد الصورة الانسانية  
من ورائها ، ويحولها سيرة تاريخية جامدة ، عنصر الحياة فيها ضئيل ، ويصعب  
احتسابها " عملا أدبيا " بالمقاييس التى أسلفناها فى مواضع منها  
معدودة " (١)

ويقول الدكتور : احسان عباس : " حياة محمد " لهيكل مشلا  
أو كتاب : " محمد على الكبير " لشفيق غريال ، لا يزالان أقرب الى  
التاريخ ، وان زاد الأول على الثانى بجلطة الأسلوب وزين التعبير ، وشمل  
ذلك يقال أيضا فى كثير من هذه السير والتراجم التى لا تزال تعرض  
تاريخ فترة (٢) كاملة تحت اسم فرد واحد ، ومن الخطأ أن يتناول النقاد  
هذه الكتب بالنقد مثلما يتناولون الأثر الفنى ، بل النقد انما ينصب فيها  
على الرواية التاريخية والانصاف فى الحكم ، والقدرة على التعميل " (٣)

ولقد أرجع (٤) بعض الباحثين غلبة الأسلوب العلمى فى كتابات  
هيكل ، وما فيه من تطيل وتعميل ومناقشة واستنباط . . على الأسلوب  
الأدبى - أرجع بعض الباحثين ذلك الى شيئين : ثقافته وعظمته . .

- 
- (١) النقد الأدبى : سيد قطب ص ٩٠  
(٢) الفترة : الزمن بين نهدين ، والصواب : حقبة أو بهزة ، د / سرحان .  
(٣) فن السيرة : ص ٦٠  
(٤) أرجع - بالهمزة أولها : لغة هذيل ، د / سرحان .



أما عن الأولى فيقول : " . . . ولكن الذى يحتاج الى تأكيد هو أن دراسة القانون والاعداد للدفاع والمحاماة ، تفرض على العلم بها أن يكون أسلوبه فيه شئ من المحاجة والمجادلة ، خاصة اذا تعرض لمناقشة قضية ما ، وقد أثرت هذه الثقافة فى أقاصيصه ومقالاته الأدبية والصحفية ، وفى دراساته التاريخية الاسلامية . . . " (١)

وأما عن الثانية فيقول : " . . . كذلك فان عقلية هيكل المنسقة تظهر فى انتاجه (٢) الفكرى والأدبى متميزة على عاطفته الأدبية ، تلك العقلية التى أبعدت إبعادا كبيرا كتبه " عشرة أيام فى السودان " ولدى " فى منزل الوحى " ، أبعدتها عن حيز الترجمة الشخصية لهيكل فى فترة من فترات (٣) حياته ، كذلك نلاحظ تميز هذه العقلية فى كتبه الاسلامية التى كتبها عن الرسول وأبى بكر وعمر وعثمان ، اذ نجد الفكر والمقل فى هذه الكتب تغالب العاطفة والذوق الأدبى ، وعلى هذا وجدنا الكثير منها ينضوى تحت السير (٤)

بل ان هيكل نفسه يؤكد أن لدراسته القانونية أثرا كبيرا فى طريقة كتابته واعتماده على المنطق والمقل فيقول : " . . . ولا شك فى أن دراستى للقانون أفادتني فى حياتي الأدبية ، فالأسلوب القانوني أسلوب منطقي دقيق ، يعتمد على الفكرة ودقة أدائها ، أكثر مما يعتمد على اللفظ المنسق المزوق ، وسبب ذلك أن التشريع والقوانين بوجه عام تقتضى كاتبتها ألا يزيد فى ألفاظه على ما يقصد اليه من المعانى ، وهذه فى نظرى فائدة كبيرة لكل مشغول بالكتابة ، هذا الى أن رجل القانون لا يستغنى فى أدائه

- 
- (١) الدكتور محمد حسين هيكل ص ٥٥ د . طه عمران وادى .  
 (٢) انتاج هنا خطأ والصواب : نتاجه د / سرحان .  
 (٣) أشرنا الى أن استعمال فترة بمعنى الزمن المطلق خطأ د / سرحان .  
 (٤) المرجع نفسه ص ٥٦ .

عن المادة الأدبية ، وإن استغنى عن الخيال الأدبي<sup>(١)</sup> . ويتضح لنا مما تقدم : أن هيكلنا في كتاباته الفكرية والأدبية والتاريخية عامة - وكتابه " حياة محمد " ، مجال بحثنا خاصة - صاحب أسلوب علمي منطقي ، وأن هذه العلمية والمنطقية اللتين تخاطبان الفكر والمقل ، يفلفهما أسلوب أدبي رائع يخاطب الشعور والوجدان .

### ٣ - نماذج تطبيقية على أسلوب هيكل :

ولعل من المفيد أن نورد نصرا من كتاب هيكل - بالإضافة إلى ما أوردناه عند حديثنا عن طريقته - لتكون تطبيقا على ما قلناه .

في صفحة ٢٢٩ و صفحة ٢٣٠ ، يصف لنا الكاتب ، كيف وقف النبي الكريم في غزوة " بدر " يحث المسلمين على التقدم إلى صفوف القتال مبينا لهم فضل الشهادة في سبيل الله ، خاصة في هذا اليوم العظيم . . . وصور لنا كيف سرت من هذه النفس القويمة المؤمنة إلى نفوس المسلمين قوة ، ضاعفت إيمانهم وقوت عزيمتهم . . ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان أثر القوة المعنوية في النفوس ، مطلقا أسباب ازدياد هذه القوة ، وكيف أن الأمم تهوى النشء منذ نعومة أظفارهم على صقل نفوسهم وتقويتها بتعليمهم حب الوطن والسلام . . ثم يخلص من ذلك إلى موازنة بين الوطنية وقضية السلام التي تهوى الأمم النشء عليهما ، ليتقوى في نفوسهم حبهما . . والقضية التي يدعو إليها محمد ، موازنة تهيئ مقدار القوة التي تمنحها تلك القضية السامية التي يدعو إليها رسول الله .

---

(١) قصة الأدب المعاصر في مصر الحديثة ص ٥٢ ، ٥٣ . وكلمة معاصر ليست في اللغة .

يقول هيكل : " . . . وخرج الى الناس يحرضهم ويقول لهم : " والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة " وسرت من نفسه القوة (التي) أمدها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوة ، الى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالة قوة ضاعفت غزيمهم ، وجعلت كل رجل منهم يتعدّل رجلين ، بل يعدل عشرة رجال .

ويسير عليك أن تقدّر هذا اذا ذكرت ما لازدياد القوة المعنوية من أثر في النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة المعنوية فيها ، فدافع الوطنية يزيدها ، وهذا الجندى الذى يقف مدافعا عن وطنه ، المهدد بالخطر ويحس بحب الوطن احسا سا صادقا ، تتضاعف قوته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وایمانه به .

ولهذا تفرس الأمم في نفوس أبنائها ، منذ نعومة أظفارهم حسب الوطن والاستهانة بالتضحية في سبيله ، والايمان بالحق والعدل والحرية والمعاني الانسانية السامية يزيد القوة المعنوية في النفس بما يضاعف القوة المادية فيها .

والذين يذكرون ما قام به الحفّا في الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان ، أساسها أنهم يدافعون عن قضية الحرية والحق ، ويحاربون في أمانة الجندية المسلحة ويمهدون لمهد سلام ونور : يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوة في نفوس جنود الحفّا بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف أكثر أم العالم .

وما الوطنية وما قضية السلام الى جانب ما كان محمد يدعو اليه ؟ الى اتصال الانسان بالوجود كله اتصالا يندمج به فيه ويصبح معه قوة من قوى الكون الموجهة له ( الى ) سبيل الخير والنعمة والكمال .

وصف وتصوير

تحليل

موازنة

نعم ! ما الوطنية وما قضية السلام الى جانب الوقوف فى جانب الله ، ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه ، والذين يصدون عن سبيله ، والذين ينزلون بالانسان الى دَرَكِ الوثنية والاشراك ! اذا كانت النفس يزيدها <sup>تعليلاً واستنباطاً</sup> حب الوطن قوة بمقدار ما فى الوطن كله من قوة ، ويزيدها حب السلام للانسانية قوة بمقدار ما فى الانسانية كلها من قوة ، فما أكثر ما يزيدها الايمان بالوجود كله ومخالق الوجود كله من قوة !! انه ليجعلها قديرة على أن تسيير الجبال وتحرك العوالم وتهيمن بسلطانها المعنوى على كل من كان أقل منها فى هذا الأمر ايأنا .. " (١)

وهكذا نراه ينتقل من وصف الى تصوير الى تحليل ثم الى موازنة فتعمليل ثم الى استنباط ، وهذا التسلسل المنطقى من سمات طريقة هيكل العلمية ، على أن هذا التسلسل المنطقى فى الأفكار ، قد صاغه هيكل فى أسلوب أدبى ، مما يزيدها تأكيداً على أن هناك فى أسلوب هيكل تلك الثنائيات التى تجمع بين منطقية العلم وروعة الأدب .

وفى صفحة ٩٢ يصف لنا هيكل <sup>الذى</sup> ~~مركز~~ التحنث <sup>الذى</sup> كان <sup>يقدم به</sup> ~~يقدم به~~ <sup>يقدم به</sup> الرسول الكريم فى غار حراء طوال شهر رمضان ، منقطعا فيها عن الحياة بقصد التأمل والتفكير بغية الوصول الى الحق الذى ينشد .

يقول هيكل : " وقد وجد فيه محمد خيراً ما يمكنه من الامعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة ، يلتصق أثناءها الوسيلة الى ما يرح شوقه يشتد اليأس من نشدان المعركة واستلهاهم ما فى الكون من أسرارها ، وكان بأعلى جبل حراء - على فرسخين من شمالى مكة - غار هو خير ما يصلح للانقطاع والحنث ،

(١) حياة محمد ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

فكان يذهب اليه طوال شهر رمضان من كل سنة ، يقيم به مكثفيا بالقليل من الزاد ، يحمل اليه ، ممعنا في التأمل والعبادة ، بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتصقا الحق والحق وحده . (١) .

ثم ينتقل بعد ذلك الى وصف نفسية الرسول الكريم . . . تلك النفسية المشوقة الى المعركة ، والمتطلعة الى نور الحق ، . . . النفسية السمتى كان يطفى عليها التأمل والتفكر الى درجة أن تنسى نفسها وتنسى كل شئ في الحياة . . . تلك النفسية التي كانت تأمل أن تجد هذا الحق في هذا الكون المحيط بها ، بل ربما امتد تفكيرها وتأملها الى ما وراء هذا الكون بحثا عن المعركة وتشوقا الى الحقيقة .

يقول هيكل : " ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما في الحياة ، لأن هذا الذى يرى في الحياة مما حوله ليس حقا . وهناك كان يقلب فى صحف ذهنه كل ما رأى ، فيزداد عما يزاوئ الناس من ألوان الظن ورغبة وازورار ، وهو لم يكن يطمح فى أن يجد فى قصص الأبحار وفى كتب الرهبان الحق الذى ينشده ، بل فى هذا الكون المحيط به : فى السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفى الصحراء ساعات لهبسها المحرق ، تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء ، (أو) ساعات صفوها البديع ، اذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندى ، وفى البحر موجه ، وفى كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود ، . . . فى هذا الكون كان يلتصق الحقيقة الملموسة وابتغاء ادراكها ، كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب الى مكون سوه " (٢) .

(١) حياة محمد ص ٩٢ .

(٢) حياة محمد ص ٩٢ و ٩٣ مع تصرف .

وهنا نرى هيكلًا لا يقتصر على وصف نفسية الرسول المتأمل فـسـى  
هذا الكون وما فيه من ظواهر طبيعية، بل نراه يصف بعض ظواهر الكون ،  
فنراه يصف الصحراء وقت اشتداد الحر ، حيث يتلألأ ترائبها تحت أشعة  
الشمس الباهرة ، وساعات الليل حيث يرسل عليها القمر نوره وتكسوها  
النجوم بلباس من الضوء الجميل .. هذه الظواهر الطبيعية الجميلة التي  
تشد الناظر اليها وتجذب المتأمل فيها فينسى نفسه وما حوله في لحظات  
استغراق فكرية وتأملية ..

وهكذا نرى هيكلًا صادق الحس والشعور، حينما وصف هذه الظواهر  
الطبيعية ووصف ما يخالج الانسان المتأمل فيها من لحظات فكر وتأمل،  
يشعر بعدها بفيض من الحنين الجارف الى التشوف الى سر هذا الوجود  
الذي يصيب فيه .

وهنا - في هذا النص - نجد اللمسة الأدبية أشد وضوحا من المسحة  
العلمية التي هي سمة أسلوب هيكل .

على أننا لا نكاد ننتهي من هذا النص حتى نفاجأ بهيكل - فـسـى  
الموضوع نفسه - يعود بنا الى أسلوبه العلمي المنطقي المعهود بتحليلاته  
الفلسفية وتحليلاته العلمية - حينما يصور نفسية الرسول وهي تسترسل  
وراء تأملاتها وسبحاتها، في هذا الكون المليء بالأسرار والألغاز، ويصورها  
وهي تقف أمام بعض هذه الأشياء، تنفي معرفة حقيقتها، عليها تعمل من  
وراء ذلك الى حقيقة الحقيقة . ويصورها أيضا بعد أن تنتهي من تحليل  
ظاهرة من الظواهر المحيطة بها ، وهي أشد ما تكون حيرة حين تفاجأ  
بأن الحقيقة التي تبحث عنها لا تجدها فيها .

وينتقل هيكل بهذه النفسية المتعطشة الى المعرفة من ظاهرة  
الى أخرى ، وهي تبحث عن هذا الحق فلا تجده .. كل ذلك من خلال

أسئلة محيرة تطرحها هذه النفس على العقل ! أسئلة علمية فلسفية تحقّقها  
اجابات علمية فلسفية معتمدة على التحليل والتعليل والمناقشة .. أسئلة  
تصل بالكون وما فيه ، بالحياة نفسها ، ومعمل الانسان في هذه الحياة !!

يقول هيكل : " ولم يكن بحاجة الى كثير من التأمل ليرى أن ما  
يأشر قومه من شؤون الحياة ، وما يتقربون به الى آلهتهم ليس حقاً . فما  
هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن أحد  
غائلة شر يصيبه ؟ !! وهبل واللات والعزى ، وكل هذه الأنصاب والأصنام  
القائمة في جوف الكعبة أو حولها ، لم تخلق يوماً ذبأها ولا جادت ( في )  
مكة بخير ! ولكن ! أين الحق اذا ؟ أين الحق في هذا الكون الفسيح  
بأرضه وسماواته ونجومه ؟ أهو في هذه الكواكب المضيئة التي تهت السي  
الناس النور والدفء ومن عندها ينحدر ماء المطر ، فيكون للناس ولأهل  
الأرض كافة من خلائق ، حياة بالماء والنور والدفء ؟ كلا ! فما هذه  
الكواكب الا أفلاك كالأرض سواء ، أهو فيها وراء هذه الأفلاك من أثر لا أحد  
ولا نهاية له ؟ ولكن ما الأثير ؟ ! وهذه الحياة التي نحيا اليوم ستنتفى  
غدا ، ما أصلها وما مصدرها ؟ . أهى مصادقة تلك التي أوجدت الأرض  
وأوجدتنا عليها ، لكن للأرض وللحياة سننا ثابت لا تبدل لها ولا يمكن  
أن تكون المصادقة أساسها ، وما يأتي الناس من خير أو شر ، أفأبتونبه  
طواعية واختياراً ؟ أم هو بعض سلبقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ .

في هذه الأمور النفسية والروحية كان محمد يفكر أثناء انقطاعه  
(١)  
وتعمده في غار حراء ، وكان يريد أن يرى الحق فيها وفي الحياة جميعاً ..

\* \* \*

على أن ما تقدم لا يعنى أن هيكلنا لم تكن له لمحات الأدبية الخالصة ، ذلك لأن المتصفح كتاب : " حياة محمد " يجد فيه بعض هذه اللوحات الأدبية واضحة قوية ، وإن كانت هذه اللوحات قليلة جداً ، وحسبنا أن نشير إلى بعض هذه اللوحات .

في صفحتي : ١٠٨ ، ١٠٩ يصور لنا هيكل ذلك الموقف الرائع الذي كان بين الرسول الكريم ، وبين عمه أبي طالب حين طلب منه عمه أبو طالب - بهدماً جاءته وفود قريش طالبة منه أن يدع محمد ما يدعوه إليه - أن يدع ما هو فيه حتى يبقى عليه وعلى نفسه ولا يحصله ما لا يطيق .

يقول هيكل : " . . . وأطرق محمد أطرافه وقف أزاها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتاً لا يدري أيها يكون اتجاهه ؟ ! " ، في الكلمة الستة عشر غفر عنها شفتا هذا الرجل حكم على العالم أجمع يظل في الضلال يمد له فيه ، فتطفئ المجوسية على النصرانية المتخاذلة المضطربة ، وترفع الوثنية بها طلبها رأسها الخرف الآفن ! أم هو يضيء أمامه نور الحق ، وتعلمن فيه كلمة التوحيد ، وتحرر فيه العقول من رق اليهودية ، والظلم من أسر الأوهام ، وترتفع فيه النفس الإنسانية لتصل بالأعلى . وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقها معه فهو خاذله وسلمه ، وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافاً لا يقومون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعدة والعدد .

إذا لم يبق له دون الحق الذي ينادى الناس باسمه نصير ، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عدة ، ليكون ! ! أن الآخرة خير له من الأولى ، فليؤد رسالته ، وليدع إلى ما أمره به ، ولخير له أن يموت مؤمناً بالحق الذي أوحى إليه من أن يخذله أو يتردد فيه ، لذلك التفت إلى عمه مبتلي النفس بقوة إرادته ، وقال له : " يا عم والله لو



وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ."

بالمعظمة الحق وجلال الايمان به ! اهتز الشيخ لما سمع من جواب محمد ، ووقف هو أيضا مبهوتا أمام هذه القوة القدسية والارادة السامية فوق الحياة وكل ما في الحياة " (١)

في هذا الموقف العظيم صور هيكل مشهدا من أروع مشاهد التاريخ تجلت فيه قوة ايمان الرسول بما يدعو اليه . وصور أيضا ما كانت تجيش به نفس الرسول الكريم من عواطف وانفعالات ازاء ما سمع من عمه . كما صور خواطره النفسية وما كان يدور بخلده آنذاك : أيخذه عمه الآن بعدما وقف بجانبه مدافعا ومؤيدا ؟ لا ليخذه عمه ان أراد لكنه لن يتراجع . كما لا ننسى - في هذا النص - هذا التخييل الجميل الذي صور فيه هيكل التاريخ وقد وقف باهتا كاتما أنفاسه لا يدرى أيا يكون اتجاهه انظارا للآلة التي ينطق بها الرسول الكريم .

وننتقل الى لحة أخرى وفنجد فيها هيكل القصص يطل برأسه من ثناياها ، فمن ذلك وصفه للنفوس المستشرقين في مسألة زينب بنت جحش . . . حيث يقول : " ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم المنان حين يتحدثون من تاريخ محمد في هذا الموضوع ، حتى ليصور بعضهم زينب ساعة رآها النبي ، وهي نصف عارية أو تكاد ، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسدها الناطق بما يكن من كل معاني الهوى ، وليذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب ، وكانت مسددة

---

(١) حياة محمد ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

على فراشها فى ثياب نومها ، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديـد  
الولع بالمرأة ومفاتها ، فكلم ما فى نفسه وان لم يطلق الصبر على ذلك  
طويلا !! (١)

بل ان هيكلها حين رد على هذه القصة التى اخترعها المستشرقون  
والمبشرون - رد عليها بأسلوب أكثر رقة وأكثر أدبا . . . يقول : " أما  
قصة زينب بنت جحش ، وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون  
عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله ، فالتاريخ الصحيح  
يحكم بأنها من مفاخر محمد وأنه هو المثل الكامل للإيمان ، قد طبق فيها  
حديثه الذى معناه : لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وقد جعل  
نفسه أول من يضرب المثل لما يضع من تشريع يحويه تقاليد الجاهلية  
وعاداتها ويقر به النظام الجديد الذى أنزله الله هدى ورحمة للعالمين .

ويكفى لهدم كل القصة التى قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زينب  
بنت جحش هذه ، هى ابنة أمية بنت عبدالمطلب عم رسول الله عليه  
السلام ، وأنها ربيت بيمينه وخايمته ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت  
الصغرى ، وأنه كان يحرفها ويعرف أهى ذات مكانة أم لا قبل أن تتزوج  
زيدا ، وأنه شهدا فى نموها تخرج من الطفولة الى الصبا الى الشباب ،  
وأنه هو الذى خطبها على زيد مولاه . اذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك  
كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مر ببنت زيد ولم يكن فيه ، فسرأى  
زينب فبهره حسننها ، وقال : سبحان قلب القلب ! أو أنه لما فتح باب  
زيد عيث الهواء بالاستار الذى على غرفة زينب فألفاها فى قميصها مسددة  
وكانها " مدام ركاميه " فانقلب قلبه فجأة ، ونسى سودة وعائشة وحفصة وزينب

بنت مخزوم وأم سلمة ، ونسى كذلك ذكر خديجة التي كانت عائشة تقول :  
انها لم تجد في نفسها غيره من أحد من نساء النبي ما وجدت من ذكر  
خديجة . ولو أن شيئاً من حبها علق بقلبه لخطبها الى أهلها على نفسه  
بدل أن يخطبها على زيد ، وهذه الصلة بين زينب ومحمد ، وهذا التصوير  
الذي صورناها به لا يدعان بمدهما لتلك القصة الخيالية التي يروون أي  
أساس أو أي حق في البقاء " (١) .

وننتقل الى لمحة أدبية أخرى ، فنرى هيكل الأديب يمثل لنا اسراء  
النبي عليه السلام تعليلاً أدبياً حين مال الى الرأي الذي يرى أن اسراء  
النبي عليه السلام كان بالروح ، يقول : " والاسراء بالروح هو في معناه كالاسراء  
والمعراج بالروح جميعاً سواً وجمالاً وجلالاً ، فهو تصوير قوى للوحدة الروحية  
من أزل الوجود الى أبدى ، فهذا التبرج على جبل سيناء حيث كلم الله  
موسى تكليماً ، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى ، وهذا الاجتماع الروحى  
ضمت الصلاة فيه محمداً وعيسى وموسى وإبراهيم مظهر قوى لوحدة الحياة  
الدينية على أنها من قوام وحدة الكون في موره الدائم الى الكمال . والعلم  
في عصرنا الحاضر يقر هذا الاسراء بالروح ويقر المعراج بالروح فحيث  
تقابل القوى السلبية يشع ضياء الحقيقة ، كما أن تقابل قوى الكون في صورة  
معينة قد طوع لما ركونى - اذ سلط تياراً كهربياً خاصاً من سفينة التى  
كانت راسية بالبندقية - أن يضىء بقوة موجات الأثير مدينة "سدى" ففى  
استراليا (٢) ، وفى عصرنا يقر العلم نظريات قراخ الأفكار ومعرفة ما تتطوى  
عليه ، كما يقر انتقال الأصوات على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتومات  
كذلك ، مما كان يعتبر (٣) فيها مضى بعض أفانين الخيال ، وما تزال القوى

(١) حياة محمد ص ٢٩٠ وما بعدها .

(٢) الصواب : استراليا ، د / سرحان .

(٣) خطأ شائع ، والصواب : يمد ، د / سرحان .

الكهنة في الكون تتكشف لعلنا كل يوم عن جديد ، فاذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ، ما بلغت نفس محمد ، فأسرى به الله ليله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، الذي بارك حوله ليريه من آياته ، كان ذلك ما يقر العلم ، وكانت حكمة ذلك هذه المعاني القوية السامية في جمالها وجلالها ، والتي تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون في نفس محمد تصويرا صريحا ، يستطيع الانسان أن يصل الى ادراكه اذا هو حاول السمو بنفسه عن أهام العاجلة في الحياة ، وحاول الوصول الى كنه الحقيقة العليا ليصرف حقيقة مكانه ومكان العالم كله منها <sup>(١)</sup> .

٤ - " حياة محمد " سيرة تاريخية ، وليس تاريخا ولا ترجمة أدبية :

وخلاصة ما تقدم أن كتاب " حياة محمد " على الرغم من طريقتة العلمية التي انتهجها في العرض والتطيل والمناقشة والتمحيص والتحقيق لا يمكن أن نعدّه علم تاريخ بالمعنى الاصطلاحي لكلمة " علم " وذلك لأن قارئ هذا الكتاب لا يفتقد فيه عاطفة الكاتب ولا احساسه الأدبي ، كما لا يفتقد فيه صدق التعبير وغذوة اللغة وجزالتها ولعل ما تقدم من نماذج دليل صدق على ما نقول .

على أن الاحساس الماطفي والأسلوب الأدبي اللذين وجدناهما في هذا الكتاب هو على أن غذوة اللغة وجزالتها اللتين لمسناهما ، لا تجعلنا نضج هذا الكتاب ضمن كتب التراجم الأدبية الخالصة ، لا فتقاده بعضا من سمات الترجمة الأدبية ، التي منها اللغات الفنية التي تتعمق في البحث عن الشخصية المدروسة وتميش معها وتعطينا حياتها من الداخل .

أضف الى ذلك طريقة الكتاب العلمية التي تجعله الى الناحية العلمية أقرب منه الى الناحية الأدبية .

يقول الأستاذ : سيد قطب " . . . دراسات هيكل تنقصها وثبات الفكر وأريحية الشاعرية ، فهي " استطراد تفسيري " أشبه شي " بالمذكرات القانونية و " الدفع الفرعية " مع الشرح والتفسير والتحقيق ، لا تطلع فيها على أفق مجهول ولا عالم مكون " . (١)

واذا كان كتاب " حياة محمد " ليس علم تاريخ ولا ترجمة أدبية — فماذا يكون ؟

ان الكتاب باشتماله على منطقة العلم ورة الأدب — كما سبق أن ذكرنا — يجعلنا نقول ، ان الكتاب في منزلة بين التاريخ علما ، والترجمة أدبا ، لأنه قد أخذ من التاريخ اعتماده على الوثائق والمدونات والأسانيد والنصوص ، وأخذ من الترجمة أنه قصة تتعلق بشخصية فذة دخلت التاريخ من أوسع الأبواب ، هي شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فضلا عن الأسلوب الذي صيغت فيه ، واحساس الكاتب نحو هذه الشخصية . وهذه المنزلة هي ما تسمى بـ " السيرة التاريخية " . . . . . والسيرة قصة تاريخية لا تشذ أبدا عما يقيد التاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء ، إلا أنها قصة تتعلق بحياة انسان فرد ، ترك من الأثر في الحياة ما جذب اليه التاريخ وأوقفه على بابه ، وهي أحفل من التاريخ العام بالمواطن الزاخرة الجياشة والأحاسيس النابضة ، لأنها تمرض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة ، حتى تتجلى مقومات شخصيته وتبرز معالم حياته لتفصح عن

---

(١) كتب وشخصيات ص ٣٠٠ .

سر نبوغه وفردده • اذ لا تحفل السير الا بكل ناهضة فريد • لهذا كانت  
كتابة السير أمرا غير يسير لا يقدر عليها الا من أوى على قدرة المسوخ •  
واحساس الأديب معا " (١)

\*\*\*

## الفصل الرابع

### منهج هيكل وأهمه ::

- ١ - أساس منهج هيكل : المفصل
- ٢ - تطبيق منهج هيكل في المعجزات والخوارق ، وفي تفنيد المزاعم

## ١ - أساس منهج هيكل : العقل :

يعد كتاب " حياة محمد " أول دراسة من نوعها في العصر الحديث ،  
فلقد تناول السيرة النبوية بطريقة في المعالجة حديثة ، وأسلوب في كتابة  
التاريخ جديد ، وقصد هيكل من وراء ذلك أن يقدم لقارئ السيرة  
النبوية - مسلماً أو غير مسلم - صورة لحياة الرسول الكريم نقية من كل  
شائبة ، واضحة لا لبس فيها ، ومن أجل ذلك كان لا بد أن يقتصر  
ما كتب في السيرة قديماً وحديثاً ، وأن يرجع إلى القرآن الكريم :  
" بدأت أراجع تاريخ محمد ، وأعيد النظر في سيرة ابن هشام وطبقات  
ابن سعد ومغازي الواقدي وعدت إلى كتاب سيد أمير علي ( روح  
الاسلام ) ، ثم حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين فتلوت  
كتاب ( دوفنجم ) وكتاب ( واشنطنون أرفنج ) ثم انتهزت فرصة  
وجودي في الأقصر في شتاء سنة ١٩٣٢ ، وبدأت أكتب ... ولقد  
تبينت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم ، فيه إشارة  
إلى كل حادث من حياة النبي المصطفى ، يتخذها الباحث منارا يهتدى  
به في بحثه ويحصي على ضيائه ما ورد في كتب السنة ، وما جاء في  
كتب السيرة المختلفة " (١).

ولقد أضحنا سابقاً <sup>أرضنا</sup> ومينا الطريقة التي عالج بها هيكل للسيرة النبوية ،  
كما أوضحنا - أيضاً - الأسلوب الذي تناولها به وصاغها من خلاله ،  
وسهنا في هذا الفصل أن نتحدث عن المنهج الذي سار عليه هيكل  
في تحليله لوقائع السيرة ومناقشته للقضايا وعرضه للحوادث التي  
احتوتها السيرة النبوية .



والناظر في كتاب هيكل يجد أنه قد استخدم - في تحليل وقائع السيرة وأحداثها - المنهج العقلي حيث قدم للقارئ السيرة النبوية من خلال المعرفة العقلية ، وهو يقصر المعرفة العقلية على الوقائع المادية وحدها ولا يمدّها إلى مجالات العقيدة والإيمان ، ومن هنا نراه يرفض الخوارق والمعجزات والتأييدات الإلهية ، لأنها لا تدخل في دائرة المشاهد المحسوس . . بل أن هيكلًا قد بالغ في اعتياده على المنهج العقلي ، حين حاول تفسير النصوص القرآنية الصريحة الدلالة والأحاديث الثابتة تفسيراً ينسجم مع منهجه القائم على الوقائع المادية المصنوعة - ومعلوم أن العقل يستمد معرفته بالأشياء - وبالتالي حكمه عليها - من مصادر الحس وهي الحواس الخمس ، والحواس <sup>بمعنى المصادر</sup> الخمس تستمد مدركاتها من عالم الحس الذي يحيط بها ، ومعلوم أيضاً أن عالم الحس مضبوط بنواميس محكمة لا تتغير ، ولا تتبدل ، ولقد ألفت العقل هذه النواميس وأصبح لا يقبل أي خرق لها . .

ونخلص من هذا إلى أن هيكلًا في اعتياده على العقل قد نفى كل ما يتصل بالرسول من معجزات وخوارق كما سبق أن قلنا من حيث هي خارقة للعادة ، وكل خارق لها لا يقبله العقل ، لأنه على غير ما ألفت . .

يقول هيكل : " هنالك تقدم غير الشعراء فيسألون محمداً عن معجزاته التي يثبت بها رسالته ، معجزات كمعجزات موسى وعيسى ، فما باله لا يحيل الصفا والصفوة ذهبا ، ولا ينزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مخطوطاً من السماء ! ولم لا يبدو لهم جهيل الذي يطول حديث محمد عنه ! ولم لا يحيى الموتى ولا يمشي الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها ! ولم لا يفجر ينهوا أعذب من زمزم ماء ، وهو أعلم بحاجة أهل بلده إلى الماء !

ولم يقف أمر المشركين عند التهمك بالمسألة في هذه المعجزات ، بل كانوا يزدادون تهكماً ويسألونه : لم لا يوحى إليه ربه أثمان السلح حيتي

يضاربوا على المستقبل ، و طال بهم اللجاج ، فرد الوحي لجاجهم بما  
 أنزل على محمد من قوله تعالى : " قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا  
 إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ  
 إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (١) . نعم ! ما محمد الا نذير  
 ومشير ، فكيف يطلبونه بما لا يقبل العقل ، وهو لا يطلب اليهم الا ما  
 يقبله العقل ، بل يطلبه ويحتنه ! وكيف يطلبون اليه ما تأنف منه  
 النفس الفاضلة ، وهو لا يطلبهم الا أن يستجيبوا لوحى النفس الفاضلة !  
 وكيف يطلبون اليه المعجزات وهذا الكتاب الذى يوحى اليه ، والسبى  
 يهدى الى الحق معجزة المعجزات ! (٢)

وليس غريبا من ههنا أن يرتكن الى صوت العقل ، وجعله الأساس  
 فيما يصدر من آراء ، فههنا قد تأثر بالفكر الأوربي ، وقد تعلم فى أورطة  
 أن لكل شىء ، ولكل كائن قوانين وحدودا لا يخرج عنها ، فكل ما يخرق  
 هذه القوانين لا يقبله العقل ، وما لا يقبله العقل باطل ، لا معجزة  
 اذن ولا خارقة ، كذلك فان ههنا قد تأثر بأفكار " جان جاك روسو " خاصة  
 مقالاته الأولى حول " الانسان الطبعى " .

وتتلخص هذه الأفكار فى " أن الانسان بطبيعته خير ، وهو يقترب  
 من فطرته الخيرة كلما اقترب من الطبيعة ، وأن المجتمع يفارقه الطبيعة  
 واستبداده الحكومى وتقاليده الجامدة ، هو الذى يفسد الانسان ، وأن  
 العقل قادر على اكتشاف الحقيقة وحده دون واسطة (٣) من أحد أولجوس  
 الى نصر ، فالحقيقة هى ثمرة المواجهة المباشرة بين الانسان والطبيعة (٤)

(١) الآية : ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٢) حياة محمد ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) كذا وهو خطأ شائع والصواب : وساطة .

(٤) محمد وهؤلاء ص ٣٨ .

يضاف الى هذا كله، أن هيكلا باستخدامه للمنهج العقلى فى تحليل أحداث السيرة ووقائعها ، كان يقصد أن يجارى منهج المستشرقين فى كتاباتهم عن السيرة النبوية، وأن يرد عليهم مزاعمهم واقعاتهم بالمنهج الذى يدينون به ، ذلك المنهج الذى يعتمد على العقل وحده فى اثبات ما يمكن اثباته ونفى ما يراد نفيه . .

## ٢ - تطبيق منهج هيكل فى المعجزات والخوارق ، وفى تفنيد المزاعم :

ويبدو المنهج العقلى الذى اعتمد عليه هيكل واضحا ، حين يحقق واقعة، أو يفند مزعما، أو يرفض خارقة، أو يحلل حادثة . . . وقد أشرنا الى طريقته - سابقا - فى تحقيق الوقائع وتحليل الأحداث .

ويمهنا هنا أن نوضح منهجه العقلى فى رفض الخوارق وتفنيده المزاعم .

أما بالنسبة الى الخوارق والمعجزات، فإن هيكلا قد حاول - جاهدا - رفضها وانكارها، فإن كانت الخارقة قد وردت عن طريق القرآن، فإنه يحاول تفسيرها؛ أما على أنها أمر طبعى كما فى معجزة غزوة الأحزاب، وأما أن يفسرها تفسيراً مادياً يحمدها عن دائرة المعجزة ويتلائم ومنهجـه العقلى كما فى قصة أصحاب الفيل . . وإن كانت الخارقة قد وردت عن طريق الروايات، فإن هيكلا يحاول - جاهداً أيضاً - تضعيف هذه الروايات أو توهين سندها ، كما فى حادثة شق الصدر ومعجزة الفار ، وإذا لم يستطع تضعيف الرواية أو توهين السند لوجود نص من القرآن يؤيد الرواية ، فإنه يحاول تفسيرها تفسيراً لا يتناقض ومنهجـه العقلى المادى ، كما فى معجزة الاسراء والمعراج . .

ففى معجزة غزوة الأحزاب، التى أيد الله فيها المسلمين بجنود  
لم يروه، وأرسل ريحا شديدة اقتطعت خيام المشركين وأكفأت قدورهم...  
لم يشر هيكل الى هذا التأييد الالهى للمسلمين على أنه معجزة وخارقة  
وانما أشار اليه على أنه أمر من أمور الطبيعة المأرضة .

يقول هيكل : " ... فلما كان الليل عصفت ريح شديدة، وهطل  
المطر هاتئا، وقصف الرعد وخطف البرق واشتدت العاصفة فاقطعت خيام  
الأحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب الى نفوسهم ... " (١)

ومثل تفسير هيكل لما حدث فى غزوة الأحزاب على أنه عارض من  
عوارض الطبيعة - تفسيره لما وقع لِمَمْلُوكَةٍ لَمَّا سَاحَتْ أَقْدَامُ فَرَسِهِ فَنَسَى  
الْأَرْضَ حِينَ أَدْرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبَهُ - فقد فسر ذلك  
الذى حدث تفسيراً طبعياً ، وهو أن كبرة الفرس مرة بعد مرة، انما كان  
نتيجة اعياء وتمعب شديدتين نالا الفرس لكثرة ما جهده، بقصد اللحاق بهما .

يقول هيكل : " ... وبدأ محمد وأبو بكر يفكران فى امتطاء  
جمالهم ان كانوا من سراقة قَيْدَ الْعَصْرِ ، وكان جواد سراقة قد كباها  
قبل ذلك لشدة ما جهده ، فلما رأى الفارس أنه وشيك النجاح وأنه  
مُدْرِكُ الرَّجُلَيْنِ فَرَادَهُمَا إِلَى مَكَّةَ أَوْ قَاتَلَهُمَا إِنْ حَاطَا عَنْ نَفْسَيْهِمَا دَفَاعاً ،  
نَسِيَ كِهْوَتِي جَوَادِهِ وَلَزَّهُ لِيَمْسِكَ بِمِجْدَى سَاعَةِ الظُّفْرِ ، لَكِنِ الْجَوَادُ فِي قُوَّتِهِ  
كَهَاجَةِ غَنِيَّةٍ أَلْقَى بِهَا الْفَارِسُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِهِ يَتَدَحَّرُ فِي سِلَاحِهِ ... " (٢)

وأما فى قصة أصحاب الفيل التى وردت فى القرآن الكريم، فاننا نسرأه  
يفسر الطير الأبايل تفسيراً مادياً، يعده عن دائرة المعجزة ويتلأه منهنجه

(١) حياة محمد ص : ٣٠٥

(٢) حياة محمد ص : ١٨٠

المقلّى ، ان يفسر الطير الأبايل بأنه ماء غشى فى جيش أبرهة .

يقول هيكل : " . . . ذهب عبدالمطلب ومعه نفر من قريش فأخذ حلق باب الكعبة وجعل يدعو ويدعون ، يستصرون آلهتهم على هذا المتمدّى على بيت الله ، فلما انصرفوا وخلت مكة منهم ، وأن لأبرهة أن يوجه جيشه ليتم ما اعتزم ، فيهدم البيت ويمود أدراجه الى اليمن ، كان ماء الجدرى قد غشى فى الجيش وبدأ يفتك به ، وكان فتكاً ذريماً لم يمهّد من قبل قط ، ولعل جراثيم الماء جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وأصابت العدوى أبرهة نفسه ، فأخذ الروح وأمّر قومه بالمعودة الى اليمن ، وفر الذين كانوا يدلون على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكان الماء يزداد كل يوم شدة ، ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب ، وبلغ أبرهة صنعاً ، وقد تناثر جسده من المرض فلم يبق الا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه " (١)

وفى معجزة الاسراء والمعراج نرى هيكلًا يفسرها تفسيراً يتّـلام ومنهجه العقلى ، فهو يرى أن الاسراء والمعراج كانا بالروح لا بالجسد ، وأن لهذه الرحلة معنى أكبر من هذا الذى يصورون .

يقول هيكل " فى الاسراء والمعراج فى حياة محمد الروحانية معنى سام غاية السمو ، معنى أكبر من هذا الذى يصورون ، والذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمين المخلّين حظّ غير قليل . فهذا السروح القوى قد اجتمعت فيه فى ساعة الاسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها . لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرها من الحجب التى تجعل حكمتها

---

(١) حياة محمد ص : ٦٤ .

نحن فى الحياة نسبيا محدودا بحدود قوتنا المحسة والمدبرة والمالطة .  
تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد ، واجتمع الكون كله  
فى روحه ، فوطء منذ أزل الى أبدى صورته فى تطور<sup>(١)</sup> وحدته الى الكمال  
عن طريق الخير والفضل والجمال والحق فى مفاصلها وتغلبيها على الشر  
والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة . وليس يستطيع هذا السمو  
الا قوة فوق ما تعرف الطبائع الانسانية . . . . . والاسراء بالروح هو نفسى  
معناه كالاسراء والمعراج بالروح جميعا سموا وجمالا وجلالا ، وهو تصوير  
قوى للوحدة الروحية من أزل الوجود الى أبدى ، فهذا التعرّيج على  
جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليما ، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى ،  
وهذا الاجتماع الروحى ضمت الصلاة فيه محمدا وعيسى وموسى وإبراهيم ،  
مظهر قوى لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدة الكون نفسى  
موره الدائم الى الكمال " (٢)

وهيكل — بهذا التفسير — يرى الاسراء والمعراج " استجماعا  
ذهنيا ونفسيا لوحدة الوجود من الأزل الى الأبد فى فترة من<sup>(٣)</sup> فترات  
التألق النفسانى القد ، الذى اختص به بشر نقى جليل مثل محمد صلى  
الله عليه وسلم ، وفى إبان هذا التألق الذى استعلى به على كل شئ  
— استعرض حقائق الدين والدنيا ، وشاهد صور الثواب والمقاب الخ . .  
فالاسراء حق . . وهو — عنده — روحى لا مادى ، ولكنه فى اليقظة  
لا فى المنام ، فليس رؤيا صادقة ، كما يرى البعض ، بل هو حقيقة  
واقعة على النحو الذى صورته . . . . . " (٤)

(١) كلمة " تطور " غير موجودة فى اللغة وهى من الأخطاء الشائعة .

(٢) حياة محمد ص : ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣) فترة وفترات خطأ شائع والصواب : حقبة وحقب .

(٤) نقه السيرة للاستاذ محمد الغزالى ، ص ١٣٥ .

ويدلل هيكل على صحة تفسيره لرحلة الاسراء والمعراج ، فيقول :  
" والعلم في عصرنا الحاضر يقر هذا الاسراء بالروح ، ويقر المعراج بالروح ، فحيث تتقابل القوى السلبية يشع ضياء الحقيقة ، كما أن تقابل قوى الكون في صورة معينة قد طوع لماركوني " — إذ سلط تيارا كهربائيا خاصا من سفينة التي كانت راسية بالبندقية — أن يضيء بقوة موجات الأثير مدينة " سدنى " في استراليا ، وفي عصرنا هذا يقر العلم نظريات قراح الأفكار ومعرفة ما تنطوي عليه ، كما يقر انتقال الأصوات على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتومات كذلك ، مما كان يعتبر فيسا<sup>(١)</sup> مضي بعض أفانين الخيال وما تزال القوى الكمية في الكون تتكشف لعلنا كل يوم عن جديد " (٢)

ويستطيع القارئ أن يلح منهج هيكل العقلى في تحيله لحادثة شق الصدر ، ومعجزة الفار وغيرهما ، من الخوارق والمعجزات التي لم نشر اليها ، فليرجع القارئ اليها اذا أراد .

\*\*\*

وأما بالنسبة الى تفنيد المزاعم ، ودحض المطاعن ، ودفع الشبهات التي وجهها المستشرقون وأعداء الاسلام الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فان هيكلا قد احتكم الى العقل — أيضا — في تفنيد كل ذلك واطهار زيفه واطاله ، وراح يناقشها مناقشة عقلية تمتد على منطق سليم وحجة قوية ، ويهمننا في هذا المجال أن نورد مثالا من الأمثلة التي ناقشها هيكل بحقه ومنطقه لندلل به على طريقته العقلية التي انتهجها فسي

---

(١) الأصوب : يمد — لأن الاعتبار معناه : الاتعاض ، ولكن الكتاب

يخطئون كثيرا في هذا .

(٢) حياة محمد ص ١٥٩ .

### مناقشة هذه المطاعن .

من المطاعن التي وجهها المستشرقون لآلهم النبي بحب النساء اعتمادا على أنه تزوج<sup>صحيح</sup> تسع زوجات مما فسر بعض المؤرخين المسلمين على أنه فحولة جسدية ظانين أن ذلك نوع من الكمال، وتهمهم المستشرقون في هذا التفسير - ولكن بدون توفير - فقالوا : انه اسراف في المتعة الجسدية .

وهنا يرد هيكل على أولئك المستشرقين ردودا ناصعة قوية قوامها العقل والمنطق والتاريخ الناصع لحياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبدأ هيكل في شرح وتطيل البواعث والاسباب التي كانت وراء كل زيجة من زيجاته ، والتي لم تكن المتعة الجنسية والرغبة الجسدية واحدة منها . فالرسول صلى الله عليه وسلم كان قد تزوج خديجة الأولى زوجاته وهو في الثالثة والعشرين ، وهو في شرح الصبا وريمان الفتوة ووسامة الطلعة وجمال القسام وكمال الرجولة ، ومع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجة ثمانية وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين ، في الوقت الذي تكبر فيه خديجة خمسة عشر عاما ، هذا على حين كان تعدد الزوجات أمرا شائعا بين العرب في ذلك الحين .

أما بقية أزواجه فمنهن من تزوجها تمويضا لها عن فقد عائش أو تشريفا لها بالانتساب اليه كسودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو ابن عبد شمس . ولم يروى أن سودة كانت من الجمال أو من الثروة أو من المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثرا في زواجه منها . انما كانت سودة زوجا لرجل من السابقين الى الاسلام الذين احتلوا في سبيله الأذى ، والذين هاجروا الى الحبشة بعد أن أمرهم النبي بالهجرة عبر البحر إليها . وقد أسلمت سودة وهاجرت معه ، وعانت من المشاق ما



عاني، ولقيت من الأذى ما لقي، فإذا تزوجها محمد بعد ذلك ليعملها  
وليرفع بمكانتها إلى أمة المؤمنين ، فذلك أمر يستحق من أجله أسى  
التقدير وأجل الحمد " (١)

ومنهن من تزوجها دعاء لروابطه بأسرتها كمأثثة بنت أبي بكر  
وحفصة بنت عمر : " أما عائشة وحفصة فكانتا ابنتي وزيريه: أبي بكر  
وعمر ، وهذا الاعتار هو الذي دعا محمدا أن يرتبط وإياهما برابط  
المصاهرة بالتزوج من ابنتيهما . . . ليمتن أواصر هذه الجماعة الإسلامية  
الناشئة في شخص وزيريه ، كما تزوج من سودة ، ليعلم المجاهدون من  
المسلمين أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوة  
وذرية ضاعافا يخافون عليهم غيلة " (٢)

وكان السبب الذي من أجله تزوج سودة ، هو نفس السبب الذي  
من أجله تزوج زينب بنت خزيمة ، ومن أم سلمة . " فقد كانت زينب  
زوجة لعبيدة بن الحارث بن المطلب الذي استشهد يوم بدر ، ولم  
تكن ذات جمال ، وإنما عرفت بطهرتها وإحسانها حتى لقيت أم المساكين ،  
وكانت قد تخطت الشباب . . . أما أم سلمة فكانت زوجة لأبي سلمة ،  
وكان لها منه أبناء عدة . وقد سبق القول : أن أباسلمة جرح في أحد  
ثم برأجرحه ، فعقد له النبي لحرب بني أسد فشتتهم وعاد إلى المدينة  
بما غنم، ثم نشر عليه جرح أحد ومازال به حتى قضى عليه . . . ومحمد  
أربعة أشهر من وفاته طلب محمد إلى أم سلمة يدها فاعتذرت بكسرة  
العيال ، وأنها تخطت الشباب ، فمازال بها حتى تزوج منها ، وحسنى  
أخذ نفسه بالعناية بتثنية أبنائها . أفيزعم المبشرون والمستشرقون بمعد

(١) حياة محمد ص : ٢٨٧ .

(٢) حياة محمد ص : ٢٨٨ .

ذلك أن أم سلمة كانت ذات جمال ، هو الذى دعا محمدا الى الستزوج منها ؟ ان يكن ذلك فقد كانت غيرها من بنات المهاجرين والأنصار من تفوقها جمالا وشبابا وشرقة ونضرة ، ومن لا يسهطه عبء عيالها ، لكنه انما تزوج منها لهذا الاعتبار السامى الذى دعاه ليتزوج زينب بنت خزيمة . . . (١)

ومنهن من تزوجها الرسول لتقرير مبدأ تشريعى ، كزینب بنت جحش التى تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن طلقها متنها : زيد بن حارثة ، وذلك ليقرر مبدأ تشريعى ، وهو أن الابن المتبنى ليس كالابن الأصيل ، وليس له من الحقوق الشرعية ما للابن ، عكس ما كان معروفا وشائعا بين العرب ، الذين جعلوا للمتبنى ما للابن من الحقوق ، ولكى يهدم الرسول هذه العادة ، وليقيم مكانها هذا المبدأ التشريعى ، وهو أن الأدعاء ليسوا كالأبناء ، كان زواج الرسول — بأمر من الله تعالى — من زينب بنت جحش بعد تطليق زيد أياها . وتلك كانت الحكمة من زواج الرسول لزينب ، وليس كما يدعى المستشرقون والمبشرون من أن الرسول شغف حيا بمزينب بنت جحش ، وهى تحت زيد بن حارثة مولاه ، لغير شىء الا أنه مر بهيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب ، وكانت فى ثياب تهدي محاسنها ، فقال : سبحان الله مقلب القلوب ، وأنسى كرر هذه العبارة ساعة انصرافه ، فسمعتها زينب ، ورأت فى عينه وهجس الحب فأعجبت بنفسها وأبلغت زيدا ما سمعت فذهب من فوره الى النسبى يذكر له استعدادا لتسريحها ، فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، لكن زينب لم تحسن من بعد عشرته فطلقها ، وأمسك محمد عن زواجها

وطلبه في شغل بها حتى نزل قوله تعالى من سورة الأحزاب : " إِذْ يَقُولُ  
لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ . . . أَلَيْسَ لَكَ بِزَوْجٍ مِمَّنْ أَنْزَلَ اللَّهُ مَقْعُولا " (١) إِذْ ذَاكَ  
تزوجها ، فأطلقا بزواجها لاذع جه ، ومتوهج غرامه . .

وهنا ينبغي هيكل للرد على هذه الفرية ، ويبين بالمنطق والعقل  
والفهم السليم لوقائع الأمور أن زواج الرسول من زينب بنت جحش ليس كما  
يدعى المستشرقون والمبشرون ، وإنما كان للمقاصد التشريعية التي أسلفنا  
الحديث عنها . .

يقول هيكل : " أما قصة زينب بنت جحش ، وما أضفى بمـــــض  
الرواة وما أضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى  
جعلوها قصة غرام ووله ، فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر محمد ،  
وأنه ، وهو المثل الكامل للإيمان ، قد طبق فيها حديثه الذي معناه :  
لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وقد جعل نفسه  
أول من يضرب المثل لما يضح من تشریح يحو به تقاليد الجاهلية وعاداتها  
ويقربه النظام الجديد الذي أنزل الله هدى ورحمة للعالمين ، ويكفى  
لهدم كل القصة التي قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زينب بنت  
جحش هذه هي ابنة أمية بنت عبدالمطلب عمه رسول الله عليه السلام ،  
وأنها ربيت بيمينه وعنايته ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت  
الصغرى ، وأنه كان يعرفها ويعرف أهـى ذات مقائن أم لا قبل أن  
تتزوج زيدا ، وأنه شهد لها في نموها تحو من الطفولة الى الصبا الى  
الشباب ، وأنه هو الذي خطبها على زيد مولاه . . . ولو أن شيئاً  
من حبها علق بطلبه لخطبها الى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها  
على زيد . وهذه الصلة بين زينب ومحمد ، وهذا التصوير الذي صورناها  
به لا يدعان بمحدهما لتلك القصة الخيالية التي يرون أى أساس أو أى حق

## من البقاء . . (١)

ومعد أن هدم هيكل ما كان قد بناه المستشرقون والمبشرون من قصص خيالية واهية حول زينب بنت جحش ورؤية الرسول إياها . . . بين هيكل الحكمة التي كانت وراء زواج الرسول من زينب بنت جحش بمعد أن طلقها زيد .

يقول هيكل : " . . . وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يطل ما كانت تددين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت ، واتصالهم بأنسابها ومن إعطاء الدعى جميع حقوق الابن ومن اجرائهم عليه أحكامه حتى نسي الميراث وحرمة النسب ، وألا يجعل للمتبنى واللصيق إلا حق المولى والأخ في الدين ، فنزل قوله تعالى : " وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ كُنْتُمْ ذَلِكُمْ قَوْلَكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ <sup>(٢)</sup> " ومعنى هذا أنه يجوز للمدعى أن يتزوج من كانت زوجا لمن ادعاه . ويجوز للمتبنى أن يتزوج من كانت زوجا لمتبناه . ولكن كيف السبيل الى تنفيذ هذا؟ ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السالفة جميعا؟ ان محمدا نفسه على قوة عزيمته وعميق ادراكه لحكمة الله في أمره قد وجد على نفسه المضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بمعد تطليق زيد إياها . ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه المادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب ، وذلك ما يريد تعالى في قوله : " وَتَخَفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ يُهْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ <sup>(٣)</sup> " لكن محمدا كان القدوة في كل ما أمر الله به وما ألغى عليه أن يبلغ رسالته ، فلا يخش ما يقول الناس في تزوجه من زوج زيد

(١) حياة محمد ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢) الآية : ٤ من سورة الأحزاب .

(٣) الآية : ٣٢ من سورة الأحزاب .

مولاه، فذلك لا شيء الى جانب خشية الله بتنفيذ أمره ، وليتزوج من  
 زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني  
 والادعاء . وفي ذلك نزل قوله تعالى : " فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا  
 زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي  
 أَنْزَلْنَا مِنْهُمْ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا " . (١)

\*\*\*

(١) الآية : ٣٧ من سورة الاحزاب .

(٢) حياة محمد ص ٢٩٢ و ٢٩٣ .

الفصل الخامس  
" حياة محمد " في ميزان النقد

- ١ - قيمة الكتاب وأثره ..
- ٢ - مناقشة هيكل في خطأ اعتماد منهجه على العقل فقط ، وتعليق  
ركونه الياسه .
- ٣ - مناقشة هيكل في تحليله لبعض الخوارق التي حاول تفسيرها تفسيراً  
عقلياً ..
- ٤ - مناقشة هيكل في تحليله الخاطي لبعض الأحداث والوقائع ..

١ - قيمة الكتاب وأثره :

لا يستطيع باحث أو مفكر أن يشك في القيمة العلمية والأدبية بل والاسلامية لكتاب " حياة محمد " لهيكل ، كما لا يستطيع أن يجحد الفضل الذي قدمه هيكل لقراء العربية في مجال السيرة النبوية ، حيث عرض هذه السيرة في ثوب جديد لم يك معروفًا لقراء العربية في تلك المدة التي ظهر فيها هذا الكتاب ٠٠٠ سواء في طريقته أو أسلوبه أو منهجه ، كما سبق أن أوضحنا ، وهذا يمد " حياة محمد " فتحًا جديدًا في مجال الدراسات الاسلامية عامة ، والسيرة النبوية خاصة ، حيث تلت محاولة هيكل محاولات أخرى في هذا المجال ، تنحو نحو هيكل في الجمع بين التاريخ والأدب ، أبرزها كتابات " طه حسين " و " الرافعي " و " المشهدى " و " العقاد " و " الزيات " وغيرهم ، وقد أطلق على هذا اللون الجديد من الكتابة اسم : " تأديب التاريخ " كما أشرنا الى ذلك من قبل .

ولم يكن ما قدمه هيكل من طريقة جديدة في مجال الكتابات الاسلامية ، قاصرا على كتاب " حياة محمد " بل تلته كتب أخرى - في هذا المجال - أمثال : " أبوبكر الصديق " و " الفاروق عـ " و " عثمان " و " في منزل الوحي " و " الامبراطورية والأماكن المقدسة " (١)

وهيكل بهذا السبق في مجال السير والتراجم الاسلامية ، يمد من رواد الفكر في العصر الحديث ، مما حدا بالأستاذ العقاد أن يقول

---

(١) الكتاب الأخير طبع في دار الهلال " كتاب الهلال " العدد ١٢٠ ( مارس ١٩٦٣ ) .

عنه : " ولا شك أن هيكل المؤرخ وكاتب السيرة جدير بأن يسلك فى  
عداد نوابغ مصر والأمة العربية ، بل جدير بأن يسلك فى عداد  
الكتاب العالميين ان جاز أن يكون مصرياً فحسب ، فى غير هذا المجهول<sup>(١)</sup> "

ولكن على الرغم من هذا السبق الذى حازه هيكل والذى كانت  
له آثاره فى مجال الكتابات الاسلامية ، حيث توالى تلك الكتابات تحذو حذو  
هيكل فى محاولته كتابة التاريخ بطريقة جديدة تجمع بين التاريخ والأدب ..  
... أقول : على الرغم من هذا كله ، نرى أن كتاب  
" حياة محمد " موضوع بحثنا لا يخلو من نقداً ، نرى من الواجب  
إيرادها ، اتماماً للبحث وانصافاً للحق ..

## ٢ - مناقشة هيكل فى خطأ اعتماد منهجه على العقل فقط ، وتعلييل ركونه اليه :

قلنا سابقاً : ان هيكل قد اعتمد فى تطيله لأحداث السيرة النبوية  
ورقائمه... عليها على المنهج العقلي ، ولقد حاول هيكل اخضاع هذه  
الأحداث وتلك الوقائع للمقاييس العقلية التى تعتمد على الواقع المحسوس  
هو ~~أكل من واقع الحياة أو من واقع التاريخ~~ ... ونحن لا ننكر  
على هيكل اعتماده على العقل ، لأن العقل أودع فى الانسان ، كى  
يفكر به ويصل عن طريقه الى الحقيقة التى يود الوصول اليها .. وانما  
الذى ننكره على هيكل ، هو اسرافه فى الاعتماد على العقل وتحكيمه فى  
كل ما يمن له من أمور ، حتى فى المجالات التى ليس للعقل مجال  
فى الحكم عليها ، لأنها فوق قدرته وطاقته ، كالمعجزات والخيوارق ،

---

(١) من مقالة بكتاب " الدكتور محمد حسين هيكل " ص ٢١٣ .



لأن للعقل - لا شك - وظيفة ، وله قدرة ، كما أن له - أيضا - حدوده وروافده التي تعدّه بالمعلومات والمعارف والمدرّكات التي تصلّ الى تلك الروافد - فما كان داخلا من هذه المدرّكات في دائرة ادراكه فله أن يحكم عليها ، وما ليس داخلا منها في دائرة ادراكه فليس له أن يحكم عليها .

وما يدخل في دائرة ادراك العقل ، هو ما جاء من المدرّكات عن طريق الحواس الخمس ، والتي تعدّه بها من عالم الحس المحيط بها ، لأن ما جاء منها عن طريق الحواس الخمس المستمد من عالم الحس خاضع للمقاييس العقلية والنواميس الطبيعية المادية .

وما لا يدخل في دائرة ادراك العقل ، هو ما جاء من المعارف خارجا عن عالم الحس والمادة وهو ما يسمى بـ " ما وراء الطبيعة " أو " ما وراء المادة " لأن ما جاء للعقل ما وراء الطبيعة أو المادة ليس خاضعا للمقاييس العقلية المحدودة والنواميس الطبيعية المادية ، وعلى العقل ان جاء اليه شيء من المعارف أو الأخبار التي لا تخضع للمقاييس العقلية المادية والتي لا تتأتى الا عن طريق السماع - أن يؤمن به - ايمانا مبنيا على الاقتناع والتسليم دون مناقشة ودون شك ، وذلك اذا تلقى الخبر من صادق أمين ، له قدرة على الاتصال بما وراء المادة ، ولا يكون ذلك الا للأتقياء والرسلى (١) .

ونخلص من هذا الاستطراد الى القول بأنه كان مقبولا من هيكل مناقشاته العقلية المبنية على المنطق الواضح والحجة البينة التي ملأ بها

---

(١) راجع ذلك بالتفصيل في كتاب " صور من حياة الرسول (ص) " ٦٠٤ - ٦٠٩ ( ملحق : الاسراء والمعراج ) .

كتابه ، والتي تدخل فى المجالات العقلية ، وذلك مثل مناقشاته للطعمون والمزاعم التى وجهها المستشرقون والمبشرون الى الرسول صلى الله عليه وسلم . . . . كان مقبولا أن يناقش هذا كله وأن يجبه بالعقل والمنطق كل هاتيك الطعمون والمزاعم .

فى الوقت الذى نقبل فيه من هيكل هذا ولا ننكره عليه ، نقرر أننا لا نقبل منه - بل ننكر عليه - أن يقم العقل فيما لا مجال للعقل فى الحكم عليه ، وذلك كتحكيمه العقل فى مسألة الخوارق والمعجزات التى جاءت فى ثنايا وقائع السيرة النبوية وأحداثها ، لأن هذه الأمور ليست خاضعة - كما قلنا - للمقاييس العقلية ، والنواميس الطبيعية والمادية . ومن هنا راجع هيكل يَصْصَفُ من أسانيدها أو يوهن رواياتها أو يؤولها تأويلا يتفق تماما مع المقاييس العقلية المادية . وكان على هيكل أن يسلم بهذه المعجزات وتلك الخوارق ، وأن يؤمن بها ، تسليما وإيمانا لا يدعى أن مجالا لريبة أو شك ، لا سيما تلك المعجزات والخوارق التى لا مجال لتكذيبها وانكارها ، أو تأويلها تأويلا عقليا خاضعا لما هو مقرر فى عالم الحس والمادة ، وذلك كالمعجزات والخوارق التى وردت فى القرآن الكريم ، كالأسراء والمعراج وتأيد الله المسلمين فى بدر والخندق وحنين بجنود لم يروها . . . . أو تلك المعجزات التى جاءت بها روايات مشوق بصحتها ولا مجال لانكارها .

وهيكل قصد الى ذلك قصدا ، لأنه أراد أن ينقى السيرة النبوية مما قد علق بها مما أضافته كتب السيرة الى حياة النبى مما لا يصدقه العقل ، ولا حاجة اليه فى تهوت الرسالة - كما يذكر ذلك فى تقديس كتابه - من المعجزات والخوارق التى اتخذ منها المستشرقون تكملة

للنيل من الاسلام ونبيه ، وسبيلا الى الطمن في تاريخ الاسلام . . (١)

وقد ذكرنا من قبل أن هيكلا قد اتخذ من العقل حكما وهو يكتب السيرة النبوية وأنه حاول تفسير الوقائع والأحداث من خلال هذا المقياس ، كي يجارى طريقة المستشرقين التي بها يؤمنون ، وعليها يسيرون " وقد تبين من بعد أن الدكتور هيكل إنما كان يهدف الى اختصار منهج المستشرقين أنفسهم في الكتابة عن السيرة وأنه تجاهل كثيرا من الجوانب الروحية الفذة التي قد تتعارض مع الأمور المادية وهو ما لا يحدث الا لذوى الرسالات الالهية " (٢)

وقد فات هيكلا أن هؤلاء المستشرقين هم اليهود والمسيحيون أتباع الكتاب المقدس .

والمهد القديم والمهد الجديد جميعا ، تص أسفارهما على معجزات لا يتقبلها العقل ولا تخضع لمصادقات الطبيعة . (٣)

ويرى بعض الباحثين أن الذى حدا بهيكل الى سلوك هذا المنهج الاستشراقى هو التهييب من حدة النقد المرمى للمعجزات وعدم ركون العقليّة المادية اليها أو اطمئنانها لها ، فعمل هيكل - كما عمل قبله جماعة من الباحثين المسلمين - على تهوينها أحيانا أو جعلها مصادقة من أحداث الطبيعة أحيانا أخرى ، وربما أعرضوا عنها نهائيا ، وجرت في هذا الطلّات كتب في التفسير وقصص الأنبياء والسيرة النبوية . (٤)

- 
- (١) راجع : حياة محمد ص ١٤٤ ، ١٥  
 (٢) أضواء على الأدب العربى المعاصر ص : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .  
 (٣) راجع " مجلة الأزهر " - السنة الثامنة والثلاثون - ص : ١٧٠ ، ١٧١ .  
 (٤) المرجع السابق - ص : ١٦٨ - ١٧٠ .

يقول الباحث : " . . . وعلى هذا المنهج جرى الدكتور هيكل في كتابه " حياة محمد " ، إذ كان يجرد حياة النبي صلى الله عليه وسلم من كل معجزة عدا القرآن، ولعل هذا هو الذي اضطره الى الاغضاء عن عمل الملائكة يوم بدر والوعد بهم يوم أحد ، وتأيد جنود الله للنبي والمؤمنين يوم الأحزاب ويوم حُنين ، وعن كون الاسراء والمعراج بالروح والجسد معا ، وقد اكتفى بمعرض ما في المسألة من خلاف وعنى بشرح الأدلة التي تؤيد أنها بالروح ، كما فسر حادث سراقه بأنها كانت كهوات جواد أجهد السير حتى تطير سراقه ورجس " (١)

كما يرجع باحث آخر سلوك هيكل وغيره هذا المنهج العقلي الى انبهار هؤلاء الكتاب بالنهضة العلمية في أوربة " . . . ذلك الانبهار الذي أصيب به كثير من العقول المربية المسلمة من أنباء النهضة العلمية في أوربا (٢) فقد راحت تلك العقول تتوهم - تحت تأثير ذلك الانبهار - أنه ليس بين المسلمين وبين أن ينهضوا مثل تلك النهضة الا أن يفهموا الاسلام هنا ، كما فهمت أوربا النصرانية هناك ، وأن يضموا حقائق الاسلام الغيبية من وراء اكتشافات العلم المادية ، فلا يؤمنوا بغيب لم يدركه علم ، ولا يصرحوا على معجزة لم يؤيدها اكتشاف أو اختراع ، فإذا فعلوا ذلك نهضوا نهضة أوربا في علومها ولحقوها في رقيها وفنونها " (٣)

ثم يذكر هذا الباحث أن هؤلاء المنبهرين بالنهضة الأوربية والذين حاولوا كتابة التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية من خلال مناهجهم العلمية

---

(١) راجع " مجلة الأزهر " - السنة الثامنة والناشون - ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٢) كذا ، والصواب : أوربة - بالتاء - .

(٣) " فقه السيرة " للدكتور : محمد سعيد رمضان البوطي ص : ٨

الحديث - يذكر أنهم عدوا ذلك "اصلاح ديننا".

"... ومن هنا أنشأ أقطاب تلك المدرسة ما زعموه "الاصلاح الديني" والدين الصحيح ما كان يوما ما ليفسد حتى يحتاج الى مصلح أو اصلاح ، وكان من مظاهر هذا "الاصلاح" ظهور أول تجربة تحاول تطيل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تحيلا يسير في خضوع منكسر وراء الحقلية الأوروبية ، وتحت لواء ما زعموه " العلم الحديث " .

أجل ، فلقد كان كتاب " حياة محمد " لحسين هيكل ، التجربة الرائدة في هذا المضمار ، أطن فيه الرجل أنه لا يريد أن يفهم حياة محمد صلى الله عليه وسلم الا كما يأمر به "الحلم" ولذلك فلا خوارق ولا معجزات في حياته عليه الصلاة والسلام ، انما هو القرآن والقـرآن فقط... (١)

ونحن من جانبنا نقول لهيكل ومن جرى على نهجه : ما الذي يمنع أن تقع خوارق ومعجزات في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ ألم تقع خوارق ومعجزات في حياة الرسل السابقين ؟ والرسول ليس بدعـا من الرسل ؟

ثم اننا نقول لهيكل : اننا محك في أن المحجزة المتحدّى بها ، بل الدليل الأول على صدق رسالة الرسول ، انما هي القرآن .. وليست تلك المعجزات والخوارق الدليل على صدق الرسالة ، وليست من قبيل المعجزات والخوارق المتحدى بها ، وما تلك المعجزات والخوارق التي وقعت له الا تأييدات ربانية ، قصد بها تثبيت ايمانه وتقوية عزمه ، كالسـتى

---

(١) "ثقة السيرة" للدكتور : محمد سعيد رمضان البوطي ص : ٨ .

وقعت يوم بدر والخندق وحنين .. والا تعظيم وتكريم قصد به اعـلام  
الرسول بمحظـم مكانته ، وطـو قدره عند الله ، وأن الله مؤيده وناصـره ،  
وذلك كمعـزة الاسـراء والمـحراج .. وهـكذا .

واذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بأثر هذه الخوارق وتلك المعجزات  
وقيمتها ومكانها بالنسبة للرسول فلم يحاول هيكل — جاهدنا — انكارها ،  
أو تضعيفها ، أو تأويلها تأويلا لا يتطابق مع مفزاتها وهدفها ؟ !

٣ — مناقشة هيكل في تحليله لبعض الخوارق التي حاول تفسيرها تفسيراً  
عقلانياً :

ولعل من الواجب أن نناقش هيكل في بعض هذه الخوارق التي  
حاول تفسيرها تفسيراً يتفق ومنهجها العلمي ، وستكون مناقشتنا اياه قائمة  
على منهج علمي سليم لا مجال للاختلاف عليه ..

في قصة أصحاب الفيل فسر هيكل الطير الأباهيل بأنه ماء ، فـشـى  
في جيش أبرهة وليس طيراً حقيقياً ، وهيكل قد لجأ الى هذا التفسير ،  
لأن عقله يستبعد أن يأتي طير يحمل حجارة ، ثم يرمي بها جيش  
أبرهة بحينه بقصد اهلاكه وابادته .

وكان على هيكل أن يمعن النظر في سورة " الفيل " وأن يرى ما فيها  
من دلالات قوية تؤكد أن المقصود بالطير في السورة الطير الحقيقي .

أولى هذه الدلالات : أن القرآن نص على لفظ " الطير " ومعروف  
في العربية أن اللفظ يصرف الى معناه الحقيقي ما لم يوجد ما يفرضه  
عن هذا المعنى الحقيقي من قرائن لفظية أو معنوية ، وليس في السورة  
ما يصرف لفظ " الطير " عن معناه الحقيقي الى معنى آخر ، بل ان فسـ

السورة ما يؤكد ويقوى أن المقصود بالطير حقيقة الطير ، وهو قوله :  
 " ترسمهم بحجارة من سجيل " اذن فهناك رمى وهناك حجارة ، ولا يتأتى  
 رمى بحجارة الا من طير حقيقى .

ثانية هذه الدلالات : أن مطلع السورة وما تلاه : فيه من الدلالات  
 القوية على أن ما حدث لأصحاب الفيل على الوجه الذى ذكرته السورة  
 كان حقيقة يجب على كل مسلم أن يعلم بها ، وذلك حيث أسند الفعلان :  
 "فعل" و"أرسل" الى الله ، الأول الى صريح لفظ الرب ، والثانى الى  
 ضميره ، حيث قال : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟ ۝ وَأَرْسَلَ  
 عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ <sup>(١)</sup> " ومعروف أن الفعل والمفعول يفسران فى ضوء الفاعل ،  
 فاذا كان الفاعل مما يقدر على أحداث الفعل الواقع بالمفعول ، ففسر  
 الفعل والمفعول تفسيراً ينصرف الى حقيقة لفظهما ، وإذا كان الفاعل  
 مما لا يقدر على أحداث الفعل الواقع بالمفعول ، فسر الفعل والمفعول  
 تفسيراً يتفق ويتناسب وقوة هذا الفاعل . . . . . وحين نعود الى الفعلين  
 الواردين فى السورة : " فعل " و"أرسل " نجدهما قد أسندا الى  
 الله : الى صريح لفظ الرب فى الأول ، وإلى ضميره فى الثانى ، كما  
 ذكرنا ، وإذا كان الفاعل بأصحاب الفيل هو الله ، وإذا كان المرسل  
 عليهم " طيرا أبابيل " هو الله ، فيجب أن يفسر ما فعله الله بأصحاب  
 الفيل تفسيراً حقيقياً ، اذن فارسل الطير الأبابيل حقيقة ، وليس  
 وباءً تفشى فى جيش أبرهة كما يرى هيكلى .

ولماذا يتكلف هيكلى ويتمسف ، فيفسر الطير الأبابيل على أنها  
 ماء ، مع أنه قد علم من القرآن الكريم ، أن الذى أرسل الطير الأبابيل  
 على جيش أبرهة هو الله ، الذى الله بقادر على ارسال طير حقيقة  
 ترسمهم بحجارة من سجيل ؟ !

(١) الآية ١ ، ٣ من سورة الفيل .

وهناك دلالة ثالثة عظيمة، تؤكد أن ما فعله الله بأصحاب الفيل وما أرسل عليهم من طير أبابيل ... ترميهم بحجارة من سجيل - كان حقيقة واقعة ، وهى أن القرآن الكريم حين أخبر عن هذه الحادثة لم يستطع أحد أن ينكرها ، لا سيما أن هذه السورة حين نزلت كان هناك من العرب من حضروا هذه الحادثة ، فلو لم تقع هذه الحادثة على الوجه الذى صورته القرآن لأنكرها المشركون حين سمعوها ، لا سيما أنهم كانوا يتصيدون للرسول الثغرات ويلفقون له الأكاذيب ، ومع ذلك لم يثبت أن أحدا أنكر هذه الحادثة على النحو الذى ذكرته السورة ، وهذه دلالة عظيمة قوية على أن الطير الأبابيل كان حقيقة وليس ماء .

وفى حادثة الاسراء والمعراج يذهب هيكل الى أنها كانا بالروح لا بالجسد وقد سبق أن أشرنا الى تفسيره للاسراء والمعراج فى موضعه .

وكان على هيكل أن يمعن النظر فى النصوص القرآنية التى وردت فيها حادثة الاسراء والمعراج ، ليرى ما فيها من دلالات قوية على أن الاسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معا وليس بالروح فقط كما يرى هيكل .

فمن الاسراء يقول الله تعالى : " سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى " (١) فنرى أن الفعل " أسرى " مسند الى الضمير الذى يرجع الى الله ، وقد سبق أن ذكرنا أن الفعل يفسر فى ضوء الفاعل ، وإذا كان الذى أسرى بهمه هو الله ، فيجب أن يفسر الاسراء بالرسول على أنه كان حقيقة بالجسد والروح وليس بالروح فقط ، ولا جدال فى ذلك ولا مراهة ، ولا أحد يستطيع أن يتعمل

---

(١) الآية ١ من سورة " الاسراء " .



بقانون المسافة ويزعم أن الاسراء كان بالروح ، لأن الذى أسرى بحبسه هو الله ، والذى خلق قانون المسافة هو الله ، والذى خرق هذا القانون للرسول هو الله ، لأن خالق القانون قادر على خرقه . هذه دلالة .

ودلالة أخرى على أن الاسراء كان بالجسد والروح معا أن متعلق الفعل " أسرى " وهو لفظ " بحبسه " لا يطلق إلا على الجسد ، فلا يقال عن الروح عهد " وهذا أمر معروف فى اللغة العربية . .

وعن المعراج يقول الله تعالى : " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُنَبِّئُهُ عَلَىٰ مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَفِشَى السِّدْرَةُ مَا يَفِشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى " (١) .

والناظر فى صدر هذه السورة يرى أنها تصدرت بقوله تعالى : " وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطُقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى " (٢) .

ولهذا التصدير دلالة وفخاء ، إذ يقرر — ابتداءً — أن الرسول صادق فيما يُخبر به ، لأنه يخبر عن وحى وليس عن هوى ، فإذا ما أخبر بخبر أو حدث بشئ ، كان خبره صادقاً وحديثه حقيقة لا مرأ فيها . . فإذا جاء بعد هذا التصدير الحديث عن المعراج وما حَدَّثَ به الرسول الناس عما رآه فى معراجه ، فيجب أن يُسَلَّم بوقوعه ، لا على أنه بالروح

(١) الآيات ١٨/٨ من سورة " النجم " .

(٢) الآيات ١ / ٤ من السورة نفسها .



دائرة ادراكه ، أما الذى يستطيع العقل أن يسأل عنه فهو الحكمة  
فى حدوث الاسراء والمعراج . (١)

\*\*\*

وهيكل يستند - فيما يذهب اليه من انكار المعجزات فى حياة  
الرسول صلى الله عليه وسلم أو رفضها أو تأويلها - الى قوله تعالى :  
لَا رِيبَ لَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ . (٢)

ونحن نقول : ان استناد هيكل الى هذه الآية استناد غـيـر  
صحيح ، وان استدلاله بها استدلال مردود ، ذلك لأننا اذا نظرنا  
الى الآية نجد أنها ليست بسبيل انكار المعجزة واستحالة خرق المادة  
على الله عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم ، وانما بسبيل تأكيد الموقف  
السلبي من التحدى بالمعجزة ، حيث تضمنت تقريراً ربانياً صريحاً بأن الله  
عز وجل امتنع عن التزام اظهار المعجزة على يدى النبي صلى الله عليه وسلم  
اجابة على تحدى الكفار ، وتعليلاً صريحاً لذلك ، وهو أن الأمم السابقة  
قد كذبت بالآيات التى أظهرها الله على أيدي أنبيائه ، وأنها لم تحقق  
المقصود منها - اذن فالآية لا تمنع أن تقع معجزات أو تأييدات ربانية  
على يدى النبي صلى الله عليه وسلم ، وانما تمنع الالتزام أن تقع المعجزات  
للتحدى ، استدلالاً بها على صدق رسالة الرسول ، ذلك لأن المعجزة  
المتحدى بها - بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم - انما هى القرآن ،  
ولذلك نرى القرآن لا يستجيب الى ما طلبه الكفار من معجزات لتكـوـن  
دليلاً على صدق الرسول فى دعوته ، لأن الله يعلم أنهم لا يؤمنون ،

(١) صور من حياة الرسول . ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ . مع تصرف وتصويب .

(٢) الآية ٥٩ من سورة " الأسراء " .

أما ما يخرج عن نطاق اصطلاح معجزة التحدى، فإنه لا يصح أن يكون  
ثمة أى رب فى وقوع تأييدات ربانية للنبي يصح أن تسمى معجزات ، ولو  
لم تكن من معجزات التحدى ، ومنها ما أخبر به القرآن ، كما فى سورة  
الأنفال . الآية : ٩ - ١٢ ، والأحزاب . الآية : ٩ . ٠٠٠ هذا الى  
أن المعجزة الربانية على أيدى أنبياء الله مما أخبر بوقوعه القرآن بنصوص  
صريحة ، والايان بها جزء لا ينفصل عن الايمان بالقرآن ورسالة النبي  
صلى الله عليه وسلم مع اليقين بقدرة الله تعالى عليها .

#### ٤ - مناقشة هيكل فى تحطيمه الخاطي، لعمى الأحداث والوقائع :

أ - من الخطأ الفادح والجهل البين، أن يحاول الناس الحكم  
على الأنبياء والرسل كما يحكمون على عامة البشر : عظيمهم وخاطمهم ،  
أو أن يحاولوا تصوير حياتهم، على نهج ما ألفوا فى تصوير حياة أولئك  
البشر ، ذلك لأن الأنبياء والرسل يسرون فى حياتهم وفق منهج الهى  
مرسوم، واعداد ربانى خاص، قدر أزلا ، منهج واعداد يؤهلانهم لأداء الأمانة  
وحمل الرسالة ، ومن هنا كانت الصفات التى فطروا عليها ، والملكات  
التي جُبلوا عليها، والسجايا التى اتصفوا بها - والتالى كان سلوكهم  
وكانت تصرفاتهم وأفعالهم وأقوالهم - تسير وفق هذا المنهج الإلهى  
المرسوم وذاك الاعداد المقدر أزلا . ومن هنا لا يمكن أن يتصور انسان  
أن يأتى نبى أو رسول من الأفعال أو الأقوال أو التصرفات، ما يخالف  
مبدأ من المبادئ التى جاءت بها شريعته، أو يناقض هدفا من أهدافها،  
سواء فى ذلك ما قبل الرسالة أو النبوة أو ما بعدها .

والذى دعانا الى سوق هذه المقدمة، ما وقع فيه هكل من خطا  
حين اعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد شارك زوجته خديجة  
- موافقة ورضا - فى تقديم القرابين والنحور ، تقربا الى أصنام الكعبة

رجاء الأبقاء على أولادها، الذين تساقطوا الواحد تلو الآخر .

يقول هيكل : " تعاقبت السنون ومحمد يشارك أهل مكة فى حياتها العامة ، ويجد فى خديجة خير النساء حقا : الودود الولود التى وهبت كل نفسها له ، والتى أنجبت له من الأبناء : القاسم والطاهر والطيب ، ومن البنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . أما القاسم والطاهر والطيب فلم يعرف عنهم الا أنهم ماتوا أطفالا فى الجاهلية ، لم يتركوا على الحياة أثرا يبقى أو يذكر . لكنهم من - غير شك - قد ترك موتهم فى نفس أبيهم ما يتركه موت الابن من أثر عميق ، وترك موتهم - من غير شك - فى نفس خديجة ما جرح أمومتها ثلاث جراحات دامية ، وهى - لا ريب - قد اتجهت عند موت كل واحد منهم فى الجاهلية إلى آلهتها الأصنام تسألها : ما بالها لم تشملها برحمتها وبرها ، وما بالها لم ترحم قلبها من أن يهوى به الشكل ليتحطم على قرارة الحزن ، مرة فمرة . وقد شمر زوجها - لا ريب - معها بالألم لفواة بنيه ، كما حز فى قلبه هذا الألم الحى مثلثة صورته فى زوجه . . . يراه كلما عاد إلى بيته وجلس إليها . . . ولا ريب فى أنه استوقف تفكيره ولفت نظره فى كل واحدة من هذه الفواجع ما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة ، وما كانت تحرر لهيل واللات والعزى ولمناة الثالثة الأخرى ، تريد أن تفتدى ما ألم بها من ألم الشكلى ، فلا يفيد القرآن ولا تجدى النحور " (١)

ولا شك أن هيكل قد انزلق فيها لا يمكن أن ينزلق فيه مستشرق عالم ، فأما وقد سمح لنفسه أن يتخيل كيف تصرفت خديجة وكيف تصرف

---

(١) حياة محمد ص : ٩٠ ، ٩١ .

الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاة أولادهما ، فلا أقل من أن يسوق كلامه على سبيل الاحتمال ، بدلا من أن يسوق عباراته : " وليس من شك " و " لا ريب " الدالة - على سبيل القطع واليقين - على أن السيدة خديجة كانت تتحرر للأصنام تحت سمع الرسول وصبره ، دون أن يمنع ذلك أو يعترض عليه . .

ولكان على هيكل - قبل أن يتزلق فيها انزلق فيه - أن يرجع الى تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن ينظر في صفحات ذلك التاريخ ليرى كيف أن هذه الصفحات لم تسجل - قبل بعثته - هنة عليه أو زلة ترميه بها ، فضلا عن أن تكون هذه الهنة أو الزلة دينية في صميم العقيدة . وفي الوقت الذي لم تسجل عليه صفحات تاريخه صلى الله عليه وسلم ذلك ، سجلت تلك الصفحات - بكل فخر واعتزاز - موقفه من كل قبيح مزر من الأفعال والأقوال ، خاصة موقفه من الأصنام التي ما يفسف في حياته شيئا مثما بفضها . .

كان على هيكل أن ينظر في ذلك التاريخ الناصح المشرق النظيف من كل دنس وقبيح ، وينظر كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض في سبيل صفة رابحة للسيدة خديجة - وهو بالشام في تجارة لها - قبل أن يتزوجها - رفض أن يقسم باللات والعزى ، وقال انه لم يقسم بهما قط . اذن فهل يعقل أن الرجل الذي يرفض مجرّد التأكيد لمشتريه فيقسم بهما - بالكلمات - هو الذي يشارك بعمد ذلك في تقديم الذبائح لللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ . حتى ولو كانت هذه المشاركة . . رضا وموافقة فقط كما (١) .

ولو فرضنا - جدلا - أن ذلك الذي ذكره هيكل قد حدث ، فكيف يمكن للرسول صلى الله عليه وسلم أن يقابل قومه بوجهه ، وهو يدعوهم

(١) راجع : فقال الاستاذ : أحمد حسين بمجلة " رابطة العالم الاسلامي " السنة : الثالثة عشرة الممد الثامن . صفحة ٤٤ - ٤٦ .

الى ترك الأوثان والأصنام ، وهو بالأمس كان يقدم لها القرابين ويتوسل اليها بالنحور ؟! ان لو حدث ذلك لوجد المشركون طريقا واسمة ينالون فيها من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسبيلا للسخرية منه ومن دعوتهم ، ان كيف ينهاتهم عن عبادة الأصنام التى كان يتقرب اليها بالأمس ؟! وكيف يدعوهم الى التوحيد ، وقد كان قبل رسالته ضد هذا التوحيد .!

والتاريخ لم يسجل أن المشركين قد طعنوا الرسول من ناحية كهذه ، ما كان لهم أن يتركوها له ، لو أحسوا بشئ من ذلك منه ، ولوجدوا فى ذلك أكبر طمعة توجه الى الرسول والى دعوته .



ب - وكما أن من الخطأ الاعتقاد بأن حياة الرسل والأنبياء كحياة البشر العاديين ، يقاس وينطبق عليهم ما يقاس وينطبق على أولئك البشر - يكون من الخطأ أيضا الاعتقاد أو التصور بأن حياة الرسل أو الأنبياء تخضع فى تفسيرها وتحليلها لنظريات علم النفس الحديث التى ترجح الكثير من تصرفات الشخص وسلوكه الى عوامل عدة : قد تكون وراثية ، أو بيئية : زمانية أو مكانية ، وقد تكون راجعة الى تكوينه الجسمى وصفاته الخلقية ... وقد تكون راجعة الى نواح ثقافية ، أو فكرية ، أو مذهبية أو اجتماعية ، أو سياسية ، أو الى ذلك من العوامل والأسباب ..

نقول: ان حياة الرسل والأنبياء لا تخضع فى تفسيرها وتحليلها لتلك المقاييس ولا الى هذه المفاهيم ، فاذا ما حاول شخص أن يتناول حياة رسول أو نبي ، فيجب أن يفسر ويحل ويفلس هذه الحياة على ضوء مقاييس أخرى - غير تلك المقاييس - هى مقاييس النبوة أو الرسالة فقط .

نقول هذا الكلام، لما رأيناه من أثر نظرية حديثة، حينما حاول  
هيكل تصوير جانب من جوانب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أمّا  
النظرية الحديثة ، فهي نظرية " الرجل الطبيعى " <sup>(١)</sup> أما الجانب الذى  
حاول هيكل تصويره من خلال هذه النظرية وعلى ضوءها ، فهو تلك  
المدة التى كان الرسول يعيشها فى غار حراء قبل مهجته يلتبس الحق  
وينشد الطريق الموصلة الى خالق هذا الوجود ، عن طريق النظر فى  
الكون والتفكر فى الأرض والسماء وما فيها .

وتتلخص هذه النظرية في: أن الانسان بطبيعته خيرٌ ، وهو يقترب من فطرته الخيرة كلما اقترب من الطبيعة ، وأن المجتمع بفوارقه الطبيعية واستبداده الحكومي، وتقاليد الجامة ، هو الذي يفسد الانسان، وأن العقل قادر على اكتشاف الحقيقة وحده، دون وساطة من أحد أو لجوء إلى نص، فالحقيقة هي ثمرة المواجهة بين الانسان والطبيعة .

وَتَأَثَّرَ هَيْكَلُ بِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، يَفْسِرُهُ لَنَا اِهْتِمَامُهُ بِتَصْوِيرِ مَا تَلْقَاهُ النَّسَبِيُّ  
— صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — عَنِ الصَّحْرَاءِ وَالطَّيِّمَةِ ، لَيْسَ فَقَطْ زَمَنُ تَحْنُثِهِ  
وَتَعْمُدِهِ فِي غَارِ حِرَاءٍ قَبْلَ مَبْعَثِهِ ، بَلْ قَبْلَ ذَلِكَ أَيْضًا ، حِينَ كَانُ  
طِفْلًا فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدِ، الَّتِي لَا يَعْرِفُ جَوْهَا الصَّحْرَا قِيدًا مِنْ قِيَمُودِ  
الرُّوحِ أَوْ الْمَادَةِ . . . وَحِينَ كَانَ صَبِيًّا يَذْهَبُ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فِي رَحْلَتِهِ  
إِلَى الشَّامِ . . . وَحِينَ كَانَ يَرْعَى الْغَنَمَ فِي صَبَاحٍ . . . وَحِينَ كَانَ شَابًّا يَتَاجَرُ لِخَدِيدِجَةَ  
فِي مَالِهَا .

يقول هيكل - مُصَوِّراً ما تلقاه الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
عن الصحراء والطبيعة في طفولته في بني سعد - : " وأقام محمد نسي

(١) كذا فعل المترجمون ، وهو خطأ ، والصواب : الطبيعي .



الصحراء سنتين ترضعه حليمة، وتحضنه ابنتها الشيماء، ويجد هو في هوا الصحراء، وخشونة عيش البادية، ما يسرع به الى النمو، ويزيد في وسامة خلقه وحسن تكوينه. فلما أتم سنتيه وآن فصاله، ذهبت به حليمة الى أمه، ثم طدت به الى البادية. وأقام الطفل بالصحراء سنتين آخرين بمن في جو باديتها الصحرا الطليق، لا يحرف قيداً من قيود الروح ولا من قيود المادة (١).

ويقول هيكل : " وأقام محمد في بني سعد الى الخامسة من عمره، ينهل من جو الصحراء الطليق روح الحرية والاستقلال النفسى، ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصلاة أحسن التصفية، حتى لقد كان يقول من بعد لأصحابه : " أنا أعربكم، أنا قرشى، واسترضعت في بني سعد بن بكر، وتركت هذه السنوات الخمس في نفسه أجمل الأثر وأبقى " (٢).

ثم يقول هيكل - مصورا ما تلقاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الصحراء والطبيعة في صباه في رحلته الى الشام مع عمه أبي طالب : " ... في هذه الرحلة وقعت عينا محمد الجليلتان على فسحة الصحراء وتملقت بالنجوم الالامعة في سائتها الصافية البديعة، وجعل يمر بمدى وادى القرى وديار ثمود، وتستمع أذناه المُرَهَفَتَانِ الى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضى نهشها، وفي هذه الرحلة وقف من بلاد الشام عند الحدائق الفناء (٣) الياض التي أنستهم حدائق الطائف وما يروى عنها، والتي تعتبر (٤) جنات الى جانب جندب

(١) حياة محمد ص ٧١ و ٧٢.

(٢) حياة محمد ص ٧٣ و ٧٤.

(٣) خطأ شاع بين كتاب المصر حتى كبارهم، والصواب : " الفن ".

(٤) الصواب : تعدد. لأن الاعتبار هو الاتماظ.

الصحراء المقفرة والجبال الجرداء<sup>(١)</sup> فيها حول مكة . وفي الشام كذلك رأى محمد أحجار الروم ونصرانياتهم، وسمع عن كتابهم وعن مناواة الفرس من عباد النار لهم، وانتظارهم الواقعة بهم . ولئن كان بعد في الثانية عشرة من سنة<sup>(٢)</sup> فقد كان له من عظمة الروح، وذكا القلب، ورجحان العقل وده الملاحظة، وقوة الذاكرة، وما الى ذلك من صفات جاء القدر بهما تمهيدا للرسالة العظيمة التي أعده لهما - كان له من ذلك كله ما جعله ينظر الى ما حوله ومن حوله نظرة الفاحص المحقق ، فلا يستريح الى كل ما يسمع ويرى ، ويرجع الى نفسه يسألها : أين الحق من ذلك كله ؟<sup>(٣)</sup>

ثم يقول هيكल - مصورا ما تلقاه الرسول عن الطبيعة وهو صبي يرى الفهم - : " . . . وما زاده انصراط الى التفكير والتأمل اشتغاله برعى الفهم سنى صباه تلك . . . وراعى الفهم الذكى القلب والنقاد يجرد فى فسحة الجو الطليق أثناء النهار وفى تلاكؤ النجوم اذا جن الليل موضعا لتفكيره وتأمله ، يسبح منه فى هذه العوالم، حتى يرى فيها وراءها ويلتمس فى مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه ، وهو يرى نفسه ، مادام ذكى النقاد عليم القلب ، بعض هذا الكون غير منفصل عنه . أليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قس ؟ أليست تحييه أشعة الشمس ويغمره ضياء القمر ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعا ؟ هذه الأفلاك والعوالم التى يرى فى فسحة الكون أمامه متصلا بعضها ببعض ، فى نظام محكم " لَا الشَّمْسُ يَنْفَى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ<sup>(٤)</sup> " وإذا كان نظام هذا

(١) الصواب : الجُرد ، والجرداء : خطأ .

(٢) الصواب : لقد كانت . . . لأن الجواب هنا للقسم . . لا للشرط .

وجواب الشرط محذوف وجها هنا ، فلا محل للفاء .

(٣) حياة محمد ص ٧٦ و ٧٧ (٤) الآية ٤٠ من سورة " يس " .

القطيع من النعم أمام محمد يقتضى انتباهه ويقظته، حتى لا يعمدو الذئب على شاة منها، وحتى لا تغفل أحداها في مهطمة الهادييسنة، فأى انتباه وأية قوة تحفظ على نظام العالم كل أحكامه؟ وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير في شهوات الانسان الدنيا والسمو به عنها، اذا تهدى له كاذب زخرفها، لذلك ارتفع محمد ففى أعماله وتصرفاته عن كل ما يفسد هذا الاسم الذى أطلق عليه بمكة وفقى له "الأمين" (١)

ثم يقول — مصورا اتصال الرسول بالطبيعة والكون وهو شهاب حين كان فى تجارة لخديجة فى طريقه الى الشام —: "خرج محمد مع "ميسرة" غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به، وانطلقت القافلة فى طريق الصحراء الى الشام مارة بواى القرى ومدين وديار شرد، وتلك البقاع التى مر بها محمد مع عمه ابنى طالب وهو فى الثانية عشرة من عمره، وأحيث هذه الرحلة فى نفسه ذكريات الرحلة الأولى، كما زادت تأملا وتفكيرا فى كل ما رأى وسمع من قبل سفره بالشام أو بالأسواق المحيطة بمكة" (٢)

ثم يقول — مصورا اتصال الرسول بالكون والطبيعة — وهو رجسـل قد قلب الأرمين، حين كان يتحنث فى غار حراء —: "وقد وجد محمد فيه — أى: الانقطاع والتحنث — خير ما يمكنه من الامعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشقاء شغفه بالوحدة، يلتصق أثناءها الوسيلة الى ما بين شوقه يشتد اليه من نشدان المعركة واستلهاهم ما فى الكون من أسبابها، وكان

(١) حياة محمد ص ٨٠ و ٨١.

(٢) المرجع السابق ص ٨٣.

بأعلى جبل حراء - على فرسخين من شمال مكة - غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب اليه طَوَّال شهر رمضان من كل سنة ، يقيم به مكثيا بالقليل من الزاد يُحَلُّ اليه ، معينا في التأمُّل والعبادة ، بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتصبا بالحق والحق وحده . . . . وهو لم يكن يطمح في أن يجد في قصص الأحرار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد ، بل في هذا الكون المحيط به : في السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفي الصحراء ساعات ليهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللآلئ . . . في هذا الكون كان يلتصق الحقيقة العليا ، وابتغاء ادراكها ، كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ، ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب الى مكون سره . . . . وإذا استدار العام وجاء شهر رمضان كره أخرى ، ذهب الى حراء وطاد السى تفكيره ، ينضجه شيئا فشيئا وترداد به نفسه امتلاء . . . . بعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه ، صار يرى في نومه الرؤيا الصادقة تهلج أثناءها أمام باصره أنوار الحقيقة التي ينشد ، ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها . . . . إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى ، وأن حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما اليها ، من عقائد متصلة بها ليست دونها ضلالا . . . . وشارف محمد الأرمين ، وذهب الى حراء يتحنث وقد امتلأت نفسه ايمانا بما رأى في رؤاه الصادقة ، وقد خلصت نفسه من الهادِل كلّه ، وقد أدبته به فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه الى الصراط المستقيم وإلى الحقيقة الخالدة . . . . وفيما هو نائم بالغار يوما جاءه ملك وفي يده صحيفة فقال له اقرأ . . الخ . (١) .

هذه نصوص ستة، صور فيها هيكل اتصال الرسول بالكـون والطبيعة على اختلاف مراحل حياته : طفلا ، فصبيا ، فشابا ، فرجلا ، حتى قارب الأربعين وجاءه الوحي . . وفى كل مرحلة من هذه المراحل كان تأمله يزداد وتفكره يشتد ، واتصاله بالكون والطبيعة يقوى ، وكان يريد أن يصل الى الحق الذى ينشد ، والحقيقة التى يريد عن طريق النظر والتفكر فى صفات هذا الكون الملىء بالعجائب والأسرار ، بل ان نظره وتفكره كانا يمتدان الى ما وراء هذا الكون ، عظم يهتدى الى ما يريد أن يهتدى اليه . . . صور هيكل أن محمدا ظل على اتصاله بالطبيعة حتى اهتدى الى هذا الحق ، وإلى تلك الحقيقة ، فجاءه الوحي وهو بالفار — فى حلة اتصال — معلنا إياه أن الله قد اختاره نبيا ورسولا ليلخ الناس رسالة به الحق ، ويدعوهم الى عبادته وحده ، لا شريك له . . .

والمثال فى المعانى التى احتوتها تلك النصوص يجدها المعانى نفسها التى اشتملت عليها نظرية " الرجل الطبيعي " .

ولأن هيكلأ أراد أن يخلص من هذا كله الى القول — وأن لم يكن صراحة — أن الرسول محمدا — باعصاله المباشر بينه وبين الطبيعة والكون — كان يسير على طريق الوصول الى الحق ، حتى تهيأت نفسه واستعدت لاستقباله ، فكان الحق ، وكانت الحقيقة التى ظل محمد ينشدها . . . فكان الوحي وكانت النبوة ، وكان هيكلأ يريد أن يقول أيضا — وأن كان ضمنا — : ان اهتداء محمد الى هذا الحق ، كان ثمرة طبيعية لتسلك المواجهة المباشرة بينه وبين الطبيعة .

ومن هنا نرى أثر هذه النظرية واضحا فى فكر هيكل ، وانعكاس هذا الأثر فى تفسيره لمعنى النبوة وتبهيؤ محمد لحمل الرسالة التى اختاره الله لها .

ونحن نقول : ان اختلا الانسان بالطبيعة يجعل نفسه أقرب الى الصفاء وأدنى الى الشفافية ، وان ادامة النظر فيها واطالة التفكير فيمن فيها وفيما فيها ، يجعل النفس أقرب الى التماس الحق ، وأدنى الى وضوح الرؤية الحق ، ولعل ذلك راجع الى النظر والتفكير الهادئين اللذين يعيشهما الانسان في حلة اختلاهما وحده مع الطبيعة ، حيث لا ضوضاء ولا شواغل ولا مؤثرات جانبية تعثر قطما في التفكير ، وتجمل الرؤية الحق لما يفكر فيه الانسان غير واضحة ..

ومن هنا كان الانسان الذي يعيش في مجتمع غارق في نظم البالية وتقاليد الفاسدة وعاداته القبيحة متأثرا بهذا كله ، غير قادر على الرؤية الحق حين يفكر ، وعلى التماس الحق حين ينشد ، لأن صفاء النفس لم يتح له ، وشفافية الروح لم تتم بها نفسه ، لوجود المؤثرات التي تحول بينها وبين ذلك ..

وهذا هو تفسيرى لما جاء في نظرية " الرجل الطبيعي " ونحن الى هذا القدر نتفق مع هذه النظرية ، وإلى هذا القدر - أيضا - نتفق مع هيكل .. أما القدر الذى لا نتفق فيه مع هذه النظرية ومع هيكله ، فهو أن الحقيقة هي ثمة المواجهة المباشرة بين الانسان والطبيعة ، فالحق الذى اهتدى اليه محمد ، وهو النبوة والرسالة - لم يكن نتيجة اتصال بينه وبين الطبيعة ، وانما كان نتيجة ارادة الهية أزلية اختار محمد ليكون نبيا رسولا ، يبلغ الناس رسالة ربه ويدعوهم الى توحيده ، ومن هنا أعدته هذه الارادة وهباته لاستقبال هذه الرسالة وتحمل هذه التهمة ، فدلت على الطريق الحق ، ويسرت له سهل الوصول اليه ، وجعلته بعيدا عما يعيش فيه قومه من عبادات فاسدة ، وتقاليد جائسة مستهدة .. فجهت اليه الخلوة ، واشتد شوقه الى التماس الحق ، وظنوه

الى معرفة خالق هذا الوجود، عن طريق النظر فى هذه المخلوقات المحيطة : فى الأرض وفى السماء، معينا النظر فيها ، بعيدا باختلافه وتأمله وتفكره عما يضطرب فيه قومه من مفاسد ومظالم وجمود وسلاسة . وظل على حاله تلك الى أن جاء الوقت المحدد الذى اختاره الله ألا ليكون محمد نبيه ورسوله يبلغ وحيه ورسالته .

ح - من الأخطاء التى وقع فيها هيكل أثناء تطيله لبعض أحداث السيرة النبوية " عهد الحديدية " وهو يتحدث عن دعوة الرسول الناس الى الخروج معه الى مكة، بقصد الحج والعمرة عام الحديدية، - ما رآه هيكل من أن الرسول وجه دعوته هذه الى المسلمين ، وإلى القبائل الأخرى من غير المسلمين ، وحكمته فى ذلك أنه يريد أن تعلم العرب كلها أنه ما خرج الا بقصد الزيارة ولم يخرج غازيا . . . . وأن بعض هذه القبائل غير المسلمة " الأعراب " قد تخلفوا عن دعوته ، خوفا من أن ينشب القتال بين محمد وقريش وتكون الدائرة فيه على محمد وأصحابه

يقول هيكل : " . . . كلا . لا قتل ولا حرب ، بل أذن محمد فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة الحرام ، وأوفد رسله الى القبائل من غير المسلمين يدعوهم الى الاشتراك وإياه فى الخروج الى بيت الله آمنين غير مقاتلين . وحرص محمد فى نفس<sup>(١)</sup> الوقت على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع . وحكمته فى ذلك أن تعلم العرب كلها أنه خرج فى الشهر الحرام ولم يخرج غازيا ، وأنه أراد أدبه فريضة فرضها الاسلام ، كما فرضتها أديان العرب من قبل ، وأنه أشرك العرب

---

(١) تعبير خطأ يقع فيه الناس كثيرا ، والصواب : فى الوقت نفسه .

معه من ليسوا على دينه في أداء هذه الفريضة .. (١) ثم يقول :  
 " ... أذن محمد في الناس بالحج ، وطلب الى القبائل من غير  
 المسلمين الخروج معه ، فأبطل عليه كثير من الأعراب " (٢) .

والخطأ الذي وقع فيه هيكلي يمكن في أنه جعل الأعراب المتخلفين  
 عن دعوة الرسول الى الحج من القبائل غير المسلمة .. مع أن الثابت  
 من نصوص القرآن أن هؤلاء المتخلفين كانوا من المسلمين ، لما في هذه  
 النصوص من دلالات قوية تؤكد أنهم من المسلمين .. ولو رجع هيكل  
 الى نصوص القرآن الكريم ، التي نزلت في شأن هؤلاء المتخلفين ، واسلمهم  
 ما فيها من محام ، لرأى ما يؤكد أنهم من المسلمين ، ولنعد الى هذه  
 النصوص لنقف على ما فيها من دلالات قوية ، تؤكد ذلك الذي نقول :

١ - يقول الله تعالى : " سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَفَلْتَنَا  
 أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " (٣) .

٢ - يقول الله تعالى : " قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَيَّ  
 قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتُلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَلَنْ تَطْعَمُوا بِمِثْرَتِهِمْ  
 اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا  
 أَلِيمًا " (٤) .

والآية الأولى تتضمن دلالة نستشف منها أن هؤلاء الأعراب  
 المتخلفين كانوا من المسلمين - وهي أن هؤلاء الأعراب طلبوا استغفار  
 النبي لهم " فَاسْتَغْفِرْ لَنَا " وهذا لا يمكن أن يكون إلا من مسلمين .

(١) حياة محمد ص ٣٣٥ (٢) المصدر السابق ص ٣٣٥ .

(٣) الآية : ١١ من سورة " الفتح " .

(٤) الآية : ١٦ من سورة " الفتح " .



وأما الآية الثانية فتتضمن داليتين على أن هؤلاء الأعـراب المتخلفين كانوا من المسلمين . .

الدلالة الأولى : أن الله يريد أن يختبرهم في موقف آخر كما يتلون فيسه أعداء أقوياء حتى يدينوا بالاسلام ، ولا يمكن أن يدعى الى مثل ذلك الموقف الا مسلمون .

الدلالة الثانية : أن الله وعدهم الأجر الحسن ، وإن هم أطاعوا ولبوا دعوة النبي وخرجوا لملاكة أولئك القوم الأشداء ، ولا يوعدهم بالأجر الحسن على الطاعة والاجابة الا مسلمون .

## ٖٖ الباب الثاني ٖٖ

### " السيرة والأسلوب القصصى "

من خلال

كتاب " على هامش السيرة " لطفه حسين

- الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند طه حسين .
- الفصل الثانى : الموضوع والفكرة فى " على هامش السيرة " .
- الفصل الثالث : أسلوب كتاب " على هامش السيرة " .
- الفصل الرابع : الألوان القصصية فى " على هامش السيرة " .
- الفصل الخامس : طريقة طه حسين أو مذهبه الفنى .
- الفصل السادس : " على هامش السيرة " فى ميزان النقد .

## ❖ الفصل الأول ❖

---

❖ بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند طه حسين ❖

- ١ - الباعث الأدبي
- ٢ - الباعث التعليمي التوجيهي
- ٣ - الباعث الاجتماعي

يعد كتاب " على هامش السيرة " حلقة في سلسلة الدراسات  
الاسلامية التي قدمها طه حسين ، والتي زخرت بها المكتبة العربية ،  
ما يجعلنا نستطيع أن نطلق عليها " اسلاميات طه حسين " وهى :  
مرآة الاسلام ، والوعد الحق ، والشيخان ، وثمان ، وعلسى  
ونوة ، بالإضافة الى كتاب " على هامش السيرة " بأجزائه الثلاثة .

وقد ظهر " على هامش السيرة " أول ما ظهر على شكل فصول<sup>(١)</sup>  
وظهر أول فصل منه فى مجلة الرسالة الأسبوعية خلال يناير سنة ١٩٢٣ وما  
لبثت هذه الفصول أن تحولت الى هذا الكتاب المعروف .

ويعد هذا الكتاب تحولا كبيرا فى كتابات طه حسين الاسلامية ،  
وذلك اذا وازنا هذا الكتاب بكتابه " فى الشعر الجاهلى " الذى  
ظهر قبل فصول كتاب " على هامش السيرة " بسبع سنوات .

ومن أجل ذلك كان من حق البحث علينا أن ننتهج البواعث والدوافع  
التي كانت وراء هذا الكتاب .

ونستطيع أن نقرر بادئ ذى بدء أنها ليست واحدة من البواعث  
والدوافع التي أسلفنا الكلام عنها عند كلامنا عن كتاب " حياة محمد "  
لهيكل : تلك البواعث والدوافع التي ترجع فى مجموعها الى حركتى الاستشراق  
والتهشير ، كما ترجع الى الخوف من الالحاد والشيوعية ، واللياذ منهم  
بالعقيدة الاسلامية - نقول : لم يكن واحد من تلك البواعث والدوافع  
وراء كتاب " على هامش السيرة " لأن طه حسين لم يكن يقصد بكتابه  
هذا أن يكون جبهة مضادة فى وجه الهجمة الضارية من قبل المستشرقين

---

(١) أضواء على الأدب العربى المعاصر ص ١٠٦ .

والمبشرين والملحدين، التي اجتاحت العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه  
ولقد أخطأ من قال: ان " على هامش السيرة " قد جاء نتيجة اهتمام  
بالكتابة الاسلامية بسبب تلك المهجمة الضارية التي استهدف بها الاسلام  
من كل من حركتي الاستشراق والتشهير .<sup>(١)</sup>

واذا لم يكن واحد من هذه البواعث أو تلك الدوافع وراء " على  
هامش السيرة " فماذا يمكن أن تكون تلك البواعث والدوافع ؟

يستطيع القارئ بيسير من التأمل أن يكشف عن هذه البواعث  
وتلك الدوافع ، بل يستطيع أن يرجعها الى أنواع ثلاثة : أدبي ، وتعليمي ،  
 واجتماعي .

#### ١ - الباعث الأدبي :

لم يكن طه حسين حين كتب " على هامش السيرة " يقصد أن يقدم  
كتاباً في السيرة ، أو في التاريخ الاسلامي ، ولم يكن يقصد أن يقدم  
للحلما والباحثين-الذين تميزهم الحقائق العلمية - حقائق السيرة محققة  
ومحصنة . . لم يكن طه حسين يقصد شيئاً من ذلك . بل كان يقصد أن يقدم  
كتاباً في الأدب ، اتخذ مادته من التاريخ القديم ، وأدار فصوله حول بعض  
حوادثه ووقائعهم وحول بعض شخصياتهم ، وهي حوادث ووقائع وشخصيات  
وقف أمامها وتأثر بها ، لأنها هزت مشاعره وحركت وجدانه ، ولذا له أن يصور  
تلك الأحداث وهاتيك الوقائع ، كما لـد له أن يصور تلك الشخصيات وأن يرسم  
انفعالاتها وعواطفها . . فراح يتناولها تناولاً جديداً ، هو تناول الأديب  
الفنان ، ويستعيد صورتها في الأذهان بشكل جديد ، هو الشكل القصصي ،

---

(١) طه حسين في معاركه الأدبية ص ١٤٧ .

وذلك بما أضافه على أحداث السيرة وشخصياتها التي اختارها من بيان ساحر وخيال مبدع ، وما أتيح له من قدرة على التفتين في عرضها ، وطاقته على بعثها حية في النفوس ، واستطاعته لتلوينها تلوينا يسحر النفوس ويأخذ بمجامع القلوب .

ويهدف طه حسين من وراء عرض بعض حوادث السيرة ووقائعها وشخصياتها - ذلك العرض الأدبي في ذلك الشكل القصصي ، بما صور من شخصيات ، واستعرض من أحداث ، وأدار من حوار - يهدف طه حسين من وراء هذا كله أن يخرج بحقيقة هامة ، هي : أن الأدب العربي القديم والتاريخ الاسلامي القديم يحفلان بالصفحات الظلدة والأحداث الملهمة الموحية ، والشخصيات الباززة ، والوقائع الخطيرة ، ويمثلان بما هو كليل أن يهدي قارئه من اللذة والامتع ومن الخصب والقوة ، مما تجرى به أقدارهم من جديد ، يصورونه بما " يلائم حياتهم التي يحيونها وعواطفهم التي تتورق في قلوبهم ، وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم " (١)

وهذا يعني أن الأدب العربي القديم عامة - والسيرة خاصة - مع ما فيه من لذة وامتع وصفحات مشرقة مضيئة - قادر على الانسواء والاعطاء .. قادر على الوحي والالهام ، والتألي هو أدب حي خالد " وفي أدبنا العربي على قوته الخاصة ، وما يكفل للناس من لذة ومتاع : قدرة على الوحي وقدرة على الالهام ، فأطدبث العرب الجاهليون وأخهارهم لم تكتب مرة واحدة ، ولم تحفظ في صورة بعينها ، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص ، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف ، وقل مثل ذلك في السيرة نفسها ، فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الاسلامية ، وفي أكثر البلاد الاسلامية أيضا ، فصوروها صورا مختلفة

---

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ١٠

تفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفنى " (١).

وهذا يعنى أن السيرة فيها من الفن والأدب والخيال ما يشرى من جوانب الأدب والفن والخيال .. وفيها من العلم والتاريخ ما يشرى من جانبى العلم والتاريخ .. وهذا مرجعه الى أن السيرة — من الأدب الحى الملىء بالأحداث البارزة والنماذج البشرية الباقية التى تملأ الأبصار والبصائر على مر العصور والأزمان .. " ولا خير فى حياة القدماء اذا لم تلهم المحدثين ، ولم توج اليهم رائح البيان شمساً ونشراً ، وليس القدماء خالدين حقاً اذا لم يكن التماسهم الا عند أنفسهم ، ولا تعرف أنباؤهم الا فيما تركوا من الدواوين والأشعار ، انما يحيا القدماء حقاً ويخلدون اذا امتألت بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال مهبا يعمد بها الزمن ، وكانوا حديثاً للناس اذا لقي بعضهم بعضاً ، وكثروا يستمره — الكتب والشعراء لآحياء ما يمالجون من ألوان الشعر وفنون الكلام " (٢)

وفى اتخاذ الأدب العربى القديم عامة والسيرة خاصة مادة يعرضها الشعراء والكتاب بصور جديدة مختلفة ، وفى أنماط متباينة بأسلوب رشيق جميل ، وخيال رائع مبدع ، تقرؤها الأجيال الجديدة ، وتناشئة اليوم ، بالإضافة الى ما فى ذلك من اثره للأدب الحديث ، واكتار من روافده ، وتدليل على ثراء أدبنا القديم وغناه ، وعلى قدرته على الوحى والالهام ...

... أقول : فى اتخاذ الأدب القديم والسيرة بنوع خاص مادة تعرض بألوان جديدة يقبل عليها الناشئة برغبة وشوق شديدين — تيسير

(١) على هامش السيرة ح ١ ص : ح

(٢) المصدر السابق ح ١ ص : ح

لهم سبل قراءة الأدب العربي القديم عامة والسيرة خاصة بعدما أفلتت منهم وامتنعت عليهم ، حيث يجدون عسرا في قراءته وفهمه وتذوقه فيمسا حوى من أسانيد مطولة ، وأخبار يلتوى بها الاستطراد ، تجور بها لفتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والتذوق الهين .

## ٢ - الباعث التعليمي التوجيهي :

ان اتخذ طه حسين من السيرة مادة لكتابه وموضوع لفصله ، والتغاته الى تلك المدة من تاريخ البشر ، ليصور أحداثها وما ينتبها آنذاك من صراعات وما يحترها من قلق ، وما كان يترقه المالم فيها من بزوغ فجر جديد ينير له معالم الطريق ، ويرسم ما في تلك الحقبة من نماذج بشرية وما يعتل في نفوس أهلها من خير وشر وما يسودور في أفكارهم من آراء ومعتقدات وتقاليد ..

... ان اتخذ طه حسين من السيرة مادة وموضوع وراءه أهداف تعليمية توجيهية تربوية - بالاضافة الى أهدافها الفنية الأدبية الواضحة التي أشرنا اليها آنفا - أمر له أهمية بالغة .

ومن هذه الأهداف التعليمية أن طه حسين - بمعرضه الشائق للسيرة على هذا النحو من التصوير الواضح الجميل ، والأسلوب الرائع المبين ، والخيال المبدع الجديد ... - يريد أن يوجب الى الشباب قراءة السيرة خاصة والأدب القديم عامة ، وأن يلتسوا فيها اللذة والمتاع ، كما يلتسبون فيها التجارب الناضجة والنصائح الراشدة ، والعظات البليغة بما حوى من صفات مشرقة هادية ، ونماذج بطولية رائعة ، وأحداث خطيرة فذة ... " ... فاذا استطاع هذا الكتاب أن يوجب الى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب العربي القديم عامة ، والتعاس المتاع الفني



فى صفها الخصبة ، فأنا سعيد حق ، موفق حق لأحب الأشياء السى ،  
وأثرها عندى " (١) .

ومن هذه الأهداف: أن طه حسين يريد أن يوجه نظر الناشئة  
من الأدباء والكتاب الى تاريخهم القديم ، والى ما فيه من صفحات موحية  
ملهمة ، يقصد أن يدفعهم الى استغلال هذه الصفحات الموحية عن الحياة  
العربية الأولى ، بل والحياة العربية الاسلامية العربية العريضة ، وأن  
يتخذوا منها موضوعات قيمة خصبة ، يثرى بها أدبهم الحديث ويحيوا تراثهم  
الاسلامى الخالد وحضارتهم العربية الأولى . . . " وإذا استطاع هذا  
الكتاب أن يدفع الشباب الى استغلال الحياة العربية الأولى واتخاذها  
موضوعا قيما خصبا ، لا للانتاج\* العلمى فى التاريخ والأدب الوصفى وحدهما ،  
بل كذلك للانتاج فى الأدب الانشائى الخالص ، فأنا سعيد موفق لبعض  
ما أريد " (٢)

ومنها أيضا أنه يريد بهذا الكتاب أن " يلقى فى نفوس الشباب  
حب الحياة العربية الأولى ويلفتهم الى أن فى سذاجتها وبسرها جمالا ،  
ليس أقل روعة ولا نفاذا الى القلوب من هذا الجمال الذى يجدونه  
فى الحياة الحديثة المعقدة " (٣)

ومنها أنه يريد أن " يلقى فى نفوس الشباب أن القديم لا ينهى  
أن يهجر لأنه قديم ، وأن الجديد لا ينهى أن يطلب لأنه جديد ،  
وانما يهجر القديم اذا برئ من النفع وخلا من الفائدة ، فان كان نافعا

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٥ .  
(٢) كلمة الانتاج : خطأ شائع بالمعنى المراد . والصحيح : النتاج .  
- بفتح النون أو كسرهما - ويقال : أنتجت الناقة : اذا قويت ولادتها .  
(٣) على هامش السيرة ج ١ ص ٥ . (٢) المصدر السابق ج ١ ص ٥ .

مفيدا فليس الناس أقل حاجة اليه منهم الى الجديد . (١)

### ٣ - الباعث الاجتماعي :

يضاف الى الباعثين السابقين - الأدبي والتعليمي - باعث آخره هو أن طه حسين بكتابه هذا أراد أن يصحح موقفه الشعبي الذي ساء بعد صدور كتابه " في الشعر الجاهلي " الذي أحدث فجوة عيقة وهوة واسعة بين طه حسين وبين مجتمعه الذي يعيش فيه بما حل هذا الكتاب من أفكار منكرة وآراء باطلة ، تتصل بالأدب الجاهلي عامة ونواح دينية خاصة ، كما أحدث ثورة عارمة على طه حسين من مختلف طوائف الأمة وأفرادها من سياسيين وشعبيين وطامة الشعب ..

أما على المستوى السياسي : فقد نوقش هذا الموضوع أكثر من مرة في مجلس النواب حينئذ ، وقدم أحد النواب اقتراحا : بمصادرة الكتاب وإحالة طه حسين الى النيابة والغاء وظيفته ، وكان ذلك سنة ١٩٢٦ غير أن اختلافا حدث بين السياسيين - آنذاك - وانتهى الأمر بمصادرة الكتاب وعدم مطاوعة صاحبه . ولكن هذا الموضوع أثير مرة ثانية على هذا المستوى <sup>القمي</sup> في سنة ١٩٣٢ وهجم على طه حسين هجوما انتهى به الى النقل من الجامعة الى وزارة المعارف ، ثم فصله بعد ذلك من الوزارة .

أما مثقوا الأمة : فقد هالهم ما تضمنه كتاب طه حسين من أفكار وآراء ، وراعهم ما ألقته بالدين من كذب وإفتراء ، فراحوا يشرعون أقلامهم للدفاع عن تراثنا الأدبي والاسلامي .

وقد اتخذ دفاعهم طريقين : طريق الكتب والمؤلفات التي صدرت في هذا الصدد لنقد الكتاب ونقده .. وطريق المقالات الصحفية الستى

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٥٠



بادانته ومحاكمته .. (١)

هذه الثورة العارمة من قبل الأمة على اختلاف طبقاتها ومستوياتها على ما كتبه طه حسين .. وما أدت اليه من أحداث فجوة عميقة، وهوة واسعة بين طه حسين وبين مجتمعه الذي يعيش فيه، وما استتبع ذلك من وجود أزمة ثقة فكرية بينه وبين هذا المجتمع ..

هذا كله كان باعثا لطله حسين على أن يتجه الى النواحي الاسلامية في كتاباته ، يتناولها بأسلوب مختلف وطريقة مغايرة لما كتب به " فى الشعر الجاهلى " لعله يرضى الشعب الغاضب ويهدئ الأمة الثائرة ، ومن هنا كانت مطولته التى حاولها فى هذا الصدد وهى كتابه " على هامش السيرة " مما يعد تحولا واضحا وتغيرا كبيرا فى فكر طه حسين وطريقته وأسلوبه ، كما سبق أن أشرنا فى مطلع هذا الفصل ، قصد به تصحيح موقفه الشعبى وتحويل أنظار الناس عن مفاهيمه الخاطئة فى كتاب " فى الشعر الجاهلى " . (٢)

\*\*\*

---

(١) راجع هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب : طه حسين فى محاركة

الأدبية ص ٢٨ - ١٠٩ .

(٢) راجع : أضواء على الأدب العربى المعاصر ص ٢٢٣ .

## ٖٖ الفصل الثاني ٖٖ

---

### الموضوع والفكرة في "على هامش السيرة"

- أ - الموضوع
- ب - الفكرة

## أ - الموضوع :

انتهى البحث سابقا الى أن " على هامش السيرة " لم يكن كاتبه يقصد به أن يكون كتاب تاريخ أو سيرة يستعرض الكاتب جميع ما فيها من أحداث ووقائع وشخصيات ، سارداتها ، حشدا للآراء ، مناقشا للأدلة ، باحثا عن العوامل والأسباب ، وما الى ذلك . . . بل قصد به كاتبه أن يكون كتاب أدب ، استلهمت مادته من السيرة ، واستوحيت فصوله من أحداثها وشخصياتها ، لأنه وجد في السيرة مادة خالدة أمامه تظهر بشريتها قلبه وتشير في قلبه مختلف العواطف والأحاسيس التي لا مفر من أن يدوننها ويخرج بها الى الناس صورا للنفس البشرية في صراعاتها وتشوفها وتطلعها . . .

انتهى البحث الى هذا . . . ونود هنا أن نقول : ان هذه المادة التي استلهمت من السيرة وتلك الأحداث والوقائع والشخصيات التي استوحيت منها فصول " على هامش السيرة " - : لم تكن كل ما في السيرة من أحداث ووقائع ، ولم تكن الشخصيات التي يجدها القارئ في تلك الفصول ، هي كل ما في السيرة من شخصيات . . . لكن الكاتب لم يتطعم عيلا علميا أو تاريخيا لا بد فيه من استقصاء كل ذلك - بل هي بعض ما فيها من أحداث ووقائع وبعض ما فيها من شخصيات ، وقف أمامها - حين استعرض السيرة - وقفة المتأمل المدقق ، لأنها استرعت انتباهه ، وشدت اهتمامه ووجد فيها ما يدعوه الى التوقف حولها ، والوقوف أمامها ، والنظر اليها من عظمة بليغة ، وعبرة بالغة ، وتجرية انسانية خالدة تستحق الدراسة والتسجيل . . .

ومن هنا راح الكاتب يرسمها ويصورها ويحييها أمام القارئ حتى تهدو في ثوب يشف عما تحته من عظمة وهجرة وعجربة انسانية ، فكانت تسلك

الفصول التى صاغ الكاتب من خلالها هذه الوقائع وتيك الأحداث وتلك الشخصيات فى قالب أدبى قصصى جميل . .

ويستطيع القارئ أن يخلص من هذه المقدمة الى أن فصول " على هامش السيرة " قد اتخذت من وقائع السيرة وأحداثها وشخصياتها موضوعا دارت فى فلكه ، وسجلا تلف حوله ، وحقلا لابرار التجارب الانسانية التى تبرز حقيقة النفس البشرية الظالمة ، التى لا تتعلق فى خلودها بزمان أو مكان .

ومن هنا تعددت الموضوعات بتعدد الأحداث والوقائع ، كما تعددت بتعدد الشخصيات ، كل حدث يرسم لونها وكل واقعة تصور جانبها . . من ألوان وجوانب الحياة ، وكل شخصية تعكس عظما من أعطاف النفس الانسانية ، وما يسطرغ فيها من خير وشر ، وما يضطرب حولها من مذاهب وآراء .

الا أن هذه الموضوعات على تعددها واختلافها - تدور حول موضوع عام واحد يجمع بينها - ويجعلها تنتظم فى عقد واحد ، هذا الموضوع هو تصوير ذلك العصر الفذ فى تاريخ البشرية . . عصر الرسالة المحمدية بما كان يسطرغ قبله من عقائد ، وما يسود من قلق ، وما يعترى من شك ، وما يضطرب فيه الناس من بحث عن الحق ، والناس لنبي توات بشائره وتطهرت آياته ، وما سبق ميلاده وبمبعثه - من هذه البشائر وتلك الآيات ، وما تبع ذلك من تفسير شمل الحياة كلها مثلا فى انتصار الاسلام وانتشاره . . .

وهذا العصر الذى اتخذته طه حسين مادة لكتابه وموضوع لفصوله وهوامشه ، يتخذة غالبية كتاب السيرة تسهيذا للكتابة فى السيرة ان عن لهم أن يتناولوا هذا العصر بالكتابة والدراسة والتحليل .

وهذا مما يجعل نصيب السيرة النبوية في كتب طه حسين قليلا لا يصور سوى لمحات قليلة، وموضات عابرة، تناولت بعض جوانب من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، كتلك التي تصور ميلاده ومدة رضاعه وحضانه وأيام كفالته بين جده وعمه .. وتلك التي تصور جزأاً من زمن شبابه : وهو سنو اشتغاله برعى الغنم .. وعمله في تجارة خديجة وزواجه منها، وتلك التي تصور بعضاً من صفاته وخلقه، من بر وحب وغنى ورحمة .

ونحن نجد هذه اللمحات القليلة ، والموضات العابرة متناثرة في أجزاء الكتاب الثلاثة ، وذلك في الفصول الآتية : " اليتيم " و " المراضع " و " الطفلة " و " راعى الغنم " و " البر " و " شوق الحبيب الى الحبيب " و " طبيب النفوس " و " القلب الرحيم " . ومن هنا كانت كلمة " على هامش السيرة " أصدق عنوان في الدلالة على المعنى المراد منه .

وإذا ما عدنا الى فصول " على هامش السيرة " أو بعبارة أخرى الى قصص " على هامش السيرة " لنرى ما ترسم من أحداث كما تصور من شخصيات وما تبرز من معان ، وما تجلى من مواقف - نجد أن هذه الفصول أو تلك القصص قد تنوعت بتنوع الأحداث التي ترسمها والشخصيات التي تصورها ، والمعاني التي تبرزها ، والمواقف التي تجليها .. كما نجد أن كل نوع من أنواع هذه القصص قد اختلف وتنوع باختلاف صور الأحداث والشخصيات والمعاني والمواقف ..

ومن هنا نجد أنفسنا أمام أنماط ثلاثة من القصص : ١ - القصص التي ترسم الأحداث والوقائع - ٢ - القصص التي تصور الشخصيات والنسائج البشرية . - ٣ - القصص التي تجلى المواقف وتبرز المعاني .





هذه نجدها ماثلة في الجزء الثالث من الكتاب .

ومن النوع الثالث - وهو الذي يجلى المواقف ويميز الممانى- ويصور الأفكار :- قصة " الفيلسوف الطائر " - أو القصة التي تصور القسوس الروحي الذي كان أولئك الناس يمانونه قهيل بمبعث الرسول - وقسمت استغرقت هذه القصة الفصل الأول من الجزء الثاني . . وقصة " صاحب الطن " - أو القصة التي تصور ما كان عليه مشركو مكة من عبادة فاسدة ومعبودات باطلة - . . وقد استغرقت هذه القصة فصلا من الجزء الثاني . . وقصة " نادى الشياطين " - أو القصة الحوارية الخيالية التي تصور انجلاء الظالم والشرك واللوثنية وطول النور والتوحيد بمبعث النبي صلى الله عليه عليه وسلم - . . وقد استغرقت هذه القصة فصلا من الجزء الثاني وهو الفصل الأخير . وقصة " حديث عداس " التي تصور خروج الرسول الى الطائف ليدعوها الى الايمان ، وما لقيه من أذى وعناد ، وتصور أيضا انتصاره عليها بعد أعوام في وقعة خيبر . . وقد استغرقت هذه القصة فصلا من الجزء الثالث . . وقصة " الوفاء المر " التي تصور وفاء رجل من اليهود للرسول صلى الله عليه وسلم هو " مخيريق " ، وقصة " طبيب النفوس " التي تصور طرقا من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، من كرم وغفران ، وأطال نفس صفوان بن أمية الملتوية الطاقدة على الرسول الى نفس سوية مريحة ، يتقلب فيها الخير فتسلم وتؤمن . . وقصة " شوق الحبيب الى الحبيب " التي تصور قصة زيد بن حارثة ونهني الرسول اياه . . وجهه الشديد له ولولده أسامة . . وقصة " القلب الرحيم " التي تصور ما كان يفيض به قلب الرسول من عطف ورحمة تجلت واضحة حين وفاة ابنه ابراهيم . . والقصص الأربع الأخيرة قد استغرقت الفصول الأربعة الأخيرة من الجزء الثالث .

ب - الفكرة :

من خلال المرض السابق لفصول " على هامش السيرة " وما تضمنته من موضوعات، وما دارت حوله من أحداث ووقائع وشخصيات ، نستطيع أن نستخرج الأفكار العامة التي يدور حولها الكتاب .

وهذه الأفكار هي :

- ١ - أن العالم آنذاك كان في حاجة الى رسالة .
- ٢ - أن محمدا كان هو النبي المنتظر لحمل هذه الرسالة .
- ٣ - انتصار الاسلام وانتشاره .

والفكرة الأولى: تبرزها بعض القصص التي تصور ما كان يعانيه العالم آنذاك من اضطراب نفسي، وفساد عقدي ، وشك حسي، وقلق روحي ، وصراع بين الديانات الموجودة آنذاك ، وظلم اجتماعي ، كما تصور انتظار العالم لرسول أطل زمانه وتتابع آياته ، وتطهفهم على مقدمه ، كي يخلصهم مما هم فيه من فساد واضطراب وقلق وشك ..

والقصص التي تصور هذا كله ، هي قصص : " حادثة الفيل " و " الفيلسوف الحائر " و " صاحب الحان " و " صريح الحسد " و " حديث عداس " .

والفكرة الثانية: تبرزها بعض القصص التي تصور الدلائل، والبشارات والآيات التي وقعت لعبد المطلب وابنه عبد الله ، والتي تقول: ان محمدا هو النبي المنتظر لحمل هذه الرسالة ، والتي تصور الدلائل والآيات التي سبقت مبعثه على يديه صلى الله عليه وسلم .

والقصص التي تصور هذا كله هي " قصة ميلاد الرسول " التي استفرقت الفصول الخمسة الأولى من الجزء الأول و " قصة راعي النسم " .

التي استغرقت فصلا من الجزء الثاني ، بالإضافة الى ما انتهت في القصص الأخرى من اشارات لهذه الدلائل وطك الآيات . . كقصص : " الفيلسوف الحائر " . . و " صريح الحسد " و " حديث عداس " . .

والفكرة الثالثة :- وهي انتصار الاسلام وانتشاره - تبرزها معظم قصص الجزء الثالث التي تشير الى بعض الفزوات التي وقعت بين الاسلام وخصومه - والتي انتصر فيها الاسلام - اشارة عابرة من خلال تصوير بعض الشخصيات التي كان لها دور في هذه الفزوات ايجابا أو سلبا ، وهذه الفزوات هي غزوة بدر " صريح الحسد " ، وغزوة أحد " سيد الشهداء " و " مصعب بن عمير " ، وغزوة مؤتة " ذو الجفاحين " و " شوق الحبيب الى الحبيب " وغزوة خيبر " حديث عداس " .

وهذه القصص - كما تشير الى هذه الفزوات وانتصار الاسلام فيها على قوى الكفر والظلم والظلمة - تشير الى انتصار الاسلام في نفوس أولئك الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الاسلام . وأي شيء أدل على انتصار الاسلام في نفوس أولئك الناس من انتصاره في نفس حمزة ، ومصعب بن عمير ، وجعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة الذين احتلوا من البلاء والجهاد والشهادة في ذات الله ما يعجز الظم عن تسطيره ! .

كما تبرز هذه الفكرة بعض القصص التي تمثل انتصار الاسلام بعبادته ومثله مثلثة في أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم مع بعض النفوس التي ران عليها الحقد والبغض وسوء الطوية ، اذ تحيلها أخلاق الرسول من حب وغفر وصفح وكرم ، الى نفوس محجة سوية مسلمة ، كما في قصة " طبيب النفوس " . وانتصاره في بعض نفوس جذبتها الى الاسلام أخلاق النبي من رحمة فياضة غامرة ، كما في قصة " القلب الرحيم " .

ولكن " على هامش السيرة " بالاضافة الى هذا كله استطاع أن يرسم صورة للحياة المعقدة والاقتصادية والفكرية والاجتماعية في الجزيرة العربية ، كما استطاع أن يعطى لمحات عن الحياة في المجتمعات الأخرى آنذاك : في اليونان .. والشام .. والمراق .. وفارس .. ومصر .. والجشة ، كما استطاع أن يصور الحياة العقلية في العالم الذي زامن محمدا من خلال تصويره هذه الشخصيات التي اخترعها اختراعا أو التفتك بعض أخبارها من الكتب ثم أضاف إليها ما يكملها .

والكتاب — بالاضافة الى كل ما تقدم — تعبير واضح عن فكري طه حسين حول وحدة الحضارة أو وحدة الثقافة-التي تعد من أفكاره الأساس ، والتي عبر عنها في صور مختلفة — وذلك حين يجعل " على هامش السيرة " ملحقا لطلاب الحق والمعركة في مختلف بلاد العالم القديم ، ويجعل الاسلام تعبيراً عن هذا الحق الذي توحدت فيه آمال الناس وأحلامهم على اختلاف جنسياتهم وثقافتهم ..

يقول الاستاذ سيد قطب عن كتاب " على هامش السيرة " : (سيرة طه حسين)

" انه الكتاب الأول في اللغة العربية الذي يجعل من بعض حقائق السيرة وبعض أساطيرها فناً حياً جذاباً ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد بل يحيل هذا الفن الحيّ الجذاب ( الى ) صورة " علمية " صادقة للجزيرة العربية وأطرافها في الفترة بين مولد النبي صلى الله عليه وسلم في الجزء الأول ، وانتصار دعوته في الجزء الثالث ، صورة للحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، صورة لما يهيج في الضمائر

---

(٢) أشرنا مرارا الى أن الفترة هي الزمن الواقع بين تعيين أو رسولين ، ولكن الناس جميعا يخطئون فيها .

والأخلاق ، وما يبدو من الاتجاهات والآراء ، صورة للبيئات وللأفراد  
في الحياة هناك ... وذلك كله حسب كتاب .. ليكون عملا يستحق  
التقدير ، وأنه للكتاب الأول في أعمال الدكتور ، لا يوازيه في هذا  
الا كتاب " الأيام " (١)

\*\*\*

---

(١) كتب وشخصيات : ص ١٠٨ .

### ٖ الفصل الثالث ٖ

#### أسلوب كتاب " على هامش السيرة "

- ١ - " على هامش السيرة " ذو أسلوب قصصى .
- ٢ - مثال تطبيقى على قصصية الأسلوب .

١ - " على هامش السيرة " ذو أسلوب قصصى :

سبق أن ألمح البحث الى أن فصول " على هامش السيرة " يمكن أن تسمى قصصا ، والحقيقة أن المتأمل فى فصول هذا الكتاب يجد أنها قد كتبت بأسلوب يعد أقرب فنون الكلام الى هذا اللون المعروف فى فن الأدب بفن القصة .

ذلك أن الكثير من شروط هذا الفن تتوافر كاملة فى هذه الفصول كلها ، ولعل هذا القول يعتمد على ما لهذه الفصول من شكل ومحتوى ، فهى فى قالبها العام الغالب حَدَثٌ يرويه الراوية أو يحكيه المؤلف ، وهى فى محتواها لا تريد أن تصور الحياة بأكملها ، إنما تريد تصوير موقف من بذاته فى حياة فرد أو أفراد ، جاهدة كل الجهد أن تجلو هذا الموقف ما وسعها أن تجلوه ..

فالكاتب فيها يلتقط صورة من صور الحياة أو الأفراد من زاوية معينة يشهد منها الأحداث ويرويها، ويريد أن يخرج منها آخر الأمر بمعنى بذاته يلقيه الى قلب القارئ وحسه وعقله القاء ..

وهذه الفصول تبدأ بتمو وتتأمل وتنتهى، كما تنمو القصة وتتكامل ثم تنتهى .. فهو فى أول الأمر يسوق للقارئ الحدث سوقا هينا مرتبطا ومتزجا بمن يقدم اليه من شخصيات ، فإذا به يعرف هذه الشخصيات معرفة كاملة ، ويحس بما يضطرب فى نفوسها من خير أو شر ، ويحس ما يملأ عقولها من علم أو جهل ، ويلمح ما يجيش فى قلوبها من عواطف أو نوازع ، وهو فى الوقت نفسه يراها رؤية العين فيحدد أشكالها ويستبين قساعاتها، ويلمس شخصياتها .



ثم يمضى الكاتب بالقارئ من بداية القصة الى وسطها حيث تتعمق الأحداث وتتشابه ، فاذا بالقارئ أمام نسيج متكامل يمثل جزءا فى تاريخ فرد أو أفراد ، وفى تاريخ حدث أو أحداث ، واذا بالقارئ يعيش فى هذا الجزء من التاريخ بكل جوارحه ، يربطه الحدث ربطا اليه وتتفرع منه شخصياته الاعجاب بها حيناً أو السخط عليها حيناً آخر ، أو الاشفاق على مصائرها والقلق على ما قد تنتهى اليه فى كثير من الأحيان . . ثم اذا بالكاتب يأخذ بيد القارئ فيسير معه سيرا هينا ليأخرج بسببه من كل هذا بمعنى بذاته أحب أن يلقيه الى قلبه وأن يضعه أمام عقله . . فاذا به راض أشد الرضا قد غمرتته نهاية القصة بفيض ممتلئ من الانفعال لعله هو الذى جاش بصدر الكاتب حين بدأ يكتب فصله ، أو بحبرة أخرى قصته ، فلكل قصة من قصص " على هامش السيرة " بداية ثم وسط تتعمق فيه الأحداث وتتشابه ، ثم نهاية واضحة جلية يستقر عندها القارئ ، كما يستقر عندها الحدث ، مثلما استقر عند الكاتب .

وهذا القول يستطيع القارئ أن يلمسه بوضوح شديد فى فصول " على هامش السيرة " ، ونذكر على سبيل المثال قصص : " ميلاد الرسول " - " حادث الفيل " - " والفيلسوف الحائر " - " و " صريح الحسد " - " الوفاء المر " .

## ٢ - مثال تطبيقي على قصصية الأسلوب :

ولعل هذا القول يزداد وضوحا وتأكيدا حين يتناول البحث احدى هذه القصص بالتحليل ، ولتكن هذه القصة الأخيرة : " الوفاء المر " مثلا واضحا يحدد ما يعنيه هذا القول .

فى قصة " الوفاء المر " بالجزء الثالث ، يقدم الكاتب للقارئ فتى بين جسمه المضطرب النشيط ، ونفسه الساكنة الهادئة الحزينة تناقض يحس

به لداته وأقرانه ، كما تحس به أمه ، إذ يقبل عليها ساعيا وتحدث به —  
عنه الشيخ إذا خلت إليه . . والقارئ يحس من الصفحات الأولى أن الفتى  
لا يعلم من أمر تناقضه هذا شيئا ، إنما هو يعيش كما قدر له —  
دون أن يملك لنفسه إلا الاستسلام له ، بينما أمه تعلم سر هذا التناقض ،  
كما يعلمه عنه الشيخ ، ويؤلم نفسها أنها لا تستطيع لابنها شيئا —  
وإن كان في يدها مفتاح الأمر كله لأن عنه يجهها دائما بقوله : " مهلا  
مهلا يا أساءة " فان الأوان لم يثن بعد <sup>(١)</sup> " ثم يضى الكاتب بالقارئ ليحدثه  
من " أمر أساءة " أم الصبي بما يجلو الكثير من الأسرار ، وإن كان لا يكشف  
الصورة كلها . .

فهى قد جاءت هذه المدينة من مدن الشام منذ أكثر من عشر  
سنوات ساعية بابنها تحمله بين ذراعيها ، تقدم له فى ضمتها الكثير من  
الحطف والاشفاق ، وما تخاله من حاية وأمن . .

فاذا ما أقبلت على عم الصبي ، فهو يرحب بها ويقدم لها العيش  
الرغد على ألا تتخلى عن الفلام إلا حين يشتد عوده . . . وترد الأم على  
عم ابنها بأنها إنما تعيش له منذ ودعها زوجها " أبو كعب " ماضيا إلى  
الموقعة والفضب يظهر فى عينه والعنف يهدو فى حركاته وهو يدفع  
بها وابنها معا إلى طريق الشام حيث يعيش أخوه هذا . . . ويصر  
الشيخ على أن تكتم أساءة عن الصبي ما تعلم من أمر أبيه . . . ويشب  
الفلام يسأل عن أبيه فيعلم من أمره اسمه ومكانته من قومه اليه —  
ثم . . أنه لقي مصرعه هناك فى الأرض البعيدة ، ولا يرضى هذا  
الفتى فيلجأ إلى عمه يسأله ، ولكن عمه لا يمل تعطشه إلى أن يعترف . .  
فتعتقد نفس الفلام ويحس الخوف من هذا السر الذى يخفيه عنه وتخفيه

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ١٩٢ .

أمه ... " فمكف الفتى على نفسه ، وأثر الحزن في ضميره ، وجاهد  
الهم ما استطاع الى جهاده سبيلا ، فلم يقهر الهم ، ولكن الهم لم  
يقهره " (١)

هكذا قدم الكاتب للقارئ أشخاص قصة، وحدد له معالم الحياة  
التي يعيشونها، ورسمها واضحة، ليسير بعد هذه المقدمة في الحدث  
خطوات ... فاذا الفتى يقبل ذات يوم على عمه وأمه معا يأمرهما  
بالرحلة عن هذه المدينة ، لأن جيوش أصحاب محمد قد دنت منها ،  
ولأن نائب قيصر يستعد للقائهم ، ويقول له الشيخ اليهودي : " وما  
نحن وهذا الصراع ، نصارى ومسلمون يقتتلون ، وسنرحل وتخلي بينهم " (٢)  
فيخبرها الفتى أنها سيرتحلان حقا ، ولكنه هو سيقم لأنه يقدر على  
الحرب ، ويريد أن يصرف فيها نفسه وهمه قاصدا الى الموت قصدا ليستريح  
من حياته المتناقضة هذه ، وهنا ينظر الشيخ نظرة ما كوة الى الأم الواجته  
ويقول : " لقد آن الأوان يا أساه " (٣) وينصرف تاركا الفتى وأمه التي  
تسأل الفتى عن يريد أن يحارب ، فاذا ما أخبرها أنه يريد أن  
يحارب أصحاب محمد ، قالت له الأم : " فانك لن تفعل من هذا  
شيئا يابنى الا أن تكون ابنا عاقا ينكر أباه " (٤) ويدهش الفتى فما علم  
الا أن هذه الفئة من أصحاب محمد عدو له ولليهود ، وتزيل الأم دهشته  
حين تفتح عينيه على السر الكبير ... فقد كان أبوه "مخيريق" صديقا  
لنبي العرب وحليفا له ، فلما نفر النبي الى الحرب تقاعس اليهود ،  
ودعا مخيريق أهله الى الوفا بالمهد فأبوا وتمللوا ، وحل الرجل سلاحه  
لا يريد الا الوفا بما تعهد به ، فقاتل في صف النبي بعد أن ودع أهله

(١) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٩٥ .

(٢) المصدر السابق ح ٣ ص ١٩٦ . (٣) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٩٦ .

(٤) المصدر السابق ح ٣ ص ١٩٧ .

هذا الوداع الذى تعرفه ، وظل يقاتل الى ان قتل ، وكان الرسول يقول عنه كلما ذكر له " مخيريقي خير يهود " (١) ثم تحكى الأم قصة ارتطالها وما صادفته من أهوال حتى وصلت الى عمه الذى أبى أن يصدق إلا أن محمداً قتل اليهود جميعا ، ومنهم مخيريقي " وما قتلوه يابنى وما عرضوه للقتل ، وما طلبوا منه حربا ، ولا قتالا ، ولكن أباك وفى بالعهد يابنى ، وقد يكون الوفاء مرا فى بعض الأحيان ، فانظر ماذا تصنع : أتصر قوما نصرهم أبوك ؟ أم تكف عن حرب قوم نصرهم أبوك ؟ فأمّا أن تخذل من كان لهم أبوك ناصرا ، فما أرى أن ذلك شئ تستطيع أن تقدم عليه (٢) .

وهكذا تتمدد أحداث القصة وتتشابه وتنمو الشخصيات ليهذو لنا ما فى الدم من عصبية وخفت ، وما فى الأم من أصالة وعراقة ، وما فى الابن من حيرة واضطراب ، وقد واجهوا جميعا الحدث فى اكتماله وجاءت ساعة الفصل . .

ثم تأتى النهاية بعد عام ومعض عام حين يقبل حارث بن الحُباب السلمى بحثا عن امرأة يهودية تعرف بأب كعب وهى "أساء" زوج "مخيريقي" فإذا لقيها قال : " أبشرى بأئمة الله فقد كتب الله لاهنك الشهادة ، كما كتبها لأبيه مخيريقي . . . فلم تعيس ولم تهتم . . . وانا قالت : " انا لله وانا اليه راجعون " (٣) .

وهذا تنتهى هذه القصة ، ويتضح للقارئ - من خلال ما تقدم - ما فيها من بناء فنى فى المقدمة والمضمون والخاتمة .

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠١ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠١ .

والمقدمة تحمل الخيوط الأولى للشخصيات والحدث ، والمضمون يجمع هذه الخيوط ويمقدّها ويصمد الحدث ويصل به الى ذروتــــه ثم تأتي الخاتمة تحمل ما أراد الكاتب أن يسوقه الى القارئ من معنى واضح جليّ .

والشخصيات فى القصة واضحة المعالم ، بَيِّنَةُ القِسمات ، وهى شخصيات حية تمتلئ بما تمتلئ به الشخصيات الحية من المواطنــــف والنوازع ، وتميش فى صراع أطرافه واضحة ، وأسبابه أشد وضوحا ، والخاتمة حين تأتى لن تكون غريبة ولا شاذة ، فقد هُئِىَ لها القارئ حين علم من أمر الفتى ما علم ، وحين علم من أمر أبيه ما علم ، وحين رأى من خلق أمه وتصرفاتها ما رأى . . . انما الأمر كله وفاء وإيثار ومذل .

والناظر فى هذه القصة يجدها قد استوفت شرائطها الفنية ، والقصة مترابطة الأجزاء كل جزء قاد الى ما يليه فى تسلسل طبعى ويسر واضح . . . كذلك يرى نماء الشخصيات خلال الأحداث واضحة وضوحا بينا ، وكذلك فانه يرى هذا التركيز الواضح فى الزمان والمكان والشخصيات . . . بالاضافة الى ما يجده القارئ من وضوح الزاوية التى شاء الكاتب أن يقف عندها ليصور هذا القطاع من قطاعات الحياة فى حياة هذا الفرد أو هؤلاء الأفراد وبالإضافة - أيضا - الى ما احتوته هذه القصة من مضمون هادف نبيل ، وهو تصوير الوفاء فى أروع صوره ، وإبرازه للقارئ فى صورة جميلة تحببه اليه وتدفعه الى التحطى به والدعوة اليه .



ويخلص البحث من خلال ما تقدم الى أن الأسلوب الذى كتب به فصول " على هامش السيرة " - وهو الأسلوب القصصى - يجعل هذا الكتاب الى العمل الأدبى أقرب منه الى العمل العلمى الذى

تتأقش فيه الأحداث ، وتهت فيه الوقائع ، وهذا يعنى أنه هل فنى يتذوق  
كما يتذوق العمل الفنى ، ويقاس بما يقاس به العمل الفنى ، ويتاح فيه  
ما يتاح للعمل الفنى - بصرف النظر عن أحداث السيرة - من تجوز  
فى التاريخ، وحرية فى اختراع الروايات والأحاديث والأخبار ، ونسقة فى  
اختلاق الشخصيات - ولا يتاح فى العمل العلمى ..

يقول طه حسين : " وأحب أن يعلم الناس أيضا أنى وسمعت  
على نفسى فى القصص ومنحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث  
ما لم أجد به بأسا ، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبى أو  
بنحو من أنحاء الدين ، فأنى لم أبيع لنفسى فى ذلك حرية ولا سمعة ،  
وانما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ، ورجال  
الرواية ، وعلماء الدين ... " (١)

إلا أن هذه الحرية التى أباحها لنفسه والسمة التى أجازها لها  
واختراع الأخبار والشخصيات الذى أجراه على قلبه لم ترض الكثير من  
الكتاب ، بل كانت مثار نقدهم ، وموضع طعنهم على الكتاب ، بحجة أن السيرة  
يجب أن تكون بمنأى عن هذا كله من الأحاديث المختلقة والأخبار الملققة ،  
والشخصيات البتدعة ، وأنه ان جاز للكتاب أن يبيع لنفسه هذه الحرية  
وتلك السمة ، وأن يبتدع ما شاء له أدبه أن يبتدع من أخبار وروايات  
وأن يخلق ما شاء له ضميره أن يخلق من أحداث وشخصيات - حين  
يتناول تاريخا أو يكتب سيرة - فإنه يجب عليه أن يفرق بين ما يجوز  
فيه ذلك وما لا يجوز .. أو بمعبارة أخرى يجب عليه أن يفرق بين  
الموضوعات الإسلامية وغيرها من الموضوعات الأخرى ، وأنه ان جاز ذلك

---

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٤٠

فى الثانية فلا يجوز فى الأولى ، حتى لا تكون الموضوعات الاسلاميـــــة  
والمسائل الدينية عرضة للتشكيك فيها والريبة حولها . . " من أجل  
ذلك أود أن يفصل الدكتور طه حسين فيما قد يكتب من بعد من فصول  
تجرى مجرى " على هامش السيرة " بين ما يتصل بالمعقائد ومــــا لا  
يتصل بهــــا<sup>(١)</sup> .

ولكن على الرغم من هذا النقد الموضوعى الجاد ، نرى الكتاب  
من الناحية الفنية الأدبية ، قد بلغ نضجا فنيا ، وقمة أدبية عالية فى المجال  
القصصى ، مما يشهد لطف حسين فى هذا المجال بالبراعة والتفوق والمنزلة  
المالية . .

يقول المازنى : " طه حسين قصصى بارع ، وأديب روائى مــــن  
الطبقة الراقية ، وانه خير للأدب المصرى فى رأى أن ينضو عنه بــــردة  
العلم ويتناول قلم القصاص ، وأحسبه يوافقنى على أن كتابه : " الأيسام "   
سيبقى ، على حين قد يبقى أو لا يبقى " حديث الأرحم " و " نفس  
الأدب الجاهلى " <sup>(٢)</sup> .

ويقول الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى : " وقد بلغ طه حسين  
فى كتابه " على هامش السيرة " وفى " الوعد الحق " منزلة كبيرة فى  
فن القصة<sup>(\*)</sup> المحاصرة " <sup>(٣)</sup> .

(١) طه حسين فى معاركه الأدبية ص ١٥٢ .

(٢) مع طه حسين ص ٧٧ .

(\*) نهينا مرارا الى أن كلمة "محاصرة" خطأ شائع والصواب : المصرية .

(٣) الأدب الحديث ومدارسه ص ٤٧٧ .

## :: الفصل الرابع ::

### الألوان القصصية في " على هامش المسيرة "

- ١ - القصة الشخصية •
- ٢ - القصة الحدثية •
- ٣ - القصة التي تصور المعنى وتبرز الفكرة •



سبق أن انتهى البحث الى أن طه حسين قد اتخذ من بعض أحداث السيرة ووقائعها مادة لكتابه وموضوعا لفصوله ، وهى تلك الأحداث والوقائع التى تصور الحقيقة التى سبقت ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان ينتابها من شك وقلق روحى وصراع عقدى ، والمدة التى تلت ميلاده صلى الله عليه وسلم وما وقع فيها من أحداث ، وما أشارت اليه تلك الأحداث من قرب مبعثه صلى الله عليه وسلم ، كما صور بعض الأحداث التى تلت مبعثه ، وما أشارت اليه تلك الأحداث وما دلت عليه من انتشار الاسلام وانتشاره .

كذلك سبق أن انتهى البحث الى أن طه حسين قد استطاع أن يصور تلك الحقيقة ، من خلال تصويره للأحداث التى اختارها ، والشخصيات التى انتقاها ، والمواقف التى أبرزها ، من تلك الأحداث ، والشخصيات ، والمواقف التى لها دلالة واضحة فى تصوير تلك الأيام وإبرازها .

وقد سبق أن أشار البحث الى أن فصول هذا الكتاب أو قصصه قد دار بعضها حول تصوير بعض الشخصيات التى اختارها الكاتب ، ورسم بعض النماذج البشرية التى تمثل اتجاهها من اتجاهات الانسان ، أو صفاته من صفاته ، أو مذهبها فكريا يؤمن به ويعتقه . كما أن بعضها قد دار حول تصوير بعض الأحداث والوقائع التى انتقاها الكاتب ، وكانت ذات تأثير واضح فى ذلك الزمن . . . كما أن بعض هذه القصص قد دار حول إبراز بعض المواقف وتجليه بعض المعانى التى تمثل زاوية من زوايا تلك المدة ، وقد أشار البحث الى هذه الأنماط من الموضوعات التى دارت حولها قصص هذا الكتاب عند الحديث عن موضوع الكتاب وفكرته .

ومن خلال هذه المقدمة التى صدرَ بها هذا الفصل ، يستطيع القارئ أن يستنتج ما فى هذه الفصول من ألوان قصصية بعضها يصور

الشخصية ، ومعضها يصور الحدث ، ومعضها يجلى الموقف ويميز الممـنى  
ويوضح الفكرة ..

ومهمة هذا الفصل أن يتناول هذه الألوان بالدراسة والتطيل ،  
وأن يتنخل من كل لون من هذه الألوان بعض القصص التى تشبه أصدق  
تمثيل ، متعرضا لها بالتطيل وإبراز ما فيها من صفات وسمات .

\*\*\*

### ١ - القصة الشخصية :

والقصة الشخصية: هى التى تعنى برسم الشخصيات ورسم النماذج  
البشرية المختلفة ، وتصوير جوانبها المتعددة ، وتصوير ما يعتل فى  
نفوسها من خير أو شر ، وما يطرع فيها من آراء ومعتقدات ، وما تؤمن  
به من مذاهب وأفكار . والقصة الشخصية لا يعنى أنها تتناول الشخصية  
التي تتناولها من جميع جوانبها وزواياها، بل غالبا ما تتناول جزءا من  
حياتها ، تريد أن تصوره ، أو اتجاهها معيناً فى تلك الشخصية تريد  
أن تبرزه ، أو موقفا بارزا اتخذته تريد أن تجلوه ، لأن الشخصية  
التي تصور ، والنموذج الانسانى الذى يرسم فى القصة الشخصية ،  
لا يقصد أن لذاتيهما ، ولا يختار تصويرهما ليعتنيهما ، بل ان الشخصية  
حين تصور ، والنموذج الانسانى حين يرسم ، لا يقصد من تصويرهما  
ورسمهما الا جلاء المعانى الانسانية التى يريد الكاتب أن يجلوها واظهار  
الأفكار والآراء التى يريد أن يظهرها .

و" الأشخاص فى القصة مدار المعانى الانسانية ومحور الأفكار  
والآراء العامة ، ولهذا المعانى والأفكار المكانة الأولى فى القصة منذ  
انصرفت الى دراسة الانسان وقضاياها ، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياها

الهامة منفصلة عن محيطها الحيوى ، بل يسوقها مثلة فى الأشخاص الذين يعيشون فى مجتمع ما ، والا كانت مجرد دعاية ، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعى وقيمتها الفنية مما ، فلا مناص من أن تحيا الأفكار فى الأشخاص أو تحيا بها الأشخاص ، وسط مجموعة من القيم الانسانية يظهر فيها الوعى الفردى متفاعلا مع الوعى العام فى مظهر من مظاهر التفاعل ، على حسب ما يهدف اليه الكاتب فى نظرتة الى هذه القيم وفى أغراضه الانسانية (١) .

واذا ما رجعنا الى القصص الشخصية فى كتاب " على هامش السيرة " والى الشخصيات التى صورتها والنماذج البشرية التى رسمتها ، نرى أن هذه الشخصيات وتلك النماذج مختلفة ومتنوعة : مختلفة فى نزعاتها وأهوائها وآرائها .. مختلفة فيما يمسطرع داخلها من خير وشر ، وحب وبغض ، وإيمان وكفر ، ومن القصص التى تمثل هذا الاختلاف فى " على هامش السيرة " قصص : " صريح الحسد " و " سيد الشهداء " و " مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ " و " طَرِيقُ الْيَاسِ " و " نَزِيلُ حِصْنِ " . وهى متنوعة فى أنماطها وأشكالها ، فكما اتخذ طه حسين شخصيات قصصه من الأناسى ، كالقصص السابقة التى أشرنا اليها آنفا ، فقد اتخذ فى بعضها شخصيات خيالية من الشياطين ، وذلك كقصة " نادى الشياطين " كما اتخذ فى بعضها الآخر شخصيات خيالية من المعانى المجردة ، وذلك كقصة " ذو الجناحين " .

ولسنا هنا فى مجال تتيج هذه القصص بالدراسة والتحليل ، وإنما نحن بصدد أن نبين للقارئ أن فصول " على هامش السيرة " مليئة

---

(١) النقد الأدبى الحديث ص ٥٢١ د . غنيمى هائل .

بهذا اللون من القصص التي تصور الشخصيات .

على أن هذا لا يمنع أن نتناول إحدى هذه القصص بالدراسة والتحليل ، ولتكن قصة " صريح الحسد " ونشير الى مضمون ما عداها في ايجاز . ولذلك كان من الأفضل أن نشير الى مضمون هذه القصص أولا ، ثم نتناول قصة " صريح الحسد " ثانيا .

فقصة " سيد الشهداء " تدور حول اسلام " حمزة " ولاته في سبيل الله واستشهاده في " أحد " وحزن الرسول عليه . .

تحتل هذه  
المضامير المروجة  
نصف القصص

وقصة " مصعب بن عمير " تحكى أمر مصعب وحاله قبل الاسلام من الفنى واليسار وطيب العيش ، كما تحكى أمر اسلامه وما تركه فى سبيل الاسلام من الفنى وطيب العيش ، وما صار اليه حاله من فقر وخشونة عيش كما تحكى صبره وبلاءه وهجرته مرتين الى الحبشة ، ثم عودته الى مكة واحتماله فى سبيل الله من الأذى والهلا ، مؤثرا قربه من الرسول واستهانته فى ذلك بما يلقاه من الأذى والهلا ، ويصير مصعب - بقربه من الرسول - فقيها من فقهاء الاسلام ، ويرسله الرسول الى يثرب ليفقه من دخلوا فى الاسلام ، ويعود مصعب من المدينة بسبعين من الأنصار دخلوا فى الاسلام على يديه ، وهم أهل بيعة العقبة الثانية ، وذلك لحلو حديثه ونفاذ قوله وسماحة طبعه ، ويشهد مع الرسول " بدرا " ، ثم يشهد " أحدا " ، ويشاء الله أن يستشهد فى هذه الغزوة بعد أن أبلى بلاء حسنا .

وقصة " طريد اليأس " تدور حول مقتل أولئك الصحابة الذين خرجوا من المدينة مع نفر من " هذيل " ادعوا الاسلام وطلبوا من يفقههم فى الدين ، فيرسل الرسول معهم هؤلاء الصحابة ، فيقتلون منهم فى الطريق من يقتلون ، ويبيعون من يأخذونهم أسرى الى قريش ليبيعوا بهم مالا ، وكان من هؤلاء الأسرى " زيد بن الدثنة " الذى اشتراه

"صفوان بن أمية" ثم دفعه الى مولاه "لسياس" النصراني ليقطعه .. ويركض  
الكاتب الأضواء على لسياس هذا ، ويصور كيف صار أسيرا للندم ، طريقا  
للياس بعد أن امتدت يده الآثمة لتسفك دما مؤثما زكيا ..

وتصه "نزيل عمن" تدور حول شخصية "وحشى" "العبيد  
الجهشي الذي نال حريته يقتل حمزة عم الرسول ، إذ طعنه بحريته  
يوم أحد .. ثم مضى بعيدا عن القتال ، فما كان له فيه من أرب إلا أن  
ينال حريته وقد نالها بهذا الثمن الضخم ، وتغضى به الأيام حرا كالعبد ،  
ونور الاسلام ينتشر من حوله ، وهو في خوفه من غضبة الرسول والمسلمين  
يخارهم في كل ميدان ، حتى لا يصيب هناك ميدان .. فيهرع يريد  
الهرب ، وتقوى به الجزيرة الحربية كلها ، فما عاد هناك مكان يقيمه  
وقد انبسط سلطان النبي على كل مكان ، وأصبحت الهجرة متعذرة غير  
ميسورة ، ففر من غضب الرسول الى رحمة ، وذهب يعلن اسلامه ، فينال  
الحق ويحيش بين المسلمين قلعا محزونا ، وقد بدأت جريمته تتمثل له بهشاعتها  
وتبجحها ، ويريد أن يضرقهم في القتال ، فاذا به يشترك في حرب  
المرتدين ، واذا بحريته التي صرعت حمزة تصرع "مسيلة" الكذاب ، ولكن  
دم مسيلة لا يغسل دم حمزة .. لقد صفى النبي ، ولقد صفى المسلمون  
ولكن "وحشيا" لا يعرف الراحة ، يقاتل الروم هربا من نفسه ،  
ويشرب الخمر طول يومه هربا من ضميره ، واذا بالناس يعرفون فيه سكره  
وندمه ، واذا بالولاة يحدونه في الشراب ، ولكنه يعود اليه بخا عن  
السلوان ، والندم يسد عليه المسالك كلها ، ويظل وحشى بين حريمه  
وخمره وندمه وتلقه ، حتى يحد في الخمر — وقد ضعف وكبر — فيموت ..

أما تصه "صريح الحسد" التي آثرناها بالدراسة والتطيل ، فانها  
تدور حول شخصية كان لها موقف بارز واضح في تاريخ الدعوة الاسلامية ،

هو موقف العداء السافر للإسلام ، والبغض الشديد للرسول ، والصـدّ  
الأحق عن سبيل الله .. تلك هي شخصية عمرو بن هشام ، المعروف  
في التاريخ الاسلامي بأبي جهل .. وقد اتخذ أبو جهل هذا الموقف  
من الاسلام ورسوله ، من لدن قامت الدعوة الى الله على يد الرسول صلى  
الله عليه وسلم حتى مصرعه في غزوة بدر .. بل ان بغضه الشديد  
للرسول وحقده عليه ، بدأ قبل أن يبعث الرسول بوقت طويل منذ أول عهد  
الشهاب يوم دُعِيَ الى وليمة في دار عبد الله بن جدعان ..

وموقف أبي جهل هذا من الاسلام ورسوله ، كان يزداد مع الأيام  
شدة وضراوة ، كلما ازدادت شوكة الاسلام واتسعت رقعته ، وكثر أنصاره  
وأتباعه .

وفي هذه القصة يصور الكاتب شخصية أبي جهل تصويرا دقيقا  
مبرزاً جوانبها ، موضحاً صراعاتها النفسية ، وخباياها الداخلية ، كما شفا عن  
مواقفها العدائية المتكررة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، مطـلـلا  
سر عداوتها وحقد ها .. كل ذلك في أسلوب تحليلي أدبي دقيق ،  
تظهر من خلاله شخصية أبي جهل ، كما أراد أن يصوره الكاتب ، فإذا  
بالقارئ - وقد انتهى من قراءة القصة - أمام انسان حاقد حاسد ، لا يحمل  
بين جنبهيه الا الحقد على الاسلام ورسوله .

ولنعمد الى تحليل هذه القصة من البداية : في هذه القصة نلتقي  
بشباب يصور : " رجلا شديد الطموح ، بحيد الأمل واسع الرجاء ،  
ولكن الأسباب قد تقطعت به ، فهو غير راض عن نفسه ، ولا عن حوله  
من الناس ولا عما حوله من الأشياء ، يريد أن يذعن لظروف الحياة التي  
لا يستطيع لها تغييرا ولا تهديلا ، ولكن نفسه لا تطيق الاذعان ولا تطمئن

اليه ، فهي في جهاد متصل وصراع مستمر (١) . . . . ذلك الشاب الفنى الذى يسمى بماله الحريص عليهم به في تجارة قريش ويحمله الى عمه الوليد بن المغيرة السيد الذى هو من أروع سادات قريش ، والرجل الذى هو عظيم بين رجالات الهطاح . . . ذلك الشاب الذى يحمل على الناس من حوله في سخرية عابثة لاهية ، لا تحترم قدرا لصنم ، أو مكانا لمعظم ، أو تقديرا لأحلام الكبار والصغار معا ، ويحمل على الحياة من حوله في ازدراء ، لما يتقلب فيه الناس من لهو وضلال ، فهو يفر الى حانة "نسطاس" حونا ، والى لقيا ورة بن نوفل "أحيانا يلتصق فوق الشراب والفناء" واللهو بمتعة العلم والمعرفة . . . ولكننا حين نغنى في القصة قليلا نحس أن سخرية عمرو ليست خالصة للسخر وحده ، وأن لهوه حين يلهو ويحسه عن العلم والمعرفة ليسا للهو أو للعلم والمعرفة وحدهما ، وإنما هي نفس الفتى التى تريد أن تحس بالتفوق على من حولها ، وتخالف الآلاف والمعهود عن رغبة في أن تبدو شاذة ملفتة للأنظار ، خالصة للمقول ، ونشهد الفتى يفتدو الى صاحبه نسطاس الرومى فلا يجد عنده الا ازوارا ، فاذا ما ذهب الى ورة أحس به ضجرا ما تعود ، وما يعنى نسطاس وورة وهما أمام حلم حياتيهما يوشك أن يتحقق ، وهما يعالجان هذا الأمل الجديد قد بدأ ينبثق ، بعد طول انتظار - ما يمنيهما - وهما يعلمان من أمر محمد وبشارة محمد - من أمر هذا الفتى اللاهى الساخر العايب . . الذى لا يلقى عندهما ما تعود من حديث . . فيذهب الى ناديه ليلقى حديثا يؤذيه ، ذلك هو الأمر الذى فوت عليه المتعة التى كان يجدها عند النصرانيين : بشارة محمد ودعوتة الجديدة .

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ٨٠

ونمضى قليلا لنحس في نفس الفتى حنقا قديما على محمد هـ هذا الذي تتعلق به الأبصار عن اعجاب لا عن انكار هـ وعن حب لا عن مخافة هـ وعن خلق قوم سليم لا عن ادعاء وغرور . . . حنقا قديما لا يريد الزمن أن يمحوه . . بدأ منذ أول عهد الشباب يوم دعيا الى وليمة فسي دار عبد الله بن جدعان فازدحم القوم هـ وزاحمه محمد فزحه فزلت قدمه وسقط على الأرض سقطا مازالت آثارها باقية لا تزول هـ ومعهما بغض لمحمد لا يزول هـ وينميه في قلبه ما يسممه من القوم ثناء عليه . . . وهو كما يقول نسطاس : " . . فتى كطماح <sup>(١)</sup> شديد الطموح هـ مضرور يكاد يقتله الشرور هـ حسود يأكل الحسد قلبه هـ كما تأكل النار ما يلقى فيها من الحطب هـ وهو على ذلك ذكي القلب هـ فصيح اللسان هـ أثير عند قومه هـ وما أرى الا أنه سيكون أشد الناس عداوة لهذا النور الجديد هـ وما أرى الا أن عداوته ستزيد هذا النور انتشارا كلما أمنت في الشدة والحدة " <sup>(٢)</sup> . . وقد استعد قلبه لدعوى الشيطان يفرس فيه الحقد ويسقيه من زق الكراهية يملأ به قلبه ووجدانه معا هـ فاذا هو أشد الناس عداوة لمحمد ودعوته لا عن ايمان واقتناع هـ ولكن عن حقد في قلبه هـ ودث في ضميره هـ وغرور يملأ صدره هـ وجهل يرين على عقله وفؤاده . . ويظل أبو جهل على حاله تلك يقوده البغى على محمد والكيد لـه والحق عليه هـ والشيطان من ورائه ينفذه ويقويه هـ ولكنه أضعف من أن يحمل في النور هـ فهو يخشى محمدا خشية لما هو أكثر من المسوت يخشاه حين يقبل عليه ليقتله هـ ويخشاه حين يطلب منه محمد مال أعرابي غريب فيظهره هـ ثم يموت آخر الأمر بسهم حقه وحسده يوم بدر هـ يوم علت قدم ابن مسعود صدره هـ ونزل سيفه يحتر رأسه .

(١) في الأصل : كَطْمُوحٌ هـ وهي كلمة منتشرة على الألسنة وأسلات الأقلام هـ ولكنها ليست في القواميس بالمعنى الذي أراده الكاتب .

(٢) على هامش السيرة ج ٢ ص ٤٧ .



ولكن القصة لا تنتهى عند هذا الحد ، اذ أن الكاتب يطوى الأيام والأعوام ليبرنا مشهدا من مشاهد موقعة " اليرموك " ، تلك الموقعة التى استشهد فيها «عكرمة بن أبى جهل» ، حين أدخلوه جريحا على خالد بن الوليد قد أشرف على الموت ، وقت أن كان خالد بسن الوليد يجلس الى نسطاس صديق أبى جهل أيام أن كان فى مكسة ، وقبل أن يهوى قومه من الروم لنور الاسلام الجديد . ويقول خالد بسن الوليد عن عكرمة ملتفتا الى الشيخ نسطاس " أما أبوه فقد صرع الحسد والبغى ، وأما هو فقد صرع الجهاد فى ذات الله " (١)

ولعل هدف الكاتب من ايراد هذا المشهد يبدو واضحا ، اذ تظهر من خلال الموازنة بين أبى جهل وابنه عكرمة الحكمة البالغة والمظلمة البليغة ، وكيف أن الله قادر على كل شئ ، يخرج من صلب كافر قتل البغى على الاسلام والحسد على رسوله - رجلا يصرع فى سبيل الله . وفى هذا دليل على انتصار الاسلام وانتشاره .

\*\*\*

ولعل من المفيد بعد ايراد البحث مضمون هذه القصة تفصيلا - أن نكشف عما فيها من سمات وخصائص فنية :

١ - ولعل البحث لا يتجاوز الحق اذا أطلق على هذه القصة اسم القصة التحليلية ، وذلك لأنها تعنى بتعطيل نفسية البطل ( أبى جهل ) وشرحها ، وتفننى أيضا بابرار الموامل والمؤثرات التى كونت هذه الشخصية ، وتصوير الحياة التى عاش فيها البطل وما ساد فيها من أفكار ومعتقدات وغير ذلك مما من شأنه أن يكون له أثر واضح

---

(١) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٠٧ .

فى تكوين المزاج النفسى والخلق لهذا البطل ..

وغالبا ما تتكفل الروايات والقصص الطويلة بتحليل الشخصيات وتفسير جوانبها الاجتماعية والنفسية والجسمية ، ذلك لأن مجال التفسير فيها أرحب ومجال الشئ فيها أمكن ... ونادرا ما تقوم القصة القصيرة بهذه المهمة نظرا لقصرها، وإن قامت بذلك جاء التفسير موجزا والشئ مختصرا ، كذلك يكون تحليلها للشخصية فى جانب معين أو زاوية من زواياها المتعددة أو كشف صفة من صفاتها المختلفة .

" ويقصد بها - يعنى الرواية التحليلية - تلك الرواية التى يبرز فيها جانب التحليل النفسى ، حتى يكاد يطفى على بقية عناصر الرواية ، فالأحداث والشخصيات والحوار وغير ذلك من مقومات الرواية ، تأتى فى المكان الثانى أو ما دون الثانى ، حيث يتصدر جانب التحليل النفسى للبطل وحشد كل ما يُمكن من هذا التحليل ، ويعين عليه .. من معرفة ماضى هذا البطل وميئته وما تكوّن لديه من عُقَدٍ ، أو ما صُجّ به عالمه النفسى من صراعات ، حتى ليختار البطل لهذا اللون من الروايات - غالبا - من ذوى الميول النفسية غير السوية ، بل من ذوى الحقد والأُمراض النفسية أحيانا ، وهكذا تأتى الرواية بمثابة تحليل نفسى لخبايا نفس معينة ، ويان كيف دفعتها ظروف خاصة الى سلوك غير سويٍّ أو سلوك غريب على وجه المصوم ، وليس ما يمنع أن يكون للرواية بالاضافة الى ذلك هدف اجتماعى أو اصلاحى أو نحو ذلك " (١)

وإذا ما نظرنا الى جانب التحليل لشخصية البطل فى هذه القصة نراه واضحا فيما يأتى :

أ - تقديم بعض الأبعاد الجسمية والنفسية والاجتماعية لشخصية عمرو بن هشام وذلك عن طريق السرد والوصف المباشر تارة وعن طريق الوصف غير المباشر من خلال تصوير تصرفاته وأحاديثه تارة أخرى ، ومن خلال هذين الوصفين تتكشف صفات شخصية أبي جهل عالتى تتسم باللهو والمبث والسخرية لكل من حولها وما حولها ، ومحاولة مخالفة المعهود المؤلف والاحساس بالتفرد والتفوق .<sup>(١)</sup>

ب - التحليل الدقيق لنفسية عمرو بن هشام واستهتان عالمها الخفى وسبر هذا العالم سبرا حقيقيا ، ثم تصويره تصويرا دقيقا كاشفا يجسم ما فيه من انفعالات وصراعات ، وما يسطرعه فيه من حقد وحسد ، وذلك من خلال الأحاديث والمحادثات التى أجراها الكاتب بين عمرو بن هشام وبين أصحابه مرة ، وبينه وبين الشيطان مرة أخرى .<sup>(٢)</sup>

٢ - من الجوانب المشرقة فى هذه القصة: ذلك الضمون الهادف ، فالقصة تجرى أحداثها حول شخصية حاسدة ، وقد نجح الكاتب فى الكشف عن تلك الشخصية وتعميقها أمام القارئ فى أنماط متعددة ، وأشكال متباينة ، وهو بهذا الكشف وتلك التعرية قد نجح فى تغيير القارئ من ذلك المرض الاجتماعى الخبيث ، وبالإضافة الى هذا الضمون الهادف ، يوجد هناك هدف اجتماعى اصلاحى يتضح من خلال هذه القصة وهو فضح الحاسدين والحاقدين ، وبيان عاقبة من اتصف بصفة الحسد أو الحقد ، كما حدث لعمرو بن هشام .

(١) انظر " على هامش السيرة " ح ٣ ص ٨ - ١٨ ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) انظر " على هامش السيرة " ح ٣ ص ٤١ ، ٤٢ ، ٦٥ - ٧١ ،

٧٤ - ٧٩ ، ٨٤ - ٩٨ .

٣ - من الجوانب الفنية فى هذه القصة أيضا - بالاضافة الى ما تقدم - الاستعانة فى رسم بعض الشخصيات والتعرف على داخلها النفسى وما يدور فيها من خلجات ، بوصف المجال الذى تقع فيه الأحداث ورسم طبيعته ، وذلك يتضح حين يصف الكاتب جو مكة وما كان يلفه من قيظ شديد وما يغلغه من هدوء وسكون لانشاط فيه ولا حركة ، فكل شئ فيه ساكن هادئ يوم أن سمى نسطاس الى ورة بن نوفل فى حذر وسطاء شديدين يلفه خوف وترقب خشية أن يراه أحد . (١)

٤ - نجح الكاتب نجاحا كبيرا فى رسم صورة للمجتمع القرشى وما كان يسوده من عادات وأعراف وتقاليد . (٢)

على أن بالقصة - الى جانب هذه الجوانب المشرقة - بعض المآخذ التى لا تفض كثيرا من قيمتها الفنية . .

وأول هذه المآخذ : هو الاستطراد فى وصف الأقداح والنجوم والنسيم والاسترسال فى تصويرها ، حين يصف الخلوة التى كانت بين عمرو ابن هشام وصديقه نسطاس - استطرادا واسترسالا لخدمان القصة ولا يؤثران فى مسار أحداثها (٣) .

وثانى هذه المآخذ : هو تدخل الكاتب أحيانا تدخلا مباشرا بالشرح والتحليل والتعليق لبعض المواقف النفسية ، فنراه يطل نفسية عمرو ابن هشام ، وما ألمَّ بها من ضيق وتبرم ، بعد أن قابل ثلاثة من أحب الناس اليه هم : عمه الوليد ، ونسطاس ، وورة بن نوفل (٤) .

(١) انظر " على هامش السيرة " ح ٣ ص ٤٥ .

(٢) انظر " على هامش السيرة " ح ٣ ص ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ .

٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٦ .

(٣) انظر على " هامش السيرة " ح ٣ ص ٣٢ .

(٤) انظر على " هامش السيرة " ح ٣ ص ٣٤ ، ٣٥ .

ولا شك أن هذا التدخل يعد عيباً في القصص الحديث : " ومن الميب في القصص الحديث أن يتدخل المؤلف تدخلاً سافراً بالشرح والتحليل مستقلاً في ذلك عن الحوار والحديث النفسى ، فينبغى أن يكون تدخله مستورا وفي أضيق الحدود : كأن يقصد في تدخله الى الفوص في أعماق شخصيته أو الكشف عن الوعى الباطنى لبطل من أبطاله في اجمال يملأ به فجوة يريد الكاتب أن يمر بها دون تفصيل " (١)

\* — \* — \*

## ٢ - القصة الحديثة :

والقصة الحديثة: هي القصة التي تُعنى بتصوير الأحداث وسرد الوقائع ورسم هذه الأحداث وتلك الوقائع في لوحة جديدة، مبرزة ما فيها من دلالات واضحة ومعان هادئة ، متجعة جوانبها وزواياها المختلفة في تسلسل ومنطقية .. حتى تصل القصة الى النهاية التي تريد أن تصل اليها .. ولا يعنى هذا أن القصة الحديثة لا تعنى الا بتصوير الحدث ورسمه ولا تلقى بالا الى ما سواه من عناصر : من شخصية وزمان ومكان بل يعنى أن القصة الحديثة تركز على الحدث وتجعله في المقام الأول، ويكون ما عداه من عناصر في المرتبة الثانية ، أو ما يسمى في النقسند بالناصر الثانية .

واذا ما عدنا الى " على هامش السيرة " لنرى ما فيه من قصص حديثة فانتا نجد هذا اللون موجودا فيه ، وأن طه حسين كما وقف أمام الشخصيات يصورها ويرسمها .. كما سبق أن أوضحنا ، فانه قد عالـج

بعض أحداث من السيرة استهوت، ووقف أمامها ليصورها من جديد بأسلوبه القصصى ، ويرسمها فى صورة جديدة مبرزاً ما فى زواياها من آيات عميقة الدلالة ، واضحة الأثر فى هذا الجزء من تاريخ البشرية .

ومن الأحداث التى عنى بها طه حسين واستهواه ما فيها من دلالات وعبر : مولد الرسول .. وحادث الفيل .. ونشأة الرسول .. وقصة الحجر الأسود والخلاف حوله .. وزواج النبى من خديجة - رضى الله عنها .

والقارئ يشعر فى اختيار طه حسين لهذه الأحداث أنها تركت فى نفسه أثراً كبيراً، دعاه الى أن يفحص وراءها خلال التاريخ يسأل عن مقدماتها الأولى ، ثم هى قد أتاحت له الفرصة ليصور لنا الحياة فى هذه الجزيرة العربية وما حولها ، وليصور عادات الناس وطبائعهم وليقدم لنا أحلامهم وآمالهم وأخلاقهم .. ومن هنا يراه القارئ فى علاج الأحداث يرجع بها الى أصولها الأولى فيفتحها منذ بدأت التباشير الأولى فيسير معها خطوة خطوة ، وهى تنمو وتتدرج وتتعمق ، حتى تصل الى نهايتها المرسومة لها .

وتتيح طه حسين للأحداث هكذا منذ بدايتها ، متسلسلاً معها مستقيماً لها لما بجوانبها، تراه واضحاً فى قصتين ، هما : قصة " ميلاد الرسول ونشأته " ، وقصة " حادث الفيل " .. والقصة الأولى قد شغلت من الجزء الأول تسعة فصول : الفصول الخمسة الأولى ، والفصول الأربعة الأخيرة منه ، أما قصة حادث الفيل فقد شغلت من هذا الجزء خمسة فصول ، وتوسط قصة ميلاد الرسول ونشأته .

ومن هنا كانت تلكا القستان قريبتين من القصة الطويلة أو الرواية ، أما القستان الأخيرتان : قصة " الحجر الأسود " و " زواج النبى من

خديجة " ، فهما أقرب ما تكونان الى القصة القصيرة ، اذ لم تشغل الأولى سوى فصل بعنوان : " حديث باخوم " ولم تشغل الثانية سوى فصل - أيضا - بعنوان : " راعى الفخم " وكلاهما فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

ومن هنا كان اختيار البحث للقنتين الأوليين مجالا للدراسة والتحليل وإبراز الخصائص والسمات للتدليل على هذا اللون من القصص فى هذا الكتاب ، اذ فهما يكون مجال استعراض هذا كله أرحب وأوسع .

ولنستعرض قصة " مولد الرسول ونشأته " ، وقصة " حادثة الفيل " التى تخللتها ، لنرى أن قصة مولد الرسول تبدأ منذ دفع عبدالمطلب دفعا الى حجر بئر زمزم ، فترك ما لقى من جوهر وسلاح للبيت ، واحتفظ بما وجد من ماء له ولأولاده من بعده ، فاذا ما خالفه قومه من قريش فى حقه فى الماء فهو يرضى أن يحتكم معهم الى كاهنة بنى سعد هذيم ، واذا بالقوم فى الطريق الى الكاهنة ، وقد طال بهم السير وامتنع عنهم الماء حتى رأوا الموت جهارا ويئسوا من الحياة ، واذا بعبد المطلب تنفجر من تحت راحته المياه فيسلمون له بالأمر كله ، واذا بعبد المطلب يعود ظافرا الى مكة ليكثر من ولده بزواجه من فاطمة المخزومية ، فاذا ما كا فى الفصل الثالث شهدنا عبدالمطلب ، وقد اكتمل أولاده عشرة يريد أن ينى بنذره الذى نذره يوم تنفجر الماء من زمزم ، ورأى القوم من حوله يكاثرونه بما لهم من ولد . . . وتقع القداح على عبدالله فيذعن لقضاء أبيه فيه ، ثم يفديه فلا يفدى الا بمائة من الابل ، واذا بعبدالله يعود سالما الى أهله لتخطب له <sup>أحسب</sup> زوجة "أبيه" آمنة بنت وهب . . . فاذا ما كا فى الفصل الرابع ، فهذا عبدالله وقد بنى بآمنة وهو يتركها هذا الصباح مسرعا الى أبيه الذى يختاره ليخرج فى غير قريش ، ويَقْبَلُ الفتى

أن يفادر عروسه راضيا غير ضَجِر ، وفى عودته اليها يلقاه غنا من بيت  
فى الطريق .. واذا بفاطمة الخثعمية ابنة "مُرِّ الخثعمي" صاحب المال  
المريض ، واذا هى محبة به منذ يوم الفداء ، واذا هى تحب اليه  
أن يتزوجها فينعم بشروطها كلها خالصة له ، وتقبل عليه تغريه كل الاغراء ،  
ولكن شيئا فيه يمنعه من التعادى معها فيتركها على وعد بقاء بعد حين ..  
ويذهب الى زوجه فيقبل ، ويقبل على زوجه اقبال الزوج الصب فى أيام  
زواجه الأولى .. فاذا ما عاد يمر بفاطمة أنكرت فيه شيئا قد ذهب ،  
واذا هى التى تصدِّف عنه وتصدِّ وتهمس قاتلة لصاحبها عاتكة " لا تهزنى ،  
فقد ذهبت آمنة بخير ما كنت أحب ! " .. فلما ما جاء الفصل الخامس  
عرفنا ذاك الذى كانت ترجوه ، حين يرتحل الركب بحمد الله ، ثم يعود  
الركب من غيره ، فقد ماض ومات فى يثرب واذا بزوجه تعلن بعد حين  
أنه قد حملها أمانة ترى النور فى يتم ، وتهمس فاطمة ان تعرف النبأ :  
" نذر وفداً ، ورحلة ومضى ، وموت فى يثرب ، ان للقدور فى هذا الفسقى  
من قریش لسرا ! " (٧)

وعند هذا القدر من القصة يقف طه حسين الى حين .. حيث  
يروى قصة الفيل ، فيبدأ بها من قبل .. من يوم عرف "تَحَّجَّ اليهودية"  
على يد حَبْرَيْنِ من أحبارها ، فَهَادَ ونشر دينه فى اليمن الى أن مات ،  
فخرج "حسان" بجيش لنشر الدين ، ويغدر به أخوه "عمرو" فيقتله ويمود بالجيش  
ويتولى ملك حمير ، بل ويرتد عن الدين ، ويطول عذاب عمرو بجريمته  
فينتحر ، ويتولى السلطان غدرا صهره "ذر الشناتر" الذى يستأثر بالأمير  
كله فى غلظة وجفوة حتى يقتل ابنته وابنها ، ويترك أخا عمرو يضمر له  
غدرا أشد وتكالا أسوأ ، ولكن "زُرْعَةَ بن تَحَّجَّ" يفتك بالفادر ، فيرد يده

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٥٣

(٢) على هامش السيرة ج ١ ص ٦٤



ويجلس على عرش تيج ويسمى "يوسف" ويلقب "ذا نواس" ، ويمود الى اليهودية  
ياخذ الناس بها أخذا ..

واذا بالرواية تقف لتحكى قصة دخول المسيحية بلاد العرب على يد  
" كيمون " الذى فرّ بدينه الى بلاد العرب ، فتصر أهل نجران على يديه ،  
وينفس اليهود على نجران تنصرها ، فيدسون لها عند ذى نواس فيغير على  
نجران يحرقها ويقتل أهلها تقتيلا ..

وينتقل الحديث ليفدو على لسان راهب من الاسكندرية ، حمل الى  
الدير مالا وجواهر ، وجاء اليه قانتا ينتظر ، فلما أقبل عليه أهل الدير  
يحدثونه .. مضى يحكى لهم قصة هذه المعونة التى طلبها النجاشى  
لينقم من ملك يهودى عرق المسيحيين فى نجران من بلاد العرب ،  
وطلبها من قيصر فأسهم هذا الراهب ، وكان تاجرا كبيرا بتقديم السفن ،  
ثم سافر معها ليصحب الجيش الكبير المنتقم الذى هجم اليمن .. وينتصر  
الجيش ويسيطر سلطانه على اليمن ، ويأخذ بشار أولئك الشهداء الذين  
حرقهم ذو نواس .. ولكن سرعان ما يدب الخلاف بين "أرباط" قائد الجيش  
وبين غيره من زعماء الجيش وعلى رأسهم "أبرهة" فأرباط يرى أن رسالة  
البعثة قد تمت ، وكفى ما سفك من دماء ، وأما أبرهة ومن معه فلا  
يريدون الا أن يفرضوا النصرانية على القوم فرفضوا ، ويحطوهم عليها بقوة السلاح .  
ثم يكاد الخلاف يؤدى الى معركة بين الأحباش لولا أن يحسموا الأمر  
بجائزة بين القائدين تنتهى بقتل أرباط وتولى أبرهة الأمر .. فأقام  
فى صنعاء كنيسته لم يعرف أهل هذه البلاد مثلها فخامة وضخامة ، الا أن  
أبرهة يضيق أشد الضيق حين يرفع اليه نبأ تطييع الكنيسته بالقاذورات ، وأن  
هذا الأمر لا يمكن أن يقدم عليه الا واحد من تهامة الذين لهم بيت  
يقدرونه اسم الكعبة ، ويقسم أبرهة غاضبا ليهد من هذا البيت .. ثم  
يضى الراهب فى حكايته لنعرف كيف سار الجيش ، وكيف كان لقاء عبدالمطلب

لأبرهة، وكيف أخلى بينه وبين البيت. وتغضى القصة لتكشف عن وقعة الفيل كاملة، تلك التي ارتد فيها جيش أبرهة مهزوما ترميه طير أباييل. بحجارة من سجيل .. وهنا تنتهى قصة حادثة الفيل .. ويعود طه حسين الى قصة مولد الرسول، فيحكى طرفا من طفولته الأولى : ساعته ولادته حين يرى الحياة يتما قد ذهب أبوه، وأيام أن كان طفلا فى حجر أمه تحوطه بحنانها ورعايتها .. ثم طفلا فى حجر حاضنته "أم أيمن" بعد موت والدته، ثم يحكى الكاتب قصة طيبة وقصة هذا الصبي اليتيم معها، ثم يضى الكاتب بعد قليل ليحكى رعاية جده وجه له ورعاية عمه بعد موت جده، وكذلك رعاية حاضنته، ثم يستطرد ليمرض صورا من برّ هذا الصبي - إذ كبر - بمن كفلوه، وحضنوه وأرضعوه .

وبعد أن استعرضنا هاتين القستين نود أن نشير الى ما فهمنا من سمات أدبية وخصائص فنية :

١ - أولى هذه السمات: أن هاتين القستين يغلب عليهما طابع الرواية أو القصة الخفيفة، وقد سبق أن أشرنا الى ذلك، وفى قصة " ميلاد الرسول " نجد طه حسين يتتبع هذا الحدث منذ بدايته، فيبحث عن مقدماته الأولى، ويظل مع هذه المقدمات متسلسلا معها متقصيا ما فيها من دلالات وإشارات، حتى يصل الى النتيجة التى يريد أن يصل اليها .

وتوضيحا لذلك نقول : أن طه حسين، حين تحدث فى هذه القصة عن ميلاد الرسول ونشأته، لم يشأ أن يبدأ هذه القصة بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم، بل رجع بالقارئ الى ما قبل هذا الميلاد .. يوم أن أمر عبدالمطلب بخفر زمزم، وظل مع هذه الأحداث يتتبعها ويتسلسل معها، حتى وصل الى النتيجة التى يريد بها، وهو -

أن بيت عبدالمطلب هو البيت الجدير بأن يولد الرسول المنتظر منه ،  
والمقدمات التي ساقها الكاتب وتتمها تعطى هذه النتيجة : وهي أن  
الرسالة في بيت عبدالمطلب شيئا طبيعيا يتفق مع مجريات الأحداث ، وفي  
هذه المقدمات يورد الكاتب الشواهد والدلائل على ذلك ، فعبدالمطلب  
يؤمر من دون قومه بحفر زمزم ، وهو وحده الذي يتدفق الماء من تحت  
راحته في الصحراء وقد كاد قومه يموتون عطشا ، وعبدالله ولده هو الذي  
تمرض للتضحية ، ثم افتدى ليقضى مع زوجه أيا ما قليلة ، ثم هو يرحل  
فيموت غريبا . . كل هذه المقدمات العامة وما فصل فيها طه حسين من  
شواهد ودلالات وإشارات توحى بهذه النتيجة ، فكأنما هيأ التاريخ له  
ذلك ، وقاد بحوادثه وتصرفاته الى هذه النتيجة .

وفي قصة حادثة الفيل ، نرى طه حسين يفتح هذا الحدث منذ  
بدايته ، فيرجع بالقارئ الى مقدمات الأولى ، باحثا عنها ، فضلا لها ،  
حتى يضح يد القارئ على هذه الأحداث التي قادت الى حدث الفيل . .  
فيبدأ هذه القصة من يوم أن دخلت اليهودية أرض اليمن . . ثم ارتداد  
اليمن عنها بارتداد عمرو بن تبح بعد قتله أخاه حسانا ، ثم المسودة  
الى اليهودية على يد يوسف ذي نواس ، ثم قصة دخول المسيحية  
الى نجران ، والصراع بينها وبين اليهودية ، وما حدث في هذا الصراع  
من تحريق ذي نواس للمسيحيين ، ثم ما أعقب ذلك من أخذ قيصر  
- على يد النجاشي - بشار شهداء المسيحية . . ثم ما أدى اليه من  
انصار المسيحية على اليهودية . . وما تبع ذلك من قيام أبرهة ببنائه  
كعبة عظيمة في صنعاء . . ثم ما حدث لهذه الكعبة من تطهير  
بالتأذورات على يد جماعة من العرب . . فأقسم أبرهة ليهدم الكعبة  
التي يقدسونها ويعظمونها ، ثم ما حدث لجيش أبرهة - حين قصدوا الكعبة  
يتقدم هذا الجيش الفيلة - من صد عنه . . وما وقع في قلوبهم من هلع

ورعب ، اذ أرسلت عليهم طير أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل .

٢ - ونتيجة لهذا الطول الذى أدى اليه تنجح الكاتب للأحداث من بدايتها وتسلسله مع تلك الأحداث - نتيجة لهذا ، استطاع الكاتب أن يقف متأنيا عند كل شخصية وكل حدث ، يتعمق بنظرة شاقبة ما فى داخل هذه النفوس وما فى هذه الأحداث من دلالات ، فاذا بالكاتب يقدم نصوصه المتتابعة شائقة كأجمل ما تكون القصة الطويلة ، عميقة كأعمق ما يكون التحليل الجاد . . . واذا بالقارئ لا يحس أنه أمام رواية متكاملة الا اذا انتهى من قراءتها وراح يستعرض ما قدّم له من مشاهد وحوار صراع بين أبطال حكاياته . . . ليقوده آخر الأمر فى رفق وأناة الى حديث هذا الحدث الذى قصد اليه أول الأمر قصدا .

٣ - نجح الكاتب - نتيجة لهذا التنجح الدقيق للأحداث والشخصيات - فى تصوير الأحداث ورسم الشخصيات نجاحا كبيرا ، وأرى القارئ شخصيات هاتين القستين واضحة القسمات بيئة الملامح ، يمثلون جوانب الخير والشر فى الانسانية أصدق تمثيل ، كما أنه نجح فى رسم صورة لتلك الأحداث حين صور الهياكل التى تدور فيها أحداث روايته ، وذلك حين قدم للقارئ هذه الهياكل تقديما يجسمها ويوضحها ، ويصور أرضها وسماؤها وجبالها وصوامعها ، كما يمثل عاداتها وتقاليدها وأخلاق أهلها وطبائعهم . . . كما يجسد صراعاتها ومشكلاتها والخلاقات التى تنسابها فتغير من أمرها وأمر أهلها .

٤ - نجح الكاتب - فى كل قصة على حدة من هاتين القستين - فى تنجح الأحداث وتنظيمها من بدايتها ، كما نجح فى ربط الأحداث ربطا منطقيا متسلسلا ، كل حدث يقود الى ما يليه بحيث تهدو الأحداث طبعية متشابهة حتى تصل الى نهايتها المرسومة ، فلا يشعر القارئ

بفجوة بين الأحداث ، ولا بفراغ بين أجزائها، يسند هذا التسلسل مواقف مرسومة في دقة ، وحوار يسيرٌ سَلِسٌ ، يقرب الأفكار للقارئ تقريبا ..

هذه هي السمات العامة لهاتين القصتين وما فيهما من نـسـاج

فنية .

وإذا كان شيء قد بقي مما يمكن أن يكون مأخذا يوجه اليه مـاء

فهو :

المأخذ الأول : أن طه حسين قد قَصَلَ بين أحداث قصة مولد الرسول بقصة حادثة الفيل ، ولكن هذا المأخذ مع وجاهته يمكن أن يدفع بشيئين :

الأول : أن طه حسين وهو يتحدث عن الأحداث التي سبقت ميلاد الرسول ، كان لا بد أن يتحدث عن تلك الحادثة الهامة ، التي ولد الرسول في العام الذي وقعت فيه ، ولعل الذي مَكَّن طه حسين من أن يترك أحداث السيرة قليلا ريثما يحكى قصة حادثة الفيل ، هو أن طه حسين وقف على " هامش " السيرة ، ولم يقف وسطها ولا بعيدا عنها .. وقف المؤلف في هذا الكتاب على " هامش " السيرة ، لم يقف في وسطها ولا بعيدا عنها ، بل على هامشها ، وقد كان من حسن التوفيق أن اختار هذا الموقف الذي مكّنه من أن يعتمد عن السيرة أحيانا إذا دعا لذلك داع ، ثم يعود إليها بعد أن يُحَلِّقَ بالآفاق مُعَرِّجًا على بلاد الروم والأحباش واليمن ، وقد اضطر الى أن يعتمد عن السيرة قليلا لكي يشرح لنا ماذا دعا أبرهة الأشرم الى الاغارة على البيت الحرام في العام الذي قدر للعالم فيه أن يستقبل أكرم أبنائه وأشرفهم .

كان لا بد للمؤلف أن يعتمد عن السيرة قليلا لكي يشرح لنا كل هذه الحوادث، واضطر لأن يقوم بهذا الشرح في خمسة فصول ( من السادس الى العاشر ) تحس أثناء قراءتها أن المؤلف يكتب في شيء من السرعة ولا يجاز، كأننا يخشى أن يطول غيابه عن مكة وأهلها ، وعن السيرة وما يحيط بها ، فهو يريد أن يسرع بالعودة اليها ، وهو لهذا مضطر أن يُلَخِّصَ الحوادث على خطورتها " تلخيصا " ويكتفى في بعض المواضع بأن يُلَمَّ بها المأما... (١)

الثاني : أن اتهم الكاتب بقصة حادثة الفيل بين ثنانيا قصة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد يبدو للنظرة العامة فاصلا بين أحداث القصة الواحدة ، وحشواً يفسد تسلسل القصة وتتبعها، ولكن مَنْ يعمق النظرة يرى أن قصة حادثة الفيل تمثل جزءا من قصة مولد الرسول بصفتها احدى الدلائل والمصادر التي تتبعها طه حسين قبل مولد الرسول ، ايذانا وايماء ، إشارة الى قرب مولد هذا الرسول .

ولعل هذا المعنى هو الذى يؤكد طه حسين فى القصة نفسها — بعد انتهائه من قصة الفيل —

يقول طه حسين مصورا ما يدور فى نفس عبدالمطلب : " كان الشيخ يضحك فى نفسه ضحكا حزينا حين كان يفكر فى غرور قريش وتقديرها أن الله قد رد طاغية الجحشة ، وأرسل عليه وعلى جيشه ما أرسل من الطير الأبابيل ، تكريما لها وإيثارا... كلا . كلا . لم يهزم الفيل وأصحاب الفيل أكراما لقريش ، وإنما هى آية أجراها الله لأمر يحلمه هو ، ولا يعلم الناس منه شيئا " (٢)

(١) مجلة الرسالة بتاريخ ١٨/١٢/١٩٣٣ " من مقال للدكتور محمد عوض محمد "

(٢) على هامش السيرة ج ١ ص ١٤٩ .

المأخذ الثاني : هو ذلك الذى يمكن أن يوجه الى قصة مولد الرسول: وهو عدم تقيد الكاتب بالترتيب الزمنى للحوادث ، وذلك حين يسهب فى وصف شخصية أم أيمن خاضعة الرسول اسبابا يجعله يصف حياتها منذ ولادة محمد صلى الله عليه وسلم الى أن شهدت عهد أبى بكر وعمر وعثمان .. ثم يعود بعد ذلك الى حديث الرضاة ووفاة عبدالمطلب.

وهذا المأخذ يمكن دفعه بما دفعنا به المأخذ الأول ، وهو أن وقوف الكاتب على " هامش السيرة " يمكنه من الابتعاد عن السيرة اذا دعا داع ، ولعل الداعى هنا هو إعجابه بشخصية أم أيمن .. كما يمكن دفعه أيضا بأن طه حسين لا يكتب فى السيرة نفسها ، بل فى دراسات مستقل بعضها عن بعض .. " وهناك فائدة أخرى استفادها المؤلف من موقعه " على الهامش " ذلك أنه استطاع ألا يتقيد بالترتيب الزمنى للحوادث فاذا بدا له أن يسهب فى وصف شخصية راقته وأعجبتـه اندفع فى وصفها الى النهاية ، لا يلفته عن ذلك حادث أو خطب ، فقد أعجب - مثلا - وحق له أن يعجب بشخصية أم أيمن أو فى النساء ، حاضنة النبى ، فلم يزل يصف حياتها منذ ولادة محمد بن عبدالله الى أن شهدت عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، ثم يعود بعد ذلك الى حديث الرضاة ووفاة عبدالمطلب ، وهذه الخطة التى ألزم بها المؤلف نفسه قد تهدو غريبة وربما اعترض عليها بأنها تدفع بالقارئ من أول السيرة الى عصر الخلفاء الراشدين ، ثم تعود به مرة أخرى الى بدء السيرة ، ولا تزال بالقارئ هكذا ذهابا وإيابا ، ومع أن لهذا النقد وجاهته التى لا شك فيها ، نلتصق\* للمؤلف عذره بأن الذى يريد أن يكتبه ليس حديث السيرة بالذات ، بل دراسات مستقلا بعضها عن بعض ، وفى وسع القارئ أحيانا أن يطالع الفصل مقتطعا من الكتب فلا يكاد يفتقر

(\*) فى الأصل : " فان للمؤلف " ، وهو خطأ أصلناه .

الى ما سبقه . (١)

\* \* \*

### ٣ - القصة التي تصور المعنى وتبرز الفكرة :

وهذا النوع من القصص لا يعنى برسم الشخصيات وتصوير الأحداث قدر عنايته بإبراز المعانى ، وتصوير المواقف ، وتجلية الأفكار ، وغالباً ما تعنى القصة من هذا النوع بتركيز الضوء على إبراز جانب معين من جوانب الحياة ، أو تصوير فكرة معينة تريد تصويرها ، أو رسم موقف معين تريد رسمه ، أو اظهار زاوية من زوايا شخصية معينة تريد اظهارها ، أو الكشف عن معنى يبدو من خلال حدث تريد القصة كشفه .

وإذا ما عدنا الى كتاب " على هامش السيرة " فانتا نجد هذا اللون من القصص متوافراً فيه ، وأن طه حسين ، كما وقف باسم الشخصية ، ويصور الحدث عوقف يبرز المعنى ويرسم الموقف ويجلى الفكرة ، كما سبق . أن أوضحنا ذلك عند الحديث عن موضوع هذا الكتاب .

ومن القصص التي تمثل هذا النوع فى كتاب " على هامش السيرة " قصص " الفيلسوف الحائر " و " صاحب الحان " و " نادى الشياطين " و " الوفاء المر " و " طبيب النفوس " و " شوق العجيب السرى " و " الحبيب " و " القلب الرحيم " ، وقد سبق أن ألمح البعث السرى مضامين هذه القصص .

ويعيننا هنا أن نقدم احدى هذه القصص للقارئ ، ونتناولها بالحرض والتحليل ، للتدليل على هذا النمط من القصص فى هذا الكتاب ،

---

(١) من مقال للدكتور محمد عوض محمد : مجلة الرسالة بتاريخ ١٨ / ١٢ / ١٩٣٣



ولتكن هذه القصة قصة "الفيلسوف الحائر"

وتبدأ هذه القصة بحوار طويل تمتع بين حاكم المدينة الرومانسى، وبين صديقه : "كاليكراتيس" و"أندروكليس"، حول ما يريد، قيصر من رقابة على دين الناس، يفرض عليهم المسيحية، أنا، الليل وأطراف النهار، وحول ما يريد، هؤلاء، النفر من عبادة حرة لآلهة اليونان والرومان القدماء، الذين يباحون لهم اللذة والمتعة بلا خوف من عقاب أو ارباب، وحول التقية التى يريد، حاكم المدينة، فيقتصر أن يقسموا المسألة بين قيصر وآلهتهم، فقصر ومسيحيته لهما النهار، والآلهة واللذة التى يباحون لهم الليل .. والحوار يطول والمناقشة طريقة شائعة لولا أن الليلى يؤذن بانتهاء . ونحن نعلم أن الحاكم يريد ارضا، قيصر وأن أندروكليس يريد ارضا نفسه، وأن كاليكراتيس لا يكاد يرضى عن شىء، فنحن حين نخلو الى الأخير، نرى هذا الصراع الفكرى الحاد الذى يحجب اليأس، الخلاص بالموت من هذه الحيرة العقلية الرهيبة التى يحسها تغزقه تعزيقا .. ثم يذكر سقراط وما كان بينه وبين أصحابه من حوار فى خلود النفس، فاذا به يلجأ الى قراءة هذا الحوار هربا من نفسه ومشكلاته ..

ويضى طه حسين بكاليكراتيس يقطب معه مختلف الطول بين الهرب من المدينة، أو تحدى القيصر وتقبل المقاب، أو مداراته وصانته، وحتى يلقى راهبا يزور حاكم المدينة فيضيان الليل فى حديث طويل، وحسوار قد حول حرية العقيدة وحرية الرأى، وذاك القلق الذى يساور صاحبنا فلا هو يستقر على الرثنية التى يهبو بحقله عنها، ولا يقف عند المسيحية التى يريد القيصر أن يحمله عليها حملا، وبأبى هذا ايمانه بحقله واحترامه له .. وهو يريد أن ينكر كل شىء والراهب يؤكد له أن الانسان بلا ايمان ليس انسانا .. ويرتحل الراهب تاركا فى نفس كاليكراتيس قلقا واضطرابا .. وتاركا فى قلبه حنانا ورقة، ويتبعه كاليكراتيس بعد حسين

الى ديره الذى يقيم به . وهناك يلتقى ببجيرى الذى يشره بنور جديد ينبثق من الجزيرة وتهدو علاماته كل حين . . . ويفزع كالليكراتيس الذى فر من المدينة وماله فيها من جاء بحثا عن الحرية ، يفزع وراءه بجيرى بحثا عن الايمان فيضحي بحريته اذ يأسره أعراب فى بعض الطريق . . . وتتطلب به الحياة عبد الجسد طليق الروح ينتظر على أمل . . . الى أن يلتقى بشيخ من قريش ، هو " زيد بن عمرو " الذى فر مثله من بلاد المـسـرب . بحثا عن الايمان - الى بلاد الروم ، ولكنه يعود من رحلته خاوي الوفاض ، ويلتقى كالليكراتيس " صبيح " - وقد غدا هذا اسمه بعد الأسر - بالشيخ المبرى يتناقشان ويتبادلان البشارات ، ثم يمضى الاثنان الى قريش ، فقد دنا الميعاد ، فاذا بهما يقتلان دون أن يوصلا الى غايتيهما .

هذا هو محتوى القصة وما يدور فيها من حوار وما يتخللها من أحداث . أما سمات هذه القصة فتتجلى فيما يأتى :

أولا : هذه القصة لا تعنى بتصوير شخصية ، ولا برسم حدث قدر عنايتها بإبراز فكرة ، وجلال معنى ، والشخصيات والأحداث فيها ليست مقصودة لذاتها ، بقدر ما هى مقصودة لإبراز هذه الفكرة ، وجلال هذا المعنى ، وهذه الفكرة وذلك المعنى : أن العالم آنذاك - قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم - كان يحترمه قلق روحى ، وشك فكرى ، وينتابه صراع عقدى ومذهبى . . . وأن هذا العالم يتنهاى لمقدم نبى أظل الناس زمانه ، وتوالت آياته وتتابعمت بشائره . . . أما القلق الروحى والشك الفكرى والصراع العقدى والمذهبى ، فيصوره الحوار الطويل الذى دار بين الأصدقاء الثلاثة : حاكم المدينة ، كالليكراتيس ، وأندروكليوس ، وما يحكمه هذا الحوار من خلاف فى رأى وتهاين فى الآراء والأفكار (١) . .

(١) على هامش السيرة ج ٢ ص ٦ - ٢٨ .

أما تهيهو العالم لمقدم نبي أظل الناس زمانه ، فيصوره الحوار السدى دار بين الأصدقاء الثلاثة وبين الراهب الشيخ <sup>(١)</sup> ، كما يصوره الحوار <sup>(٢)</sup> الذى دار بين الفيلسوف الشاب : كاليكراتيس ، و صديقه : الراهب الشيخ ، الذى تعرف عليه والتقى به عند صديقه : حاكم المدينة . . كما يصوره ذلك اللقاء الذى تم بين هذين الصديقين ، وبين الراهب بحيرى وما تم فى هذا اللقاء من حديث <sup>(٣)</sup> حول ظهور آيات النبي المنتظر وتتابع دلائله ، وما تم بين كاليكراتيس وبحيرى من حديث وحوار <sup>(٤)</sup> ، كما يصوره ذلك اللقاء الذى تم بين كاليكراتيس أو " صبيح " وبين الشيخ القرشى المتحلف : زيد بن عمرو ، وما تم فى هذا اللقاء من حديث <sup>(٥)</sup> حول آيات وشائر النبي المنتظر . . تلك الآيات والبهائى التى تجمعت فى محمد صلى الله عليه وسلم . .

ثانيا : لعلنا لا نتجاوز الصواب — بحد ما تقدم — اذا أطلقنا على هذه القصة " القصة الفكرية " أو القصة " الذهنية " لأن الكاتب يقدم من خلالها صراعا فى الأفكار ، ولقاء فى الآراء ، وحوارا متممًا حول المعتقدات والمذاهب .

ثالثا : نجح الكاتب فى تصوير هذا الصراع الفكرى والمذهبى نجاحا كبيرا ، كما نجح فى خلق هذا الحوار الذى دار حول المعتقدات والمذاهب

- 
- (١) على هامش السيرة ح ٢ ص ٣٩ — ٥١ .
  - (٢) المصدر السابق ح ٢ ص ٥٢ — ٦٩ .
  - (٣) المصدر السابق ح ٢ ص ٧١ — ٧٩ .
  - (٤) المصدر السابق ح ٢ ص ٨٢ — ٩٠ .
  - (٥) على هامش السيرة ح ٢ ص ١٢٣ — ١٣٦ .

الفكرية ... وذلك حين قدم الموضوعات الفكرية على بساط البحث ففى مناقشة تقدم حجج الأطراف جميعا ، وحين وقى الجدل الذى دار بين هؤلاء الأطراف حقه ، فأمتع القارئ — بما قدم — متعة عقلية صافية ، ترضى الذهن ، والعقل .

رابعا : نجح الكاتب فى تقديم هذا كله ، حين لفته فى شسوب قصص ، يقطع على القارئ الملل ، ويدفع عنه السأم .

خامسا : نجح الكاتب — أيضا — حين ربط بين هذا كله وبين أحداث السيرة برباط وثيق ، بل جعل منه تمهيدا طبيعيا لانتهاج ضوء الرسالة الذى أذهب كل طلق وقضى على كل شك .

## :: الفصل الخامس ::

### "طريقة طه حسين أو مذهب الفن"

- ١ - تعريف بطريقة طه حسين .
- ٢ - ألوان هذه الطريقة :
  - أ - تصوير الشخصيات .
  - ب - تصوير الأحداث .
  - ج - تصوير المعاني والخواطر .
  - د - تصوير الشخصيات الخيالية .
  - هـ - تصوير البيئة التي تدور فيها الأحداث .

١ - تعريف بطريقة طه حسين :

يستطيع القارئ المتأمل لفصول ، أو قصص ، على هامش السيرة " أن يتعرف على الطريقة التي عالج بها طه حسين هذه القصص ، أو بمعبارة أخرى : أن يتعرف على مذهبه الفني الذي تناول من خلاله هذه القصص .

وطريقة طه حسين في كتابه " على هامش السيرة " بل في غالب كتبه الأدبية الانشائية ، أن لم نقل : في كلها ، هي طريقة قلما تخطئها عين ناقدة ، أو تلتبس على قريحة نفاذة . . هذه الطريقة هي طريقة : الاستعراض التصويري .

والاستعراض التصويري : معناه أن طه حسين لا يتناول الشخصية — ان كان يتناول شخصية من الشخصيات القصصية — من جانب واحد أو زاوية واحدة ، بل انه يستعرض جميع جوانبها وزواياها ، ويظل يقلبها أمام القارئ هورا ما فيها من صفات ، وما تهجس به من خواطر وخطبات ، متبها أطوارها في مراحل الحياة المختلفة ، رأسا ما حولها من بيئتي الزمان والمكان ، حتى يعطى القارئ الصورة عنها كاملة . . وطه حسين في هذا الاستعراض التصويري ، لا يعطى القارئ الصورة التي يرسمها عن الشخصية عن طريق السرد ، أو الوصف الجاف الذي هو أشبه شيء بالتقارير ، بل يصور الشخصية بجوانبها وأبعادها النفسية والمعنوية ، متخذاً في هذا التصوير جميع أدواته : من كلمات وجمل حاوية صورا خيالية — تشبيه ومجاز واستعارة وبالفة ومقابلة . . حتى يعطى الصورة التي يرسمها حقها من التصوير المؤثر في نفس القارئ أو السامع .

.. وان كان طه حسين يتناول حادثة من الحوادث أو واقعة من الوقائع ، فانه لا يتناولها من جهة واحدة أو زاوية معينة — من جهة تاريخية ، أو زاوية اجتماعية مثلا — بل يتناول الحادثة أو الواقعة من

جميع زواياها وجوانبها ، مستعرضا هذه الزوايا وتلك الجوانب ، بل انه ليمتدح الحادثة أو الواقعة قبل أن تحدث أو تقع ، حين يتحدث عن مقدماتها وأسبابها ، كما سبق أن أشرنا .

ولا يقف طه حسين في رسم الحادثة أو الواقعة عند هذا الحد ، بل انه ليلم بأطراف الصورة كلها ، حين يصور الشخصيات التي صاحبت هذه الأحداث وتلك الوقائع ، وحين يصور البيئة التي وقعت فيها هذه الأحداث وتلك الوقائع ، وما يسودها من أحوال وأعراف وتقاليد ومعتقدات ، وهو في هذا كله لا يترك نامة ولا صوتا ولا حركة الا صورها وأعطاها حقا من التصوير .

وطريقة طه حسين هذه لا يستعملها فقط حين يصور شخصية أو حادثة بل يستعملها أيضا حين يصور الشخصيات الخيالية التي اخترعها ، بل حين يصور المعاني المجردة والخطرات النفسية ، فتستعمل هذه المعاني المجردة ، وتلك الخطرات النفسية — بعد تصويرها — الى أمور حسنة أو كالحسية ، بل انه ليستعمل هذه الطريقة ، وهو يصور المناظر الطبيعية .

كل هذا يفعله امعانا في رسم الصورة واستعراض جوانبها بما فيها من أحداث وشخصيات ، وما يحيط بالحدث والشخصية من زمان ومكان . . " فاذا قصّ أو وصف أخذ عليك أقطار الحوادث والأشياء ، ودخل السى أعماق الشعور وجوانب النفوس مدققا مستقصيا يخشى أن يفوته شيء " (١)

ويتحدث الدكتور محمد عوض محمد عن كتاب " على هامش السيرة " وطريقة طه حسين فيه فيقول " . . ويمتاز هذا الكتاب الجديد — يقصد :

---

(١) الأسلوب : ص ١٢٨ ، ١٢٩ للاستاذ أحمد الشايب .

" على هامش السيرة " - عن سابقه - يقصد : " الأيام " ، و " فسى الصيف " - بأن المؤلف لم يلجأ هنا الى حوادث حياته الخاصة ، بل انصرف الى الأخبار القديمة ، فالتمس وحيه بين صفحاتها ، والذي يدهش له القارئ أن يرجع الى تلك الكتب القديمة ، ثم يعود الى : ( هامش السيرة ) فيرى (١) أمامه شيئاً مبتدعاً مخترعاً ، وجدة جذابة ، وطرافية معجبة ، ومع هذا كله لا يرى خروجاً عن الأصول التي استوحاها المؤلف واستلهمها .

لقد اعتمد طه حسين على الكتب القديمة ، كما اعتمد شكسبير على قصص " فلو طرفون " وأمثاله ، وشتان بين السبيل التي سلكها شكسبير وبين الأصل الذي استرشد به . . . وكذلك كان طه حسين يتناول الحادث الذي يمر به قارئ السيرة عجلاً ، دون أن يلفت نظره منه شيء ، ويتناوله ثم يأخذ في تصويره وتحليله وإبرازه وإظهاره وتعليقه على جوانبه (٢) ، حتى يشب أمام العين وثوباً ، ويبدو ما في الحادث اليسير (٣) من حكمة وشعر وقوة وسحر .

وأكبر شيء ساعد طه حسين على تأليف كتابه هذا : (هو) مقدرته على تبين الموقف الذي ينطوي على شيء كثير من الحكمة ومن الشعر ، فيختار هذا الموقف ، ثم لا يزال به يعقله ويجلوه حتى يهديه للمبين رائحة مجسما ملموسا .

- 
- (١) في العبارة شيء من الركة الأسلوبية ، ولما قال : عندما يرجع الى تلك الكتب القديمة ثم يعود . . . أنه يرى " لكان أوضح " .
- (٢) في الأصل : نواحيه وهو خطأ .
- (٣) في الأصل : البسيط وهو خطأ .



وقد عده التوفيق في الكتاب كله ، فان الفصول - وان تفاوتت أحيانا - تشهد جميعها بحسن الاختيار والابداع في التصوير فلم يمسد أشخاص هذا الحديث ، أسما مجردة أو ألفاظا مسحوقة بل غدت <sup>(١)</sup> كائنات حية بارزة نكاد <sup>(٢)</sup> نحسبها ونراها تتحرك بين أيدينا <sup>(٣)</sup> .

أما طبيعة هذا التصوير الذي يتخذه طه حسين طريقة ومذهبا فهو التصوير الحسي الذي يرد المعاني والخواطر إليه المناظر والحوادث صوراً حسية لو كالحسية ، فهذه يعيدها كما بدأت أول مرة (حتى) ، توشك أن تكون مجسدة ، وهو يخلق على هذه الصور الحسية لونا من ألوان الحياة والحركة ، ولكنها الحياة اللطيفة ، والحركة الوثيدة التي تسدب على هيئة ، وتخطر في رفق ، فالسرعة النابضة ، والحيوية الدافقة ، ليستا من مطالب هذه الصور في يوم من الأيام <sup>(٤)</sup> .

## ٢ - ألوان هذه الطريقة :

هذه هي طريقة طه حسين ، وذاك مذهبه . . . ويحسن بمسند عرضنا لتلك الطريقة وذاك المذهب ، أن نورد من الشواهد والأمثلة من كتابه هذا ما تدل به على ذلك .

## أ - تصوير الشخصيات :

لقد عني طه حسين - فيما عني به - بتصوير الشخصيات ورسمها ، وأبدع في ذاك التصوير وهذا الرسم أيما ابداع ، وأحال هذه الشخصيات

---

(١) في الأصل: أصبحت أشخاص . . . وليست أسما مجردة وألفاظا . . . بل

كائنات حية . . . هو أسلوب ركيك مفكك .

(٢) في الأصل: نكاد أن نحسبها ، وأن بعدد " نكاد " شاذة .

(٣) مجلة الرسالة بتاريخ ١٨/١٢/١٩٣٣ مع بعض التصرف .

(٤) كتب وشخصيات ص ١٠٥ . وفي الأسلوب وكه ضعف تأليف وانح بان . . .

من مجرد الفاظ ومض أسماء الى كائنات حية نحسها ونراها ، وأعاد صورتها في الأذهان شائعة ماثلة كأنما تدب فيها الحياة وتتحرك .

ومن الشخصيات التي أبدع طه حسين في تصويرها — ما نسورده على سبيل المثال — شخصية عبدالمطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشخصية أبي جهل ، وشخصية وحش قاتل حمزة رضي الله عنه .

وقد سبق أن أشار البحث الى كيفية تصوير طه حسين لشخصية أبي جهل ورسمها بكل أبعادها وجوانبها ما ذكر في موضعه ، فلا يفاد هنا .

ومضى أن نشير الى تصوير طه حسين لشخصية كل من عبدالمطلب ، ووحش . .

أما شخصية عبدالمطلب ، فقد أجاد تصويرها ورسم هيولها ووصف حياتها ، واستطاع أن يجسم صورتها ، حتى كأنها حية تتحرك ، ففى جميع مراحل حياتها وعلى جوانب هذه الحياة ، منذ أن أخذ عبدالمطلب في حفر زمزم حتى رقادة رقدة الموت . . وكانت هذه الصورة هي التي تقول في النهاية : ان عبدالمطلب كان انسانا مؤمنا واثقا بربه مديبرا حكيما . .

وحسب البحث أن يشير الى نماذج من هذا الوصف الدقيق التصوير المتسق التعبير كما في قوله :

" كان عبدالمطلب سمح الخبيح ، رضى النفس ، سخي اليد ، طموح المشرة ، غلب الحديث ، وكان عبدالمطلب أيضا قوى الايمان ، متمسك

قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، ومحسها ، ويخضع لها ولكنه لا يتهينها ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً ... (١)

" فلم يكمل للفتى شبابه حتى كان فتى من قریش ، ولكنه يمتاز عن بقية فتیان قریش : فيه ذكائهم وفطنتهم ، وفيه إباءهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة لم تكن بالوفقة عندهم ، وفيه شدة في الدين قلما كانوا يرضونها أو يسمون لها ..

على أن خصلة أخرى ميزته عنهم أشد التمييز ، فلم يكن يصـُـدِرُ في حياته ، كما كانوا يصـُـدرون عن الروية والتفكير وطول التدبر ، وانما كانت تدفعه الى الحمل والاضطراب في الحياة قوة خفية يحسها ويأبى عليها ويفلو في الإباء ، ولكنه يضطر الى أن يذعن لها ويأتمر بأمرها " (٢)

ويصفه بعد مجيء الهاتف اليه أول مرة يأمره بحفر طيبة (زمزم) وما أعقب ذلك من خوف وذعر ، وما انتهى اليه بعد ذلك من نوم هادئ ... فيقول : " ها هوذا مضرق في نوم هادئ مطمئن ، وقد هدا من حوله كل شيء ، واطمأن في نفسه وجسمه كل شيء ، ولكن ما هذا الشخص الغريب [الذي] يقبل ساعيا اليه في أناة ، حتى اذا دنا منه قال له في صوت رفيق غريب فيه أنس وفيه وحشة : " احفر برة " (زمزم) وجسم الفتى هادئ مطمئن ، ولكن نفسه شائرة مضطربة ، ولسانه يتحرك في ثقل ، وصوته ينبعث من بين شفتيه خفيفا رقيقا بهيذ ، الكلمة : " وما برة ؟ " فينصرف الشخص ، وينقطع الصوت ، ويفيـُـق النائم وجلاً مذعورا ، متعجبا آملا ، ويفكر ويقدّر ويتقلب ، ثم ينهض

(١) على هامش السيرة ح ١ ص ١

(٢) على هامش السيرة ح ١ ص ٢

فيسأل السماء ولكنها صامتة ، ويسأل الأرض ولكنها ساكنة ، ويسأل الأصنام الكعبة ولكنها مغرقة في البله والوجوم ، ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام ، ، فيهييم على وجهه يلتبس في الحركة والاضطراب نسيان هذا الطائف الذي يفزع ويفزع .. (١)

ويصف خواطره النفسية وحديث نفسه اليه بعد مجئ الطائف اليه في المرة الثانية ، وتردده بين الفرار من النوم حتى لا يرى ذلك الطائف الذي أنزعه ... وبين رغبته في النوم أملا في أن يلم به ذلك الطائف .

" ونبض الفتى ثقيلًا ، فمشى الى بيته متباطئا يود لو فر من النوم ، ويود مع ذلك لو نام فألم به هذا الطائف .. انظر اليه ! انه ليتردد : أيقظ بنفسه في أمواج النوم هذه التي تتمثل أمام عينيه ؟ أم يبقى على الشاطئ يقظان يداعجه النوم ولا ينام ؟ "

ليتردد ما استطاع ، ليمتنع على النوم ما وسعه الامتناع ، فإن هذه الأمواج الصطخية أمامه تستطيع أن تطفئ على الشاطئ فتغمسه ، وتغمر معه كل شيء .

وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها ، وما استطاعت أن تمتنع عليها جبال مكة هذه التي تحيط بها من كل ناحية ! ! انظر ! أتري حركة ؟ اسمع ! أتحس نهاية ؟ كل شيء هادئ ، كل شيء مطمئن ، فما نهوك وما امتناعك ؟ ! هلم الى النوم لا تخف شيئا ، ان هذه الأمواج تريح ولا تفرق .. أقبل الى هاتين الذراعين اللتين تمتدان اليك ، فستمس بينهما كل شيء ، ومن يدري ! لعلك تجد بينهما

---

(١) على هامش السيرة ج ١ ص .

شفاء لنفسك الحائرة ..

وأطبق الفتى جفنيه واندفع أمامه ، فاشتعلت عليه أمواج النـوم  
كما اشتعلت على غيره من الناس والأشياء ... " (١)

هذه أمثلة ونماذج أوردناها على سبيل المثال ، ويستطيع القارئ  
أن يجد صوراً لعبد المطلب مثل هذه الصور التي أوردناها - في أكثر  
فصول قصة " ميلاد الرسول " ..

" وقد أبدع طه حسين أيما إبداع في وصف شخصية عبد المطلب  
ووصف حياته منذ أن أخذ في حفر زمزم إلى التقائه بأبرهة الأشرم ، إلى  
رقاده رقدة الموت بين الأبناء والأحفاد .

يصف طه هذا كله فنرى الصور أمام أعيننا ماثلة قوية لا لبس فيها  
ولا إبهام ، في الكتاب الشئ الكثير الذي يستثير الإعجاب ، ولكن أكبر  
ما يعجبنا فيه هذا الإبداع في تصوير الأشخاص عامة ، وشخص عبد المطلب  
خاصة ، ثم هذه الحياة التي تنتظم المناظر والمواقف ، بحيث يرى القارئ  
نفسه وقد نقل نقلاً إلى ذلك الزمن وتلك الأمكنة " (٢)

أما شخصية " وحش " العبد الجش الذي قتل حمزة رضي الله  
عنه ، فيصورها طه حسين في قلقها وخوفها وندمها أجمل تصوير كما يصور - قبل  
ذلك القلق والخوف والندم بعد مقتل حمزة - رغبتها في الحرية وجوهرها  
على قتل حمزة ، كما يصور " وحشياً " لحظة استتاره بشجرة ينظر إلى " حمزة " ،  
ويرتقب غفلة حتى يضربه الضربة القاتلة التي ينال بها حرته .

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٥٥ .

(٢) من مقال للدكتور محمد عوض محمد بمجلة الرسالة ١٨ / ١٢ / ١٩٣٣ .

وطه حسين يعرف كيف يختار الشخصيات التي يصورها ويبرزها جلية للقارئ؛ لما ينطوى عليه تصويرها من مغزى يريد ابرازه، وحكمة يقصد نشرها. وشخصية وحشى من الشخصيات التي قد يمر بها قارئ السيرة مر الكرام فتحفظه جريمتها ويحفظه اسمها، فيقطع من قلبه كل عطف عليها وكل اشفاق، ولكنها عند طه حسين من الشخصيات الجديوة بالدراسة... الجديدة بتلك القصة التي صور من خلالها تلك الشخصية، تصويرا كشف للقارئ أعماق ما فيها... ورفع الحجب عن هذا الحذاب النفسى الأليم الذى يختفى وراء الجريمة الشنيعة والجلد الأسود السميك...

لقد عرف طه حسين كيف يتخير الشخصية الانسانية التى تشل الندم أصدق تشيل، لأنها عاشته وعانته، وحين صورها هذا التصوير السلس اليسير جعل القارئ يعيشه ويعانيه، واذ بمواطنه الانسانية تجيش بالشفقة والمطف، وقد تجاوزت بالرحمة على هذه النفس المعذبة... بعدما أحفظته جريمتها وأحفظه اسمها...

وحسب البحث أن يشير الى صور من هذا الوصف والتصوير، وذلك حيث يقول المؤلف:

" انه رجل لم يعرف الناس من أول أمره الا أنه كان عبدا حبشيا لسيد من سادات قريش فى مكة وهو "جَهِيرُ بْنُ مَطْعَمٍ"، وكانوا يرونه فستى شديد الهأس عظيم الأيد، شجاعا جريئا، يعمل لسيدته فيما يحمل فيه الرقيق، ولو أن الرق لم يعرض له لكان خليقا أن يسود فى بلده حين قومه هؤلاء السود. ولكن الرق عرض له كما عرض لكثير من أشرف الروم والفرس، فالتقاء الى هذا الحى من قريش، وفرض عليه ما يفرض على الأرقاء من الخنوع والخضوع ومن الذلة والهوان، ومن العمل فيما لا يعمل فيه أصحاب النجدة والمروعة من الناس. وكان هذا النتى ضيقا بحياته

أشد الضيق ، منكرا لها أعظم الانكار ، جامحا حين يتاج له الجموح ،  
شامسا حين يتهيا له الشمس ، لا يخفى بغضه للرق وطعمه في الحريرة  
مهما يكلفه ذلك من غضب سادته وزجرهم واعنائهم له والحاحهم عليه  
بالاعنائ (١)

ويصف لحظة ارتقابه حمزة وقتله اياه . . . فيقول :

" . . . فقد أخذ يرقب حمزة وهو يقوم من المسلمين مقام الأسد  
يذود عن أشباله ، يهذ الجيش بسيفه هذاً ، والناس يرونه من بعيد  
كأنه الجمل الأورق ، فتتملى قلوبهم لمنظره رعبا وينصرفون عن موقفه انصرافا ،  
وهو يتحداهم ويدعو فرسانهم ومفاويزهم . والعبد قائم قد استتر عنه  
بشجرة ينظر اليه ويرتقب غفلة ، وحمزة لا يراه ولا يحس بمكانه ، فلما  
أمكنته الفرصة هز حرمته حتى رضى عنها ، ولم يكن له بخير الحرية من  
السلاح علم . فلما تهيأت له الرمية رمى ، وإذا الحومة تصيب حمزة  
في مقتل فيخر صريعا ، والعبد قائم مكانه لا يرم يرقب أسد الله صريعا  
بعد أن كان يرقبه جائلا في الميدان " . (٢)

ويصف قلقه وخوفه بعدما أذغت جزيرة العرب كلها للرسول ، فأين  
المهرب ؟ " . . . ورأى ذات صباح جهوش المسلمين تدخل مكة ، واستيقن  
العبد أنه مقتول ان ظفر به المسلمون ، ففر وانطلق في الأرض يلتمس  
لنفسه مأمنا فلا يجده . هؤلاء المسلمون ينتصرون على العرب يوم " حنين " ،  
وهذه أرض العرب كلها تدعن للنبي ، فأين الملجأ من الله الا الى الله !!  
لقد أوى العبد الى الحائث ، وقاوم فيها المسلمين ما قاومهم أهلها ،

(١) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

ولكن وفد الطائف يتهيأ للسفر الى المدينة ، وما هى الا أيام حتى  
تذعن الطائف لما أذعنت له مكة ، والآن يفكر العبد فى مهاجرة [من]  
البلاد العربية كلها ، ولكن كيف السبيل الى الهجرة ؟ لقد أخذت عليه  
سبيل الحبشة ، وأخذت عليه سبيل الروم ، وانہسط سلطان النبی على  
الشمال والجنوب ، لقد كانت الهجرة ميسورة قبل الآن فلما الآن فقد تقطعت  
من دونها الاسباب " (١)

ويصف ندمه بعد أن عفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :  
وعاش وحشاً فى المدينة حراً كالعبد ، وطيلاً كالأسير ، وجعل الندم  
يحز فى قلبه حزاً ، ويمزق ثوبه تعزيقاً ، ويؤرقه اذا جن الليل ، ويعذبه  
اذا أقبل النهار (٢) . ولكن ندمه هذا لا يحوه بآلوه فى سبيل الله  
ولا جهاده مع المسلمين بل يظل يلزمه ويؤرقه ويقض مضجعه فيستعسين  
عليه بالخمر . . . ويظل على هذا حتى يموت . . . ولكن العرب يرتدون  
ويذهب خالد بن الوليد لقتال مسيلمة ، وهذا العبد يذهب معه ليقاتل  
فى سبيل الله بعد أن كان يصد عن سبيل الله . وهذا العبد يهزم  
حريته ذات يوم ، كما هزها يوم أحد ، ويتهيأ لرميها كما تهيأ يوم  
أحد ثم هو يطلقها كما أطلقها يوم أحد ، واذا هى تصيب رجلاً فتصرعه ،  
واذا الحرية التى قطعت حمزة قد شاركت فى قتل مسيلمة ، واذا وحشى  
قد قتل خير الناس وقتل شر الناس . وقد عفا النبی عن قاتل عمه  
وعفا المسلمون عن قاتل أسد الاسلام . ولكن نفس وحشى لم تعف عن  
وحشى ، ولكن دم مسيلمة لم يفسل من نفسه دم حمزة . وهذا العبد  
الحر يعضى مع جهوش المسلمين غلظاً ، فيقاتل الروم وينتصر مع المنتصرين  
ويستقر مع المستقرين فى مدينة "حصن" هذه ، ولكن بلاء أيام الردة وسلاء

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٨٥ .



أيام الفتح ، وما احتل في هذا كله من جهد ، وما ناضل في هذا كله  
عن الاسلام ، لم يفسل عن نفسه دم حمزة ، ولم يبرئ نفسه من الندم لمقتل حمزة ،  
ولم يبلغ الاسلام من قلب هذا الرجل ما بلغ من قلوب كثير من الناس فيمحو  
من قلبه ما قدم في جاهليته ، واذا هو يستمين على الندم بالخمر ،  
واذا هو يشرب ويسرف في الشرب ، واذا هو يضرب في الشرب فلا يمنع  
الحد عن معاودة الشرب . . . واذا هو معروف في أهل حصن بسكره  
اذا سكر ، ويصحوه اذا صحا ، واذا هو يسكر حتى يصبح مخوفا على  
من يدنو منه ، ويصحو حتى يصبح عاقلا حلو الحديث ، والندم يلح عليه  
حتى يُنْقَضُ الى نفسه تهفيضا ، ويصرفه عن الصحو صرفا ، وكلما مضت عليه  
الأيام ازداد امعانا في الشرب ، والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئا  
فشيئا ، وعقله يذهب قليلا قليلا ، والندم ماثل مع ذلك في نفسه ملهم  
بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا الى الفرار منه الا الى  
الشرب . وهو يضرب في الشرب وقد ضعف وفنى فلا يحتل الضرب  
فيموت . (١)

\*\*\*

#### ب - تصوير الأحداث :

ما لا شك فيه أن طه حسين قد أجاد تصوير الأحداث التي  
اختارها في هوامشه ، وأبدع في وصفها أيما ابداع ، واستطاع أن يلم بجوانبها  
المختلفة وزواياها المتعددة ، بل وأن يتتبعها منذ البداية ، ويتسلسل  
معهما حتى تصل الأحداث الى نهايتها ، كما أجاد رسم مسرح الأحداث

---

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ١٨٥ - ١٨٢ .

ويثبتها من زمان ومكان ، كما أجاد رسم الشخصيات التي تجرى حولها ومن خلالها هذه الأحداث ، وقد سبق أن أشرنا الى ذلك عند الكلام عن القصة الحديثة ..

وعسبنا - هنا - أن نورد بعض الأمثلة على ذلك ، من القصص الحديثة التي صورها طه حسين . ونختار بعض صور من قصة " ميلاد الرسول " ، وقصة " حادثة الفيل " ..

ففي قصة ميلاد الرسول : يصف طه حسين حنن عبدالمطلب وابنه حارث زمزم " فيقول :

" ... كان صوت عبدالمطلب يندفع بهذا الرجز عريضا يملأ الفضاء من حوله ، نقيا يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الأشياء . وكان كل شيء مستقرا لا يضطرب فيه الا هذا الصوت العريض النقي ، والا هذه الذراع التي ترتفع بالمعول قوية ، ثم تهوى به محشورة ، ثم تدع السى المسحاة فتغرف بها التراب في المكنل ، والا هذا الغلام الناشئ يرقب حركة أبيه ويسمع صوته ويرد عليه رجح هذا الصوت كلما وصل في الدعاء الى هذا البيت ..

لَا هُمْ فَكُنْصَدُقْ لَنَا الْأَمَانِى \*

حتى اذا امتلأ المكنل حمله بذراعيه الضعيفتين ، وأسرع في شيء من الجهد الى خارج المسجد ، فالتقى ما فيه ثم عاد ، وأبوه يرفع المعول فسى الجو ويهبط به الى الأرض ، ويملأ فضاء البيت بصوته العريض ، والمعول يتصب على جبينه ، ولكنه لا يحس جهدا ولا يجد أعيا ، وكانت الشمس قد ألفت على الأرض ردا من النور نقيا ، ولكنه ثقيل همد له كل شيء ، وأوى له الناس الى بيوتهم يقيلون ، وانقطعت له الحركة ، وخفت

الأصوات ، الا هذه الجنادب<sup>(١)</sup> التى يروقها وهج الشمس ، ويسكرها لهب القيط ، فتصدح بالفناء اذا سكت كل شئ<sup>(٢)</sup> .

وفى موضع آخر من هذا الوصف يقول : " . . . وأقبل الرجل وابنسه على السلعة فأصابا مما فيها فاهلين واجمين ، ما أحسب أنهما وجدا لما بهيان طعما أو حما له ذوقا ، يصرفهما عنه هذا الذهب الذى يتوهج فى الحفرة ، وهذا السلاح الذى يظهر أنه كثير ثقل . حتى اذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب الى الحفرة فيستخرج ما فيها ، فاذا غزالان من ذهب نقى ثقل ، واذا سيوف ودروع فيكبر ، ويرفع صوته بالتكبير ويسرع اليه أفراد ظيلون ، كانوا قد بدأوا يقدون الى المسجد ، كدأب قريش حين كانت تخف وطأة القيط ، فاذا رأوا هذا الكثر دهشوا ثم عصايتوا . . . " <sup>(٣)</sup>

وفى قصة ميلاد الرسول نفسها ، يصف طه حسين اقبال المراضع الى مكة حين ولد الرسول ، فيقول : " أقبل المراضع الى مكة عجافا نحافا ، تحلمهن حمر عجاف نحاف ويصحبهن أزواجهن ، قد مسهم الضر وأعياهنهم الكسب ، واشتدت عليهم السنة ، وأجذبت بهم الأرض ، فما يجدون الى أمن ولادة ولا حياة سبيلا ، وقد أقبلوا - كدأب أهل البادية - الى مكة ، يلتسون الرضعا أبناء السادة والمترفين فى قريش . . فلما ألقوا رحالهم ، انحدر المراضع الى مكة يعرضن أنفسهن على دور الأغنياء وأهل الثراء ، ومنازل السادة وأصحاب الشرف من أهل البطحاء<sup>(٤)</sup> وأسرع أزواجهن الى المسجد ، يطفون ويلقون سراة الناس من قريش ، فيسمعون منهم ويتحدثون اليهم ، ويستمعينون بهم على احتمال أثقال الحياة فى تلك البادية النائية

- 
- (١) الجنادب : جمع جندب ، وهو نوع من الجراد يصرويققز ويطيير .  
 (٢) على هامش السيرة ح ١ ص ١٢ و ١٣ .  
 (٣) على هامش السيرة ح ١ ص ١٤ و ١٥ .  
 (٤) البطحاء : المكان المتسع بمر به السهل ، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار .

بادية بنى سعد بن بكر<sup>(١)</sup>

ويصف عودة حليمة الى الرضيع محمد بعد ما أعرض عنه المراضع  
وصدت عنه حليمة أولاً ، فيقول : " . . . وتنهض بنت أبي ذؤيب " فتعبر  
الى آمنة فتعرض عليها ارضاع الطفل ، واذا آمنة تأبى وقد آذاها ما  
رأت من اعراض المراضع وانصرافهن ، وعلى وجهها آيات حزن عميق ،  
وفى صوتها بقية من بكاء ، وأمتها "بركة" تعينها على الابه وتعرضها على  
الامتناع . ولكن ابنة أبي ذؤيب تنظر الى الطفل فاذا قلبها يمتلئ بحاله ،  
واذا هى تحس أنها مدفوعة اليه دفعا ، واذا هى تسرع الى الحفل  
فتفرقه بين يديها وتدنيه من صدرها ، واذا الطفل يلتصق الثدي كأنما  
كان منه على ميعاد ، واذا هو يشرب حتى يروى ، واذا بنت أبي ذؤيب  
تجد من اللين ما لم تكن تجد من قبل ، واذا آمنة تستجيب لها  
وكيف تأبى عليها وقد رأت من حبها للطفل ومن اقبال الطفل عليها ومن  
ارضاعها له ما رأت .<sup>(٢)</sup>

وفى قصة حادثة الفيل يصف طه حسين وقعة الأخدود ، وما تبسم  
فيها من تحريق مسيحي نجران على يد ذى نواس : " . . . هنالك أمر  
ذو نواس فاحتفرت الأخاديد ، وجمع فيها الحطب والخشب ، وألقى فيها  
الزيت ، وأضرمت فيها النار ، ودفع أهل نجران اليها دفعا . وهنالك  
أطلق ذو نواس أيدي حمير فى أهل نجران ، ينالونهم بالقتل والمطلة ،  
ويحتازون من أموالهم ونسائهم ما يشاءون . وهنالك جرت الدماء أنهارا ،  
وانشرت الأشلاء انتشارا ، وارتفع اللهب الى السماء بنفوس الشهداء " .<sup>(٣)</sup>

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ١٢٠ .

(٢) على هامش السيرة ج ١ ص ١٢٣ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١١٢ .

ويعبر طه حسين حادثة الفيل نفسها فيقول : " . . . وأصبحنا وقد أمر الملك بدخول المدينة ، فيهم الجيش أن يتحرك وفي مقدمته فيل عظيم ، ولكنى أرى دليلنا "تَقِيلَ بَنَ حَبِيبِ الْخَشَعِ" يدنو من الفيل فيأخذ أذنه ويسر فيها كلاما ، ثم يرسلها ويشدد هاربا في الجبل ، وتثير حركة هذا الرجل في نفس شيئا من العجب ، فما علمت أنه يعرف منطق الفيلة ، وما علمت أن الفيلة تعرف منطق العرب . عجبت ، وليت عجبى لم يتجاوز هذه القصة ، ولكنى رأيت بعد ذلك ما يقضى على كل عجب . . . رأيت الفيل قد برك حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم ، حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد ، ويجد ساسته بعد ذلك في انهاضه فلا يملفون منه شيئا ، ويخشونه ويؤذونه ويضربونه ، ويملفون به أقصى ما يهيج الفيل فلا ينهض ولا يهم بالنهوض . حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض وضى مهرولا ، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برك ولم يتقدم أمامه أصبعا . ونحن ننظر إلى هذا وقد ملأنا العجب ، وأخذ الدهش من نفوسنا كل مأخذ ، وبدأ الخوف يلعب بقلوبنا ، وبدأ الذعر يطلق بعض الألسنة بالرغبة عن دخول المدينة والانصراف عن هذا البيت . وأنا لفي ذلك ننظر إلى الساسة وهم يحالجون الفيل ، وإذا الجو يظلم شيئا فشيئا ، وإذا سحب كفيف يبدو لنا من بعيد ، قد أقبل إلينا مسرعا من ناحية البحر ، فلا نكاد نطيل النظر إليه حتى نتهين ، ويأهول ما نتهين . لسنا نرى سحبا كالسحاب ، ولا غاما كالغمام ، وإنما نرى سحبا حيا يَخْفِقُ بأجنحته خَفَقًا ، ويهيم منظره في نفوسنا رَوْعًا يُخْرِجُنَا عن أطوارنا وينتهى بنا إلى شيء يشبه الذهول .

انى لأرى الآن السحاب، حين كان يقبل علينا أسرابا من طير صفار،  
لها مناقير الطير وأكف الكلاب، حتى اذا دنت منا أخذت تحصب الجيش  
بحجارة دقاق، كانت تحطها فى مناقيرها وأرجلها، ولم تكن هذه الحجارة  
تبلغ دقة المدسة ولا عظم الحصة، وانما كانت شيئا بين بين، وكانت  
على دقتها لا تمس شيئا الا هشمته تهشما، ولا تمس رجلا الا ألقته  
صریما، وسلوا ما شتم عن خوف الخائفين وذعر المدعورين، وانصراف أصحاب  
الفيل عن الفيل، وتحول الجيش عن مكة الى غيرها من الوجوه جادا فى  
الهرب، وهذه الأسراب من الطير تتعمد، تحصب بهذه الحجارة، وتملأ  
الجو من حوله بصياح مخيف<sup>(١)</sup>.

#### ح - تصوير المعانى والخواطر :

ولا يقف طه حسين فى وصفه وتصويره عندما هو مشاهد أو محسوسه  
بل يتعداه الى ما ليس كذلك من النواحي المعنوية، من فضائل نفسه،  
وخواطر داخلية، وغير ذلك مما يدرك بالعقل لا بالحوس.

و"على هامش السيرة" : ملئ بمثل هذا النوع من الوصف والتصوير.

ففى قصة "ذو الجناحين" يرسم طه حسين صورة للهجرة،  
ويتخيلها شخصية جلست الى شيخ أثر العزلة وهجر الناس تحدثه وتحاوره.  
فيقول واصفا للهجرة ".... وأكبر الظن أن هذه الخواطر الحزينة  
التي أطالت التردد بين نفسه وقلبه، وأطالت الفناء فى دخيلة ضميره،  
قد دعت اليه هذه الصورة الغريبة الجميلة التي رآها ماثلة أمامه على  
الضفة المواجهة له من ضفتى الجدول، يترقرق على وجهها الرائع المسارح

(١) على هامش السيرة ح ١ ص ١٤٣ - ١٤٥.

غشاء رقيق هادئ من ضوء القمر ، الذى قام فى مكانه من السماء يرسل أشعته المطمئنة فى أنأة وريث الى الأرض . . . . . والغريب أن الشيخ لم ينكر هذه الصورة التى كانت ماثلة أمامه ولم يصرفها ، ولم يضيق بمكانها منه ، ولم تنهبط نفسه لها ، وإنما نظر اليها فأطال النظر ، كأنما كان ينتظر زيارتها له ، والعامها به . ونظر اليها دون أن يوجه اليها حديثاً ، كأنما كان ينتظر منها أن تهدأ ، هى بالحديث وقد فعلت ، فهذا صوت حلو فائق رقيق يصل الى الشيخ وقد مازحه همس الجدول . . . وإذا هذا الصوت الحلو الفائق يقع فى نفس الشيخ موقع الماء من ذى الفلة الصادى " (١)

ويتخيل طه حسين حواراً دار بين الهجرة وذاك الشيخ .

فيقول : " وإذا هو يسمع الصورة تسأله : " ما هذا الصمت الذى أنت مغرق فيه ؟ ! لقد دعوتنى الى نفسك فأطلت الدعاء ، وهأنذا فى اسمى اليك وألم بك وأقف منك غير بعيد ، فلا تحفل بى ولا تأبه لى ، ولا توجه الى حديثاً ولا تسألنى عن شئ ! فقيم دعوتنى إذا ؟ وفـيـم تكلفت السمعى اليك ؟ وفيـم تجشمت فى ذلك ظلمة الليل ؟ !

قال الشيخ فى هدوء ودَعْرِ : " أنا دعوتك يا ابنتى ؟ ! ومن تكونين ؟ قالت : " فمن هذه التى أقبلت تسمى رويدا رويدا ، مثل ما يسمى النسيم الملبل ؟ " .

قال الشيخ : " لا أدري يا ابنتى ، لم أدع أحدا ولم أتحدث لى أحد ، وإنما هى خواطر كانت تضطرب بها نفسى ، ومما كان يخفق بها قلبى " .

قالت الصورة : " فقل انى دعوت نفسى اليك ، أو انى دفعت  
نفسى اليك ، أو ان مقامك هذا بين هذه الشجرات الخضر ، وهذا  
الجدول النقى ، وهذه الطير النائمة ، وهذا الضؤ الهادئ الذى ينحدر  
من القمر ، قد أعجبني فأقبلت أشاركك فى هذه العزلة ، وأتحدث اليك  
فى بعض ما يكون فيه الحديث " .

قال الشيخ : " ولكن من تكونين ؟ " .

قالت الصورة : " أحرص أنت على أن تعرفنى ؟ فقل انى أنا  
العزلة التى يفرغ اليها المكروب اذا ضاق بالأحياء والأشياء ، وقل انى  
أنا الوحدة التى يفر اليها الانسان من نفسه وأهله ، ومن الأعداء والأصدقاء  
ومن الخير والشر " (١)

وكما صور طه حسين المعانى المجردة كما مر فى تصويره للهجرة  
أو العزلة .. فانه صور — أيضا — ما يدور فى النفس من عواطف وخواطره  
وما يحتل فيها من شك أو يقين ، وما يصطرع فيها من خير أو شر ..

ومن الأمثلة على ذلك تصويره ما كان يعترى نفس عبدالمطلب من  
خوف وقلق على ابنه عبدالله الذى أرسله فى تجارة الى الشام ، وتصويره  
ما كان يشور فى نفسه من خواطر وانفعالات وتساؤلات ..

يقول طه حسين : " وكان على هذا كله لا يستطيع أن يدافع  
خاطرا يلم به من حين الى حين ، فيصور له يوم الفداء ، ويصور له هذا  
الصراع الحنيف الذى كان بينه وبين الموت فى ذلك اليوم ، والذى كان  
موضوعه هذا الفتى الذى ترقل به مطيته الآن نحو بلاد الشام ، وكان كلما

---

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .



فكر في ذلك أحس خوفاً مَرَّاً تظهر آثاره على وجهه المشرق الوقور ، كأنما كان يسأل نفسه : أفي الحق أن قد انتهى هذا الصراع بيني وبين الموت ؟ أفي الحق أني قد استخلصت هذا الفتى ووديته للحياة المتصلة والبقاء الطويل ؟ ان الدهر لكثير الغدر ، مشغوف بالخداع ، وان من حولنا لقوى خفية ان يكن منها الخير المسعف فان منها الشرير الخاتل . وان هذه القوى الشريرة لتجد لذة سيقة في تضليلنا والعبث بنا ودفعنا الى الشئ كأنه الخير كل الخير ، حتى اذا اندفعنا اليه وتورطنا فيه ، انصرف عنا ساخرة منا ، وتكشف لنا الأحداث عن الشر والنكر والبلاء . . . ومن يدري لعل قوة خفية من هذه القوى الخاطلة قد خدعتني ومكرت بي ، وخيلت الي أن في حمل هذا الفتى على الرحلة مع شباب قومه وكهولهم نفعا له واصلاحا ، على حين لم تكن تريد به الا الشر ، ولم تكن تريد به الا النكر . . . ولعلها أن تكون قد أرصدت له في الطريق رَصْداً ، وكادت له في السفر كَيْداً . . . (١)

ومنها تصويره نفسية " الفيلسوف الحائر " وقد عجزت عن التفكير واعتراها ما اعتراها من حيرة وذ هول ، اثر ما حدث لها من أسر وهي في الطريق الى الحجاز لتكون بالقرب من مهبط النور ، حيث يقول :

" . . . ثم يخيل الى الفتى كأن عقله قد وقف عن التفكير وكان قلبه قد عجز عن الشعور حيناً ، وكأنه في شئ يشبه النوم وليس بالنوم ، وكأنه يسمع ذلك الصوت الغليظ الخشن ، وهو يهت في الفضاء قهقهة عالية ملؤها السخرية والاستهزاء ، فيعود الفتى الى شعوره الأليم ، وتفكيره العميق ، واذا هو يسأل نفسه مرة أخرى عن هذا الصوت : ما هو ؟ وما

---

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٥٦ و ٥٧ .

عسى أن يكون ؟ وترسم على ثغره ابتسامة أخرى فيها سخرية مرة ، واستهزاء حزين ، فهو يسأل نفسه : ألا يمكن أن يكون هذا الصوت الذى أغراه بالصودة وورطه فى هذه الكريهة ، صوت اله من هؤلاء الآلهة القدماء الذين كان يعبدهم ويقبل عليهم فى المدينة مع صاحبه ، ثم لم يلبث أن شكَّ فيهم وتكر لهم وأعرض عنهم ، واستجاب لصديقه الشيخ ، وجمـل يبحث عن اله جديد دون أن يلفسه أو يهتدى اليه فأضاع نفسه بسين قديم كان يعرفه ، وجديد لا يآلفه . . . (١)

ومنها - أيضا - تصويره للخواطر والهواجس التى كانت تدور فى نفس خديجة - رضى الله عنها - اثر ارسالها محمدا فى تجارة لها الى الشام ، وما كان يلف هذه الخواطر والهواجس من خوف وقلق عليه .

يقول طه حسين : " لقد أحبت خديجة هذا الفتى منذ كان صبيا ، وجعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع أن ترقبه ، وتتبع نموه واكتماله ، وكلما نما الفتى نما حبها له وكلفها به ، أفحين بلغ الفتى أشده وأصبح خليقا أن يحقق أمليها فيه ، يخطر لها هذا خاطر الغريب ، فإذا هى تدفعه الى الرحلة ، وتقذف به الى أرض الروم . . . ومن الحق أنه لم يكن لها زوجا ، ولكن كانت تتمناه لنفسها زوجا . . . وربما كان الخوف على الأمانى أشد على النفس وأوقع فى القلب من الخوف على الحقائق الواقعة والشئ الذى ظفرت به بعد أن طال تمنيك له وألحت رغبتك فيه . . . وكانت خديجة تذكر آمنة ، وتذكر نفسها ، فتري أن آمنة لم تدفع زوجها الى الرحلة وأنا أنعنت فى ذلك لقوانين الحياة التى تقضى على فتیان قريش بالاضطراب فى الأرض والابعاد فى الأسفار . . . ولو قد خبرت آمنة

---

(١) على هامش السيرة ج٢ ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

لاستهقت زوجها • ولو قد أتيت لقلبها أن ينطق لألح على زوجها فسى  
البقاء • فأما هى فلم تكره على فراق الفتى • وإنما سمعت إليه ورغبت  
فيه • وأغرت به الفتى اغراء • ودفعته إليه دفعا • ودست فيه الرسائل  
الى عمه الشيخ • وأضعفت أجره أضمافا •

أمجة هى لهذا الفتى أم مبغضة له ؟ أراغبة هى عن هذا الفتى  
أم راغبة فيه ؟ أحرصه هى على جوار هذا الفتى أم على فراقه ؟

ان أمرها لعجب مهما تطلبه على وجوهه • ولكن ألمها شديد •  
وحزنها موجد • وقلقها مذن • وقد تذكر أنها لم ترسله وحده السسى  
الشام • ولم تعرضه وحده للأخطار • وإنما أرسلت معه غلامها القوى الفتى  
الأمين الناصح • وهو خليف أن يحوطه ويرعاه • وأن يلقى الموت فى سهيل  
حياطته ورعايته • ولكن غوائل الدهر وعوادي الأيام جائرة غاشمة • وهى  
أقوى من غلامها "ميسرة" مهما يكن قويا • وأجرا منه مهما يكن جريشا •  
وأضى الى المكر والكيد منه الى الحياطة والحماية والنصح " (١)

#### د - تصوير الشخصيات الخيالية :

وكما صور طه حسين المعانى والخواطر والمواقف والأحاسيس  
فانه قد صور - فى هوامشه - شخصيات تخيلها • وأجرى على ألسنتها  
حوارا ورسم ما يدور فى خواطرها من آراء وأفكار •

ومن هذه الشخصيات المتخيلة التى صورها طه حسين، وتخيّل  
ما يدور على ألسنتها من حوار، وما تهجس به خواطرها من أفكار - شخصا

---

(١) على هامش السيرة ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ •

آلهة اليونان الأربعة : أبولون ، وأريس ، وأرتميس ، وأتنا . وقد اجتمعوا لينظروا فيما عساهم يفعلون وينتهى اجتماعهم باجتماعهم على الرحيل من تلك الديار التي سادوا فيها زمنا طويلا ، وأنه قد جاء الوقت السذى يجب أن يتراجعوا فيه أمام هذه الأديان السامرية الجديدة التى محتهم ونسخت دينهم . . . سمعت أشبههم بأبلون يقول : ما أبشع هذه المدينة التى نجسها ونصبوا اليها . وما أقبح هذه الريح التى تصعد إلينا منها . قالت أشبه هؤلاء الأشخاص بأتنا : لقد كنا نحب أن نلم بهذه المدينة فنطيل فيها المقام ، وكنا نستعذب حديث أهلها ونستحب أخلاقهم ونستلذ ما كانوا يقدمون إلينا من الضحايا والقربان . قالت شبيهة أرتميس : ومم كنت أحب أن أتجول فى غاباتها وأستمتع فيها بلذة الصيد . قال شبيه أريس : أما أنا فكانت تعجبني حصونها المحصنة ، وقلاعها المؤشبهة ، وهذا الجيش الباسل المرابط فيها والمستعد فى كل لحظة للدفاع والهجوم قال شبيه أبولون : فقد آن لنا أن ننصرف عنها على ألا نرجع إليها ، وأن نلقى عليها نظرة وداع لا لقاء بعد <sup>(١)</sup> .

ثم يقول آخر هذا الحوار : " . . . قال شبيه أبولون : وما بقائنا فى هذه الأرض التى ليست لنا بدار بعدما أزعج الآلهة أن يدعوا هذا الاقليم لدين قيصر ولهذا الدين الجديد ؟ . لقد وقفنا فأطلقنا الوقوف وودعنا فأطلقنا الوداع ، وأن لنا أن نلحق بمن سبقنا من الآلهة الى تلك الأرض الموعودة التى لم تفسد عقول أهلها حيلة بروسثيوس ، ولا فلسفة سقراط ، ولا سياسة قيصر ، هلم . . . " <sup>(٢)</sup>

" بمثل هذا الحوار الشعرى الجميل يصف لنا المؤلف كيف زالت الوثنية اليونانية ، وحلت محلها اليهودية والنصرانية ، وهذه القطعة وحدها

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٠١ .

تشهد بأن المؤلف قد رزق النصيب الأوفر من خصمة الخيال والقدرة على  
البأس الحادث المادى ثوبا شعريا رائعا .. (١)

ومن الشخصيات التى تخيلها طه حسين ، وجعلها تتحدث وتتجاوز ..  
شخصية الشيطان وقد جعله الكاتب صديقا لأبى جهل ، وطييفا له يجمع  
بينهما الحقد على الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصد عن دعوته ، وقصد  
تخيل الكاتب هذه الشخصية ، وتخيل هذه الصداقة ، وتخيل هذه اللقاءات  
المتكررة التى تمت بينهما ، كما تخيل ما جرى بينهما من حوار يدور حول  
الحسد والحقد على الرسول صلى الله عليه وسلم ..

يصور طه حسين الشيطان فى صورة شيخ ، وقد استوقف أبا جهل فى  
أول لقاء تم بينهما ، كما يتخيل ما دار بينهما من حوار ، فيقول :

" .. وبينما كان رائحا ( يعنى أبا جهل ) فى ذات يوم السى  
حانته تلك ، يشرب فيها ويطرب وينفخ على شباب قریش شربهم وطربهم ،  
عرض له فى بعض الطريق شيخ أعرايى حسن الوجه رائق المنظر ، لولا أنه  
كان غليظ الزكي ، خشن الثياب ، يكاد يبدو عليه الضر ، لولا أنه يتجمل  
ويروض نفسه على ما لم يتمود الأعراب أن يروضوا أنفسهم عليه ، فلمّا  
رأى عمرو بن هشام هذا الشيخ مقبلا عليه ، رماه بنظرة سريعة فيها كسر  
من السخرية ، وقليل من الحذر ، وهمّ أن يضى لوجهه ، ولكن الشيخ  
استوقفه فى رفق ، فأظهر عمرو أنه لا يحفل به ، ولكن الشيخ رفع صوته  
قليلا بهذه الكلمة : " مكانك يا فتى فان لى اليك حديثا " وبلغ هذا الصوت  
أذن الفتى فروع شيئا ، ولم يدّر الفتى أمحب هذا الصوت أم يكرهه ،

---

(١) من مقال للدكتور محمد عوض محمد بمجلة الرسالة بتاريخ ١٨ / ١٢ / ١٩٣٣ .

وأراد ليضئ أمامه ولكن رجليه لم تطاوعاه ، فقام مكانه كأنما ثبتت قدماه  
في الأرض تهيئاً . ودنا الشيخ منه يسمى متباطئاً قصير الخطا ، حتى انتهى  
إليه فوضع إحدى يديه على كتفه في رفق وقال له في صوت بلغ أعماق قلبه  
: " لا تُرْعَ يابني فما أريد بك إلا خيراً " .

قال الفتى في صوت مضطرب يريد أن يثبت : " من تكون أيها  
الشيخ ؟ وماذا تريد ؟ " .

قال الشيخ : " ستعرف من أكون ، وستعرف ماذا أريد ، ولكن  
تعلم أنني بعد أن وضعت يدي هذه على كتفك هذه قد ملكت أمرك كله  
فلن تتطرق إلا بلساني ، ولن تعمل إلا برأى ، ولن تُعْصِرَ إلا عن أمري <sup>(١)</sup> .

كما يصف طه حسين لقاء آخر من هذه اللقاءات المتكررة ، ويتخيّل  
فيه حواراً طويلاً تم بين الشيطان وبين صديقه أبي جهل ، نقتطف منه  
هذا المقطع .

يقول طه حسين : " .. قال الشيخ وهو يقدم إليه القسح :  
اشرب أبا الحكم . فلا بد من أن نستفد ما في الزق " ثم استأنف  
حديثه فقال : ..

سألق (يقصد محمداً) إليهم ( يقصد أتباع محمد ) أن الناس جميعاً سواء  
لا يتفاوتون في الدنيا ، وإنما يتفاوتون في الآخرة بما يقدمون بين أيديهم  
من العمل ، فمن عمل صالحاً فله جنة لا أدري ما هي ، ومن عمل  
سيئاً فله نار لا أدري ما هي " .

---

(١) على هامش السيرة ج٣ ص ٥٧ ، ٥٨ .

قال عمرو وقد رفع القدح الى فمه فشرب منه : " وما الآخرة السني  
تحدثني عنها ؟ " .

قال الشيخ وهو يصب في القدح ليملاّه : " حياة يزعم ابن عبدالمطلب  
أنها كائنة بعد الموت ، وأنها لا آخر لها " .

قال عمرو وقد عب في القدح عباً شديداً وقد حث عيناه شيئاً كأنسه  
الشر ، وغشى وجهه شيء كأنه اللهب ، وانبعث من فمه ضحك قبيح .

حياة بعد الموت لا آخر لها ! هلم أبا مرة ( وطك كبة الشيطان )  
اسقني من خمر هذه التي كأنها النار ، أو من نارك هذه التي  
كأنها الخمر . حياة بعد الموت لا آخر لها ! لن تخرج بزقك وفيه قطرة  
من شراب . حياة بعد الموت لا آخر لها ! حياة بعد أن تصبح تراباً  
تذروه الريح ! " . (١)

هـ — تصوير الهيئة :

وكما عني طه حسين بتصوير ما تقدم . . عني — أيضاً — بتصوير  
الهيئة التي تقع فيها الأحداث وتتحرك فيها الشخصيات ، ونرى هـ  
واضحاً من خلال فصول " على هامش السيرة " .

ومن تصوير الهيئة ، تصوير طه حسين المكان الذي اختلج فيه  
الصديقان : نسطاس الرومي وعمرو بن هشام ، وتصوير ما يحيط بهما من مناظر  
طبيعية .

---

(١) على هامش السيرة ح ٦٨ ، ٦٩ .

يقول طه حسين : " على أن الفتى لم يصل الى هذا الموضع من  
نجوى ضميره حتى ازداد رغبة الى رغبة، وشكا الى شك ، فقد ذكر  
أن وجهه نسطاس لم يكن خاليا له أمس ، وأن نفسه لم تكن خالصة لسه  
كما تعودت أن تخلص له حين يتقدم الليل وتسكت الموسيقى وينقطع الفناء  
ويتفرق الندامى ويخلو الصديقان ، لا يشهد خلوتهما الا هذان القدحان  
قد بقيت فيهما بقية من شراب يقبلان عليه بين حين وحين ، فيحسوان  
منه حسو القطا ، والا هذه النجوم التي كانت تُطلُّ عليهما من السماء  
كأنما كانت تريد أن ترى ما يصنعان أو تسمع لما يقولان ، وهى على ذلك  
تخفى عليهما أسراراً غامضة ، طالما اشتاقا الى استجلائها ، والا هذا  
النسيم الخفيف الضئيل الذى كان يختلس مسراه من سكون الليل اختلاسا  
ويمر بهما من آن الى آن حذرا متحفظا كأنما يخشى أن يغلطنا لسه  
فَيَدُلَّا عليه ضوء الليل . . . " (١)

وفى موضع آخر يصور طه حسين منظرا من مناظر الطبيعة - يصور  
جو مكة فى يوم شديد الحرارة : يوم سمى نسطاس الرومى الى ورقة بمن  
نوفل فى خوف وحذر ليوذعه الوداع الأخير .

يقول طه حسين : " وكانت أجيال مكة قائمة حولها ساهمة واجمعة  
فى يوم شديد القيث ، كأنما أدركها منه ما يدرك الناس فيذهلهم عن  
أنفسهم وعما حولهم من الأشياء . وكانت مكة بين هذه الأجيال ساكنة  
سكونا مخيفا لا حركة فيه ، هامة هدوءا مفضما لا نشاط فيه ، قد استقرت  
بين هذه الأجيال ، واستقر فيها كل شئ ، فما تجرى فيها نسمة ، ومما  
يخنى فيها طائر ، وما تصوت فيها حشرة ، وانما هى جامدة هامدة  
تصبُّ فيها أشعة الشمس المحرقة صبا ، وتمكن فى هذه الأشعة المحرقة

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ٣٢ .



ألوان مختلفة من هذه الصخور القائمة من حولها حتى ليخيل الى مَنْ  
كان يمكن أن يراها في ذلك الوقت : أنها طَسَتْ يَهْبُ فيها مَعْدِنٌ مَذَابٌ  
يَهْهَرُ كُلَّ مَا مَسَّهُ مِنْ شَيْءٍ (١)

وفي موضع آخر يَصور طه حسين طبيعة الهيئة التي هاجر اليها الشيخ  
الذي أثر الهجرة والعزلة في قصة " ذر الجناحين " .

يقول طه حسين : " .. فهجر المدينة والتس العزلة في مكان  
بعيد في طرف من أطراف الريف ، وقد قامت فيه شجرات خُضْرٌ ملغضة  
الأغصان ، على جدول من الماء .. هادئ صافي الأديم ، يداعب  
النسيم صفحته في رفق ، فيشير عليها أمواجاً صفاراً توشك أن تكون حُباباً .

هنالك جلس الشيخ مع الأصل ، وهنالك انصرف الشيخ عن نفسه  
وعن الناس ، وعن المدينة وأهل المدينة ، وعن الأعداء وما كانوا يأتسون ،  
وعن الأصدقاء وما كانوا يدبرون ، وفرغ لشجراته الخضر وجدوله الصافي ،  
وهذا النسيم الحليل القاتر يداعب أوراق الشجر ، وصفحة الجدول ، وضوء  
الشمس الحزينة المتهالكة يتهمها حزينا متهالكا في طريقها الى الغروب ،  
وهذه الطير الكثيرة قد أقامت على غصونها مترججة في أناة وهدوء ، متفنية  
في شيء يشبه الحزن والاسى ، كأنما كانت تودع التهار كارهة للسوداع ،  
وتستقبل الليل ضيقة باستقباله . (٢)

\* \* \*

(١) على هامش السيرة ح ٣ ص ٤٥ .

(٢) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٢٧ .

## ٖٖ الفصل السادس ٖٖ

### " على هامش السيرة " فسى ميزان النقـــــــد

- ١ - قيمة الكتاب وأثره .
- ٢ - نقد بعض أفكار الكتاب .
- ٣ - موقف بعض النقاد من الكتاب .

## ١ - قيمة الكتاب وأثره :

لا شك أن طه حسين قد استطاع - بكتابه هذا - أن يحقق الهدف الذى قصد اليه حين قدم هذا الكتاب للقارئ فى صورته التى عرضه بها ، ذلك الهدف الذى يرمى الى بحث التاريخ القديم عامّة والسيرة خاصة فى صورة جديدة محببة للنفس ، يطلع القارئ من خلالها على الماضى الحبرى المشرق وتاريخه العريق الطيد ، بما فيه من صفحات مضيئة مليئة بالمجود والبطولات ، ولا سيما صفحات السيرة النبوية التى تزخر بكل ما هو مثاليّ قَدْ ، وكما ليّ نادرٌ من الصفات والأخلاق والبادئ والمثل العليا التى تعد القدوة الحسنة لكل مُقْتَدٍ والأسوة الحقة لكل مُتَأَسِّ .

وذلك الهدف الذى يرمى الى الاتجاه نحو هذا التراث المجيد يتخذ الشباب من صفحاته الزاهرة مادة للفكر والأدب يشرون بها فكرا وأدبا ، كما يُحْتَوَن بها هذا التراث حين يمرضون هذه الصفحات نفس أسلوب أدبى جميل .

وكان من أثر توجيه طه حسين الكتاب الى تراثهم - يستلهمون من صفحاته المادة التى يَشْرَى بها فِكْرُهُمْ وَأَدَبُهُمْ - أن توالى الكتابات التى تحذو حذو طه حسين فى عرض السيرة فى أسلوب قصصى جميل من أمثال كتب " محمد رسول الله والذين معه " لعبد الحميد جودة السحار ، و " محمد رسول الحرية " لعبد الرحمن الشرقاوى ، و " صور من حياة الرسول " لأمين دويدار .

وقد استطاع طه حسين أن يحقق أهدافه هذه ، حين استطاع أن يقدم للقارئ بعض أحداث ووقائع من السيرة ، اختارها وانتقاها وصاغها

فى أسلوب أدبى قصصى جميل ، يعيد الماضى بأحداثه وشخصه صورة  
حية نابضة ماثلة أمام الميون والقلوب بكل ما فيها من عظيم الأحداث  
وجليل الذكريات .

يقول الأستاذ : أحمد الشايب : " . . . وقد أخلص ثانيهم - يقصد  
طه حسين - لفنه القصصى فاستلهم المراجع القديمة التى صاحبت حوادث  
السيرة ، وانتقل الى أماكنها كذلك ، وعاش مع أهلها يطلق عنهم الحقائق  
والخرافات والتواريخ والأساطير ، حتى اندمج فى هذا الماضى وأعباده  
الينا قصصا جميلا حقا ، بأسلوبه الفيض ، الموسيقى ، المستقصى . . . " (١)

وكان نجاح طه حسين فى تقديم أحداث السيرة فى تلك الصورة  
الحية النابضة - راجعا الى تقديم هذه الصورة من خلال طريقته  
التصويرية التى أسلفنا الحديث عنها ، تلك الطريقة التى استطاعت أن تُحيل  
أحداثها ووقائعها التاريخية الجافة الى فن حيٍّ جَذَابٍ ، كما استطاعت  
- فى الوقت نفسه - أن تجعل من هذا الفن الحى الجذاب " صورة  
" علمية " صادقة للجزيرة العربية وأطرافها فى الفترة (٢) بين مولد النبى  
صلى الله عليه وسلم فى الجزء الأول ، وانصار دعوته فى الجزء الثالث . .  
صورة للحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، صورة لما يهيجس  
فى الضمائر والأخلاق ، وما يبدو من الاتجاهات والآراء ، صورة للبيئات  
ولالأفراد فى الحياة هناك " (٣)

وإذا كان طه حسين قد نجح فى الطريقة التى عرض بها أحداث  
السيرة ووقائعها . . . فانه قد نجح فى عرض الأفكار التى قصدتها من

- 
- (١) الأسلوب : ص ١٠٢ .  
(٢) استعمال كلمة "الفترة" هنا خطأ شائع ، والصواب المدة أو الحقبة ونحوهما .  
(٣) كتب وشخصيات : ص ١٠٨ .

خلال هذه الأحداث .. تلك الأفكار التي سبق أن أشار إليها البحث ،  
والتي تتلخص في : أن العالم آنذاك كان في حاجة الى رسالة تعيد كيانه  
وحياته وتقيمها على نظام سليم صالح . وأن محمدا - بما سبق مبن  
اشارات ومشارت تقدمت مولده وبعثه - هو النبي والرسول المنتظر لحمل  
هذه الرسالة ، وأما الفكرة الثالثة فهي تمثل انتشار الاسلام وانتصاره ..

ومع هذا الذي حققه طه حسين بكتابه هذا ، فالتنا نلج في ثنايا  
بعض فصول الكتاب تعبيراً غير مباشر عما يقع في مجتمع طه حسين وعما يقع  
له من أحداث ، استغل طه حسين أحداث السيرة ووقائعها في التعبير  
عنها ، وهذا يُعدّ من الأدب الرمزي ، وهذا يعني أن طه حسين لـم  
يكن منفصلاً عن مجتمعه ، وهو يكتب أحداث السيرة ..

فمن الأول - وهو ما نراه تعبيراً غير مباشر عن بعض ما يقع في  
المجتمع - ما يقوله طه حسين على لسان كالمكراتيس الذي لا يرى لقيصر  
حقاً في أن يطلب منه الايمان بالمسيح مادام هو يؤدى واجبه نحو  
الدولة كما يؤديه المواطن الصالح ، يقول :

" ليس يَكفيه أن يسيط سلطانُه على الأجسام حتى يحاول أن يسيط  
سلطانُه على القلوب والمقول . . . وكيف السبيل له الى استدلال القلوب  
والمقول .. انه لا يبلغ من ذلك شيئاً ، ولكنه يضع قوته عبثاً ويفنى  
جهدُه في غير طائل ، ويخرج الناس ويهزقهم من أمرهم عسراً ، وينتهس  
آخر الأمر الى أن يصرفهم عن جهه ، ويذهبهم في طاعته ، ويملاً قلوبهم  
بغضاله وانكارا عليه ، وقد يدفعهم الى أن يعصوه ويشوروا بسلطانِه حين  
يجدون الى العصيان والثورة سبيلاً " (١)

---

(١) على هامش السيرة ج ٢ ص ١٣ ، ١٤ .

ففى هذا النص تلميح بالواقع الاجتماعى آنذاك ، وتمريض بحكومة  
”صدقى“ وغيره من رجال القصر ، والانجليز الذين اشتدت قبضتهم على الحياة  
السياسية آنذاك .

وقد صدر ” على هامش السيرة ” خلال النصف الأول من الثلاثينيات  
.. أى : فى العدة التى اشتدت فيها قبضة هؤلاء على مصر ، وعطّل  
فيها الدستور والبرلمان سنوات عديدة ، ومن هنا جاء ” على هامش السيرة “  
فى بعض فصوله تعبيراً عن حرية الفكر والرأى ، وانكاراً للاستبداد والدكتاتورية  
ونرى هذا بوضوح فى قصة ” الفيلسوف الحائر “ التى أوردنا منها النص  
السابق ..

ومن الثانى — وهو ما نراه تعبيراً غير مباشر عن ذاته هو ، وتلميحاً  
عما يجيش بصدوره وينفعل به من أحاسيس تجاه أشياء وقعت له — ما يقوله  
فى قصة ” ذو الجناحين “ عن شيخ ، يستقبل يومه نشيطاً فلا يلبث  
حتى تأتى إليه الأنباء تحمل له أخباراً تقول : ان سحبا تتجمع فى الجوّ  
وأن ريحا حمقاء تريد أن تسوقها اليه ، وتصب شرها عليه ، وأن كسيّداً  
يكاد وشرا يراود .. وإذا به يهرب من كل هذا الى مكان فى الريف  
بعيد ، وهناك تترج نفسه القلقة بالريف الجميل والطبيعة الحانية .. وإذا به  
يرى صورة تسمى اليه تهدد وحدته وترقأ وحشته ، وإذا الصورة تحادشه  
وتخبره أنها العزلة ، انها الهجرة يرضاها الحر الكريم ... ثم اذا بها  
تحادشه بنها رجل من قرى فى غريته ، اذ هاجر بدينه الى الحبشة  
مرة ، ثم الى المدينة مرة ، ثم الى الاستشهاد آخر الأمر .. وتترضى  
نفس الشيخ بما سمع من أمر فتى قرى ذاك ، وما سمع من حديث عزلته  
تلك ، وما نعم من صحة الطبيعة حوله ، فتشوب اليه نفسه ، ويعود اليه  
اطمئنانه . (١)

(١) راجع على هامش السيرة ج ٣ ص ١٢٥ — ١٣٦ .

مراجع القارئ الى قصة " ذو الجناحين " يستطيع بسهولة ويسر أن يتعرف على هذا الشيخ الذى هاجر بنفسه الى العزلة والطبيعة بعيدا عن كيد الكائدين وفساد الدسائسين .. ان هذا الشيخ تهـدو عليه ملاح الكاتب وشخصيته .. انه طه حسين ..

واذا عرف القارئ أن " على هامش السيرة " قد جاء بعد صدور " فى الشعر الجاهلى " بسبع سنوات ، واذا عرف - أيضا - أن هذا الكتاب - أعنى : " فى الشعر الجاهلى " - قد سب له متاعب كثيرة ، وأقام عليه الدنيا واقعد ها ، مما عرفناه عند الحديث عن بواعث ودوافع الكتابة لكتاب " على هامش السيرة " .. اذا عرف القارئ هذا كله استطاع أن يعرف معنى الكيد الذى يزعمه والدس الذى يدعيه ..

\* \* \*

## ٢ - نقد بعض أفكار الكتاب :

وبالإضافة الى ما تقدم ، استطاع طه حسين أن يتخذ من بعض أحداث السيرة ووقائعها مجالا للتعبير عن بعض أفكاره التى يؤمن بها ، وعن بعض آرائه التى عبر عنها فى كثير من مؤلفاته .

ومن هذه الأفكار : فكرته القائلة بوحدة الثقافة ، أو وحدة الحضارة ، وهى فكرة تعد من أفكاره الأساس التى عبر عنها فى كتبه : " أدیب " و " مستقبل الثقافة فى مصر " و " على هامش السيرة " .

وقد عبر عن هذه الفكرة فى كتاب " على هامش السيرة " حين جعل الكتاب ملتقى لطالب الحق والمعرفة فى مختلف بلاد العالم القديم ، حين يجعل الاسلام تعبيرا عن هذا الحق الذى توحدت فيه آمال

الناس وأحلامهم على مختلف جنسياتهم وثقافتهم .. وذلك حيث يصور فيه طه حسين خروج العالم القديم كله في انتفاضة روحية شاملة بحثا عن الحقيقة حتى وجدها متثلة في محمد ورسالة .. ففي الكتاب يرى القارئ شبانا يونانيين وثنيين ، وآخرين مسيحيين قد خرجوا من بلادهم بحثا عن الدين الحق يلتبسونه فيما حولهم من بلاد وثقافات ، ومنها هذه البلاد الصحراوية البعيدة فيصل بعضهم ويموت آخرون دون الغاية من أمثال : كالبيكراتيس<sup>(١)</sup> اليوناني ، ونسطاس<sup>(٢)</sup> صحرًا<sup>(٣)</sup> ونسطور الرومانيين ، كما يرى القارئ شبانا عربا وثنيين قد خرجوا من بلادهم إلى الشام وبيزنطة من أجل هذه الغاية نفسها فيصبح بعضهم نصارى بيزنطيين ، كما أن بعضهم لا يهتدى إلى شيء ، ويعود بعضهم إلى الوطن يمشرون بشيء من المسيحية حتى يقدر لهم أن يشهدوا الحق في ميلاده العظيم ، من أمثال : عثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو<sup>(٤)</sup> ، وورقة بن نوفل .. كما يرى القارئ سلمان الفارسي عبدا كهلا في يثرب ، وكان قبل استرقاقه شاعرا تقيا عرف النصرانية ، فتنصر وخرج من أصفهان إلى العراق والشام طلبا لليقين ، فإذا هو يتنقل بين الأديرة والكنايس والصوامع ، فيتململ على أيدي قسس وأساقفة ورهبان ، يدلونه على مطلق النور في جزيرة العرب ، فيشد رحاله إليها مع تجار يقدرون به في الطريق ، ويبيعون له ليهودي من بني قريظة في يثرب فيستعبد بها ، ويظل حتى يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة ، فيصبح سلمان من أقرب صحابته .

\*\*\*

- 
- (١) راجع قصة " الفيلسوف الحائر " ح ٢٠ من على هامش السيرة .
  - (٢) راجع قصة " صريح الحسد " ح ٢٠ من على هامش السيرة .
  - (٣) راجع قصة " الفيلسوف الحائر " ح ٢٠ من على هامش السيرة .
  - (٤) راجع قصة " الفيلسوف الحائر " ح ٢٠ من على هامش السيرة .



ومن هذه الأفكار التي يؤمن بها : فكرته القائلة بأن الثقافة اليونانية والرومانية أسبق من الثقافة العربية ، وقد ردد طه حسين هذه الفكرة في كتبه وكتابات ، وعلى وجه الخصوص كتاب : " مستقبل الثقافة في مصر " . كما ردد هذه الفكرة في كتابه الذي معنا " على هامش السيرة " وذلك حين يقول على لسان عمرو بن هشام عندما يتحدث الى ورقة بن نوفل :

" .. نعم . وقد كنت أعرف أنك وأمثالك تخرجون من بلادنا هذه لتضربوا في الأرض ولتلتبسوا الحق والعلم والدين عند هؤلاء الأعاجم من الفرس والروم ومن اليهود ، وما كنت أنكر من ذلك شيئا فهم قد سبقونا الى الحضارة ، وهم قد سبقونا الى الكتاب ، فأما أن يخرج الروم من بلادهم الى هذه البلاد المجربة القاحلة الفليضة الجافية التي لاحظ لأهلها من حضارة أو علم أو كتاب ليلتمسوا عندنا الحق والعلم والدين ، فهذا هو الذي لا أفهمه ، ولم تطمئن اليه نفسى حين حدثنى نسطاس بما حدثنى به أمس " (١)

وحين يقول — أيضا — على لسان " باخوم " المصري السذى شارك في بناء الكعبة ، متحدثا عن العرب : " .. وكنت أنظر اليهم ، والى ما كانوا يرون ويقدرّون في شئ من المحطف عليهم والاهتمام لهم ، فهم أصحاب سذاجة لم يألّفوا من الحضارة ما ألفنا ، ولم يملوا من خطوب الأيام ما ملّونا " (٢)

ونحن لا نوافق طه حسين على فكرته الأخيرة القائلة بسبق الحضارة اليونانية والرومانية للحضارة العربية ، كما لا يوافق عليها الكثير من الناس ،

(١) على هامش السيرة ج٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) على هامش السيرة ج٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

فمعروف أن الحضارة العربية أسبق من الحضارة اليونانية والرومانية ، والأدلة على ذلك كثيرة ، فيلتبسها من أرادها في مواطنها ، وحسننا أن نشير إلى بعض الكتب التي توضح هذه الحقيقة ، وهو كتاب العقاد : " الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين " (١)

\*\*\*

وإذا كنا لا نوافق طه حسين على فكرته هذه ، فإنا لا نوافق على ما ورد في قصة " شوق الحبيب إلى الحبيب " من أن الله قد ألقى في قلب النبي حب زينب زوج زيد ، وألقى في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها . . . وأن النبي مضطرب لهذا الحب ، ومنكر على نفسه هذا الحب ، مخفٍ له ، ولكن الله يبدى ما يخفيه . . يقول طه حسين : " . . . ولكن الله يريد أن يلقى نظام التهنى هذا ، وأن يسرد الناس إلى أنسابهم وأن يدعوا الأبناء لأبائهم ، وإذا هو يمتحن فسي ذلك نبيه ، ويمتحن في ذلك زيدا ، ويمتحن في ذلك المؤمنين الصادقين جميعا ، يلقى في قلب النبي حب زينب زوج زيد ، ويلقى في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها ، وهذه نفس محمد مضطربة أشد الاضطراب ، متمتعة أشد الامتناع واجدة أشد الوجوم ، ترفض هذا الحب رفضا وتَسْزُور عنه ازورارا ، وإذا هي تنكره حتى على نفسها ولكن الله يبدى ما تخفى ، ويعرف الناس ما تنكره ، وإذا زيد يريد أن يطلق امرأته والنبي ينهيه ، ويؤجره ويحذره . . " (٢)

نقول : لا نوافق طه حسين على هذا القول ؛ ذلك لأن قوله : ان الله قد ألقى في قلب النبي حب زينب زوج زيد ، قول مردود مرفوض ،

(١) هو كتاب صدر في سلسلة : المكتبة الثقافية رقم (١) .

(٢) على هامش السيرة ح ٣ ص ٢٢٧ .

يرفضه الواقع ويأباه خلق الرسول ، فزينب كانت منذ صغرها الى أن اكتملت  
أنوثتها أمام بصر النبي وكان يرى ان كانت ذات مفاتن أم لا ، فلو  
كانت له رغبة فيها لتزوجها قبل أن يزوجهها متنها الذي أرغمت على  
الزواج منه بأمر السماء ، وإذا كان هذا القول مرفوضا واقعا ، فهو  
مرفوض خلقا ، ولا سيما خلق رسول كريم ، بحث لیتتم مكارم الأخلاق ،  
ان كيف يتعلق قلب الرسول محمد بحب زوج متنها ، وهو الذي زوجته  
اياها؟ . وإذا كان الله قد أراد للرسول أن يتزوج من زينب بمسند  
تطليق زيد اياها ابطلا لعادة التهنى ، وقضاء على عادة الجاهليين فى  
أباء التزوج ممن كانت زوجا لرجل أصله من العبيد ، فليس يلزم أن يسبق  
زواج الرسول منها حب من جانبها لها ، ولا أن يلقى الله فى قلبه  
حبها ، مادام الله قد أراد ذلك ، ان ليس يلزم — أيضا — أن يسبق  
فعل الأمور به حب له ورغبة فيه من جانب الأمور .

وهذا القول رددته من قبل طه حسين المستشرقون الحاقـدون  
وسار على نهجهم طه حسين ، ولكن طه حسين قد غلف هذا القول  
بفلاكة رقيقة تستر ما فيه من ادعاء وطلان ، حين قال : ان الله  
قد ألقى فى قلب النبى حب زينب ، وذلك لا يجعل للنبي يدا فى  
هذا الحب ، ولا قصدا منه اليه !

ولا نوافق طه حسين — أيضا — حين يقول : ان الله قد  
ألقى فى قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها ، لأن هذا القول  
يرفضه الواقع ، فالواقع يقول : ان زيدا لم يطلق زينب انصرافا عنها ونفورا  
منها ، بل طلقها رافة بها ورحمة ، لأن زينب كانت متألمة من هذا  
الزواج من أول يوم ، وربما كانت تدل عليه بنسبها ومكانتها ، وكثيرا  
ما تكررت منها حركات الأنفة والتأبى وتكرر منه الشكوى منها والشفق

عليها الى رسول الله ، ولم يعد زيد يستمرئ هذه الحياة المضطربة ، فطلب من الرسول أن يطلق عليه زينب ، ولكن الرسول كان يقول لـ : " أمسك عليك زوجك " . مع أن الرسول يعلم أن الله سيزوجه إياها بعد تطليق زيد لها ، وهذا هو موضع العتاب في قوله تعالى : " وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ " .

فالأمر الذي كان يخشى النبي أن يظهر ، وكان يحوص على إخفائه في نفسه ، ليس هو حب زينب ، كما يقول طه حسين ، بل هو زواجه من زينب بعد تطليق زيد إياها ، خوفا من أن يقول الناس إن محمدا تزوج زوج متهناه بعد طلاقها ، وكان أمرا يمدونه خرقا لعاداتهم التي ألفوها . .

يقول محمد حسين هيكل في هذا الصدد : " . . . ان محمدا نفسه على قوة عزيمته وعميق ادراكه لحكمة الله في أمره قد وجد على نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها ، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب ، وذلك ما يهده تعالى في قوله : " وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ " لكن محمدا كان القدوة في كل ما أمر الله به وما ألحق عليه أن يبلغ رسالته ، فلا يخش ما يقول الناس في تزوجه من كانت زوج زيد مولاة ، فذلك لا شيء الى جانب خشية الله بتنفيذ أمره ، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للثني والادعاء . . " (١)

(\*) الآية ٣٢ من سورة " الاحزاب " .

(١) حياة محمد ص ٢٩٢ و ٢٩٣ — مع تصويب .

٣ — موقف بعض النقاد من الكتاب :

وبالإضافة الى هذه النقادات التي أسلفنا الحديث عنها نقرر أن كتب " على هامش السيرة " أو فصول على هامش السيرة ، حسين بدأ طه حسين في كتابتها في مجلة الرسالة الأسبوعية — قد واجهه هجوما شديدا ونقدا عنيفا ، وكان النقد يأتي من نواح عدة : من محافظين ومجددين وغيرهم .

فالمحافظون يهرون أنه ليس طه حسين بالذات هو الرجل الذي يعيد كتابة التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية بوجه خاص ، ويذكرون الناس بمصر " في الشعر الجاهلي " قائلين : انه يوم كتب عن الشعر الجاهلي كفر وألحد ، وربما يسلك السبيل نفسها حين يكتب عن السيرة النبوية .. ثم يتساءلون : وما الذي يمنح ؟

ومن هنا نرى أن نقد هؤلاء المحافظين لم يكن نقدا علميا متجها الى ما في الكتاب من آراء وأفكار ، ولا نقدا أدبيا متجها الى ما في الكتاب من خصائص أدبية وسمات فنية .. بل كان نقدا شخصيا متجها الى شخص طه حسين نفسه ، ورأيهم فيه من حيث موقفه من التاريخ الاسلامي المعروف في كتابه " في الشعر الجاهلي " وعدم ثقتهم فيه حين يتناول الموضوعات الاسلامية .

وأما المجددون — وعلى رأسهم محمد حسين هيكل — فكان نقدهم موجها الى الكتاب من حيث طريقته التي عالج بها السيرة ، وتناول من خلالها أحداثها ، تلك الطريقة التي تعتمد على نشر وإذاعة الأساطير والاسرائيليات من تلك الأخبار التي لا يقبلها العقل ولا يستقيمها المنطق ، ومحاولة ربطها بأحداث السيرة ووقائعها ، في الوقت الذي يجب

أن تتحرر فيه السيرة من تلك الأساطير ، حتى لا تكون عرضة للشكوك ،  
بالإضافة الى تلك الحرية التي منحها طه حسين لنفسه ، حين تلاعب  
بأحداث السيرة تلاعب القصاصين ، وحين وسَّحَ عليها في القصص ، فابتدعت  
واخترعت من الأخبار والأحداث والشخصيات ما شاء لها أن تهتدع وتخترع ،  
قصدا من طه حسين الى أحياء أدب الأساطير .

كما أنهم يقولون : إذا كان طه حسين يريد أن يحمي أدب  
الأسطورة — كما يفعل أدباء الغرب حين يتحدثون عن أساطيرهم —  
القديمة — فينهض له أن يفرِّق بين الموضوعات التي يمكن أن تتخذ  
مادة لهذا الأدب والتي لا يمكن أن تتخذ مادة له .. فالتاريخ الذي  
لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والمقائد أثرا ما ، لا مانع  
أن يتخذ منه مادة لأدب الأسطورة ، أما التاريخ المرتبط في النفوس  
بالمقيدة ، فانه يجب أن يكون بعيدا عن تلك الأساطير ، والأحداث  
المختلقة والأخبار المبتدعة .

يقول محمد حسين هيكل : " الدكتور طه حسين ، انما سلك  
في " هامش السيرة " طريق كتاب الغرب ممن يتحدثون عن الأساطير  
القديمة ينشرونها ويزينونها ، والدكتور طه حسين انما قصد الى أحياء  
أدب الأساطير حين ألقى هذا الكتاب أو حين دُفِعَ الى ذلك دفعا  
وأكره عليه اكراها .. " (١) .

ثم يقول : " .. ان أدب الأسطورة هو أخصب ألوان الأدب ،  
ويزيدها خصبا أن الكاتب والقارئ يعرفان جميعا أن المادة التي

---

(١) ملحق السياسة الصادر في ديسمبر ١٩٣٣ .

يعالجان هي من نوع الأسطورة ، ولا جُنَاحَ عليهم اذا هم أطلقوا للخيال فيها العنان فابتدعوا من خيالهم ما يزيد هذه الأساطير رقةً وغدوً لا يحول بينهم وبين الأخذ بقول بعضهم " أعذب الأدب أكذبـــــــــــــــــه " أى حائل ، ولذلك أستمع طه العذري أن خالفته في اتخاذ النبي ومصره مادة لأدب الأسطورة .. " (١)

وقد أشار الدكتور محمد حسين هيكل في نقده هذا الى ما اتصل بسيرة النبي ساعة مولده وما روى عما حدث له من اسرائيليات - روجت بعد النبي - لا ينبغي أن تتخذ مادة لأدب الأسطورة ، فقال :

" .. لهذا وما اليه يجب في رأيي ألا يتخذ مادة لأدب الأسطورة ، فانما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب ما اندثر أو ما هو في حكم المندثر ، وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والمقائد أثرا ما . والنبي سيرته ومصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعا ، بل هي فلة من هذه الحياة ومن أعز فلتاتها عليها ، وأكبرها أثرا في توجيهها . والدكتور طه حسين يعلم أكثر مما أعلم أن هذه الاسرائيليات إنما أريد بها إقامة أساطير ميثولوجية اسلامية لافساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستربيين ، ودفع الريبة الى نفوسهم فســــى شأن الاسلام بنبيه .. من أجل ذلك أؤكد أن يفصل الدكتور طه حسين فيما قد يكتب من بعد من فصول تجرى مجرى " على هامش السيرة " بين ما يتصل بالمقائد وما لا يتصل بها " (٢)

أما غير هؤلاء وأولئك فيرون أن طه حسين بكتابه " على هامش السيرة " أراد أن يتلقى الجماهير فكريا بعد ثورتها عليه بسبب آرائه التي

(١) ملحق السياسة الصادر في ديسمبر ١٩٣٣ .

(٢) ملحق السياسة الصادر في ديسمبر ١٩٣٣ .

جاء بها كتاب " في الشعر الجاهلي " كما تعلقها سياسيا حين  
انصل بالوفد وترك الأحرار الدستوريين (١)

وقد كان رأيهم هذا مبني على ما يعرفونه من موقف طه حسين  
من الشعر الجاهلي ، وموقفه من بعض الموضوعات الاسلامية التي أثارها  
في كتابه " في الشعر الجاهلي " وأنه لا يمكن لانسان مثله هجم القيم  
الروحية قبل سنوات من صدور " على هامش السيرة " بأسلوبه النقدي  
ومنهج " الديكارتى " - أن يكتب في السيرة النبوية بأسلوب ومنهج  
مخالفين لاتجاهه الذي كتب به " في الشعر الجاهلي " وأن يوليها  
اهتماما كبيرا ، الا اذا كان يقصد من وراء ذلك حظوة شعبية لدى الجماهير  
وتصحيح موقفه الذي ساء بعد صدور كتابه " في الشعر الجاهلي " (٢)

\* \* \*

---

(١) راجع : طه حسين في معاركه الأدبية ص ١٤٨ .  
(٢) راجع : أضواء على الأدب العربي المعاصر ص ٢٨٥ .



## ٖٖ الباب الثالث ٖٖ

---

### " السيرة والأسلوب المسرحي "

من خلال

كتاب " محمد " لتوفيق الحكيم

- الفصل الأول : الحكيم والأدب المسرحي .
- الفصل الثاني : الحكيم ومسرحياته الدينية .
- الفصل الثالث : الفكرة والمنهج في كتاب " محمد " .
- الفصل الرابع : جوانب السيرة في كتاب " محمد " .
- الفصل الخامس : كتاب " محمد " في ميزان النقد .

∴ الفصل الأول ∴

الحكيم والأدب المسرحي

يعد توفيق الحكيم رائداً للأدب المسرحي العربي الحديث ، وعلماء من أعلامه البارزين ، لما قدمه في هذا المجال من أعمال أدبية رفيعة ، تشهد لصاحبها بالتفرد والتفوق .

وإذا قلت : للأدب المسرحي ، فإنما أعني الأدب المسرحي الفني الذي اكتملت أصوله ، واستوفت شرائطه حسب الأصول النقدية المعروفة في النقد الحديث .

ذلك لأن الأدب المسرحي غير الفني - أي : الذي لم تتكامل فيه عناصر هذا الفن ، ولم تستوف شرائطه - كان محروفاً قبل توفيق الحكيم ، عرفه الأدب العربي الحديث منذ سنة ١٨٧٠ على يد محقوب صنوع ، وعلى يد مارون النقاش وسليم النقاش وغيرهم من جاءوا بهم بعد محقوب صنوع . . . وكان لهؤلاء الرواد فضل ادخال هذا اللون الجديد من الأدب في الأدب العربي الحديث ، وكانت المسرحيات التي ظهرت على أيدي هؤلاء الرواد تمثل الهذور الأولى لهذا اللون من الأدب .

ومن هنا كانت تلك المسرحيات تفتقد الكثير من شرائط هذا الفن وأصوله ، كما اعتمدت على الاقتباس من المسرحيات الأجنبية ، وكذلك على التمزيب والتصوير ، ثم انتقلت إلى التاريخ العربي والإسلامي تأخذ منه موضوعاتها ، مثله بذلك طورا جديدا في مراحل حياتها . . كما أن هذه المسرحيات لم يكن الفرض منها قيمة أدبية بقدر ما كان الفرض منها اضحاك الجماهير وارضاء أذواقهم آنذاك . .

ويأتى الحكيم وتكامل على يديه المسرحية العربية فنياً ، وتستوفى شرائطها نقدياً ، ويستوى هذا الفن على سقته ، ويدخل مرحلة النضج والاكتمال ، وذلك بفضل دراسة الحكيم لهذا الفن ، واتقان أصوله وقواعده ،

واجادته له ، وتمكنه منه .

ولقد زخرت المكتبة العربية بالمديد من مسرحيات الحكيم ، التي ترجم أغلبها الى اللغات الأجنبية ، فترى بذلك كيف انتشر الأدب المصري الحديث بهذا اللون الذي وفد على الأدب المصري من الآداب الأوروبية — من ناحية ، ودخل الأدب المصري في قائمة الآداب العالمية من ناحية أخرى ، واستحق الحكيم — بفضل ما قدمه في هذا الفن — أن يكون الرجل الجدير بأن يتوج زعيما للأدب المسرحي المصري .

## ٖٖ الفصل الثاني ٖٖ

---

” الحكيم ومسرحياته الدينية ”

استفل الحكيم معرفته هذا اللون من الأدب ، واختاره شكلاً أدبياً لنتاجه الفنى ، ولكن الحكيم كان حريصاً على أن يستتبعه فى الأدب العربى والتراث العربى بعدما هضم أصوله الأوروبية ، كما كان يخشى الوقوع فى التقليد ، ولذا حرص على أن يبحث عما يسمى بالموضوع الشرقى ، وقاده هذا الى البحث فى طبيعة الروح الشرقى والحضارة الشرقية ، فى مقابل الروح الغربى والحضارة الغربية ، ولذا راج يفتش فى التاريخ الشرقى - على تعدد ألوانه وأنماطه - ليتخذ من صفحاته وأحداثه مادة لمسرحياته ٠٠ فمن التاريخ الفرعونى كتب الحكيم مسرحية " ايزيس " ومن التاريخ الأسطورى العربى كتب مسرحية " شهرزاد " ومن التاريخ الأسطورى اليونانى كتب مسرحية " أوديب "،

واستكمالاً لدائرة شرقية الموضوع ، اتجه الحكيم الى مسرحياته الدينية ، فمن القصص القرآنى كتب الحكيم مسرحيتى : " أهل الكهف " و " سليمان الحكيم " ومن التاريخ الإسلامى كتب الحكيم مسرحية " محمد ".

ولعل الحكيم كان يقصد من وراء مسرحياته الدينية أن يشبع الحس الدينى القوى فى المسرح حتى يحقق هدفه الخلقى فى صياغة الحضارة بنواحيها العلمية والفكرية والمادية صياغة جديدة ، تتقد الانسان من شقائه ، وتضبط علاقاته بالله والكون والمحيط الانسانى الذى يسمى الى الحرية والكمال والعلاقات الحانية الودودة . (١)

وبالنسبة لمسرحية " محمد " خاصة قال الحكيم : انه أراد بها أن يسجل صورة النبى بشراً ٠٠٠ لخدمة هدف وطنى وقومى ، وذلك

(١) كلمة " الودودة " خطأ لا يقع فيه الا ساذج ، وفى الحديث : " تزوجوا الودود الودود " فالتأ خطأ .

(١) راجع : مجلة اليمامة ص ٣٨ ، ٣٩ ، السنة العاشرة - العدد ٣٩١ .

عن طريق إبراز المبادئ والقيم العليا التي تهدف الى سعادة الانسان .

وقال أيضا : انه يقدم في هذا الكتاب عملا فنيا يقوم على روح  
"الدرااما" وجوهرها ، وانه يكتب هذا الأثر ليعق ويخلد ، لأنه يصدر عن  
شعور ديني بوجود اله يتحكم في الانسان ، وذلك في عصر ليس فيه  
مفكر غربي يؤمن حقا بوجود اله آخر غير الانسان نفسه . (١)

والناظر في مسرحيات الحكيم الدينية يراها تعتمد على فكرة  
المزاوجة بين المادة والروح ، أو على العقل والقلب . وهذا هو الخط  
الذي يربط بينهما . . . وكان الحكيم يريد أن يقول : ليس العالم عالم  
مادة فقط ، أو عالم روح فقط ، أو عالما يعتمد في معرفته على العقل  
فقط أو القلب فقط ، انما هو عالم مزيج من هذا وذاك ، فما كان  
ماديا منه فالوسيلة الى الايمان به انما هي والعقل ، وما كان روحيا ،  
فالوسيلة الى الايمان به انما هي القلب . .

يقول الحكيم في مقال له بعنوان " منطقة الايمان " : " . . .  
فالعقل لا يدري الا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه ، والحقيقة  
الحقيقية ليست الحقيقة كلها ، ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل أن  
يراه من زاويته ، فاذا كانت الحقيقة مرجعها القلب ، فان العقل  
لن يرى منها الا الشطر الذي يستطيع أن يراه ، ويظل محجوبا عنه  
الشطر الواقع في دائرة القلب . فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن  
اللطيف لا شك فيه عند القلب ، أما العقل فان استطاع أن يتصور  
وجود الخالق فانه قد يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة اليه ، وقد  
يراه — في منطق — صفات آدمية أسهبها البشر على خالقهم اجلال له ،

---

(١) راجع : مجلة الهامة ص ٣٨ و ٣٩ .

لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التى هى فى عرفهم مرادف  
الأكابر والتقدير . أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ، وهى  
يستطيع الجزأ أن يرى الكل ؟ " (١)

اذن ، فالمحرفة الدينية عند الحكيم هى محرفة حدسية تعصف  
بالقلب مرة واحدة ، فهى ليست وليدة تأمل فكرى أو خلاصة نظر عقلى ،  
وانما هى قهقرا كل ذلك يقين يتجلى للقلب ، كما يتجلى الجمال ، لأنها  
أمر مركون فى النفس فطر عليه الانسان .

ونرى هذه الفكرة : فكرة المزوجة بين العقل والقلب ، أو المادة  
والروح - واضحة كل الوضوح فى مسرحيتى : أهل الكهف " و " محمد " .  
فالراعى فى مسرحية " أهل الكهف " لم يقده الى الايمان كلام الراهب  
بما فيه من جمال ومنطق ، بل أيقظ فى نفسه ايمانا قديما فطر عليه  
الراعى . واذا كان الراعى يمثل الفطرة ، فان زميله : " مشاهيرنا " .  
يمثل القلب ، بينما يمثل " مرنوش " العقل . .

وشخصية محمد فى مسرحية " محمد " لها جوانب ثلاثة :  
جانب الروح ، وجانب المادة ، وجانب الفطرة . . بجانب الروح يمثل  
تصوير الحكيم لشخصية محمد نبيا رسولا ينزل عليه الروحى من السماء ،  
وجانب المادة يمثل تصوير الحكيم لشخصية محمد بشرا يفرح ويفضرب  
ويحزن ، وينام ويصحو ، ويمرض ويموت . . . وجانب الفطرة يمثل تصوير  
الحكيم لشخصية محمد انسانا يفكر ويتأمل فى خالق هذا الكون كيمس  
يصل الى الحقيقة التى ينشدها ، وهذا هو الايمان الفطرى . . واذا كان

---

(١) " محمد وهؤلاء " ص ١٠١ .



الانسان يرى فى مادية الرسول ومشرته شيئا يؤمن به بحظه لأنه يــــــراه ويحسه ، أى يرى ويحس آثار هذه المادية والبشرية ، فانه يرى نفسى روحية الرسول وتلقيه الوحي من السماء وما فيهما من أمور تخفى على العقل وتدق على الفهم — شيئا لا يستطيع أن يدركه بحظه ، أو يفسره ، بمنطقه ، لأنها فوق مستوى العقل والمنطق ، بل يدركه بقلبه .

وقد أكد الحكم نفسه جانب الروح والمادة ، أو جانب القلب والعقل ، عندما قال : أنا أتحرك دائما فى عالمين ، وأقيم شكـــــــى على عمودين ، ولا أرى الانسان وحده فى هذا الكون .. انى أومن ببشرية الانسان .. وأرى عظمتة فى أنه يشر ، له ضعفه ونقصه وعجزه وأخطاؤه ، ولكنه بشر يوحى اليه من أعلى<sup>(١)</sup>.

ولعل هذه المزاوجة فى فكر الحكم راجعة الى مزاجته الثقافية التى جمعت بين الثقافة الأوروبية الحديثة المبنية على العقل والمادة ، والتى فهمها الحكم وتذوقها ، بل غنى فيها — والثقافة المصرية الاسلامية المبنية على القلب والروح وعلى العقل اولا ، والتى كان الحكم من أكثر المثقفين المصريين حرصا عليها .

ويستطيع القارئ أن يجد هذه المزاوجة بين المادة والروح ، أو العقل والقلب ، ليس فقط فيها أسلفنا من حديث عن بعض مسرحياته الدينية ، بل يجدها — أيضا — فى تأملاته الاجتماعية والسياسية والفنية ، فهو — فيها — يهدو شرقيا وغربيا فى وقت واحد ، أو هو يحاول التوفيق بين القديم والجديد ، أو بين الشرق والغرب على سنة العرب المسلمين فى عهد نهضتهم الأولى ، فان لم ينجح فى هذا التوفيق ، أعطــــن

أن حضارة الشرق أعمق وأبقى " فالغرب يستكشف الأرض والشرق يستكشف  
السماء " و" الروح لا الملم مصدر الخلود " (١)

ولقد استطاع الحكيم بهذه المزاوجة أن يزيد الفكر والأدب العربي  
ثراءً بفكر وفن وأدب ينفخ فيه أصالة القديم وابتكار الجديد ، وأن يحقق بذلك  
ثقافة قومية ، لا تختلف عن الثقافة الأوروبية ولا تندمج فيها .

\*\*\*

---

(١) محمد وهولاء ص ١٠٤ .

### :: الفصل الثالث ::

#### " الفكرة والمنهج في كتاب " محمد "

- أ - الفكرة •
- ب - المنهج •

## أ - الفكرة :

لعمل الذى قادنا الى ذلك الفصل السابق الذى أوضحنا فيه الخط الفكرى الذى التزم به الحكيم ، والذى انتظم معظم مسرحياته - هو أن نقول : أن هذا الخط قد التزمه الحكيم فى مسرحية " محمد " أن صحت هذا التعبير ، وأنه زواج فيها بين الجانب المادى والجانب الروحى ، أو بعبارة أخرى : زواج فيها بين شخصيتى محمد : شخصية محمد البشر ، وشخصية محمد الرسول ، ولعل ذلك يفسر لنا سر تصدير الحكيم كتابه " محمد " بهذه الآية الكريمة : " قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ .. " (١)

وإذا ما عدنا الى كتاب " محمد " (٢) لنفتش فيه عن فكرة معينة حاول الحكيم أن يبرزها ، أو مشكلة أراد أن يعالجها ، فأننا لا نعثـر على شئ من ذلك ، فى الوقت الذى نجد فيه جميع مسرحياته تتضمن أفكارا وآراء ، أو مشكلات وقضايا ، وتحاول إبرازها ومعالجتها ..

ففى مسرحية " شهرزاد " مثلا يعالج الحكيم فكرة الصراع بين الانسان ، وبين الفريضة والمأطفة والعقل ، وتخبطه فى هذه القيود الثقالة .

وفى مسرحية : " أوديب " يعالج الحكيم مشكلة القدر .  
وفى مسرحية " أهل الكهف " يعالج الحكيم مشكلة الزمن ، وهكذا .

---

(١) الآية : ١١٠ من سورة الكهف .

(٢) نشر الحكيم سيرة محمد فى كتاب سنة ١٩٣٦ وكان قبل ذلك ينشرها سلسلة فى مجلة " الرسالة " .

والسر في ظو كتاب " محمد " من الأفكار والقضايا التي نجدها  
مبثوثة في مسرحيات الحكيم ، أن الحكيم في كتابه " محمد " لم يكن  
يقصد به أن يكون مسرحية متضمنة فكرة بالمعنى الفني لهذه الكلمة  
ومشكلة يقصدها من وراء كتابة المسرحية . بل كان يقصد به أن يتناول  
سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتصوير وقائعها وأحداثها من خلال  
طريقة عصرية جديدة ، هي الطريقة المسرحية ، وشكل أدبي لم تكتب  
به من قبل ، هو الشكل الحوارى الذى يأخذ ما للمسرحية من سمات ،  
هى التقسيم الى فصول ، وتقسيم الفصول الى مناظر ، وتصوير الوقائع  
على السنة الأشخاص من خلال حوار مباشر .

وهذا مع المحافظة على حقيقة الصور التاريخية والأحداث التى  
وقعت فى تاريخ السيرة النبوية ، دون أن يتدخل من جانبه بشئ من  
تفسير أو تحليل أو رؤية خاصة ، أو فكرة معينة يبرزها من خلال الحوار ،  
الذى قد يغير عن غير عمد بعض الملامح والسمات .

والحكيم نفسه صرح بهذا كله فى مقدمة كتابه ، حين قال :  
" المؤلف فى كتب السيرة أن يكتبها الكاتب ، ساردا ، باسطا ، محظا ،  
محقا ، مدافعا ، مفندا . غير أنى يوم فكرت فى وضع هذا الكتاب قبل  
نشره عام ١٩٣٦م ألقى على نفسى هذا السؤال : الى أى مدى تستطيع  
 تلك الطريقة المألوفة أن تبرز لنا صورة بعيدة - الى حد ما - عن  
تدخل الكاتب ؟ . صورة ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل ، دون  
زيادة أو اضافة ، توحى إلينا بما يقصده الكاتب أو بما يرمى إليه ؟ .

عندئذ خطر لى أن أضح السيرة على هذا النحو الفريسي .  
فعلقت على الكتب المعتمدة ، والأحاديث الموثوق بها ، واستخلصت منها  
ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل وحاولت - على قدر الطاقة - أن أضح

كل ذلك فى موضعه كما وقع فى الأصل ، وأن أجمل القارئ يتمثل كل ذلك ، كأنه واقع أمامه فى الحاضر ، غير مبيع لأى فاصل - حتى الفاصل الزمنى - أن يقف حائلا بين القارئ وبين الحوادث ، وغير مجيز لنفسه التدخل بأى تعقيب أو تعليق ، تاركا الوقائع التاريخية ، والأقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة ..

كل ما صنعت هو الصب والصياغة فى هذا الإطار الفنى البسيط<sup>(\*)</sup> ، شأن الصائغ الحذر ، الذى يريد أن يبرز الجوهرة النفيسة فى صفائها الخالص ، فلا يخفيها بوشى متكلف ولا يفرقها بنقش مصنوع ، ولا يتدخل إلا بما لا بد منه لتثبيت أطرافها فى إطار رقيق لا يكاد يرى .. هذا ما أردت أن أقول ..<sup>(١)</sup>

ومن هنا ظهر لنا أن عمل الحكيم فى كتابه " محمد " يختلف اختلافا كبيرا عن عمله فى مسرحياته الأخرى ، وظهر لنا أيضا أنه - إن جاز أن نسمى هذه الأعمال مسرحيات ، فإنه لا يجوز أن نسمى كتاب " محمد " مسرحية بالمعنى الفنى لهذه الكلمة .. " غير أنه - من الواضح أن سيرة " محمد " كما عرضها الحكيم ليست مسرحية ، رغم تقسيمها الى ثلاثة فصول لها مقدمة وخاتمة ، ورغم تقسيم هذه الفصول الى مشاهد تحاول رسم المكان والزمان والمورثيات والمحنويات التى تجرى خلالها الأحداث وتحرك الشخصيات .

وذلك أن هذه السيرة ، كما عرضها الحكيم تظل من الهنأ " الدرامى " أولا ، كما أن بها كثيرا مما لا يمكن تجسيه على المسرح

---

(\*) كلمة " البسيط " خطأ شائع ، ومدلولها عكس ما يراد منها .

(١) " محمد " : توفيق الحكيم ص ٥٥ .  
والصواب : الضيق أو المحدود أو نحوها .

ثانيا ، ومن ذلك الملائكة والجن والنبي والصحابة ... وليس يخفى أن المؤلف لم يقصد قط الى عمل مسرحية من كتابه عن سيرة " محمد " ومن هنا لا يمكن أن يحاسب على أن هذا العمل مسرحية ... (١)

ولعل ذلك يفسر لنا السر في اغفال بعض النقاد - الذين تناولوا نتاج الحكيم المسرحي - كتاب " محمد " وعدم عدّه مسرحية لما تقدم .

وعلى الرغم من أن عمل الحكيم في كتابه " محمد " قد انحصر في صب السيرة النبوية وصياغتها في هذا الاطار الفني ، كما يقول ، وهو الاطار المسرحي الذي يعتمد على الأسلوب الحوارى ، دون تدخل منه بتمعيب أو تعليق .

أقول على الرغم من ذلك ينجح الحكيم في هدفه هذا نجاحا كبيرا ، فالسيرة النبوية التي يروونها في كتابه هذا ، فيها من الجلال والروعة ، كما فيها من التسلسل والهمس ، الى جانب التشويق والامتع ما يجمع من عمله شيئا ناجحا وجديدا : ناجحا من حيث السرد الممتع الجميل للأحداث السيرة ، وجديدا من حيث الشكل الحوارى والقالب المسرحي الذى صب فيه . . . بالاضافة الى أنه استطاع أن يقدم أخبار السيرة لجسم القراء رشيقة خالصة من المنعنات الكثيرة والتفاصيل التى لا تنهم الا الباطنين والمحققين والمؤرخين ، مما يجعلها في متناول القارئ العادى ، بالاضافة - أيضا - الى تقديم شخصية الرسول بصورتها - صورة محمد البشر - بصورة محمد الرسول - في لوحة جديدة ، حيث عوض كل صورة من هاتين الصورتين فى مناظر متعددة ، جلى من خلالها تلك الشخصية الفذة التى كانت مثالا عاليا فهذا فى كلتا الصورتين .

---

(١) الأدب القصصى والمسرحى فى مصر ٤١٤ و ٤١٥ .

ومع كل هذا الذى أضافه الحكيم - حين عرض السيرة النبوية - هذا العرض الأدبى الجميل ، وعمل هذا العمل فى كتابتها على هذا النحو - لا يمكن أن نعدّه ابداعاً فنياً خالصاً ، لافتقاده الفكرة الخاصة التى هى هدف الفنان ، حين يقدم عملاً فنياً ، لافتقاده وجهة نظراً المؤلف فى تصويره لشخصياته الذين احتوتهم السيرة ، وعلى رأسها شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما فعل - مثلاً - المؤلفون الأوروبيون الذين كتبوا عن إبراهيم وموسى وسليمان والمسيح ومحمد ، إذ عالجوا هذه الشخصيات بالطريقة التى تتلاءم مع فكرة كل مسرحية .

ولعل الذى حال دون أن ينهج الحكيم هذا النهج الفنى الخالص الذى يعرض من خلاله شخصية الرسول ، من وجهة نظر معينة وفكرة محددة . . هو أن شخصية النبی محمد لها من الجلال والقداسة فى نظر المجتمع الإسلامى ، وجلال وقداسة يمنعان تعرض هذه الشخصية الفذة لاجتهادات الأدباء والفنانين ، بحيث يصورها كل منهم كما يشاء له فكره ومذهبه .

ومن هنا نرى الحكيم لا يستخدم فى هذا الكتاب منه بقدر مما يستخدم ذكاه وسهارة ، فيحول الأخبار والروايات الى حوار ، ويترجمها بما يتفق مع فكرة التابع الزمنى للوقائع وحوادث الحياة .

\*\*\*

#### ب - المنهج :

وإذا كان الحكيم قد اعتمد بالسيرة عن أن ينحو بها نحواً فنياً خالصاً ، فيسوقها من خلال فكرة معينة أو يصورها من خلال رؤية خاصة . وإذا كان الحكيم قد التزم فى عرضه لأحداث السيرة وقائمهـا بما جاءت به كتب السيرة ، وما أثبتته كتب التاريخ من وقائع وأحداث وروايات



وأخبر ، لم يَحِدْ عنها الحكيم ، كما سبق أن أشرنا ..

أقول : إذا كان الحكيم قد ائتمد بالسيرة عن أن ينحو بهـ  
نحو فنيا خالصا ، وإذا كان الحكيم قد التزم بما أتت به كتب السيرة  
فإن هذا لا يعنى أن الحكيم قد استعرض السيرة من خلال منهج تاريخى  
والا لتعقب ما جاء فى كتب السيرة والتاريخ من وقائع وأحداث وأخبار  
وروايات بالشرح والتفسير والتحليل والتحقيق ، وهذا ما أعلن الحكيم أنه  
لن يقدم عليه ..

ومن هنا لا نستطيع أن نسمى عمل الحكيم هذا سيرة أو تاريخا ،  
وان كان قد استند فيه الى الكتب التاريخية المعتمدة ، ذلك لأن الاعتماد  
على الكتب التاريخية شئ وعمل المؤرخ المحقق الدارس شئ آخر ،  
فالكتاب المحقق المؤرخ يطالب بتمحيص ما يقرأ وعرضه على الحقيقة ، وتفتيته  
ما ناله من شوائب الرضح والانتحال أو من عوادي التفسير والزيادة ، وهو  
يطالب — أيضا — بأن يكون صاحب وجهة نظر محددة ، يريد أن يثبتها  
فينا يقدم بين أيدي القراء من عمل .

وإذا ما حاولنا أن نطبق المنهج الذى يعتمد عليه المـ  
المحقق — والذى أشرنا اليه — على عمل الحكيم هذا ، فأننا نـرى  
أن الحكيم لا ينهج نهج المؤرخ من شرح وتفسير وتحليل وتحقيق ..  
كما أنه لا يناقش — من خلال كتابه هذا — شيئا معيناً ، أو يضيف  
الى كتابته رؤية خاصة نحو بعض الأحداث أو الوقائع كما يفعل المؤرخون .

ومن هنا جاء كتابه جامعا لما أتت به كتب السيرة من حقائق  
أو خيالات ، من روايات صادقة تخضع للعقل والمنطق ، أو روايات  
يقف أمامها العقل والمنطق حائرا ، ولذا رأينا كتاب " محمد " مليئاً  
بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وهو أيضا مليء بالمأثورات والشعر

والحكايات المروية على السنة الصحابة وغير الصحابة من مسلمين وغيرهم —  
وكفار ونصارى .. دون أن يتناول شيئا من ذلك بتحقيق أو تحليل  
أو تفسير .

وليس فى هذا كله عيب وقع فيه الحكيم ، ولكنه يحدد لنا أن عمل  
الحكيم ليس تحقيقا تاريخيا ، وأن الحكيم فى كتابه " محمد " ليس باحشا  
محققا ، ولا مؤرخا يقدم تحليلا جديدا للسيرة ، يتناولها من وجهة  
نظر معينة ، أو يبحثها وفق منهج بذاته ...

وانما الحكيم أولا وأخيرا فنان ، اهتزت نفسه أمام أحداث السيرة  
النبوية ، وفاضت عاطفته تجاه صاحبها عليه الصلاة والسلام — فعبّر عنها  
فى هذا القالب الحوارى ، وليس عليه أن يختار هذا القالب بذاته ، وليس  
عليه أن يختار من أحداث السيرة ما يعبر به عن احساسه تجاه السيرة  
وموقفه منها . وهذا الموقف بالنسبة للحكيم موقف فنى جمالى ، لا يبحث  
فيه القارئ عن الحقيقة ولا عن مدى تعقل العقل لما فيه من أضرار  
وروايات ... بقدر ما يبحث فيه عن صدق الاحساس وصدق التعبير .

ولقد أحسن الحكيم الأديب احساسا عميقا — وهو يستعرض السيرة  
النبوية — وامتألت نفسه بمحمد البشر الذى يحب ويقاتل ويفكر ويخطئ ،  
ويفرح ويحزن ، ويصيح ويصم ، وينام ويصحو .. — فعبّر عن ذلك فى  
صور متعددة .

كما أحسن الحكيم الأديب احساسا عميقا ، وفاضت نفسه بمختلف  
المواطف والانفعالات نحو محمد الانسان .. الذى يقف ثابتا قويا  
أمام كل الأحداث المثبطة المموجة فيتغلب عليها بقوة إيمانه ، وجلده  
وصبره .. يقف أمام الصعاب التى تعترض طريقه فيذلها تارة بالحياسة ،

وتارة بالقوة ، وتارة بالصبر والصمود .. الانسان الذى تمثلت فيه هذه الكلمة بكل ما تحتمله من معان ودلائل .. انسان فى سلوكه .. فى أدبه .. فى خلائقه .. ان محمدا الانسان هز الحكيم وأثر فى عقله وقلبه معا فعبّر عنه فى صور متعددة وأنماط مختلفة .

وبالإضافة الى احساس الحكيم وامثاله نفسه بشخصية محمد صلى الله عليه وسلم : بشرا وانسانا ، أحس الحكيم وفاضت أحاسيسه بمحمد الرسول الذى يأتيه الوحي من السماء بأوامر الله ونواهي وآدابه وتشريعاته .. ليملفها الرسول الى الناس كافة .. أحس الحكيم بهذه العلاقة القوية التى تربط الانسان بربه ، وهذه الصلة القوية بين عالم الأرض وعالم السماء .. بين دنيا الناس بشروهم وآثامهم ، وبين ربهم القوى العادل الرحيم ، يرسل من عنده الهداية والرحمة ، كي يكون فى التزامهم بها سعادتهم فى الدنيا والآخرة .. أحس الحكيم بهذه المعانى فعبّر عنها .. الى غير ذلك من الجوانب المختلفة التى أحس بها الحكيم أثناء قراءته السيرة .

ولقد أثار أحاسيس الحكيم وفجر خياله - بالإضافة الى ما تقدم - ما أثبت فى السيرة النبوية من خوارق ومعجزات ، اذ رأى فيها الحكيم مجالا خصبا يطلق فيه خياله المنان ، بما تغتصه أمام الأعين من عوالم فساح ، وما تتبهره للانسان من مجالات للهروب من الواقع المحدود الضيق الى واقع فسيح رحيب .. ولذا لا نعجب حين نرى هذه الخوارق وتلك المعجزات ~~مفروضة~~ فى كتاب " محمد " لأن الحكيم قد استهوته هذه الأشياء فعبّر عنها .

والحكيم فيما أحس به وعبّر عنه - مما تقدم - كان ملتزما بما جاء فى كتب السيرة النبوية سواء فيها يتعلق بجوانب شخصية الرسول .. أو فيها

أورده من خوارق ومعجزات .. ولكن الحكيم على الرغم من التزامه بهذه يبدو في بعض المشاهد ، وكأنه الفنان المقيد الذي يتعلم بحثا عن مواقف يحبر فيها عن نفسه ، وينطلق فيها من هذا القيد الذي ألجم به قلبه .. ويجد الحكيم هذه المواقف في الأخبار التي لا يكون النبي طرفا مباشرا فيها .. أو فيها يعن لخياله من إضافات لا تتناقض مع أخبار السيرة كما نجد - مثلا - في المشهد الذي يصور فيه إبليس وقد ظهر في ثياب شيخ نجدى وقد دخل دار الندوة ، حيث كانت تجتمع قريش للتشاور في أمر محمد ، وتتفق على قتله قبل الهجرة .. أن سيرة ابن هشام تذكر هذا الخبر في سطور قليلة ، ولكن توفيق الحكيم يبتدع لقاء حوارا يجري بين إبليس والحية التي كانت رسوله إلى حواء في الجنة ، والتي تظهر له في حائط دار الندوة ، وهو يهيم بدخولها .. والحوار بينهما عليل فني متكامل يتحدث في انفعال عن الفرواية والإيمان وعن السعي الخبيث الذي يقوم به إبليس ليضوي الناس عن ربهم ، وعن موقفه من هذه الدعوة الجديدة التي لا سهيل له على صاحبها .

وخلاصة ما تقدم أن منهج الحكيم في معالجة السيرة النبوية منهج فني أدبي ، لا منهج علمي تاريخي ، لأن الفن انتقاء واختصار ، والملم تتيج واستقراء ، فالعالم يتبع ويستقصي كل ما أمامه من حقائق وأخبار ، والفنان يلتقط بحاسة الموهبة من كل ما حوله ما يتجاوب مع انفعاله ، ويحبر عن مشاعره أمام الحدث ، فيحدد هذا الاختيار المعمد الفني نفسه .. وما بالك بكتب السيرة وقد امتلأت أمام الحكيم بحكايات من كل نوع ، ترضى عنده أكثر من نزعة ، وتتجاوب مع كل انفعال ، ولم يكن أمام الحكيم إلا أن يختار .. وكان الحكيم صادقا صادقا فنيا مع نفسه ومع عمله ، حين اختار ما هز مشاعره وتجاوب مع أحاسيسه .

وليس أدل على هذا من أن هناك جوانب معينة ركر عليها الحكماء  
الأضواء أكثر من غيرها ، هذه الجوانب تكشف عن عملية الاختيار الفسنى  
عند الحكماء . . فهو قد ركر الأضواء على مواقف الرسول من موت ولده  
وموت عمه حزة وموت عمه أبى طالب . . الموت هز الحكماء . هذا الموقف  
الذى تتفجر فيه النفس البشرية حوة طليقة ، حررها الألم من كل قيد . .  
فركر الأضواء عليه . وكذلك فعل الحكماء من موقف الرسول من عائشة وغيرها  
من النساء ، فالمحلاة بين الرجل والمرأة - هذه المحلاة التى هى سر  
الكون - كانت كفيلة أن تثيره وتطيره فركر الأضواء عليها . . بل كذلك  
فعل الحكماء حين رسم شخصية النجاشى ملك الحبشة ، فقد أعطى له صورة  
الملك الكريم الناضج المؤمن ، ورمز به الى ما بين الأديان السماوية  
من علاقات الحب والمودة والترابط ، اذا خلعت هذه المحلاة من شوائب  
الحقد والخيرة ووجدت النفوس الراضية المطمئنة . . الى غير ذلك من  
المواقف التى سلط عليها الأضواء .

## ٖٖ الفصل الرابع ٖٖ

---

### جواب السيرة فى كتاب " محمد "

- ١ - محمد الرسول :
- أ - الوحى •
- ب - التبليغ •
- ج - المعجزات والخوارق •
- ٢ - محمد البشير •

قلنا سابقا ان الحكيم قد استعرض السيرة النبوية من خلال كتابه " محمد " في قالب مسرحي ، يمكن أن يسمى مسرحية ، أو يسمى سيرة حوارية ، وقد جعل الحكيم هذه المسرحية ، أو تلك السيرة الحوارية في ثلاثة فصول ، تسبقها مقدمة وتمهيدها خاتمة ، وقد قسم الحكيم هذه الفصول ، وما سبقها ولحقها من مقدمة وخاتمة الى مناظر بلغت في مجموعها خمسة وتمعين منظرا ، ومن خلال هذه المناظر استعرض الحكيم السيرة النبوية منذ بدأت بشائر مولده صلى الله عليه وسلم .. حتى وقف أهله وصحابته حوله وهو مسجى في فراش الموت ..

أما المقدمة: فتتناول أطرافا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بشائر مولده ، حتى زواجه من خديجة رضى الله عنها .. وأما الفصل الأول: فيعرض صورا من حياة الرسول منذ أن نزل عليه الوحي وهو في غار حراء - أي منذ بعثته رسولا - حتى هجرته وصاحبه أبى بكر الى المدينة .

ويمكننا أن نقول - بمباراة أخرى - : ان المقدمة والفصل الأول يصوران الحقبة المكية في حياة صلى الله عليه وسلم ، ويعرضان صورا من حياته قبل الهجرة ، وصورا من حياته بعد الهجرة ، وما لاقاه خلال تليفه دعوة ربه من أذى وغت وارهاق ، وصبره على هذا كله وصبر أصحابه معه ..

وأما الفصل الثاني: فيعرض صورا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة منذ هجرته اليها ، حتى غزوة الخندق وحصار بني قريظة ، ويقدم الحكيم خلال هذا الفصل مشاهد من حياته خلال هذه السدة وما لاقاه في سبيل الدعوة من عنت وصعوبات سواء أكانت من جانب

المشركين أهل مكة أو من جانب اليهود ساكني المدينة أو من جانب المنافقين الذين ذهبوا كثيرا من المشاكل والقلق للرسول والمسلمين، كما يعرض صورا ومشاهد لفترات الرسول خلال هذه الأزمنة .

وأما الفصل الثالث : فيعرض صورا من حياة الرسول منذ غزوة بنى المصطلق حتى فتح مكة ، ويقدم الحكيم خلال هذا الفصل مشاهد من حياة الرسول ، مثل حادثة الافك ، وفتح خيبر ، ورسله الى الملوك والأمراء ، وولادة ابنه ابراهيم ، ووفاته ، صلح الحديبية ، وفتح مكة .

وأما الخاتمة : فتتناول الصفحة الأخيرة من حياته صلى الله عليه وسلم ، فيعرض الحكيم فيها حج الرسول حجة الوداع وخطبته ، مرضه ، ووفاته .

ويمكننا أن نقول — في ايجاز — ان الفصلين : الثاني والثالث ، والخاتمة ، تعرض مناظرها صورا ومشاهد من حياة الرسول المدنية . كما تعرض المقدمة والفصل الأول صورا ومشاهد من حياة الرسول المكية .



والحكيم في تناوله للسيرة النبوية واستعراضه لها ، لا يقتنع بكل الوقائع ولا يستقصي كل الحوادث ولا يورد كل الروايات والأخبار . بل يختار من تلك الوقائع والحوادث ، ومن هذه الروايات والأخبار ما يصنع منها صورا ومشاهد، تصور حياة الرسول في مكة والمدينة منذ مولده حتى وفاته ، من خلال تصويره جانبي شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهما : شخصية محمد البشر ، وشخصية محمد الرسول .



ومن هنا يرى القارئ صوراً ومشاهد من حياة محمد الهشيم يرى فيها محمداً الرجل المثالي والزعيم القوي ، والداعية الصامد ، كما يرى فيها كل سمات البشرية من القوة والخشية ، ومن الصواب والخطأ ، والرغبة والألم والحزن والفرح ... الى غير ذلك من سمات البشرية ومظاهرها ..

ومن هنا - أيضاً - يرى القارئ صوراً ومشاهد من حياة محمد الرسول : يرى فيها جبريل وقد نزل بالوحي من السماء على محمد صلى الله عليه وسلم ، برسالة ربه وحياً منزلاً يرسم للناس طريق الهداية ، وطريق العبادة ، وطريق الحياة الصالحة .. كما يرى القارئ محمداً الرسول الذي يبلغ الناس رسالة ربه ويتحمل في سبيل تليفيها الصعاب والمشاق .



#### ١ - محمد الرسول :

##### أ - الوحي :

ان سمة النبوة أو الرسالة ، انما هي الوحي المنزل على النبي أو الرسول من السماء ، عن طريق جبريل عليه السلام ، وقد ركز الحكيم الأضواء عليه ، وذلك حين عرض صوراً ومشاهد يصور فيها نزول جبريل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم واتصاله به ، وقد تكرر هذا النزول وذاك الاتصال على امتداد حياة الرسول منذ بعثه الله رسولا حتى التحاقه بالرفيق الأعلى ..

(١) في المنظر الأول من الفصل الأول، يرسم الحكيم صورة لمحمد وهو في غار حراء، باحثاً عن الحق، مخاطباً خالق الكون، وقد نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي:

محمد : يارب هذا الكون ! .. ياخالق السموات ! .. ياخالق  
الشمس والقمر والنجوم ! .. ياخالق هذه الأرض وهذه  
البحال !! ياربى وخالقى وخالق الكائنات ! .. أريد  
وجهك ! .. أريد وجهك ! ..

"يرى ضوءاً غريباً، ويسمع صوتاً عجيباً، ويهبط عليه الوحي"

الوحي : " يا محمد " ..  
محمد : " ياخذذه ذعر " من هذا ؟  
الوحي : " يا محمد " أنا " جبريل " !!  
محمد : ماذا أسع ؟ ! ماذا أسع ؟ !  
جبريل : أنا جبريل يا محمد .  
محمد : جبريل ؟ !  
جبريل : " يدنى منه كتاباً في نمط من ديباج " اقرأ !  
محمد : " ياخذذه رعب " ما اقرأ !  
جبريل : يَخْتَهُ بِالْكِتَابِ " اقرأ !  
محمد : " وقد بلغ منه الجهد " ما اقرأ !  
جبريل : يَفْتَحُ " اقرأ !  
محمد : ماذا اقرأ ؟  
جبريل : " اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق .  
اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما  
لم يعلم " (٢)

(١) الآيات : ١ - ٥ من سورة العلق .

(٢) محمد ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) وفي المنظر الرابع من الفصل الأول ، يصور الحكيم محمداً وقد جلس مع خديجة في دارهما، وقد أرادت خديجة أن تستيقن من أمر الذي يأتي محمداً ، أهو ملك كريم أم شيطان رجيم ، وتتأكد خديجة في النهاية أن الذي يأتيه ملكٌ فتعشره ، وذلك حين لم تسره لحظة أن تتحسر وتلقي خوارها ، وحين تعود خديجة الى خوارها يسدو جبريل من جديد ويدنو من الرسول ، فيرتعد ويتصبب جبينه عرقاً وينادي على خديجة ، طالبا منها أن تدثره ، وفي هذه اللحظة ينزل عليه الوحي مبليفاً محمداً أن الله اختاره رسولا يبلغ الناس رسالة ربه ..

محمّد : " مرتجف الصوت " خديجة !  
 خديجة : " تراء فتعشرُ اليه " مالك يا ابن عم ؟ !  
 محمّد : إنّسى !  
 خديجة : " في قلق وخوف " مالك ترتعد ، وما لجبينك يتعبد عرقاً ؟  
 محمّد : دَثْرُونِي ! دَثْرُونِي !  
 خديجة : " تدثره سريعاً وتهمس " هَوِّنْ عليك !  
 جبريل : " لمحمّد ، ولا يسمعه غير محمّد " .. يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ .  
 ثُمَّ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ . وَشِيبَاكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ . (١) . (٢)

(٢) وفي المنظر السابع من الفصل الأول ، نرى جبريل يصدر لمحمّد أمر الدعوة العلنية .  
 " محمّد على جهل الصفا ، بين يدي جبريل "

(١) الآيات : ١ - ٧ من سورة المدثر .

(٢) محمّد ص ٢٦٠ .

جبريل : " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ • وَخَفِضْ جَنَاحَكَ  
لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ <sup>(١)</sup> • وَقُلْ إِنِّي أَنَا  
النَّذِيرُ الْمُبِينُ • • • • • فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعِزِّضْ عَنِ  
الْمُشْرِكِينَ <sup>(٢)</sup> • "

" يرتفع عنه الوحي "

محمد : " كالمخاطب لنفسه " ساصدع بما أمرت • ساصدع  
بما أمرت <sup>(٣)</sup> • "

" ينهض • • • • • "

(٤) وفي المنظر السادس عشر من الفصل الأول، يصور الحكيم  
الرسول عند غار حراء محزوناً يدعو ربه ويستعين به • ويدعوه أن يبعث إليه  
وحيه • بكل ما سألت به قريش بعدما طال غيبته • حتى شق على  
الرسول ما يرجف به أهل مكة • كما يصور الوحي وقد نزل على الرسول  
بعد هذه الغيبة فيراه الرسول فينتلّي قلبه فرحاً • •

محمد : " وحيداً في بلا يستعين ربه " أي رب ! • •  
إليك أشكو بلائي • • أي رب ! • • ابعت  
إلىّ وحيك • • ابعت إلىّ وحيك ! • • لقد  
سألوني عن الروح • ولا أعلم بكم أجيب • • أي رب  
• • أنسيتني ؟ اللهم اني لفي بلا ! • • اللهم  
اني لفي بلا ! • •

" يسمع صوتاً فيرفع رأسه فيرى جبريل فينتلّي قلبه "

فرحاً وبصيح • •

محمد : جبريل ! • • جبريل ! • •

(١) الْإِنْتَان : ٢١٤ • ٢١٥ من سورة الشعراء • (٢) الْآيَتَان : ٨٦ • ٩٤ من  
سورة الحجر • (٣) محمد ص ٣٠ •

جبريل : محمد ! ..  
 محمد : جبريل .. لقد احتبست عني يا " جبريل " حتى سوت ظنا ! ..  
 جبريل : " وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا <sup>(١)</sup> وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّيَ لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا <sup>(٢)</sup> " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّسُلِ قُلِ الرُّسُلُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا <sup>(٣)</sup>

(٥) وفي المنظر الثالث عشر من الفصل الثاني ، يصور الحكيم الرسول وقد غاظه ما فعلته قريش بجثة عمه حمزة ، وقر هند بنت عتبة بطنه ... فيقسم لئن ظفر بهم لمثلن بهم ، وفي هذه الحالة التي عليها الرسول من الغمظ والغضب والحنق ، يهبط عليه جبريل بوحي السماء ، يدعو به الى الصبر ..

محمد : " ناظرا الى جثة حمزة المبقورة " والله لـسـولا أن تحزن " صفة " وتكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون في بطون السباع وخواصل الطير ، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن <sup>(٤)</sup> بمثلين رجالا منهم ! ..

المسلمون : " في حزن وغمظ " والله لئن أظفرننا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلهما أحد من العرب ! ..

(١) الآية : ٦٤ من سورة مريم (٢) الآية : ٢٣ ، ٢٤ من سورة الكهف  
 (٣) الآية : ٨٥ من سورة الاسراء (٤) محمد ص ٥٤  
 (٥) مثل به مثلاً ومثله : نكل به بجده انفه أو قطع أذنه أو غيرها من الأجزاء .

جبريل : " يهبط على محمد " .. " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا  
بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ .  
وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ  
فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ " .. (١)

محمد : " لأصحابه " الصبر خير لنا ! .. اصبروا ، ولا  
تمثلوا بأحد ! .. (٢)

(٦) وفي المنظر الثامن عشر من الفصل الثاني ، يصور الحكيم  
الرسول ، وقد وضع السلاح هو والمسلمون بعد غزوة الأحزاب ، فيُنزل  
عليه جبريل ، مُخْبِراً آياه ، أن الملائكة التي حاربت معه لم تلق السلاح  
بعد ، مبلغاناً محمداً أمر الله اليه بالذهاب الى بنى قريظة :

عَلَيْكَ : يا رسول الله ! .. أنصرف عن الخندق ونضع  
السلاح ؟ ..

محمد : نعم ..  
" وفجأة ينزل عليه الوحي "

جبريل : أوقد وضعت السلاح ؟

محمد : نعم ! ..

جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد .. ان الله يأمرك

يا محمد أن تعير الى بنى قريظة فاني عامد

اليهم فزلزل بهم حصونهم .

" يصبح جبريل " (٣)

(١) الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧ من سورة النحل .

(٢) محمد ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

(٧) وحين يختلط الأمر في قصة الافك ، ويقف الرسول حائراً بين التصديق والتكذيب، يتدخل الوحي لينقذ النبي من حيرته ، ويُنزل جبريل ببراءة عائشة .. ففي المنظر الخامس من الفصل الثالث، يصور الحكيم السيدة عائشة وقد انهمرت دموعها ، ورسول الله يطيل النظر اليها متفكراً ، وفجأة تأخذ غشية ..

- أبو بكر : " همسا ، وهو مسرع اليه " الوحي ! ..  
 " ثم يسجيه بثوبه ، ويضع تحت رأسه وسادة .. "
- عائشة : " في دهشٍ " الوحي ! ..  
 زينب : " في رجفة " اللهم غفوك ورضوانك ! ..  
 عائشة : " كالمخاطبة نفسها " الوحي ؟ .. من أجلسني ؟ !  
 وأيم الله لأنا أحقر وأصغر شأنًا من أن ينزل الله فيّ قرآنًا يقرأ ويصلى به في المساجد ! ..
- أبو بكر : " في رجفة " اللهم رحمتك ! ..  
 عائشة : " في صوت خافت " لماذا تغرقان هذا الفارق ؟  
 فوالله ما أفزع ، فاني أعرف اني بريئة وأن الله غير ظالمٍ ! ..
- أبو بكر : " وهو لا يحيد عن النبي بنظره " رحاك اللهم ! ..  
 عائشة : " اتخشان أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس ؟ .. "
- أبو بكر : صه ! ..  
 زينب : " وقد رأت النبي يتحرك " صه ! ..  
 محمد : " يسرى عنه ، ويجلس ويسبح المرقع عن جبهته " أيشرى يا عائشة ! .. فقد أنزل الله براءتك ! ..

عائشة : " صائخة " لربى الحمد ! لربى الحمد ! ..  
 زينب : " تتنفس فى فرح " الحمد لله ! ..  
 أبو بكر : " رافعا يديه الى السماء " لك الحمد اللهم !  
 محمد : " يطلو " إِنَّ الدِّينَ جَاءُوا بِالْأَمْرِ عَصَبَةً مِنْكُمْ لَا تَخْشَوْهُ  
 شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ  
 مِنَ الْأَمْرِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١) (٢)

\*\*\*

واذا كان الوحي هو سمة النبوة والرسالة ، أو بعبارة أخرى : هو  
 الفيصل الذى يفصل بين البشر العاديين والبشر الذين اختارهم الله  
 رسلا ، فان الحكيم قد استطاع أن يعبر عن هذه السمة - سمة الوحي -  
 حين أبرزها فى هذه المناظر وتلك المعاهد الكبرى أشرنا اليها آنفا ..

والحكيم حين عبر عن هذه السمة لم يمتنع كل صور الوحي ، ولم  
 يستقص كل المرات التى هبط فيها على الرسول عليه السلام على امتداد  
 ثلاثة وعشرين عاما .. بل اختار من هذه الصور ومن تلك المرات -  
 أثار نفسه وحرك أحاسيسه ، وأيقظ عاطفته ، فلم ير بدا من أن يصورها -  
 ويعبر عنها ..

\*\*\*

فأول منظر منها ، يمثل أخطر هبوط لجبريل عليه السلام على محمد  
 صلى الله عليه وسلم ، وأهم اتصال بين الأرض والسماء منذ أمد طويل ،  
 به تفتت معالم الحياة ، بعد وقت انتصرت فيه الوثنية على التوحيد

(١) الآية : ١١ من سورة النور .

(٢) محمد ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .



وغلِبَ الظلم النور ، وساد الظلم على المدل . . . . . بالاضافة الى ما يمكنه  
هذا الاتصال من تأثير الروح على المادة وتحويلها الى شيء آخر . . .  
تحويل البشر الحادى الى بشر رسول . . . . . وما يحيط بهذا الاتصال  
من قوة ورهبة تستمدان من الملاء الأعلى . . كل هذه المعانى والخواطر  
هزت عاطفة الحكيم ، فمبر عنها فى هذا المشهد المثير ! . .

\*\*\*

وثانى منظر منها ، يصور خديجة ، وقد جلست بجوار الرسول تطمئننه  
وتشد أزره وتعينه على ما داخل نفسه من رعب وخوف اثر نزول جبريل  
عليه ، وتحاول أن تلقى فى نفسه أن ما جاءه ليس بشيطان رجيم بل  
ملك رحيم . . وأرادت أن تبرهن للرسول على صدق ظننها ، فتضع خمارها  
مرة ، وتلقيه أخرى ، فيرى الرسول جبريل فى الأولى ولا يراه فى الثانية . .  
ويخبرها الرسول بذلك فتعشره أن الذى يأتيه ملك وليس بشيطان . . ونفى  
هذه المرة هبط جبريل على الرسول بلفظه أن الله اختاره رسولا يبلغ  
الناس دعوة ربه . .

ولا شك أن هذا المنظر قد أثار فى نفس الحكيم الكثير من  
الأحاسيس والانفعالات ، فقد أثار فى نفسه اخلاص المرأة - حين تخلص -  
وشقتها فى صدق زوجها ، وسحاولة تشجيعها إياه فى الوقت الذى يحتاج  
فيه الى مثل هذا التشجيع ومنحه الثقة فى نفسه ، حتى يستطيع أن يواجه  
ما يقابله من عقبات وصعوبات . . . . . كما أثار شك الرسول فى نفسه وخوفه  
أن يكون ما جاءه نوعا من الجن . . أثار هذا فى نفس الحكيم معانسى  
كثيرة تدور حول صدق الرسول فيها يخبر به من النبوة ، والرسالة ،  
وفيا بلفظه عن ربه ، ولو كان دَعِيًّا كاذباً ، لما شكَّ حتى استيقن ، ولا جزع  
حتى اطمئن . .

هذه المعانى وتلك الخواطر أحس بها الحكيم فعبّر عنها فكان  
هذا المنظر ..

\*\*\*

ثالث منظر منها : يصور الحكيم فيه الأمر النازل من الله الى محمد  
بإعلان الدعوة ، وفى الوقت نفسه يصور بداية المعركة بين الحق والباطل ..  
ولا شك أن هذه بداية لها أثرها وخطورها .

ورابع منظر منها ، وهو الذى يصور فيه الحكيم الرسول محزوناً  
فى غار حراء - وقد أبطل عنه الوحي - يدعو به أن يرسل وحياً  
حتى يستطيع أن يرد على أولئك المشركين الساخرين .. فإذا بالوحي  
ينزل عليه فيطلقه الرسول فرحاً مسروراً .. ولا شك أن هذا الموقف  
المؤثر قد أثار فى نفس الحكيم الاشفاق والمحط على الرسول الكريم ..  
كما أثارها فى نفس كل قارئ ، فعبّر عنها فى هذا المنظر الفريد .

\*\*\*

..... وسابع منظر منها ، وهو الذى يصور ما كان يعتري الرسول  
من حيرة واضطراب ، وشك وقلق ، وتردد بين ثقته فى زوجه بما يعرفه  
عنها ، وشكه فى الأمر لما يسمع من أحاديث الافك .. الى أن يجيئ  
الوحي ببراءة السيدة عائشة فيزيل ما فى نفس الرسول من غم وحزن  
واضطراب وشك .. لا شك أن هذا الموقف المثير لمختلف المواطن ،  
المحرك لشتى الانفعالات جدير أن يحظى باهتمام الحكيم فيعرضه نفس  
هذا المنظر المؤثر البالغ التأثير !!

وهكذا نجد أن كل منظر من هذه المناظر ، وأن كل موقف من تلك  
المواقف ، قد ترك فى نفس الحكيم أثراً بالفا واحساساً قوياً به .. فكان

اختياره له وتمبيره عنه نتيجة هذا الأثر وهذا الاحساس.

\*\*\*

### ب - التهليخ :

وإذا كان الوحي هو السمة التي تميز البشر الرسول عن البشر العادي ، فإن تهليخ الدعوة التي كلف بها الرسول ، هو السمة الأولى التي يجب أن يتسم بها الرسول ، وأن يقوم بها على خير وجه وأكمله . .

ولقد قام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بتهليخ الدعوة التي كلف بها ، وأمر بتهليخها على خير وجه وأكمله ، ولما لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل تلك الدعوة ما لاقى من صنوف الأذى والهــلاـكـة والمـنـت ، وصادفته عقبات ومعوقات في سبيل نشرها وإظهارها ، واحتمل في سبيل تقييدها والتكسين لها من ألوان الجهاد ما احتمل ، ولقد تشل ذلك واضحا طوال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء في مكـة أو في المدينة . .

ولقد عنى الحكيم بإسراز هذا الجانب — أعنى جانب التهليخ — وألقى عليه كثيرا من الأضواء بل جلاه في مناظر متعددة ، وأنماط مختلفة . . ولا شك أن جانب التهليخ يمثل الجزء الهام في حياة الرسول — أي رسول — ويلقى الضوء على الصراع الدائر بين الحق والباطل والخير والشر ، ويكشف عن قضية هذا الصراع الذي لا يظهر في زمن دون زمن . . بل يستند عبر الزمن كله من أوله إلى آخره . .

ولقد تتبع الحكيم هذا الجانب من جوانب شخصية محمد الرسول ، وعبر عنه في صور متلاحقة ومناظر متعددة ، منذ أول عهده بالرسالة حتى

آخر عهده بالدنيا ، ويمتدنا بدعوة أهله وعشيرته الأقربين .. ومنتبهيا بدعوتهم الملوك والأمراء الى هذا الدين الحنيف .. راسا بين البدايات والنهاية صورا وأنماطا مختطفة لتبليغ الدعوة التي قام بها الرسول الكريم .. صورا وأنماطا مختطفة لصنوف العنت والايذاء التي لقيها الرسول الكريم وصحه الكرام ... صورا وأنماطا لألوان السخرية والاستهزاء التي قوبل بها النبي صلوات الله عليه هو وصحابته، وصورا وأنماطا لألوان الممارك والحروب التي خاضها الرسول في سبيل هذا التبليغ ... سواء في هذا كله ، أكان من جانب المشركين ، أو اليهود ، أو النصارى ، أو المنافقين .

ولا يستطيع البحث أن يستعرض كل تلك الصور ولا كل هذه المناظر التي كشفت عن هذا الجانب والتي أبرزها الحكيم في كتابه .. بل حسبه أن يشير الى بعض تلك الصور للتدليل على عناية الحكيم بإبراز هذا الجانب .

(١) في المنظر السابع من الفصل الأول، يصور الحكيم الرسول وقد وقف على جبل الصفا يدعو قومه وعشيرته الأقربين الى هذا الدين الجديد ، كما يصور سخرية عمه أبي لهب منه ومن دعوته ، ومحاولة صرف الناس عن الاستماع اليه .

محمد : .. يتجه الى الناس مناديا " يامعشر قريش !  
" يهملون ويجمعون اليه وفي مقدمتهم عمه أبو لهب "

أبولهب : مالك يا محمد ؟ ..

محمد : ادنوا مني أكلكم ! ..

قريش : تكلم .

محمد : أرايت لو أخبرتكم أن خيلا بسفع هذا الجبل أكنتم

تصدقونني ؟ ..

- قريش : نعم . أنت عندنا غير متهم ، وما جهننا عليك كذبا قط . . .
- محمد : اذن فاسمعوا .
- قريش : قل ! . .
- محمد : انى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ! . . يا " بنى  
 عبدالمطلب " يا " بنى عبد مناف " يا " بنى زهرة " .  
 يا " بنى تميم " يا " بنى مخزوم " يا " بنى  
 أسد " ! . . ان الله امرنى أن أنذر عشيرتسى  
 الأقربين ، وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من  
 الآخرة نصيبا الا أن تقولوا : لا اله الا الله .
- أبولهب : تهالك سائر هذا اليوم ! . . الهذا جمعتنا ؟ ! . .
- الناس : " ساخرين " : الهذا جمعتنا ؟ ! . .
- أبولهب : تفرقوا — أيها الناس — عن هذا المجنون الضال !
- محمد : ما أعلم انسانا فى المرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم  
 به ، وقد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربي  
 أن أدعوكم اليه ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟ وأن  
 يكون أخى روصى وخليفتى فيكم ؟ . .
- قريش : تهتمد عنه ساخرة " لا أحد ! . . لا أحد ! . .
- أعرابى : نعم ! . . لا أحد يؤازرك على هذا ، حتى ولا كلب  
 الحى !
- عَلِيٌّ : " يتقدم ويصيح بصوته الصغير " أنا يا رسول الله  
 عونك ! . . أنا حبيب على من جاهد !
- أعرابى : " مشيرا الى علي " انذا كل جيشك يا محمد ؟ !
- " يضحك ويضحك معه الناس "
- أبولهب : " للصي على " تهالك ولئن اتبعت ما . .

الأعرابي : دع الصبي فهو لا يَفْقَهُ ما يصنع ! ..  
أبولهب : تَهْلِكُهُمَا من ضَالِّين ! .. (١)

وهكذا يمضي الحكيم في تصوير هذا المشهد الذي يصور أول صدام بين الدعوة وأعدائها الذين أعلنوا الحرب عليها وعلى صاحبها وعلى مَنْ اتبعها منذ اللحظة الأولى لإعلانها ! ..

(٢) وكما يصور الحكيم الرسول وقد جهر بدعوته ، لا يعيا بمسألة يلقاه من استهزاء وسخرية ، كما حدث في المنظر السابق ، فإن الحكيم في المنظر التاسع من الفصل الأول ، يصور قوة إيمان الرسول بدعوته وثقافته في إقبالها ، ولو كان في ذلك هلاكه ..

تلك القوة التي استهانت بكل عروض الدنيا في مقابل ترك هذه الدعوة ، بل استهانت بكل ضروب السخرية والأذى .

تلك القوة شدت الحكيم فعبّر عنها في هذا المشهد ، الذي جاء فيه زعماء قريش يطلبون من أبي طالب أن يكف ابن أخيه عما هو ماضي فيه من أمر الدعوة ، والا أجمعوا على فراقه وعداوته .

ويترك هذا الموضع في نفس أبي طالب حزنا وعيرة ، فيطلب ممن ابن أخيه أن يلقى عليه وعلى نفسه ، والا يحمله من أمر نصرته فسوق ما يطيق .. ولكن موقف الرسول من قول عمه كان موقف الداعية الصامد الذي لا يلين بوعده ولا يخاف من وعيد ..

" أبو طالب مطرق مفكر محزون "

محمد : " يقبل عليه " عمه ! .. مالك ؟

أبو طالب : " متغير الصوت " يا ابن أخى ! .. ان قومك قد  
جاءنى فى أمر هذا الدين الذى جئت به ، وأجمعوا  
على فراقى وعداوتى ، فأبغى على وعلى نفسك ، ولا تحملنى  
من الأمر ما لا أطيق .

محمد : " فى قوة وعزم " يا عم ! .. والله لو وضعوا الشمس  
فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر  
حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته .  
" لا يتمالك فيستمبر باكيا "

أبو طالب : " يَرْقُ له " أتهدى ؟

" محمد يذهب منصرفا "

أبو طالب : " يناديه " أقبل يا ابن أخى .

محمد : " يقبل " أخاذلى أنت ؟

أبو طالب : " فى عزم وقوة " كلا ، اذهب يا ابن أخى فقل ما  
أحببت ، فوالله لا أسلمك لشئ أبدا . (١)

(٢) وفى المنظر المباشر من الفصل الأول ، يصور الحكيم لونا

من ألوان المناواة ، وصورة من صور الكيد الذى لقيه الرسول ، وهو  
يلج دعوة به ، وذلك حين يقف الرسول على منازل القهائل من بنى  
عامر فى موسم الحج ، يدعوهم الى الاسلام ، ويقف من خلفه عبيد  
أبو لهب ، يسخر منه ، ويصد الناس عن دعوته .

" محمد واقف على منازل القهائل من بنى عامر فى موسم الحج "

محمد : يا بني عامر ! .. انى رسول الله اليكم ، يأمركم  
أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا  
ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا  
بى ، وتصدقوا بى ، وتنعمونى حتى أهيئ عن الله  
ما يحسنى به !

" يأتى أبولهب من خلفه "

أبولهب : يا بني عامر ! ان هذا انما يدعوكم الى أن تسلكوا  
اللات والمزى من أعناقكم وخلفكم من الجن التى  
ما جاء به ، من الهدى والضلالة ، فلا تطيعوه ،  
ولا تسمعوا منه ! .. " (١)

\*\*\*

(٤) وفى المنظر الرابع والعشرين من الفصل الأول ، يصور  
الحكيم للقارئ لونا آخر من ألوان الأذى والاضطهاد الذى لقيه الرسول  
الكريم ، وهو يبلغ دعوة ربه ، وذلك حين اتجه الى الطائف واجتمع  
بسادات ثقيف وأشرافهم يدعوهم الى الاسلام - وذلك بعد أن فقد  
فى مكة كل عون ونصير من أهله وذوى قرياء ، واشتد به أذى سادة  
قريش وأشرافها - فما كان من ثقيف الا أن قابلت دعوتهم بالاستهزاء  
والسخرة .. بل أغرت به سفهاها وعبيدها وأرادلها ، يصبحون فى  
وجهه ويسبونهم ويرمونهم بالحجارة حتى دميت قدماء ، فجا الى حائط  
حزينا منها متعباً ، يدعو ربه ويتضرع ويرفع اليه شكواه ..  
" فى الطائف ... محمد فى نفر من سادة ثقيف  
وأشرافهم ، على مقربة من حائط لحنه بن ربيعة وأخيه شهيداً  
وهما فيه ينظران ... "



عُتْبَةُ : " يهيمس " ما جاء به الى الطائف ؟ ..  
 شَيْبَةُ : ما أحبه الا جاء يلتبس النصرة من ثقيف والمنعة بهيمس  
 من قومه .  
 عُتْبَةُ : قريش ؟  
 شَيْبَةُ : نعم . . . ما كان أحد ينعمه وينصره على قريش الا عمه  
 " أبو طالب " فلما هلك عمه وهلك زوجته " خديجة " نالت  
 منه قريش من الأذى ما لم تكن تطمح به في حياة  
 عمه وزوجه .

عُتْبَةُ : وهل تحسب ثقيفا ناصرة اياه ؟  
 شَيْبَةُ : ان لم تنصره ثقيف فلانصر له .  
 عُتْبَةُ : " يلتفت الى ناحية القوم " انظر يا شيبَةُ . انه جلوس  
 الى أشراف ثقيف يدعوهم الى ربه الذي يحدث عنه . .  
 وما أرى في وجوه القوم الا استهزاء به وما يقول ! ..  
 شَيْبَةُ : " ينظر " اسمع ! .. هذا مسعود بن عمرو يدنو منه !  
 مسعود : " يدنو من محمد " اني امرؤ<sup>(١)</sup> ثياب الكعبة ان كان  
 الله أرسلك ..

شَيْبَةُ : هذا أيضا " عَمْدُ يَالِيلُ بْنُ عَمْرِو " يدنو منه ! ..  
 عَمْدُ يَالِيلُ : " يدنو من محمد " : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟

" محمد يقوم وقد يش منهم "

(١) بالتشديد بمعنى أقصر ، وأمرؤ — كَيْتَرُ — : أقوى ، والأول أنسب .

عتهمة : انظر يا شبيبة انه قد قام ! ..  
شبيبة : ما أراه الا يائسا حزينا ! ..

صياح وأصوات "

عتهمة : ما هذا الصياح ؟ .. " ينظر " انظر ! .. هؤلاء  
ناس وعبيد يصيحون به !

شبيبة : " ينظر " ما أحسب الا ان القوم قد أغروا به سفهاءهم  
وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ! ..

عتهمة : انظر ! .. لقد اجتمع عليه الناس ، وهو لا يستطيع  
منهم فرارا ! ..

شبيبة : ما أرى الا أنه سيلقى منهم أذى كبيرا ! ..

عتهمة : لقد ألجأوه الى حائطنا ! ..  
شبيبة : أجل ، ها هو ذا يسقط اعياء ! ..

.....

عتهمة : أي هوان لقي هذا الرجل من أهل الطائف !

شبيبة : أتحركت له رحمتك يا عتهمة ؟

عتهمة : " ينظر اليه " اسمع ! اصغ ! .. انه يقول شيئا ! ..

محمّد : " وقد اطمان قليلا بعد ذهاب الناس عنه " : " اللهم

اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على

الناس ، يا أرحم الراحمين ! .. أنت رب المستضعفين ،

وأنت ربي .. الى من تكلم ؟ .. الى محمّد

يتجهمني<sup>(١)</sup> ، أم الى عدو ملكته أمري ؟ .. ان لم يكن

(١) جهمه وتجهمه : استقبله بوجه كره .

بك على غضب فلا أبالي .. ولكن عافيتك هي أوسع  
لى .. " (١)

\*\*\*

لا شك أن الحكيم قد أحسن بالدور الذي قام به الرسول الكريم  
في سبيل تهليخ دعوة ربه ، بل تأثر وانفعل بما لقي الرسول في سبيل  
هذا التهليخ من أذى واضطهاد ، وعنت وارهاق ، وسخرية واستهزاء ، فـفـراج  
يمبر عن احساسه وتأثره وانفعاله بهذه الصور والمشاهد ، التي يراها القارئ  
بهشوة في كتاب " محمد " والتي اخترنا منها آنفا بعض الصور والمشاهد ..

ولعل القارئ يستطيع أن يلمس مدى الاحساس والتأثر والانفعـال  
الذي عاشه الحكيم ، وهو يستعرض تاريخ كفاح الرسول وجهاده في سبيل  
الدعوة ... لعل القارئ يستطيع أن يلمس هذا كله من الصور والمشاهد  
التي اختارها الحكيم ، وحسب القارئ المنظر الأخير ، من المناظر الستة  
اخترناها - آنفا - وهو الذي يصور ما لاقاه الرسول من أذى وسخرية وهو  
يدعو ثقيفا للإسلام ، فما يكاد القارئ ينتهي من قراءته حتى يمتلئ قلبه  
أسى وألما على ما لقي النبي من أذى وهوان وعذاب ، وقيل أن يمتلئ  
قلب القارئ بهذا الأسى والألم امتلاهما قلب الحكيم ، وهذا نموذج من  
 تلك المناظر المؤثرة التي قدمها الحكم في هذا الكتاب ..

\*\*\*

#### حـ - المعجزات والخوارق :

والحكم الأديب الفنان - الذي كتب " شهرزاد " و " ابن سينا " -  
وانفعل بما فيهما من أساطير - انفعل أيضا بما تناثر في بعض كتب

السيرة من أخبار وروايات تدور حول شخصية الرسول ، تصور وقوع خوارق ومعجزات على يد الرسول الكريم ، بل استهوت الأخبار والروايات السني تصور وقوع خوارق ومعجزات قبل ميلاده وبعثه ، تنشر بمولده وقرب بعثه .

ووجد الحكيم في هذه الأخبار والروايات مجالا طليقا يخلق فيه الخيال ، بما تفتحه أمامه من عوالم فساح ، كما وجد فيها أيضا مادة يشرى بها الأدب ، ويشير في القلب المفتوح مختلف المواطن والأحاسيس ، وترض النفس التي تميل الى هذا اللون من الأخبار وتستريح له . .

وجد الحكيم في تلك الأخبار والروايات هذا كله . . فأطلق قلمه من عقاله يصورها ويعبر عنها .

(١) ففي المنظر الأول من المقدمة ، يحدثنا الحكيم عن علامة من تلك العلامات التي سبقت ميلاد الرسول ، إذ يصور يهوديا وقف على أطعمه<sup>(١)</sup> يشرب هاتفا بقومه مشيرا الى السماء ويقول : طلع الليلة نجم أحمد .

" على أطعمه يشرب . . الوقت ليل "

يهودى : " يصرخ بأعلى صوته " يامعشر يهود !

" جماعة من يهود يقبلون ويجتمعون اليه "

الجماعة : " ويملك ! . . مالك ؟ . .

اليهودى : " يشير الى السماء " انظروا ! . . انظروا ! . .

الجماعة : " يتظلمون الى السماء " ماذا ؟

اليهودى : " يشير الى السماء " . . طلع الليلة نجم أحمد ! (٢)

(١) الأطعم - يتكلمون الطاء وضمتها - : الحصن والهيئت المرتفع .

(٢) محمد ص ٦ .

(٧) وفي المنظر الثاني من المقدمة • يصور الحكيم قصة بشارة  
عبدالمطلب بمحمد • وقد جاءت عبدالمطلب بها امرأة تخبره بأمر عجيب  
رأت آمنة حين خرج محمد منها • فقد رأت آمنة نورا خرج منها •  
ويفرح عبدالمطلب • وهوى فيها روته له المرأة تأويلا للرؤيا التي رآها •  
"عبدالمطلب بجوار الكعبة"

امراة : " تجرى نحوه تصيح " : أبشر يا عبدالمطلب ! •

أبشر ! ..

عبدالمطلب : ماذا ؟ •

المرأة : جاءت آمنة بولد • لا ككل الولدان ! ..

عبدالمطلب : ولـبـد ؟ •

المرأة : لقد نظرت - وهو يخرج منها - أن قد خرج  
منها نور • رأيت به قصور بـضـرى من أرض الشام ! •

عبدالمطلب : " في فرح " انها والله للرؤيا التي رأيت • •  
هلمى بنا !

المرأة : أى رؤيا ؟

عبدالمطلب : ألم أر فى منامى • كأن سلسلة من فضة خرجت  
من ظهري • لها طرف فى السماء • وطرف فى  
الأرض • وطرف فى المشرق • وطرف فى المغرب •  
ثم كأنها شجرة • على كل ورقة منها نور •  
واذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها  
ويحمدونها ؟ ! • (١)

واذا كان الحكيم قد صور - فيما أوردناه آنفا - بعض الخوارق التي وقعت قبل مولده أو صاحبة له ، فإنه صور أيضا بعضا من هذه الخوارق التي وقعت بعد مولده وقبل بعثه

(١) ففي المنظر الثالث من المقدمة يحكي الحكيم ما تقوله "طيفة" الموضحة للنساء في سوق "عكاظ" عن محمد وعن البركة التي مستهم وصاحبتهم بطول محمد عندهم :

"في سوق عكاظ . . . طيفة " مريض  
" محمد " بين نسوة وهي تحمله على  
صدرها وعلى مقربة منها : أتاها وشاة لها"

أحدى النسوة : من هذا الصبي ؟  
طيفة : هو يتيم لا أب له ولا مال !  
المرأة : أنا لنرجو أن يكون مباركا  
طيفة : انه لكذلك ، ولقد رأينا بركة ..  
المرأة : كيف ذلك ؟  
طيفة : كنت لا أروى ابني من لبنى ، فهو وابسنى الآن  
يرويان ، ولو كان معهما ثالث لروى ! .. لقد  
أمرتني أمه أن أسأل عنه !! " (١)

وتذهب طيفة هي والنسوة الى عراف بالسوق ينظر في وجهه  
محمد ويقول : ابن من هذا ؟

حليمية : هو يتيم لا أب له !  
 المصّاف : " يصيح " يامعشر هذيل ! .. يامعشر العرب ! ..  
 " يجتمع اليه الناس من أهل الموسم "  
 الناس : مالك ؟ .. مالك ؟ ..  
 المصّاف : اقتلوا هذا الصبي !  
 حليمية : " تتسلّ بمحمد " : واولداه !  
 الناس : " يلتفتون ولا يرون شيئا " أى صبي ؟  
 المصّاف : " يلتفت حوله باحثا عن طيعة " هذا الصبي ..  
 اقتلوه ! .. اقتلوه ! ..  
 " الناس لا يرون شيئا " (١)

(٤) وفي المنظر الرابع من المقدمة ، يصور الحكيم بحيرى الراهب  
 ينظر من صومعته الى ركبٍ مقبل ، وقد رأى غمامة تظلل محمداً ، وقد  
 كان فى الثانية عشرة من عمره ، وهو فى رحلته الى الشام مع عمه أبى  
 طالب ... ويرى بحيرى فى تظليل الغمامة محمداً آية على قرب زمان  
 النبى الذى أظلل الناس زمانه .

" صومعة " بحيرى الراهب ، يهضرى من  
 أرض الشام .

بحيرى : " ينظر من صومعته الى ركبٍ مقبلين " هـذا  
 ركب تجار قریش .. عجبا !  
 ماذا أرى فيه ؟ .. قد تغيّر هذا العام ؟ كسيرا  
 ما يهرون بهى فلا أرى ما أرى !  
 " ينهض اليه خادمه نسطاس "

نسطاس : ماذا ترى ؟

بحيرى : انظر تلك الفمame التى فوق القوم ! ..

نسطاس : " ينظر " .. نعم ! .. انها تظل غلاما  
بين القوم ! ..

بحيرى : هذه الفمame لا تظل الا نهيما ! ..

نسطاس : نهيما ؟ .. أترى هو الذى حَدَّثْتَنِي عنه ؟

بحيرى : أكبر ظنى .. لقد آن أوانه ! .. " (١)

\*\*\*

ولا يكفى الحكيم بما أورد من خوارق ، وصور من معجزات  
وقعت قبل ولادته أو معها أو قبل بعثه - كما سبق أن قلنا - بل  
ان الحكيم ليورد من تلك الخوارق ما وقع على يديه بعد بعثه - صلى  
الله عليه وسلم - ويكفى أن نورد واحدة منها عما صوره الحكيم فى  
مناظر ومشاهد ..

(٥) فى المنظر السادس والثلاثين من الفصل الأول ، يروى  
الحكيم قصة "أم معبد" مع الرسول ، اذ مرَّ عليها وهو فى طريق هجرته  
الى المدينة ومعها أبوبكر ، وقد كان عندها شاة مجبهة ولا لبن بها ،  
فمسح الرسول على ضرعها فَتَنَاجَّتْ (٢) الشاة واجترت ودَّرت ، ويأتى "أبو معبد"  
فيدهش حين يرى اللبن فى الإناء ويسأل :

أبو معبد : عجا .. من أين لكم هذا والشاة عازية ،  
ولا حلبة فى البهت ؟ ..

---

(١) محمد ص ١٠ .  
(٢) فتحت ما بين رجلها .



أم معبد : لا والله .. الا أنه مرّ بنا رجلٌ مبارك ، ما  
مسح ضرع الشاة بيده حتى تنجّحت وأدرت واجترت ،  
وأنهت له بالاناء فحلب فيه <sup>(١)</sup> ثَجًّا الى أن غلبه  
الثَّمال <sup>(٢)</sup> فسقاني فشربت حتى رويْتُ ، وسقى صاحبه  
حتى رويّا ، وشرب هو آخرهم ! <sup>(٣)</sup> .

\*\*\*

ويستطيع القارئ أن يجد أمثال هذه الخوارق في مناظر أخرى  
صورها الحكيم في غير موضع من الكتاب .

(٦) ففي المنظر الحادى عشر من الفصل الثانى ، يروى الحكيم  
قصة عمير بن وهب ، ويذكر فيها أن الرسول قد علم في المدينة حديث  
اثنين يتسارآن بمكة ، ولا ثالث لهما ، وينتهى حديثهما بأن يرحل أحدهما  
وهو عمير بن وهب الى المدينة ليقتل الرسول ، فاذا جاء محمدا فاجأه  
بما دار بينه وبين صديقه ، ولا ينهى الحكيم قصة عمير الا وقد صلح  
اسلامه ، اذ يكشف من إخبار الرسول له بما دار بينه وبين صديقه ،  
أنه رسول حقا ، وأن الذى أعطه بذلك إنما هو الله <sup>(٤)</sup> .

(٧) وفي المنظر الثلاثين من الفصل الأول ، يصور الحكيم قصة  
الفحل الذى ظهر خلف الرسول ، فيخافه أبو جهل ويخشى أن يأكله ،  
وذلك حين جاء اليه الرسول يطلب منه أن يدفع ما عليه من دينٍ للرجل  
الأراشى الذى استعان برسول الله فى الحصول على حقه من أبى جهل <sup>(٥)</sup> .

- 
- |     |   |
|-----|---|
| (١) | ثجا : انشبالا هوانصبابا .                           |
| (٢) | الثمال : جمع ثَمالة .. أى : الرغبة . مثلثة الراء .  |
| (٣) | محمد ص ١٢١ . (٤) انظر المصدر السابق ص : ١٨٠ و ١٨١ . |
| (٥) | انظر المصدر السابق ص : ٩٩ و ١٠٠ .                   |

(٨) وفي المنظر السابع عشر من الفصل الثاني ٠٠ يروى الحكيم قصة الصخرة التي شق على الصحابة كسرهما حين خفر الخندق فيدفعون بها إلى الرسول ، ويضربها الرسول ثلاث ضربات تلعج من خلالها أضواءه ، يرى من خلالها قصور الشام وفارس وصنعا<sup>(١)</sup> .

وهذه القصص والروايات التي تحكى هذه الخوارق - إن كان بعضها صحيحا ، جاءت بها روايات صحيحة - ليس هناك ما يمنع أن يقف الانسان من بعضها موقف الشك والتردد ٠٠ ولا على الحكيم من بأس ان صور كل هذا بأمانة وإخلاص ، لأنه أعلن مقدما أنه سيلتزم بما جاءت به كتب السيرة الصحيحة ، ومادامت هذه الروايات وتلك الأخبار قد أتت بها كتب السيرة الصحيحة ، فإن الحكيم لا يعنيه من أمرها شيء ، لأنه - كما قلنا - ليس مؤرخا يتهيج الأحداث والوقائع والأخبار بالتحليل والتحقيق والتفسير - بل هو أديب فنان ، اهتم بما في السيرة من أحداث ووقائع وروايات ، فراح يصبر عنها بهذه الصور وتلك المناظره ليمث في نفس القارئ الاحساس والانفعال اللذين شعر هو بهما ، ويشير في مشاعره الاحساس باللذة والمتعة ، وتلك هي مهمة الأديب الفنان ٠٠

\*\*\*

## ٢ - محمد البشر :

ومحمد صلى الله عليه وسلم بشر قبل أن يكون رسولا ، ومحمد أن صار رسولا ، صفات البشر تجتمع فيه ، كما تجتمع في أي انسان آخر

(١) انظر : كتاب " محمد " ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

من حب وخفض هوفج و حزن ، و خوف و ألم ، و صواب و خطأ ، و نوم و صحو ..  
و تلك صفات انسانية تجتمع فى جميع أفراد البشر ..

وكما اجتمعت فيه تلك الصفات الانسانية العامة التى توجد  
فى جميع أفراد البشر ، تجمعت فيه صفات خاصة نادرة ، من آداب عالية  
و خلاقى فاضلة ، و خصال كريمة ، تمثل الانسانية فى أعلى درجاتها ، و الرجولة  
فى أكمل مراتبها ، من صدق و شجاعة و ايمان ، و مبالغة و فصاحة و قيادية  
و ادارة و سياسة ، و معاملة طيبة مع الصديق و العدو ، و القريب و البعيد  
و الزوج و الخادم ، الى غير ذلك من الصفات التى تغطى بها الرسول  
الكريم ..

ولقد عنى الحكيم فيما عنى بابرار بعض هذه الجوانب البشرية  
و راج بصورها فى مناظر متعددة و مشاهد مختلفة . و هذه المناظر و تلك  
المشاهد مبثوثة فى الكتاب كله ..

(١) ففى المنظر الثانى من الفصل الاول ، يصور الحكيم محمدا  
صلى الله عليه وسلم وقد أخذه خوف و روع شديدان حينما نزل عليه جبريل  
عليه السلام بالوحي ..

" محمد يدخل على خديجة ، و  
رَّوعٌ شديدٌ " .

خديجة : " تستقبله " أين كنت ؟ لقد بحثت رسلنى  
طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا اليّ .  
محمد : " مرتعدا " زملونى ! .. زملونى !  
خديجة : " فى خوف " ماذا بك ؟ ..

محمد : زملونسى ! زملونسى (١)

« ..... »

(٢) كما يصور الحكيم هذا الخوف والرعب حينما نزل عليه جبريل مرة ثانية .. وذلك يبدو واضحا فى المشهد الرابع من الفصل الأول .

” يبدو جبريل من جديد • ويدنو من محمد •

فيرتعد • ويتصبب جبهته عرقا •

محمد : ” مرتجف الصوت ” خديجة !

خديجة : ” تراه فتهرع اليه ” مالك يا ابن عم ؟ •

محمد : انتسى ..

خديجة : ” فى قلق وخوف ” مالك ترتعد ؟ وما لجهينتك

يتفصد عرقا ؟

محمد : دثرونى ! .. دثرونى ! .. (٢)

\*\*\*

(٣) وكما يخاف محمد البشر الرسول عندما يحدث مفرع • نـسـرـاه

يقن اذا ألمّ داعى الفزع والسرور • فى المنظر الخامس عشر من الفصل

الثالث يصور الحكيم فن الرسول حينما جاءت البشرى بمولد ولده ابراهيم •

” النبى فى حق بالمدينة بين رهط من

الناس .. ”

أبو رافع : ” يأتى وهو يجرى ويلهث ” يا رسول الله ! ..

أبشر ! .. أبشر ! ..

(١) محمد ص ٢٢ •

(٢) محمد ص ٢٦ •

محمد : بماذا ؟ ..  
 أبو رافع : ولدت لك " مارية القبطية " الليلة غلاما ! ..  
 محمد : " في فين " ولد لى غلام ؟ ! ..  
 أبو رافع : نعم .. وريك قد ولد لك غلام ! ..  
 محمد : " فرحا " يا أبا رافع ! .. لقد وهبت لك عبدا ! ..  
 أبو رافع : " صائحا يجرى فى الناس " أبشروا أيها الناس !  
 .. أبشروا ! ..  
 محمد : " ينهض " أيها الناس ! ولد لى الليلة غلام !  
 وانى سميت باسم أبى ابراهيم ! .. (١) "

\*\*\*

(١) وكما يفرح الرسول عثانه يحزن اذا ألم به داعى الحزن ،  
 ففي المنظر الثامن عشر من الفصل الثالث ، يصور الحكيم حزن الرسول  
 العميق لموت ابنه ابراهيم .. فبعد أن يدفن ابراهيم يأمر برش الماء على  
 قبره ، ثم لا يملك نفسه فيستعبر باكيا ..  
 .....

" تسيل من عيني النبی الدموع "

أسامة : أتكى ، وقد نهيت عن البكاء ؟ ! ..  
 محمد : " باكيا " ان " ابراهيم " ابني ، وانه مات  
 فى الشدى ، وان له لظئرين تكملان رضاه فى  
 الجنة ..

الفضل : يا رسول الله ! .. تهكى وأنت رسول الله ؟ !

محمد : انما أنا بشر ، تدمع العين ويخضع القلب ، ولا نقول  
ان شاء الله الا ما يرضى الرب ، والله لولا أنه أجل  
معدود ، ووعد صادق ، ووقت معلوم وأن آخرا لا حيق  
بأولنا ، لجزعنا عليه جزعا غير هذا . . انا عليك  
يا ابراهيم لمحزونون . . (١)

وأشبه هذا المنظر كثيرة كحزنه صلى الله عليه وسلم على عمه  
حمزة وزوجه خديجة وعمه أبي طالب .

\*\*\*

وكما ألقى الحكيم الأضواء على بعض الصفات البشرية التي تصور  
جانها من جوانب بشرية محمد صلى الله عليه وسلم من خوف وفزع وحزن  
تجلت في أفعال النبي وعصراته ألقى الأضواء — أيضا — على جانب  
آخر من جوانب شخصية محمد البشر ، وهو محمد الرجل ، وما يحس به  
الرجل من حب وميل للنساء ، وأبرز الحكيم هذا الجانب في أكثر من موضع ،  
كما ألقى الأضواء على ما يدور — عادة — بين الرجل وزوجه من حديث  
وتجلى ذلك — أيضا — واضحا في بعض المناظر .

(٥) أما بالنسبة لحب الرسول وميله الى النساء ، فانه يظهر في  
المنظر الأول من الفصل الثالث ، وذلك حين يصور المنظر قلق عائشة  
بعد غزوة بني المصطلق مخافة أن يكون بين الأسرى أسيرات جسيقات  
وغيرتها أن يختار الرسول منهن زوجة له . . (٢)

" عائشة فرمستها مع خادماتها بريرة "

(١) محمد ص ٢٧٢ .

(٢) هذا كلام يدل على مرض في النفس ، وهو أشبه بكلام المستشرقين ،  
والرسول وعائشة أعلى من هذه الخزعبلات التي يصورها الجاهل بمقامهما .

بريرة : مالك ؟  
 عائشة : " مطرقة " ما بين من شيء ! ..  
 بريرة : أتكتئين ، وقد عاد النبي ظانرا من غزوة جديدة ؟ ..  
 عائشة : " بنى المصطلق " ؟  
 بريرة : نعم ! ..  
 عائشة : " في ظلق " أجاها وبهايا كبريات ؟  
 بريرة : نعم ، ومن بينهن ابنة سيد القوم ، وقد وقعت فسى  
 سهم أحد الأنصار ! ..  
 عائشة : " تنفج أساريرها " وقعت فى سهم أحد الأنصار ! ..  
 اللهم حمدا ! .. " تعود الى القلق والاطراق"  
 نعم .. لكن هناك أخرى .. " (١)

ويحقق خوف عائشة وقلقها ، وذلك حين تدخل "جويرة بنت الحارث"  
 من سبايا بنى المصطلق ، على الرسول تستمينه على مكاتبتها "ثابت بن  
 قيس" الذى وقعت فى سهمه .. ويراهها الرسول فيعجب بها ويطلب منها  
 الزواج .. ويتضح هذا واضحا فى نهاية المنظر السابق ...

محمد : " يطيل اليها النظر " هل لك فى خير من ذلك ؟ ..  
 جويرة : ومن هو يا رسول الله ؟  
 محمد : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك ! ..  
 جويرة : " بخير تودده " نعم يا رسول الله ! ..  
 محمد : قد فعلت ! ..  
 عائشة : " من خلفه غير متالكة " أتزوجها ؟

محمد : " يلقت الى عائشة " نعم !  
 عائشة : " تخفى ما بها وتهشم " على خير طاهر ! ..  
 محمد : أتكرهين ذلك ؟ ..  
 عائشة : ليس لى أن أكره ما تحب  
 محمد : لصحت ! ..  
 عائشة : لقد حب اليك النساء ! ..  
 محمد : حُبَّ الى الطيب والنساء ! " (١)

(٦) أما بالنسبة لتصوير ما كان يدور بين الرسول وبعض زوجاته من حديث يجرى عادة بين الرجل والمرأة فى الشؤون الخاصة بهما .. فانه يظهر واضحا فى المنظر التاسع من الفصل الثانى ... حين يصور الحكيم الرسول وزوجه عائشة فى مسكنهما ليلا يتحدثان ..

عائشة : " باسمه " جئت لك بما تحب من الطيب ! ..  
 محمد : " باسم " أتدريين ما أطيب الطيب ؟ ..  
 عائشة : ما هو ؟ ..  
 محمد : أطيب الطيب المسك ! ..  
 عائشة : أدرى ورب محمد ، انك تتطيب بذكرارة الطيب ، والمسك والمنبر ..

محمد : طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه ! ..  
 عائشة : " باسمه " وطيب النساء ؟ ..  
 محمد : ما ظهر لونه وخفى ريحه ! ..  
 عائشة : انى أعطي لك ! ..



محمد : انك امرأتى ! ..  
عائشة : نعم .. ورب محمد انى امرأة رسول الله ! ..  
..... (١)

كما يرسم هذا المنظر السابق - أيضا - لوحة لبعض الخلافات  
التي قد تحدث عادة بين الرجل وزوجه فوما يعقبها من عتاب رقيق يسدد  
ما جرى من خلافات ، ففى خلال هذا الحديث الذى دار بينهما يجس  
ذكر خديجة على لسان الرسول بما يدل على مكانتها عنده ، وتفصار  
عائشة فتقول فى خديجة قولا يفض من الرسول ويرد عليها ، فتغضب  
عائشة وتصيح وتتدخل أبو بكر ، ويحاول أن يعاقب ابنته ويحول الرسول  
بينه وبينها ويخرج أبو بكر .. ويهق الرسول وزوجه مطرقين صامتين ،  
ثم لا تلبث عائشة أن تهكى .... ثم يعقب ذلك عتاب رقيق جميل ..  
.....

" عائشة تهكى "

محمد : " يلتفت اليها " مالك يا عائشة ؟ ..  
عائشة : ورب ابراهيم انسى ..  
محمد : " يدنو منها ويهق لها " ألا ترين قد حلتُ بسين  
الرجل وبينك ؟  
عائشة : وددت ورب ابراهيم انى عندك خير مما اكون ! ..  
محمد : لا تغضبى !  
عائشة : انى لست غَضَبِي !  
محمد : انى لأعلم اذا كت غنى راضية ، واذا كت على غَضَبِي !

عائشة : ومن أين تعرف ذلك ؟  
محمد : " باسم " اذا كنت عني راضية فانك تقولين ورب محمد!  
واذا كنت على غضبي قلت ورب ابراهيم ! ..  
عائشة : " باسم " أجل يا رسول الله ! والله ما أهجر الا اسمك !  
... .. (١)

\*\*\*

وينتقل الحكيم ليلقى الضوء على جانب آخر من جوانب شخصية  
محمد البشرية ، وهي شخصية محمد القائد ، الذي يفكر في أنجح الوسائل  
لانتصار على الأعداء .. القائد الذي يستشير رجاله ، بل ينزل عنده  
رأيهم مادام هو الرأي الصواب ، بل القائد الذي يفكر فيستقر على  
رأى ثم لا يهوى غضاظة - ان بدا غيره خيرا منه - في أن يرجع عنه  
نزولا على رأي أحد رجاله ، وتأكيده لهدأ الشوري ، واعتدادا بأن الصلحة  
في الأخذ به .

(٧) أما الحالة الأولى ، فيصورها المنظر السادس عشر من الفصل  
الثاني ، حين استشار الرسول أصحابه فيما يجب أن يتخذوه من خطط  
لحماية المدينة من هجوم المشركين يوم الأحزاب .. فيشير عليه " سلمان " -  
الفارسي بحفر خندق حول المدينة ، ويقر الرسول هذا الرأي وينزل عليه .  
.....

محمد : نعم ! ان العرب ترمينا الآن عن قوس واحدة ! ..  
عمر : وما الرأي ؟ ..

محمد : أيها الناس .. أشيروا على ! ..  
 " سلمان الفارسي يتقدم "  
 سلمان : يا رسول الله ! .. ان عندى رأيا ! ..  
 محمد : قل يا سلمان ! .. قل يا سلمان ! ..  
 سلمان : نجعل حول المدينة خندقا ! ..  
 عمر : خندقا ؟ ! ..  
 سلمان : إنا - معشر الفارسيين - كنا اذا دهمنا عسود ،  
 خندقنا على أنفسنا ! ..  
 محمد : " يفكر قليلا " نعم الراى .. اضرخوا الخندق  
 على المدينة .. " (١)

(٨) وأما الحالة الثانية فيصورها المنظر الثامن من الفصل الثانى  
 حين يختار الرسول مكانا لينزلوا فيه فى بدر ، ويخوض عليه " الجباب " بن  
 المنذر النزول فى مكان أفضل من الأول ، وينزل الرسول على رأى الجباب  
 ابن المنذر .

.....  
 محمد : هنا فانزلوا ! ..  
 " الجباب بن المنذر يسرع الى محمد "  
 الجباب : ننزل هذا المكان ؟ ..  
 محمد : نعم ! ..  
 الجباب : يا رسول الله ! .. أرايت هذا المكان ، أمزلا أنزلكه  
 الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو  
 الراى والحرب والمكيدة ؟ ..  
 محمد : بل هو الراى والحرب والمكيدة ! ..

الحساب : يا رسول الله .. ان هذا ليس بمنزل ، فسير بالناس  
حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، فاني عالم بها  
مقلبها ، بها قلب قد عرفت عذوبة ماءه ، لا ينزج  
فتفور ما سواه من القلب ، ثم ينهى عليه حوضا ، ثم  
نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ! ..

محمد : لقد أشرت بالرأى ! ..

الحساب : " يسير بالقوم الى القلب " هو هذا " القلب " ...  
هنا فلننزل ! ..

" محمد ينزل ، وينزل معه الناس ... " (١)

\*\*\*

:: الفصل الخامس ::  
 كتاب " محمد " فنى ميزان النقد

- ١ - قيمة الكتاب وأثره .
- ٢ - الشكــــــــــــل .
- ٣ - الحـــــــــــــوار .
- ٤ - رأى بعض النقاد حول الكتاب .

## ١ - قيمة الكتاب وأثره :

يعد كتاب " محمد " للحكيم أول كتاب في العصر الحديث تناول السيرة النبوية في قالب مسرحي ، أو بأسلوب حوارى ، عرضت السيرة من خلاله في صور متعددة ومناظر مختلفة تمثل جوانب مختلفة من حياة الرسول الكريم منذ بدأت بشائر مولده حتى وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولقد سبق أن أشرنا الى أن الحكيم لم يتناول كل أحداث السيرة ووقائعها ، بل اختار منها ما أثار عاطفته وهز كيانه ، فافعل به ثم عبر عنه . ولقد عرضنا نماذج مختلفة تمثل الجوانب التى اختارها الحكيم للتعبير عنها ، والأحداث التى اختارها الحكيم من سيرة الرسول الكريم ..

ولقد بذل الحكيم فى هذا الكتاب جهدا كبيرا حين ألزم نفسه أن يتناول السيرة بهذا الأسلوب الحوارى فى ضوء ما أمامه من نصوص وردت فى كتب السيرة والأحاديث المعتمدة مثل " سيرة ابن هشام " " وأسد الغابة " لابن الأثير ، " صحيح البخارى .. " ولقد سبق أن أشرنا الى ذلك آنفا .

ومن أجل ذلك لم يستطع الحكيم أن يطلق العنان لخياله الا فى حدود ضيقة جدا ، ولا أن يعطى لقلبه الحرية الا حين يكون المتكلم شخصا أو جماعة لم تدخل فى دين الاسلام ..

وعلى الرغم من هذه الحدود التى قيد فى إطارها قلمه ، تلك القيود التى حبس فى داخلها خياله .. استطاع الحكيم الأديب الفنان أن يقدم المشاهد الرائعة والصور المؤثرة من حياة الرسول الكريم ، قدم لنا الحكيم من خلالها محمدا بشرا رسولا ، ورسم فى هذا الاطار صورا رائعة لمحمد البشر الانسان ، ومحمد الرسول العظيم .. وأبرز

الحكيم من خلال تلك الصور القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذى يجيب على الانسان المسلم أن يسير على نهجه ..



ولعل هذا الجهد الكبير الذى بذله الحكيم فى هذا العمل الفنى الذى قدمه للقارئ من خلال كتابه " محمد " .. لعل هذا الجهد ، هو ما جعل جيلا كاملا من أدبائنا يشفقون من سلوك هذه الطريق ، لما يتطلبه هذا العمل الفنى من جهد فى دراسة السيرة وتاريخ الاسلام وقراءة الأدب العربى .. وما يتطلبه أيضا من المام واسع وثقافة عريضة بالنواحي والجوانب الاسلامية من ناحية ، وما يقتضيه هذا العمل — أيضا — من التزام كامل بما ورد فى السيرة ، وكتب الأحاديث من نصوص .. كما دفعهم الى الاشفاق خوفاً من الانزلاق والتردى فى الفكر — أو الرأى محين يتناولون أمثال هذه الجوانب التى يجب أن تحاط بسياس من القداسة والتمظيم ، وما تفرضه تلك القداسة ويفرضه هذا التمظيم من تقييد للقلم وحس للخيال — من ناحية أخرى ..

ومن هنا لم ير القارئ محاولة أخرى — تشبه محاولة الحكيم — تناولت السيرة النبوية بمثل ما تناولها الحكيم ، وكان يمكن للأدباء والفنانين أن يسلخوا الطريق نفسها ، وأن يدخلوا عليها من التجديد والتحسين ما يجعلها أقرب الى المسرحية الفنية بقواعدها وأصولها المعروفة .



## ٢ — الشكل :

وإذا ما عدنا الى كتاب " محمد " هذا لنطلق عليه مصطلحاً من المصطلحات الفنية ، أو لندرجه تحت لون من الألوان الأدبية المعروفة

نجد أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون سيرة ، ولا يمكن أن يكون قصة أو رواية ، ولا يمكن - أيضا - أن يكون مسرحية ، وإن كان مكتوبا ففى حوار مثل الحوار المسرحى .. والذين كتبوا عن مسرحيات الحكيم التى جاوزت ستين مسرحية طويلة و قصيرة ، ألفها على مدى خمسين سنة أو يزيد ، لم يذكروا من بينها هذا الكتاب .

وعلى الرغم من هذا كله ، يعد الكتاب من ناحية تأثيره فى النفوس وهزه للشعور من أرقى الكتب الأدبية الفنية الرفيعة ، ولست أدري لم يولج النقاد بمحاولة وضع أساليب الكتابة المختلفة وأنماط التفكير المتنوعة تحت أسماء مختلفة ومصطلحات متعددة ، فيسمون هذا قصة ، وذاك مقالة ، وذلك قصيدة ، وما أشبه تلك التسميات ثم يقررون أن كل ما خرج عن أصول أى لون من هذه الألوان ، لا يسمى أدبا بالمعنى الفنى .. أو بعبارة أخرى ، لا يصح أن نطلق عليه المصطلح الذى يتدرج تحته ..

وإذا ما نظرنا إلى كلمة " الأدب " أو إلى عبارة " الفن " - على اختلاف أشكاله - نجده ذلك الذى يُحْدِثُ أثرا فى النفس ويدفعها إلى أن تجيش بالعواطف والانفعالات المتباينة من لذة وألم - وما بين هذا وذاك ما جاشت به من قبل نفس الأديب .

اذ لو تساءلنا " .. ما الفن <sup>(١)</sup> (لكان الجواب) : هو عملية الاعمال بين عقل وعقل ، وقلب وقلب .. هو أن يمتلئ عقل الفنان وقلبه بفكرة ما ، أو شعور ما ، ثم يستطيع أن ينقل هذا إلى عقل وقلب

---

(١) فى الأصل : " ما هو الفن " ؟ وهو تعبير خاطئ يقع فيه كبار الكتاب وصغارهم .. وهم لا يشعرون .



انسان آخر ، فترتجف مشاعره لحظة قصيرة ، أو تستقر في مشاعره فترة<sup>(١)</sup> طويلة . . . ليس الشكل أو أداة التوصيل هو الفن ، ولكن التأثير فـى الاحساس ، وفى التفكير ، هو الفن . . . وهذا هو المقياس ، وليس هناك مقياس سواء الذى<sup>(٢)</sup> ينهى أن نقيس به كل ما تمودنا أن نسميه فناً ، وليبق بعد هذا ما يبقى وان كان ضئيلاً . . . ولهذا جفاء كل ما عداه<sup>(٣)</sup> .



### ٣ - الحوار :

الكتابات المسرحية تعتمد أولاً وأخيراً على الحوار ، فهو قلبها ، وقلبها ، والحوار هو اللغة التى يجربها الكاتب على السنة أشخاص المسرحية وأبطالها ، ولا بد أن تكون هذه اللغة مطابقة تماماً لمستوى ثقافة هؤلاء الأشخاص ومستوى تفكيرهم ، ومن هنا لا يصح أن يجرب الكاتب حواراً على السنة الأشخاص بلغة أعلى من مستواهم الثقافى وهم لا يعرفونها والعكس صحيح . . .

ويشترط فى هذا الحوار أن يكون سلساً ، مشوّقاً ، يدفع السامع أو القارئ الى تتبعه ، وأن يكون منتظماً ومتسقاً مع الفكرة التى يتضمنها ، ومتشياً مع نمو الأحداث وتدرجها . . . بحيث يأخذ القارئ من فكرة الى فكرة فى اطار الفكرة العامة التى يقصدها الكاتب ، ومن هنا لا يصح للكاتب أن يقطع فكر القارئ بحوار دخيل يفسد السياق ويشوه التسلسل .

- 
- (١) المعنا مراراً الى خطأ كلمة " فترة " فى تلك المواضع .  
(٢) كلمة " الذى " هنا مقحمة لا موضع لها ، ولكنها لغة كبار الكتاب فى المصر الحديث !!! .  
(٣) أخبار اليوم بتاريخ ١٢/٣/١٩٧٧ - من مقال بعنوان : ملـف ثقافتنا - ٣ - بقلم : عبد الحميد الكاتب .

كذلك لا بد أن يكون الحوار معتمداً على الكلمات المعبرة والألفاظ الموحية التى تغنى فيها الكلمة أو اللفظة عن كلمات وألفاظ ذلك لأن أسلوب المسرحية ، يعتمد على التركيز والإيجاز ، عكس القصة والرواية التى يعتمد أسلوبهما على الشرح والتحليل والاطناب والتطويل ..

\*\*\*

هذه كلمة لا بد منها ونحن نتعرض للحوار فى كتاب " محمد " للحكيم وإذا ما عدنا الى كتاب " محمد " نرى أن الحوار فيه قد اتسم بكل السمات التى يجب أن تتوافر فى الحوار المسرحى ..

فالحوار سلس مشوق ينتظم ويتسق مع الفكرة ، كما أنه يواكب نمو الأحداث وتدرجها - كذلك نجد لغة الحوار مليئة بالكلمات المعبرة والألفاظ الموحية بالإضافة الى تمثيلها مع لغة الأشخاص ومستواهم الفكرى ، فهى عربية فصحة بليغة أيضاً ، والذى ساعد الحكيم على ذلك ، هو أن لغة الكتاب أو لغة الحوار جرت على السنة عرب فصحاء ، لم تشبهها كلمات دخيلة أو ألفاظ غير فصحة .. ولقد قلنا سابقاً ان الحكيم اعتمد فى الحوار الذى جرى بين الأشخاص على ما ورد على ألسنتهم فى كتب السيرة والأحداث ، خاصة ذلك الذى جرى على لسان الرسول الكريم أو أصحابه الكرام ...

ولم يتح الحكيم - بحواره الذى أجراه فى هذا الكتاب لنفسه أن ينطلق من هذه المعالم الا فى حدود ضيقة ، حينما تكون الشخصية التى تحاور شخصية غير اسلامية أو حين تكون شخصية خيالية افترعها الحكيم وابتدعها ، كشخصيتى ابلهس والحية ، تلكا الشخصيتين الرمزيتين اللتين أجرى الحكيم بينهما حواراً فى المنظر الثانى والثلاثين حينما اجتمع زعماء قريش

فى دار الندوة يتشاورون فى أمر محمد<sup>(١)</sup> .. وكشخصة ابلهس التى تكررت  
فى غير ما موضع ، تتحدث وتداول حينما ظهرت فى شكل شيخ من نجد ..<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

#### ٤ — رأى بعض النقاد حول الكتاب :

ولقد اختلف آراء النقاد والآدباء ازاء هذا الكتاب وثابتت مواقفهم  
منه ، وانقسم الناس ازاءه قسمين : مآح وقآح ..

أما الذين مدحوه ، ولقى من جانبهم ترحيبا كبيرا ، هل عدوه  
مفنا فنا للسيرة النبوية ، فهم المثقون المحافظون كالأستاذ مصطفى صادق  
الرافعى الذى أطراه وأشاد به ..

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى : " قرأ الأستاذ كتب السيرة  
وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشائل ، بقريحة غــير  
قريحة المؤرخ ، وفكرة غير فكرة الفقيه ، وطريقة غير طريقة المحدث وخيال  
غير خيال القاص ، وعقل غير عقل الزندقة ، وطبيعة غير طبيعة السـرأى ،  
وقصد غير قصد الجدل فخلص له الفن الجميل الذى فيها ، اذ قرأ بقريحته  
الفنية المشبهة ، وأمرها على احساسه الشعرى المتوثب واستلها من التاريخ  
بهذه القريحة ، وهذا الاحساس ، كما هى فى طبيعتها السامية متجهة  
الى غرضها الالهى ، محقة عجائبها الروحية المعجزة ، وقد أمدته السيرة  
بكل ما أراد ، وتطاولت له على ما اشتهى ، ولانت فى يده كما يلـسـين

(١) انظر كتاب محمد ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) انظر المصدر السابق ص : ١٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ .

الذهب في يد صائغه ، فجاء بها من جواهرها وطبيعتها ، ليس له فيها خيال ولا رأى ولا تعبير ، وجاءت مع ذلك في تصنيفه حافظة بأبداع الخيال ، وأسمى الرأى ، وأبلغ العبارة . . . . . وجمع حوادثها المدونة ، فصورها في هيئة وقوعها كما وقعت ، واستخرج القصص فأدارها حوارا كما جاءت في السنة أهلها ، وهذه الطريقة أعاد التاريخ حيا يتكلم ، وفيه الفكرة ، وملائكتها وشياطينها ، وكشف ذلك الجمال الروحاني ، فكان هو الفن ، وجلا تلك النفوس العالمة فكانت هي الفلسفة ، وأبقى على تلك البلاغة ، فكانت هي البيان . . . (١).

ثم يستطرد فيتحدث عن فصاحة أسلوبه وعن مزايا طريقته وهن مكانة الكتاب في الأدب فيقول : " . . . ولا يرمى بالفشانة والركاكة وضمف النسق ، إذ هو فصاحة العرب الخالص ، كما رويت بالفاظها ، وقد حسن المؤلف تصنيفنا لا يقتحم ، وكان في علمه مخلصا أتم الاخلاص ، أميننا بأوفى الأمانة ، دقيقا كل الدقة ، حذرا بخافية الحذر ، ومن فوائده هذه الطريقة ، أنها هيأت السيرة للترجمة الى اللغات الأخرى ، فسي شكل من أحسن أشكالها يرغم هذا الزمن على أن يقرأ بالاعجاب تلك الحكاية المنفردة في التاريخ الانساني ، كما أنها قربت وسهلت فجعلت السيرة في نصها العربي كتابا مدرسيا بليفا بلاغة القلب واللسان ، مهيئا للروح ، مرهفا للذوق ، مصححا للملكة البيانية ، وحسب المؤلف أن يقال بعد اليوم في تاريخ الأدب العربي : ان ابن هشام كان أول من هذب السيرة تهذيبا تاريخيا ، على نظم التاريخ ، وأن توفيق الحكيم أول من هذبها تهذيبا فنيا ، على نسق الفن (٢) .

(١) وحى القلم ج ٣ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

(٢) المصدر السابق ص : ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

أما الذين قدحوه ونقدوه ، فهم المثقون المجددون - أعني بعض المجددين - بل وهجموه وإن كان من وجهة فنية لا فكرية ، وكان ممن هؤلاء الناقدين المهاجمين الأستاذ اسماعيل مظهر الذي كتب في مجلة " المقتطف " يقول : ان توفيق الحكيم لم يفعل الا أن قص الحوادث كما وقعت ، ونقل الأقوال كما قيلت بلسان أهل العربية الفصح ، ولم يزد من عنده على الأحاديث في شيء الا وظهر كالرقعة الدخيلة في الثوب القديم<sup>(١)</sup> .



ومهما يكن من شيء ، فحسب الكتاب أنه الكتاب الأول في المصـــــر الحديث في طريقته وأسلوبه . . . وحسبه أيضا أنه قدم السيرة في صورة سهلة شائقة حبيبة الى النفس ، قريبة الى القلب : قلب المثقف ونصف المثقف والناشي والدارس . . . حسبه أنه قدم صورة جديدة عن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، البشر والرسول ، مازجا بذلك بين المادة والروح ، وواصل الأرض بالسما ، وحسبه - أيضا - أنه الكتاب الرائد حين ساق السيرة النهرية بهذا الأسلوب وتلك الطريقة اللذين لم يسبق اليهما .



## ٖٖ الباب الرابع ٖٖ

### " السيرة والأسلوب الفلسفى النفسى "

من خلال

كتاب " عبقريته محمد " للمقباد

- الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند المقباد .
- الفصل الثانى : الفكرة والموضوع فى " عبقريته محمد " .
- الفصل الثالث : خصائص طريقة المقباد .
- الفصل الرابع : أسلوب المقباد وسماته .
- الفصل الخامس : منهج المقباد وأسس .
- الفصل السادس : " عبقريته محمد " فى ميزان النقد .

## ٖٖ الفصل الأول ٖٖ

” بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند العقسار ”

• بواعث عامة •

• بواعث خاصة :

• الباعث الأول : الفيرة والانصاف •

• الباعث الثانى : النشأة •

• الباعث الثالث : التحول الفكرى •

### بواعث عامة :

حفلت المكتبة العربية بالعديد من كتب العقاد التي تهتم بدراسة الشخصيات الاسلامية ، وعلى رأس هذه الشخصيات شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد ظهرت للعقاد عبقريات : محمد والهدى - وعمر - والامام .. وقد عرفت هذه الكتب بـ " عبقريات العقاد الاسلامية " واشتهرت شهرة واسعة حتى صارت مجال اهتمام ودراسة وبحث من الكتاب والباحثين ، كما صارت موضع اهتمام وعناية من قبل القارئ على التربية والتعليم ، حيث قرروا بعضا من هذه الكتب على طلاب المرحلة الثانوية في دور التعليم بمصر ..

وبهنا أن نتحدث عن واحدة من هذه العبقريات ، هي " عبقريته محمد " ، مجال بحثنا في هذا الباب .

لقد ظهر كتاب " عبقرية محمد<sup>(١)</sup> " في وقت حفلت فيه المكتبة العربية بالعديد من الكتب التي تتناول الموضوعات والشخصيات الاسلامية ، كما ازدانت فيه " المجلات " التي كانت تصدر آنذاك بالمقالات الاسلامية ، وكانت مجلة " الرسالة " هي المجلة الرائدة في هذا المجال .

ولقد كانت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وما يتصل بحياته وسيرته من الموضوعات التي حظيت بالتصويب الأوفى من هذه الكتابات .

ولقد كانت كثرة الكتابات في هذا المجال ظاهرة استرعت نظر كسبر من الباحثين والدارسين ، وجذبت اهتمامهم ، فراحوا يحاولون تفسيرها وتوضيحها ، ويبحثون عن بواعثها ودوافعها ، ومن هؤلاء العقاد نفسه ، كما سبق أن أشرنا .

---

(١) ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٤٢ .



ولعل من سبيل التذكير أن نلخص البواعث والدوافع التي ذكرها العقاد ، وكانت وراء هذه الظاهرة ، وهى بواعث ودوافع ترجع بالدرجة الأولى الى بواعث ودوافع مذهبية وفكرية ودينية .

أما البواعث المذهبية والفكرية : فانها تتصل بشيوع الفلسفة المادية وانتشارها واجتياحها العالم كلها ، قرن كامل ، واقتدار الناس بها فى غير طائل ، وفشلها الذريع فى اقناع الناس بها بعد أن انتظروا منها التحليلات والتفسيرات التي تعبوا فى البحث عنها ..

كان لهذا الفشل الذي مُنبت به تلك الفلسفة ، ولهذا السراب الذي خُدعَ الناس به الاثر البارز فى توجيه الناس الوجهة السليمة ، وهى الرجوع الى الدين الاسلامى ، يلهمون حاجات نفوسهم منه ويغفنون ارواحهم من مبادئه وآدابه وتشريعاته ..

وكما تتصل هذه البواعث بشيوع الفلسفة المادية تتصل بظهور الحركات التبشيرية الواسعة التي قام بها صليبيو العصر الحديث فى كل مكان من أرجاء العالم العربى ، والتي تركت أكثر فى مصر والشام .. وزحفست الارساليات التبشيرية عليهما كما ترحف الأفاعى الرقطة ليلا .. كى تسمت سمومها القاتلة فى كل مكان تسير فيه .

ولقد اتخذت هذه الارساليات كافة الوسائل وشتى الطرق الملتوية المستترة تحت أسماء خداعة .. فضللا للناس وصرفا لهم عن حقيقة أمرها .

كذلك تتصل هذه البواعث بظهور الحركات الشيوعية وما تحوى من كهر والحاد ومذاهب مادية ضالة ، وما أدى اليه ذلك من فرغ الناس وخوفهم من هذه الأداة الفتاكة واعتصامهم منها بالعقائد الروحية التي لا تسبغ

## المذاهب المادية •

أما البواعث الدينية : فانها تتصل باللياذ بالمعقيدة الدينية والرجوع اليها ، فان في اللياذ بها والرجوع اليها اعادة لذكرى مجد قديم ، هو المجد الاسلامى الذى ازدانت به صفحات التاريخ وازينت بروائه معالم الحياة ، وأضأت بما أضافه الى العالم من حضارة ، وما قدمه من علوم وآداب وتشريعات ..

فلا عجب اذا رأينا في أقطار العالم العربى والاسلامى وبغضنة جامعة دائمة في القراءة عن تاريخ الاسلام وزعماء المسلمين ، وما يرجسى بعد اليوم للاسلام والمسلمين ، .. أو وجدنا حديثا دائما عن الاسلام والمسلمين •

ولا غرابة في ذلك في وقت اشتدت فيه الفارة على الاسلام وعلى العالم الاسلامى ، وانتشرت الخرافات والتُّرَهَّاتُ والتهمة التي تُكَالُ للاسلام ولنبي الاسلام ، وتصعدت ضراوة هذه الفارة الشرسة من الأعداء المتربصين بالاسلام والمسلمين • وكان لا بد - اذ - هذه الهجمات الضارية - من بقطة عربية اسلامية تحمى حصن هذا الدين وتذود عن حياضه ، وترجع بابنائه اليه ، وتريدهم حُجًّا له وحديبا عليه •

\*\*\*

## بواعث خاصة :

ويتصل بهذه البواعث والدوافع العامة التي تفسر شيوع هذه الظاهرة - بواعث ودوافع خاصة تتصل بالعقاد نفسه وكانت وراء كتابه " عبقرية محمد " .

وحينما نحاول أن نتتبع هذه البواعث وتلك الدوافع نجدها ترجع الى أنواع ثلاثة : باعث مرجعه الفيرة والانصاف ، وباعث مرجعه النشأة ، وثالث مرجعه التحول الفكري في حياة العقاد .

### الباعث الأول : " الفيرة والانصاف "

نستطيع أن نقول : ان " عبقرية محمد " للعقاد كانت ردّ فعل لما كان يشعر به العقاد نحو الرسول من حب وتعظيم واجلال ، فلم يَكْدُ العقاد يشعر بأن الرسول موضع طمع ومكان تطاول ومحل ثلم وتجريح حتى شرع قلمه ليرد عن شخصية الرسول ، ويذب عن حماها ، ويصدود عن حياضها أقلام المتطاولين على تلك العظمة ، والمهاترين حولها ، ممن يحطون في قلوبهم حقدا وضغينة ويُسْرُونَ حنقا ودِقْثًا .. على الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم .

ويرى العقاد أن التطاول على العظمة والاجترأ عليها سمة من سمات هذا العصر وأن التطاول على المظما والاجترأ عليهم من تقاليد هذه الأيام التي أصبح للمظمة وللمعظما فيها مقاييس مختلفة ومعايير مختلفة . ظنا من أولئك المتطاولين أن الناس متساوون ولا فرق بين انسان وانسان ، وكانت شخصية الرسول الكرم من الشخصيات التي كثر حولها التطاول والاجترأ من أعداء الاسلام والمسلمين ، من تتميز قلوبهم غيظا وحقدا .

واذا كان من الواجب على كل ذي همة وفيرة على العظمة - أيّا كانت هي - أن يدافع عنها وينتصف لها من المتطاولين عليها ، فان من أوجب الواجبات على كل ذي همة وفيرة وإخلاص لله ورسوله أن ينتصبي سيفه ويشرع قلمه دفاعا عن شخصية الرسول الفذة وعظمته التي لا تطاولها

عظمة .. حتى يرد اليها حقها من الغامطين لها والمفترين عليها ،  
ولينصف لها من أعدائها والمتريصين بها .. ولهذا السبب شرع العقاد  
قلمه وانتضى سيفه الذى يحارب به فكان كتابه " عبقريه محمد " اجلالا  
لعظمة الرسول وغيره عليها وانصافا لها ..

ولهذا الباحث قصة واقعية يذكرها العقاد فى مقدمة كتابه فيقول :  
" تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة ، الى اليوم الذى سمعت فيه  
اول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه الصلاة والسلام . وكنت أقسم  
يومئذ فى ضاحية المباسية البحرية على مقربة من الساحة التى كانت معدة  
للاحتفال بالمولد النبوى كل عام . ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين  
بالأدب يشتركون فى قراءة كتبه العربية والافرنجية ويترددون معا على الأحياء  
الوطنية ، وقلمنا يترددون على غيرها ، فلا يزالون متنقلين بين الحسى  
الحسينى والحنى الزينبى ، أو بين منشئة القلعة وضاحية العباسية ، أو بين  
الروضة والخليج .. على حسب المناسبات ، وعلى غير مناسبة فى كثير  
من الأوقات ... ففى يوم من أيام المولد - والرهط يزورنى لتقوم الساحة  
مجتمعين فى المساء - كان الكاتب الانجليزى العظيم " توماس كارليل "   
هو محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون من قراء العربية صاحب  
كتاب " الأبطال " الذى عقد فيه فصلا عن النبى محمد عليه السلام ،  
وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف  
والتدليل . وأنا لتتذاكر آراءه ومواقع ثنائى على النبى ، اذ بدرت من  
أحد الحاضرين الغريب على الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستكرناها لما  
فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية . وكان الفتى الذى بدرت  
منه الكلمة متحذقا يتظاهر بالمعركة ، ويحسب أن التناول على الأنبياء  
من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة .. فكان ما قاله شئى

عن النبي والزواج ، وشيء عن البطولة فحواه: أن بطولة محمد إنما هي  
بطولة سيف ودما .

قلت : " ويحك " ما سوغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذه  
القولة النابية . " وقال صديقنا المازني : " بل السيف أكرم من هذا ،  
وانما سوغ صاحبنا شيئا آخر يستحقه " . . . وأشار الى قدمه .

وارتفعت لهجة النقاش هنيئة ، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب  
الكلمة من الندى واعتذاره قبل خروجه وتفسير كلامه على معنى مقبول .  
أو خيل اليه أنه مقبول . وتساءلنا : ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبي  
وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ، ولا يعرف الاسلام كما نعرفه ، ثم سألني  
بعض الاخوان : " ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا  
عن محمد على النمط الحديث ؟ " قلت : " أفعل . . وأرجو أن يتم ذلك  
في وقت قريب " (١)

وأقول - تعليقا على قولهم : " ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل  
للنبي وهو كاتب غربي . . . - : أن الحق ما قالوه ، فأحق الناس بالكتابة  
في الموضوعات الاسلامية والسيرة النبوية خاصة ، هم الصادقون المخلصون  
من المسلمين ، لأنهم حين يكتبون فانما يكتبون حقا وصدقا يستلزمهم  
ويقتضيها واجب الايمان وواجب الحب وواجب الوفاء ، أما غيرهم من الغربيين  
والمستغربين فلا خير في كتابتهم في مثل هذه الموضوعات أو فيها خير  
الا أن شرها أكثر من خيرها . . أما الغربيون فهم واحد من اثنين :  
أما مدخول النية سيئ الطوية ، وأما حسن النية منصف . .

أما الأول فهو ذو قلب يشتعل حقداً ويغلى ضغينة وان كتب فسى  
مثل هذه الموضوعات فانما يكتب زورا يَشُوهُ به الحق ، ودَجَلًا يزور به التاريخ ،  
ومثل هذا النوع من الكتاب لا خير فى كتابته على أى حال من الأحوال .

وأما الثانى فلديه من الشجاعة الأدبية ما يجمله يكتب الحقائق  
بأمانة ، ويسجل التاريخ بصدق دون دجل أو تزوير ، لكن كتابة مثل هذا  
النوع من الكتاب ليست مضمونة النتائج ولا مأمونة المواقب ، اذ أن كثيرا  
منهم لا يعرف الاسلام كما يعرفه المسلمون ، ولا يفهمه كما يفهمه المسلمون ،  
ولا يعرف عن النبو كما يعرف المسلمون ، ولا يحيط بتاريخه مثلما يحيط  
المسلمون . . . وقد يقصر علمه عن كثير من الحقائق جهلا بها ، وقد يقصر  
ادراكه عن فهم كثير من الأشياء فيفهمها على غير وجهها الصحيح ،  
ويسبب جهله ببعض الحقائق وسبب قصور ادراكه عن فهمها الصحيح ، قد  
يدخل فى الاسلام ان كتب فى الموضوعات الاسلامية ، أو قد يدخل فسى  
تاريخ الرسول ان تناول سيرة الرسول - قد يدخل فيها ما ليس منهما -  
أو هو منهما ولكن على نحو من التحريف والتعديل .

وأما المستفهمون : وهم الذين يسرون فى فلك الغريبين ويقلدونهم  
فى أفكارهم ومناهجهم ومعالجتهم لمثل هذه الموضوعات ، بل يقلدونهم  
فى كثير من آرائهم المنحرفة ومبادئهم الشاذة ، امانا فى التقليد الأعمى ،  
ومجاعة للثقافة المزعومة - أما هؤلاء المستفهمون ، فهم أكثر خطرا وضرا  
من الغريبين لأنهم - لاشك - أكثر فهما للتاريخ الاسلامى وأكبر المأسا  
به وأكثر احاطة بتاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم من أولئك الغريبين ، ما  
يجعل القارئ يقبل قولهم على أنه قضية مسلمة . . . لأنه يفترض فيهم  
الصدق والأمانة ووضوح الأمور فى نصايها وهذا هو مكن الخطر وموطن الضرر .

وإذا كانت كتابات أمثال هؤلاء الغريبين والمستفهمين تشكل خطرا  
ضررا على تاريخ الاسلام عامة والسيرة النبوية خاصة ، لما قد شيره كتابات

هؤلاء وأولئك من شبهات وافترافات وأباطيل ، نحن في غنى عنها . . كان من ألزم اللوازم وأوجب الواجبات أن يتناول مثل هذه الموضوعات الاسلامية كتاب مسلمون مخلصون عارفون بأنها هذه الموضوعات وحقائقها ، واقسمون على دقتها وأسرارها ، وهذا ما حدا بكثير من الكتاب والمشتغلين بالدراسات الاسلامية ، أن يحاولوا كتابة التاريخ الاسلامي من جديد . . . . . كتابة يكشفون فيها حقائقه التي شوهتها الأباطيل ، وأن يحاولوا من جديد - أيضا كتابة سيرة الرسول العظيم ، ليُجلوا عظمته من ركام المبطلين وخيار المفترين . . لأنهم وجدوا أنفسهم أحق الناس بالكتابة عن التاريخ الاسلامي وعن رسول الاسلام . . رسولهم ونبيهم . . . وقد أخذتهم الفيرة أن يتناول السيرة النبوية كتاب غريبون ، مهما كان انصافهم وحيادهم ، كما ذكر العقاد في مقدمة كتابه ، ما أشرنا اليه آنفا . .

### الباعث الثاني : " النفساء " :

لا شك في أن للنشأة التي نشأ عليها العقاد ، والبيئة التي عاش فيها ولما ورثه عن أبيه من خُلُقٍ وطباع - أثرا في اتجاه العقاد نحو الموضوعات الاسلامية عامة ، والسيرة النبوية خاصة . والعقاد نفسه يعزوه تعلقه بالموضوعات الاسلامية وما اعمل منها بالسيرة النبوية على التخصيص فيما يعزوه الى وراثته . . يقول العقاد : " ولدت لأبوين من أهل السنة ، أبى على مذهب " الشافعي " وأمى على مذهب " أبى حنيفة " وفتحت عيني على الدنيا وأنا أراها يصليان ويتمفظان قبل الفجر لأداء الصلاة - صلاة الصبح - حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالي في تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب ، أو عائدا منه الى داره . وفتحت أذني ، كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآله ، فمولد النبي حفلة سنوية في البيت نترقبها نحن الصغار ، ونفرح بها

لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبي وآله تتعدد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء اخوتى أجمعين : محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر وبين ، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب الى عم النبي لا الى الأمير الأسبق : عباس طمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى ، لأننى ولدت قبل ولادته وأبىته فى المدرسة أن القَبَّ بلقب " حلمى " جَرِيًّا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة (١) .

ثم يقول : " ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة ، لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالمأطفة النفسية منه بالآداب المذهبية فاستفدت منه كثيرا فى دراسة تاريخ الاسلام " (٢) .

والعقاد لم تدفعه الى الكتابة عن الرسول وعظماؤه الاسلام عاطفة مجردة من العلم بحقيقة الرسول وحقائق هؤلاء العظام ، ولم يدفعه تقديد أعى كتقليد الأميين فى حبهم للاسلام ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، بل دفعته عاطفة محبة ، وطلب مؤمن ، وعقل مفكر ، رأت فى سيرة الرسول وعظمته الخالدة من الشواهد والآيات ما يدفع الناس دفعا ويسوقهم سوقا الى الكتابة عنها ، ورأى فى سيرة عظماء الاسلام ما يشوق النفس الى الكتابة عنها لما فيها من مواقف بارزة ، وآثار شاهدة على عظمة أولئك الذين عاشوا وماتوا وهم فى رحاب الاسلام وتحت ظلال دعوته الفذة .

(١) فاطمة الزهراء والفاطميون ص : ٤

(٢) المرجع السابق ص : ٥ .



وهذا ما يؤكد المقاد نفسه ، يقول المقاد : " قاربت سير  
المظمة الاسلاميين ، و " النبهيين " لأرضى ذهنى ، ولم يقننى أن أرضى  
بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدا وآياتها ، فعظمة الاسلام  
عندى أعلام انسانية باذخة ، تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم  
وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم أنهم (أصحاب) أضرحة للتبرك وتلاوة  
الفاتحة والسلام " (١)

حتى فى تأريخه لفاطمة لم يكتف لأنها بنت محمد أو زوج على ،  
أو لأنها أم الحسن والحسين ، ومنيهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة  
قد تكتب لها ترجمة ، لأنها هى فاطمة ، ولأنها هى " مصدر من مصادر القوة التاريخية  
التي تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الأخير " (٢)

### الباعث الثالث : " التحول الفكرى "

قلما تسير حياة كاتب من الكتاب ، أو مفكر من المفكرين فى  
طريق واحدة ثابتة من البداية الى النهاية ، وقلما يلتزم فكرهم خطأ  
ثابتا لا يتعداه . . بل كثيرا ما يتحول الكاتب أو المفكر فى حياته من  
اتجاه الى آخر ، وكثيرا ما يتحول فى فكره من مذهب الى آخر ، وفى  
أدبه من نوع الى آخر ، يختلف فى خصائصه عن النوع الأول .

ذلك لأن الكتاب والمفكرين يتأثرون فى مذاهبهم الفكرية واتجاهاتهم  
الأدبية بما يحيط بهم من مؤثرات وما يلم بمجتمعهم الذى يعيشون فيه  
من تحولات فكرية أو سياسية أو اجتماعية ، وما يطرأ على حياتهم هم الستى  
يعيشونها من تغيير . . سواء أكان سياسيا أو اجتماعيا أو وظيفيا . . أضف

(١) فاطمة الزهراء والفاطميون ص : ٥ ، ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٦ .

الى ذلك ما يصاحب الكاتب أو المفكر من تغيير ونتيجة لارتفاع السن واتصال التجربة وازدياد المعرفة واتساع الأفق الثقافي .

والناظر في حياة الأدباء والمفكرين في مصر في مطلع هذا القرن وأوائله يجدها قد تعرضت لتغييرات وتحولات .. في مجال السياسة أو في ميدان العمل أو في محيط الفكر .. فمنهم من تحول سياسيا من حزب الى حزب كما فعل العقاد وطه حسين ، فالأول قد خرج من حزب الوفد ، والثاني قد دخله .. ومنهم من تحول وظيفيا من عمل الى آخر ، كما فعل محمد السباعي وعبد القادر المازني ومحمد مسعود وداود بركات حين انتقلوا من التعليم الى الصحافة .. ومنهم من تحول فكريا أو أدبيا - وهذا الجانب هو ما يعنينا الآن - من مذهب الى آخر ، ومن لون أدبي الى لون آخر ، ومن اتجاه في الكتابة الى اتجاه آخر .. وذلك نتيجة للموامل التي أشرنا اليها سابقا ، كما فعل المازني ومصطفى صادق الرافعي ، وشكيب أرسلان حين تحولوا من الشعر الى النثر حيث خيل اليهم أنهم مبرزون في الشعر واصلون فيه الى مكانة شوقي وحافظ والبارودي ، فلما قصر باعهم تركوه وعادوا الى النثر يبرزون فيه ، وكما فعل طه حسين حين تحول من منهج في الكتابة الى منهج آخر .. وذلك حين قدم للأدب العربي كتابه : " على هامش السيرة " يعتمد أن قدم كتابه " في الشعر الجاهلي " على عمد ما بين الكتبيين فسي المنهج والأسلوب ، فكتاب " في الشعر الجاهلي " يعتمد - شكلا - على المنهج العلمي ، بينما يعتمد " على هامش السيرة " على المنهج الأدبي ، و " في الشعر الجاهلي " يعتمد في طريقته على الأسلوب العلمي المعروف في البحث والتأليف ، بينما يعتمد " على هامش السيرة " في طريقته على الأسلوب الأدبي القصصي .

وبهنا هنا أن نقول : أن العقاد كان من أولئك الكتاب الذين تحولوا فكريا من لون الى لون آخر ، ومن نوع في الكتابة الى نوع آخر ، وذلك حين اتجه في كتاباته الى دراسة الموضوعات والشخصيات الإسلامية فقدم للأدب العربي والفكر الاسلامي عمقياته الاسلامية وهي عمقيات محمد والصديق وعمر وعلي وموخالده . وقدم عن الشخصيات الاسلامية الكتب الآتية : - " عمرو بن العاص " و " الصديقة بنت الصديق " و " أبو الشهداء " .. وعن الموضوعات الاسلامية كتب : " الله " و " الديمقراطية في الاسلام " و " مطلع النور " و " الاسلام والاستعمار " و " الفلسفة القرآنية " و " حقائق الاسلام وأباطيل خصومه " و " التفكير فريضة اسلامية " .. الى غير ذلك ممن العبقريات والشخصيات والموضوعات الاسلامية .. التي أوردنا ما أوردنا منها على سبيل المثال لا الحصر ..

والتأمل في كتابات العقاد - قبل هذا الاتجاه الاسلامي - يجد أنه يغلب عليها الطابع الأدبي أو الاجتماعي أو السياسي ، مثل دواوينه الشعرية : " يقظة الصباح " و " وهج الظهيرة " و " أشباح الأصيل " و " أشجان الليل " .. ومثل كتبه في الأدب والاجتماع والتاريخ : " الشذور " - " الفصول " - و " مطالعات في الكتب والحياة " - و " مراجعات في الأدب والفنون " - و " اليد القوية في مصر " - و " عالم السردود والقيود " .. ومثل دراساته النقدية والأدبية التي منها : " الديوان في النقد والأدب " - و " ابن الرومي : حياته وشعره " - و " فيبسيوز في الميزان " - و " شعرا " مصر وميثاقهم في الجيل الماضي " - و " رجعة الى أبي العلاء " .. ومثل كتبه في السياسة : " الحكم المطلق في القرن العشرين " - و " هتلر في الميزان " - و " النازية والأديمان " .. الى غير ذلك من للكتب والدراسات التي تحمل الطابع الأدبي أو الاجتماعي أو السياسي ، كما ذكرنا سابقا ، مما يعد تحولاً حقيقياً وواضحاً في اتجاه

المقاد .. " ولا شك أن كتابات المقاد عن الاسلام وعقرياته الاسلام هي تحول خطير في اتجاهه ، لم يلبث أن تعمق واتسع وأصبح لــــه طابع واضح .. " (١)

ولعل هذا التحول في اتجاه المقاد نحو الموضوعات الاسلامية يبدو أكثر وضوحا اذا علمنا أن المقاد كان من أولئك الذين يخطون حملات عنيفة على أولئك الكتاب الذين يتجهون في كتاباتهم اتجاها اسلاميا واصفا هذا الاتجاه بأنه محاولة لصرف الناس عن الوطنية والتحرير الوطني . " وفي نفس الوقت (٢) الذي كانت تتوالى فيه الدراسات ذات الطابع الاسلامي ، كان المقاد يحمل حملات عنيفة على هذا الاتجاه ويصفه بأنه محاولة لصرف الناس عن الوطنية السياسية ، وقال : ان هذا الاتجاه هو محاولة من الاستعمار لخداع الناس وصرفهم عن التحرير الوطني . غير أن المقاد لم يلبث بعد سنوات ، وفي أوائل الحرب العالمية (الثانية) أن بدأ يكتب " المبقرات " ويغل في دراسة أعلام الرعيل الأول من المصــــر الاسلامي ، ولم يلبث أن كتب عن : " الله " و " الفلسفة القرآنية " وهذا أورد نفسه في نفس (٣) المورد الذي هاجمه من قبل .. " (٤)

ومن النقد من يرجع هذا التحول في اتجاه المقاد نحو الموضوعات الاسلامية الى استفحال العادية وتوسع الدعوة الى الشيوعية ، وهذا لك جاءت كتاباته الاسلامية وخاصة عن الرسول وسيلة من وسائل مقاومة هذا الاتجاه ..

- 
- (١) أضواء على الأدب العربي المعاصر ، ص ٢٧٤ .  
(٢) من الأساليب الخاطئة التي استعملها الكتاب المحدثون ، والصواب : وفي الوقت نفسه .  
(٣) من الاستعمالات الخاطئة التي شاعت بين المحدثين ، والصواب : المورد نفسه . (٤) أضواء على الأدب العربي المعاصر ص ٢٨٦ .

ومما يؤيد هذا الرأي ما ذكره العقاد نفسه في مجلة "روز اليوسف"  
- وقد سبق أن ذكرنا ذلك - حين أرجع ظاهرة كثرة الكتابات الإسلامية  
إلى عوامل عدة منها : الخوف من استفحال المادية والفرع من الشيوعية ..  
ومنهم من يرجع هذا التحول إلى محاولة العقاد تغطية كتاباته  
السياسية التي توقفت بتوقف الصراع الحزبي في خلال سنوات الحروب  
العالمية الثانية ( ١٩٣٩ - ١٩٤٥ )<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) أعضاء على الأدب العربي المعاصر ص ٢٢٤.

## ٖٖ الفصل الثاني ٖٖ

---

### ٖٖ الفكرة والموضوع في "عقيدة محمد" ٖٖ

---

أ - الفكرة ..

ب - الموضوع ..

## أ - الفكرة :

ذكرنا سابقا أن من البواعث والدوافع التي جعلت العقاد يتسائل شخصية الرسول الكريم بالدرس والتحليل في كتابه "عبقريّة محمد" - باعنا خاصا بالعقاد نفسه - كان وراء ظهور هذا الكتاب ألا وهو تجسّسني المستغربين والمتطفلين على موائد الثقافة والمدعين فنون المعرفة - على شخصية الرسول الكريم وتطاولهم عليها - ونسبة أمور اليها هي منها بمرء - ظنا منهم أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والمعلوم الحديثة .. وكان مما قاله بعض هؤلاء الأغرار الجبهة - وكان سببا مباشرا من أسباب ظهور "عبقريّة محمد" - شئ عن النبي والزواج - وشئ عن البطولة - فحواء : أن بطولة محمد إنما هي بطولة سيف ودماء .. وكانت هذه الكلمة النابية التي سمعها العقاد بأذنه بمثابة محرك ودافع له - كي ينشط ويكتب عن الرسول العظيم كتابه هذا - وإن كانت الكتابة قد تأخرت عن الباعث ثلاثين سنة إلا أن السبب والباعث بقيا في ذاكرته لم تحبهما كثرة السنين .

ولعلنا من هذا الباعث الدافع نستطيع أن نحدد الفكرة التي ينطوي عليها هذا الكتاب فتقول : إن الكتاب في حقيقته ردّ تقديم لشخصية الرسول الكريم - إن صح هذا التعبير - واعطاؤها حقها من الاجلال والتعظيم - ودفاع عنها ازاء أقاويل المتقولين واقتراءات المفتريين خاصة فيما نسبوه الى الرسول تلك اللبلة التي ثار فيها لفظ ودار فيها حديث حول الرسول الكريم - مما أشار اليه العقاد في مقدمة كتابه ..

إذا كان الكتاب بهذه المثابة متفقا مع الباعث والدافع - فماذا ننتظر أن تكون الفكرة ؟ .

اننا لا ننتظر أن تكون شرحا وتطيلا للسيرة ، ولا أن تكون شرحا وتطيلا للإسلام ومبادئه وأحكامه ، إنما الذى ننتظره ونتوقعه أن تكون الفكرة — فى إطار الباعث والدافع — كشفا لجوانب شخصية الرسول الكريم ، وإظهارا لسمات العظمة فيها ، وتجليه لدلائل التميز والتفرد ، التى اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم — من خلال حياته الحافلة بكل جليل وعظيم من الصفات والأفعال والأقوال .. وأن تكون الفكرة — من خلال هذا الكشف وذاك الاظهار ، وتلك التجلية — تدليلا وبرهنة على أن الرسول الكريم قد حاز أجلى الصفات وأكمل الخصال ، وأندر الأعمال ، وأجل السمات ، وأنه — صلى الله عليه وسلم — كان مزيجاً من العظمة المتفردة فى هذا كله ..

يقول المقاد : " والمهم ونحن نضع كتابنا هذا عن " عبقرية محمد " بين يدى القراء ، لا نقول : أننا قد استوفيناها كما أردناه ولا أننا فصلنا فيه الفرض الذى توخيناها .. ولكننا نقول : أننا التزمنا فيه الباعث الذى أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة . كأننا شرعنا فى كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة ، فكتبناه ونحن نستحضر فى الذهن تبرة المقام المحمدى من تلك الأقاويل التى يلفظ بها الأغوار والجهلاء عن حذقة أو سوء نية ، ونظرنا اتفاقاً ، فإذا بأطول الفصول فيه — الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية .. لأنهما كانا مآثر اللفظ تلك اللملة على مقربة من ساحة المولد ، وكانا مآثر اللفظ فى كل ما رددته سفهاً الشائنين من الأوصلاء والمقتديين فى هذا الباب . فسيرى القارئ أن " عبقرية محمد " عنوان يؤدى معناه فى حدوده المقصودة ولا يتعداها ، فليس الكتاب سيرة نهية جديدة تضاف الى السير المصرية والافرنجية التى حفلت بها " المكتبة المحمدية " حتى الآن .. لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات ،



على اعتقادنا أن المجال متسع لمشرات من الأسفار في هذا الموضوع ، ثم لا يقال انه استنفد كل الاستنفاد ، وليس الكتاب شرحا للاسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا عنه ، أو مجادلة لخصومه ، فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى ، يكتب فيها من هم ذويها ولهم درايبية بها وقدرة عليها . انما الكتاب تقدير لـ " عبقريّة محمد " بالمقدار الذي يدين به كل انسان ، ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يثبت له الحب في قلب كل انسان وليس في قلب كل مسلم وكفى ، فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتناها المخلصون لجميع الناس . (١)

\*\*\*

#### ب - الموضوع :

لعل من اليسير علينا الآن أن نتعرف على موضوع الكتاب ، بمقد أن عرفنا الباعث على كتابته ، ومحمد أن عرفنا فكره . . . وإذا كان الباعث على الكتابة هو اجتراء الناس وتطاولهم على مقام الرسول العظيم ، وإذا كانت الفكرة كشفا لجوانب شخصية الرسول ، وإظهارا لسمات المظمنة ، وتبليغا لدلائل التميز والتفرد في هذه الشخصية الفذة ، وتدليلا بمرهنة على أن الرسول الكريم كان مزيجا من المظمنة المتفردة في جميع أفعاله وأقواله وصفاته وأحواله كلها . . . ودفاعا وذودا عن هـذه الشخصية لدى هذا الاجتراء وذاك التطاول من خلال الكشف عن جوانب تلك الشخصية النبوية بكل أبعادها المختلفة وزواياها المتعددة . . .

---

(١) عبقريّة محمد ص ١١ ، ١٢ .

... اذا كان الباعث واذا كانت الفكرة كما ذكرناه فلا شك في أن يكون موضوع الكتاب هو سمات العظمة في تلك الشخصية ودلائل التميز والتفرد فيها ، أو ما يسمى بـ " المبقرية " .

والمبقرية في شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليست تَفَرُّدًا في صفة ، أو تَمَيُّزًا في سمة ، أو عظمة في شارة ، ولكنها التفرد والتميز والعظمة في جميع صفاته وسماته وشاراته ، بحيث يستحيل على كل انسان منصف أن يجد له تميزا في سمة دون سمة ، أو تفردا في صفة دون أخرى ، أو عظمة في جانب دون آخر .. بل انه يجد ذلك كله واضحا في جميع جوانب شخصيته .

والمقاد في حديثه عن هذه المبقرية لم يترك طريقا اليها الا ولجها ، ولا سهيلا الا سلكها ، لذا رأينا يفتش عن هذه المبقرية في كل جانب من جوانب شخصيته صلى الله عليه وسلم . وينقب عن آياتها ودلائلها في كل مظهر من مظاهر حياته العظيمة .. في أفعاله .. وفي أقواله .. وفي صفاته .. وفي سماته .. وفي علاقاته .. وفي دعوته .. وفي عبادته . " وحسبنا من " عبقريه محمد " أن نقيم البرهان على أن محمدا عظيم في كل ميزان : عظيم في ميزان الدين ، وعظيم في ميزان العلم ، وعظيم في ميزان الشعور ، وعظيم عند مَنْ يختلفون في المقائد ولا يسعهم أن يختلفوا في الطوائع الأدبية ، الا أن يرين المنتهى على الطوائع فتتحرف عن السواء ، وهي خاسرة بانحرافها ، ولا خسارة على السواء " (١)

وهو في بحثه وتنقيحه عن سمات هذه المبقرية ودلائلها في مظاهر هذه الحياة الفذة الفريدة ، لا يبرز هذه السمات ولا تلك الدلائل

مجردة من الدليل الذى يؤكدها والحجة التى تتأيدها ، بل يسوق  
الدلائل والحجج التى تؤكد هذه السمات ، وتظهر تلك الدلائل ..

ولكن البرهان الذى يأتى به العقاد تدليلاً على سمات تلك العبقرية  
المحمدية ، ليس برهاناً يرتضيه هو ، بل برهان يتساوى فى الاقرار به  
المسلمون وغيرهم .. برهان يفهمه الناس جميعاً على اختلاف عقائدهم ،  
برهان لا يستطيع أن يختلف عليه اثنان .. " لهذا كان تقدير محمد  
بالمقاييس التى يفهمه المعاصرون <sup>(١)</sup> ، ويتساوى فى اقراره المسلمون وغير  
المسلمين ، نافعا فى هذا الزمن الذى التوت فيه مقاييس التقدير ..  
انه لنافع لمن يقدرون محمداً ، وليس بنافع لمحمد أن يقدروه .. لأنه  
فى عظمته الخالدة لا يضار بانكاره ، ولا ينال منه بغى الجهلاء ، الا كما  
نال منه بغى الكفار . وانه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبيئات  
التي يراها غير المسلم ، فلا يسهه الا أن يقدرها ويجرى على مجراها  
فيها .. لأن مسلماً يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين :  
مرة بحكم دينه الذى لا يشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم الشامل الانسانية  
التي يشترك فيها جميع الناس <sup>(٢)</sup> .



والتأمل فى فصول كتاب " عبقرية محمد " يرى أن العقاد قد  
استطاع بها أن يستعرض حياة الرسول كلها ، وأن يستبطن من خلال هذه  
الحياة مظاهر العبقرية وسمات العظمة ودلائل التفرد فى شخص الرسول  
المعظم ، كما يرى أنه قد أصابه التوفيق فى استعراضه الجوانب

(١) الاًوفق : المعاصرون .. لأن مادة "عاصر" غير موجودة فى اللغة .

(٢) عبقرية محمد ص ١٤٠ .

هذه الحياة .. والتالى استعراضه لما فى هذه الجوانب من آيات  
التفرد والتميز .. كما يرى أنه قد حالفه النجاح فى تنجيمه الدقيق  
لسماتها وخصائصها ، فلم يترك سعة الا أبرزها ، ولا خصوصية الا جلاها  
ووضحها .

ذلك لأن حياة الرسول لا تظلو اما أن تكون دعوة وإبلاغا لهذه  
الرسالة التى نيطت به وكلف بها . ومن هنا كان الفصلان : " عقريّة  
الداعى " و " الهليخ " واما أن تكون أعمالا مرتبطة بهذه الدعوة ، وهذه  
الأعمال المرتبطة بهذه الدعوة ، اما أن تكون أعمالا متصلة بالحروب فى  
سبيل دعم الدعوة الإسلامية وإعلان شأن الإسلام والمسلمين ومن هنا كان  
الفصل " عقريّة محمد العسكرية " واما أن تكون أعمالا متصلة بالسلم ،  
سواء أفى شئون السياسة أو الإدارة ، ومن أجل ذلك كان الفصلان " عقريّة  
محمد السياسية " و " عقريّة محمد الادارية " واما أن تكون حياته صلى  
الله عليه وسلم مجموعة من العلاقات التى تربط بينه وبين الناس على  
اختلاف هذه العلاقات ، فهنا لاختلاف نوع الصلة التى تربط بينه صلى  
الله عليه وسلم وبين هؤلاء الناس ، فالعلاقة التى بينه وبين غيره من  
الناس قد تكون علاقة صداقة ، ومن هنا كان هذا الفصل " محمد  
الصديق " وقد تكون علاقة بين رئيس ومؤوس ، ولذا كان هذا الفصل  
" محمد الرئيس " وقد تكون علاقة بين زوج وزوجاته ، ومن أجل  
ذلك كان الفصل " الزوج " ، وقد تكون علاقة بين أب وأولاده ، ومن  
هنا كان الفصل " الأب " وقد تكون علاقة بين سيد ومسود ، ومن  
هنا كان هذا الفصل " السيد " وقد تكون هذه العلاقة أعلى وأعظم  
من كل تلك العلاقات السابقة وهى العلاقة التى بينه وبين الله ومعبوده ،  
ومن هنا كان هذا الفصل " العابد " .

وإذا كان العقاد قد تتبع سمات المبقرية النبوية في أشكالها المختلفة وألوانها المتعددة في الجوانب المختلفة لحياة الرسول — كما ألفت سابقا — فإن العقاد لم ينس أن يبحث عن سمات هذه المبقرية في صفاته الجسدية و صفاته النفسية، وينتهي العقاد من هذا إلى أن محمدا في سماته الخلقية والخلقية كان مثالا نادرا للرجولة الكاملة ، لما تغرد به من سمات وتميز به من صفات ، ومن هنا كان الفصل " الرجل " .

يقع لدينا فصلان : " علامات مولد " و " محمد في التاريخ " وفي الفصل الأول " علامات مولد " لم ينس العقاد أن يبحث عن سمات العظمة في شخص الرسول الكريم ، حتى قبل أن يبحث رسولا ، ومن خلال حديثه عن أحوال محمد وصفاته التي ترشحه لأن يكون رسولا ، والتي تميز بها محمد من دون الناس جميعا . . . وفي الفصل الثاني " محمد في التاريخ " فإن العقاد يري — تماما للبحث — أن يتحدث عن مكانة هذه المبقرية المحمدية وتلك المظنة النبوية في التاريخ ، ومن هنا كان هذان الفصلان : " علامات مولد " و " محمد في التاريخ " .

ومن هذا العرض السريح لفصول هذا الكتاب ، نستطيع أن نقول — مؤكدين ما قررناه سابقا — : إن العقاد قد حالفه النجاح وأصابه التوفيق حين استطاع أن يلم بجوانب حياة الرسول الكريم ، وحين استطاع أن يتتبع ويتقصى — من خلال هذه الجوانب المختلفة — منابع هذه المبقرية وروافد تلك المظنة .

وإذا كان العقاد قد نجح في الكشف عن منابع المبقرية المحمدية ، فما الطريقة التي سلكها العقاد في الكشف عن سمات هذه المبقرية ، من خلال هذه المنابع وتلك الروافد ؟ هذا ما سنتناوله في الفصل التالي .

### ٖٖ الفصل الثالث ٖٖ

#### خصائص طريقة العقيدة

- ١ - التتبع والاستقصاء .
- ٢ - التفرع والتفصيل .
- ٣ - تقصى البواطن والأسباب :
- ( أ ) الرجوع بالصفات المحددة الى أسبابها وعلمها .
- ( ب ) الرجوع بالأفعال المحددة الى أسبابها ومواطنها .
- ٤ - إيراد الشواهد والأدلة .

يظهر لكل قارئ متأمل أن العقاد سلك في كتابه " عبقرية محمد " طريقة جديدة - لم يألفها القارئ من قبل - في الكشف عن سمات المبقرية المحمدية المتنوعة ، وخصائصها المختلفة من خلال بحثه عنها في جوانب حياة الرسول المتنوعة ، ولعلنا لا نتجاوز الحق إذا قلنا : أن طريقة العقاد هذه قد انتظمت معظم عبقرياته الإسلامية وتراجعه الشخصية والقارئ المتأمل يستطيع أن يلح سمات هذه الطريقة وخصائصها من خلال قراءته كتاب " عبقرية محمد " وهذه السمات والخصائص الستة امتازت بها طريقة العقاد " تبدو واضحة فيما يأتي :

#### ١ - التتبع والاستقصاء :

أولى هذه الخصائص: هي خصوصية التتبع والاستقصاء ، ولقد ظهرت هذه الخصوصية - في خطوطها المرئية - حينما حاول العقاد أن يتناول ألوان العبقرية المحمدية وأنماطها المتعددة من خلال تتبعها في جوانب حياة الرسول المتعددة ، ولعل القارئ يستطيع أن يلح هذا التتبع وذاك الاستقصاء من خلال استعراضنا السابق لفصول الكتاب .

ثم ظهرت خصوصية التتبع والاستقصاء أكثر جلاء ووضوحا - في خطوطها الفرعية الدقيقة - حينما حاول العقاد أن يتناول كل لون من ألوان هذه المبقرية ، وكل نمط من أنماطها بالشرح والتحليل ، كاشفا عما فيه من سمات ، وما اشتمل عليه من صفات . ماضيا مع كل صفة من هذه الصفات ، وكل سمة من هذه السمات إلى أقصاها ، وهذا هو ما نعلمه من التتبع والاستقصاء . أو ما يمكن أن يسميه البعض بظاهرة " الانفصام " .

ومن اليسير على القارئ أن يلح هذه الخصوصية في مواضع كثيرة من هذا الكتاب . . .

فمثلا حينما يحدثنا العقاد في فصل " عمقيرة الداعي " عن سمّة من سمات هذه الحبقيرة ، وهى الفصاحة .. لا يقف بنا العقاد عند معنى الفصاحة فحسب ، ولكنه يضى مع المعنى الى أقصاه ، فهى فصاحة فى الكلام، وفصاحة فى هيئة نطقه ، وفصاحة فى موضوعه .. " أما فصاحة محمد فقد تكاملت له فى كلامه ، وفى هيئة نطقه لكلامه ، وفى موضوع كلامه " (١)

وحيثما يحدثنا العقاد فى فصل " محمد الصديق " عن عاطفة محمد الانسانية التى تعد من ظواهر عظمة محمد فى باب الصداقة - فان العقاد لا يقف عند معنى العاطفة الانسانية فحسب ، ولكنه يضى مع المعنى الى أقصاه .. فهى عاطفة انسانية نحو الانسان ، وعاطفة انسانية نحو الحيوان ، وعاطفة انسانية نحو الجباد ..

وحيثما يحدثنا العقاد فى فصل " الزوج " عن المعاملة الطيبة التى كان يعامل بها الرسول زوجاته ، نراه لا يكشف بالوقوف عند معنى المعاملة الطيبة فحسب ، بل يضى مع هذا المعنى الى أقصاه أيضا ، فهى معاملة طيبة فى مخاطبتهم ، والتلطف معهم ، وهى معاملة طيبة فى توليه خدمة الهيت معهم ، وهى معاملة طيبة فى التسوية بينهم ، وهى معاملة طيبة حتى فى الحالة التى لا يرجى معها طيب المعاملة ..

وحيثما يحدثنا العقاد فى فصل " السيد " عن بر الرسول بالخدم والمبيد، لا يقف عند هذا المعنى بل يضى معه الى أقصاه ، فهو بر بخدمه وعبيده ، وبر بالخدم والمبيد على وجه المبرور ، وبر بالخدمة أيضا ..

---

(١) عمقيرة محمد ص ٣٠ .



## ٢ - التفریع والتفصیل :

وتواكب خاصة التتبع والاستقصاء ، خاصة أخرى هي خاصة التفریع والتفصیل ، فالعقاد في تتبعه واستقصائه الصفات والسمات في جميع أحوالها وأشكالها ، لا يكتفى بسرد تلك الأحوال والأشكال ، بل يتناول كل حال من أحوال الصفة وكل شكل من أشكالها بالتفریع والتفصیل ، ولا يكتفى بالتفریع والتفصیل في تعمق الصفة وتتبعها ، بل يلتقط لها من الأقوال والأعمال ما هو مبثوث في السيرة ما يؤيدها ، بل يفتح بها الآخريــــن اقناعاً .

ولنضرب على ذلك من الأمثلة ما أوردناه آنفاً من الصفات النبوية التي تتبعها العقاد ، واستقصاها ، فمثلاً حين حدثنا :

أ : عن فصاحة الرسول أخذ في تتبعها واستقصائها - كما أوضحنا سابقاً - ثم أخذ كل شكل من أشكال تلك الصفة بالتفریع عليه والتفصیل له . . ثم أخذ بعد ذلك يورد من الشواهد ما يؤيده ، ويظهره .

ويبدأ العقاد في تتبع أحوال تلك الصفة - الفصاحة - فيقول :  
« فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع الكلام . . فيكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب » (١) . ثم يستمر العقاد - بعد ذلك - فيقرر أن الرسول الكريم قد استوفى من الفصاحة جميع أحوالها . . « أما فصاحة محمد . .

---

(١) عبقريّة محمد ص ٣٠ .

فقد تكاملت له في كلامه وفي هيئة نطقه لكلامه وفي موضوع كلامه<sup>(١)</sup> ، ثم بعد ذلك يأخذ العقاد في التشرح والتفصيل وإيراد الشواهد والأدلة في كل حال من أحوال فصاحته صلى الله عليه وسلم . . . فكان أعرب العرب كما قال عليه السلام : ( أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ) فله من اللسان العربي أفصح بهذه النشأة القرشية الهدوية الخالصة . . . وهذه هي فصاحة الكلام ، ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ، ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه للكلمات غير مانوس ، فيحتاج له الكلام الجميل ، ثم يعمزه المطلق الجميل ، أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضي الله عنها ، حيث قالت : ( ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَسْرُدُ كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام يَبَيِّنُ فَصْلًا يحفظه مَنْ جلس إليه ) واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها . . . فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم . ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ، ويكون سليما في كلامه ، سليما في نطقه . . . ثم لا يقول شيئا يستحق أن يستمع إليه السامع في موضوعه . فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول في فصاحته السائفة من شتى نواحيها . . . فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أوتي حقا ( جوامع الكلم ) ، ورزق من فصاحة الموضوع كلها ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام<sup>(٢)</sup> .

(١) عبقريّة محمد ص ٣٠ .

(٢) عبقريّة محمد ص ٣٠ ، ٣١ .

ب : ونجد المقاد - حين يحدثنا عن عاطفة الرسول الانسانية -  
ياخذ في تهكمها واستقصاء جوانبها ، ثم يتناول كل جانب منها بالتفريغ  
والتفصيل . . ثم يورد بعد ذلك من الشواهد ما يؤيده ويقنع الآخرين به .

فيحدثنا - أولا - عن عاطفة الرسول الانسانية نحو الانسان  
وكونها عاطفة رحة شملت من حولها من الناس كما أنها كانت سجيته  
صغيرا وكبيرا . . . يقول المقاد : " كان عطوفا يرأى من حوله ويودهم  
ويودهم لهم على المودة طول حياته ، وان تفاوت ما بينه وبينهم من سن  
وعرق ومقام ، كان صبيا في الثانية عشرة يوم سافر معه ، فتعلق به  
حتى أشفق العم أن يتركه وحده ، فاصطحبه في سفره . . وكان شيخا  
قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء مَن لا ينسى . . وليس في سجل  
المودة الانسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة " ومن خفاوته  
بها وقد جاوز الأهمين فيلقاها هاتفا بها : أمي ! أمي ! ويفسرس  
لها رداءه ويمسك يديها بيده . . ، كأنه يذكر ما لذلك الشدى عليه من  
جميل ، ويمطئها من الابل والشاة ما يغنيها في السنة الجدياء . . وخضنته  
في طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته ، وشغله أن تتمم  
بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من أمر بناته ورحمه ، فقال لأصحابه : ( من  
سَرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن . . ) وما زال يناديها  
يا أمه يا أمه كلما رآها وتحدث اليها ، وربما رآها في وقعة قتال تدعو  
الله وهي لا تدري كيف تدعو بلكنتها الأعجمية فلا تنسبه الوقعة الحازنة  
أن يصفى اليها ويمطئ عليها " (١)

وإذا كان تعلق الرسول بعمه وهو صغير قد يكون مبعثه حنان الطفولة  
وسكاوه على قبر أمه قد يكون مبعثه ذكرياته الممزجة مع أغز الناس اليه :

أمه التي افتقدتها وهو صغير .. وعطفه ومودته على مرضعته طيبة قد يكون مبعثه أنه يذكره برَّحم الرضاع - فان هذا لا يعنى أن عطف الرسول ومودته وحنانه كان قاصرا على من له بهم صلة قرابة أو رحم - كلا فان عطفه اتسع لكل من حوله ، حتى ولو لم يذكره بهذا أو ذاك ... يقول العقاد : " وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع ، فما نهر خادما ولا ضرب أحدا ، وقال أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ولا قال لشيء صنعت : لم صنعت ، ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ " (١)

بل ان عطفه ومودته وحنانه ويره - صلى الله عليه وسلم - لم يكن قاصرا على ذوى قرباه أو ذوى رحمه من أصفياه وأحبابه - بسبل تعداه الى من ليس بينه وبينهم صلة أو قرابة كما مر ، بل تعدى عطفه ويره الى أعدائه وشائتيه .

يقول العقاد : " على أننا نلمس دلائل هذا القواد الرحب وهذا المحط الانسانى الشامل فى معاملته لأعدائه وشائتيه فضلا عن معاملته للأصفياء ومن ليس بينه وبينهم عدا ولا صفا ، فما ثار من أحد أساء اليه فى شخصه ، وقد غفا عن رجل كم يقتله وهو نائم ، ورفع السيف ليتهوى به فسقط من يده على كره منه ، وما حارب قط أحدا كان فى وسعه أن يسأله ويحاسنه ويتقى شره " (٢) .

ثم يسوق العقاد من الأمثلة الدالة على رحابة عاطفته واتساع سماحته ما يبرهن به على أن عاطفته صلى الله عليه وسلم ويره لم يكونا

(١) عبقريّة محمد ص ١٢٣ .

(٢) عبقريّة محمد ص ١٣٠ .

قاصرين على أحبابه بل كانا شاملين للأحباب والأعداء .

وأبرز مثل على ذلك معاملته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي . . . على ما بَدَرَ منه من عَدْر ونفاق ، وترَفَّقَ به حتى موته . . ثم بعد موته يعطيه ابنه قميصه ليكفنه فيه ، بل يصلى عليه ، بل ويقف على قبره حتى يفرغ من دفنه . . على الرغم من محاولة عمر اثناء الصلاة عليه مُذَكِّراً الرسول بالآية الكريمة : " استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم " (١) فيقول الرسول المظوف الرحيم : ( لو أعلم اني ان زدت على السبعين غفر له زدت ) .

وهكذا نرى العقاد يتبع ويتقصى هذا الجانب من جوانب عطفه الانساني ، وهو عطفه على مَنْ حوله من الناس ، ويأخذ في التفريغ والتفصيل ، وينتهي من هذا كله الى أن عاطفة الرسول على من حوله من الناس ، كانت شاملة للناس جميعا . . أيا كانوا : أقربا أو ذوى رحم ، ومن ليسوا بهذا أو ذاك ، أو كانوا أعداء . . وأن بعثها أنها صفة ملازمة من صفات الرسول الكريم التي عليها نشأ بها انصاف ، وليس بعثها صلة أو قرابة أو غير ذلك . .

ثم يحدثنا العقاد — ثانيا — عن عاطفة الرسول الانسانية نحو الحيوان . . ويورد العقاد من الشواهد ما يبرهن به على سمو هذه العاطفة التي اتسعت للأحياء جميعا . .

يقول العقاد : " وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة فلم يقصره على ذوى الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوى الرحم ،

(١) الآية : ٨٠ من سورة " التوبة "

فكان يُصْنَفُ الاناء للهبة لتشرب وكان يواسى فى موت طائر يلهو به  
أخو خادمه ، وأوصى المسلمين بقوله : ( اذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها  
حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين ) وكرر الوصايا بها فقال :  
( اتقوا الله فى البهائم فاركبوها سالحة وكلوها سالحة ) وقال : ( ان الله  
غفر لامرأة مومنة مرت بكلب على رأس ركي<sup>(١)</sup> يلهث قد كاد يقتله العطش ،  
فنزعت خفيها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك )  
وقال فى هذا المعنى ( دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلا هسى  
أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش<sup>(٢)</sup> الأرض<sup>(٣)</sup> .

ثم ينتقل العقاد الى جانب آخر من جوانب عاطفة الرسول الانسانية  
الرحمة الشاملة ، وهو عاطفته نحو الجماد . . ويسوق العقاد من اللحاحات  
والاشارات ما يبرهن بها على رحابة هذه العاطفة النبوية . وانها لسم  
تتسع للأحياء من انسان وحيوان فحسب بل اتسعت حتى شملت الأحياء  
والجماد . .

يقول العقاد : " لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنسبه  
من الأحياء ، فكانت له قصعة يقال لها " الفراء " ، وكان له سيف مطلى  
يسمى " ذا الفقار " ، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى " ذات الفضول " ،  
وكان له سرج يسمى " الداج " ، ومساط يسمى " الكر " ، وركوة تسمى  
" الصادر " ، ورملة تسمى " المدلة " ، ومقراض يسمى " الجامع " ، وقضيب  
يسمى " المشوق " . . وفى تسمية تلك الأشياء بالأسما معنى الألفسة  
التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين ،  
كان لها " شخصية " مقربة تميزها بين مثيلاتها ، كما يتميز الأحياء بالوجوه

(١) ركي : الركبة : الهير لم تَطْلُو .  
(٢) الخشاش المراد به هنا : حشرات الأرض .  
(٣) محقرة محمد ص : ١٢٣ ، ١٢٤ .

## والملامح والكنى والألقاب \* (١)

ح : وحين يتحدث العقاد عن معاملة الرسول الطيبة لزوجاته نراه يتفتح ويستقصى جوانب هذه المعاملة — كما ذكرنا سابقا — ثم يتناول كل جانب من هذه الجوانب بالتفصيل والتفصيل ، ثم يورد من الشواهد والأدلة ما يؤيد ذلك ويؤكد .

فيحدثنا العقاد عن الجانب الأول من جوانب تلك المعاملة الطيبة ، وهو طيب المعاملة في مخاطبته زوجاته والتططف منهن . . بل طيب معاملته مع مخاطبتهن اياه بشدة لا تليق بمقام الرسول العظيم .

يقول العقاد : " فكان يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويزورهن جميعا في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن ( كان ألين الناس ضحكا بساما ) كما قالت عائشة رضي الله عنها ، ولم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نساءه ، بل أنساهن برفقه — وأيناسه أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحيان . فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : ( تكلم ولا تقل الإحقا ) ومن تراجع — أو قضاضه سحابة نهارها ، ومن تلخ في الاجترار ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب في شدته فيمجب له ويهم بأن يبطش بابنته " حفصة " لأنها تجترى كما يجترى الزوجات الأخريات ، وإذا رأى النبي غضبه (٢) كهذا من جراءة كذلك كف من غضب الأب وقال له : ما لهذا دعوناك . "

ثم ينتقل العقاد الى جانب آخر من جوانب تلك المعاملة وهي معاملته الطيبة لهن . . تلك التي تظهر في توليه خدمة البيت معهن .

(١) عبقريه محمد ص ١٢٤ .

(٢) عبقريه محمد ص ١٤٥ .

يقول العقاد : " وقد كان يتولى خدمة البهت معهن أو كما قال :  
( خدمتك زوجتك صدقة ) " (١)

وينتقل العقاد الى جانب ثالث من جوانب تلك المعاملة ، وهى  
تلك المعاملة الطيبة التى تظهر فى التسوية بينهما لدرجة أنه كان يستغفر  
الله فيما لا يملكه من التسوية بينهما فى الميل القلبي .. يقول العقاد :  
" وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين احدهما وسائرهن ،  
وهو ميل قلبه .. ( اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك )  
ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن ، بهت اليهن  
فططف فى سؤالهن : ( أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ) ليظن عند  
عائشة ويأذن له فى الإقامة ببيتها " (٢) ، ويستشف العقاد من سؤال  
الرسول نساء هذا السؤال استثناؤه إياهن فى الإقامة ببيت عائشة ..  
وفى هذا من السمو والمعاملة الطيبة ما يعد ضربا من ضرب المعاملة  
التي لم تحلم ولن تحلم بها الانسانية .

ثم ينتقل العقاد الى جانب آخر من جوانب تلك المعاملة الطيبة  
التي حظيت بها نساء الرسول من الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
جانب هو أدل على سمو هذه المعاملة ورقيها ، وعلى أنها ضرب من  
ضروب الخيال . وذلك هو طيب المعاملة حين تتمرض الحياة الزوجية  
لخطر يمسها ، وهو خطر المساس بالوفاة .. إذ أن طيب المعاملة  
والحالة هذه أدل على الخلق المكون والطبع الأصيل ، وأنه أمر مركسوز  
فى الطباع لا يفارق النفس ولا يفارقه .

(١) عبقريّة محمد ص ١٤٥ .

(٢) عبقريّة محمد ص ١٤٥ ، ١٤٦ .



يقول الحقاد : " والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلطت نادر بين الناس ، ولكنه في حالة الرضا خلق لا يشق فهمه على كثيرين الا أن الخلق الذي يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاة .. في هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التي أثرت عن النبي في قصة عائشة بنت الصديق وهي أحظى نساءه لديه ، وتلخصها ما روته بلسانها ، إذ تقول رضى الله عنها ... الخ " (١)

ومعد أن يروى هذه القصة ، يخلص منها الى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضرب المثل الأعلى والقدرة الحسنة في معاملته لزوجته عائشة " بعد أن أحاطت بها التهم ، وأشارت اليها أصابع الشك والارتباب .. معاملة طيبة فيها رفق ومرورة في حالة يفتقد فيها الرفق والمرورة بل يتوقع فيها ضد هذه وذاك فهذه القصة " مسبار صادق يسبر لنا أغوار المروءة والرفق في معاملة النبي لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين ، فليس النبي هنا في حالة من حالات الرضا التي تَسْلَعُ<sup>(سما)</sup> بالطهاج ، ولا تستغرب معها المودة وطول الأناة ، ولكنه في حالة من تلك الحالات التي تثير الحمية وتثير الحب وتثير النعمة ، وتثير في النفس البشرية كل سلكة تدعو الى طيب المعاملة ، فلم يكن في هذه الحالة الا كرما خالصا بما سلك في أمر نفسه وفي أمر أهله وفي أمر دينه ، ولم يدع لحالم من حالي الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع اليه في جميع هذه الفجوات .. " (٢)

\*\*\*

(١) عبقريه محمد ص ١٤٦ .

(٢) عبقريه محمد ص ١٥١ و ١٥٢ .

د : وحين يتحدث العقاد عن معاملة محمد لعبيده وخدمته نجده يتبع ويستقصى جوانب هذه المعاملة التي لم تقف عند حدود ما أمر به الدين في معاملة العبيد والخدم ، بل كانت فوق ما أمر به الديسن ، ولم يقف للعقاد عند معنى المعاملة الطيبة فحسب ، بل مضى بالمعنى الى أقصاه ، فمعاملة الطيبة لخدمه وعبيده كانت برا بهم .. كما كانت برا بالخدمة ، وفي البر بالخدمة ارتفاع بالخدام الى مقام السادة .

ومعد أن يتبع العقاد جوانب المعاملة الطيبة التي حظى بها عبيد محمد وخدمته .. بل العبيد والخدم عمومًا وهي البر بالخدم والبر بالخدمة - يأخذ في تفصيل كل جانب مع إيراد الشواهد والأدلة على ذلك ..

فمن الجانب الأول : وهو البر بالخدم والأرقاء يقول العقاد : " ولو وقف النبي عند هذا الحد - أي : الحد الذي فرضه الدين - فسي معاملة الأرقاء لأحسن وأجل وأماز بأمر دينه على كل محسن الى الأرقاء في زمانه ، الا أننا نقرر الواقع ولا نتعمده قيد شجرة حين نقول : ان كثيرا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرا من المعاملة التي ظفروا بها خديم محمد وعبيده ، ومن من الآباء يحسن الى أبنائه خيرا من احسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه أسامة ؟ " (١)

ثم يضرب العقاد الأمثلة على ذلك فيقول : " فقد اعتق زيدا ورآه أهلا للزواج بحقيقة من أقرب قريباته اليه وأولاهن بحدبه وتوقيره ، وهي التي رآها بعد ذلك أهلا لزوجها بها وحظوتها لديه ، فلم يعطه

الحرية وكفى ، ولم يعطه المساواة فى العيش وكفى ، بل رفعه الى المنزلة الاجتماعية التى يرتفع اليها السادة ، ولا يشتهها شئ كما يشتهها شرف الصاهرة ، ثم حفظ هذا البر الابوى لابنه أسامة فولاه جيش الشام وهو دون العشرين وفى الجيش طائفة من اكابر الصحابة فلو كان للنبي ولد فى سنه لما تكفل به أحسن من هذه الكفالة ولا ميزه أشرف من هذا التمييز . (١)

وبرينا العقاد - وهو يفصل هذا الجانب: وهو يراه بخدمة وعبيده - أن بر الرسول بخدمة وعبيده كان طبعه ودَيْدَنَه فى جميع الأحوال ، حتى فى الحالة التى تستوجب التأديب والعقاب - تأديبا للنفس وتهذيبا للباطح - وهى الحالة التى يُقَصَّرُ فيها العبد أو الخادم عن أداء واجب أو تنفيذ خدمة أمره بها سيده أو مخدومه - حتى فى هذه الحالة كان النبي برا كله وعظما كله وكانت كلمته الى المخالفين منهم أقرب الى الملاطفة منها الى العقاب .

يقول العقاد " . . . ولم يستبح فى غيبه ما يستبيحه المعلم والوالد من ضرب وتمزير ، وربما كانت كلمته للخادم المخالف أقرب الى الملاطفة منها الى العقاب ، ومن ذلك قصة الصبيبة التى أرسلها فأبطأت فى الطريق فمأزاد على أن قال لها حين عادت : ( لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك ! ) ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشئ الكبير ولكن محمدا يخشى القصاص اذا استباحه فى معاملة صبيبة تهمل أمره ، وهو الذى لا يهمل له أمر عند سادة الشرفاء . . . وروى أنس أن النبي أرسله فى حاجة فأنحرف الى صبيان يلعبون فى السوق ( واذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قهض شهابى من ورائى فنظرت اليه صلى الله عليه

وسلم وهو يضحك ، فقال : يَا أُتَيْتُ اذْهَبِ إِلَى حَيْثُ أَمَرْتُكَ . " (١) ثم يقول العقاد معلقاً على هذا الحديث : " كلمة أمر لا يقولها لخاصته إلا وقد ناداه مدلاً ، وقابله ضاحكاً ، كأنه يعتب على قرين ، وقد يسلم القرين بأشد من هذا الأيالم " (٢)

ويفحص العقاد في أعماق هذه النفس البارة ليرينا أن بر الرسول بالخدم والعبيد لم يكن قاصراً على خدمه وعبيده بل " كانت رحمته بعبيده غيره كرحمته بعبيده ، فكان يجاملهم ويَجْبِرُ كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافئ عليها ويلبى دعوتهم إذا دعوه إلى طعام ، ويوصي بهم قائلاً ، ( هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ما يأكل ويلبسه ما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلهم فان كلفتموهم فأعينوهم ) و ( اتقوا الله في الضعيفين : النساء والرقيق ) " (٣)

وينتقل العقاد إلى الجانب الثاني من معاملة الرسول لعبيده وخدمه - وهو البر بالخدمة - وفي هذا الجانب يرينا العقاد أن بر الرسول بخدمه وعبيده لم يقف عند حدود الرحمة بهم والمطف عليهم - والاحسان اليهم - كما مر في الجانب الأول - بل تعداه إلى أمر هو أدل على المعاملة الطيبة من الرحمة نفسها والمطف نفسه ، ألا وهو اشعارهم بالمساواة وأنه مثلهم ، حيث كان صلى الله عليه وسلم يقوم ببعض الأعمال الهيتية التي هي من شأن الخادم أو العبد الذي يعمل عند مخدومه أو سيده ، وفي هذا رَفْعٌ من أمر الخادم أو العبد في عين نفسه

- 
- (١) عمقيرة محمد ص : ١٩٦ ، ١٩٧ .  
 (٢) المرجع السابق : ص ١٩٧ .  
 (٣) المرجع السابق : ص ١٩٧ .

وَتَطْيِيبٌ لِّخَاطِرِهِ وَجَبْرٌ لِّكُسرِهِ ، كما أنه أنقى للهِوانِ، الذي يشعر بــــه هؤلاء الضعفاء في قرارة نفوسهم ، حيث يرون مخدموهم أو سيدهم يشاركونهم بعض الأعمال التي يقومون بها ..

يقول العقاد " وربما كان البر بالخدمة في هذا المقام أكــــرم وأنقى للهِوان من البر بالخدم .. فالبر بالخدام عطف عليه ، أما البر بالخدمة فارغاف بالخدام الى مقام السادة حيث لا يأتف السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم، وذلك هو البر بالخدمة كما عَنَوْنَاهُ ، وذلك هو أدب النبى الذى جرى عليه فى بيته وبين أهله وخدمه " (١)

ويضرب العقاد الأمثلة على ذلك فيقول : " فقد كان يَحْلِبُ شاتيه وَيَخْصِفُ نعله ، ويخدم نفسه، وَيَعْلِفُ ناضجاً أى الهيمير الذى يستقى عليه الماء - فاذا رأى الخدم لهم عملاً فى البيت يعاثل عمل سيدهم ومالك أمرهم، منطلق هو المساواة التى تسمح بضمير الخدمة وتجبر كسرهما ولا تقتصر على العطف والرحمة .. ولم يقل عليه السلام خدمة من خادم بأنف الأحرار أن يقضوها له شاكرين . فما كان فى رجالات المسلمين كاهرين كابر الا كان يتمنى أن يؤدى لنبهه تلك الخدمة التى تطوعت بها نفوس مواليه وأتباعه . وهذا ضرب آخر من ضرب البر بالخدمة والتسوية فيها بين مقام الخادم ومقام المريد . فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ الذى يجلس الى قدمى أستاذه حُجًّا لا خُتُوًّا ، وتوقيراً لا مَدَلَّةً ، وأدباً يفرضه على نفسه وليس بضرية مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب .. " (٢)

وما أوردنا من أمثلة وشواهد على خاصتى : التمتع والاستقصاء ، والتخريج والتفصيل فى عرض العقاد لجوانب العبقرية المحمدية من خلال

(١) عبقرية محمد ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٨ .

جوانب حياة المخططة - أتينا بها على سبيل المثال لا الحصر ، وموسع القارئ أن يلح الكثير من الأمثلة والشواهد على هاتين العمودتين من خلال فصول هذا الكتاب ..

### ٣ - تقصى البواعث والأسباب :

وكما يتتبع المقاد صفات التفرد وسمات التميز في جوانب شخصية الرسول الكريم من فصاحة ، وعاطفة انسانية .. وطيب معاملة .. وبر بخدمه ، مما أوردناه سابقا ، وغير ذلك من صفات وسمات وشارات مما لم نذكره ..

... كما يتتبع المقاد هذه الصفات وتلك السمات ويستقصيها منقبا عنها في أقواله وأفعاله وتصرفاته صلى الله عليه وسلم ، وما يستتبع هذا للتحقيق ذاك التقصى من شرح وتحليل وتفرع وتفصيل ، كما أوضحنا سابقا - كان المقاد كثيرا ما يتتبع بواعثها ويتقصى أسبابها ويكشف عن مكوناتها .. كما يتتبع ويتقصى البواعث والأسباب لكثير من التصرفات والأحوال ، خاصة تلك التصرفات والأحوال التي وقعت في حياته صلى الله عليه وسلم ، وحرفها عن بواعثها الحقيقية وأسبابها الرئيسة كثير من المتعصبين والمفرضين والحاقدين ، وهو في تنجس وتفسيد للبواعث والأسباب لا يكتفى بسردها ، بل يواكب التحقيق والتقصى وسائرهما شرح وتحليل وتفسير مدعوم بالشواهد والأدلة من أفعال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأقواله وأحواله وتصرفاته ..

أ : فمن النوع الأول - وهو الرجوع بالصفات المحمدية والسمات النبوية الى بواعثها وأسبابها - ما يذكره المقاد حين يحدثنا عن :

١ - صفة " الرسالة " فى الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :  
 " .. خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين .. " (١)

فالمعقود هنا حين يثبت صفة الرسالة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يثبتها له غمراً بلا ضابط ، ولكنه يفتح الأسباب ويتقصى العوامل التى جعلت الرسالة فى محمد شيئاً طبعياً .. صفة الرسالة فى محمد شئ طبعى ، لأنها صفة اجتمعت له أسبابها ، حين تعددت هذه الأسباب وتنوعت بين نوعين : .. أسباب خارجة عن محمد نفسه ، وأسباب راجعة إليه هو .

أما الأسباب الخارجة عن محمد : فهى أسباب تتصل بزمان الرسالة ومكانها والبيئة التى تحتاج إليها .. فالزمان الذى وقعت فيه هذه الرسالة يقول : ان العالم وقتذاك كان فى حاجة الى نبي ورسول ، لأنه " كان عالماً متداعياً قد شارب النهاية .. خلاصة ما يقال فيه أنه عالمٌ فَقَدَ العقيدة كما فقد النظام " (٢) .. عالم يتطلع الى حال غير حاله .. عالم يتهدى للتهديل أو للهدم ثم للبناء " (٣) وحوادث الكون تقول : ان الأمة العربية هى أحق الأمم المتداعية آنذاك أن يبعث فيها النبي والرسول ، لأنها " أمة ليست بذات دولة ، ولكنها تتأهب لأقامة دولة .. وقد تيقظت لوجودها وشمرت بمكانتها كما شمرت بالخطر عليها ومواضع النقص فيها .. خطر من خارجها ، يزداد الأمة يقظة وانتهاها لوجودها .. وخطر من داخلها يدفع بها دفعا الى الزوال ، أو الى استكمال النقص المستشري فى حياتها " (٤)

(١) عقريه محمد ص ٢٥ .  
 (٢) المصدر السابق ص ١٢ . (٣) المصدر السابق ص ١٨ .  
 (٤) المصدر السابق ص ١٨ ، ١٩ .

كما تقول حوادث الكون: ان البيئة التى تحتاج الى هذه الرسالة  
هى البيئة المكية، لأن مكة هى المدينة التى " تجتمع فيها ثروة الجزيرة،  
وعصبة واحدة من سادة القوم، تجتمع فى أيديها ثروة المدينة .. حاله  
لا استقرار فيها .. فمن هنا الترف والطمع والخمر والقمار والمتعة وتسخير  
الأقوياء للضعفاء .. ومن هنا الفاقة والحسرة والشك فى صلاح الأمور ..  
ولكنه شك يبحث ويضطرب .. وليس بالشك الذى يستجم ويستكين .. حالة  
لا تستقر .. ولا تزال فى طلب الاستقرار .. وأمة يقضى .. وخطر محقق  
بها ما حولها .. وما هو فى داخلها وأحشائها .. حالة تنذر بالزوال ..  
وقلما تزول أمة يقضى فى أوان انتهائها .. فلك اذن حالة للتهديم  
والتجديد " (١)

وأما الاسباب الراجعة الى محمد: فهى اسباب تعمل بتحميله  
وحيته: جده وأبيه .. وأسباب تعمل بمحمد نفسه .. ويتحدث العقاد عن  
قبيلة الرسول فيقول:

لها شمتان: أحدهما من أصحاب الترف والطمع واستهقا ما  
هو قائم كما كان قائما على هواها .. والاخرى من أصحاب التقوى والساحة  
والتوسط بين مقام القوى الذى يجور ويظلم ويستبقى أداة الجور والظلمان،  
ومقام الضعيف الذى يحتل الأذى ويصير على الكبرية ولا يملك مع السيد  
الامر الا أن يذعن له .. ويأكل من فضلات يديه " (٢)

وبيت محمد — كما يقول العقاد —: " من تلك الشبهة الوسطى  
له كرم النسب العربى وليس له لوم الثروة الجامعة والكبرياء الجائشة، والقسوة

(١) عبقرية محمد ص ١٩ و ٢٠

(٢) عبقرية محمد ص ٢١



على من دونه من المحرومين • ذلك هو بيت عبدالمطلب من صميم قريش  
ومن ذؤابتها العليا ، وان لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية  
فى ذلك الاوان • ورأس هذا البيت — عبدالمطلب — رجل قوى الخلق  
قوى الايمان فيما آمن به ، حكيم مع قوة طبعه وشدة ايمانه ، خلبق  
أن ينبج الحب الذى يشر بدعوة وينضج عن دين... واذا كان عبدالمطلب  
جدا صالحا لنبي كريم ، فابنه عبدالله نعم الأب لذلك النبي الكريم ..  
لأننا كان بضعة من عالم الغيب ، أرسلت الى هذه الدنيا لتعقب فيها  
نبيها وهى لا تراه ثم تعود .. (١)

واذا كانت قبيلة محمد ، واذا كان بيت محمد : أبوه وجده ، أصلح  
ما يكونون لانجاب ذلك النبي الذى يتطلع العالم اليه — فان فسى  
محمد من الصفات والمناقب ما يرشحه لدرجة النبوة والرسالة ، وهنا يحدثنا  
المقاد عن هذه الصفات وتلك المناقب التى رشحته للنبوة والرسالة — أى :  
عن الأسباب المتصلة بمحمد نفسه ، فيقول :

” رجل لا يَشْرُكُهُ رَجُلٌ آخَرُ فى صفاته ومقدماته ، ولا يدانيه رجل آخر  
فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحانية المأمولة فى المدينة ...  
وفى الجزيرة .. وفى العالم بأسره :

نبيل عريق النسب .. وليس بالوضيع الخامل ، فيصْفُرُ قدوره فسى  
أمة الأنساب والأحساب ...

فقير .. وليس بالغنى المتروك فيطفئه بأس النبلاء الأغنياء ، ويخلق  
قلبه ما يخلق القلوب من جشع القوة والفساد .

يشيم بين رحاء .. ظليم هو بالمدلل الذي يقتل فيه التدليس  
ملك الجد والارادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تقتل  
فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح ، وفضيلة العطف على  
الآخرين .

خير بكل ما يختبره العرب من ضرب العيش في البادية والحاضرة .  
ترى في الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان ، واشتغل بالتجارة ،  
وشهد الحروب والأحلاف ، واقترب من السراة ولم يعتمد من الفقراء ..  
فهو خلاصة الكفاية المعوية في خير ما تكون عليه الكفاية المربية .. وهو  
على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه .. فلا هو يجهلها فينفل عنها ،  
ولا هو يفامسها كل المغامرة فيفترق في لجتها ، أصلح رجل من أصلح  
بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقومة ، على غير علم من الدنيا التي ترقبها<sup>(١)</sup>

ومثل هذا التحليل والتفسير يكشف العقاد عن الأسباب التي رشحت  
محمدًا ليكون النبي الذي تنتظره الدنيا .

٢ - ومن هذا النوع ما يذكره العقاد حين يتحدث في فصل  
" عبقرية الداعي " فيقول : " فما من عجب اذن أن يكون محمد صاحب  
دعوة ، وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت ، وأن تلغ من وجهتها  
الغاية التي بلغت " .<sup>(٢)</sup>

فالعقاد - هنا - حين ينفي العجب أن يكون محمد صاحب  
دعوة ، وحين ينفي العجب أن تلغ دعوته من وجهتها الغاية التي بلغت ،  
فانه يثبت - في الوقت نفسه - لمحمد صلى الله عليه وسلم - الداعية ،

(١) عبقرية محمد ص ٢٤ و ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص : ٣٤ .

صفة الثغور والامتياز في إبله دعوة على الوجه الأكمل ، والتي به بلغت  
الغاية التي بلغت بها . والمعاد ، لا يخلع على الرسول - دَاعِيًا - صفات  
الداعي الحسنى بلا حساب ، ولكنه يرجع بالقارئ إلى الأسباب الستى  
جعلت من محمد صلى الله عليه وسلم خير داعية ، ويرجع به - بالتالى -  
إلى الأسباب التى جعلت دعوة محمد تبلغ الغاية التى بلغت بها .

يقول العقاد : " فكان محمد مستكملاً للصفات التى لا غنى  
عنها فى انجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ .. كانت له فصاحة  
اللسان واللغة .. وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة ..  
وكانت له قوة الايمان بدعوته وغيرته الهائلة على نجاحها .. " (١)

ثم يأخذ العقاد فى تحليل كل صفة من هذه الصفات التى بها  
كان محمد خير داعية ، والتي بها استطاع محمد أن يصل بدعوته إلى  
الغاية التى وصل إليها .. فيحدثنا عن فصاحته - وهى الصفة الأولى -  
فيقول : " أما فصاحة محمد .. فقد تكاملت له فى كلامه ، وفى هيئته  
نطقه بكلامه ، وفى موضوع كلامه .. " (٢) ثم يتناول العقاد جوانب فصاحته  
بالشرح والتحليل .

ثم يحدثنا عن الصفة الثانية - وهى قدرته على تأليف القلوب  
وجمع الثقة - أما قدرته صلى الله عليه وسلم على تأليف القلوب ، فيرجعها  
العقاد إلى صباه وجهه ودهائه خلقه اللتين تجهانه إلى كل من رآه ..  
وكانت له مع الفصاحة صباه ودهائة تجهانه إلى كل من رآه ، وتجمعان  
إليه قلوب من عاشروه ، وهى صفة لم يختف فيها صديق ولا عدو ، ولم ينقل

---

(١) عبقريّة محمد ص ٣٠  
(٢) المصدر السابق ص ٣٠

عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بن  
الضعفاء والأقوياء على السواء<sup>(١)</sup> ثم يأخذ العقاد في إيراد الشواهد  
على محبة الناس على اختلافهم للرسول الكريم ..

أما قدرته — صلى الله عليه وسلم — على جمع الثقة فيرجعها  
العقاد إلى صدق الرسول وأمانته " وكان مشهوراً بصدقه وأمانته كاشتهاره  
بوسامته وحنانه ، وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه ، كما شهد  
بهما أحبابه وموافقوه ، وامتلاً هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم ، فأحسب  
أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم في دعوته فكان يسألهم : " رأيتم  
لو أخبرتم أن خيلاً يسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني ؟ " فيقولون :  
" نعم ، أنت عندنا غير متهم " <sup>(٢)</sup> وينتهي العقاد إلى أن الرسول  
بوسامته ودماثة خلقه وصدقه وأمانته ، كان حائزاً على محبة الناس وثقتهم ،  
ومن هنا كانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة .. أما محسب  
فقد كان جامعاً للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان <sup>(٣)</sup>

ثم يتناول العقاد الصفة الثالثة — وهي إيمانه صلى الله عليه وسلم  
بدعوته وغيرته عليها — ، فيبين أن الرسول كان مؤمناً بدعوته أشد الإيمان ،  
غوراً عليها ، أشد ما تكون الفيرة ، وإيمانه بها وغيرته عليها ناهماً  
من يقينه أنها الدعوة الحق ، ومن علم أنها الدعوة المناسبة لفساد  
الزمان ، ولقد كان متشوقاً إلى الدين الحق ، لأنه كان يؤمن بفساد  
الزمان وضلال الأوثان .. " وقد قضى محمد عليه السلام شبابه ، وهو  
يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان .. وجاوره أناس أقل منه نهلاً في النفس

---

(١) عمقيرة محمد ص ٣٢  
(٢) عمقيرة محمد ص ٣٣  
(٣) المصدر السابق ص ٣٣

ولطفًا في الحسن، وتغفيرا من الرجس، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله، ومن حاجتهم إلى عبادة غير عبادة الأصنام، وآداب غير آدابهم في تلك الأيام...<sup>(١)</sup> ثم يقول: "ولما آمن برسالته هو ودعوة به إياه إلى القيام بأداء تلك الرسالة، لم يَهْجُمُ على هذا الإيمان هجوم ساذج ولا هجوم يوم، ولم يتمجّل الأمر تمجّل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره، ولكنه تردد حتى استوثق وجزع حتى اطمأن، وخطر له في فترة<sup>(٢)</sup> من الوحي أن الله قلاه وأعرض عنه، ولم يأذن له في دعوة الناس إلى دينه، ثم تلقى الطمأنينة من وحي به ومن وحي قلبه ومن وحي صبحه، فصدع بما أمر ورضى ضميره بما أوتى من الهداية على النحو الذي رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية..."<sup>(٣)</sup>

وهذا التحليل والتفسير يكشف لنا العقاد عن الصفات والمؤهلات التي رشحت محمدا ليكون خير داعية، يبلغ الناس خير دعوة على خير وجه، وهي النتيجة التي انتهى إليها العقاد بعد كشفه عن هاتيك المؤهلات وتلك الصفات... التي أشرنا إليها - أول هذا الكلام - حين قال: "فما من عجب أذن أن يكون محمد صاحب دعوة، وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التي بلغت..."<sup>(٤)</sup>

٣ - ومن هذا النوع أيضا ما ذكره العقاد حين تحدث في فصل "محمد الصديق" أن محمدا كان محبا للناس، كما كان أملا لحبهم إياه، وهو بهذا الحب المتبادل قد تمت له أداة الصداقة من طرفيها...<sup>(٥)</sup>

والعقاد - كما قلنا سابقا - لا يثبت الصفات ولا يخلق السمات

(١) عبقرية محمد ص ٣٣ و ٣٤.

(٢) الصواب: في فتور، أما الفترة فاستعمالها خطأ هنا.

(٣) عبقرية محمد ص: ٣٤.

(٤) المصدر السابق ص: ٣٤.

بلا قانون ولا ضابط .. ولكنه - كما قلنا أيضا - يرجع بالصفات ويمسود  
بالسمات الى بواعثها وأسبابها .. فهو - هنا - لا يكتفى بتقريب  
أن محمدا قد تمت له أداة الصداقة من طرفيها .. لأنه كان معها  
للناس .. معها منهم .. بل يعمود بالقارئ ليطلعه على السر الذي  
جعل محمدا حائزا هذه المنزلة .. والسر هو أن محمدا كان مستكملا  
لشروط أداة الصداقة : " انما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية ،  
والذوق السليم ، والخلق المتين ، وقد كان محمد في هذه الخصال جميعا  
مثلا عاليا بين صفوة خلق الله " (١)

ثم يأخذ العقاد كل خصلة من هذه الخصال بالشرح والتحليل  
وايراد ما يدل عليها من الشواهد والأدلة .

فمن الخصلة الأولى - العاطفة الحية - يقول : " كان عطفنا  
يَرَامُ من حوله وَيَوَدُّهُمْ ، ويدوم لهم على المودة طول حياته ، وان تفاوت  
ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام .. كان صبيا في الثانية عشرة يسوم  
سافر عنه ، فتعلق به ، حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه فسي  
سفره ... وليس في سجل المودة أجل ولا أكرم من حنانه على مرضعته  
طيفة ، ومن حفاظته بها وقد جاوز الأعمين ، فعلقها هاتقا بها :  
أمي ! أمي ! ، ويفرش لها رداءه ويمس ثديها يده ... كأنه يذكر  
ما لذلك الثدي عليه من جميل ، ويعطيها من الأهل والشاء ما يفنيها  
في السنة الجديدة ... وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحباء كافة ،  
.. فكان يصفي الاناء للهرة لتشرب ، وكان يواسي في موت طائر يلهمو

---

(١) عبقرية محمد ص ١٢١ و ١٢٢ .

به أخو خادمه ٠٠ لا بل شمل عطفه الأحياء والجماة — كأنه من الأحياء — فكانت له قصعة يقال لها " الفراء " ، وكان له سيف مطى يسمى " ذا الفقار (١) " .

ومن الخصلتين : الثانية والثالثة — الذوق السليم والخلق المتين — يقول : " هذه العاطفة الانسانية التى رحمت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاطت بها ، لم تكن هى كل أداة الصداقة فى تلك النفس العلوية ، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونهلا ، ويمثل — فيما يرجع الى علاقات النبى بالناس — فى رعاية شعورهم أتم رعاية وأدلىها على الكرم والجود ( كان اذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه ، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه ، واذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ثاوله اياها فلم يتزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذى يتزع يده منه ٠٠ ) ( وكان اذا ودّع رجلا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده ٠٠ ) ( وكان أرحم الناس بالصبيان والميال ) ٠٠ ( وكان أشد حياء من المذراء فى خدرها ، وأصببر الناس على أقدار الناس ) يحفظ مقياسهم كما يحفظ مخزهم ، ويقول لصاحبه : ( من أطلع فى كتاب أخيه بخير أمره فكاننا اطلع فى النار ) " (٢)

ويلاحظ أن العقاد لم يكتف بتحليل هذه الخصال الثلاثة ، بل استطرد فأضاف اليها بعضا من خلائقه النفسية — صلى الله عليه وسلم — ومزاياه الخلقية ، التى كانت أدبا مرعيا منه فى صداقاته مع الناس " ومع العاطفة الانسانية والذوق السليم والأدب الكريم : سمّت جميل " ونظافة بالغة وجرى على أن يراء الناس فى أجمل مرآة ، ومع هذا كله

(١) عمقيرة محمد ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص : ١٢٤ ، ١٢٥ .

أمانة يثق بها المدعو فما بال الصديق ؟ وحسبك من ثقة الناس به  
ما أو دعوته لديه من أمانات وهم يناصبونه المداء " (١)

وهذا التحليل والتفسير يكشف العقاد عن عظمة الرسول في باب  
الصدقة، وأنها عظمة استمدت أصولها ومنابعها من المزايا التي امتاز  
بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في صداقاته المتعددة وجعلت  
مها لمن حوله ، جديرا بحبهم إياه .

وهذا التحليل - أيضا - يخلص العقاد الى هذه النتيجة -  
التي راجع يبحث عن مقدماتها وأسبابها - " كل هذه المزايا النفسية -  
بل بعض هذه المزايا النفسية - خليق أن يتم لصاحبه أداة الصداقة  
أو في تمام ، وأن يجعله مها لمن حوله ، جديرا منهم بأحسن حسب  
وولا " (٢)

\*\*\*

ب : ومن النوع الثاني - وهو الرجوع بتصرفات النبي وأحواله  
التي وقعت منه الى بواعثها وأسبابها وظلها الحقيقية ، والتي حرقها  
عن مواضعها كثير من المستشرقين والمتعصبين والحاقدين - من هذا  
النوع ما يذكره العقاد حين يحدثنا عن الأسباب الحقيقية التي كانت وراء  
تعدد زوجات الرسول ، وحين يحدثنا عن البواعث الحقيقية التي كانت  
وراء خروج الرسول الى ساحة المعركة للرؤية صرعى بدر من المشركين ،  
وحين يحدثنا - أيضا - عن الأسباب الحقيقية التي كانت وراء نجاح  
الدعوة الإسلامية ..

---

(١) عبقرية محمد ص : ١٢٥ .  
(٢) المصدر السابق ص : ١٢٦ .



والمقاد في كشفه عن الأسباب والبواعث الحقيقية لهذه التصرفات وتلك الأحوال ، إنما يرد على أولئك اللاطنين والمهاترين والحاقدين الذين حاولوا أن يسوغوا بعض تصرفات النبي وأفعاله تسويفاً يتفق وهواهم وأن يرجعوها إلى أسباب وبواعث تتفق وما ينطوى في نفوسهم من غسل وحقد نحو رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم .

ومن الجدير بالذكر أن المقاد غنى بالجوانب التي كانت مـشار طمن وافترء ، ومحل جدل وكلام غنى تلك الأسمية التي حدثنا عنها المقاد ، وهي مسألة تعدد زوجات الرسول ، ومسألة أن بطولة محمد ، إنما هي بطولة سيف ودماء . ومن هنا يكمن السر في طول الفصلين : "عجربة محمد المسكرة - الزوج " .

يقول المقاد : " . . . ونظرنا اخفاقاً فاذا بأطول الفصول فيه لفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية لأنهما كانا مـار اللفظ تلك الليلة على مَقَرِّقٍ من ساحة المولد ، وكانا مـار اللفظ في كل ما رده سفيهاً الشائنين من الأصلاء والمقتدين في هذا الباب " (١) .

وحسبنا أن نشير إلى بعض هذه الجوانب التي تناولها المقاد بالشن والتطيل ، كما تناول بواعثها وأسبابها الحقيقية ، رداً على المستشرقين ، ودفعاً للناطقين والمهاترين :

#### ١ - تعدد زوجات الرسول . .

كانت مسألة تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم من المسائل

التي ثار حولها اللفظ وكثر ازهاها الجدل والكلام ، بل كانت احدى هدفين أراد المستشرقون المتعصبون والحاقدون المكابرون أن يصيروا الرسول فيهما ، وأن ينالوا من عظمته عن طريق التشهير به - كذبا واقترافا - من خلال هذين الهدفين ، وكان الهدف الأول : أن الرسول بحروصه وانتصاراته لم يكن الا بطل سيف ودما . وأن الاسلام - لذلك - قام بالسيف وعلى الدماء ، ولم يقم على الحجة والافتناع . . . أما الهدف الثانى ، فهو ما نحن بصدده الآن ، وهو أن الرسول بزواجه من تسع نساء وقد جمع بينهن فى وقت واحد ، لم يكن الا رجلا مستسلما لنزوات شهوته وشهوات حسه ، ولم يكن لتعدد زواجه من أسباب سوى ذلك ، هكذا رماه المشهورون فى هذين الهدفين : السيف والمرأة " كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبى بين الاستسلام للخضب والاستسلام للهوى ، وكلاهما بعيد عن صفات الأنبياء " (١)

والمقاد فى هذه المسألة سلك طريقين مما :

الطريق الأولى ، هى دفع هذه الفرية : وهى أن الرسول رجل مستسلم لنزوات شهوته . . وابطالها ودحضها بالأدلة الدامغة والحجج البينة . .

الطريق الثانية : هى شرح وتحليل الأسباب الحقيقية والبواعث النفسية التي كانت وراء تعدد زواجه صلى الله عليه وسلم ، وكشفها والبحث عنها . .

ويسلك المقاد الطريق الأولى ، فيقول : " فمن ذا الذى يعلم ما صنع النبى فى حياته ثم يقع فى روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير

أو عن عمل صغير ؟ مَنْ مِنْ بُنَاةِ التاريخ قد بنى فى حياته ومعد مآته  
تاريخاً أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الإسلامية ؟ ومن ذا الذى  
يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟

عَمَّ شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لمظلم من المسمى فبلغ فيه  
شأو محمد فى مسماه ؟ فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى  
الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها ، فالمعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا  
الاستيفاء السليم كمال وليس بمعيب . (١)

والمعقاد لا يدفع هذه الفرية عن الرسول صلى الله عليه وسلم  
بدافع الحب والخيرة ، بل يدفعها بالمنطق البين والحجة القوية ، بل  
ويورد من الشواهد والأدلة ما يبرهن به على كذب ومطلان ما يَتَقَسَّوْهُ  
به أولئك المفترون والمهملون . . مستخرجاً تلك الشواهد وهذه الأدلة  
من تاريخ الرسول نفسه بعد الرسالة ، بل قبل أن يبعث رسولا .

يقول المعقاد : " وأعجب شئ أن يقال عن النبى أنه استسلم  
للذات الحسنة ، وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخبرهن فى الطلاق لأنهن  
طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها ، وقد شكَّوْنَ - على فخرهن  
بالانتماء إليه - أنهنَّ لا يجدن نصيبهنَّ من النفقة والزينة ، واجتمعت  
كلمتهن على الشكوى واشتددن فيها حتى وجَّه النبى وَهْمَ بتسريحهنَّ  
أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهم والتسريح . . . . . علام يدل هذا ؟  
نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة  
وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطاعب اللذات . . . . . أهدأ فقل رجل يستسلم

للذات حسه ؟ أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفـال والفنائم ما يرضيهن ولا يفضب المسلمين ، وهم موقنون أن ارادة الرسول من ارادة الله ؟ ... وهكذا نبحت عن الرجل الذي توهمه المشهورون من مؤرخى أوربا<sup>(١)</sup> فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التى تقع فى وهم واهم : نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويتنع مع هذا بمعيشة الفقراء ، ثم يقال : انه رجل غلبته لذات حسه ، ونرى رجلا تألبت عليه نسائه لأنه لا يعطيهن الزينة التى يتحلىن بها لعينيه ، ثم يقال : انه رجل غلبته لذات حسه ، ونرى رجلا أثر معيشة الكفاف والقناعة على ارضه نساءه بالتوسعة التى كانت فى وسعه ، ثم يقال : انه رجل غلبته لذات حسه .

ذلك كلام لو شاء المشهورون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغفرا لأظفحوا فيما قالوا أحسن فلاح أو لعله أقبح فلاح<sup>(٢)</sup> .

والمقاد — كما سبق أن قلنا — لا يكفى فى دفع هذه الفرية ودحضها بإيراد الشواهد والأدلة من تاريخ الرسول بعد الرسالة ، بل يستخرجها — أيضا — من تاريخه قبل الرسالة ..

يقول المقاد .. " ويزيد فى غرابته ( يعنى الكلام الذى ظله المشهورون ) : أن الرجل الذى توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ، ولا بعد زواجه فتَنَهِطَ فيه الظنون ذلك الخُطْبُ الذى رُفِعَ ! فمحمد كان معروف الشاب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة . كان معروفا من صباح الى كهولته ، فلم

(١) كذا شاع هذا الرسم للكلمة وهو خطأ ، والصواب : أوربة .

(٢) عبقرية محمد ص ١٥٨ — ١٦١ .

يعرف عنه أنه استسلم للذات الحسن ، في ريعان صباه ، ولم يسمح  
 عنه أنه كَلَهَا كما يَلْمُوهَا الفتيان ، حين كانت الجاهلية تبيع ما لا يحسب ،  
 بل عرف بالطهر والأمانة ، واشتهر بالجد والرصانة ، وقام بالدعوة بعدها ،  
 فلم يقل أحد من شائثيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات :  
 تَعَالَوْا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كَيْتَ وكَيْتَ  
 يدعوكم اليوم الى الظهارة والعفة ونهذ الشهوات . . . كلا . . . لم يقل  
 أحد هذا قط من شائثيه وهم عديد لا يحصى . ولو كان لبقوله موضح  
 لجرى على لسان ألف قائل . ولما بنى بأول زوجاته - خديجة - لم  
 تكن لذات الحسن ، هي التى سيطرت على هذا الزواج ، لأنه بنى بها  
 وهى فى نحو الأربعين ، وهو فى نحو الخامسة والعشرين ، ونَيْفَ على  
 الخمسين وأوتى الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة  
 فى الزواج بأخرى <sup>(١)</sup>

ثم يسلك العقاد الطريق الثانية . . فى هذه المسألة - وهى  
 شرح وتحليل وكشف وتنقيب عن الأسباب الحقيقية والبواعث الشخصية التى  
 كانت وراء تعدد زوجاته - صلى الله عليه وسلم - وهذا هو ما يعنيننا  
 فى هذه المسألة - ويأخذ العقاد فى الكشف عن هذه الأسباب وتسلل  
 البواعث التى كانت وراء زواجه بجمع نساء جمع يهنهن بعد وفاة السيدة  
 خديجة رضى الله عنها فيقول : " لو كانت لذات الحسن هى التى  
 سيطرت على زواج النبى بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بأرضاء هذه  
 الملذات أن يجمع اليه تسعا من الفتيات الأبقار اللاتي اشتهرن بفتنة  
 الجبال فى مكة والمدينة والجزيرة العربية ، فهسرن اليه راضيات فخسرات ،

(١) عبقريّة محمد ص ١٦١ و ١٦٢ .

وأوليا أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تملوها مصاهرة  
لكنه لم يتزوج بكرا قط غير عائشة رضى الله عنها ، ولم يكن زواجه بها  
مقصودا في بداية الأمر ، حتى رَغِبَتْهُ فِيهِ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيم ، التي عرضت  
عليه الزواج بعد وفاة خديجة . . . . ثم كانت سودة هي أولى النساء  
اللاتي بنى بهن بعد وفاة خديجة ، وكان زوجها الأول - ابن عمها -  
قد توفي بعد رجوعه من الهجرة الى الحبشة ، وكانت هي من أسبق  
النساء الى الاسلام فأمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها الى الحبشة  
فرازا من اغتات المشركين له ولها . فلما مات لم يبق لها الا أن تمسود  
الى أهلها فتصبا وتؤذي ، أو تتزوج بغير كف ، أو بكف لا يريد هاء ،  
فضمها النبي اليه حماية لها وتأليفا لأعدائه من أهلها . وكان غدير  
هذا الزواج أولى به لو نظر الى لذات حس ومآل الى متاع <sup>(١)</sup>

ثم يكشف العقاد عن الباعث على زواج الرسول من زينب بنت  
جحش ، صاحبة الفتاة والجمال والحسب ، فهي شابة وعلى قدر كبير  
من الجمال ، ومن عقيلات بنى هاشم ، ولعل مظنة الرغبة في الشهوة  
أو الاندفاع وراء لذات الحس متوافرة في مثل هذه الزيجة ، أو هكذا  
يبدو . . ولكن حتى هذه الزيجة لم تكن الرغبة في الشهوة هي الدافع  
اليها ، ولا لذات الحس هي الباعث طمها ، وانما كان وراءها باعـث  
ودافع آخر " . . وهذه أيضا - يقصد زينب بنت جحش - لم يكن  
( للذات الحس ) المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد تطبيق  
زيد اياها ، وتعذر التوفيق بينهما ، ولو كان للذات الحس سلطان  
في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداء ، ولا يروى

على قبول زيد وهى تأباه ، فقد كانت ابنة عمته ، يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسننها شئ كان يجهله يوم عرض عليها زيدا ، وشدد عليها فى قبوله ، فلما تجافى الزوجان ، وتكررت شكوى زيد من اعراضها عنه وترفعها عليه ، ولغلاظها القول له ، كان زواج النبی بها " حلا لمشكلة " بهنية بين ربيب فى منزلة الابن ، وابنة عمه اطاعته نفسى زواج لم يقرن بالتوفيق " (١)

وهنا نحب أن نضيف سببا آخر — هو فى حد ذاته السبب الاصيل فى زواج الرسول من زينب بنت جحش — وهو أن الله تعالى أراد أن يطل ما كان متوارثا عند العرب من عادة التهنى التى تقضى باعطاء الابن المتهنى ما للابن الاصيل من حقوق شرعية وحرمان دينية .. ومن بينها تحريم زوجة الابن المتهنى على أبيه بالتهنى اذا توفى عنها أو طلقها تماما كما تحرم زوجة الابن الاصيل .. فأراد الله أن يطل هذه العادة المتوارثة ، بل أن ينسب هؤلاء الأبناء الى آبائهم الاصيلين ، وليس الى آبائهم بالتهنى ، كما أراد الله تعالى أن يجعل ابطل هذه العادة ، على يد رسوله الكريم ، بأن يتزوج مَنْ كانت زوج ابنة بالتهنى ، وزوج رجل كان عبدا ودخل بها — وهى الحسية النسبية — زينب بنت جحش زوج زيد بن حارثة ، ليكون قدوة تقتدى ، ومثلا يحتذى كما أشار القرآن. وهذا السبب لم يُشير اليه العقاد ، وهذا مما يؤخذ عليه ، لا سيما أنه كان سهيل كشف البواعث والأسباب التى كانت وراء تعدد زوجات الرسول الكريم .

ثم يحدثنا العقاد عن زواج الرسول ببقية زوجاته .. ذلك  
الزواج الذى لم يكن له من سبب يدعو اليه سوى المصلحة العامة، أو  
المرأة والنخوة، أو تكريم من يستحق التكريم، أو تأليف القلب وتطبيع  
النفوس، أو أى سبب آخر إلا أن يكون ذلك السبب هو لذات الحس  
المزعومة .

يقول العقاد : " أما سائر زواجه عليه السلام فما من واحدة  
منهن رضى الله عنهن إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة  
أو من المرأة والنخوة دون ما يَهْدُرُ به المرجفون من لذات الحس  
المزعومة . فأم سلمة كانت كهلة مسنة يوم خطبها كما قالت له معتذرة  
اليه ، لاغائه من تكليف نفسه أن يتزوجها ، جبرا لخاظرها بعد موت  
زوجها عبد الله المخزومي من جُرِّي أصابه فى غزوة أحد ، ولما برَّح بها  
الحزن لوفاته ، واسأها رسول الله قائلا : ( سلى الله أن يهجرك فسى  
مهيئتك وأن يَخْلِفَكَ خيرا ) (١) قالت : ( وَمَنْ يَكُونُ خيرا من أبى سلمة ؟ )  
فأوجب على نفسه خِطْبَتَهَا لأنها تعلم أنه يهجر من أبى سلمة . . . وجويرية  
بنت الحارث سيد قومه كانت إحدى السبايا فى غزوة بنى المصطلق  
فتزوجها النبى ليمتقها ويخضع المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم ،  
تغريجا عنهم وتألفا لقلوبهم ، فأسلموا جميعا ، وحَسُنَ إسلامهم . . . وحفصة  
بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فمرضها أبوها على أبى بكر فسكت ،  
وعلى عثمان فسكت ، وماتَ عمر أسفا للنبى ، فلم يكن عليه السلام ليضن  
على وليه وصديقه بالمصاهرة التى شَرَفَ بها أبى بكر ، وقال : ( يستترج  
حفصة مَنْ هو خَيْرٌ من أبى بكر وعثمان ) . . . (١)



وبمثل هذا التحليل يكشف العقاد عن الأسباب الحقيقية والبواعث النفسية التي كانت وراء زواجه - عليه السلام - بهزواته الأخريات من أمثال : رمة بنت أبي سفيان ، رصفية بنت حيي بن أخطب اليهودية ، سيدة بنى قريظة .

ويرى أستاذنا الدكتور عبدالسلام سرحان أن تعدد الزوجات للرسول كان لحكمة عليا، أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى : " وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ <sup>(١)</sup> " فأمهات المؤمنين كان عليهن تحمل نقل أقوال الرسول وأفعاله التشريعية لئلا حيث يكون معهن ، أما بالنهار فينقل عنه الرجال ، ولهذا كان أمهات المؤمنين من ذلك النوع الرصين الرزين القادر على فقه السنة ، وفهم الدين على الوجه الصحيح ، ولهذا لم يكن شابات بل كن سيدات عاقلات حسيحات شديداً الإيمان ، وهذا رأي جِدِّ سديد . . لم أقرأه لأحد قبل اليوم .

## ٢ - نجاح الدعوة الإسلامية :

يَدْعَى الْمَفْرُوضُونَ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنْ نَجَاحُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَيْسَ لَهُ مِنْ سَبَبٍ غَيْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعْدِ أَوْ غَيْرِ الْإِعْزَازِ بِلَذَاتِ النِّعَمِ وَمَتَاعِ الْخَمْرِ وَالْحَوَرِ الْعَمِينَ وَغَيْرِ الْإِرْهَابِ بِالسَّهْفِ

والعقاد - كما تعودنا منه - حاول أولاً : أن يفند مزاعم المفرضين ودعاوى المفتريين ، ثم أتبع ذلك بذكر الأسباب الحقيقية التي هيأت للدعوة الإسلامية أن تتجج وللإسلام أن يعلو وينتشر .

(١) الآية : ٣٤ من سورة الأحزاب .

تفنيد المزاعم : أما عن المزمع الذى يقول : ان الاسلام نجح لأنه قام على الوعد ، أو على الارهاب بالسيف نيقول المقاد : " أى ارهاب وأى سيف ؟؟ ان الرجل حين يقاتل من حوله انما يقاتلهم بالمئات والألوف ، وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا فى الدين الجديس يتعرضون لسيوف المشركين ولا يمرضون أحدا السيوفهم ، وكانوا يلقون عنتا ولا يصيبون أحدا بمحنت ، وكانوا يُخْرِجُونَ من ديارهم لِمَاذَا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين وثقة الناقمين ولا يُخْرِجُونَ أحدا من دياره . فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبى الأعزل المفرد بين قومه ، الفاضلين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعد الأقوياء المتحكمين . . . ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويطلبوا الارهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليدأوا واحدا بعدوان أو يستظلموا على الناس بالسلطان ، فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجسوم ، ولم تكن كلها الا حروب دفاع وامتناع . . . (١)

أما عن المزمع الذى يقول : ان الاسلام نجح لأنه قام على الوعد ، أو على الاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحدور المين ، فهقول المقاد : " وأما الاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحدور المين . . . فلو كان هو باعثا للايمان لكان أحرى الناس (ب) أن يستجيب الى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم ، وأصحاب الترف والثروة فيهم ولكان طفلة قريش هم أسبق الناس الى استدامة الحياة واستبقاء النعمة ، فان حياة النعيم بعد الموت محبة الى المتعمين تحببها الى المحرومين ، بل لعلمها أشهى الى الأولين وأهني . . . ولعلمهم أحسن عليها وأحسنى ، لأن الحرمان بعد التدور والاستمرار أصعب من حرمان من لم يَذُقْ ولم

يستفیر علیه حال . " (١)

ثم يسوق المقاد الأمثلة على قوله هذا فيقول : " لم يكن أبولهب أزهد في اللذة من عمر ، ولم يكن السابقون الى محمد أرغب في النعيم من المتخلفين عنه ، ولكننا ننظر الى السابقين وننظر الى المتخلفين فنرى فارقا واحدا بينهم أظهر من كل فارق . ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار ، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين ، وبين من يعقلون ويصفون الى القول الحق ، ومن يستكبرون ولا يصفون السي قول " (٢)

ومعد أن يفيض المقاد في ذكر الأمثلة التي تدل على بطلان مزعم الزاعمين : أن الاسلام نجح لأنه قام على الوعيد والوعود . . أو قسام على الارهاب بالسيف والاغراء بملذات النعيم . . يذكر الأسباب الحقيقية التي كانت وراء نجاح الدعوة الاسلامية ، ويخلص المقاد هذه الأسباب فيقول : " انما نجحت دعوة الاسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ، ومهدت لها الحوادث ، وقام بها داع تهيأ لها بحناية ربه وموافقة أحواله صفاته " (٣)

٣ - صرعى بدر من المشركين وخروج الرسول لرفيتهم . :

من الأشياء التي أخذها بعض المستشرقين من الحاقديين والمشهرين على النبي صلى الله عليه وسلم خروجه الى ساحة الحرب بعد الموقعة الحربية في غزوة (بدر) ورؤيته صرعى المشركين . وهم

- 
- (١) عبقريه محمد ص ٣٦ .  
 (٢) المصدر السابق ص ٣٦ .  
 (٣) المصدر السابق ص ٤١ .

يملكون هذا الخروج لرؤية صرعى المعركة من قتل المشركين الى قسوة النسبي  
قسوة تجعله يغيب لمنظر الدماء . هكذا رعى هؤلاء المستشرقون النسبي  
صلى الله عليه وسلم ، وهكذا عللوا هذا الخروج ، وهو تحليل يتفق  
وأهواءهم وأغراضهم الخبيثة التي يقصدون من ورائها الى رعى الرسول  
بكل ما هو مَعِيب وَمُهِن ، ليشوهوا صورة النبي في نظر المسلمين وغيرهم  
على السواء .

ولكن خروج الرسول صلى الله عليه وسلم الى ساحة المعركة  
ليرى نتائجها ، لم يكن للسبب الذي ذكره أولئك الناقدون الحاقـدون ،  
ولكن دعت اليه أسباب أخرى غير ذلك . . أسباب تتفق مع الطبيعة  
الانسانية والعادة ، كما تتفق مع العقل والمنطق السليم ، وهذه الأسباب  
بسطها العقاد في كتابه ليرد بها على أولئك الذين تناسوا كل سبب  
يتفق مع العقل والمنطق .

والعقاد يرجع خروج الرسول لرؤية صرعى المشركين الى أسباب  
عدة : أسباب تتفق مع الطبيعة والعادة والعرف ، كما تتفق مع العقل  
والمنطق السليم كما سبق أن ذكرنا آنفا .

أما كون خروجه صلى الله عليه وسلم لرؤية صرعى المشركين أمراً  
يتفق مع الطبيعة الانسانية التي لا يحاب عليها صاحبها ، فان العقاد  
يقول : " أما رؤية القتلى في ساحة الحرب ، فقد نسي فيها أولئك  
الناقدون أن اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة انسانية لا غضاضة فيها . . ما  
لم تجاوز حدها الى الفرح برؤية الدماء لمحض الفرح برؤية الدماء ، وهذا  
ما لم يزعمه أحد من شاهدى المعركة عن النبي عليه الصلاة والسلام ،  
ولا نَمَّ عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين . " (١)

واذا كان خروجه صلى الله عليه وسلم لرؤية صرعى بدر أمرا يثشق  
مع الطبيعة الانسانية فانه أمر يثشق - كذلك - مع العادة وعرف البيئـة  
التي يعيشها الانسان العربى ، يقول العقاد : " ونسى أولئك الناقدون  
أن الرجل الذى يرى الدم فى المدينة المصرية غير الرجل الذى يرى  
الدم فى حروب البادية وفى حياة البادية على الاجمال .. ونعنى بها  
حياة الرعاة التى تتكرر فيها اراقة الدم كل يوم .. وحياة القبائل التى  
كانت تغزو وتغزى فى كثير من الأيام " (١)

وفلسف العقاد ذلك فيبين أن تحرك الشخص لرؤية الدماء فى  
بيئة اعتاد الناس رؤية الدماء فيها كالبئة البدوية لا يجعلنا نحكم على  
ذلك الشخص بأنه قاسى القلب ، كما لا نرمى بالقسوة الطبيب الذى الف  
النظر الى الجثث والأشلاء والجراحات والدماء ..

يقول العقاد : " فانك لا ترمى بالقسوة طبيبا قد ألف النظر  
الى الجثث وأشلائها ، والأجسام الحية وجراحها .. لأن الطب لن يكون  
فى الدنيا رحمة من الرحمات ان لم يألف الأطباء هذه المناظر ويملكوا  
جأشهم ، وهم يفتحون أعينهم عليها ، ولكلك قد ترمى بالقسوة انسانا لم  
تقع عينه على منظر مثلها ، ثم هى تفاعته فلا ينفر منها ، وما من رجل  
عاش فى البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقال فيه ان ساحة  
الحرب تفاعته بما لم يكن يراه أو بما يستلزم كون النظرة اليه قسوة فى  
الطباع واستراحة الى رؤية الدماء " (٢)

وكما كان خروجه صلى الله عليه وسلم لرؤية صرعى بدر أمرا يثشق  
مع الطبيعة الانسانية ، كما يثشق مع أعراف البيئة العربية ، التى ألفـت

منظر الدماء - كان خروجه صلى الله عليه وسلم أمرا يثقل والمقل ويشق والمنطق السليم ، والمقل والمنطق السليم يحتمان على الرسول أن يخرج الى ساحة المعركة ليرى بعينه نتيجة معركة كادت تكون المعركة الأخيرة في تاريخ الاسلام ، فاما أن ينتصر الاسلام وتقوم قائمته ، واما أن يهزم هزيمة لا تقوم له بعدها قائمة ..

يقول العقاد " كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بسدرا لينظروا بعين النبي الى عواقب هذه الواقعة التي أوشكت أن تصبح الواقعة الحاسمة في تاريخ الاسلام " (١)

والمقل والمنطق السليم يحتمان على الرسول أن يخرج ليرى نتيجة معركة تقاتل فيها فريقان غير متعادلين عددا وعدة ، والجيش الاسلامي هو الأقل عددا وعدة ..

يقول العقاد : " .. كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبي الى جيشين : أحدهما فيه السلاح والخيول والعدد ، والآخر في ثلاث من يقاتلونه عددا ، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف ، ومن كل مطية غير الأقدام " (٢)

والمقل والمنطق السليم يحتمان على أولئك الناقدين أن يلتبسوا للرسول ألف عذر وعذرا في خروجه ، ليرى نتيجة معركة أشق من عاقبتها وخشى أن تكون نهاية الاسلام فيها ، فطلق يدعو ربه ويسأله النصر وينشده العون والتأييد ، حتى سقط رداؤه وهو لا يدري لاستفراقه فسى الدعا .

---

(١) عبقرية محمد ص ٨٢ .  
(٢) المصدر السابق ص ٨٢ .

يقول العقاد : " وكان عليهم أن يلمسوا اشفاق النبي — عاقبة هذه الرقعة ويستمعوا اليه وهو يناشد ربه ( اللهم هذه قریش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك • اللهم فنصرك الذي وعدتني • ) وكان عليهم أن ينظروا اليه وقد مَدَّ يديه وشَخَّصَ ببصره وجمَعَ نفسه في صلاته... حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبوبكر يرده ويناديه ( بِحَضْرَ مناشدتك ربك • فان الله مُنْجِزٌ لك ما وعدك ) وهو لا يلتفت الى سقوط رداؤه ولا الى مناداة صَفِيٍّ لاستغراقه في الدعاء " (١)

والعقل والمنطق السليم يَحْتِمَانِ على الرسول أن يخرج ليشهد صرعى قریش الذين كانوا أحوص ما يكونون على مناواة النبي واعادة الكرة عليه ..

يقول العقاد : " وكان عليهم أن يعلموا حرص قریش أن يستبقوا رجلا منهم يرجعون الى مكة قبل المعركة أو بعدها ليشابروا على مناواة النبي واعادة الكرة عليه ، حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد وليس الصبر عليه بيسير " (٢)

وينتهي العقاد من بسط هذه الأسباب وتلك التعليقات لخروج الرسول لرؤية صرعى بدر من المشركين الى هذه النتيجة ، وهي أن هذا الخروج أمر لا غرابة فيه ، ليس فيه ما يعاب أو يذم ، بل الخرابية أن ينصرف الرسول دون أن يشهد نتيجة معركة سبقتها كل تلك المخاوف وستلحق بها كل تلك العواقب .. بل ان العقاد ليدلل على أن هذا الخروج أمر طبعى لا غرابة فيه ، بما يفعله أعقاب كل معركة مراسلو الصحف

(١) بحقبة محمد ص ٨٢ و ٨٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ •

الحريريون حين يشهدون — بعد انجلاء الفريقين — ساحة الممارك ليدرسوا نتائج هذه الممارك ، وليشرحوا دروس النصر والهزيمة .

إذا كان من واجب أولئك المراسلين أن يشهدوا تلك الممارك ليسجلوا ما لا غنى عن تسجيله من دروس وعبر ، فما بالك بالقائد المسئول عن قيادة المعركة ، وقبل ذلك ومعهده هو مسئول عن تهيئ دعوة ونشر رسالة ؟

يقول العقاد : " كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشهور بالفرض في مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه ، وأنه شهور مطبوخ في نفس حية تجارب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة في مواقف السلم أو مواقف القتال . . . ان محمداً رجل حق جَيَّاش النفس بدوافع الحياة وليس بناسك مهزول من نساك الصوامع الذين يَكْمِشُونَ في جوانحهم كل دافعة وكل احساس . . فامتناه أن يشهد نتيجة المعركة التي سبقتها كل تلك المخاوف وستحلق بها كل تلك المواقف — أمر لم يكن بالمنتظر من قائد في مثل موقعه ، ولم تكن توجهه الفسطرة الانسانية على المقاتل . . وهو في اللحظة الأولى بعد الظفر خليق أن يعلم بمدى انتصاره ، ومدى ما يتوقعه بعده ، ومدى ما فعلته الفئة القليلة بالفئة الكبيرة ، ليقين عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات ، وهؤلاء مراسلو الصحف الحريريون الذين يدرسون اليوم أشياء هذه المواقف يجدون من واجبههم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء الفريقين ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما ، ويسجلوا ما لا غنى عن تسجيله في جميع الحروب ، فانصرف محمد عن ساحة بدر على إثر النصر عمل غريب يُخِلُّ بمكانة القائد ، وواجب التحقيق والاستفادة من كل ما يفيد " (١)



ومثل هذا التحليل والتفسير استطاع العقاد أن يكشف عن البواعث النفسية والأسباب الحقيقية لكثير من أفعال النبي وعصراته غير ما ذكرنا من أمثلة مما هو مبثوث في كتابه ، ويسير على القارئ أن يرجع الى صفحات هذا الكتاب ليرى صحة ما نقول .

#### ٤ — الشواهد والأدلة :

قلنا — سابقا — ان العقاد في " عبقرية محمد " قد حاول الكشف عن سمات العظمة وآيات العبقرية في شخصية الرسول العظيم ، وهو في محاولته تلك قد تنبع وتقص تلك السمات وهاتيك الآيات بما حوت من تميز وتغرد ، ليس في جانب واحد من جوانب شخصيته صلى الله عليه وسلم بل في جميع جوانب حياته المختلفة ، وقلنا — أيضا — ان العقاد لم يكتف بسرد هذه السمات وتلك الصفات ، وعرضها عرضا موجزا ، بل تناول كل ذلك بالشرح والتحليل . . ولم يكتف بذلك أيضا بل حاول العقاد ارجاع هذه السمات الى بواعثها وأسبابها . .

والعقاد لم يكتف بكل ذلك ، في الكشف عن هذه السمات وتلك الصفات ، بل أضاف الى كل ذلك خصوصية رابعة — نهجها الآن — وهي : إيراد الشواهد والأدلة ، لاثبات تلك السمات وهاتيك الصفات ، فالعقاد في شرحه وتحليله للعبقرية المحمدية ولظواهرها وآياتها ، يؤيد السمة بالدليل ، ويؤكد الصفة بالشاهد .

والعقاد لا يستقصي كل الشواهد والأدلة التي تؤيد السمة ويؤكد الصفة ، بل يدل عليها بحوادث منتقاة وظواهر بارزة ، ويختار من التصرفات والأفعال والأقوال المشهورة ما تكون أكثر دلالة على تلك السمات والصفات .

فمثلا حين يدلل العقاد على خصائص التفرد وسمات التميز المحمدية في الجوانب العسكرية نراه لا يستقصى كل ما ورد من شواهد ومراهمين لها دلالتها على هذه السمات في هذه الجوانب .. وحين يدلل على تميز الرسول وتفرد في باب الصداقات ، تجده لا يتتبع كل ما يدل على هذا التميز وذلك التفرد .. وهكذا .. بل يختار العقاد - كما قلنا - ما يدل على تلك الخصائص وهاتيك السمات من الحوادث المنتقاة والظواهر البارزة ..

يقول الأستاذ سيد قطب : " لدينا طريقة العقاد في رسم صورة نفسية " للبحال بمحض خصائصه الأساسية <sup>(١)</sup> البارزة ، والتدليل عليها بحوادث منتقاة من تاريخه لها دلالتها على هذه الخصائص دون الدخول في تفصيلات حياته وتتهج خطاه ، وكتب " المبقيات " كلها من هذا الطراز " <sup>(٢)</sup>

ويلاحظ كل قارئ متأمل أن الشواهد التي يختارها العقاد والأدلة التي ينتقها من الحوادث البارزة ، والتصرفات المشهورة ، يرتقى فيها العقاد من شاهد على السمة قوى الى شاهد أقوى منه الى شاهد أكثر قوة .. ومن دليل أكيد على الصفة الى دليل أكد منه ، الى دليل آخر أكثر تأكيدا من سابقه وهكذا ..

ونستطيع أن ندلل على صحة هذه الملاحظة من الأمثلة والشواهد التي ساقها العقاد للتدليل على سمات التفرد التي امتاز بها الرسول الكريم في صداقته ، وفي عاطفته الانسانية ، وفي معاملاته لزوجاته ،

---

(١) كذا يكتب الناس وهو خطأ شائع ، والصواب : خصائصه الأساس

البارزة - بكسر الهمزة وهي جمع أساس ... بفتحها ..

(٢) النقد الأدبي : سيد قطب ص ٨٩ .

وفى معاملته لخدمه ، كما سبق أن أشرنا اليها بالشن والتحليل فسى  
خصوصية التفريح والتفصيل ..

فمثلا حين يدلل على عاطفته الانسانية ، نراه يدلل على هذه  
الماطقة - أولا - نحو الانسان ، ويضرب عليها من الشواهد والأمثال  
ما يدل عليها ، ثم يدلل على عاطفته الانسانية - ثانيا - نحو الأحباء  
بوجه عام ، ويدخل فيها الحيوان ويضرب على ذلك من الشواهد والأدلة  
ما يدل عليها ، ثم يدلل على عاطفته الانسانية - ثالثا - نحو الجماد ،  
ويسوق من الأمثلة والشواهد ما يدل عليها ... ويظهر لكل ذى عقل  
أن الأدلة التى ساقها تدليلا على عاطفته صلى الله عليه وسلم نحو  
الحيوان أدل على هذه الماطقة من الأدلة التى ساقها تدليلا على  
عاطفته نحو الانسان ، وأن الأدلة التى ساقها تدليلا على عاطفته السنى  
شملت الجماد - أيضا - أكثر دلالة على سمو هذه الماطقة ورحابتهما  
من الأدلة الأولى والثانية ..

وكذلك اذا ما رجعنا الى الأمثلة والشواهد التى ساقها تدليلا  
على عاطفته نحو الانسان ، نجد فيها أن المقاد ارتقى من دليل السى  
دليل ، وكل دليل أدل على هذه الماطقة من الذى قبله .. فالشاهد  
الذى ساقه على عاطفته نحو مرضعته حليمة وحفاوته بها وعلى عاطفته نحو  
حاضته أم أيمن ، أدل على عاطفته على من حوله من الشاهدتين اللذين  
ساقهما تدليلا على عاطفته نحو عمه الذى تعلق به وهو صغير ، ونحو  
أمه التى بكى على قبرها وهو فى الستين .. والشاهد الذى ساقه  
تدليلا على عاطفته نحو كل ضعيف وإن لم يكن بينه وبينه علاقة نسب  
أو رضاع أو حضانة - أدل على عاطفته على من حوله من الشواهد التى  
سبقها ، ذلك أن عاطفته نحو عمه وأمه ونحو مرضعته وحاضته لها ما  
يسوغها ، وهى علاقة النسب والقربى وعلاقة الرضاع والحضانة ، أما عاطفته

نحو كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع فليس لها ما  
يَسْتَوْفِيهَا إلا سمو العاطفة وارتقاؤها .. والشاهد الذي ساقه تدليلاً  
على عاطفته الانسانية نحو أعدائه، وهو بَرُّهُ وعطفه على عمه الله بن أُبَيِّ  
ابن سلول - أكثر دلالة على سمو هذه العاطفة من كل ما تقدم من  
أمثلة وشواهد وأدلة .. ذلك لأن القسوة على العدو هي التي ينهض  
أن تكون موضع البر والعطف ، فإذا تجاوز القادر على هذه القسوة  
هذه القسوة إلى البر والعطف، فذلك نُهْلٌ منه فَاقَ الوصف ، وسموً نفسى  
العاطفة جَاوَزَ كل الحدود .

وكذلك إذا ما رجعنا إلى الأمثلة والشواهد التي ساقها العقاد  
تدليلاً على معاملة الرسول الطيبة لزوجاته يرى أن العقاد ارتقى من دليل  
إلى دليل ، وكل دليل أدل على طيب هذه المعاملة من الذى سبقه ..  
فتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خدمة البيت مع زوجته أدل على  
طيب المعاملة من مجرد الططف واللين معهن ... واستغفاره الله فيما  
لا يملك من التسوية بينهما وهو الميل القلبي أكثر دلالة على طيب  
المعاملة من الشواهد الأولى والثانية . ومعاملة الرسول زوجه عائشة -  
وقت حديث الافك - معاملة طيبة فى وقت تستحيل فيه مثل هذه المعاملة،  
أكثر دلالة على طيب هذه المعاملة من كل ما تقدم من أمثلة وأدلة ..

وكذلك إذا ما رجعنا إلى الأمثلة والشواهد التي ساقها  
العقاد تدليلاً على بَرِّ الرسول بخدمة وعبيده يرى أن العقاد ارتقى  
فيها من دليل إلى دليل ، وكل دليل أدل على بر الرسول بخدمة  
وعبيده من الذى سبقه . فقيام الرسول بخدمة نفسه كطَبِّ شاته وخصف  
نعله وعلف ناضحه - وهى أمور من شأن الخادم وعمله - ارتقاؤه بالخدام  
إلى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم -

وهو بالتالى أدلّ على البر بالخدم وأكرم لهم من مجرد البر بهم والعطف عليهم . فالبر بالخادم عطف عليه ، والبر بالخدمة ارتضاع بالخادم ، ولا شك أن الثانى أدل على هذا البر من الأول . .

وكذلك الشأن فى الأدلة والشواهد التى ساقها العقاد تدليلاً على بر الرسول بخدمه وعطفه عليهم ، نرى فيها هذا الترقى من دليل قوى الى دليل آخر أقوى الى ثالث أكثر قوة . . وهكذا . . فقد اعتق الرسول زيدا . . . ولم يكف الرسول بذلك ، بل زوجه بحفلة من قريباته . . ولم يكف الرسول بذلك ، بل تزوج الرسول زوج زيد بعد أن طلقها ، ويسير على القارئ أن يلمح أن الدليل الثانى أدل على بر الرسول بزيد بن حارثة من الأول ، وأن الدليل الثالث أدل على ذلك من الثانى .

يقول العقاد : " . . فلم يعطه الحوية وكفى ، ولم يعطه المساواة فى المعيش وكفى ، بل رفعه الى المرتلة الاجتماعية التى يرتفع اليها السادة ، ولا يثبتها شئ كما يثبتها شرف المصاهرة " (١) بل ان الرسول لم يكف فى العطف على زيد ، والبر به الى هذا الحد ، بل نقل هذا البر من بعده الى ابنه أسامة ، فبطله جيش الشام وهو دون العشرين ، وفى الجوش طائفة من أكابر الصحابة ، وفى هذا البر بأسامة دليل على بر الرسول بزيد ليس فوقه دليل . . وهكذا فى باقى الأدلة نرى العقاد يترقى فيها من دليل الى دليل ، وكل دليل أقوى من سابقه وأدل على الصفة منه . .

## ٖ الفصل الرابع ٖ

### أُسلوب المقاد وسمائهُ

- ١ - الطابع العام لأُسلوب المقاد .
- ٢ - غلبة التراكيب المنطقية .
- ٣ - قوة الاقتناع والحجج .

### ١ - الطالب العام لأسلوب العقاد :

أسلوب العقاد في كتابه " عقريه محمد " هو أسلوب العقاد في جميع كتاباته وهو ذلك الأسلوب العلمي ، إلا أن يكون الموضوع الذي يكتب فيه أديبا خالصا ، حينذاك تغلب عليه طبيعة الموضوع ..

وأعني بأسلوب العقاد العلمي ، ذلك الأسلوب المنطقي الذي يعتمد على المقدمات والنتائج حتى ليحس القارئ أو السامع أزا كتبه أو مقالاته بأن أفكارها مرتبة ترتيبا يتميز فيه البدء والختام ..

وإذا ما حاولنا أن نطبق هذا القول على كتابه " عقريه محمد " وجدنا ذلك واضحا كل الوضوح .. نجد ذلك واضحا ليس في فصل واحد .. أو اثنين .. بل في فصول الكتاب كلها ، وحسبنا أن نشير إلى تلك الحقيقة - بالإضافة إلى ما أوردناه من تحليلات في مباحث سابقة تدل على أسلوب العقاد - بإيراد مثال أو مثالين من هذا الكتاب ..

فمثلا في فصل " علامات مولد " يرى القارئ العقاد قد انتهى في نهاية هذا الفصل إلى نتيجة هي : أن محمدا هو صاحب الرسالة التي انتظرتها الدنيا .. ولكن كيف وصل العقاد إلى تلك النتيجة ، وإلى غيرها من النتائج ؟ وفي الإجابة على هذا السؤال يظهر أسلوب العقاد .

إن العقاد يصل - دائما - إلى أفكاره التي يريد أن يظهرها - وإلى النتائج التي يريد أن يصل إليها عبر مقدمات يسوقها بين يدي تلك النتائج ، ومن خلال خط واضح مستقيم يصل به إلى أفكاره ، وهو في هذه المقدمات وعبر هذا الخط الواضح المستقيم ينتقل من فكرة إلى فكرة ، ومن جزئية في المقدمة إلى جزئية أخرى ، وفي كل جزئية من تلك الجزئيات

يهبط الأسباب ويشرح المسببات ، كما أنه ينتقل من الاجمال الى التفصيل ، وهو فى هذا التفصيل ، يحلل ويحلل ، ويشرح ويفسر ، كما أنه يضع الشاهد ويقيم الدليل . . . فاذا بالقارئ - وقد انتهى من هذه المقدمات - قد وصل الى النتيجة التى يريد العقاد أن يصل به اليها ، واذا بهذه النتيجة قد بدت واضحة جلية ، ليس عليها أثر من غموض أو إبهام . . . تسعف العقاد فى كل ذلك تَلَكَّ قوة ونشاطٌ ذهنى واسع ، قادر على العرض والتحليل والتفسير . . .

ونعود بعد هذا الاستطراد الى النتيجة التى أشرنا اليها سابقا والتى توصل اليها العقاد فى نهاية فصل " علامات مولد " . . . لسنرى الطريق التى سلكها فى الوصول اليها . . .

يبدأ العقاد هذا الفصل بالحديث عن احدى مقدمات هذه النتيجة ، وهى أن العالم آنذاك كان فى حاجة الى رسالة ، لأنهم قد وصل الى حافة الهاوية " كان عالما متداعيا قد شارف النهاية خلاصة ما يقال فيه : أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام (١) . "

ومعد أن يلخص العقاد تلك المقدمة يبدأ فى تحليلها وتفسيرها . . . أى أنه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر . . . طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون الى قوة فى الغيب تهبط المدل وتحبس الضعف وتجزى الظلم وتختار الأصلح الأكمل من جميع الأمور . . . وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون الى دولة تقضى بالشريعة وتفصل بين البهانة والأبرياء ، وتحرس الطريق وتخفف العاثنين بالفساد (٢) .

(١) عبقرية محمد ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧ .



ومعد تحليل هذه المقدمة وتفسيرها ينتقل العقاد الى ايراد  
الشواهد والأدلة على ذلك مبينا الأسباب التي أدت الى ذلك ..

ثم ينتقل العقاد الى مقدمة أخرى تتصل بالهيئة التي تحتاج  
الى هذه الرسالة ، وهذه الهيئة هي الهيئة العربية أو الأمة العربية  
وأن العالم اذا كان يتطلع الى نبي ، فان هذه الأمة تتطلع الى هذا  
النبي ، وأن الأمم المتداعية - آنذاك - وان كان حقيقا أن يمحس  
فيها هذا النبي ، ترى أن الأمة العربية هي أحق الأمم آنذاك أن يمحس  
فيها هذا النبي .. لأنها أمة : " تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها ،  
كما شعرت بالخطر عليها ومواضع النقص منها ، في أيديها تجارة العالمين  
كلها " (١) ثم يشرح العقاد مكانة الأمة العربية وتوسطها بين العالم  
وأثرها في تجارة هذا العالم ، كما يشرح أحوال هذه الأمة ، وكيف  
تيقظت لوجودها ، وشعرت بالخطر عليها من الخارج والداخل ..

ومعد أن ينتهي العقاد من شرح وتحليل هذه المقدمة الثانية  
- ينتقل الى مقدمة ثالثة ، تتصل بالمدينة التي تتطلع الى ذلك النبي ..  
ومعد أن يسلك العقاد فيها الطريق نفسها التي سلكها في المقدمتين :  
الأولى والثانية من شرح وتحليل وايراد للشواهد والأدلة .. ينتقل  
العقاد الى مقدمة رابعة ، تتصل بتهيئة النبي .. ثم الى خلاصة تتصل  
بهيئة النبي .. وينتهي منها - بعد شرح وتحليل - الى أن بيت هذا  
النبي - محمد - أباه وجده ، أصل ما يكون لانجاب هذا النبي .. ثم  
ينتقل بعدها الى مقدمة سادسة تتصل بالنبي محمد نفسه ، وهي صفاته  
وخلائقه التي ترشحه لأن يكون ذلك النبي الذي تنتظره الدنيا .. ومعد  
أن يفيض العقاد في تحليل هذه الصفات وطك الخلق ، يكون قد

انتهى الى النتيجة التى وصل اليها - والتى أشرنا اليها آنفا - وهى أن محمدا هو صاحب تلك الرسالة التى تتطرحها الدنيا لأنه " أصلح رجل من أصلح بيت فى أصلح زمان لرسالة النجاة المرقومة " (١)

وهكذا تتسلسل المقدمات ، وتأخذ جزئياتها : كل جزئية بحجز أختها ، وهكذا يحلل العقاد ويحلل ، ويشرح ويشرح ، ويورد الشواهد والأدلة . . . حتى يصل الى النتيجة التى يريد بها والفكرة التى يريد أن يظهرها . . . ومن اليسير على القارئ التأمل أن يلحظ الأسلوب المنطقى فى كتاب " عبقرية محمد " فى فصول الكتاب كلها ، وحسبنا أن نشير - بالإضافة الى ما ذكرناه - الى فصول : ( عبقرية الداعى - محمد الصديق - الزوج - السيد ) ليرجع القارئ اليها اذا أراد .

على أنه يمكن أن يعد من خصائص الأسلوب المنطقى ما سبق أن أوضحناه من خصائص امتازت بها طريقة العقاد ، من مثل خصائص : التتبع والاستقصاء ، والتفريع والتفصيل ، والبحث عن الأسباب والبواعث وتبويبها وتنظيمها ، وإيراد الشواهد والأدلة ، وما سبق أن فصلنا القول فيه وأفضنا ، وما لنا فى حاجة الى إعادة القول فيه .

## ٢ - غلبة التراكم المنطقية :

وما يزيد ما نقول تأكيدا ، أن العقاد - بالإضافة الى أسلوبه المنطقى الذى يعتمد على المقدمات والنتائج - يستخدم فى أسلوبه الأدوات والتراكيب المنطقية التى تعتمد على الجمل الشرطية ، وعلى القضايا الموجبة والسالبة - كلية أو جزئية - كما يعتمد على الأدوات التى

تستعمل غالبا للتقسيم والتفريع ، والاجمال والتفصيل . . . الى غير ذلك من الأدوات والتراكيب التي يستعملها المناطق في أساليبهم . . .

ويستطيع القارئ أن يلمح أدوات التقسيم والتفريع في أسلوب العقاد ، في حديثه عن فصاحة الرسول الجامعة لأنواع الفصاحة في فصل " عبقرية الداعي " يقول العقاد : " فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع الكلام ، فيكون الكلام نصيحا وهيئة النطق به غير نصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به نصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسجاع والقلوب " (١) وممد هذا التقسيم يبدأ العقاد في عملية التفصيل ، يقول العقاد : " أما فصاحة محمد . . . فقد تكاملت له في كلامه ، وفي هيئة نطقه بكلامه ، وفي موضوع كلامه . . . الخ " (٢)

ويستطيع القارئ أن يلحظ استخدام العقاد للقضايا المنطقية — بالإضافة الى استخدامه أدوات التقسيم والتفريع والتفصيل — في الفصل نفسه حين يقول : " . . . ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه للكلمات غير مانوس . . . فيتأخر له الكلام الجميل ثم يميزه النطق الجميل . . . ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ويكون سليما في كلامه سليما في نطقه . . . ثم لا يقول شيئا يستحق أن يستمع اليه السامع في موضوعه . . . " (٣)

كما يستطيع القارئ أن يلحظ الجمل الشرطية — بالإضافة الى القضايا المنطقية ، وأدوات التقسيم والتفريع والتفصيل أيضا — في مثل

(١) عبقرية محمد ص ٣٠ (٢) المصدر السابق ص ٣٠

(٣) المصدر السابق ص ٣١

قوله في فصل " محمد الصديق " .. " اذا كان الرجل محبا للناس أهلا لحبهم اياه فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها .. وانما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الانسانية ومن سلامة الذوق ومثانة الخلق وطبيعة الوفاء ، فلا يكفى أن يحب الناس لمحبوه لأنه قد يحبهم وفي ذوقه نفس ينفرهم منه ويذههم في حبه .. ولا يكفى أن يكون محبا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها ، فقد يكون محبا محبا حسن الذوق ، ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفى " نزرأ ضعيفا لا تدوم عليه صداقة ولا تستقر عليه علاقة .. " (١)

### ٣ - قوة الاقتناع والحجة :

ومن خصائص الأسلوب المنطقي ، أنه يعتمد على قوة الاقتناع وقوة الحجة والقدرة على أن ينفذ الى العقل بسهولة ويسر ، ولقد كان العقاد في أسلوبه كذلك ، فقد كانت له قوة الاقتناع وقوة الحجة ، كما كانت له القدرة على أن ينفذ بفكرته الى عقل القارئ أو السامع وفكرهما بسهولة ويسر ، لما كان يتمتع به العقاد من ذهن ثاقب وثقافة واسعة وقدرة على المناقشة ..

ويستطيع القارئ أن يرى هذه السمات في أسلوب العقاد في مواطن كثيرة من هذا الكتاب ويكفى أن نشير الى موطن من هذه المواطن ..

في فصل " علامات مولد " تحت عنوان : بشائر الرسالة ، يناقش العقاد قضية هذه البشائر ، فيرى أكثر المؤرخين أن ميلاد الرسول

---

(١) عبقريّة محمد ص ١٢١ .

صلى الله عليه وسلم قد سبقته ارهاصات ومشارت ودلائل تدل على قرب ميلاده من أمثال تلك المعجزات والخوارق التي أفاض فيها المؤرخون .  
أو من أمثال تلك المعجزات والخوارق التي صاحبت ميلاده - صلى الله عليه وسلم - حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام .

وسنما يرى هؤلاء المؤرخون ذلك ينكر العقاد هذه البشائر ، ولا ينكرها لأنها وقعت أو لم تقع . . . بل ينكرها ، لأنه لا يرى لها قيمة وأثرا في الدلالة على قرب ميلاد النبي أو الدلالة على صدق الرسالة . . . وإذا لم يكن لتلك الإشارات وتلك العلامات أثر أو قيمة ، فما أثرها وقيمتها في حوادث التاريخ ، ولم هذا الاهتمام الواضح بها ، والاستقصاء التام لها من قبل كتاب السيرة والمؤرخين ؟

يقول العقاد : " والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية . . . يَسْرُدُونَ ما أكدته الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ويتفرقون في الرأي واليهوى بين تفسير الايمان وتفسير العيان وتفسير المعركة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر الستة سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟ لا موضع هنا لاختلاف " (١)

ويدلل العقاد - بقوة منطق واقتناع حجة - على افتقار تلك البشارات وهاتيك العلامات للكثير والقيمة ، إذ ليس لها أثر في التدليل

---

(١) عجمية محمد ص ٢٦ و ٢٧ .

على صدق رسالة الرسول يوم نادى الرسول بها ، يقول العقاد : "فما من بشارة قط من تلك الهشارات كان لها أثر في اقتناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شاهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ، ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه . وقد ولد مع النبي عليه الصلاة والسلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا جاز للصدق أن ينسبها الى مولده ، جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره ، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين . . . يوم تأتت الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين " (١)

وحسبنا — بعد هذا المثال السابق — أن نحيل القارئ الى مواطن أخرى في الكتاب ليرى فيها قوة المنطق وقوة الاقتناع والقدرة على المناقشة والتدليل التي كان يتمتع بها العقاد ، وذلك مثل مناقشاته قضية " تعدد زوجات الرسول " وقضية : " أن الاسلام انتشر بالسيف والارهاب أو بالترغيب في الجنة وما فيها من خمر وحوار عين كما يقول المستشرقون ، وقضية : " صرع بدر وخرج الرسول لرؤيتهم " وقد سبق أن أفضنا القول في ذلك كله . .

## :: الفصل الخامس ::

### " منهج العقاد وأسس "

- ١ - الجانب التحليلي .
- ٢ - الجانب النفسي .
- ٣ - الجانب العقلي .

نستطيع أن نقول من خلال ما قدمناه من عرض وتحليل لطريقة العقاد في كتابه " عبقرية محمد " ان العقاد اتبع في كتابه هذا المنهجاً ذا جوانب ثلاثة : جانب تحليلي ، وجانب نفسي ، وجانب عقلي .

#### ١ - الجانب التحليلي :

أما أنه منهج تحليلي فما لا يخفى على ذي لب أن العقاد قد عني بتحليل جوانب الشخصية المحمدية للكشف عن آيات العظمة ودلائل العبقرية النبوية ، كما عني بتتبع خصائصها ، واستقصاء سماتها ، وهذا الجانب واضح فيما قدمناه .

#### ٢ - الجانب النفسي :

وأما أنه نفسي فلأن العقاد - في هذا الكتاب - لم يستعرض حياة الرسول وجوانبها المتعددة استعراضاً تاريخياً كما جرت بذلك عادة أكثر مؤرخي السيرة النبوية ، بل اتجه الى الجوانب النفسية في شخصية الرسول بالكشف عن آيات العظمة ودلائل العبقرية فيها ، كما راج يكشف عن بواطنها النفسية ودوافعها الداخلية ، كما راج - أيضاً - يكشف عن التصرفات والأفعال والأقوال ، وما تدل عليه من صفات نفسية ومزايا خلقية .. وهذا الجانب واضح - أيضاً - فيما قدمناه .

والذي نود أن نقوله هنا - ما هو متصل بالجانب النفسي - أن العقاد قد حاول بمنهجه النفسي أن يرجع آيات العظمة المحمدية ودلائل العبقرية النبوية الى ما يتمتع به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من ملكات نفسية وقدرات عقلية ، وأودعها الله نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يد للمجتمع أو البيئة فيها .



وارجاع الحظمة النفسية والقدرات الانسانية وما فيهما من مزايا  
وخلائق عالية الى الانسان نفسه بما وهبه الله من مزايا وخصال ، وأودع فيه  
من ملكات وقدرات — نظرية علمية حديثة ، تدعى نظرية " المبقرية —  
الفردية " أو " البطولة الفردية " .

والمقاد بهذا يحاول أن يطبق هذه النظرية الحديثة فى تحليله  
لجوانب المبقرية المحمدية ، وهو بهذا يرى أن عظمة النبى أو عبقريته  
التي فتح بها قلوب الناس ، كما فتح البلاد والأمار ، هى سليقة  
نفسية وطبيعة فطرية لا يد للهيئة أو للمجتمع أو العصر فى صنعها .

وهنا يطرح سؤال نفسه : اذا كان المقاد يرى ذلك فلم هذا  
الفصل الذى مهد به للحديث عن هذه المبقرية بالحديث عن أوضاع  
العالم الذى ظهر فيه محمد وأوضاع الأمة وأوضاع القبيلة والأسرة السعوية  
نشأ فيها الرسول . هذا الفصل الذى نشره المقاد مستقلا فى كتاب  
— بعد أن وسعه وأضاف اليه — بعنوان " : مطلع النور " ما يشتم  
منه أن لهذه الأوضاع دخلا فى صنع المبقرية المحمدية ؟ .

والجواب على ذلك هو أن هذا الفصل لم يكن سوى حديث للدلالة  
على حاجة العالم آنذاك لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس فيه  
ما يدل على تأثير محمد بهذه الأوضاع فى خلائقه وصفاته ، وليس فيه  
ما يدل على أن عبقرية محمد وليدة هذه الأوضاع . . لأن المقاد  
يرفض رفضا قاطعا كل ما يقال عن تأثير محمد بما كان يضطرب فيه العصر  
من عقائد وأفكار ، أو أنه كان التعبير الفذ عن جملة من التباسات  
الجديدة تجمعت فى عصره واستوعبها ، وجملة من الحاجات الجديدة التى  
أدركها ولهاها .

يقول العقاد : " ... لا انه لم يكن ثمرة عصره ، بل كان رد فعل لعصره لقد ظهر على الرغم من هذا العصر ، الذى لم يكن فيه الا ما يناقض محمدا ويناقض رسالته ، كان العصر عصر شرك والاسلام دين توحيد ، وكان عصر صراع قهلى عشائرى<sup>(١)</sup> ، والاسلام حركة جمعت العرب فى أمة ، وكان عصر صراع قومي ، والاسلام دين انسانى ، وكان عصر قلق واضطراب ، وقد جاء الاسلام ليحل محل ذلك الأمن والسلام وكان عصر خرافة ودجل ، والاسلام يخاطب العقل ويستند اليه<sup>(٢)</sup> .

والعقاد فى هذه النظرية يتفق مع الكاتب والفيلسوف الأسكتلندى " توماس كارليل " ( ١٧٩٥ - ١٨٨٨ م ) بل يستعير منطقته فى الدفاع عن البطولة الفردية ضد كل ما جاء به العصر الحديث من مذاهب ونظم ترد البطولة الى صنع البيهة والعصر والمجتمع .

يقول كارليل : " فشافى هذا العصر رأى باطل هو انكار وجود الأبطال ، بل كراهة وجود الأبطال . أذكر لمعشر النقاد بطلا : الامام " لوتار " مثلا ، فاذا هم قد انبروا ينتقدونه ، لا يأخذون فى اجلاله ، بل فى أخذ مقاسه ، ويسفر المقاس عنه رجلا عاديا ضعيفا ضئيلا ، ثم يقولون ان ما ينسب اليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره ، وظروف وقته ، فالوقت هو الذى أحدثه وشهره ، هو ابن الوقت ، وكل ما جرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله . هذا والله أَفْسَنُّ وَسَخَفٌ ما أقول النقاد ان الوقت هو الذى أحدث ذاك الرجل ؟ وأسفاه ! لقد طالما صاحت الأوقات : أين الهطل ؟ ولا بطل ، أين العظيم ؟ ولا عظيم ، تصرخ الأوقات : باللفتى فيذهب نداؤها صيحة

بشرا الجزل

(١) كذا نسب للجمع وهو خطأ نحوى ، لأن الجمع هنا ليس علميا ، والصواب : عَشَائِرٌ . نسبة الى عشيرة - كهيلة .  
(٢) محمد وهؤلاء ص ٩١ .

فى واد وثغفة فى رماد ، وما ذاك الا أن البطل والفتى لم يكن وقت النداء موجودا ، ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم ، وبعد أن يسمع صوت الوقت ولا مجيب ، تنهار أركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والطف ، لأن البطل لم يدرك حينما صاح يستجده ... (١)

ويمستطيع كل قارئ متأمل أن يجد أثر هذه النظرية فى كتاب " عقيدة محمد " وذلك حين يقيم المقاد المقارنات والموازنات بين ما جاء به النبی من مبادئ فى مجال الحرب ، أو فى مجال السياسة ، أو فى مجال التشريع - منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا - والمبادئ الحديثة التى يراها العالم أعظم ما جاء به العصر الحديث ، راميا من وراء هذه المقارنات والموازنات الى نسبتها للانسان المبقرى لا الى المجتمع أو العصر ، فاذا تشابهت الأعمال والأفكار فى عصرين يختلفان جدا ، كما يختلف القرن السابع الميلادى والقرن التاسع عشر ... وفى مجتمعين يختلفان جدا ، كما يختلف المجتمع العربى الهدوى فى الجاهلية ، والمجتمع الفرنسى الحديث ، كان علينا أن نرد التشابه الى وحدة المبقرات الانسانية لا الى المجتمعات والمصور المختلفة المتناقضة وأن نشهد للسابق بالمعظة والتفوق .

ففى مجال الحرب والعسكرة ، يقارن المقاد ويوازن بين قيادة النبی للحروب ، وقيادة أساطين الحرب فى العصر الحديث ، ويشبهت سبق النبی الى كثير من طرق الحرب الحديثة .. ويختار المقاد للمقارنة والموازنة فى هذا المجال قائدا من أبرع قواد العصر الحديث ، وهو " نابليون بونابرت " القائد الحربى الفرنسى العظيم ..

يقول العقاد : " ونختار أبرع القادة المحدثين ، وهو نابليون —  
بونابرت " على أسلوب حرب الحركة الذى كان هو الأسلوب الغالب فى العصور  
الماضية ، والذى ظهر فى الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة  
الأخيرة فى جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود . . . . . لأن  
اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق فى خطط النبي العسكرية ،  
بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم . . . " (١)

١ — " فنابليون كان يوجه همه الأول الى القضاء على قوة  
العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام  
المواقع . . . . . وانما كانت عنايته الكبرى منصرفة الى مهاجمة الجيش الذى  
يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان . . . . . وعند  
أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور . . . أن يختار الموقع الملائم له ،  
وأن يختار الفرصة ، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداداته .

وكان عليه السلام سابقا الى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها ،  
فكان — كما قدمنا — لا يبدأ أحدا بالعدوان ، ولكنه اذا علم بمسزم  
الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه (٢) جهدا ما تواتره الأحوال . . .  
وكان عليه السلام يحدد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقتضى على  
عزائم أعدائه بالقضاء عليها ، ولا يضيع الوقت فى انتظار ما يختاره أولئك  
الأعداء . . . " (٣)

٢ — " وكان نابليون يقول : ان نسبة القوة الممنوية الى الكثرة  
العددية كنسبة ثلاثة الى واحد . . . . . والنبي عليه السلام كان عظيم

(١) عبقريّة محمد ص ٥٢ .

(٢) الصواب : حتى يهاجموه ، وهجم ، متمد ولازم ، ولم ترد هاجم .

(٣) عبقريّة محمد ص ٥٢ ، ٥٣ .

الاعتماد على هذه القوة المعنوية ، التي هي في الحقيقة قوة الايمان (١) .

٣- " وكان نابليون معتدا برأيه في الفنون العسكرية ، ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه كان مع هذا الاعتماد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل المعزم على القتال ، ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع ، ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه ببدر - وألما إلى آفا - حين أشار عليه الصاب ابن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر ثم بتفوير الآبار هنا حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء ، وقيل في روايات كثيرة : انه عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة ، فحفر الخندق وعمل النبي بيديه الكريمتين في حفره (٢) .

إلى غير ذلك من تلك المقارنات والموازنات التي يسطرها العقاد في كتابه بين النبي ونابليون . . . وينتهي العقاد من هذه المقارنات والموازنات التي عقدها بين الخطط والمعدات التي سبق إليها النبي محمد ، والخطط والمعدات التي جرى عليها نابليون بعد مئات السنين - ينتهي العقاد من هذه المقارنات - أو بمهارة أصح ، يقصد العقاد من وراء هذه المقارنات والموازنات - إلى شئين :

أولا : أن هذا التشابه في الخطط والمعدات العسكرية بين قائدين مختلفين . . في عصرين مختلفين ، يرجع إلى وحدة المبادئ

---

(١) عبقريّة محمد ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٥ ، ٥٦ .

الانسانية ، لا الى المجتمعات والعصور المختلفة المتناقضة ..

ثانيا : أن سبق الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - فى الخطط العسكرية والمعدات الحربية قائدا ك نابليون اتخذ الحرب حرفة صناعة - يشهد للرسول بالمعزة والتفوق والسبق .. مع أن الرسول لم يتخذ الحرب صناعة ولا عمد اليها الا لدفع غارة واتقاء عداوة .. ومع فارق آخر : هو أن نابليون لم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغه الرسول القائد الأسمى بين رمال الصحراء ..

ويتقدم المقاد بموازنة أخرى - فى مجال الحرب والعسكرية ، ليدلل على وحدة العبقريات الانسانية - بين "هتلر" فى اعتياده على الجواسيس المؤمنين به ، وعلى ما يقومون به خلف خطوط القتال ، وبين ما حققه الرسول بمرجل واحد هو "تعميم" بنى مسعود فى هزيمة الأحزاب ، حين حاصروا المدينة ، فاستطاع أن يفرق شملهم ويشتت جمعهم لانتهازه فرصة العناصر الطبقية والعناصر التى تتألف منها جماعة الأحزاب .. وما فعله النبى - أيضا - حين أرسل عبد الله بن جحش ليهانى اليه بأخبار قريش ..



واذا كان النبى قد سبق نابليون وهتلر فى بعض الخطط الحربية ، فإن النبى قد سبق فى مجال السياسة بعض ساسة العصر الحديث وزعماءه فى خططهم السياسية .. فقد سبق "غاندى" فى فكرة " المقاومة السلبية " وذلك فى عهد الحديبية الذى تعاهد فيه على تبرك أعمال العنف بين المسلمين وبين قريش الى حين ..

يقول العقاد : " ففى عهد الحديبية تجلى تدبير محمد فسى سياسة خصومه وسياسة أتباعه ، وفى الاعتماد على السلم والمهادنة حيث يَحْسُنَان وَيَصْلِحَان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح المهادنة . . . . . وقد سمعنا كثيرا فى العصور الحديثة عن المقاومة السلبية أو المقاومة التى تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحجة . سمعنا بها فى الحركة الهندية التى قام على رأسها غاندى وتابعه فيها بعض مريديه ، حتى كان لها من الأثر فى ازعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشابغات الدامية . " (١)

وفى مجال التشريع سبق الرسول الدساتير الحديثة التى تنص على أن " الأمة مصدر السلطات " حين يقول صلى الله عليه وسلم : " كما تكونوا يول عليكم " (٢) . كما سبق الرسول أحرار الفكر المعاصرين حين يقول : " ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به " .

يقول العقاد : " واليوم يكثر اللاقطون بحرية الفكر ويحسبونهم كشافا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا فيه ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن فى كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة . . . . . فهذا الذى يحسبونه كشافا من كشوف العصر الأخير قد جرى عليه حكم النبى قبل أربعة عشر قرنا ، وشره لأمتيه فى أحاديثه حين قال عليه الصلاة والسلام : " ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به " (٣)

(١) عبقريه محمد ص : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) ليس هذا من قول الرسول الكريم ، بل هو قول الحسن البصرى ، والرواية " يولى " بالياء - راجع : " كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس " ج : ١ ص : ١٢٦ ، ١٢٧ للمحدث : اسماعيل بن محمد المجلونى الجراحى .

(٣) عبقريه محمد ص : ١٣٧ .

كما سبق الرسول صلى الله عليه وسلم الصالحين المحدثين حين قدم الرحمة على العدل ، وذلك حيث يقول : " ان الله تعالى لمّا خلق الخلق كتب بيده على نفسه ان رحمتى تغلب غضبى " .

يقول العقاد : " وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل في تطبيق الشريعة دعوة من دعوات الصالحين المحدثين لم يُتَّبَعُوا اليها ، وهي هي دعوة النبي العربي التي كررها ، ولم يَدْعُ قط الى غيرها فقال : " ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه ان رحمتى تغلب غضبى " وقال : " ان الله تعالى رفيق يحب الرفق ويمطى عليه ما لا يمطى على العنف " (١)

كما سبق الرسول صلى الله عليه وسلم الصالحين الاجتماعيين في تقريره لحقوق المرأة ، والعقاد يقارن ويوازن بين ما يقرره الاسلام للمرأة من حقوق بما في ذلك حقها في أن تعلم الناس الدين ، وحقوق المرأة في المجتمعات الحديثة خلال القرن الماضي ، فيرى أن المرأة المسلمة كانت الى القرن الماضي تتمتع بما لا تتمتع به المرأة الأوروبية ، فمنذ بضعة وثمانين عاما كانت المرأة الأوروبية محرومة من حقها الكامل في ملك العقار وحرية التقاضى ، وهو ما قرره الاسلام للمرأة منذ أرمية عشر قرنا ، بينما كانت المرأة الأوروبية في عصر الفروسية - وهو المصير الذى اشتهر باحترامه للمرأة - تزف الى الرجل فجأة لتسهل المحالقات الحربية أو لتسهل صفقة من الصفقات - بينما كانت المرأة الأوروبية على هذا الحال ، كان النبي يقول فيها يقول للمسلمين قبل ذلك بمسدة قرون : " اذا خطب أحدكم المرأة وهو يَخْضِبُ بالسواد فَلْيَمْلَمْهَا أَنَّهُ

---

(١) عبقرية محمد ص : ١٣٧ .



يخضب \*.

وينتهى العقاد من هذه المقارنات والموازنات بين الرسول والقادة  
الحرثيين أو المعظماء السياسيين أو كبار المشرعين أو المصلحين الاجتماعيين  
— الى أن الرسول قد سبق هؤلاء في خططهم الحربية وتشريعاتهم  
السياسية والاجتماعية ، وأن التشابه بينه وبينهم في تلك الخطط وهذه  
التشريعات مرده الى وحدة المبقرات الانسانية التي ترجع الى الانسان  
نفسه وما فيه من ملكات وقدرات ونزاي وصفات ، لا الى المجتمع أو العصر  
الذي يعيش فيه الانسان ..

و " كتابات العقاد مثلاً عن المبقرات والبطولات كانت تحمل طابع  
المفهوم الفهمي وربما التخريبي عن دراسة الشخصية وتحليلها المستمدة  
من نظرية " فرويد " والتي تحاول أن ترد كل تصرفات الانسان الى  
شخصيته ودوافعه الخاصة أكثر مما تعزوها الى أثر البيئة والتحول الفكري  
في مجتمعه ، ومن هنا يبدو العقاد ، وكأنما يريد أن ينسب هذه  
البطولات الى مصادر نفسية لا الى أثر الاسلام نفسه الذي حول مفاهيمهم  
وغير بيئتهم " (١)

### ٣ — الجانب العقلي :

ونصل الآن الى الجانب الثالث من جوانب منهج العقاد فـ  
" عبقرية محمد " وهو الجانب العقلي . ومعنى أنه عقلي : أن العقاد ،  
وهو يكشف عن آيات العبقرية المحمدية .. لم يشأ أن يدلل على هذه

---

(١) أضواء على الأدب العربي المعاصر ص ٢٨٢ .

الآيات الا بما يؤمن به العقل ويصدقه .. لذا راج العقاد يكشف عنها في أفعال الرسول وأقواله وتصرفاته وخلائقه .. في جميع جوانب حياته وعلاقاته .. لأن هذه الأمور لا يختلف عليها اثنان. والعقاد يهدف بكتابه هذا أن يجلو صورة العظمة الانسانية المحمدية كما يفهمها البشر ويحث يفهمها البشر ، ولم يكن يستهدف بكتابه المؤمنين بمظلة محمد ، الذين يقبلون هذه العظمة دون حاجة الى برهان أو دليل ، ويحسونها في قلوبهم التي عمرها الايمان بلا معونة من اثبات وتوكيد .

نعم . كان العقاد يستهدف من في قلوبهم مؤن ، من شاءوا ، الا يعترفوا بشيء ، ومن أرادوا ألا يؤمنوا بشيء ، كما كان يستهدف بكتابه هؤلاء الذين طفت المادة وطفى التفكير العلمي الحديث على نفوسهم وعقولهم فلم يعودوا يقبلون الا كل ما قام عليه دليل مادي أو برهان علمي .

لهؤلاء جميعا تجرد المقاد في كتابه ، فكان طبعها أن يهمل كل ما جاء في كتب السيرة من الحكايات الخارقة سواء أكانت للدلالة على تأهب العالم لاستقبال الرسول ، أم كانت للدلالة على قدرات الرسول ، وإمكاناته الخارقة ..

ومن أجل هذا راج العقاد يفتش عن عمقية الرسول وعظمته في طبائعه وخلائقه وقدراته الشخصية ، وملكاته النفسية ، وترك ما سوى ذلك من المعجزات والخوارق ، لأن المعجزات والخوارق أمور لا يتفق عليها الجميع ، أما طبائعه صلى الله عليه وسلم وخلائقه

وقدراته وملكاته فأمر يتفق عليها الجميع ، ومقياس تقاس به عظمة محمد ، حتى عند مَنْ لا يؤمنون به .. " لهذا كان تقدير محمد بالمقياس الذى يفهمه المحاصرون ويتسارى فى اقراره المسلمون وغير المسلمين نافعا ففى هذا الزمن الذى التوت فيه مقاييس التقدير <sup>(١)</sup> " <sup>(٢)</sup>

بل ان العقاد ليذهب الى ما هو أبعد من هذا فيقرر أن البشارات التى حكاها المؤرخون على أنها مقدمات للرسالة لم يكن لها من أثر فى الرسالة نفسها ، فهى لم تقدم ولم تؤخر كثيرا .. " فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى اقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ولا عرفوا أنها علامة على شئ أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة .. " <sup>(٣)</sup>

ولهذا جاء كتاب " عبقرية محمد " غفلاً من كل المعجزات والخوارق التى ساقها أكثر مؤرخى السيرة النبوية ، فلم يشر اليها العقاد من قريب أو بعيد ، لأن العقاد يرى أن عظمة النبى تظهر فى أعماله وتصرفاته وسياسته للأمور أكثر مما تظهر فى تلك المعجزات والخوارق ..

وليس معنى اغفال العقاد هذه المعجزات وتلك الخوارق أنه لا يؤمن بها أصلا ، فالمسألة ليست مسألة ايمان أو غيره ، انما المسألة أن العقاد أراد أن يدل على عظمة الرسول أمام المنكرين لها .. وخير له أن يدل عليها بالشواهد والبيئات التى لا مجال للاختلاف عليها ، بدلا من أن يلتبس الأدلة عليها من المعجزات والخوارق التى هى مجال اختلاف ومحل جدل وكلام .

(١) الصواب : المصريون .

(٢) عبقرية محمد ص ١٤ (٣) عبقرية محمد ص : ٢٧ .

## ٖٖ الفصل السادس ٖٖ

### " عبقرية محمد " فنى ميزان النقد

- ١ - قيمة الكتاب وأثره .. وبيان مكانه من الدراسات الأدبية .
- ٢ - نقد طريقة المقاد ( الاعتماد على الصفات البارزة ) .
- ٣ - نقد أسلوب المقاد ( غلبة الأسلوب العلمى المنطقى عليه ) .
- ٤ - نقد منهج المقاد ( الجانب النفسى )

١ - قيمة الكتاب وأثره .. بيان مكانه من الدراسات الأدبية :

ما لا شك فيه أن كتاب " عبقرية محمد " يعد إضافة جديدة في فن التراجم الشخصية ، أو في أدب التراجم الشخصية ، بل تعد تراجم العقاد الشخصية وعبقرياته الإسلامية بصفة عامة ، إضافة جديدة ، بما أضافه الى هذا الفن من طريقة جديدة ومنهج جديد .

ولعل اطلاق لفظ " الترجمة " على كتب العقاد هذه يعد من باب التجوز ، لأن واحدا منها لا يمكن أن يعد داخل في هذا الفن ، اذا ما حاولنا أن نقيسها بالمقاييس الفنية لهذا اللون من الأدب ، كذلك نرى أن اطلاق لفظ " السيرة " على هذه الكتب ، يعد تجوزا في التعبير ، لأن واحدا منها لا يمكن أن يندرج تحت هذا اللون من الكتابة اذا ما حاولنا أن نقيسها بالمقاييس المعروفة لهذا اللون .

فالترجمة الشخصية - كما يقول سيد قطب- : " .. فن حديث من فنون الأدب ، انفصل عن عالم التاريخ ودخل عالم الأدب من بساط الطاقة الشعورية التي يعيشها الأديب في موضوعه والقيم الفنية التي يضمنها تعبيره ، والتراجم على هذا الوضع تشتمل المنصرين الأساسيين <sup>(١)</sup> للعمل الأدبي : " التجربة الشعورية " و " العبارة الموحية عن هذه التجربة " .. فاذا خلت الترجمة من هذين المنصرين أو من أحدهما استحالت سيرة أو تاريخا بعيدا عن عالم الأدب . " <sup>(٢)</sup>

(١) في الأصل : الأساسيين ، وهو خطأ .

(٢) النقد الأدبي : سيد قطب ص ٨٨ .

وعلى ضوء هذا التعريف لفن الترجمة لا يمكن أن نعد عبقريّة محمد " أو غيرها من العبقريات والتراجم الشخصية التي كتبها المقاد ترجمة بهذا التعريف ، لأن التجربة الشعورية المطلوب توافرها لا تتم الا باستحضار حياة من يترجم له واحساس الكاتب بهذه الحياة وظروف بطله وحالاته النفسية .. ومحاولة استنفاد الملاحظات التي أحاطت بحياة البطل وذهبت به في تيه الوجود . واستحضارها في الذهن والشعور من حياة البطل لحظة فلحظة ..

والتجربة الشعورية — على ضوء هذا — ليست واضحة قويّة في " عبقريّة محمد " أو غيرها من العبقريات ، لأن المقاد لم يستعرض حياة من يترجم له ولم يستحضر هذه الحياة في ذهنه وشعوره لحظة فلحظة ، بل اكتفى المقاد في تراجمه وعبقرياته بالتركيز على بعض جوانب شخصياته فسلط عليها الأضواء بإبراز سمات واضحة صفات مشهورة لها دلالتها على هذه الجوانب .. التقت لها من حياة البطل ما يعززها ويؤكدها .. وما كان للتجربة أن تتم أو يكون لها وجود حقيقى بمثل هذه الصفات المشهورة أو تلك السمات البارزة التي يختارها المقاد ليكشف بعض جوانب هذه الشخصية .

والمبارة الموحية — وهى العنصر الثانى في الترجمة — توجد بوجود التجربة الشعورية قوة وضعفاً ، كذلك حال التجربة الشعورية لا يتحقق لها وجود — الا في ذهن الكاتب — ما لم تتح لها المبارة الموحية التي يصب داخلها تلك التجربة الشعورية ، وإذا اكتمل هذان العنصران أصبح تاريخ البطل حياة تمام وروحاً تتحرك ، وهذا هو الذي يعطى للترجمة قيمتها وأهميتها .. مناه على ذلك تؤكد أننا نكاد نفتقد المبارة الموحية في تراجم المقاد ، لافتقادنا التجربة الشعورية ،

هذا بالاضافة الى أن أسلوب العقاد بمباراته وألفاظه أسلوب علمي منطقي بعيد عن التعبير الموحى الجميل كما سبق أن أشرنا .

وإذا كان " عبقريه محمد " ليس ترجمة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فإن " عبقريه محمد " ليس سيرة — كما سبق أن ألمحنا — ذلك لأن السيرة تعنى أن يتتبع الكاتب حياة بطله ووقائع هذه الحياة وأحداثها مستمرا جوانب حياته المختلفة ، معتندا في ذلك على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة ، إلا أنها أغنى من التاريخ العام بالمواقف والأحاسيس ، والسيرة بذلك تحتاج الى أن يكون الكاتب جامعاً بين قدرة المصنّف وإحساس الأديب معا<sup>(١)</sup> ، كما سبق أن أوضحنا ذلك . .

وعلى ضوء هذا التعريف لفن السيرة لا يمكن أن نعد " عبقريه محمد " سيرة . . لأن العقاد لم يستعرض تاريخ حياة الرسول من جوانبها المختلفة — كما يستعرضها مؤرخو السير — ولم يكشف عن وقائعها وأحداثها ، متبعاً هذه الوقائع وتلك الأحداث في أسبابها ووجودها ونماذجها ونتائجها — كما يفعل ذلك هؤلاء المؤرخون — بل تناول جانباً واحداً من جوانب شخصيته ، وهو عبقريته صلى الله عليه وسلم .

يقول العقاد : " . . فسيرى القارئ أن " عبقريه محمد " عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها ، فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف الى السير العربية والفرنجية التي حفلت بها " المكتبة المحمدية " حتى الآن ، لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات . . . . . إنما الكتاب تقدير لعبقريه محمد بالمقدار الذي يديّن به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى " (٢)

---

(١) راجع : التاريخ والسير ص ٦١ (٢) عبقريه محمد ص ١٢ .

وإذا كان " عبقرية محمد " ليس " ترجمة " بالاصطلاح الفنى  
لذلك الكلمة ، وليس "سيرة" تاريخية بمفهوم كلمة "سيرة" فماذا يمكن  
أن يكون ذلك الكتاب ؟

ان العقاد فى " عبقرية محمد " .. بل فى عبقرياته كلها...  
لا يستعرض حياة مَنْ يترجم له بجوانبها المختلفة ، بل يستعرض جانباً  
واحداً حظى باهتمام العقاد فى تراجمه الشخصية ، وهو جانب المبقرية  
وموضع العظمة فى شخص من يترجم له .. وللعقاد فى الكشف عن هذه  
المبقرية وتلك العظمة طريقة خاصة ، بل جديدة أيضاً ، وقد أضنا القول  
فى خصائصها وسماتها عند الحديث عنها ، ولا مانع من الإشارة إليها  
هنا إشارة عاجلة فنقول :

ان العقاد يقوم بالكشف عن هذه المبقرية فى جميع جوانب  
الشخصية التى يترجم لها من خلال استعراض حياتها وما وقع فيها من  
وقائع وأحداث .. فيفتش العقاد فى أقوال تلك الشخصية وأفعالها  
وتصرفاتها عن كل ما يَنبُئُ عن آيات المبقرية ، وينتقل العقاد من هذا  
الاستعراض وذاك الاستقراء الى التقسيم الأعم والأكمل .. فيجمع التصرفات  
والأقوال فى خطوط عريضة تحدد معالم المبقرية والعظمة فى تلك  
الشخصية ، والتى تُعدُّ فى الوقت نفسه تحديداً لمعالم تلك الشخصية  
وتأكيداً لخصائصها ، وهذا ما يمكن أن يسمى بالاستقراء أو الاستقصاء  
الأفقى ..

ونستطيع أن نلمح هذا فى كتاب " عبقرية محمد " حينما حاول  
العقاد استعراض جوانب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم واستقراء  
ما فيها من أفعاله وأقواله مما يدل على عظمته وعبقريته ، ومحاولته تجميع



هذه الأفعال وتلك الأتوال فى خطوط عريضة تحدد معالم هذه المبقرية  
المحمدية وتوضح ألوانها ، ومن هنا كانت هذه الفصول التى توضح  
تلك المعالم وتبين تلك الألوان : عبقرية الداعى - عبقرية محمد العسكرية  
عبقرية محمد السياسية ... الخ .

ثم ينتقل العقاد من هذا التحديد لمعالم المبقرية وتخطيطها  
ألوانها - من خلال الاستقصاء الأفقى عنها فى جميع حياتها صلى الله  
عليه وسلم - الى استقراء رأسى بالكشف عن سمات كل معلم من تلك  
المعالم وإبراز خصائصه وألوانه .. فيتناول كل عبقرية من تلك المبقريات  
المحمدية التى وضعها من خلال الفصول التى أشرنا اليها .. بالشرح  
والتحليل والتفصيل مستعرضا ما فيها من سمات دقيقة وصفات فرعية .

ومن خلال هذا الاستقراء الأفقى والرأسى لدلائل المبقرية  
وآيات العظمة تتحدد معالم الشخصية وتبرز صورتها ، ومن هنا يمكن  
أن نسمى " عبقرية محمد " وما يشبهه من عبقريات العقاد الأخرى  
" صورة نفسية " كشفت عن أبرز معالم الشخصية وأشهر صفاتها ..

يقول سيد قطب .

" ... أما طريقة العقاد فهى جديدة على المكتبة العربية  
جدة كاملة : (فى) العلاج والطريقة معاً هى ليست " سيرة " على طريقة  
السيرة العربية ، وليست " ترجمة " على طريقة التراجم فى اللغات  
الأوربية ، إنما هى " صورة " تتألف من بضعة خطوط سريعة حاسمة  
يبرز من خلالها " انسان " (١)

---

(١) كتب وشخصيات ص : ٢٢٩ .

ويقول أيضا : " ولدينا في اللغة العربية عدة نماذج للتراجيم ليست واحدة منها مما ينطبق عليه نص الاصطلاح الحرفي " ترجمة " لدينا طريقة العقاد في رسم " صورة نفسية " للبطل بعرض خصائصه الأساسية<sup>(١)</sup> البارزة والتدليل عليها بحوادث منتقاة من تاريخه لها دلالتها على هذه الخصائص دون الدخول في تفاصيل حياته ، وتتيح خطباء ، وكتب " المبحريات " كلها من هذا الطراز " (٢) .

ويقول احسان عباس : " فالمبحريات أو ما كتبه العقاد على مثالها ليست سيرا بالمعنى الدقيق ولكنها تفسير لبعض مظاهر الشخصيات الكبيرة ، والأحداث والأقوال المتعلقة بها ، على قاعدة شبيهة بالتحليل النفسي ولمست هو ، وإنما هي لباقة في العرض ومهارة في اللبس والتفسير " (٣)

وطريقة العقاد هذه التي انتهجها في الكشف عن معالم شخصياته وتأكيد خصائصها من خلال البحث عنها من وقائع حياتهم ومن خلال تصرفاتهم وأقوالهم : من التصرف الذي قد يبدو للقارئ غير المتأمل صغيرا .. ومن الكلمة التي قد تبدو له عادية لا يأبه لها .. فيحولهما العقاد المتأمل الى خصائص وسمات لها دلالاتها الكبيرة على الشخصية .. وهذه تعد اضافة جديدة أضافها العقاد الى طرائق كتابة التراجم .

أقول : ان طريقة العقاد هذه ، وهي التقاطع للأفعال والأقوال وتحولها الى دلالات كبيرة - كما قلنا - منهج انتهجه " أندريه "

---

(١) الصواب : الأساس - بكسر الهمزة - جمع أساس - يفتحها - .

(٢) النقد الأدبي ص : ٨٩ .

(٣) فن السيرة ص : ٦٧ .

موروا " و " استيفان زفايج " و " لودفيج " كما أن طريقته في تفسير الحوادث والتصرفات والأفعال تفسيراً عقلياً — كما سبق أن أوضحنا ، عند الكلام عن منهجه — منهج سبقه إليه أشهينجلر " المفكر الألماني ، والاستاذان المعاصران <sup>(١)</sup> : أرنولد توينبي " و " بيترهم سوركس — غير أن العقاد اختلف عنهم في عدم التزام الخط التاريخي ، حين زاد عليهم التفسير النفسي والخلقى .. <sup>(٢)</sup>

" الأستاذ العقاد يفسر التصرفات على طريقة التعريف المحدد ، وهو يريحك بأعطائك النتيجة والرد على أسئلتك الحائرة وكشف الغموض الذى يلف عادة شخصية العظيم بهذا (على) حين يعرض " أندريه موروا " التصرفات في شريط ويدع لك التفسير ، كما يدع لك تلوين فكره بنفسك . أندريه موروا يشوقك ويشدك إليه حين يجعلك تلهث وراءه لمعرفة النتائج والنهايات " <sup>(٣)</sup>

وليس ما في طريقة العقاد ومنهجه في كتابة التراجم من جودة وطرافة هو كل ما أضافه ، بل أن لكل من هذه الطريقة وذاك المنهج ميزة وقيمة ..

أما الميزة ، فهي أن العقاد في تجلته لمعالم الشخصية وإبراز خصائصها يكشف لك عن سمة عامة لتلك الشخصية ، هي جماع ما تفرق من معالم تلك الشخصية وخصائصها ، وتكاد تكون السلسلة التى تنتظم فيها كل تلك المعالم وهاتيك الخصائص ، بل يكاد القارئ المتأمل

(١) تمبير خايطي ، شاع بين الناس والصواب : المصريان .

(٢) الجمال والجرية والشخصية الانسانية في أدب العقاد ص ٦٦

(٣) المرجع السابق ص : ٦٦ .

يجدها في كل معلم من تلك المعالم ، وفي كل خاصة من تلك الخصائص ، وهذه السمة العامة هي ما يسميها بعض النقاد " مفتاح الشخصية " .

يقول سيد قطب : " وميزته في هذه الدراسات أنه يعطيك " مفتاح الشخصية " التي يتناولها فتعرف على الفور " من هو " هذا الانسان <sup>(١)</sup> الذي يحدثك عنه ، وتبين سماته وملامحه ، من بين الملايين أو من بين الألوف التي <sup>(٢)</sup> ينتمي اليهم ويندمج فيهم ، كما تستطيع أن تجزم بصحة الأخبار والحوادث والأعمال التي تسبب اليه أو عـدم صحتها ولو لم تزد في دراسة العقاد له ، لأنك أصبحت تعرفه وتـدرك خصائصه وتلاحظ مزاجه وتعلم ما يمكن أن يأتي أو يدع من الأمور ، شأنك في هذا شأن صاحب الذي أطلال عشرة صاحبه فـعرف أعـقـ خـوالجـه وأدق " لوازمه " . وفي كل ما كتب العقاد عن " الشخصيات " تتضح هذه الميزة ، وانها لتتضح في كتب الدراسة الكاملة أمثال " ابن الرومي " و " سعد زغلول " ثم تبلغ أقصى درجات النضج في كتب " العبقريات " الأخيرة <sup>(٣)</sup> .

وتقول د . نعمات أحمد فؤاد : " فالعقاد يدور حول الشخصية ويُلفّ طويلاً بعين لـمـاـة وأذن مرهفة ، انه يتسقط كل حرف يخرج من فـمـها في سبيل الوقوف على سرها . . . أي : مفتاح الشخصية ، ليدخل السـيـ رحابها وشعابها ، فاتحاً به كل قول مستفلق ، أو تصرف يحتل التأويل والتعليل " . <sup>(٤)</sup>

#### الملاحـة

- (١) الصواب : من هذا الانسان : كما في قوله تعالى " ما الحاقصة " ، و " القارة ما القارة " .
- (٢) الأصوب : الذين يدل التي . (٣) كتب وشخصيات ص ٢٩٩ .
- (٤) الجمال والحرية والشخصية الانسانية في أدب العقاد ص ٧٦ .

وإذا ما رجعنا الى كتاب " عبقريه محمد " لنفتش فيه عن  
" مفتاح شخصية " الرسول صلى الله عليه وسلم ففاننا نجد هذا المفتاح  
يتجلى فى صفة " الانسان " بكل ما تحتله هذه الكلمة من معان ،  
فانسانية الرسول هى السمة العامة البارزة التى تجلت فى أعماله وأقواله ،  
وانعكست على تصرفاته وأفعاله .. فهو انسان فى دعوته .. فى حرمه ..  
فى ادارته .. فى سياسته .. فى رياسته .. فى صداقته .. فى  
معاملاته لزوجاته .. فى كل جانب من جوانب حياته ، كانت الانسانية ،  
هى سمة الرسول العامة وصفته المتميزة ..

أما القيمة فتبرز فى أن العقاد قد استطاع فى عبقرياته أن يجلس  
الجوانب المشرقة من التراث الاسلامى ، وأن يكشف القناع عن أمثلة حياة  
من البطولة النادرة والمظلة الباهرة ، وعبقرياته بذلك تعد دعوة صريحة  
الى الاعتزاز بالتراث فى صورته المشرقة . وتتجلى تجلية الجوانب المشرقة  
من التراث الاسلامى فى كتابه " عبقريه محمد " حيث كشف للقارئ الجوانب  
الانسانية والمظلة المثالية فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبرز  
ما كان يتحلى به الرسول من شيم وأخلاق ، تعدُّ منارةً للانسانية تهديها  
سواء السبيل . ومثل هذه التجلية لتلك الجوانب المشرقة تغدو للتاريخ  
قيمتها الحضارية ، لأنها قيمة انسانية ..

وتبرز هذه القيمة فى كشف العقاد فى عبقرياته — وخاصة " عبقريه  
محمد — عن كثير من قيم الاسلام ومبادئه ... التى افترى عليها  
المفكرون . (١)

---

(١) راجع: الجمال والحرية والشخصية الانسانية ص ٩٣ — ٩٨ .

وتبرز هذه القيمة - من الناحية الأدبية - فى الطريقة التى نهجها العقاد فى عبقرياته من حيث الأسلوب الجديد الذى صور به شخصياته وأبطاله .. ومن حيث المنهج الذى سلكه فى بحثه عن دلائل العبقريات الإسلامية وآيات المظنة فيها التى تجلت فى الشخصيات الإسلامية التى رسمها العقاد . وكانت عبقريات العقاد بطريقة جديدة : بأسلوبها ومنهجها فتحت جديدا فى مجال الدراسات الأدبية فى بسبب التراجع الشخصية ..

" ان عبقريات العقاد الإسلامية أجدى على الاسلام من حيث هو دين ونظام ، وعلى الأدب العربى من حيث هو تصوير وتعبير ، وعلى الأدب الانسانى من ناحية اعلاها للشماثل الانسانية من خير وحريصة واستقلال رأى وشعور بالتهمة وإيثار للمعدل .. أجدى على الدين والدنيا فى اجلائها المعقدة واحترامها العقل الانسانى من كتب كثيرة ليس فيها من الجهد والعلم والقيم .. وان أغنت فى ناحية أو أخرى معطيات العقاد التى أسداها مخلصا لله وللانسان عن ايمان<sup>(١)</sup> "



الا أن طريقة العقاد هذه التى انتهجها فى عبقرياته وتراجمه - على ما فيها من جدة وطرافة ، وما لها من ميزة وقية - لا تخلو من عيوب وأخطاء .. سواء فى الطريقة نفسها .. أو فى الأسلوب .. أو فى المنهج ..

---

(١) الجمال والحرية والشخصية الانسانية ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

## ٢ - نقد طريقة العقاد ( الاعتماد على الصفات البارزة )

اعتمد العقاد في تصوير شخصياته على إبراز الصفات المشهورة والأحداث البارزة في حياتهم ، وتجلية تلك الصفات وهذه الأحداث وترك ما سوى ذلك من صفات وأحداث قد تكون لها دلالتها الكبيرة في رسم الشخصية وتصويرها ..

وتصوير الشخصيات لا يتم بإبراز الصفات المشهورة عندها ، ولا بالتركيز على الأحداث البارزة في حياتها ، بل لابد في تصوير الشخصية من استعراض جميع الصفات والأحداث التي وقعت للبطل حتى يتم تصويره من جميع الجوانب ، فلا يترك الكاتب في ذلك صفة ولا حادثة : صغيرة أو كبيرة ، ولا سنة : مشهورة أو مغمورة ، حتى يتم تصوير الشخصية بكل أبعادها وجوانبها في جميع ملبساتها وأحوالها ، وحتى يضمن بهذا التصوير الكلى سنة القصة ، وهي سنة ضرورية للترجمة الشخصية ومعروف أن الاكتفاء في تصوير الشخصية بإبراز الصفات المشهورة والأحداث البارزة يعد استقراء ناقصا لا يكفل تصوير الشخصية تصويرا كاملا ، والاستقراء الناقص يعد عيبا ، بل خطرا من مخاطر " المنهج التاريخي " .

هذه ناحية ، وناحية أخرى : أن العقاد لا يعنى - فيما - يورد من نصوص وحوادث - بتحرير تلك النصوص ولا بتوثيق تلك الحوادث التي يرتكن إليها في رسم خطوط الشخصية .. وهذا قد يؤدي إلى أخطاء في تصوير الشخصية ..

يقول سيد قطب : " ولكن هذه الطريقة - يعنى طريقة العقاد - على ما فيها من ابداع ليست مأمونة ، لأن الغلطة الصغيرة فيها تذهب بالصورة كلها ، فهي غلطة في سنة انسانية ، لا في حادثة جزئية ،

ولا تخلو من نقص وخطر ، لأن الشخصية الانسانية ، ليست وحدة ثابتة  
فى جميع الظروف والأحوال ، فالاكثاف بالسمات البارزة والخصائص الكبيرة ،  
والحوادث المختارة ، لا يكفل تصوير الشخصية من كل جوانبها ، وفى  
جميع ملبساتها ، ولا يضمن لنا صورة من الحياة المتسلسلة للهطل كما  
عاشها أول مرة . . . أى : لا يضمن لنا سمة القصة ، وهى سمة ضرورية  
فى " ترجمة الشخصية " كما أن قلة عناية العقاد بتحرير النص  
والحوادث التى يرتكن إليها فى رسم خطوط الشخصية الأساسية (١) قد  
تقود الى أخطاء أساسية فى تصويرها ، وتنتهى الى صورة مضللة  
أو محرفة . . . (٢)

ومن خطأ الاعتماد على الاستقراء الناقص - الذى أشرنا اليه -  
يقول سيد قطب :

" فالاستقراء الناقص يؤدى بنا دائما الى خطأ فى الحكم ، ومن  
الاستقراء الناقص الاعتماد على الحوادث البارزة والظواهر الفذة التى  
لا تمثل سير الحياة الطبيعية (٣) ، فالبحر الحوادث وأبرز الظواهر ليست  
أكثر دلالة من الحوادث العامة والظواهر الصغيرة ، وما نراه نحن  
أكثر دلالة قد لا يكون كذلك فى ذاته ، بل ربما كان انجذابنا الخاص  
للإعجاب به أو الزرابة عليه هو علة ما نرى فيه من دلالة بارزة ، والأسلم  
أن نجمع أقصى ما نستطيع الحصول عليه من الظواهر والدلائل : حادثة  
أو نصا أو مستندا . . . . . وألا تصدر أحكامنا الا بعد الانتهاء من جميع  
هذه الأسانيد ، فذلك أضمن وأكمل بالصواب . . . وأضرب بعض الأمثلة

---

(١) الصواب : الشخصية الأساس - دون نسبة .

(٢) النقد الأدبى ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) الصواب : الطبيعى ، وثقا الياء خطأ .



المختصرة على خطر الاستقراء الناقص من أعمال أدبائنا المعاصرين .. (١)

استند الأستاذ العقاد من كتب " المبعريات " على بضع حوادث بارزة فذة في تاريخ بعض الشخصيات - بعضها غير مقطوع بصحته - لتصوير شخصية " بطلها " ولهذه الحوادث دلالتها من غير شك، ولكن استعراض سلسلة حياة هذه الشخصية أضمن وأكمل بصحة تصوير الشخصية .. " (٢)

وعنه أيضا يقول احسان عباس : " .. ولا يستقصى العقاد نفسى هذه النماذج، وإنما يتناول المتعارف المشهور بتفسير جديد، وهذا تصوير شديد، إذا اغتفر في بعض النواحي فلا يغتفر في دراسة الشخصيات الإسلامية، لأن الروايات عنها مبثوثة في مصادر كثيرة، بعضها يكمل بعضها أو ينقذه، فالإكتفاء بالحدود المشهورة لا يفي بالدراسة في شيء، فكم من صور وشخصيات شوهتها الروايات المشهورة، ومن خطر هذه الطريقة أن يستعملها من لم يؤت ذكاء العقاد وقسوة سفسطائيته وشوئا من فهمه النفسى، فتصبح كتابة السيرة دَجَلًا يُسَرِّزُ به التاريخ، وتحدّر معه مكانة الحقيقة الموضوعية " (٣)

\*\*\*

### ٣ - نقد أسلوب العقاد ( غلبة الأسلوب العلمى المنطقى عليه )

أسلوب العقاد - كما سبق أن أوضحنا - أسلوب علمى منطقى .. أسلوب يعتمد على المقدمات والنتائج .. على الأسباب والحصيات .. على التقسيم والتفريع .. على الشرح والتفصيل والتفسير ... على مناقشة

(١) الصواب : المعاصرين .

(٢) النقد الأدبى ص : ١٤٦ و ١٤٧ .

(٣) فن السيرة ص ٦٧ .

## العقل ومخاطبته ..

وهذا الأسلوب ان جاز في البحوث والدراسات ذوات الظاهر العلمي ، فانه لا يجوز في مجال تصوير الشخصيات ورسم النفوس ، لأن تصوير تلك الشخصيات وهذه النفوس واستعراض ما في حياتها من أحداث ووقائع لا يتم الا بتلوين هذه الشخصيات والنفوس وتلوين حياتها بما يضيفه الكاتب عليها من تجارب وأحاسيس يشعر بها نحو من يترجم له ، ولا يتم تلوين هذا كله بتلك التجربة التي يعيشها الكاتب ، الا اذا صاغ هذه التجربة في قالب أدبي جميل وبمارة معبرة موحية ، تجسم الأحداث وتصور الوقائع كأنها شائعة قائمة تدب فيها الحياة ..

أما الأساليب العلمية والتقارير المنطقية التي سار عليها العقاد فلا ترسم نفسا ولا تصور شخصية . . . فالصورة الانسانية لا تبرز بمثل هذه التقارير الحاسة التي يرسلها العقاد ولا تبرز بتلك المقدمات التي يدبجها في أول كل فصل ، ولا تظهر بوضوح من وراء تعاليم العقاد نفسه في عرض شخصياته ، ذلك التعالي الذي يجعله أسير الفلك الذهنية والتحمل الشديد . . هذا وان محمدا عليه السلام حاضر في أنفسنا بسيرته من حيث هو صديق وأب ، وزوج ورئيس عيسى (١) طبعه حتى صادق قريب ، فلا يكون موقف العقاد في عرضه لهذه الخصائص من شخصية الرسول الا موقف النائي الذي يقرر وينشئ أحكاما وقواعد ملزمة ويحدد عن الحادثة التصويرية ويستل قلمه للمناقشة والحساب ، لا للبناء الإيجابي ويستطيع القارئ المادي أن يحس بوجود " محمد الصديق " - مثلا - من الحكايات البسيطة الواردة عن

---

(١) الصواب : طبعي - يحذف الياء . وكلية بسيط - أو بسيطة -  
معناها : الواسع الكبير ، والصواب هنا : سهل أو يسير أو السهلة  
اليسيرة .

مواقفه من أصحابه أكثر مما يحس به فى فصل يكتبه العقاد عن هذه  
الناحية " (١)

\*\*\*

#### ٤ - نقد منهج العقاد ( الجانب النفسى )

قلنا - سابقا - ان منهج العقاد فى كتابه " عبقرية محمد " ذو جوانب ثلاثة ، أو يعتمد على جوانب ثلاثة : فهو منهج تحليلى عقلى نفسى ، وقد سبق - أيضا - أن أوضحنا هذه الجوانب الثلاثة . . .  
وبهنا فى هذا الموضع أن نتحدث عن الجانب الثالث من هذا المنهج ، وهو الجانب النفسى . . .

سبق أن أشرنا الى أن العقاد تناول الحديث عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال الحديث عن عبقريته ، . . . كما أشرنا - أيضا - الى أن العقاد قد تحدث عن هذه العبقرية من خلال نظرية نفسية ، هى " نظرية : العبقرية الفردية " وهى النظرية التى ترجع عظمة الانسان أو عبقريته أو بطولته الى ما فيه من ملكات وقدرات ومواهب شخصية ، لا الى الهبة أو المجتمع أو العصر ، وما فيه من عوامل ومؤثرات .

أما بالنسبة للنقطة الأولى ، وهى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال الحديث عن عبقريته - فنحب أن نقول : ان هذا اتجاه ، جارى فيه العقاد الكتاب الغربيين الذين راحوا يتحدثون

---

(١) فن السيرة : ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

عن النبي من خلال هذه الجوانب : البطولة..المبقرية .. العظيمة ..  
أو من غيرها من الجوانب .. ولعل مما يؤكد ذلك تأثير العقاد بالكتاب  
" توماس كارليل " في حديثه عن بطولة النبي ، حيث عقد فصلا لـ  
في كتابه " الأبطال " .

وهدف أولئك الكتاب الغربيين أن يبعدوا عن الرسول كل ما له  
صلة بالنبوة والرسالة ، لأنهم غير مؤمنين بتلك النبوة وتلك الرسالة ، وحتى  
يُكَوِّنُوا صورة أخرى للرسول ، قد تكون صورة " القائد " أو " البطال " أو  
" المبقرى " أو ما أشبه ذلك من صفات وألقاب ، إلا أن تكون  
تلك الصورة ، صورة النبي أو الرسول ، ولا أن يكون ذلك اللقب لقب  
النبي أو الرسول ، وذلك بقصد ترويح هذه الألقاب وتلك الصفات التي  
أطلقوها على النبي لدى المسلمين ، حتى يتربى لديهم الاحساس بهذه  
المفاهيم الغربية الغربية ، وحتى تنشأ الناشئة على هذه التربية الفكرية  
الفاسدة ، وهي إبعاد المسلمين عن جوهر شخصية الرسول ، وهي  
النبوة والرسالة ..

وقد حاولوا — أعني هؤلاء الكتاب الغربيين — أن يفسروا هذه  
المفاهيم الفاسدة ، وتلك الأفكار الالحادية في رؤوس المفكرين المسلمين ،  
فراحوا يَظْلُمُونَ هذه الأفكار وتلك المفاهيم بمعارات التقدير والاعجاب مثل :  
محمد البطال .. محمد القائد .. محمد المبقرى ، حتى يخدعوا  
هؤلاء المفكرين المسلمين عن هدفهم الحقيقي ، وهو إلغاء شخصية محمد  
النبي أو محمد الرسول من الرؤوس والأفهام ، حيث تتفاهل شخصية محمد  
النبي أو محمد الرسول في أذهان المسلمين مع مرور الزمن ، وتبرز في  
أذهانهم شخصية أو صورة " محمد المبقرى " أو " محمد القائد " أو  
" محمد البطال " ، وعندها لا ينهض أن يتصور — بطبيعة الحال —

أى سبب لتكاثر مختلف الناس والأمم من حول الرسول وانخوائهم تحت لوائه وانسياقهم فى دعوته الا التأثير بعبقريته ومقومات القيادة فى حياته. (١)

وللأسف انما كتابنا بحسن نية وراء هؤلاء الكتاب الغربيين منخدعين يهريق كلامهم عن الرسول المفضل بعبارات الاعجاب والاطمئنان فراحوا يكتبون عن الرسول صلى الله عليه وسلم مختارين صفات والألقاب عشونوا بها كتبهم من أمثال " محمد القائد " و " بطل الأبطال " و " عبقريه محمد " . . الى غير ذلك من الصفات والألقاب . مما يبدل دلالة قاطعة على تأثيرهم بأولئك الكتاب الغربيين فى مهاجمهم وأفكارهم . . كما راحوا يشرحون ويطلون هذه الصفات ويكشفون عنها ويقدّمون الرسول من خلالها ، وكأنه لم يعد هناك شئ يوصف به الرسول سوى هذه الصفات ، وكأن عظمة الرسول لا تستقى الا من هذه الصفات ، ونسبوا أو تناسوا أن الأصل والأساس فى عظمتهم ومكانته التى احتل بها مكانه فى قلوب المؤمنين به . — راجع أولا وأخيرا الى صفته الأولى ، وهى النبوة والرسالة ، لأن كل ما اعصف به الرسول من عبقريه ومطولة وقيادة ، وصفات نادرة ، وآداب انسانية سامية ، يرجع الى أنه نبي ورسول ، اذن فلا غرابة أن يأتي رسول الله على أكمل ما تتصف به الانسانية ، وعلى أتم ما ينتظر من انسان ، لأن الله قد صنعه على عينه وأعد له لرسالته .

ومن هنا نرى أنه من الخطأ أن يطلق على الرسول مثل هذه الصفات أو تلك الألقاب ، اذ يشعر اطلاق هذه الألقاب وتلك الصفات عليه صلى الله عليه وسلم بمماثلته — صلى الله عليه وسلم — لمن يطلق على

---

(١) راجع : " فقه السيرة " . لمحمد سعيد رمضان البوطى ص ١٤٨ .

عليهم أمثال هذه الألقاب من البشر العاديين ، وأن لا فرق بينهم وبينهم ، وأن عمقته أو بطولته أو قيادته من نوع تلك المبقرات أو البطولات أو القيادات ، وأنه يجرى عليه من مقاييس هذه المبقرات أو تلك البطولات أو تلك القيادات ما يجرى على غيره .

وهذا منحدر فكري خطير ، أراد به أعداء الاسلام أن يتردى فيه المسلمون .

يقول الدكتور : محمد أحمد الفمراوى . . . كتب الكاهن نسي عظمة الرسول ما كتبوا ، فلم يهلفوا الا بعض قدره ، فمن المحدثين من قارنه صلى الله عليه وسلم بأبطال التاريخ ، وخرج من المقارنة بأنه بطل الأبطال ، فأخطأ بالمقارنة والحكم سوء السبيل ، لأنه أوهم بهذه المقارنة وهذا الحكم أن الرسول والبطل من قهبل واحد ، وهو بالطبع ليس كذلك ، ولا يمكن أن يكون كذلك ، فشتان بين بطلة البطل ورسالة الرسول ، فرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، خرجت الأبطال ، وريت عظماء الرجال ، بل لم يعرف التاريخ عظمة في أبطاله تضارع أو تقارب عظمة أصحاب الرسول رضوان الله عليهم أجمعين ، وأين في التاريخ ، — الا في تاريخ الاسلام دانت له الدنيا بالنفع فأعرض عنها وعن زخرفها ، غير معتزل في جبل ، ولا مترهب في صومعة ، بل كان حاكما بين الناس بالعدل ، وسائسا ايأهم بالحق والخزم ، من غير أن يروا من دنياهم الا بمقدر القوت . ان بطلة أبطال التاريخ تتفاهل اذا قيست ببطولة أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكيف يمكن أن يحشر الأبطال مع الرسول ، ومنهم وبين أصحابه من الهمم ما بين أصحابه وبينه صلوات الله وسلامه عليه . ومن الناس من التمس في المبقرية وجه التناء على الرسول وتقديره ، ولو جعله عمقري العباقرة .

(هـ) الأوضح والأصح : وازنه ، والموازنة .

ما وفاء حقه ، بل ما زاد على أن يجعله فردا من نوع متجدد ،  
وان يكن نوعا نادرا في الناس ، فالذى يشئ بالمعقريه كالذى يشئنى  
بالبطولة ، كل قد غفل عن أن العباقرة والأبطال يوجدون في كل زمان  
ولا كذلك الانبياء والرسل ، بل أعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد  
عليه الصلاه والسلام (١)

وأما بالنسبة للنقطة الثانية ، وهى أن المقاد تناول هذه المعقريه  
من خلال نظرية " المعقريه الفردية " التى سبق أن أشرنا اليها - فنحب  
أن نقول : ان هذه النظرية ان جاز تطبيقها على العباقرة والأبطال  
الماديين ، فانه لا يصح تطبيقها على الانبياء والرسل ، ورسول الله  
محمد منهم ، لأن ما اعترف به محمد صلى الله عليه وسلم من ملكات  
وقدرات راجع الى الصفة الأولى ، وهى النبوة والرسالة ، كما سبق أن أشرنا  
فمثل هذه النظريات لا يصح أن تطبق عليه .

ومن الغريب أن نرى بعضا من الكتاب يجرون في مثل هذا الاتجاه  
ويحاولون أن يصوروا النبى من خلال المقاييس التى يطبقونها على البشر  
الماديين ، واذا كان المقاد قد تناول معقريته صلى الله عليه وسلم من  
خلال النظرية المسماة بـ " المعقريه الفردية " فان هذا البعض راجع يبحث  
عن بواعث عظمتة ومعقريته من خلال المؤثرات والموامل المحيطة به ... راجع  
يبحث عنها في بيئته ، وفي زمانه ومكانه ، كما راجع هذا البعض يبحث  
عن الموامل التى أثرت في جوانب شخصيته ، وعن الأحوال السائدة  
في عصره من دينية وسياسية وحضارية واقتصادية ... بل ذهب بعضهم  
الى أن الرسول قد تأثر بثقافات عصره ، وتعرف على معالم هذا العصر ،

---

(١) مجلة " قافلة الزيت " ص ٢٠ - المجلد الثامن والعشرون - العدد الثاني عشر .

واستطاع أن يستوعب ثقافته وأن يلم بمشاكله وأن يعرف متطلباته وما  
يحتاج إليه<sup>(١)</sup> . . . أى أنه إذا كان العقاد يرد عبقرية الرسول الى ما  
يتمتع به من ملكات نفسية وقدرات فطرية ، فان هؤلاء يردونها الى تأثر  
محمد بالبيئة والعوامل المحيطة به . أى أن الرسول عند العقاد رد فعل  
للمصر الذى ظهر فيه ، وعند هؤلاء الكتاب ثمرة لهذا المصر .

وسواء أصبحت هذه النظريات أم لم تصبح ، فان أمثال هؤلاء  
النظريات ، لا يصح أن تقاس من خلالها شخصيات الرسل والأنبياء ،  
لأن الرسل والأنبياء — وان كانوا من البشر — قد ارتقوا الى مرتبة  
النبوة والرسالة ، واتصلوا بالوحي ، والنبوة والوحي كانت لهم درجاتهم  
الخاصة ، وكان لهم تكوينهم النفسى الخاص .

\*\*\*

---

(١) من هؤلاء الكتاب الاستاذ : عبد الرحمن الشرقاوى . راجع كتابه :

" محمد رسول الحرية " .



## :: الباب الخامس ::

" السيرة والأسلوب الفلسفى التاريخى "

من خلال

كتاب " فقه السيرة " للفزائلى

- الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند الفزالى .
- الفصل الثانى : طريقة الفزالى فى " فقه السيرة " وخصائصها .
- الفصل الثالث : أسلوب الفزالى فى " فقه السيرة " وسماته .
- الفصل الرابع : كتاب " فقه السيرة " فى ميزان النقد .

ٖٖ الفصل الأول ٖٖ

---

" بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند الفزالى "

لعمل أول شيء يلفت نظر القارئ ، هو عنوان الكتاب " فقه السيرة <sup>(١)</sup> " وإذا بحثنا عن كلمة " فقه " في مادتها اللغوية نجدها — تمنى الفهم والعلم ، وفهم الشيء ، والعلم به ، يحنى الوقوف على حقائقه وأسراره ودقائقه ، وهذا هو المعنى الذى قصد اليه الكاتب حين تناول السيرة النبوية ..

ان الكاتب حين تناول السيرة النبوية فى كتابه هذا ، أراد أن يكشف عن حقائقها وأسرارها ، وأن يجلو للأبصار والبصائر ما فيها من دروس وعبر ، وأن يستخرج ما تحتوى عليه من حكم بالغة وعظومات نافعة .. حتى يقف الناس على ذلك كله ، ويستحضروا فى أذهانهم حياة الرسول الكريم المشرقة المضيئة ، الحافظة بكل ما هو مثالى نادر من جليل الصفات وجميل السمات ، والطلقة بكل مظاهر الاسلام من آداب وتشريعات وأخلاق — فيجعلوها نصب أعينهم مثلاً وقدوة تشرب أعناقهم للمتحدث عنها ، وقد شُغِفَتْ قلوبهم بها جا ، جا يترجم الى عمل وسلوك ..

ولعل هذا المقصد الذى قصده الكاتب من وراء كتابة السيرة النبوية ، والهدف الذى سعى اليه بكتابه هذا ، هو الذى حدد بالكاتب أن يتناول السيرة على هذا النحو الذى أشرنا اليه .. بل ان هذا المقصد وذاك الهدف هو الذى يجب أن يكون نصب عين كل كاتب مخلص ، يحاول أن يكتب السيرة النبوية ، ذلك لأن السيرة النبوية ليست سيرة لحياة رجل عظيم وكفى ، بل سيرة رجل اصطفاه الله ليكون رسولا ، وقد كلفه بنشر رسالة ، وأمره بتبليغها .

---

(١) ألف الأستاذ الخزالي هذا الكتاب سنة ١٩٥٢ ، حينما كان فى المدينة

المنورة وظهرت الطبعة الاولى منه سنة ١٩٥٣ .

وحياة الرسل - قبل الرسالة ومعدّها - لا بد أن تكون نمطاً  
فريداً في كل شيء قولاً وعملاً ... لذلك كانت دراسة حياتهم لا تعنى  
الوقوف على جوانب الخلقة فيهم ، أو الالمام بعناصر الكمال لديهم ،  
فتلك غاية دنيا ، ربما تكون غاية بعض المعجبين الذين يصفحون سير  
عظماء الرجال ، ليمتلوا من عناصر النهج فيها ، وليتأبعوا بأعجاب مسالكها  
في الحياة ..

أما حياة الرسل والأنبياء ، فإن دراستها تعنى شيئاً أسمى من  
هذا وأرفع ، ... تعنى دراستها الوقوف على أسرارها ودروسها  
وعظاتها وأن تتحول هذه الحياة - بما فيها من دروس وعظات وعبر  
وآداب وتشريعات وأخلاق - لدى كل مسلم إلى شيء إيجابي لا سلبي .  
تتحول إلى سلوك يلتزمه ومنهج في حياته ينتهجّه ، وقدوة في عمله  
يجعلها نصب عينيه .. تلك هي الغايات العليا من دراسة السيرة  
النبوية .

ووراء هذا المقصد وذاك الهدف باعث ودافع جعل الكاتب يتساءل  
السيرة على هذا النحو المشار إليه . هذا الباعث وذاك الدافع ، هو  
جهل الناس بالسيرة النبوية ..

ويعنى الكاتب بجهل الناس بالسيرة عدم معرفتهم لأسرارها ، وعدم  
وقوفهم على ما فيها من دلائل وعظات ، وما ترمز إليه من آداب الإسلام  
وتشريعاته واتخاذها مصدراً للقدوة والأُسوة ، وغاية معرفتهم بها قشور  
خفيفة ومسطحيات رقيقة لا تفنى شيئاً .

يقول الخزالي : " أن المسلمين يعرفون عن السيرة قشوراً خفيفة ،  
لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم ، وهم يحظنون النبي وصحابته عمن

تقليد موروث ومعرفة قليلة ، ويكتفون عن هذا التمثيل باجلال اللسان ،  
أو بما قلت مثونته من عمل ، ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه  
تساوى الجهل بها ..

.. انه من الظلم للحقيقة الكبرى أن تتحول الى خارقة ، ومن  
الظلم لفترة<sup>(١)</sup> نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أركان الموتى .

ان حياة محمد ليست — بالنسبة للمسلم — مسألة شخص فارغ  
أو دراسة ناقد محايد .. كلا .. كلا .. انها مصدر الأسوة الحسنة  
التي يقتضيها ، ومنهج الشريعة العظيمة التي يدين بها ، فأى حيف  
في عرض هذه السيرة ، وأى خلط في سرد أحداثها : اساءة بالفساد  
في حقيقة الايمان نفسه .. " (٢)

ومن الجهل بالسيرة النبوية ، جهل الناس بحقيقة محبة الرسول  
صلى الله عليه وسلم ، فمحبة لا تتمثل في الصلاة عليه ، أو في زيارة  
ضريحه ، أو العيش بجواره ، بقدر ما تتمثل في الاقتداء به واتباع ما  
جاء به . ان محبة الناس للرسول على هذا النحو الذي أشرنا اليه ،  
محبة سلبية ، أما محبة الرسول الايجابية ، فهي التي تتمثل في اتباعه  
والاقتداء به في حياته التي تنبع من تعاليم الاسلام وتشريعاته ..

يقول الفزالي : " ومحمد ليس قصة تتلى في يوم ميلاده ، كما  
يفعل الناس الآن ، ولا التنويه به يكون في الصلوات المخترعة التي قد  
تضم الى الفاظ الأذان ، ولا اكان حبه يكون بتأليف مدائح له أو صياغة

---

(١) أشرنا مرارا الى أن استعمال " فترة " في هذا الموطن خطأ شائع

وقع فيه الكبار والصغار .

(٢) فقه السيرة ص ٤٠

نموت مستغربة يتلوها الماشقون ويتأوهون أو لايتأوهون . فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعق من هذه الروابط الملفة المكثمة على الدين ، وما جنح المسلمون الى هذه التعابير - فى الابانة عن تعلقهم بنبيهم - الا يوم أن تركوا اللباب الملى وأعيامهم حمله ، فاكشفوا بالمظاهر والأشكال . فهدلا من الاستماع الى قصة المولد يتلوها صوت رخيم (يجب أن) ينهض المرء الى تقويم نفسه واصلاح شأنه حتى يكون قريبا من سنن محمد صلى الله عليه وسلم فى معاشه ومماده وحرمة وسلمه وظلمه وعمله ، وعاداته وعباداته .

ان المسلم الذى لا يعيش الرسول فى ضميره ، ولا تتبعه بصيرته فى عمله وتفكيره ، لا يفنى عنه أبدا أن يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم والليلة . . . فليفقه المسلمون سيرة رسولهم ، وهيبات أن يتم ذلك الا بالفقه فى الرسالة نفسها ، والادراك الحق لحياة صاحبها والالتزام الدقيق لما جاء به " (١)



وهذا الفهم الصحيح للسيرة النبوية وحسبانها مصدرا من مصادر التأسى والافتداء فى الحياة : عقيدة وسلوكا وعملا ، وهذه النظرة للرسول صلى الله عليه وسلم . . لا تتأتى الا بدراسة السيرة النبوية دراسة واعية ، مبرزة ما فيها من حكم وعبر وعظات . . ومن هنا سلك الكاتب هذه الطريقة التى تعنى بدراسة السيرة النبوية دراسة تكشف عن جوهرها وحقيقتها وتظهر ما تتطوى عليه من دروس وعبر وحكم ، حرصا

منه على أن يقدم للقارئ السيرة النبوية على الوجه الذى ينهض أن تظهر عليه ، اذ ما قيمة قراءة السيرة ودراستها والنظر فيها ، اذا لم تكن قراءتها ودراستها شيئاً دافعاً لاعتناق الحق والوفاء له . . . والى هذه الاهداف قصد الكاتب من دراسته للسيرة ، ولا غرر فالكاتب رجل داعية ، سلك طريق الدعوة منذ شبابه يدعو الى الله على بصيرة ، فهو حريص على أن يعصر الناس بمواضع أقدامهم ، حتى يعيشوا فى حياتهم على هدى وعلى صراط مستقيم . . .

يقول الخزالي : " . . . وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئاً ينمى الايمان ، ويزكى الخلق ، ويلهب الكفاح ، ويغرى باعتناق الحق والوفاء له ، ويضم ثروة طائلة من الأمثلة الرائعة لهذا كله . " (١)

ومن أجل ذلك نهج الكاتب منهجاً تربوياً يتفق مع الأهداف التى قصدها، وهو المنهج الذى يظهر فى محاولته الربط بين ماضى الأمة الاسلامية المشرق المضى وبين حاضرها المظلم المعتم ، عن طريق الموازنة بين ذلك الماضى وهذا الحاضر ، وذلك حين يوازن بين أحداث السيرة النبوية ووقائعها وبين ما يشابهها من أحداث عصرنا الحاضر .

ولا شك أن لهذا المنهج اثره فى النفس وخطره فى دفع الناس الى الاستفادة بأحداث السيرة النبوية الحافظة بالدروس والمعبر والمظات . . .

يقول الخزالي : " . . . ثم اننى أكتب وأمام عيني منظر قائمة من تأخر المسلمين العاطفى والفكرى ، فلا عجب اذا قصص وقائع السيرة بأسلوب يرمى من قرب أو من بعد الى حاضرننا المؤسف ، كلما أوردت قصة جعلتها تحصل فى طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر ، وجلال العمل " (٢)

## :: الفصل الثانى ::

### " طريقة الخزالى فى فقه السيرة " وخصائصها "

- ١ - الوحدة الموضوعية •
- ٢ - الربط بين الأحداث والوقائع •
- ٣ - تحليل الأحداث وفلسفتها •
- ٤ - تحقيق بعض الأحداث وتمحيصها •
- ٥ - إبراز الحكم واستنباط المعبر •
- ٦ - الربط بين أحداث السيرة وما يشابهها من أحداث عصرية •
- ٧ - التعليق على الأحداث والوقائع •
- ٨ - إيراد النصوص والآثار •



والغزالي في كتابه " فقه السيرة " يسلك طريقة مزدوجة يجمع فيها بين طريقتي كتاب السيرة القدامى وكتابتها المحدثين ، ولكنه لا يأخذ كل ما في الطريقة القديمة ، ولا كل ما في الطريقة الحديثة ، وإنما يأخذ من كل طريقة أحسن ما فيها ، فأخذ من الطريقة الحديثة التحليل والتعليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متناسك ، وأخذ من الطريقة القديمة إيراد النصوص والآثار ..

يقول الغزالي : " .. وقد استفدت من السير التي كتبها القدامى والمحدثون ، استفادة حسنة ، إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التحليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متناسك ، وذلك أحسن ما في طريقتهم ، والمؤرخين القدامى يعتمدون على حشد الآثار وتمحيص الأسانيد وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشؤون ، وفي هذه الملاحظات الكثيرة نفائس ذات <sup>(١)</sup> خطر ، لو أحسن الاستشهاد بها ، وإيرادها فسي موضحها .. " <sup>(٢)</sup>

ولكن كيف تم الجمع بين الطريقتين ؟

يقول الغزالي : " .. ولعلني هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد ، يجمع بين ما في كليهما من خير ، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متناسكاً ، يشد أجزاءه روح واحد ، ثم وزعت النصوص والمرويات الأخرى ، بحيث تتسق مع وحدة الموضوع ، وتمين على اتقان صورته ، وإكمال حقيقته " <sup>(٣)</sup>

---

(١) كذا ، والصواب : ذوات خطر .. لأنها وصف للجمع .

(٢) فقه السيرة ص ٤٤ .

(٣) فقه السيرة ص ٤٤ .

ومن خلال ما تقدم آنفا عن طريقة الخزالي يستطيع القارئ أن يلمح سمات هذه الطريقة وخصائصها التي يمكن أن تتجلى فيما يأتي :

### ١ - الوحدة الموضوعية :

وأول شيء يلحظه القارئ المتصفح لفصول الكتاب ، تلك الوحدة الموضوعية التي تربط بين أحداث السيرة ووقائعها ، بمعنى أنه قد جمع الأحداث والوقائع التي يمكن أن يؤلف منها موضوعا ذا وحدة فكرية ، أو موضوعية ، في فصل واحد ، بعنوان واحد ، تندرج تحته تلك الأحداث والوقائع ، معنونة بأسمائها .

أو بعبارة أخرى نقول : أنه قد جمع الأحداث والوقائع التي يمكن أن تكون مرحلة من مراحل أحداث السيرة النهيوية التي لها من الخصائص والسمات ما يجعلها وحدة مستقلة - في فصل واحد أطلق عليه اسما ينطبق على ما وقع في هذا الفصل من أحداث . مع ملاحظة أنه راعى في هذا الجمع بين الأحداث والوقائع الواقعة في الفصل الواحد التسلسل الزمني لوقوعها ، فلم يذكر حادثة قبل أخرى وقعت قبلها ، كما أنسبه راعى هذا التسلسل الزمني - أيضا - في إيراد المراحل المختلفة التي تمثلها فصول الكتاب ، فلم يذكر مرحلة قبل أخرى سابقة عليها .

ويستطيع القارئ أن يلمح تلك السمة - أعني الوحدة الموضوعية - التي تربط بين أحداث السيرة النهيوية ، كما يستطيع أن يلمح ما اشتملت عليه تلك الوحدة من مراعاة التسلسل الزمني لوقوع الأحداث سواء كان بين المراحل المختلفة ، أو بين أحداث الفصل الواحد .

... يستطيع القارئ أن يلمح هذا وذاك من خلال استعراضه لفصول الكتاب . ومن خلال استعراضه لأحداث الفصل الواحد .

فصول الكتاب تتضمن منها تلك الوحدة الموضوعية — باستثناء —  
الفصل الأول الذى كان فصلا تمهيديا لا يمثل فى شيء أحداث السيرة  
النبوية ووقائعها — فهى ترد على النحو التالى : من الميلاد إلى  
المبعث — جهاد الدعوة — الهجرة الحامة : مقدماتها ونتائجها — أسس  
البناء للمجتمع الجديد — الكفاح الدامى — طور جديد — أمهات  
المؤمنين — الرفيق الأعلى ..

وواضح من هذا الترتيب للفصول على هذا النحو مراعاته لوقوعها  
الزمنى ، غير أنه مما يؤخذ عليه فى هذا الترتيب — مادام قد التزم بـ  
وضعه فصل " أمهات المؤمنين " فى مكانه هذا ، فمادام قد أراد أن يعقد  
لذلك فصلا مستقلا ، كان من الأليق أن يضعه آخر الكتاب حتى لا يحرم  
الفصول والأحداث من تسلسلها الزمنى ..

كما تتضمن الوحدة الموضوعية — اذا أمعنا النظر — فى أحداث  
الفصل الواحد ، وتتضمن معها — أيضا — سمة التسلسل الزمنى الذى  
أشرنا إليه ، ولنختار فصلا من الكتاب ، وليكن فصل " الكفاح الدامى " ،  
لنتبين مدى تلك الوحدة التى تربط بين أحداثه ووقائعها ، مرتبة حسب  
وقوعها .. فأحداث الفصل تجرى على النحو التالى : " سرايا " " سرية  
عبدالله بن جحش " — معركة بدر " — محاسبة وعتاب " — " فسى  
أعقاب بدر " — " بد " الصراع بين اليهود والمسلمين " — " مناوشات  
مع قريش " — " معركة أحد " — " عبر المحنة " — " شهيد أحد " —  
" آثار أحد " — " أجلاء بنى النضير " — " بدر الآخرة " — " دومة  
الجندل " — " حديث الافك " — " غزوة الأحزاب " — " مع قريظة " .

## ٢ - الربط بين الأحداث والوقائع :

والغزالي في تناوله لأحداث السيرة ووقائعها وعرضه وتحليله لها ، وفي انتقاله من مرحلة الى مرحلة ، ومن حالة الى أخرى - ؛ ذو منهج منطقي ، بمعنى أنه لا ينتقل من احدى مراحل السيرة أو من أحد أحداثها الى مرحلة أخرى ، أو حادث آخر ، الا بعد أن يكون قد مهد لها وله ، وهياً القارئ لها ، فتهدو مراحل السيرة وأحداثها المختلفة ، وكأنها عقد نظم في سلك واحد . .

وهذا يعنى أنه لم يتناول أحداث السيرة تناول بعض المؤرخين الذين يتناولونها دون ربط يجمعها أو تماسك يؤلف بينها ، بل انهم قد جعل من أحداث السيرة ووقائعها موضوعاً متماسكاً يشد أجزاءه ويوح واحد فهو ينتقل بالقارئ من مرحلة الى مرحلة ، أو من حدث الى آخر ، في تسلسل منطقي سليم ونسق أدبي جميل وترابط محكم متين ، حتى لا يكاد القارئ يحس انفصلاً بينهما أو فراغاً بين أجزائهما .

وهنا نسوق مثالا على ذلك ، وليكن فصل : " الهجرة : مقدماتها ونتائجها " . . فحينما يتناول الكاتب هذا الفصل من حيث هو مرحلة من مراحل السيرة النبوية - نراه يمهّد للحديث عنه بفقرات في نهاية الفصل الذى قبله - " جهاد الدعوة " - وتهدو هذه الفقرات وكأنها مقدمة له ، يشعر القارئ بعد الانتهاء منها بأنه مسوق لقراءة ما بعدها ، وكان ما بعدها نتيجة حتمية لها . .

وفي هذه الفقرات التى أوردها الكاتب في نهاية فصل " جهاد الدعوة " ، يوضح الكاتب أن الرسول لم يلق خلال ثلاثة عشر عاماً ، أذانا صاغية لدعوته ، ولا قلباً مفتوحاً لرسالة ربه ، سواء من قريش

أهل مكة أو من القبائل الأخرى التي عرض عليها الاسلام ، مما استحال  
معه نجاح أمر الدعوة ، ونشرها ، وما جعل الرسول يبحث لهذه الدعوة  
عن أرض جديدة خصبة تنمو فيها ، وتستوى على سوتها وعن قلوب جديدة  
تفتح لهذا الدين وتستجيب له ، وفي بداية فصل " الهجرة " يحدثنا  
الكاتب عن محاولة الرسول تلك ، وكيف بدأ الرسول الكريم يعرض نفسه  
على وفود يشرب القادمة الى مكة في مواسم الحج ، ويعرض عليها الاسلام ..  
وكان في اقبال أهل " يثرب " على هذا الدين واعلانهم عن نصرته  
ومؤازرته بداية لمرحلة في حياة دعوة الاسلام ، ومقدمة طبيعية لهجرة  
الرسول الى يثرب موطن أولئك الأنصار ..

يقول الفزالي في نهاية فصل : " جهاد الدعوة " : " .. مضى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم على نهجه القديم ، ينذر بالوحي كل  
من يلقى ويخوض بدعوته المباح ، ويفشى المواسم ، ويتهج الحجيج فسي  
منازلهم ويغير قدميه الى أسواق " عكاظ " و " مجنة " و " ذي المجاز " ،  
داعيا الناس الى نهد الأوثان والاستماع الى هدى القرآن ، وكان يسأل  
عن منازل القبائل قبيلة قبيلة ، ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ، ويتابعوه ،  
ويمنعوه ، وكان عمه أبو لهب يحشى وراءه ويقول : لا تطيعوه فإنه صابئ  
كذاب . فيكون جواب القبائل : أسرتك وعشيرتك أعظم بك . ثم يردونه  
أقبح الرد .

ومن القبائل التي أتاها الرسول عليه الصلاة والسلام ودعاها  
الى الله فأبى الاستجابة له : فزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ،  
وعيين ، ومنو ، النضر ، وكندة ، وكلب ، وعذرة ، والحضارة ، ومنو عامر بن  
صمصة ، ومكار بن حفصة .. الخ .. ما وجد في هؤلاء قلوبا مفتوحا  
ولا صدرا مشروحا ، بل كان الراحطون والمقيمون يتواصون بالبعد عنه ،

ويشيرون اليه بالأصابع وكان الرجل يجي من الآفاق الحميدة فيسيزوده قومه بهذه الوصاة : احذر غلام قريش .. لا يفتنك !! ومع ذلك فان الرسول عليه الصلاة والسلام — في هذا الجو القاهض — لم يغامر اليأس قلبه ، واستمر — مشابرا — في جهاد الدعوة حتى تأذن الحق أخيراً بالفرج " (٧)

وفي بداية فصل : " الهجرة : مقدماتها ونتائجها " يقول :  
 " .. حرم مشركو مكة الخير كله مُدَّجِدُوا الرسالة ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويخونها عوجاً ، ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الاسلام ، فكان الحق لا بد أن يحلو ، وأن يثوب اليه الضاللون والمخدوعون ، على شرط أن يظل أهلهم أوفياء له حراساً عليه ، صابرين محتسبين . وقد قضي الله للاسلام من استغده من البويع التي صادرت ، فأنس بعد وحشة ، واستوطن بعد غربة ، وشق طريقه في الحياة بعد أن زالت الجلايم الصلدة الدلقاة في مجراه . وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من يشرب الى مكة في موسم الحج " .. (٨)

ومن نهاية فصل " جهاد الدعوة " وبداية فصل " الهجرة " اللتين أوردناهما سابقاً — يستطيع القارئ أن يلمح مدى التراطيل بينهما بحيث لا يشعر وهو يقرأ بفواصل أو فجوة .

(١) دخول الفاء هنا خطأ ، والصواب . وجدنا الرسول .. الخ .

(٢) فقه السيرة ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) هذا أسلوب من الخطأ بمكان لأن الجواب هنا للقسم لا للشرط ،

فحذف الفاء واجب ، والصواب : أن الحق صائب ، أن يظلمه الأكابر الكتاب .

(٤) فقه السيرة ص ١٥٠ .

ويمتطيع كل قارئ أن يلمح هذا الترابط بين أغلب فصول الكتاب.

وكما حرص الكاتب على أن يربط بين مراحل السيرة النبوية

أو بين فصول الكتاب في سياق متماسك ، ونسق متصل ٠٠ - حرص على أن يربط بين أحداث المرحلة الواحدة ، أو الفصل الواحد ، في سياق متماسك ، بحيث ينتقل القارئ من حدث إلى آخر ، أو من واقعة إلى أخرى وكأنه ينتقل من مقدمة إلى نتيجة ٠٠

ونستطيع أن ندلل على هذا الربط وذاك التماسك بين أحداث

المرحلة الواحدة - بفصل الهجرة الذي أشرنا إليه آنفا ٠٠

ان القارئ لو أنعم النظر في هذا الفصل لوجد أحداثاً

ووقائع قد انتظمت في سلك واحد وسياق مترابط ، كل حدث يقود إلى ما بعده ٠٠

وقد قلنا آنفا ان بداية فصل " الهجرة " تتحدث عن التحول

الكبير الذي طرأ على حياة دعوة الاسلام حين استجابت وفود يثرب إلى هذه الدعوة دون عناء . ولكن هذه البداية تحمل في طياتها سؤالا ، هو: ما السر في استجابة وفود يثرب السريعة لدعوة الاسلام وقبولهم لها على عكس ما قولت به هذه الدعوة من أهل مكة ؟ على الرغم من أن الرسول بحث فيهم ، وهم يعلمون صدقه وأمانته ، وعلى وجه الخصوص قريش قبيلته وعشيرته التي كان طبعها أن يتوقع منها الاستجابة والعون والتأييد ؟

ان هذا السؤال في حاجة إلى جواب ، وطبعاً أن تأتي الاجابة

بعد هذه البداية مباشرة ، وتأتي الاجابة لتبين السر في ذلك ، وتعرض أنه راجع إلى طبيعة كل من مكة والمدينة وتكوين كل منهما اقتصادياً

واجتماعيا، وهو رشح كان له أعمق الأثر فى طباع السكان فيها .. ومن هنا كان طبيعيا أن تلى تلك الهداية مباشرة فقرة بعنوان : " فروق بين البلدين " (١) . وفيها يجيب عن هذا السؤال .

وأثناء تحليل الكاتب للفروق بين البلدين - تلك التى كانت سببا فى نكوص أهل مكة عن الحق ، وإقبال أهل يثرب عليه - يتحدث عن الوضع الاجتماعى فى يثرب المتمم بالتفرق والاختلاف والمداورة والبهضات بين قبائل الأوس والخزرج والذى كان سببا فى استجابة أهل يثرب السريعة للإسلام .. لعل الله أن يجمع كلمتهم بهذا الدين وذاك الرسول .

وأثناء حديث المؤلف فى هذا المجال ، يرجع الكاتب هذا الوضع الى أولئك اليهود الذين كانوا يساكنون الأوس والخزرج فى يثرب ، حين وضعوا بذرة الشقاق والتفرق بين القبيلتين ..

وطبعى أن تلى فقرة " فروق بين البلدين " التى تضمنت نصا نهائيتها إشارة الى أولئك اليهود فقرة مباشرة لها تتحدث عن صنع اليهود ومكائدهم بين الأوس والخزرج ، وأن تكون هذه الفقرة بعنوان : " صنع اليهود " (٢) .

وأثناء حديث الكاتب عن صنع اليهود ومكائدهم وشبه الشقاق بين أهل يثرب ، وما أدى اليه ذلك من فتن متلاحقة ، جعلت أهل المدينة أسرع ما يكونون الى الاسلام حين عرض عليهم .. - أثناء ذلك حدثنا الكاتب عن أولئك النفر الذين التقى بهم الرسول أول مرة ، وعرض عليهم الاسلام ، وأنهم كانوا طلائع الدعاية الموفقة للإسلام فى

---

(١) فقه السيرة ص ١٥١ .

(٢) فقه السيرة ص ١٥٣ .



يثرب فلم تهق دار الا دخلها الاسلام ولم يستدر العام ولم يقبل موسم الحج حتى خرج من يثرب اثنا عشر رجلا من الذين أسلموا — فيهم الستة الذين كلمهم الرسول في الموسم السابق — وعزموا على الاجتماع برسول الله ليؤثتوا معه اسلامهم ، فكان اجتماعهم به عند العقبة ، وكان طبعيا أن تلى فقرة " صنع اليهود " فقرة بعنوان : " بيعة العقبة الأولى " لتحديثنا عن هذا اللقاء الخطير . . (١)

وحين تناول الكاتب " بيعة العقبة الأولى " ، حدثنا أن الرسول أرسل مع وفد يثرب الاثنى عشر مصعبا يفقههم في الدين ، واستطاع مصعب بقوة ايمانه واخلاصه في دعوته وحلاوة منطوقه أن يغزو قلوب أهل يثرب ، فاذا بالانفددة ترق له وتتفتح للدين الجديد ، وحدثنا أن مصعب عاد الى الرسول بمكة قهول الموسم بخبره بما لقي الاسلام من قبول حسن في يثرب ويؤشروه أن جموعا غفيرة دخلت فيه عن اقتناع . . وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقر به العين . . ويلتقى الرسول بسبعين رجلا من أهل يثرب عند العقبة ، وطبعى أن تلى فقرة " بيعة العقبة الأولى " فقرة بعنوان : " بيعة العقبة الكبرى " لتحديثنا عن لقاء هؤلاء السبعين بالرسول الكريم . (٢)

وكانت الطلائع المسلمة من أهل يثرب الذين التقى بهم الرسول في موسم الحج ، في أول لقاء ، وفي بيعة العقبة الأولى والعقبة الكبرى — كانت هذه الطلائع المسلمة اللهفات الأولى في صنع الاسلام الجديد الذي بنى بالمدينة .

(١) فقه السيرة ص ١٥٤ .

(٢) فقه السيرة ص ١٥٦ .

اذن أصبح للاسلام وطن جديد فى يثرب .. واذا كان الاسلام قد أصبح له وطن ، فعلى كل مسلم قادر أن يسهم فى بناء هذا الوطن ، والاسهام فى بناء هذا الوطن — من قبل مسلمى أهل مكة — يكون بالهجرة اليه . وتتادى المسلمون : دلموا الى يثرب .. وأخذ المسلمون المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانا متوجهين الى الوطن الاسلامى الجديد فى يثرب .. ومن هنا كان طبعيا أن تلى فقرة " بيعة العقبة الكبرى " فقرة بعنوان : " طلائع الهجرة " (١)

وفى هذه الفقرة " طلائع الهجرة " يحدثنا الكاتب عن خوف قريش وقلقها من جراء هجرة المسلمين الى يثرب وشعورها أن الاسلام قد أضحت له دار يأوى اليها ، وحصن يحتوى به ، وأن محمدا لا بد مدرك أصحابه اليوم أو غدا ، فلتعجل به قبل أن يستدير اليها ، وأخذت تفكر فى الخلاص منه .. حين اجتمعت تتشاور فى أمره فى دار الندوة ، وطبعى أن تلى فقرة " طلائع الهجرة " فقرة بعنوان " : فى دار الندوة " (٢)

وهكذا نجد الكاتب لا يكاد ينتهى من فقرة حتى يكون قد مهد فى نهايتها للفقرة التى تليها .. بحيث تهدو فقرات الفصل الواحد — التى تمثل موضوعات متنوعة فى حلقة واحدة — مشدودا بعضها الى بعض ، فى أسلوب مترابط .. وقل مثل ذلك فى غالب فصول الكتاب ..

### ٣ — تحليل الأحداث وفلسفتها :

وتحليل الأحداث يعنى الوقوف على أسبابها وظلها ومحاولة معرفة حقيقتها وكشفها للقارئ حتى يقف عليها .

(١) فقه السيرة ص ١٦٣ .  
(٢) المصدر السابق ص ١٦٧ .

ولقد عني الفزالي بترك الناحية ، فحاول في كثير من المواضع تحليل بعض الأحداث وفلسفتها مبينا أسبابها وعللها ونختار هنا للقارئ بعض أمثلة من الكتاب ، تدليلا على هذه الخاصية وترك السمة ..

أ - فعلا حينما يتحدث الكاتب عن مستهل نشأة الرسول ، وكيف أنه أضع في قبيلة بنى سعد ، حيث كانت عادة أشرف العرب أن يرسلوا أولادهم مع المرضعات ، كي يعمش الأطفال سنوات حياتهم الأولى فسي البادية ...

... حينما يتحدث الكاتب عن هذا نراه لا يكتفى بسرد الحادثة كما يفعل كثير من كتاب السيرة ، بل نراه يحلل تلك العادة ويفلسفها ، ويقف بالقارئ على بواعثها وأسبابها .. وهي أن حياة البادية أصبحت لتنمية الأجسام وصناء العقل ، وتهية المشاعر والملكات ..

يقول الفزالي - معلا ذلك - : " .. وتنشئة الأولاد في البادية ليمرحوا في كف الطبيعة ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسس له أدنى الى تركية الفطرة وانماء الأعضاء والمشاعر وإطلاق الأفكار والمواطف (١) " .

ثم يستطرد الفزالي لينفذ الى موازنة بين تنشئة الأطفال في البادية وما تنهجه الحياة فيها من حرية وانطلاق وتركية للفطرة وانماء الأعضاء والمشاعر ، .. وتنشئتهم في المدن وما تجره الحياة فيها على الأطفال من تضيق وانغلاق وتقييد للأفكار وجهس للمشاعر والملكات ، معلا بذلك ما نراه من ضيق الصدور واضطراب الأعصاب لأولئك الذين يعيشون بعيدا عن الطبيعة البكر التي لم يفسدها تكلف المدنية والاعراق في التصنع ..

يقول الفزالي : " .. انها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها وحرمتهم لئذ التنفس العميق والهواء المنعش ، ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي تارن الحضارة الحديثة يعود — فيما يعود اليه — الى البعد عن الطبيعة والاعراق في التصنع ، ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم الى البادية لتكون عرصاتهما الفساح مدارج طفولتهم ، وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتمس مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه ، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق .. " (١)



ب — وحينما يتحدث الكاتب عن بدء الصراع بين اليهود والمسلمين وكيف أن اليهود لم يكونوا عند عهدهم مع الرسول ، فقد نقضوا هذا المعهد بانتهاك يهود بنى قينقاع كرامة امرأة عربية ، وكان هذا أول نقض لهم ، تلاه ثان وثالث ... حينما يتناول الكاتب جوانب موقف اليهود من الاسلام والمسلمين ، وأنه موقف يتسم بالحق والكراهية للاسلام والمسلمين — نرى الكاتب لا يحرض هذا الموقف عرضا تاريخيا دون أن يكشف حقيقة هذا الموقف وسر هذا الصراع ، بل نراه يحلل هذا الموقف من جانب اليهود نحو الاسلام والمسلمين ، ويفلسف سر هذا الصراع الدائر بين اليهود والاسلام ، ويضع أيدينا على أسبابه صواعقه الحقيقية ، ويرينا ان السر فيه لا يعتمد على نزعة دينية بقدر ما يعتمد على مصالح مادية وأغراض دنيوية .

يقول الفزالي : " .. ويحسن أن نتأمل في سيرة هؤلاء اليهود وسر نفقتهم الشديدة على الاسلام ونبيه ، وتحيزهم المعيب الى الوثنية في نضال الاسلام معها ..

أصحح أن نزاع اليهودية والاسلام كان سياسيا لا دينيا ؟  
وأن الانفراد بالسلطان في الجزيرة العربية هو باعث هذا الخصام الحاد ؟

ان التفلفل في فهم المواطف والمشاعر الانسانية يفسر كثيرا من المواقف الفاضحة . لقد رأينا المسلمين في مكة يتحمسون للنصرانية في صراعها مع المجوسية ، ويحزنون لانكسار الروم أمام الفرس مع أن الاسلام لم يكن قد اتصل بعد بالنصارى اتصالا يبرر<sup>(١)</sup> هذا الحما ، لكنه الشهور الطبيعي<sup>(٢)</sup> الذي ينتظر من الرجل المخلص لدينه ، فالمسلمون أصحاب كتاب يدعو الى التوحيد ، والنصارى - وان اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد وشابوا الحق بالخرافة - فهم<sup>(٣)</sup> على كل حال أهل كتاب ، ويهتمون<sup>(٤)</sup> بمرور أعلى مرتبة من عبادة النار ، فالرغبة في انتصارهم على الوثنية الصريحة الشرك ضرب من الوفاء للاسلام نفسه . ومن الاحترام للحقيقة التي معك أن تقترب مما يقرب منها وأن تهتمد عن كل ما يبعد عنها ، وقد كان المشركون من أهل مكة منطقيين مع أنفسهم حين رجحوا بانتصار الفرس وعدوه وزا لفلبة الوثنية في كافة صورها على أديان السماء جملة ..

(١) كلمة " يبرر " : لا توجد في اللغة بالمعنى المراد ، فهي خطأ مشهور ، والصواب : يسوغ .

(٢) كلمة " الطبيعي " خطأ نحوي واضح .. ولكن الكتاب يقمون فيه ، والصواب : الطبيعي .

(٣) التعبير خطأ والأسلوب ركيك ، والفاء لا تدخل على الخبر الا اذا أشبه الشرط عند سيمويه فقط ، فالصواب حذف كلمة " فهم " .

(٤) صواب الفعل هنا : يعدون ..

فما معنى أن يفضب اليهود الموحدون — كما يزعمون — من انتصار الاسلام على الشرك وَمِمَّ يُفَسِّرُ حُنُوهُمْ على القتل من عهدة الأصنام ، وسميهم الحثيث لتغليب كفة الوثنية الصربية على هذا الدين الجديد ؟

ان التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين وأن سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوى ، وأنهم لا يكثرثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة ، لأن هذه وطك : مؤخرة أمام شهواتهم الغالبة وأثرتهم اللاذبة ، ومن كم شكك القرآن الكريم فى قيمة الايمان الذى يدعيه القوم " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا : نَحْمَدُ اللَّهَ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْمِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ <sup>(١)</sup> .

والظاهر أن طوائف اليهود التى عاشت كانت عصابات من المرتزقة اتخذت الدين عنوانا لمطامع اقتصادية بعيدة ، فلما توهم أن هذه المطامع مهددة بالزوال ظهر الكفر المخبر فاذا هو كفر بالله وسائر المرسلين <sup>(٢)</sup> .

ويقول فى موضع آخر معللا مسلك اليهود هذا حين يتحدث عن المعاهدة التى أبرمها الرسول معهم عقب هجرته الى المدينة — :

" .. أكان اليهود صادقين فى موافقتهم على هذا العهد ؟ أغلب الظن أنهم لم يكونوا جادين حين ارتضوه وقبلوا انفاذه ، وأنفسه اليهود أن يرتبط الوفاء بها بمدى المنفعة المرجوة منها ، فاذا بسدا أن المعاهدة المبرمة لا تحقق المطامع البتة قل التمسك بها والتمسست

(١) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة " البقرة " .

(٢) فقه السيرة ص ٢٦٠ — ٢٦٢ .

الفرص للتدخل منها • وقد كان اليهود يبنون عظمتهم المادية والسياسية على تفرق العرب قبائل متناحرة • فلما دخل العرب في الاسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى • وتتابعت الأيام تؤكد أن الاسلام سوف يهضم من العرب أمة واحدة • • استشعر اليهود القلق وساورتهم الهـمـوم • وشرعوا يفكرون في الكيد لهذا الدين والتهيص بآتياءه • • (١)

#### ٤ — تحقيق بعض الأحداث وتحصيلها :

أحيانا يأخذ الفزالي في تحليله للأحداث وشرحه لها جانبا التحقيق • فنراه يأخذ الحادثة ويعرضها على مائدة البحث والتحقيق على أساس علمي بقصد كشفها وإظهارها على الوجه الصحيح •

ولنضرب مثلا على ذلك • تحقيقه لقصة الخرائيق • •

يأخذ الفزالي — أولا — في عرض القصة على النحو الذي صورته بعض الكتب التي دس فيها كثير من المفتريات على الرسول صلى الله عليه وسلم — ثم يدلل — ثانيا — على كذب القصة واختلاقها ثم يورد — ثالثا — القصة على النحو الصحيح الذي ورد في الكتب الصحيحة •

يقول الفزالي : " • • • • • " ويزعم بعض المغفلين أنه وقعت هـدنة حقا بين الاسلام والوثنية • أساسها أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقرب الى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمزلتها ! وأن هذه الهدنة الواقعة هي التي أعادت المسلمين من الجبهة • • • • • وماذا قال محمد عليه الصلاة والسلام في مدح الأصنام ؟ •

يجيب هؤلاء المنفلون بأنه قال : تلك الفرائق العـ...  
وان شفاعتهم لترتجى ! وأين وضع هذه الكلمات ؟ وضعها في سورة النجم  
بمقحة وسط الآيات التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام ، فأصبحت هكذا  
( أُنْزِلَتْ إِلَيْكُمْ الْكَلِمَاتُ وَالْحُزْنُ . وَمَنْ أَلْفَلَاكُ الْأُخْرَى ) (\*) تلك الفرائق العـ...  
وان شفاعتهم لترتجى . ( أَلَمْ يَكُنْ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذْ نَفَسَمَتِ  
ضِيْزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ  
سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الذَّنْبَ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . . . ) (١)

ويكون معنى الكلام على هذا : خبروني عن أصنامكم : أهى كذا  
وكذا ؟ ان شفاعتهم مرجوة ، انها أسماء لا حقائق لها ، خرافات ابتدعت  
واتهمت ما لكم جعلتموها اناثا ونسبتموها لله وانتم تكرهون نسبة الاناث  
لكم ؟ تلك قصة جائزة !!

فهل هذا كلام يصدر عن عاقل فضلا عن أن ينزل به وحى  
حكيم . . . (١)

ثم يدل الغزالي على كذب هذه القصة واختلافها وعلى سُخْفِهَا ،  
وعلى أن الكلام الذي سيقت فيه هذه القصة لا يمكن أن يصدر عن الرسول . . .

يدلل على ذلك من القرآن نفسه ، فيقول : " . . . ان محمدا  
صلى الله عليه وسلم لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه بنفسه  
الكتاب الذي جاء به . قال الله جل شأنه . . . ( وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ  
الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا يَنْكُرُ مِنْ  
أَحَدٍ عَنْهُ ) (٢) (٣)

(\*) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة " النجم " .

(١) فقه السيرة ص ١١٦ .

(٢) الآيات ٤٤ / ٤٧ من سورة " الطه " .

(٣) فقه السيرة ص ١١٦ .



ثم يورد الفزالي القصة على النحو الصحيح ، فيقول : " . . . والذي ورد في الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرأ سورة " النجم " في حفل يضم مسلمين ومشركين ، وخواتيم هذه السورة قوارح تطير لها القلوب ، فلما أخذ صوت الرسول صلى الله عليه وسلم يهدر بها ، ويرعد بندرها حتى وصل الى قول الله : ( . . . وَالْمَوْفِقَةِ أَهْوَى . فَخَشَّاهَا مَا غَشَّى . فَيَايَ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى . هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى . أَرْفَتِ الْآرِزَةَ . لِمَسَّ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةً . أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَهْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ) <sup>(١)</sup> كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخرخوا لله ساجدين مع غيرهم من المسلمين ، فلما نكسوا على رؤسهم وأحسوا أن جلال الايمان لوى زمامهم ندموا على ما كان منهم ، وأحسوا أن يعتذروا عنه بأنهم ما سجدوا مع محمد صلى الله عليه وسلم الا لأن محمدا عطس على أصنامهم بكلمة تقدير [كذا] وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون النكت للضحك من المسلمين ، ولا يستحي أحدهم . . . وهو ابن خال النبي عليه الصلاة والسلام — أن يقول له ساخرا : كَلِمَتِ الْيَوْمِ مِنَ السَّمَاءِ يَا مُحَمَّد ؟ . . . وليس أسمع من اعتذار المشركين عن سجودهم الا تصديقي هذا الاعتذار ، وقد حاول المشركون أن ينشروا فريتهم هذه ليمكروا على الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولينوشوا <sup>(٢)</sup> على الوحي ، وليوهوا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم في بعض أحيائه مال اليهم . . . وهيئات . . . فإنا الحوب التي شنها محمد صلى الله عليه وسلم على الوثنية لم تزد لها الليالي الا ضراما ، ولم تزد من عبيدها الا خصاما " <sup>(٣)</sup>

(١) الآيات ٦١/٥٣ من سورة " النجم " .

(٢) قال في القاموس : " والتشويش والمشوش والتشوش كلها لحن ووهم الجوهرى والصواب : التيهيش واليهوش والتهوش . . . فانظر . . .

(٣) فقه السيرة ص ١١٧ و ١١٨ .

### ٥ - إبراز الحكم واستنباط المعبر :

وأحيانا يأخذ التحليل للأحداث والوقائع ، جانب إبراز الحكمة واستنباط المعبرة التي يمكن أن تستخلص من الحادثة أو الواقعة ، فنرى الغزالي - في أحيان كثيرة - يُفِيض في تحليل الحادثة أو الواقعة بقصد أن يستشف ما تحتها من عبرة وحكمة ، ودرس وعظة ، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة . . .

أ - في قصة الاسراء والمعراج ، نراه يتناول هذه الحادثة بالشرح والتحليل والتعليل ، مفسفا ما فيها من المعاني والدلالات التي تدل على تكريم الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نراه بمسند ذلك - يفيض في تبيان الحكمة من الاسراء والمعراج ، وإبراز ما ترمز إليه هاتان الحادثتان من دلائل ومعبر وحكم . . .

فمن الحكمة من الاسراء والمعراج ، يقول : " . . . والله عز وجل يتيح لرسوله فرض الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستنادا اليه ، إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة ، وبهاجمون<sup>(١)</sup> سلطانهم القائم . . . . وقد علمت أن ثمره الاسراء والمعراج اطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى . . . " (٢)

وأما عن الدلائل والمعبر والحكم التي ترمز اليها هاتان الحادثتان فيقول : " وفي قصة الاسراء والمعراج تلجأ أواصر القربى بين الأنبياء كافة ، وهذا المعنى من أصول الاسلام [يتجلى في قوله تعالى]

(١) ذكرنا مرارا خطأ " هاجم " وصوابها : وبهاجمون .

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

( آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ <sup>(١)</sup> ) والتحيات المتبادلة بين النبي و إخوته السابقين توثق هذه الآصرة ، وفقى كل سماء أهل الله فيها أحد رسله ، كان النبي يستقبل فيها بهذه الكلمة : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . والخلاف بين الأنبياء وهم صنعة الأمم الجائرة عن السبيل السوى . أو بالأحرى صنعة الكهان والمطهرين بالأديان أما محمد فقد أظهر أنه مرسل لتكملة البناء الذي تصهده من سبقوه ومنح الزلازل من تصديحه <sup>(٢)</sup> .

ويقول أيضا : " وفقى ليلة الاسراء والمعراج تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين ، وهى أنه دين الفطرة ، وفقى الحديث ( ٠٠ ) ثم أتيت باناء من خمر وأنا من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال : ( أى : جبريل ) هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك <sup>(٣)</sup> . "

ثم أخذ يفيض فى تحليل هذا المعنى فيقول : " ٠٠٠ ان سلامة الفطرة لب الاسلام ، ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السيرة عليل القلب ، ان الفطرة الرديئة كالعين الحمئة لا تسيل الا قدرا وسوادا وربما أخفى هذا السواد الكره وراء ألوان زاهية ومظاهر مزوة بيسد أن ما ينطلى على الناس لا يخدع به رب الناس <sup>(٤)</sup> . "

ويقول أيضا : " وفقى المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت فى السماء لتكون مصراجا يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس

(١) بعض الآيات ٢٨٥ من سورة " البقرة "

(٢) فقه السيرة ص : ١٤٠ ، ١٤١

(٣) المصدر السابق ص : ١٤٢ .

(٤) المصدر السابق ص ١٤٢ .

وأعراض الدنيا ، والصلوات التي شرع الله : غير الصلوات التي يؤديها  
الآن كثير من الناس . وعلاقة صدق الصلاة أن تعصم صاحبها من الدنایا ،  
وأن تخلجه من البقاء عليها ان ألم بشئ منها ، فاذا كانت الصلاة  
مع تكرارها لا ترفع صاحبها الى هذه الدرجة فهي صلاة كاذبة " . (١)

ب — وحينما يتكلم الفزالي عن نشأة الرسول وأسرته ، وكيف  
ولد من أسرة زاكية المحدث نبيلة النسب نراه لا يترك الحديث عن الرسول  
وأسرته حتى يخرج منه بحكمة وعبرة ، وهي أن أصل الانسان ونسبه  
لا يفيد شيئا ولا يمنحه فضلا ما لم يكن مؤهلا له . وكأنه يريد أن يقول :  
إذا كان محمد قد اختير نبيا ورسولا ، فليس نسبه المريق هو الذي منحه  
هذا الشرف ولا أسرته النبيلة هي التي أكسبته هذا الفضل ، وهذا المعنى  
يشير الى أن النبوة ليست اكتسابا ، وأن الرسالة ليست اجتهدا ، ولكنهما  
فضل من الله ونعمة يهبهما من يشاء من عباده . . . فلا الأسرة ، ولا النسب  
بجاءل الانسان نبيا أو رسولا . يقول الفزالي : " . . . وعراة الأصل  
لا تمنح الرجل الفاضل فضلا ، كالصلب اذا ترك للصدأ يمسى لا غناء  
فيه ، أما اذا تصدته اليد الصانع فانها تهدح منه الكثير . . . " (٢)

ويبين الفزالي أنه اذا كانت عراة الأسرة أو القبيلة ليست بمانحة  
الانسان النبوة أو الرسالة — فان يُتَمَّ الانسان ليس بمانحة منهما ، وينتهى  
الى أن وجود الأب لا يمنح هذه المرتبة ، وأن عدم وجوده لا يمنحها  
ثم يزيد هذه الحقيقة وضوحا وتأكيذا حين يسوق — تدليلا عليها — قصة  
يعقوب وابنه يوسف ، يقول الفزالي : " . . . لكن الحقيقة القاسية — برغم  
حفاوة الجد الحنون — باقية ، فان محمدا يتيم ، برز الى الدنيا بعد ما

(١) فقه السيرة ص : ١٤٣

(٢) فقه السيرة ص ٥٨ .

(٣) الصحيح في هذا التعبير : " على الرغم من حفاوة " .

غادر أبوه الدنيا • ليكن • • ولنفرض عبدالله بقى حيا • • ماذا عسى كان يفعل لابنه ؟ أكان يريه ليهبه النبوة ؟ ما كان له ذلك • ان الأب غنصر واحد من عناصر شتى تتحكم فى مستقبل الطفل • وتخبر له فى الحياة مجراه • ولو كانت النبوة بالاكتماب ما قربتها حياة الوالد شبرا • فكيف وهى اصطفا ؟ كان يحقوب حيا يرزق له شيخوخته وتجربته وحكمته • بل له نهوته وقد نظر يوما ما ظم يجد يوسف قريبا منه • انه فقده فى أخطر فترات العمر<sup>(١)</sup> : فترة الضياء اللذن واليفاعة الفضة • ومع فساد البيئات التى احتوت يوسف • فقد<sup>(٢)</sup> كان باطنه ينضج بالتقى والعفاف كما يتقصد المصباح فى أعما<sup>(٣)</sup> الليل المدلهم • فلما التقى الابن بوالده بمسند لأى • رأى يحقوب ابنه نبيا صديقا •

لقد وليّ عبدالله وترك ابنه يتيما • بيد أن هذا اليتيم كان يمد من اللحظة الأولى لأمر جمل • أمر يصح به امام المصطفين الأخيار • وما الأب والجد • ما الأقربون والأبعدون • ما الأرض والسما • الا وسائل مسخرة لاتمام قدر الله وابلاغ نعمة الله من اصطنعه الله • •<sup>(٤)</sup>

ح — • • • • • ونحن يتحدث الكاتب عن الأذان • وكيف شرع • فانه يتناول بالتحليل ميلاد هذه الشميرة • والحادثة التى وقعت فى هذا الصد ثم يقول : " • • • • • هذه الكلمات الطيبة التى ترشح بين الحين والحسين ترق الأذان وتوقظ القلوب • وتصحى بالناس : هلموا الى الله • • • • • وعاشا فى رؤيا صالحة ذهن نير • فأسرع بها الى رسول الله • • • • • يروىها كما ألقىت فى روعه • لتكون ندا للمسلمين الى الصلاة • ما أقيمت على الأرض صلاة " •<sup>(٥)</sup>

(١) استعمال فتراتنا خطأ • والصواب : حقب أو أرمزة أو مدد أو سنوات •

(٢) الكلمة " فقد " هنا خطأ ويجب حذفها •

(٣) قال فى القاموس : " والأعما : الجهال جمع عى • وأغفال الأرض الستى لا عمارة بها كالمعاصى " فالأنسب : أعماق الليل •

(٤) فقه السيرة ص ٦٢ (٥) فقه السيرة ص ٢٠٣ • ٢٠٤ •

ويتحدث الغزالي أثناء تحطيمه ذلك ، أن الوحي قد جاء مقرا هذا الأذان على النحو الذي رآه الصحابي عبد الله بن زيد ، والصيغة التي سمعها ، ولا يكفى الغزالي بذلك بل يعمل ويفلس سر موافقة الوحي لما تمخضت عنه نفس هذا الصحابي من رؤيا صالحة ، ويخرج الغزالي من فلسفته هذه بحكمة ، وهي أن النفوس اذا صفت بلغت غاية التألق وقمة الحق . . . " وتجارب النفوس مع الوحي هو غاية التألق وقمة الحق ، وهو أمانة على أن الهدى أصبح غريزة فيها ، فهي تستقيم عليه في اليقظة والنوم ، وتتجه اليه على الهدية وحد التروى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربط أصحابه بالوحي النازل عليه من السماء ربطا موثقا يقرأ عليهم ، ويقرأونه عليه ، لتكون هذه المدارس اشمارا بما على الصحاب من حقوق الدعوة وتهمة الرسالة فضلا عن ضرورة الفهم والتدبر . . . " (١)

#### ٦ - الربط بين أحداث السيرة وما يشابهها من أحداث عصرية .

في أحيان كثيرة نرى الغزالي يحاول الربط بين أحداث السيرة ، وما يشابهها من أحداث عصرية ، بقصد الموازنة بينها واظهار الفرق بين ما كان عليه المسلمون في أول الاسلام . . . . وما عليه المسلمون الآن ، بين ما كان عليه المسلمون الأوائل من ايمان وتقدم . . وما عليه المسلمون الآن من ضعف في الايمان وتخلف في السلوك الصحيح . .

يقول الغزالي : " ثم أننى أكتب وأمام عيني مناظر قائمة من تأخر المسلمين العاطفي والفكري ، فلا عجب اذا قصصت وقائع السيرة

بأسلوب يومي من قرب أو من بعد الى حاضرننا المؤسف ، كلما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر وجلال العمل <sup>(١)</sup> .

ولنخترا مثله عدة من الكتاب تدليلا على هذه السمة :

أ - حينما يتحدث الفزالي عن نجاح مصعب بن عمير في نشر الاسلام في يثرب وجمع الناس عليه ، حين أرسله الرسول مع أهل يثرب - وفد بيعة العقبة الأولى - كي يفقه الناس في دينهم ، ويحمل على توسيع رقعة الاسلام في هذا البلد الجديد - حينما يحدثنا عن هذا كله .. فانه يخلص من هذا الى موازنة بين مصعب بن عمير في ايمانه بالاسلام واخلاصه في نشره ، وصدقه في جمع الناس حوله على أسس من الحق والعدل والصدق - ودعاة المسيحية اليوم من المرتزة الذين دسهم الاستعمار الغربي من أولئك المبشرين المخادعين المنافقين ، وينتهي من هذه الموازنة الى بعد البون بين داعية الاسلام - مصعب - ودعاة المسيحية ، نصعب له شرف الرسالة ، ونهل المقصد ، وسمو الهدف ، وأما أولئك الدعاة ، فيحطون بين جوانحهم - حين يدعون الناس الى مسيحيتهم - نفاقا في دعوتهم وانحطاطا في مقصدهم ، وخسة في هدفهم ..

يقول الفزالي : " .. ولا تحسبن مصعبا كأولئك المرتزة ممن المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق ، فتري الواحد منهم يتجج تحت سرير مريض ليقول له : هذه القارورة تقدمها لك المذراه . وهذا الرغيف يهديك اياه المسيح . وربما فتح مدرسة

ظاهرها الثقافة المجردة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص ، ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون ومال بهم حيث يريد .. هذا ضرب ممن التلصص الروحي يتواري تحت اسم الدعوة الى الدين ، والذين يمثلون هذه المساخر يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تهت بهم فاذا رأيت اصرارهم ومغامراتهم فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في السبر والبحر والجو .

أما مصعب فكان من ورائه نبى مضطهد ورسالة معتبرة<sup>(١)</sup> ضد القانون السائد ، وما كان يملك من وسائل الاغراء ما يطمح طلاب الدنيا ونهازي الانصرص .

كل ما لديه ثروة من الكياسة والفتنة قبسها من محمد صلى الله عليه وسلم واخلاص لله جعله يضحي بمال أسرته وجاهاها في سهول عقيدته .. ثم هذا القرآن الذى يتأنق فى تلاوته ويختير من روائعه ما يفزو به الألباب فاذا الأفئدة ترق له ، وتفتتح للدين الجديد ..<sup>(٢)</sup>

ب - وجهنا يتحدث عن نجاح المسلمين فى تأسيس وطن لهم بالمدينة - هو بالتالى وطن للإسلام - فى وقت كانت صحراء الجزيرة العربية وما حولها تنوع بالكفر والضلالة ، وذلك بفضل ايمانهم وصدقهم واخلاصهم لهذا الدين ، وتحملهم فى ذلك ما تنوء بحمله كبار النفوس والمزائم - حينما يتحدث عن ذلك ، ينفذ الغزالي الى موازنة بين هذا النجاح الذى حققه المسلمون فى اقامة وطن للإسلام بالمدينة .. والنجاح الذى حققه اليهود - فى عصرنا - باقامة وطن لهم فى

---

(١) استعمال " معتبرة " هنا خطأ ، والصواب : معدودة ، أو محسوبة أو مظلونة .

(٢) فقه السيرة ص ١٥٥ ، ١٥٦ .



فلسطين ، وينتهي من هذه الموازنة الى بعد البون بين نجاح المسلمين حينذاك .. ونجاح اليهود اليوم ، ذلك لأن المسلمين حققوا هذا النجاح بفضل عقيدتهم وجهادهم وحدهم دون مساعدة .. أما اليهود ، فلم يكن نجاحهم في اقامة هذا الوطن بسبب أنهم أصحاب عقيدة ومبدأ بل كان بسبب مساعدة الآخرين لهم من تلك الدول التي ساعدتهم .. وإذا كان لليهود أن يفخروا بذلك ، فإن أولئك المسلمين أحق منهم بهذا الفخر وأجدر ..

يقول الفزالي : " .. ان نجاح الاسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تروج بالكفر والجهالة ، هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له ، وقد تنادى المسلمون من كل مكان : هلموا الى يشرب .. فلم تكن الهجرة تخلصا فقط من الفتنة والاستهزاء ، بل كانت تعاوننا عاما على اقامة مجتمع جديد في بلد آمن .. وفي عصرنا هذا أعجب اليهود بأنفسهم وعانق بعضهم بعضا مهنتا بأنهم استطاعوا تأسيس وطن قومي لهم بعد أن عاشوا مشردين قرونا طويلا . ونحن لا ننكر جهد اليهود في اقامة هذا الوطن ولا حماس المهاجرين من كل فج للمعيش به ومحاولة احيائه واعلامه . ولكن ما أبعد البون بين ما صنعه اليهود اليوم — أو بتعبير أدق ما صنع لليهود اليوم — وما صنع الاسلام وبنوه لأنفسهم يوم هاجروا الى يشرب نجاة بدعوتهم واقامة لدولتهم .. ان اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف ، وحاكوا مؤامراتهم في ميدان السياسة الغربية الناقصة على الاسلام وأهله . فاذا بالعالم كله يهجم على فلسطين بالمال والسلاح والنساء والدهاء ، فلم يستطيع مليون عربي حصرتهم الخيانات في مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئا ، فهاموا على وجوههم في الأرض نتيجة اتفاق أمريكا وروسيا وانجلترا وفرنسا<sup>(١)</sup>

---

(١) الصواب : أمريكا وروسيا وانجلترا ، وفرنسة .

... ملوك العرب على خذلان أولئك العرب التمساء ، وذلك قمام الوطن القوي لليهود ، وشت الدعاية لتشجيع الهجرة اليه واسمدا المون له من دهاقين السياسة والمال فى أنحاء الدنيا ..

أين هذا الحضيض من رجال أخلصوا لله طواياهم وترفعت عن المآرب همهم ، وذهلوا عن المتاع المذول والأمان المتاح . واستهوتهم المثل العليا وحدها فى عالم يعج بالصم البكم ، وريطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبراة التى اعتنقوها وتحموا صاحبها المتجرد المكافح .. (١)

ح - وحينما يتحدث الفزالى عن مسجد الرسول الذى بنىء عقب هجرته الى المدينة وعن السهولة التى تم بها ، وكيف أن هذا البناء المتواضع رتب ملائكة البشر وقادة المسلمين - حينما يتحدث عن ذلك ينفذ للى موازنة بين هذا المسجد المتواضع الذى رتب صفوة البشر ، ومساجد المسلمين اليوم ذوات البناء السامق والزخرفة الجميلة ، وفى الوقت الذى تضم فيه هولين بمحيطين عما يجب أن يتربى عليه الصلص من خلائق جميلة ..

يقول الفزالى : " ... وتم المسجد فى حدود البساططة (٢) ، فراشه الرمال والحصبة ، وسقفه الجريد ، وأعمدته الجذوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وقد نُفِلْتُ الكلاب اليه فتفدو وتروى ، هذا البناء المتواضع الساذج هو الذى رتب ملائكة البشر ومؤدبى الجباهرة وملوك الدار الآخرة . فى هذا المسجد أذن الرحمن لنبى يؤم بالقرآن ، خيرة من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء من غيش الفجر الى غسق

(١) فقه السيرة ص ١٦٣ و ١٦٤ .

(٢) البساططة معناه السعة والامتداد ، ولذلك كان الخطأ فى استعمالها فاحشا ، والصواب : للمساواة أو الضرورة .

الليل • ان مكانة المسجد في المجتمع الاسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادى • فهو ساحة للعبادة ومدرسة للحلم وندوة للأدب وقد ارتبطت - بفريضة الصلاة • وصفوفها - أخلاق وتقاليد هي لباب الاسلام • لكن الناس لما أعياهم بناء النفوس على الخلائق الجميلة ، استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامة تضم مهلين أقزاما •• أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشبيدها الى تركية أنفسهم وتقويمهم فكانوا أمثلة صحيحة للاسلام (١)

د - وحينما يتحدث الفزالى عن عمل الرسول وأصحابه فى حفر الخندق • وأن الرسول كان يحفر بيده ويحمل الأتربة على عاتقه • وأن الصحابة الذين لم يألوا هذا العمل قط - قد تأسوا به وراحوا جميعا يعملون فى حفر هذا الخندق تدفعهم عقيدة • ويدفعهم اخلاص •• حينما يتحدث عن هذا يخلص الى موازنة بين عمل الرسول فى حفر الخندق وقذف الأتربة • وبين عمل بعض الزعماء فى عصرنا • حين يشاركون فى وضع حجر الأساس - مثلاً - لبناء مسجد أو مستشفى •• وينتهى من هذه الموازنة الى أن عمل الرسول يصاحبه اخلاص وصدق • وأن عمل هؤلاء الزعماء يشوبه نفاق وتشيل ••

يقول الفزالى : " •• علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة فى ساحة ممهدة ليس طريق النصر • فما عسى أن تصنع قلة مؤمنة مكافحة مع هذا السيل الدائق ؟ لذلك لجأ الى هذه المكيدة • ويروى أن الذي أشار بها سلمان الفارسى • وتقدم

رجالہ لاحکامہا وانجازہا فآخذ یحفر بیدہ ویحمل الأتربة والأحجار علی عاتقه موتأسی بہ الرجال الکبار من لم یألفوا هذا العمل قطہ فشہدت یشرب منظرا عجیبا : وجودہا ناصحة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفئوس وتحمل المکاتل وتتمری من لباسہا وزینتها لتلبس حلا من نسيج الفہار المتراکم والعرق واللغوب . . . . ان الدفاح عن الاسلام ومخافة الفتنة لو انتصر المشرکون جعلت الرسول صلی اللہ علیہ وسلم وصحابہ یعالجون هذا العمل الثقیل ونفوسہم راضیة مہتطة مع ما یلقون فیہ من عنسہ وصموة (١)

وينتقل الفزالی من الحديث عن عمل الرسول وأصحابہ فی حفر الخندق الى المقارنة بين عمل الرسول وعمل زعماء عصرنا فيقول : " ولا تحسبن عمل رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم فی تعميق الخندق وقذف أتربة من قبیل التمثیل الذی یحسنہ بعض الزعماء فی عصرنا . کلا کلا . ان الرجولة الکادحة الجادة فی أنہل صورہا کانت تقتبس من مسلك الرسول صلی اللہ علیہ وسلم فی هذه المعركة . یقول البراء : لقد واری عسنى التراب جلدة بطنہ وكان کثیر الشعر . آجل انه استغرق فی العمل مع أصحابہ ، فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثیل . " (٢)

## ٧ - التعلیق علی الأحداث والوقائع :

نستطيع أن نقول من خلال ما تقدم : ان السمات الخالصة فی طريقة الفزالی ، هی تلك السمات التي تقوم علی تحلیل الأحداث وفلسفتہا تارة ، وعلی تحقیقہا وتمحيصہا تارة أخرى ، وعلی استنباط العظيمة

(١) فقه السيرة . ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) فقه السيرة . ص ٣١٩ .

واستخراج الحكمة منها مرة ، وعلى الربط بين أحداث السيرة وما يشابهها  
من أحداث عصرية مرة ثانية .

ونستطيع أن نقول هنا : ان الغزالي - في أحيان كثيرة - كان  
يعتمد عن تلك السمات الغالبة ، فلا يتناول الأحداث على نحو ما ألفنا  
منه من تحليل وتحليل وتحقيق ، وربط بين الأحداث العصرية والأحداث  
الماضية . . بل يتناول الحادثة ويسردها سردا تاريخيا ، ثم يعلّق  
عليها بأسلوب أشبه بالأسلوب الخطابي . والأمثلة على ذلك كثيرة . .

١ - حينما يتحدث الغزالي عن أبي طالب وأثره في نصرة  
الدعوة الى الاسلام ، والمحافظة على ابن أخيه على الرغم من بقاءه على  
شركه ، . . نراه ينتقل من هذا الحديث ليعطينا صورة أخرى مقابلة  
لصورة أبي طالب ، هي صورة عمه أبي لهب ، هذا الذي وقف - من  
الدعوة وصاحبها موقف الخصومة والعداء ، وبعد أن يرسم هاتين الصورتين  
ويبين مسلك أبي لهب ، يأخذ الغزالي في التعليق على هذا المسلك  
الشائن العزري الذي وقفه أبو لهب .

يقول الغزالي - بعد استعراضه موقف أبي لهب - : . . لكن  
ما أبو لهب ؟ وما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بازاء رجل  
يحمل رسالة من الله الذي له ملك السموات والأرض ، يريد أن يعيد بها  
الرشد لعالم فقد رشد ، وأن يحويها الأوهام في حياة مرغتها الأوهام  
في الرغام . ما تجدى وقفة جهول ؟ أو غيبة مغرور ؟ في منع هذه  
الرسالة الكهيرة من المضى الى هدفها البعيد . ان الطحالب العائمة  
لا توقف السفن الماخرة . . ان الدعوة التي بدأ بها محمد صلى الله  
عليه وسلم من بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير ، بل كانت انشغال  
جديدا لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتتدفق به في رحاب الأرض السي

أن تقتنى من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء . فعاذا تصنع  
خصوصة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها ؟ (١).

ب - وحينما يتحدث الغزالي عن هجرة المسلمين من مكة إلى  
المدينة ، وما تحطوه في سبيل ذلك من صعب ومشاق ، لا يطيقها  
إلا مؤمن قوى العقيدة ، شجاع القلب ، إذ ليست رحلة ترفيهية ولا سفراً  
قاصداً ، وإنما هي رحلة شاقة تحيط بمصاحبها كل أسباب الخوف والقلق  
والهلاك . .

حينما يتحدث عن ذلك يعلق عليه بقوله : " . . ليست الهجرة  
انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء ، ولا ارتحال طالب قوت مسن  
أرض مجدبة إلى أرض مخصبة . إنها إكراه رجل آمن في سريره ، متدد  
الجدور في مكانه . . على إهدار مصالحه أو التضحية بأمواله ، والنجاة  
بشخصه فحسب ، وأشعاره - وهو يهني مركزه - بأنه مستباح منهموب  
قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها ، وأنه يسير نحو مستقبل مبهم  
لا يدري ما يتمخض عنه من قلق وأحزان ، ولو كان الأمر مفامرة فسرده  
بنفسه لقليل : مفامر طياش ، فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها  
يحمل أهله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضى الضمير رضا الوجه . .

انه الايمان الذى يزن الجبال ولا يطيش . وايمان بمن ؟ بالله  
" الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْخَزَائِرُ وَهُوَ  
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ " (٢) . هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن . أما الهشاش  
الخوار القلق فما يستطيع شيئاً من ذلك " . (٣)

(١) فقه السيرة ص ١٠٤ .

(٢) الآية ١ من سورة سبأ .

(٣) فقه السيرة ص ١٦٥ .

حـ - ونحنما يتناول الفزالي الحديث عن بيعة العقبة الكبرى وما تم فيها من مبايعة أهل يثرب الرسول على المنعة والنصرة فــــ المنشط والمكره ، واليسر والعسر . . فانه يعلق على هذه البيعة فيقول :-

” . . . . . تلكم بيعة العقبة ، وما أبرم فيها من موثيق ، ومــــ دار فيها من محاورات ، ان روى اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة قيلت ، وهذا أن المواطن الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تلى العهد . . . . . كلا . فان حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم ، والمفارم المتوقعة نظر اليها قبل المفانم الموهومة . مفانم ؟ أين موضع المفانم في هذه البيعة ؟؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحض والبذل الخالص . هؤلاء السبعون مثل لانتشار الاسلام عن طريق الفكر الحر ، والاقتناع الخالص ، فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الايمان وطمحين داعي التضحية مع أن معرفتهم بالنبي كانت لمحبة عابرة غبرت عليها الأيام وكان الظن بها أن تزول ” . (١)

#### ٨ - ايراد النصوص والآثار :

وكما اختار الفزالي من الطريقة الحديثة لدراسة السيرة - التحليل والتعليل والشرح والتفسير والربط والموازنة واستنباط ما يمكن أن يستنبط من دروس وعظــــات - اختار من الطريقة القديمة لدراسة السيرة ايراد النصوص والآثار التي عني المؤرخون القدامى بحشدها والاكتثار منها في كتب السيرة ، بل وتحصي أسانيدھا . . . . . والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار وتحصي الأسانيد ، وتسجيل ما دق وجل

---

(١) فقه السيرة ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

من الوقائع والشؤون .. (١)

ولكن ايراد الفزالي للنصوص والآثار في كتابه يختلف عن ايراد  
القدامى له .

انهم يَحْثِدُونَ الآثار ، ويكثرون من ايرادها في الموضوع الواحد  
على نحو سردى ، بقصد ايراد كل الآثار المتعلقة بهذا الموضوع أو ذاك ..  
أما الفزالي فانه يورد هذه الآثار وتلك النصوص على نحو مختلف ..  
فقد حاول أن يوزع تلك الآثار على الأحداث والوقائع بقصد الاستشهاد  
والاستدلال ، بحيث تتسق مع وحدة الموضوع وتعين على اتقان صورته  
واكمال حقيقته ..

ويستطيع القارئ أن يرى تلك النصوص والآثار منبهة في ثنايا  
الكتاب ..

ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك ..

١ - حينما يتحدث الكاتب عن حب الصحابة للرسول صلى الله  
عليه وسلم حبا فاق مدى التصور والوصف فانه يورد من النصوص ما يسدل  
على ذلك .. يقول ..

.. " على أن الذين عاشروا محمدا أجوه الى حد الهيام ، وما  
يبالون أن تتدق أعناقهم ولا يخذش له ظفر وما أجوه كذلك إلا لأن أنصبتهم  
من الكمال الذي يعشق عادة لم يرزق بمثلها بشرا ..



كان ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحب له ، قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم وقد تَغَيَّرَ لونه ، يصرف الحزن في وجهه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما غيرَ لونك ؟ فقال : يا رسول الله ، ما بى مؤز ولا وجع ، غير أنى اذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم انى اذا ذكرت الآخرة أخاف ألا أراك ، لأنك ترفع الى عليين مع النبيين ، وانى ان دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك ، وان لم أدخلها لم أرك أبدا ، فتزل قوله تعالى : ( وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ) (١) (٢)

ب - حينما يتحدث الكاتب عن عبر المحفة التى أصابت المسلمين فى أحد ، وعن الدروس التى استفادها المسلمون من خلالها ، وكيف أن تلك المعركة كانت امتحانا قاسيا كشف النقاب عن صنفين من الناس : عن المنافقين الذين انسحبوا ولم يدخلوا المعركة وعلى رأسهم عبد الله بن أبى . . . وعن المؤمنين الصادقين الذين ثبتوا فى مستقع الموت وكتبوا التاريخ بدمائهم ، وحين خدشه عن أولئك المؤمنين ، يضرب الأمثلة على هذا الصنف من المؤمنين فيورد من الأحاديث والآثار ما يدل على ذلك ، اكالا للموضوع واتقانا لصورته . .

يقول الفزالى : " . . ان الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ويوجهون زمامه بحزماتهم هم الذين صلوا هذه الحرب ، وحفظوا بها صير الاسلام فى الأرض . روى أن " خشيعة قتل ابنه فى معركة بسدر فجا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لقد أخطأتنى وقعة بسدر كنت - والله - عليها حريصا ، حتى ساهمت ابنى فى الخروج فخرج

(١) الآية ٦٩ من سورة " النساء " .  
(٢) فقه السيرة من : ٢١٢ .

فى القرعة سه سهه ، فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرى فى ثمار الجنة وأنهارها يقول : الحق بنسنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ما وعدنى ربي حقاً ، ثم قال : وقد أصبحت يارسول الله مشتاقاً الى مرافقته . وقد كبرت سننى ورق عظمى وأحببت لقاء ربي ، فادع الله يارسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة ابنى خيمنة فى الجنة ، فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام له ، فقتل بأحد شهيداً<sup>(١)</sup> . ولا يكفى بمثال بل يضرب أمثلة عدة من أمثال : عمرو بن الجموح ونمير ابن مالك فيورد النصوص والآثار الواردة فيها .

ح - ونحنما يتحدث عن معركة الأحزاب ، يصف الكاتب ليلة شاتية : ظلمة هردا وريحا كما يصف الجو النفسى الذى أحاط بالمسلمين تلك الليلة ، ثم ينتقل الكاتب من هذا الوصف الى ضرب الأمثلة ، فيسرد النصوص والآثار الدالة على ذلك .

يقول الفزالى : " . . . وكاننا كان زئير الرياح الهوج سوطاً يلهب المهاجمين<sup>(٢)</sup> حتى لا يتوانوا فى الخلاص من هذا الموقف . ونظروا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء أسوار المدينة وحوله أصحابه جاثمون فى مكائهم يرمقون الأفق بحذر ، ويرهبون الخيب بأمل ، والظلام البارد الثقيل يرين على كل شىء فى الصحراء المتروية .

قال حذيفة بن اليمان : رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قصود وأبو سفيان ومن معه فوقنا وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها ، تطن فى رباحها

(١) فقه السيرة ص ٢٨١ .

(٢) المهاجمون خطأ ، والصواب : المهاجمون .

أصوات أمثال الصواعق وما يستطيع أحدنا أن يرى أصبحه من قتامها السائد ولم يكن على جنة من المدور ولا من البرد الا هبوطاً لامراتى لا يجاوز ركبتي ، فأتانى الرسول صلى الله عليه وسلم وأنا جاث على الأرض ، فقال من هذا ؟ فقلت حذيفة ، فقال : حذيفة ؟ فتقاصرت فى مضمي وأنا أقول : يلى يا رسول الله - كراهية أن أقوم - فندبني لما يريد ، وقال : انه كائن فى التوم خبر فأتنى به ، فخرجت وأنا أشد الناس فرحاً وأشدهم قراً ، فدعا لى بخير ، فضيت لشأنى كأنما أمشى فى حمام ..  
انها حوارة الايمان وحماسة الطاعة جعلت الرجل يغلب بماطفته المتقدة نسوة الجو .. (١)

\*\*\*

والغزالى قد يلجأ أحيانا - وهو يورد النصوص والآثار - الى تفسير نص أو دليل ، خاصة اذا كان من القرآن الكريم ، فيعقب عليه بالشرح والتفسير ، حتى يعطى الموضوع حقه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نورد منها ما يلى ..

أ - حينما يتناول الكاتب الدروس المستفادة من غزوة أحد - تحت عنوان : عبر المحنة - يورد الآيات التى نزلت فيها تنبيهها وتوجيهها وعتاباً من الله للمؤمنين ، شارحاً ما فيها من المعانى والمبهر ، مبتدئاً هذا كله بموازنة بين الآيات التى نزلت فى غزوة بدر - عتاباً من الله للنبي والمؤمنين على أخذهم الفدية وتركهم قتل المشركين - وهذه الآيات التى نزلت فى غزوة أحد عقب ما أصابهم فيها .. مبيناً أن العتاب

---

(١) فقه السيرة ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

كان شديداً في الأولى ، رقيقاً في الثانية .

يقول الغزالي - بعد تناوله عبر المحنة في أحد :

”ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد ، على عكس ما نزل في بدر من آيات ، ولا غرو فحساب المنتصر - على أخطائه - أشد من حساب المنكسر في المرة الأولى ، قال : «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ» . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (١) .

أما في أحد فقال : ” مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٢) ” .  
” حسب المخطئين ما لحقهم من أضرار الهزيمة ، وفي القصاص العاجل درس يذكر المخطئ بسوء ما وقع فيه ” (٣)

ثم يأخذ الكاتب - بعد ذلك - في شرح وفلسفة الآيات التي نزلت في أحد - عتاباً من الله للمؤمنين - مبيناً ما فيها من توجيهات ودروس تنفع المؤمنين مستقبلاً ، يقول : ” وقد اتجهت الآيات التي مزج الكتاب الرقيق بالدروس النافع وطمأنة المؤمنين حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يقل قواهم ، وحسوة تشل انتاجهم (٤) ”  
” قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفَرِينَ .

(١) الآيتان ٦٢ ، ٦٨ من سورة ” الأنفال ”

(٢) الآية ١٥٢ من سورة ” آل عمران ” .

(٣) فقه السيرة ص ٢٨٥ . (٤) في الأصل : تعلمين ، والصواب ما ذكرنا .

(٥) كلمة انتاج هنا : خطأ - يقال أنتجت الناقة إذا قوت ولادتها ، والصواب نتاجهم .

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ • وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ  
الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) • (٢)

ب - ونحنما يتحدث عن غزوة تبوك ، نراه يشير الى بعض الآيات التي نزلت فيها معلقا عليها بالشرح والتفسير •• فيقول :

••• وللظروف العصية التي اكتتفت اعداد هذا الجيش ، سمى " جيش المُسَرَّة " ، والآيات التي أنزلها الله في كتابه - متعلقة بفزوة العسرة - هي أطول ما نزل في قتال بين المسلمين وخصومهم . وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الاسلام وافهمهم المسلمين مغبة تصيرهم في أداء هذه الفريضة ، واشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من شريط في حماية دينه ونصرة نبيه ، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم يعتبر (٣) مزلقة الى الردة والنفاق " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ •• " (٤) وضت الآيات تتحدث في صرامة وعنف ففضحت المنافقين وكشفت عن المترددين ، وأهانت طائب الدعة والراحة الذين آثروا ظل القمود في بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء ووحش السفر ومتاع الجلاذ •• ( فَرِيقَ الْمُخَلَّفُونَ يَمَقِّدُهُمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ : نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ •• ) (٥) (٦) "

(١) الآيات ١٣٧/١٣٩ من سورة " آل عمران " .

(٢) فقه السيرة ص ٢٨٦ .

(٣) أشرنا مرارا الى خطأ هذا التعبير وأن الصواب : يعد .

(٤) الآية ٢٨ من سورة " التوبة " .

(٥) الآية ٨١ من سورة " التوبة " (٦) فقه السيرة ص ٤٣٧ .

### ٢٢ الفصل الثالث ٢٢

٢٢ أسلوب الفزالي في " فقه السيرة " وسماته

---

١ - هل نعد " فقه السيرة " كتاب تاريخ أم كتاب أدب ؟

٢ - سمات أسلوب " فقه السيرة " :

أ - السمة الفلسفية .

ب - السمة الأدبية .

ج - السمة الخطابية .

١ - هل نعد " فقه السيرة " كتاب تاريخ أم كتاب أدب ؟

قبل أن نتحدث عن أسلوب الفزالي وخصائصه في كتاب " فقه السيرة " يرد سؤال يقول : هل نعد كتاب " فقه السيرة " كتاب تاريخ أم كتاب أدب ؟

والحقيقة أن الباحث يقع في حيرة حينما يحاول أن يضع هذا الكتاب تحت أي من هذين النوعين .. فالكتاب بطريقته ومنهجه وتقسيمه السيرة إلى مراحل وفصول يجعله يندرج تحت اسم التاريخ ، وهو بأسلوبه الذي امتاز بالاشراق والسلاسة والصياغة الجميلة مغلفا بمناطقة قوية مشبهة ، يجعله يندرج تحت اسم الأدب بالمعنى العام .

وهذا الازدواج بين التاريخ - طريقة ومنهجها - والأدب - أسلوبها وصياغة - يطلق عليه في العصر الحديث " تأديب التاريخ " ، وقلنا سابقا - أن أول من فتح هذا الباب وتناول السيرة النبوية على هذا النحو هو الدكتور محمد حسين هيكل ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك عند الحديث عن كتابه " حياة محمد " .

ولقد نحا الفزالي - في تناوله للسيرة على هذا النحو من الجمع بين النهج التاريخي والأسلوب الأدبي - نحو هيكل ، فجاء كتابه مزيجا من هذا وذاك .. وقد سبق أن قلنا أن الفزالي حاول في كتابه هذا دراسة السيرة على نهج المحدثين القائم على التحليل والتعليق والموازنة والاستنباط - أي : النهج الذي يمكن أن يسمى " النهج الفلسفي " - أي : فلسفة السيرة ، ومحاولة تحليلها وتعليلها والوقوف على حقائقها وأسرارها ... ولكن الفزالي في فلسفته للسيرة لم يحاول أن يعرضها في لفظ جاف ولا أسلوب جامد ، بل جهد أن يصب هذه

الفلسفة فى لفظ مشرق جميل وأسلوب أدبى بديع ..

ولعل مرد ذلك الى أن الغزالى لم يكن يقصد فلسفة السيرة وكفى ، بقدر ما كان يقصد بهذه الفلسفة وهذا التحليل ، استشارة العاطفة وتزكية الوجدان ، وتوجيه النفس المسلمة الى ما فى السيرة من عظات وعبر ودروس وحكم ترشد الناس — ما تمسكوا بها واتمظوا — الى الطريق المستقيم .

ومن هنا يشعر القارئ أو السامع أن فى أسلوب الغزالى قوة وحساسية ، لاسيما عندما ينبه الى موضع عظة ، أو يرشد الى موطن عبرة ، أو يوازن بين حدث وآخر . ويحسن من خلال ذلك صدق العاطفة وحرارتها وقوتها ، وإذا فاضت العاطفة على الأسلوب أحالته رقة وغزوة وجمالا وسحرا ..

ومن هنا كان دخول العاطفة فى الأسلوب — بجانب أهم الحقائق والأفكار — أو عدم دخولها ، هو الفيصل الأول بين الأسلوب الأدبى والأسلوب العلمى ..

يقول الأستاذ أحمد الشايب : " الأصل الأول الذى قام عليه الخلاف بين الأسلميين هو دخول الانفعال — أو العاطفة — فى الأسلوب الأدبى بجانب أهم الحقائق والأفكار ، وأما العلمى فان المعارف العقلية هى الأساس الأول فى بنائه ، ولما تجد للانفعال أثرا واضحا .... ، ولسنا نعدو الصواب اذا قلنا : ان الأسلوب العلمى لغة العقل والأدبى لغة العاطفة " .<sup>(١)</sup>



فصدق العاطفة عند الفزالي وهو يكتب السيرة ، ومحاولته عن طريقها إثارة الانفعال في نفوس القراء والسامعين بأحداث السيرة ، وما فيها من عظات وعبر ، ومحاولته الوقوف على بعض أحداثها وما فيها من جمال وتأثير - هي التي أكسبت أسلوب الفزالي في " فقه السيرة " طابعا أدبيا " . . . . . ولكن الغاية في الأسلوب الأدبي هي إثارة الانفعال في نفوس القراء والسامعين ، وذلك بعرض الحقائق رائعة جميلة ، كما أدركها أو تصورهما الكاتب الأديب ، وهذا يجمع الأسلوب الأدبي بين الافادة والتأثير " (١)

ومن هنا نستطيع أن نقول : ان أسلوب الفزالي في " فقه السيرة " أسلوب ذو طابع أدبي ، وان كنا نقصد بكلمة " أدب " الأدب بالمعنى العام .

وما يؤكد الطابع الأدبي في أسلوب الفزالي ، تلك النزعة الخطابية التي نلاحظها مبثوثة بكثرة أثناء عرضه وتحليله لأحداث السيرة ، ومعروف أن النزعة الخطابية من سمات الأسلوب الأدبي ، إذ يستعين بهيكل الأديب في إثارة العواطف والوجدان .

## ٢ - سمات أسلوب " فقه السيرة " :

ونستطيع بعد هذا العرض أن ننظر الى سمات أسلوب الفزالي ، فنقول : ان أسلوبه في فقه السيرة أسلوب فلسفي أدبي خطابي . .

أ - السمة الفلسفية: وهي السمة الغالبة في أسلوب الفزالي، ويستطيع القارئ أن يلمحها في أكثر من موضع، بل يراها بارزة في غالب صفحات الكتاب .. وإن كنا نريد مثالا تبرز فيه ملامح هذه السمة جلية، فليكن تحليله وفلسفته للأذان ..

يقول الفزالي: " .. الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر .. " هذه الصيحات المؤكدة تذكر الناس بالغاية الأولى من محياهم، وبالمرجع الحق بعد مماتهم، فكم ضللت البشر غايات صغيرة أركضتهم على ظهر الأرض ركض الوحوش في البراري، واجتذبت انتباههم كله، فاستفرقوا في السعى وراء الحطام .. وامتلكت عواطفهم كلها، فالحزن يقطبهم للحرمان والفرح يقطبهم بالامتلاء، ولم يشف المرء نفسه بالغميمة في هذه التوافه؟ إن صوت الحق يستخرجه من وراء هذه الحجب المتراكمة، ليلقى في روعه ما كاد ينساه، وهو تكبير سيد الوجود ورب العالمين، سيده ومولاه ..

" أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله .. "

" لقد سقط الشركاء جميعا، طالما ضرع الناس للوهم، واعتزوا بالله، وأطوا الخير فيمن لا يهلك لنفسه نفعا، وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان ذهابة، ولم الخبط في هذه المتاهات؟ إن كان المغفلون يشركون مع الله بعض خلائقه أو يؤلهونها دون الله، فالمسلمون لا يعرفون إلا الله ربنا، ولا يرون غيره موقلا .. "

" والتوحيد المحض هو النهج المعتد للغاية التي استهدفوها .. "

" ولكن من الأسوة؟ من الامام في هذه السبيل؟ من الطليعة الهادية المؤنسة، إن المؤذن يستلبي ليذكر الجواب:

" أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله .  
" سيرة هذا الرجل النبيل هي المثل الكامل لكل انسان يفتى  
الحياة الصحيحة ، ان محمدا انسان يرسم بعنته الفاضلة السلوك الفريد  
لمن اعتنق الحق وعاش له .

" وهو يهيب بكل ذى عقل أن يقبل على الخير ، وأن ينشط  
الى مرضاة ولي أمره ، وولي نعمته ، فيحث الناس أولا على أداء عبادة  
ميسورة رقيقة .

" حَيَّ عَلَى الصَّلَاة ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاة .

" هذه الصلوات هي لحظات التأمل في ضجيج الدنيا ، هي  
لحظات المآب كلما انحرف الانسان عن الجادة ، هي لحظات الخضوع  
لله ، كلما هاج بالمرء النزق وطففت على فكره الأثرة فنظر الى ما حوله ،  
وكانه اله صغير ، هي لحظات الاستمداد والالهام ، وما أفقر الانسان  
- برغم<sup>(١)</sup> غروره - الى من يلهمه الرشيد فلا يستحق ، ويمده بالقوة  
فلا يمجز ويستكين . . ثم يحث الناس أخيرا على تجنب الخيبة فسى  
شؤونهم كلها ، والخيبة انما تكون في الجهد الضائع سدى في الممسل  
الباطل لأنه خطأ ، سواء أكان الخطأ في الأداء ، أو في المقصد . .  
وهو يحذر من هذه الخيبة عندما يدعو :

" حَيَّ عَلَى الْفَلَاح ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاح .

" ويوم يخرج المصل من الانسان ، وهو صحيح في صورته ونيتته ،  
فقد أفلح ، ولو كان من أعمال الدنيا البهتة ، ألم يعلم الله نبيته

---

(١) المأثور في اللغة : على الرغم من غروره .

أن يجعل شؤون حياته ، بعد نسكه وصلاته خالصة لله ؟ .. "قُلْ  
إِنَّا صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ  
وَمَذَلِكُ أَمْرٌ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" (١)

" ولا سهيل الى ذلك الا باصغار ما عدا الله من غايات ، والتزام  
توحيده أبدا ، ومن ثم يعود الى تقرير الغاية والمنهج مرة أخرى :

" الله أكبر . الله أكبر . لا اله الا الله .

" ان كلمات الأذان تمثل العناوين البارزة لرسالة كبيرة فـ  
الاصـ<sup>(٢)</sup>ل

\* \* \*

ب — وأما السمة الأدبية : فتظهر في مواضع كثيرة من الكتاب،  
وحسب البحث أن يشير الى بعض هذه المواضع :

١ — تحت عنوان : " في غار حراء "، يصور الكاتب العزلة التي كان  
يميشها الرسول في هذا الغار المنقطع بعيدا عن لغو الحياة وصخبها  
التماسا للحق ، كما يصور نفس الرسول وهي ترتقب هذا العالم وما فيه  
من ظلام وفتن ، كما يصور حسرتها على ما وصلت اليه الانسانية من  
خسيف في الحقايد والمعاملات ، وأملها في الخائن من هذا كله ..  
كما يصور أيضا تلك المجاهدة النفسية التي أخذ بها الرسول نفسه ،  
وتلك الرياضة الروحية التي دام عليها ، حتى يَصْقُلَ قَلْبُهُ وَتَرَقَّى رُوحُهُ ..

يقول الخزالي : " .. وكان محمد صلى الله عليه وسلم يهجر  
مكة كل عام ليقتضى شهر رمضان في غار حراء ، وهو غار على مسافة بضعة

(١) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة " الأنعام " .

(٢) فقه السيرة ص ٤١٦ — ٤١٨ .

أميال من القرية الصاخبة ، في رأس جبل من هذه الجبال المشرقة على مكة والتي ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل ، ويبدأ السكـون الشامل المستغرق .

في هذه القمة السامقة المنزوية كان محمد صلى الله عليه وسلم يأخذ زاد الليالي الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجها بقواده المشوق الى رب العالمين . في هذا الغار المهيب المحجب كانت نفس كبيرة تطل من غيائها على ما تعوج به الدنيا من فتن ومفام واعتداء وانكسار ثم تتلوى حسرة وحيرة لأنها لا تدري من ذلك مخرجا ، ولا تعرف لـه علاجا . .

في هذا الغار النائي كانت عين نفاذة محصية تستعرض تـسـرات الهداة الأولين من رسل الله ، فتجده كالنجم الممتم لا يستخلص منـه المـعدن النفيس الا بعد جهد جهيد وقد يخطط التراب بالتبر فـسـا يستطيع بشر فصله عنه . .

في غار حراء كان محمد عليه الصلاة والسلام يتعبد ويصل قلبه وينقى روحه ، ويقرب من الحق جهده ، ويبتعد عن الباطل وسمه ، حتى وصل من الصفاء الى مرتبة عالية ، انعكست فيها أشعة الفيض على صفحته المجلوة ، فأمسى لا يرى رؤيا الا جاءت كـفـلق الصبح .

في هذا الغار اعـصـل محمد بالملا الأعلى . ومن قبله شهد بطن الصحراء أخا لمحمد عليه الصلاة والسلام مخرج من صرصاراً مستوحشا ، وهجتاز القفار ملتصا بالأمن والسكينة والهدى لنفسه وقومه ، فبرقت لـه من شاطئ الوادي الأيمن نار مؤنسة ، فلما فهمها (موسى) اذا النداء الأقدس يهـمـر مسامعه ويتخلل مشاعره ، " إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي \* (١)

ان شعلة من هذه النار اجتازت القرون لتتقد مرة أخرى ففى جوانب الفار الذى حوى رجلا يتحنث ويتطهر نائها بجسمه وروحه عن أرجاس الجاهلية ومساوئها ، لكن الشعلة لم تكن نارا تستدرج الناظر بل كانت نورا ينهض بين يدي وحى مبارك يسطع على القلب العانى بالالهام والهداية والتثبيت والعناية .. (٢)

٢ - وتحت عنوان : " الى دار الهجرة " - يوازن الفزالى بين عودة النبی الى المدينة ظافرا بعدما أهده الله بالفتح المبين - فتسج مكة فى العام الثامن للهجرة - . . . ومقدمه الى تلك المدينة منذ ثمانية أعوام طريدا غربا .

يقول الفزالى : " . . . لله ما أفصح المدى بين هذه الأوصية الظافرة بعد أن ترج الله هامة بالفتح المبين ، وبين مقدمه الى هذا البلد النبهل منذ ثمانية أعوام . لقد جاء مطاردا يبنى الأمان ، غربيا مستوحشا ينشد الایلاف والایناس ، فأكرم أحله مشواه ، وآووه ونصروه ، واتهموا النور الذى أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جميعا ممن أجله ، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التى استقبلته مهاجرا خائفا لتستقبله مرة أخرى وقد دانت له مكة وألقت تحت قدميه كبرياها وجاهليتها فأنهضها ليعمرها بالاسلام وعفا عن خطيئاتها الأولى " (٣)

ح - وأما السمة الخطابية : فتهدو واضحة فى ثنايا الكتاب وحسب البحث أن يشير الى بعض الأمثلة التى تدل عليها .

(١) الآية ١٤ من سورة " طه " .

(٢) فقه السيرة ص ٨٨ ، ٨٩ (٣) المصدر السابق ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

١ - تحت عنوان : " المصطفون الأخيار " ، يتحدث الفزالي عن أصحاب الرسول الذين صفت نفوسهم بصحته وورقت مشاعرهم بملازمته ، ذلك لأن محمدا أشرق نفسه عليهم فنضحت نفسه على نفوسهم فأشرق فيها نور الإلهام فأصبحت هذه النفوس في اشراقها وصفائها قريبة من اشراق نفس الرسول وصفائها ..

ومعد أن يوضح الفزالي هذه الحقيقة يستطرد ويطلب الحديث في هذا المعنى في أسلوب خطابي ، فيقول : " .. وقد التفت بمحمد صلى الله عليه وسلم فريق من الهانئين الأنقياء ، كانوا له تلاميذ مخلصين فزكت بصحته نفوسهم وشفط طباعهم حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب .. " (١)

ثم يستطرد فيقول : " .. ولا تحسن العقل الجبار - مهما أوتي من نفاذ - يستلجح ادراك الكمال بقوته الخاصة ، فإذا لم تسدده عناية عليا فانه سيجوب كل أفق دون أن يصر غاية أو يهتدى طريقا ، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتكاثر أمام عينه الضباب ، انه يحكم القيادة ، ويضبط الآلات ، ويوصل أنوار هدايته في أحشاء النفوس المتراكمة ، فإذا لم يطق ارشادا يحدد له مكانه ومجده ، وكيف يهبط ... فانه سيظل يحلق عثا .. ثم تهوى به الريح فسي مكان سحيق ..

وكم من فلاسفة عالجوا شؤون الكون والحياة : فمنهم من ضل عن الحق على طول بحثه عنه ، فلم يصل إليه قط . ومنهم من

استغرق في الوصول اليه أعواما طويلا ، ولو مشى وراء الرسل لانتهى اليه  
في أيام قصار ، وهو في مأمن من الشرود والمشار .. " (١)

٢ - وتحت عنوان " أبو طالب " يتحدث الفزالي عن نصرة  
أبي طالب للرسول .. ثم ينتقل ليحقد موازنة بين أبي طالب وأبي  
لهب ، وكيف أن الأول نصره وآزره ، والثاني خذله وطأه .. ثم  
ينتقل بعد ذلك - مستطردا في أسلوب خطابي انشائي - فيبين  
أن أبا لهب وأمثاله لا يؤثرون في مسيرة الدعوة ولا يوقعون تقدمها ..  
يقول الفزالي : " .. لكن ما أبو لهب ؟ وما قريش ؟ وما الصرب ؟  
وما الدنيا كلها ؟ بازاء رجل يحمل الرسالة من الله الذي له ملك  
السموات والأرض ، يريد أن يعيد بها الرشد لعالم فقد رشد ، وأن  
يمحو بها الأوهام في حياة مرغتها الأوهام في الرغام .

ما (ذا) تجدى وقف جهول ؟ أو غيبة مفرور ؟ في منح هذه  
الرسالة الكبيرة من المضي الى هدفها الهعبد ..

ان الطحالب العائقة لا توقف السفن الماخرة ، ولئن نَمَّ الجاهليون  
على المسلمين مروقهم من بين قومهم بهذه الدعوة - حتى ليسمونهم  
الصَّبَاة - ان المسلمين لأشد نقمة عليهم أن سفهوا أنفسهم وحقروا  
عقولهم وتشبهوا بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان .. " (٢)

(١) فقه السيرة ص ٢٠٠ و ٢٠١ .

(٢) فقه السيرة ص ١٠٤ .



### الفصل الرابع

كتاب " فقه السيرة " في ميزان النقد

- ١ - قيمة الكتاب وأثره .
- ٢ - نقد أسلوب الكتاب ( غلبة السمة الخطابية عليه ) .

## ١ - قيمة الكتاب وأثره :

يعد كتاب " فقه السيرة " للفرزالي من الكتب التي أسهمت في شرح السيرة وفلسفتها والوقوف على أسرارها ودقائقها ، وتوجيه النظر إلى ما فيها من دروس وعبر ، والدعوة إلى العمل بها حتى تكون السيرة منارة يهتدى بها كل من حاول أن يمشى في ضوئها .

وقد وفق الكاتب في عرض السيرة ودراستها على هذا النحو . . .  
فشرح وحلل وظل . . . واستنبط العبرة واستخرج العظة ، كمسبباً وازن وربط بين أحداث السيرة وما يشابهها من أحداث عصرية وقد سبق أن تناولنا ذلك بالشرح والتحليل . . .

وقد صاغ الكاتب السيرة النبوية - على هذا النحو الذي أشرنا إليه - في قالب يجمع بين الفلسفة والأدب ، أي : أنه قد جمع بين العبارة الفلسفية العميقة التي تمتع العقل والعبارة الأدبية الرشيدة التي تهز الوجدان حتى يستطيع أن يُدْخَلَ إلى عقل القارئ والسامع - بسهولة ويسر - ما يريد أن يدخله إليه .

## ٢ - نقد أسلوب الكتاب ( غلبة السمة الخطابية عليه ) :

وإذا كان هناك شيء يؤخذ عليه الكاتب فهو اسرافه في الاعتماد على الأسلوب الخطابي الانشائي المليء بالنصائح والارشادات والوعظ والخطب . . . وهذا واضح في الكتاب كله .

والنقاد يمدون ذلك عيها في كتابة التاريخ ، والسيرة نوع من التاريخ بوصفها تاريخاً خاصاً بحياة الأفراد والأشخاص ، ومن هنا كان يجب أن تتأى عن هذه النغمة الخطابية ، ألا تكون معرضاً

## للخطب والمواظ ٠٠

يقول الأستاذ أحمد الشايب : " ٠٠ ليحذر المؤرخ أن يتخذ التاريخ مَحْضًا للخطب والمواظ لأن التاريخ - كالرؤية - ثوخند المظة منه بطريق غير مباشرة ، على أن ذلك يعد نقلا للتاريخ من دائرة النشر الملقى الى مجال النشر الأدبي الخالص ، وذلك خلط واضطراب لا يلقى بالكاتب البليغ " (١)

ألا أننا نستطيع أن نجد للكاتب المذر في سلوكه هذه الطريق ، وهو أن الكاتب داعية اشغفل بالدعوة الى الله حقبة طويلة - ومازال يدعو - ففليت طريقته في الدعوة بها فيها من وعظ وإرشاد على أسلوب كتابته ولا شك أن الكاتب يتأثر - في أسلوبه - بتكوينه الشخصي ، وطريقته في الحياة ، كما يتأثر بدراساته وثقافته ٠٠

وحسب المؤلف أخيرا - بدراسته للسيرة على هذا النحو - أن جمل من السيرة النبوية مجالا للدعوة ، وطريقا للإرشاد ، وضرب من حوادثها ووقائعها ، وما تحمل من عظات وعبر ، الأمثلة على أن المجتمع الاسلامي الحديث يعيش حياته على نهج مخالف لما جاء في هذه السيرة من أفعال النبي وأقواله ٠

وتعد السيرة - بهذه الطريقة - تذكيرا للمسلمين وحثا لهم على أن يعودوا الى هذا المورد العذب ، ليرتووا منه ، وليعملوا به ، حتى يكون في اتباعهم له واقتدائهم به ، طريقهم للمزة ، والمجد لهم ، وللإسلام ٠

### الكلمة الأخيرة :

والى هنا يتوقف القلم عن الاسترسال بعدما تحقق ما هدفتنا  
اليه من آمال ..

.. والى هنا تنتهى الدراسة الدقيقة التى اتجهت اليها ،  
وعكفت عليها خمس سنوات متتابعات ، حتى أتت على موضوعات المنهج  
المعلمى الذى وضع لهذه الرسالة ، وحقت الارية التى توفرت للوصول  
عليها هذا الزمن الممتد الطويل .

والقارئ الكريم قد أحس - دون ما شك - بذلك الجهد الجاهد  
الذى بذلته عن رضا فى دراسة موضوع الرسالة ، والميش مع مراجعتها  
ومصادرها رَدْحاً من الزمن حتى تهذلت أغصان ذلك البحث ، ودنت  
الثمرة من أيدي القاطفين .

ولقد اجتاز قارئى معى بعض المفاوز ، وسبح معى فى بعض  
البحار العميقة الأغوار ، ثم خرجنا سوياً بكثير من الأصداف المنخلقة على  
عديد من اللالى التى أخرجناها للناس مثلة فى هذا البحث الدارس  
الدانى الجنى ، الشهى القُطُوف .

واننى لأعيط نفسى أن وفقنى الله الى اتمام هذه السلسلة  
المتشابهة ، ونظم تلك المقود المتناسكة ، مترجمة الى هذا البحث  
الذى لم يأل جهداً فى الوصول بالدراسة الى ما وصلت اليه .

وانى لأضح هذا النتاج المشرى بين يدي أساتذتى الجهابذة ،  
أعضاء لجنة الحكم الموقرة ، وأنا على ثقة تامة بأنهم قادروه ومنصفوه

ومعطوه حقه من الرعاية والمناية الى حد جد بعيد .

وكلى رجاء فى الله أن أكون قد وفقت فيما قمت به من عمل ،  
تستريح له النفس ، ويهدأ معه الحس ، ويدلف هنا الى مجالات  
الهدأة والدعة والسكون .

" ربنا عليك توكلنا واليك أنهننا واليك المصير " .

الباحث

## الخاتمة

ومعد . . فان هذه الرسالة قد استطاعت أن تعطى صورة واضحة السمات ، بارزة القسما ، عن معالم الكتابة الأدبية فى السيرة النبوية : اتجاهاتها ومواضعها وطرائقها وأساليبها ومناهجها فى أدبنا المصرى الحديث ، وذلك من خلال الكتب والمؤلفات التى خصتها بالدراسة وآثرتها بالتحليل ، ومن خلال الاشارات العابرة للكتب الأخرى ، كما استطاعت أن تعطى لمحات عابرة وموجزة عن ملامح الكتابة فى السيرة النبوية ومناهجها قديما ، وذلك فى البحث التمهيدى الذى تصدر الرسالة .

وسهنا فى هذه الخاتمة أن نلخص هذه الرسالة ، وأن نوجز ما توصلت اليه من نتائج وما انتهت اليه من آراء حول كتابة السيرة النبوية فى أدبنا الحديث .

أما عن النقطة الأولى ، وهى اعطاء القارئ مجملا عن هذه الرسالة ، فنستطيع أن نقول : ان هذه الرسالة تقع فى خمسة أبواب ، تصدرها مقدمة ، وبحث تمهيدى ، وتتقوها خاتمة .

أما المقدمة : فتناولت موضوع الرسالة وأهميته وسر اختصاره ، كما تناولت ما اتخذ مجالا للدراسة والتحليل من كتب ومؤلفات ، موضحة سر اختيارها ، كما تناولت منهج الباحث وعمله وجهده فى هذه الرسالة .

وأما البحث التمهيدى : فقد تناول — فى ايجاز — كتابة السيرة النبوية قديما من حيث نشأتها ومواقع الكتابة فيها والمراحل التى مرت بها من لدن بداية التدوين فيها حتى القرن العاشر الهجرى ، متساولا الحديث عن مؤلفى السيرة القدامى ومناهجهم ، وما امتازت به هذه

المنهج من سمات وخصائص ، وبيان منزلة هذا المؤلف أو ذاك ، وما له من أثر وجهد في هذا المجال ، محاولاً — في إيجاز — تقويم هذه المؤلفات ببيان منزلتها وأهميتها .

وأما الباب الأول : فيتناول كتاب " حياة محمد " بصفته مشيئاً للأسلوب العلمي الحديث ويحتوى على خمسة فصول :

وقد تناول الفصل الأول : بواعث الكتابة في السيرة عند هيكسل ، وقد كشف هذا الفصل عن هذه البواعث وألوانها ، وبين أن منها ما هو عام ، أي : بواعث تتنظم معظم الكتابات الحديثة في السيرة ، واليهما يرجع معظم مؤلفاتها ، وذلك كفضل الفلسفة المادية في اقتناع الناس بها واتجاههم إلى الدين الإسلامي والتاريخ الإسلامي ، يلجون حاجات نفوسهم منه . . ومنها الحركة التبشيرية ، والفرع من الشيوعية ، ومنها اليقظة العربية واللياذ بالمقيمة الإسلامية والرغبة في إحياء التراث القديم الذي يعمد ذكرى المجد القديم .

ومن هذه البواعث ما هو مباشر أي : بواعث مباشرة لكتابة هيكسل في السيرة ، كالحركة التبشيرية التي كانت تحتاج مصر في نهايتها العشرينات وأوائل الثلاثينات . . ومنها ما هو خاص ، أي : بواعث خاصة بهيكسل نفسه ، وذلك كرهفته في كتابة السيرة بأسلوب علمي ، وكالتحول الفكري الذي طرأ على حياته .

وقد تناول الفصل الثاني : طريقة هيكل في هذا الكتاب كما كشف هذا الفصل عن هذه الطريقة وأبان عن سماتها وخصائصها ، واستطاع أن يرجع ميزات هذه الطريقة إلى ثلاث سمات ، هي : ١ - التحليل ، وما يعتمد عليه من شئ وتفسير ، ٢ - والتحقيق

وما يعتمد عليه من ايراد للنصوص وعرض للأدلة ومطابقة الموازنة بينهما  
ثم الاستنباط ٣ - والتصوير ٤ وما يعتمد عليه من وصف وخيال ٥

والسمتان الأوليان هما الفاليتان في طريقة هيكل ٤ أما السمة  
الثالثة فتلمح في ثنايا الكتاب في بعض الأحيان ٥

وقد تناول الفصل الثالث أسلوب هيكل في هذا الكتاب ٤ وفي  
هذا الفصل تضمن الكلام حديثا عن الفرق بين السيرة والترجمة ٤ حتى  
يعرف من أى النوعين أسلوب هيكل ٤ ثم تناول الفصل الكلام عن  
خصائص أسلوب الكتاب وجمعه بين الأسلوب العلمى والأسلوب الأدبى ٤  
وغلبة الأول عليه وبيان السر في ذلك ٤ مدلا على هذا الأسلوب  
وخصائصه بشواهد وأمثلة من الكتاب ٤ كما كشف هذا الفصل - من  
خلال كشفه عن أسلوب الكتاب - عن أن " حياة محمد " سيرة تاريخية ٤  
وليس تاريخا وليس ترجمة أدبية ٥

وقد تناول الفصل الرابع: منهج هيكل في كتابه هذا ٤ وكشف  
عن هذا المنهج وبين الأساس الذى يعتمد عليه ٤ وهو العقل ٤ وقصر  
هيكل المعرفة العقلية على الوقائع المادية وحدها وعدم امتدادها الى  
الجوانب الروحية والخيالية ومجالات العقيدة والايمان ٤ كما استطاع  
هذا الفصل أن يطبق منهج هيكل هذا على الخوارق والمجرات وعلى المزام  
والشبهات التى افترادها المستشرقون ٥

وقد تناول الفصل الخامس: نقد كتاب " حياة محمد " وتولى  
هذا النقد: بيان قيمة هذا الكتاب وأثره، كما تحدث عن منهج هيكل  
العقل وسر ركونه اليه ٤ كما عمد هذا الفصل الى مناقشة هيكل فى  
تفسيره الخاطى لبعض الخوارق التى فسرها تفسيراً عقلياً ٤ ودلـف



الى مناقشته أيضا فى تحليله الخاطى " لبعض الأحداث والوقائع —  
وتفسيرها التفسير الصحيح .

\* \* \*

وأما الباب الثانى: فيتناول الحديث عن كتاب " على هامش  
السيرة " بصفته مثلا للأسلوب القصصى . وهذا الباب يحتوى على ستة  
فصول :

تحدث الفصل الأول منها: عن بواعث الكتابة فى السيرة عند طه  
حسين ، وقد كشف هذا الفصل عن أنواعها ، وبين أنها ترجع الى  
أنواع ثلاثة : باعث أدبى ، وباعث تعليمى ، وباعث اجتماعى .

وقد تناول الفصل الثانى: الموضوع والفكرة فى " على هامش  
السيرة " وكشف عن موضوع الكتاب وبين أنه يدور حول تصوير ذلك  
العصر الفذ فى تاريخ البشر : عصر الرسالة المحمدية ، بما كان يصطرح  
قبله من عقائد ، وما يسود من قلق ، وما يضطرب فيه الناس من بحث  
عن الحق والتماهى للنبي تواتر بشائره . . . وما سبق ميلاده وبمبعثه من  
بشائر وآيات ، وما تبع بمبعثه من تغيير شمل الحياة كلها ، كما كشف  
هذا الفصل عن فكرة الكتاب ، وبين أنها تدور حول أفكار ثلاثة ، هى :

١ — أن العالم آنذاك — أى قبل الرسالة المحمدية — كان  
فى حاجة الى رسالة .

٢ — أن محمدا هو النبي المنتظر لحمل هذه الرسالة .

٣ — انتصار الاسلام وانتشاره .

وقد تناول الفصل الثالث: أسلوب كتاب " على هامش السيرة " وكشف هذا الفصل عن نوعية هذا الأسلوب وبين أنه أسلوب قصصى ، مدللا على ذلك بأمثلة من الكتاب .

أما الفصل الرابع: فقد تناول الألوان القصصية في هذا الكتاب ، وقد كشف هذا الفصل عن ألوانها ، وبين أنها ترجع الى ألوان ثلاثة .

١ - القصة الشخصية ٢٠ - القصة الحديثة ٣ - القصة

التي تصور المعنى وتبرز الفكرة . وضرب على ذلك بأمثلة من الكتاب ، محاولا تحليل قصة مختارة من كل نوع من هذه الأنواع مبرزاً ما فيها من سمات أدبية ومشيرا الى ما سواها في ايجاز .

وأما الفصل الخامس : فقد تناول طريقة طه حسين في " على هامش السيرة " وقد كشف هذا الفصل عن طبيعة هذه الطريقة ، وبين أن طريقة طه حسين في " على هامش السيرة " هي طريقة الاستعراض التصويري ، كما كشف عن ألوانها ، واستطاع أن يرجعها الى ألوان خمسة ، هي : ١ - تصوير الأشخاص - ٢ - تصوير الأحداث - ٣ - تصوير المعاني والخواطر - ٤ - تصوير الشخصيات الخيالية - ٥ - تصوير البيئة والمكان الذي تقع فيه الحوادث .

وأما الفصل السادس: فتناول نقد الكتاب ، وقد كشف هذا الفصل عن قيمة الكتاب وأثره ، كما تناول بعض أفكار الكتاب بالنقد والتقويم ، كما كشف عن موقف النقاد من هذا الكتاب ورأيهم فيه .

\*\*\*

وأما الباب الثالث : فقد تناول الحديث عن كتاب " محمد " للحكيم ، بصفته مثلاً للأسلوب المسرحي . ويحتوي هذا الباب على خمسة فصول :

أما الفصل الأول : فيتحدث عن الحكيم والأدب المسرحى ، ويكشف هذا الفصل عن زيادة الحكيم لهذا اللون من الأدب .

وأما الفصل الثانى : فيتحدث عن الحكيم ومسرحياته الدينية ، ويكشف هذا الفصل عن رغبة الحكيم فى استظهار الجوانب الدينية واتخاذها مادة للأدب وكشف ما فيها من جوانب روحية ، كما يكشف هذا الفصل عن الخط الفكرى الذى التزمه الحكيم فى مسرحياته الدينية ، وهو ان العالم مزيج من المادة والروح .

وأما الفصل الثالث : فقد تناول الفكرة والمنهج فى كتاب " محمد " أما الفكرة التى يدور حولها الكتاب ، فهى ان محمدا بشر رسول ، وأما المنهج فهو منهج أدبى ، وليس بالمنهج العلمى ولا بالمنهج التاريخى .

وأما الفصل الرابع : فيتحدث عن الجوانب التى تناولها الحكيم من السيرة ، وقد كشف الفصل عن هذه الجوانب وبين أنها جانبان : جانب النبوة ، وجانب البشرية ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم بشير رسول .

وفى جانب النبوة تناول هذا الفصل : الوحي ، والتليغ والمعجزات والخوارق ، وفى جانب البشرية تناول بعض الصفات البشرية وأحوالها .

وأما الفصل الخامس : فقد تناول نقد الكتاب ، وبيننا قيمة الكتاب وأثره ، والشكل الذى كتب به ، والحوار فيه ، ورأى النقاد حوله .

\*\*\*

وأما الباب الرابع : فقد تناول كتاب " عبقرية محمد " بصفته مثالا للأسلوب الفلسفى النفسى . وهذا الباب يحتوى على ستة فصول :

أما الفصل الأول : فقد تناول البواعث والدوافع التى كانت وراء " عبقرية محمد " وقد كشف هذا الفصل عن هذه البواعث ، وأرجعها إلى

نوعين : عامة ، وهى التى ترجع الى شيوع الفلسفة المادية والفرع من الشيوعية ، والحركات التهشيرية ، ومحاولة اللباز بالمقيدة الاسلامية ، والرغبة فى احياء التراث الاسلامى القديم . . . وخاصة وهى التى ترجع الى المقاد نفسه ، وقد استطاع هذا الفصل أن يرجعها الى أنواع ثلاثة : ١ - الفيرة والانصاف - ٢ - النشأة - ٣ - التحول الفكرى .

وأما الفصل الثانى : فيتناول الفكرة والموضوع فى كتاب " عبقرية محمد " أما الفكرة ، فهى أن محمداً عظيم بجميع مقاييس العظمة التى يؤمن بها الناس جميعا ، وأما الموضوع فيدور حول آيات العظمة ودلائل العبقرية فى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كشف هذا الفصل عن جوانب العبقرية المحمدية ، وأنماطها المتعددة .

وأما الفصل الثالث : فيتناول طريقة المقاد فى " عبقرية محمد " وقد كشف هذا الفصل عن سمات هذه الطريقة وخصائصها ، وبين أن هذه الطريقة تتسم بسمات هى :

١ - التتبع والاستقصاء . ٢ - التفريح والتفصيل . ٣ - تقصى البواعث والأسباب ، ٤ - إيراد الشواهد والأدلة .

وأما الفصل الرابع : فقد تناول أسلوب المقاد فى هذا الكتاب وخصائصه ، وقد كشف هذا الفصل عن سمات هذا الأسلوب ، وبين أنه أسلوب علمى ، كما أنه أسلوب منطقي تغلب عليه التمايز المنطقية ، كما أنه أسلوب يتسم بقوة الاقتناع والحجة .

وأما الفصل الخامس : فقد تناول منهج المقاد فى هذا الكتاب وخصائصه ، وبين أن منهج المقاد فى هذا الكتاب منهج تحليلى نفسى عظمى .

وأما الفصل السادس فقد تناول نقد كتاب " عمقيرة محمد " وقد كشف هذا الفصل عن قيمة الكتاب وأثره وبيان مكانه من الدراسات الأدبية ، كما تناول طريقة العقاد ، وبين خطأ اعتماد العقاد فيها على الصفات البارزة ، والحوادث المنتقاة ، كما تناول أسلوب العقاد ، وبين أنه كان من الأفضل للعقاد — وهو يكتب التراجم الشخصية — أن يستعمل الأسلوب الأدبي ، وأن ينأى عن الأسلوب العلمى المنطوق ، كما تناول هذا الفصل منهج العقاد ، وبين خطأه فى تطبيق المنهج النفسى بمفاهيمه ومقاييسه على شخصية الرسول الكريم .

وأما الباب الخامس : فقد تناول كتاب " فقه السيرة " للفضالى بصفته مثلاً للأسلوب الفلسفى التاريخى . وهذا الباب يحتوى على أربعة فصول :

أما الفصل الأول : فقد تناول بواعث الكتابة فى السيرة عند الفضالى ، وقد كشف هذا الفصل عنها ، وبين أنها تتلخص فى رغبتهم فى الكشف عما فى السيرة النبوية من عظات وحكم ودروس وعبر ، حتى يتأسى بها المسلمون ، ويقتدوا بصاحبها عليه الصلوة والسلام .

وأما الفصل الثانى : فقد تناول طريقة الفضالى فى كتابه " فقه السيرة " وقد كشف هذا الفصل عن سمات هذه الطريقة وخصائصها ، وبين أن هذه الطريقة تتسم بسمات هى : ١ — الوحدة الموضوعية — ٢ — الربط بين الأحداث والوقائع — ٣ — تحليل الأحداث وفلسفتها — ٤ — تحقيق الأحداث وتسميتها — ٥ — إبراز الحكم واستنباط المبرر — ٦ — الربط بين أحداث السيرة وبين ما يشابهها من أحداث عصرية — ٧ — التعليق على الأحداث — ٨ — إيراد النصوص والآثار .

وأما الفصل الثالث : فقد تناول أسلوب الغزالي في هذا الكتاب وخصائصه ، وقد كشف هذا الفصل -أولا - عن مكان هذا الكتاب ، وهل يعد كتاب تاريخ أم كتاب أدب ، ثم تناول أسلوب هذا الكتاب وخصائصه ، وبين أنه يتسم بسمات ، هي : ١ - السمة الفلسفية - ٢ - السمة الأدبية - ٣ - السمة الخطابية .

وأما الفصل الرابع : فقد تناول نقد هذا الكتاب ، فبين قيمته وأثره ، كما نقد أسلوبه ، وبين أنه كان من الأفضل للغزالي أن ينأى بأسلوبه عن النغمة الخطابية التي يجب أن تنتزه عنها الدراسات التاريخية .

وأما عن النقطة ~~التي~~ ، وهي إيجاز ما توصلت إليه هذه الرسالة من نتائج وثبتت ~~التي~~ من آراء ، فنستطيع أن نقول :

١ - أن الكتابة الأدبية في السيرة النبوية في أدبنا الحديث لم تكن معروفة قبل كتابات هيكل وطه حسين والحكيم والمشهدي والزيات والمقاد ، ومن هذا حذوهم ممن جاء بعدهم . بل كانت الكتابة في السيرة النبوية قبلهم ذات طابع تاريخي بحت ، يصدق هذا - على سبيل المثال - على كتاب " نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز " لرفاعة الطهطاوي ، وعلى كتاب " نور اليقين في سيرة سيد المرسلين " لمحمد الخضري . وكانت هذه الكتابات - بطبيعتها - امتدادا للكتابات السابقة القديمة من حيث العناية بسرد الوقائع والأحداث مسبوقة تاريخيا بغية الوصول إلى الحقائق التاريخية ، ولم يكن فيها - والحال كذلك - أي حظ للجمال الفني أو الامتاع النفسي اللذين يلتصقان في الكتابات الأدبية .

٢ - وتبعا لما تقدم نستطيع أن نقول : ان هيكله هو أول من فتح باب الكتابة فى السيرة النبوية بأسلوب أدبى ، أو بعبارة أدق ، بأسلوب يجمع بين الأدب والتاريخ ، وهذا يعنى أن كتابة السيرة النبوية نفسى المصر الحديث حتى الثلاثينيات كانت ذات طابع تاريخى ، لم تحمل بعد ملامح الكتابة الأدبية .

٣ - ظلت محاولة هيكل فى كتابته السيرة النبوية بشكل جديد - وأسلوب جديد أيضا محاولات أخرى تجمع بين الأدب والتاريخ ، وكونت ما يسمى بأدب السيرة النبوية ، ولقد استطاع البحث - من خلال الكتب التى اختارها للدراسة - أن يكشف عن بواعث الكتابة لهذه المؤلفات ودوافعها ، وأن يكشف عن طرائقها وأساليبها ومناهجها وموضوعاتها كما استطاع أن يكشف عن أنواع تلك البواعث ، وعن خصائص هذه الطرائق ، وعن سمات تلك الأساليب ، وعن أسس هذه المناهج ، وعن أنواع تلك الموضوعات ، وأن يحدد هذا كله فى إطار بارز ، واضح المعالم ، يبين القسامات :

١ - فمن حيث البواعث والدوافع التى دفعت بالكثير من الكتاب الى كتابة السيرة النبوية ، استطاع البحث أن يكشف عن الكثير من هذه البواعث وتلك الدوافع ، وأن ينتهى الى أن وراء هذه الكثرة الكثيرة من الكتب والمؤلفات التى تناولت السيرة النبوية فى أدبنا الحديث مجموعة من البواعث والدوافع التى حركت الأدباء والكتاب ، وأن هذه البواعث وتلك الدوافع قد تنوعت ، فمنها ما هو عام ، أى بواعث تنظم معظم الكتابات التى تناولت السيرة النبوية ، وكانت دافعا لكثير من الأدباء والكتاب ، واستطاع البحث أن يكشف عن أصول هذه البواعث ومصادرها وانتهى الى أن هذه البواعث العامة ترجع: إما الى الرغبة فى احياء التراث

الاسلامى القديم ، وكشف صفحاته المشرقة ، وما فيها من دروس نافعة وعبر بالغة ومواقف بارزة ، وأحداث فذة . . . أو ترجع الى مواجهة الحمالات التبشيرية التى اتسح نشاطها فى نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات ، أو ترجع الى الفرع من الشيوعية والاعتصام منها بالعقيدة الاسلامية ، والليماذ بها من المذاهب المادية ، أو يترجع الى المناسبات الخاصة كذكرى الهجرة وذكرى المولد . ومنها ما هو خاص ، أى بواعث تتصل بالكاتب نفسه خاصة ، واستطاع البحث أن يكشف عن أصول هذه البواعث ومصادرها ، وانتهى الى أن هذا البواعث الخاصة قد ترجع اما الى نشأة الكاتب ، أو الى ثقافته ، أو ترجع الى مذهبه الفكرى ، أو الى مجتمعه الذى يعمش فيه ، أو الى حياته وما قد يطرأ عليها من تحول وتغيير .

ب - ومن حيث طرائق الكتابة ، استطاع البحث أن يكشف عن هذه الطرائق ، ويبين خصائصها ومبادئها ، وانتهى الى أن طرائق الكتابة التى تتوالت من خلالها السيرة النبوية ، قد تنوعت ونهايت :

فهناك الطريقة العلمية الحديثة : التى تعتمد على الشرح والتحليل والتعليل وإيراد النصوص والأدلة والموازنة والمناقشة .

وهناك الطريقة القصصية : التى تحاول صياغة أحداث السيرة النبوية ووقائعها وشخصياتها فى قالب قصصى بما يحويه من سرد ووصف وتصوير ، يعيد أحداث الماضى وكأنها أحداث اليوم ، ويصور الأشخاص وكأنها أشخاصة تتحدث وتتحرك .

وهناك الطريقة ذات الشكل المسرحى : التى تحاول إبراز السيرة النبوية وأحداثها ووقائعها فى قالب مسرحى ، له ما للمسرحية من شكل ومحتوى من فصول ومناظر ومشاهد وحوار ، مما يحيل أحداث السيرة النبوية ووقائعها الى صورة حية نابضة تمر على خاطر القارئ وعقله ،



وكانها أحداث مسرحية يشاهدها أو يقرأها ، وهذا يضمن على السيرة النبوية جدة وطرافة ، ويضمن على نفس القارئ أو السامع متعة ومهجة تحبهان اليهما قراءة السيرة وسماعها .

وهناك الطريقة الفلسفية: التي تحاول فلسفة السيرة النبوية بأحداثها ووقائعها والوقوف على أسرارها ودقائقها ، وهذه الفلسفة قد تكون فلسفة لأحداث السيرة ووقائعها ، أي فلسفة للتاريخ نفسه ، وسبر أغواره والوصول إلى أسرار هذا التاريخ المطر ودقائقه وحكمه ، والانتهاج من ذلك إلى دروس وعظات يستفيد منها المسلم في حاضره ومستقبله ، وقد تكون هذه الفلسفة فلسفة للجوانب الشخصية والصفات النفسية في شخصية الرسول الكريم ومحاولة الوقوف على بواطنها الحقيقية وكوامنها الخفية ، والتعرف على الأسباب الحقيقية لكثير من أفعال الرسول الكريم وتصرفاته ، والكشف عما يتحلى به الرسول صلى الله عليه وسلم من خلق نادر وأدب عال وشيم حميدة ، وخلال جملة .

وهناك طريق المقالة: التي تحاول أن تبرز جانباً من جوانب السيرة المتعددة ، أو توضح زاوية من زواياها المختلفة ، أو تعكس الضوء على حدث من أحداثها . . . وكان للمقالة نصيب كبير في تناول الكثير من جوانب السيرة وزواياها وأحداثها بالتحليل والتفسير .

كذلك استطاع البحث أن يكشف عن السمات الخاصة لهذه الطرائق وأن يدل عليها بالشواهد الكثيرة والأمثلة المتعددة .

فالطريقة العلمية تتسم بسمات أبرزها : ١ - التحليل - ٢ - التعليل - ٣ - إيراد النصوص والأدلة - ٤ - المناقشة - ٥ - الاستنباط .

والطريقة القصصية تقوم على أسس أهمها : ١ - السرد  
- ٢ - الوصف . ٣ - التصوير .

والطريقة المسرحية تعتمد على الفصول والمناظر والمشاهد ، وهذا  
من الناحية الشكلية ، أما من الناحية اللغوية فتعتمد على الحوار .

والطريقة الفلسفية تتسم بسمات أشهرها : ١ - التتبع والاستقصاء  
- ٢ - الشرح والتفسير . ٣ - البحث عن البواعث والأسباب . .

ح - ومن حيث أساليب الكتابة : استطاع البحث أن يكشف عن  
هذه الأساليب ، ويبين عن خصائصها وسماتها ، وانتهى البحث إلى  
أن الأساليب التي صيغت من خلالها السيرة النبوية في أدبنا الحديث ،  
قد تنوعت وتلونت تهما لتنوع وتلون طرائق الكتابة التي أشرنا إليها آنفا .

فهناك الأسلوب العلمي : الذي يناسب الطريقة العلمية بما يعتمد  
عليه من دقة وتحديد واستقصاء وسهولة العبارة ووضوحها .

وهناك الأسلوب الأدبي : الذي يناسب الطريقة القصصية والطريقة  
المسرحية ، بما يعتمد عليه من سرد ووصف وتصوير بالنسبة للأسلوب  
القصصي ، وما يعتمد عليه من كلمات معبرة والفاظ موحية ، وعبارات موجزة  
مركزة من خلال الحوار المسرحي بالنسبة للأسلوب المسرحي .

وهناك الأسلوب التحليلي التفسيري : الذي يناسب الطريقة الفلسفية  
بما يعتمد عليه من شرح وتفصيل وتتبع واستقصاء ومنطقية العبارة ودقتها  
وهكذا .

د - ومن حيث مناهج الكتابة : استطاع البحث أن يكشف عن  
هذه المناهج ، وانتهى إلى أن هذه المناهج التي عولجت من خلالها

السيرة النبوية قد اختلفت وتباينت تهما لاختلاف وتباين الكتاب فكريا وثقافيا ومذهبيا ، فكل كاتب منهجه الفكرى الخاص الذى يلتزم به .

فهناك المنهج العلمى المقتضى : الذى يعتمد على العقل وحسده فى تحليل أحداث السيرة النبوية ووقائمه ، ويحاول أن يخضعها للمقاييس العقلية ولمدركات العقل المحسوسة .

وهناك المنهج العلمى المادى : الذى يعتمد على الأدلة المادية المحسوسة فى تحليل بعض جوانب السيرة النبوية خاصة تلك الجوانب المقدية والروحية والفهمية ، بقصد التدليل على امكان هذه الجوانب ووقوعها من واقع الأدلة العلمية المادية ، التى يؤمن بها ماديو العصر الحديث .

وهناك المنهج الأدبى : الذى يعنيه أن يصوغ أحداث السيرة النبوية من خلال أسلوب أدبى جميل وعجالة شائقة ، ولفظة معبرة موحية ، محبة الى النفس ، بقصد جذب القارئ أو السامع الى التراث الاسلامى القديم والسيرة النبوية العطرة ، واستلهام ما فيها من عبر وعظومات ودروس نافعات ، ولا يعنيه أن يصوغ السيرة من خلال رؤية علمية تاريخية تتبجح الحدث التاريخى بالدراسة والتحليل والتحقيق ، كما يفعل المؤرخون والعلماء ، بل يختار من الأحداث والوقائع ما يشد الانتباه ، ويستوعب الفكر دون التزام بترتيب لها أو تسهيق بينها ، ومحاولة صياغتها - كما قلنا - فى عبارة أدبية جميلة .

وهناك المنهج الفلسفى : الذى يعتمد على فلسفة السيرة النبوية بأحداثها ووقائمه بقصد اظهار ما فيها من عبر وعظات ، أو يعتمد على تحليل الجوانب النفسية والصفات الانسانية فى الرسول الكريم ، وارجاعها

الى منابعها الأصلية فى أغوار هذه النفس الطاهرة .

هـ - ومن حيث الموضوعات التى تناولتها كتب السيرة النبوية استطاع البحث أن يكشف عنها ويحدد جوانبها ، وقد انتهى البحث الى أن موضوعات الكتابة فى السيرة قد تنوعت وتعددت بحسب اتجاه الكاتب وإيثاره بعض الجوانب على بعض .

فهناك من الكتاب من تناول السيرة النبوية من أولها الى آخرها ، وهى طريقة معظم الكتاب .

ومنهم من تناول موضوعات معينة خصها بالدراسة وأثرها بالمعناية .

وهذه الموضوعات المعينة قد تنوعت أيضا : ١ - فن المؤلفات ما تناول الحديث عن عبقريّة الرسول صلى الله عليه وسلم . ٢ - ومنها ما تناول صفات الرسول صلى الله عليه وسلم . ٣ - ومنها ما تناول طفولته وصباه . ٤ - ومنها ما تناول الجوانب الانسانية فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم . ٥ - ومنها ما دار حول قيادة الرسول العسكرية وعبقريته الحربية . ٦ - ومنها ما دار حول نبوته ورسالتـه ومحاولة التدليل على صدق دعواه النبوة والرسالة . ٧ - ومنها ما تناول جانب النبوة والبشيرة معا فى شخصية الرسول الكريم ، وهكذا .

٤ - انتهى البحث الى أنه كان لشقافة الكتاب وتأثرهم بالنظريات الحديثة ، كما كان لمناهجهم وأفكارهم التى يؤمنون بها - كان لهذا كله أثره البين فى دراستهم السيرة النبوية وتحليلهم لها ، وظهور هذا واضحا فى كتاباتهم .

فمثلا كان لايمان هيكل بمنهج البحث العلمى الحديثة واعتمادها على العقل وحده أثره الواضح فى تفسير هيكل لأحداث السيرة وتحليله لها . . كما كان لتأثره بآراء " جان جاك روسو " فى آرائه الحديثة فى علم الاجتماع ، وتأثره بنظرية " الرجل الطبيعى " أثره الواضح فى تفسير هيكل لتبليغ محمد واستعداده لطفى النبوة والرسالة ، وذلك حين يصور رحلته الى الشام ، واشتغاله برعى الضم ، واتصاله - خلال ذلك - بالطبيعة ، كما سبق أن أوضحنا .

وكان لايمان طه حسين ببعض الأفكار التى يدين بها ، مثل : وحدة الثقافة أو الحضارة ، ومثل : سبق الحضارة اليونانية والرومانية للحضارة العربية - كان لايمان بهذه الأفكار أثره الواضح فى كتابه " على هامش السيرة " كما سبق أن أشرنا .

وكان لايمان الحكيم بأن العالم مزيج من المادة والروح أثـره الواضح فى كتابه " محمد " حين حاول أن يزاوج فيه بين جانبيين : محمد البشر ، ومحمد الرسول ، فقدم صورا ومشاهد متنوعة لكل من الجانبين .

وكان لايمان المقاد بالنظريات العلمية الحديثة فى تحليل النفس البشرية ، وارجاع بعض هذه النظريات سر نهو النابغة ، وعقريـة المبقرى الى الشخص نفسه ، لا الى الهية أو الوراثة أو الثقافة ، أو غير ذلك - مما يطلق عليها " المعقريـة الفردية " أو " البطولية الفردية " - كان لايمان المقاد هذا أثره فى تحليل المعقريـة المحمدية وفلسفتها ، وانتهائه من هذا الى أن ما يتمتع به الرسول من ملكات نفسية وقدرات شخصية ، راجع الى شخص الرسول نفسه ، وإلى ما يتمتع به من تفرد ونهـو وعقريـة ، لا الى النبوة أو الرسالة .

وكان لايمان الفزالي بأن الهدف من دراسة السيرة النبوية — يجب أن يكون توجيه نذر المسلم الى ما فى السيرة النبوية من دروس وعبر وعظات وحكم ، والى ما تملئ به السيرة من آداب الاسلام وتشريعاته وأخلاقه ، التى كانت آداب الرسول وتشريعاته وأخلاقه تعبيراً عنها — كان لايمان الفزالي بهذا الهدف أثره الواضح فى نحوه هذا المنحى فى دراسته للسيرة النبوية .

٥ - انتهى البحث الى أنه من الخطأ البين اخضاع وقائع السيرة النبوية وأحداثها — عند دراستها وتحليلها — الى مناهج البحث الحديثة التى تعتمد على العقل وحده ، أو على الأدلة المادية مثلما فعل هيكىل ، على أساس أن هناك كثيراً من الجوانب التى تملئ بها السيرة النبوية مما لا يمكن أن تخضع لمثل هذه المناهج كالجوانب الروحية والنفسية التى يجب التسليم بها مادام قد تواتر خبرها ، فضلاً عن ورودها فى القرآن أو السنة .

كما أنه من الجهل تحليل شخصية الرسول وجوانبها النفسية على ضوء نظريات علم النفس الحديثة التى ينتهجها بعض علماء النفس ، حينما يحاولون تحليل شخصية من الشخصيات الفذة ، أو عبقري من العباقرة أو بطل من الأبطال ، مثل : نظرية " البطولة الفردية " أو " المبقرية الفردية " التى اعتمد عليها العقاد فى تحليله لجوانب المبقرية المحمدية ، أو محاولة تحليل بعض جوانب من حياة الرسول التى عاشها ، كمسألة اشتغاله برعى الخنم ورحلته الى الشام — على ضوء بعض نظريات علم الاجتماع الحديثة ، مثل نظرية " الرجل الطبيعي " كما فصل هيكىل ، وقد أشرنا الى ذلك فى موضعه .

وذلك على أساس أن شخصية الرسول ليست شخصية عادية — ينطبق عليها ما ينطبق على الشخصيات الأخرى ، وأنه ان جاز تطبيق هذه النظريات على هذه الشخصيات الأخرى ، فانه لا يجوز تطبيقها على شخصية الرسول الكريم .

٦ — يوصى البحث بأنه يجب أن تنزه السيرة النبوية خاصة والتاريخ الاسلامي عامة عن الأخبار المخترعة والأحاديث المبتدعة ، والشخصيات المفترعة ، وأنه لا يصح للكاتب الذي يتعرض لدراسة السيرة النبوية أن يبيع لنفسه حرية اختراع الأخبار ، وابتداع الأحاديث ، واقتراح الشخصيات ، على أساس أن السيرة النبوية — بما تضم من أفعال الرسول وأقواله ، وتشريعاته وآدابه وسلوكه — تعد تعبيراً عن العقيدة الاسلامية ، وترجمة لمبادئها وتشريعاتها ، وهي — أي السيرة — تعد — لذلك — جزءاً من العقيدة الاسلامية التي بها تؤمن ، ولها ندين ، ومن هنا لا يصح للكاتب — أي كاتب — أن يضيف اليها ما ليس منها ، حتى لا يلتبس على الناس أمر دينهم ، وذلك كما فعل طه حسين ، حين أباح لنفسه حرية وسعة في اختلاق بعض الشخصيات ومعض الأحياء ، كما سبق أن أوضحنا .

محمد .. فأننى أشكر لله آله ، وأقدر نعماءه ، حين وفقنى الى تلك الدراسات الدقيقة ، ثم ابرازها فى ثوب الحقيقة بالنسبة للسيرة النبوية الطاهرة التى تعد سجلا حافلا بأطهر الأخبار ، وأزكى الكلمات ، وأشرف المهارات ، الى سمو الأفعال ، وطو المثل من تصرفات سيدنا رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ولن أنسى ما حييت هذا الجهد الجاهد الذى بذله عن رضا وسخاء أستاذى ووالدى الدكتور عبدالسلام سرحان .. فى تكوين هذه الرسالة وتلويحها ، ونقاشها من جميع الهنات والمناقص التى تنعم بها الكتابات فى المصور الحديثة .

ولقد كان متأثرا أيضا تأثر بموضوع الرسالة وصلتها بالنبي الأكرم سيد المرسلين وخاتم النبيين ، ومن هنا عنى بها العناية الكبرى ، وأولاها الرعاية المثلى ، وأوفاهها حقها من التهذيب والتشذيب مثنى وثلاث ورباع .. حتى خرجت - كما يعتقد - صورة متألقة بالكمال ، مزدانة بسمات الجمال ، مزهوة بطابع الدرس والتحقيق ، مزينة بثمار الفوص وراة الحقائق بكل سهيل .

وقد ارتضى من الباحث جهده المكثف فى القراءة والاطلاع ، وشخصيته البارزة فى الدراسة والعرض والتحليل ... الى سعة البصيرة ورحابة الصدر فى الميخ مع كل رأى ، والتعرج مع كل مذهب ، والسير الى الحق وحده فى ميدان البحث الفسيح .

ولن أنسى ما حييت توجهاته الرشيدة ، ولا نصائحه السديدة ، ولا مشاركته الجادة فى كل حرف وكل كلمة تكونت منها عبارات هذه الرسالة .. المتعددة الأبواب والفصول .



ولا يفوتني أن أذكر بالشكر والتقدير الأستاذين الكريمين : عضوى  
لجنة الحكم الموقرة على ما بذلا من جهد ، وما لقيا من غنت فى قراءة  
هذه الرسالة ، ووزنها بميزان التقدير الصحيح .

جزى الله الجميع عنى خير الجزاء وأوفاه .

ومما يهمنى الالماع اليه أن اعترف اعترافا تاما كاملا بأننى قد  
نلت من نفحات الرسول الكريم وبركاته الشئ الكثير ، فقد تأذن المولى  
تبارك وتعالى بأن يكون تأليفها فى الرحاب الطاهرة حول الروضة الشريفة  
بطيبة الفرا . . . حيث كنت مبعوثا بها لمدة أربع سنوات متواليات ،  
نلت فيها من بركات الرسول الكريم وفيوضات المدينة المنورة الشئ الكثير  
الكثير . . .

فإذا كنت قد وفقت - بفضل الله - فذلك ما أبغى ، وذاك ما  
اشتتهى ، وإن كانت الأخرى ، فما أنا الا طير صغير لم يصل بعد الى  
طاقة النسر الكبير ، ويكون عذرى أننى لازلت أجو فى أول الطريق .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنهب .

الباحث

ٖٖ المصدر والمراجع ٖٖ

١ - ( أ ) القرآن الكريم .

( ب ) كُتُب الأحاديث والآثار :

٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير ( أبو الحسن : عيسى ابن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ) طبعة : دار الشعب .

٣ - الشفا بتمريف حقوق المصطفى : للقاضي عياض ( أبو الفضل : عياض ابن موسى بن عياض بن عمرو ) نشر مصطفى أفندي فهمي الكتبي بمصر ١٣١٨ هـ : المطبعة الشرفية .

٤ - صحيح مسلم للإمام مسلم ( مسلم بن الحجاج القشيري ) تحقيق : محمد قواد عبد الباقي . طبعة : عيسى البابي الحلبي . . . المطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .

٥ - كشف الخفا ومزيل الالهام عما اشتهر من الأحاديث على السنية الناس : للشيخ اسماعيل بن محمد المجلونسي الجراحي . نشر مكتبة القدس : بالأزهر - القاهرة ١٣٥٢ هـ .

٦ - كثر العمال في سنن الأقوال والأعمال : للشيخ علا الدين عيسى المتقي بن حسام الدين الهندي . طبعة : دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد - الهند ١٣١٣ هـ

- ٧ - المجموع : شين المذهب للشيرازي : للامام أبي زكريا محيي الدين  
ابن شرف النووي • تحقيق : محمد نجيب المطيعي  
نشر : مكتبة الارشاد • جدة • المملكة العربية  
السعودية •

( ح ) كتب السيرة النبوية : محور الدراسة ومجال التطيل :

- ٨ - حياة محمد : للدكتور : محمد حسين هيكل • مطبعة مصر • الطبعة  
الأولى ١٣٥٤هـ •
- ٩ - عمقيرة محمد : للاستاذ : عباس محمود العقاد • نشر : دار الكتاب  
المصري • بيروت • الطبعة الثانية ١٩٦٩م •
- ١٠ - على هامش السيرة : للدكتور : طه حسين • نشر : دار المعارف •  
مصر • الجزء الأول : الطبعة الثامنة عشرة •  
والجزء الثالث : الطبعة الثانية عشرة • والجزء  
الثاني بدون تحديد وتاريخ •
- ١١ - فقه السيرة : للاستاذ : محمد الفزالي • الطبعة الخامسة ١٩٦٥م •
- ١٢ - محمد : للاستاذ : توفيق الحكيم • نشر : مكتبة الآداب •

( د ) كتب في السيرة النبوية : رجع اليها الباحث :

- ١٣ - انسانيات محمد : للاستاذ : خالد محمد خالد • نشر : دار المعارف •  
مصر • الطبعة الخامسة ١٩٧٥م •
- ١٤ - تهذيب السيرة : تحقيق الاستاذ : عبدالسلام هارون • نشر :  
المكتبة الأموية • دمشق ١٩٧٢م •

- ١٥- جهاد النبی : للاستاذ : محمد محمود زيتون • لجنة النشر  
للجامعيين • مكتبة مصر • دار مصر للطباعة •
- ١٦- جوامع السيرة : لابن حزم ( أبو محمد : علي بن أحمد بن سعيد )  
تحقيق الاستاذين : احسان عباس ، وناصير  
الدين الأسد. نشر: دار المعارف • مصر •
- ١٧- دلائل النبوة : للبيهقي ( أبو بكر : أحمد بن الحسين بن علي )  
تحقيق الدكتور : عبدالرحمن عثمان • نشر: للمكتبة  
السلفية • المدينة المنورة • الطبعة الأولى  
١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م •
- ١٨- الرسول القائد : للواء الركن : محمود شيت خطاب • نشر :  
الشركة الاسلامية للطباعة والنشر بغداد • الطبعة الأولى  
١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م •
- ١٩- الرض الأنف : للمسهلي ( عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد ) تحقيق  
الاستاذ : عبدالرحمن الوكيل • نشر : دار الكتب  
الحديثة . القاهرة • الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ /  
١٩٦٧ م •
- ٢٠- سيرة ابن هشام : لابن هشام ( أبو محمد : عبدالملك بن هشام بن  
أيوب ) تحقيق الاستاذ : محمد محيى  
الدين عبدالحميد • طبعة الطبى •
- ٢١- " " " : لابن هشام ( أبو محمد : عبدالملك بن هشام بن  
أيوب ) تحقيق الاستاذ : محمد محيى  
الدين عبدالحميد • طبعة المدني ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م •
- ٢٢- سيرة ابن هشام : لابن هشام ( أبو محمد : عبدالملك بن هشام بن  
أيوب ) تحقيق الاستاذ : محمد محيى الدين  
عبدالحميد • طبعة دار الفكر • بيروت •

- ٢٣- سيرة ابن هشام : لابن هشام ( أبو محمد : عبد الملك بن هشام  
ابن أيوب ) تحقيق الاستاذة : مصطفى السقا  
وزملائه • طبعة : مصطفى الباهي الطبعة ١٣٥٥هـ  
١٩٣٦م/
- ٢٤- سيرة ابن هشام لابن هشام ( أبو محمد عبد الملك بن هشام —  
أيوب ) تحقيق الاستاذة : مصطفى السقا  
وزملائه • طبعة الطبعة الثانية  
١٣٧٥ / ١٩٥٥م
- ٢٥- سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات  
قرآنية : للاستاذ : محمد عزة دروزة • طبعة  
الطبعة الثانية ١٩٦٥م
- ٢٦- السيرة النبوية : لابن كثير ( أبو الفداء : اسماعيل بن عمر بن  
كثير ) تحقيق الاستاذ : مصطفى عبد الواحد •  
طبعة الطبعة الأولى
- ٢٧- سائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه : لابن كثير ( اسماعيل  
ابن عمر بن كثير ) تحقيق الاستاذ : مصطفى  
عبد الواحد : طبعة الطبعة الأولى  
١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م
- ٢٨- صور اسلامية : للاستاذ : عبد الحميد المشهدي • مطبعة النجدة  
القاهرة
- ٢٩- صور من حياة الرسول : للاستاذ : أمين دويدار • نشر : دار  
المعارف • مصر ١٩٦٨م
- ٣٠- عظمة النبي : للاستاذ : محمد عطية الابراشي • نشر : دار القلم  
١٩٦٥م

- ٣١- فاطمة الزهراء والفاطيون : للاستاذ : عباس محمود العقاد . نشر :  
دار الهلال .
- ٣٢- فقه السيرة : للاستاذ : محمد سميد رمضان الهوطي . نشر :  
دار الفكر . بيروت . الطبعة الخامسة ١٣٩٣هـ /  
١٩٧٢م .
- ٣٣- محمد : محاولة لفهم السيرة النبوية : للاستاذ : مصطفى محمود .  
نشر : دار المعارف . مصر - الطبعة الأولى  
١٩٧٥م .
- ٣٤- محمد رسول الله والذين معه : للاستاذ : عبد الحميد جودة السحار  
نشر : مكتبة نهضة مصر .
- ٣٥- محمد رسول الحرية : للاستاذ : عبد الرحمن الشرقاوي . نشر :  
عالم الكتب . القاهرة . ١٩٦٦ .
- ٣٦- محمد رسولا نبيا : للاستاذ : عبد الزاق نوفل . نشر : مؤسسة  
المطبوعات الحديثة . الطبعة الأولى ١٩٦١م .
- ٣٧- محمد : الرسالة والرسول : للاستاذ : نظمي لوقا . نشر :  
دار الكتاب العربي . الطبعة الثانية ١٩٥٩م .
- ٣٨- محمد : في طفولته وصباه : للاستاذ : محمد شوكت التونسي .  
مطبعة مصر ١٩٥٩م .
- ٣٩- محمد المثل الكامل : للاستاذ : محمد أحمد جاد المولى .  
مطبعة : دار الكتب المصرية . الطبعة الأولى  
١٣٤٩هـ / ١٩٣١م .

٤٠- من أخلاق النبي : للاستاذ : أحمد الحوفي • نشر : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م.

٤١- مورد الصفا في سيرة المصطفى : للاستاذ أحمد الحملوى • مطبعة مصطفى الحلبي • الطبعة الأولى ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م.

٤٢- نبى الانسانية : للاستاذ : أحمد حسين • نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٧٠ م.

٤٣- محمد : نهاية الایجاز في سيرة ساكن الحجاز : لرفاعة رافع الطهطاوى • تحقيق الدكتور : فاروق أبو زيد • نشر : دار الفكر والفن

٤٤- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين : للاستاذ : محمد الخضري • المكتبة التجارية الكبرى • الطبعة السابعة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م.

٤٥- الوفا بأحوال المصطفى : لابن الجوزي ( أبو الفتح : عبدالرحمن ابن علي بن محمد ) تحقيق الاستاذ : مصطفى عبدالواحد • نشر : دار الكتب الحديثية القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م.

#### (هـ) كتب التاريخ :

٤٦- الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : للسخاوى ( شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ) نشر : القدس • دمشق مطبعة الترقى عام ١٣٤٩ هـ.

٤٧- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ( أبو بكر : أحمد بن علي  
ابن ثابت ) نشر : دار الكتاب العربي •  
بيروت •

٤٨- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ( أبو بكر : أحمد بن علي  
ابن ثابت ) نشر : مكتبة الخانجي •

٤٩- تاريخ الرسل والملوك : لابن جرير الطبري ( أبو جعفر : محمد  
ابن جرير بن يزيد ) تحقيق الأستاذ : أبو  
الفضل إبراهيم • نشر : دار المعارف : مصر  
١٩٦٠ •

٥٠- ضحى الاسلام : للاستاذ : أحمد أمين • طبعة : لجنة التأليف  
والترجمة والنشر • الطبعة الأولى ١٣٥٣ هـ /  
١٩٣٥ م •

٥١- ضحى الاسلام : للاستاذ : أحمد أمين • طبعة : النهضة  
المصرية • الطبعة السادسة •

٥٢- الديانات الكبرى : لابن سعد ( أبو عبد الله : محمد بن سعد  
ابن منيع ) تقديم د • احسان عباس • نشر :  
دار بيروت للطباعة والنشر • دار صادر  
١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م •

٥٣- فتوح البلدان : للبلاذري ( أحمد بن يحيى بن جابر ) تحقيق  
الدكتور : صلاح الدين المنجد • نشر : مكتبة  
النهضة المصرية ١٩٥٦ م •

٥٤- مذكرات في السياسة المصرية : للدكتور : محمد حسين هيكل •  
نشر : النهضة المصرية ١٩٥١ •



٥٥- المفازي : للواقدي ( أبو عبد الله : محمد بن عمر بن واقد )  
تحقيق : مارسدن جونز . نشر : جامعة  
اكسفورد ١٩٦٦م .

٥٦- المفازي الأولى ومؤلفاتها : لهورفتز ( يوسف ) ترجمة : الدكتور :  
حسين نصار . طبعة الطبى .

#### (و) كتب الأدب والنقد :

٥٧- الأدب الحديث ومدارسه : للدكتور : محمد عبد المنعم خفاجى .  
الطبعة المحمدية . الطبعة الأولى .

٥٨- الأدب القصصى والمسرحى فى مصر : للدكتور : أحمد هيكـل :  
نشر : دار المعارف . مصر . الطبعة الأولى  
١٩٦٨م

٥٩- الأسلوب : للاستاذ : أحمد الشايب . نشر : مكتبة النهضة  
المصرية . الطبعة الخامسة .

٦٠- أضواء على الأدب العربى المعاصر : للاستاذ : أنور الجنيدى .  
نشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .  
القاهرة . ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .

٦١- الجمال والحرية والشخصية الانسانية فى أدب العقاد : للدكتورة :  
نعمات أحمد فؤاد . نشر : دار المعارف  
سلسلة ( اقرأ ) العدد ( ٤٠٩ ) ١٩٧٦م .

٦٢- فن السيرة : للدكتور : احسان عباس . نشر : دار الثقافة  
بيروت . الطبعة الثانية .

- ٦٣- قصة الأدب المحاصر في مصر الحديثة : للدكتور : محمد عبدالمنعم  
خفاجي • المطبعة المنيرية • الطبعة الأولى  
١٩٥٦/١٣٧٥
- ٦٤- كتب وشخصيات : للاستاذ : سيد قطب • نشر : دار الشروق •  
بيروت
- ٦٥- ما هو الأدب ؟ للدكتور : رشاد رشدي • نشر : مكتبة الانجلو  
١٩٦٠م
- ٦٦- نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي : للدكتور : حسين نصار •  
نشر : مكتبة النهضة المصرية • الطبعة الأولى  
١٩٥٤م
- ٦٧- النقد الأدبي : أصوله ومناهجه : للاستاذ : سيد قطب • نشر :  
دار الشروق • بيروت
- ٦٨- النقد الأدبي الحديث : للدكتور : محمد غنيمي هلال • طبعة :  
دار الشعب • الطبعة الثالثة ١٩٦٤م
- ٦٩- وحي الرسالة : للاستاذ : أحمد حسن الزيات • نشر : مكتبة  
نهضة مصر • المجلد الأول : الطبعة الثامنة •  
المجلد الثاني : الطبعة السادسة • المجلد  
الثالث : الطبعة الخامسة : المجلد الرابع :  
الطبعة الثانية
- ٧٠- وحي القلم : للاستاذ : مصطفى صادق الرافعي • تعليق : محمد  
سميد المريان • الطبعة السادسة

(ز) كتب التراجم والأعلام والمعارف العامة :

- ٧١- الأبطال : لتوماس كارليل • تعريب الأستاذ : محمد السباعي •  
المطبعة المصرية • الطبعة الثالثة ١٣٤٩ هـ /  
١٩٣٠ م
- ٧٢- الأصمى : للدكتور : أحمد كمال زكي • نشر : وزارة الثقافة  
والإرشاد • سلسلة ( أعلام العرب ) المجلد  
( ١٨ )
- ٧٣- الأعلام : لخير الدين الزركلي • الطبعة الثانية •
- ٧٤- الأغاني : للأصمعي ( أبو الفرج : علي بن الحسين بن محمد بن  
أحمد بن الهيثم ) نشر : دار التحرير •
- ٧٥- بنية الوباء في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي ( عبدالرحمن  
ابن أبي بكر بن محمد ) مطبعة السعادة •  
الطبعة الأولى ١٣٢٦ هـ •
- ٧٦- التاريخ والسير : للدكتور : حسين فوزي النجار • نشر : وزارة  
الثقافة • سلسلة ( المكتبة الثقافية ) المجلد  
( ١٢١ )
- ٧٧- التراجم والسير : للأستاذ : محمد عبدالغني حسن • نشر : دار  
المعارف - الطبعة الثانية ١٩٦٩ م •
- ٧٨- تهذيب التهذيب : لابن حجر ( أبو الفضل : أحمد بن علي بن  
حجر الحسقلاني ) طبعة الهند • الطبعة  
الأولى ١٣٢٦ هـ

- ٧٩- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : للأصبهاني ( أبو نعيم : أحمد  
ابن عبد الله بن أحمد ) نشر : مكتبة الخانجي  
ومطبعة السعادة - الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ /  
١٩٣٣ م
- ٨٠- دائرة المعارف الإسلامية : اعداد : أحمد الشنتاوي ، وإبراهيم  
زكي خورشيد ، وعبد الحميد يونس . طبع القاهرة .  
الطبعة الثانية . ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م
- ٨١- الدكتور محمد حسين هيكل : اشراف : الأستاذ : أحمد لطفى  
السيد . مطبعة مصر ١٩٥٨ م
- ٨٢- الدكتور محمد حسين هيكل : للاستاذ : طه عمران وادى . مكتبة  
النهضة المصرية ١٩٦٩ م
- ٨٣- رفاعه رافع الطمطاوى : للدكتور : أحمد أحمد بدوى . نشر  
لجنة البيان العربى . الطبعة الثانية ١٩٥٩ م
- ٨٤- الشعر والشعراء : لابن قتيبة ( أبو محمد : عبد الله بن مسلم )  
نشر : دار الثقافة . بيروت ١٩٦٤ م
- ٨٥- الطبرى : للدكتور : أحمد الحوفى . نشر : وزارة الثقافة . سلسلة  
( اعلام العرب ) العدد ( ١٣ ) يناير ١٩٦٣ م
- ٨٦- طبقات الشعراء : لابن سلام ( محمد بن سالم الجمحى ) نشر :  
حامد عجان الحديد الكتبي . مطبعة السعادة .  
مصر
- ٨٧- طه حسين فى معاركه الأدبية : للاستاذ : سامح كرم . كتاب  
الاذاعة والتليفزيون ( ٢١ ) يناير ١٩٧٤ م

٨٨- الفهرست : لابن النديم ( أبو الفرج : محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق ) مطبعة الاستقامة • القاهرة •

٨٩- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة ( مصطفى ابن عبدالله ) المكتبة الاسلاميه • طهران • الطبعة الثالثة ١٣٧٨هـ •

٩٠- محمد وهؤلاء : للشاعر أحمد عبدالعطي حجازي • نشر : مؤسسة روزاليوسف • الكتاب الذهبي • نوفمبر ١٩٧١م •

٩١- المعارف : لابن قتيبة • تحقيق الدكتور : ثروت عكاشة • نشر : وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٩٦٠م •

٩٢- معجم الأدباء : لياقوت الحموي ( أبو عبدالله : ياقوت بن عبدالله ) طبعة : دار المأمون •

٩٣- المعجم الوسيط : اعداد واخراج : ابراهيم أنيس وزملائه • طبعة : دار المعارف • مصر • الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م • نشر واشراف : مجمع اللغة العربية •

٩٤- مع طه حسين : لسامي الكيالي • نشر : دار المعارف • سلسلة ( اقرأ ) •

٩٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لابن خلكان ( القاضي : أحمد ) طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ •

( ح ) الصحف والمجلات :

- ١ - مجلة (الأزهر)
- ٢ - مجلة ( الرسالة ) \*
- ٣ - ملحق ( السياسة ) \*
- ٤ - مجلة ( قافلة الزيت ) سعودية
- ٥ - مجلة ( رابطة العالم الاسلامي ) "
- ٦ - مجلة ( اليمامة ) "
- ٧ - مجلة ( المجتمع ) كويتية
- ٨ - مجلة ( العربي ) "
- ٩ - صحيفة ( أخبار اليوم ) \*

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة . . . .	١ - ب ب
بحث تمهيدى : كتابة السيرة النبوية قديما	١ - ٨٢
أ - تسدوين السيرة النبوية وبواعثه :	٢ - ١١
١ - تعريف بالسيرة النبوية ص ٢٠٢ - السيرة	
والحديث ص ٣٠٢ - بداية تدوين الحديث ص ٣	
٤ - حركة التصنيف والتأليف : أ - مرحلة الجمع	
العام ص ٥٠ ب - مرحلة الترتيب والتسقيق ص ٥	
ح - مرحلة استقلال علم السيرة عن علم الحديث	
ص ٦٠ ٥ - بواعث الكتابة فى السيرة النبوية :	
أ - السيرة جزأ من الحديث ص ٧٠ ب - اشتغال	
السيرة على الكثير من الجوانب التشريعية ص ٧٠ ح -	
رغبة المسلمين فى تدوين سيرة الرسول الكريم ص ٩٠	
ب - كتاب السيرة القدامى ومناهجهم :	١١ - ٧٥
١ - الطبقة الأولى : أ - أبان بن عثمان -	
غان ص ١١ - ١٢٠ ب - عروة بن الزبير ومنهجه	
فى كتابة السيرة ص ١٢ - ١٥٠ ح - إخراجييل	
ابن سعد ص ١٥ - ١٦٠ د - وهب بن منبه	
ص ١٦ - ١٨٠ ٢ - الطبقة الثانية : أ - عاصم	
ابن عمر بن قتادة ص ١٩ - ٢٠٠ ب - الزهري	
ومنهجه فى كتابة السيرة ص ٢٠ - ٢٣ ح - عبدالله	
ابن أبى بكر بن حزم ص ٢٣ - ٢٤٠ ٣ - الطبقة	

الثالثة : أ — موسى بن عتبة ومنهجه في كتابة  
السيرة ص ٢٦ — ٢٨ . ب — معمر بن راشد  
ص ٢٩ — ٣٠ . ح — أبو معشر المدني ص ٣٠ .  
د — ابن اسحاق ومنهجه في كتابة السيرة وأثره  
ص ٣٠ — ٤٢ . هـ — الواقدي وأثره ومنهجه  
في كتابة السيرة ( المفازي ) ص ٤٢ — ٥١ ، هـ  
٤ — السيرة على يد ابن هشام وابن سعد :  
أ — ابن هشام وأثره في سيرة ابن اسحاق  
ص ٥٢ — ٥٦ . ب — ابن سعد وأثره ص ٥٦ —  
٦٢ . ٥ — السيرة على يد الطبري : الطبري  
وأثره ص ٦٢ — ٧٠ . ٦ — السيرة بمسند  
الطبري :: الاتجاه نحو الكشف عن شائسل  
الرسول وخصائصه وأحواله ودلائل نبوته ص ٧١ —  
٧٤ . الاتجاه نحو تلخيص كتب السيرة السابقة  
وتجميع المعلومات منها ص ٧٤ . الاتجاه نحو  
شرح بعض الكتب السابقة ص ٧٥ .

٧٦ — ٨٢

حـ — نقد وتقويم :

أهم المؤلفات في السيرة وأثرها وقيمتها : ١ — المؤلفات  
الأولى في السيرة واتسامها بالصدق والالتزام  
ص ٧٦ — ٧٧ . ٢ — سيرة ابن اسحاق  
ومنزلة ص ٧٧ — ٧٨ . ٣ — ( مفازي )  
الواقدي وأثرها وقيمتها ص ٧٨ . ٤ — ( طبقات )  
ابن سعد وقيمتها ص ٧٨ . ٥ — ( تاريخ ) الطبري  
ومنزلة ص ٧٩ . ٦ — أهم مصادر السيرة :



سيرة ابن اسحاق ، ومغازي الواقدي ، وطبقات ابن سعد  
، وتاريخ الطبري ص ٢٩٠ - ٧ - منزلة الكتب الستى  
تلت هذه الكتب الأربعة وقيمتها واتجاهاتها ، والمآخذ  
التي وجهت اليها ص ٨٠ - ٨٢ .

### الباب الأول

السيرة النبوية والأسلوب العلمى الحديث من خلال " حياة

محمد " لهيكل . ٨٣ - ١٨٨

الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند هيكل ٨٤ - ٩٧

بواعث عامة ص ٨٥ - ٨٧ . بواعث خاصة : ١ - جهل  
الغرب بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٨٧ - ٨٩  
٢ - التحول الفكرى فى حياة هيكل ص ٨٩ - ٩١ .  
٣ - الرغبة فى كتابة السيرة بأسلوب علمى : أ -  
المستشرقون والدعوة ضد الاسلام ص ٩١ - ٩٣ . ب -  
الحملات التبشيرية ص ٩٣ - ٩٥ . ج - تنقيصة  
السيرة مما شابها ص ٩٥ - ٩٧ .

الفصل الثانى : طريقة هيكل وسماتها ٩٨ - ١٢٤

تمريف بطريقة هيكل ص ٩٩ - ١٠٢ . سماتها : ١ - التحليل  
والتعليل للأحداث والوقائع : اجلاء يهود بنى قينقاع  
ص ١٠٣ - ١٠٤ ايفاد الرسول رسله الى الطسوك  
والأمراء ص ١٠٤ - ١٠٧ . ٢ - التعليل على الأحداث  
والوقائع : دعوة الرسول قومه الى عبادة الله وحده  
ص ١٠٧ - ١٠٨ . ٣ - التحقيق والتحصين للوقائع

والأحداث : طريقته في التحقيق ص ١٠٨ — ١٠٩ . قصة  
الفرانيق وطريقة هيكل في تحقيقها ص ١١٠ — ١١٩ .  
٤ — الوصف والتصوير : تصوير نفسية الرسول ابيسان  
حادثة الافك ص ١٢٠ . تصوير نفسية عائشة وقت حديث  
الافك ص ١٢٠ — ١٢٢ . تصوير مشاعر المسلمين يوم  
خرجوا لأداء حجة القضاء ص ١٢٢ — ١٢٣ .

#### الفصل الثالث : أسلوب هيكل وخصائصه ١٢٥ — ١٤٥

١ — الفرق بين السيرة والترجمة الأدبية ص ١٢٦ — ١٢٨ .  
٢ — خصائص أسلوب هيكل وجمعه بين الأسلوبين : العلمي  
والأدبي وغلبة الأول عليه ص ١٢٩ — ١٣١ السرفسي  
غلبة الأسلوب العلمي على الأسلوب  
الأدبي : ثقافته — عقلية — دراسته القانونية  
ص ١٣١ — ١٣٣ . ٣ — نماذج تطبيقية على أسلوب  
هيكل الموضوع : وصف حث الرسول المسلمين على  
التقدم الى صفوف القتال في بدر ص ١٣٣ — ١٣٥ وصف  
فترة التحنث في غار حراء ص ١٣٥ — ١٣٩ تصوير  
موقف الرسول من عمه حين طلب منه عمه التخلي عما هو  
فيه ص ١٣٩ — ١٤٠ قصة زواج الرسول من زينب  
بنت جحش ص ١٤٠ — ١٤٢ تحليل أسرار النسبي  
ومعراجه ص ١٤٢ — ١٤٣ . ٤ — " حياة محمد "  
سيرة تاريخية ، وليس تاريخاً ولا ترجمة أدبية ص ١٤٣ —  
١٤٥ .

#### الفصل الرابع : منهج هيكل وأساسه ١٤٦ — ١٦٠

١ — أساس منهج هيكل : العقل : دعوة محمد تدعو

الى تحكيم العقل ص ١٤٨ - ١٤٩ تأثر هيكل بالفكر  
الأوربي ص ١٤٩ - ١٥٠ . ٢ - تطهيق منهج هيكل  
في المعجزات والخوارق ، وفي تفنيد المزاعم : المعجزات  
والخوارق : معجزة غزوة الأحزاب ص ١٥١ معجزة أصحاب  
الفيل وصددهم عن الكعبة ص ١٥١ - ١٥٢ معجزة الاسراء  
والمصراع ص ١٥٢ - ١٥٤ . تفنيد المزاعم : قضية تعدد  
الزوجات واتهام الرسول بحب النساء والرد على ما زعمه  
المستشرقون ص ١٥٥ - ١٦٠ .

#### الفصل الخامس : " حياة محمد " في ميزان النقد ١٦١-١٨٨

١ - قيمة الكتاب وأثره : " حياة محمد " فتح جديد  
في مجال الدراسات الاسلامية عامة والسيرة خاصة  
ص ١٦٢ - ١٦٣ . ٢ - مناقشة هيكل في خطأ اعتساده  
منهجه على العقل فقط وتحليل ركونه اليه ص ١٦٣ - ١٦٩  
٣ - مناقشة هيكل في تحطيمه لبعض الخوارق التي حاول  
تفسيرها تفسيراً عقلياً ، وتحطيل الباحث لها تحطيماً  
علمياً يكشف عن خطأ تفسير هيكل لها : قصة أصحاب  
الفيل ص ١٦٩ - ١٧٢ حادثة الاسراء والمصراع ص ١٧١  
- ١٧٤ . استناد هيكل فيها يذهب اليه من انكار المعجزة  
بالآية : " وما منعنا أن نرسل بالآيات " . والرد عليه ،  
وبيان خطأ استدلاله بهذه الآية وتوجيهها التوجيه السليم  
ص ١٧٤ - ١٧٥ . ٤ - مناقشة هيكل في تحطيمه الخاطئ  
لبعض الأحداث والوقائع ، وتحطيل الباحث لها تحطيماً  
علمياً يكشف عن خطأ تحطيل هيكل لها : أ - تقديم  
خديجة القرابين للكهنة ! ص ١٧٥ - ١٧٨ ب - أعمال  
محمد بالطبيعة دماء لطفى النبوة والرسالة ص ١٧٨ - ١٨٦

ح- الأعراب الذين تخلفوا عن عهد الحديدية من غسير  
المسلمين إص ١٨٦ - ١٨٨

### الباب الثاني

السيرة النبوية والأسلوب القصصى من خلال

"على هامش السيرة" لطف حسين ١٨٩-٢٩١

الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند طه حسين ١٩٠-١٩٩

- ١- الباعث الأدبى : اتخاذ التاريخ المرمى عامية  
والسيرة خاصة مادة للأدب واستلهاهم ما فيها من مواقف  
وأحداث وشخصيات ، وعرضها فى أسلوب أدبى ص ٠٠-١٩٢-  
١٩٥ ٠ ٢- الباعث التعليمى التوجيهى : تهيئ  
الشباب الى قراءة السيرة خاصة والأدب القديم عامية  
ص ١٩٥- ١٩٦ توجهه نظر الكتاب والأدباء الى تاريخهم  
القديم واستغلاله مادة لأدبهم ص ١٩٦ تغيب الشباب  
فى حب الحياة المصيرية الأولى وما فيها من يسر وجمال  
ص ١٩٦- ١٩٧ ٠ ٣- الباعث الاجتماعى : مطالعة  
طه حسين بكتابه " على هامش السيرة " تصحيح موقعه  
الشعبى ص ١٩٧- ١٩٩ ٠

الفصل الثانى : الموضوع والفكرة فى " على هامش السيرة " ٢٠٠-٢٠٩

- أ- الموضوع : بعض أحداث ووقائع من السيرة وبعض  
الشخصيات التى كان لها أثر بارز فى مسار أحداث السيرة  
ووقائعها ص ٢٠١- ٢٠٥ ٠ ب- الفكرة : أن العالم  
آنذاك كان فى حاجة الى رسالة ص ٢٠٦ أن محمدا  
كان هو النبى المنتظر لحمل الرسالة ص ٢٠٦ انتصار  
الاسلام وانتشاره ص ٢٠٧ ٠ " على هامش السيرة " صورة عامة  
للحياة فى الجزيرة العربية ، وصور ولمحات عن بعض

المجتمعات الأخرى ص ٢٠٨. على هامش السيرة " تعبیر  
واضح عن فكر طه حسين حول وحدة الثقافة ص ٢٠٨ رأي  
الاستاذ سيد قطب في الكتاب ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

### الفصل الثالث : أسلوب كتاب " على هامش السيرة ٢١٠-٢١٨

- ١ - " على هامش السيرة " ذو أسلوب قصصى ص ٢١١ -
- ٢١٢ . مثال تطبيقي على قصصية الأسلوب : قصصة  
" الوفاء المر " تحليل للقصة ، والاستدلال بها على  
استيفاء فصول " على هامش السيرة " لشرائط الفن  
القصصى ص ٢١٢ - ٢١٨ . اشادة " المازنى " بطه  
حسين القصصى ص ٢١٨ . اشادة الدكتور " خفاجى " أيضا  
ص ٢١٨ .

### الفصل الرابع : الألوان القصصية فى " على هامش السيرة " ٢١٩-٢٤٢

- ١ - القصة الشخصية : تعريف القصة الشخصية ص ٢٢١ -
- ٢٢٢ . على هامش السيرة ملئ بهذا اللون من القصص ص
- ٢٢٢ . عرض لخصائص القصص الشخصية فى الكتاب وأماطتها
- ص ٢٢٣ - ٢٢٤ . تحليل قصة " صريح الحسد " : مضمون  
القصة تفصيلا ص ٢٢٤ - ٢٢٨ . السمات الفنية لهذه  
القصة ص ٢٢٨ - ٢٣١ . مآخذ على هذه القصة ص ٢٣١ -
- ٢٣٢ . ٢ - القصة الحدثية : تعريف القصة الحدثية
- ص ٢٣٢ . على " هامش السيرة " ملئ بهذا اللون من  
القصص ص ٢٣٢ - ٢٣٤ . تحليل قصتي : " ميلاد الرسول  
ونشأته " و " أصحاب الفيل " : مضمون القستين تفصيلا  
ص ٢٣٤ - ٢٣٧ . السمات الفنية لهاتين القستين ص ٢٣٧ -
- ٢٤٠ . مآخذ على هاتين القستين ودفع هذه المآخذ ص ٢٤٠ -

٢٤٣ + ٣ - القصة التي تصور المعنى وتبرز الفكرة :  
تعريف بهذه القصة ص ٢٤٣ " على هامش السيرة " ملق  
بهذا اللون من القصص ٢٤٣ تحليل قصة " الفيلسوف  
الحائر " : مضمون هذه القصة تفصيلا ص ٢٤٣ - ٢٤٥  
السمات الفنية لهذه القصة ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

#### الفصل الخامس : طريقه طه حسين أو مذهبه الفني ٢٤٨ - ٢٧٦

١ - تعريف بخارطة طه حسين ص ٢٤٩ - ٢٥٢ + ٢٠ - ألوان  
هذه الطريقة : أ - تصوير الشخصيات ص ٢٥٢ - ٢٦٠ .  
ب - تصوير الأحداث ص ٢٦٠ - ٢٦٥ + ج - تصوير  
المعاني والخواطر ص ٢٦٥ - ٢٧٠ + د - تصوير  
الشخصيات الخيالية ص ٢٧٠ - ٢٧٤ + هـ - تصوير  
البيئة ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

#### الفصل السادس : " على هامش السيرة " في ميزان النقد ٢٧٧ - ٢٩١

١ - قيمة الكتاب وأثره : الكتاب تصوير للسيرة في لوحة  
جميلة محبة للنفس ص ٢٧٨ . اتخاذ التاريخ مادة للآداب  
أحياء " للتراث المجيد ص ٢٧٨ . أثر طه حسين بكتابته  
هذا فهم يعمده ص ٢٧٨ . نجاح طه حسين في تحقيق  
هدفه ص ٢٧٨ - ٢٧٩ . رأى الأستاذ " الشايب " في  
براعة التصوير القصص في " على هامش السيرة " ص ٢٧٩  
الأستاذ " سيد قطب " يشيد ببراعة التصوير القصص  
في " على هامش السيرة " ص ٢٧٩ . نجاح طه حسين في  
عرض الأفكار التي قصد بها من الكتاب ص ٢٧٩ - ٢٨٢ .  
٢ - نقد بعض أفكار الكتاب : وحدة الثقافة أو الحضارة  
ص ٢٨٢ - ٢٨٣ . سبق الحضارة اليونانية والرومانية

للحفازة الحربية ، والرد عليه ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ما جاء في قصة  
زواج الرسول بزينب بنت جحدر من أفكار خاطئة ودحضها  
والرد عليها ص ٢٨٥ — ٢٨٧ ٣ — موقف بعض النقاد  
من الكتاب : المعاقلون : نقدم موجه الى شخص طه  
حسين وليس الى الكتاب ص ٢٨٨ المجددون : نقدم موجه  
الى طريقة الكتاب ص ٢٨٨ — ٢٩٠ رأى يقول : ان طه  
حسين يتعلق الجماهير بكتابه هذا ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

### الباب الثالث

العيرة النبوية والأسلوب المسرحي من خلال

كتاب " محمد " لتوفيق الحكيم ٢٩٢ — ٣٦٠

الفصل الأول — : الحكيم والأدب المسرحي ٢٩٣ — ٢٩٥

ريادة الحكيم للأدب المسرحي العربي الحديث ص ٢٩٤ الفن  
المسرحي قبل الحكيم ص ٢٩٤ • الفن المسرحي على يسيد  
الحكيم ص ٢٩٤ . أثر الحكيم في الفن المسرحي الحديث ص ٢٩٥

الفصل الثاني : الحكيم ومسرحياته الدينية ٢٩٦ — ٣٠١

الحكيم يتخذ من التاريخ الشرقى مادة لمسرحياته : التاريخ  
الفرعوني • اليوناني • العربي • القصص القرآني • التاريخ  
الاسلامي ص ٢٩٧ • الهدف من مسرحية محمد ص ٢٩٧ — ٢٩٨  
مسرحيات الحكيم الدينية تعتمد على فكرة المزاوجة بين المسادة  
والروح ص ٢٩٨ — ٣٠٠ السرفى هذه المزاوجة ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

الفصل الثالث : الفكرة والمنهج في كتاب " محمد " ٣٠٢ — ٣١٢

أ — الفكرة : تدور حول أساس المزاوجة بين المادة والروح ،  
وأن محمداً بشر رسول يوحى اليه ص ٣٠٢ . ليس المقصود بالكتاب

فكرة يريد الكاتب أن يبرزها ص ٣٠٣ - ٣٠٤. مناقضة  
الحكيم على الحقائق التاريخية ص ٣٠٤ - ٣٠٥. كتاب  
" محمد " ليس مسرحية ص ٣٠٥ - ٣٠٦ . جهـ  
الحكيم : الصب والصياغة ص ٣٠٦. نجاح الحكيم في تقديمه  
السيرة النبوية بهذه الصورة المسرحية ص ٣٠٦ - ٣٠٧. السـ  
في عدم نهج الحكيم في كتابه هذا نهجا فنيا خالصا  
ص ٣٠٧.

ب - المنهج : الكتاب ذو منهج أدبي عام ، وليس  
منهجاً أدبياً خالصاً وليس منهجاً علمياً ولا تاريخياً  
ص ٣٠٧ - ٣١٢.

#### الفصل الرابع : جوانب السيرة في كتاب " محمد "

٣١٣ - ٣٥١

ما تضمنه المقدمة ص ٣١٤. ما يشتمل عليه الفصل الأول ص ٣١٤  
ما يحتويه الفصل الثاني ص ٣١٤ - ٣١٥. ما يحتويه  
الفصل الثالث ٣١٥ ما تضمنه الخاتمة ص ٣١٥. الحكيم  
لا يستعرض كل الأحداث بل ينتقى ويختار ص ٣١٥.  
١ - محمد الرسول : : الوحي : في غار حراء ص ٣١٧. محمد  
وخديجة بعد نزول الوحي ص ٣١٨. جبريل يدعو الرسول  
بالجهر بالدعوة ص ٣١٨ - ٣١٩. جبريل ينزل على الرسول  
بعد طول انقطاع ص ٣١٩ - ٣٢٠. جبريل ينزل حين  
حزن الرسول على عم حمزة ص ٣٢٠ - ٣٢١. جبريل  
ينزل على الرسول أمراً إلهياً بالذهاب إلى بني قريظة  
ص ٣٢١. نزول جبريل لبيان حديث الافك ص ٣٢٢ - ٣٢٣.  
احسان الحكيم بهذه الصور والمشاهد التي صورها  
ص ٣٢٣ - ٣٢٦ . ب الخلق : الرسول على جهل الصفا



يدعو قومه ص ٣٢٧ — ٣٢٩ الرسول وأبو طالب وموقف الرسول  
من قول عمه ص ٣٢٩ — ٣٣٠ الرسول يدعو بني عامر  
وأبولهب من خلفه يكذبه ص ٣٣٠ — ٣٣١ الرسول يتجه  
الى الطائف وما لقيه من أذى وغت ص ٣٣١ — ٣٣٤ .  
احساس الحكيم بهذه الصور والمشاهد التى صورها ص ٣٣٤ .  
حـ المعجزات والخوارق : نجم أحمد الذى رآه اليهودى  
ص ٣٣٥ رؤيا آمنة بخروج نور منها ص ٣٣٦ رؤيا عبدالمطلب  
ص ٣٣٦ البركة التى مست خديجة ص ٣٣٧ خديجة ومحمد  
والمراف ٣٣٧ — ٣٣٨ محمد وحيرى فى صحراء الشام  
ص ٣٣٨ — ٣٣٩ قصة أم معبد ص ٣٣٩ — ٣٤٠ عمير بن  
وهب ص ٣٤٠ الفحل الذى ظهر خلف أبى جهل ص ٣٤٠  
الصخرة التى أضأت حين كسرها الرسول ص ٣٤١ أما نسة  
الحكيم فى تصوير هذا الخوارق ص ٣٤١ — ٢ — محمد  
البشر : الرسول تجمعت فيه كل صفات البشر ص ٣٤١ — ٣٤٢  
خوف الرسول حين نزول الوحي عليه فى المرة الأولى  
والثانية ص ٣٤٢ — ٣٤٣ فرح الرسول بمولد ابنه ابراهيم  
ص ٣٤٣ — ٣٤٤ حزن الرسول لموت ابراهيم ص ٣٤٤ — ٣٤٥  
صور ومواقف للرسول وغيره عائفة عليه ص ٣٤٥ — ٣٤٩ .  
محمد القائد الذى يستشير أصحابه ص ٣٤٩ — ٣٥٠ نزول  
الرسول على رأى أحد أصحابه ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

الفصل الخامس : كتاب " محمد " فى ميزان النقد ٣٥٢ — ٣٦٠

١ — قيمة الكتاب وأثره : الحكيم أول من عرض السيرة النبوية  
بأسلوب مسرحى ص ٣٥٣ . التزام الحكيم بما جاء فى كتب  
السيرة ص ٣٥٣ . براعة الحكيم فى عرض السيرة بهذه الطريقة

ص ٣٥٣ - ٣٥٤. جهد الحكيم في هذا الكتاب ص ٣٥٤.  
٢ - الشكل : الكتاب ليس مسرحية ص ٣٥٤ - ٣٥٦.  
٣ - الحوار : توافر الشروط الفنية في الحوار الذي سلكه  
الحكيم في كتاب " محمد " ص ٣٥٦ - ٣٥٨ - ٤٠ - رأى  
بعض النقاد حول الكتاب : رأى للاستاذ مصطفى صادق  
الرافعي ص ٣٥٨ - ٣٦٠. رأى للاستاذ اسماعيل مظهر  
ص ٣٦٠. رأى للباحث ص ٣٦٠.

#### الباب الرابع

##### السيرة النبوية والأسلوب الفلسفي النفسي

من خلال " عمقيرة محمد " للحقباد ٣٦١ - ٤٢٥

الفصل الأول : بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند العقاد  
٣٦١ - ٣٧٦  
بواعث عامة : البواعث المذهبية والفكرية ص ٣٦٤ - ٣٦٥ البواعث  
الدينية ص ٣٦٥  
بواعث خاصة : الباعث الأول : الفيرة والانصاف ص ٣٦٦ - ٣٧٠  
الباعث الثاني : النشأة ص ٣٧٠ - ٣٧٢ . الباعث الثالث :  
التحول الفكري ص ٣٧٢ - ٣٧٦ .

الفصل الثاني : الفكرة والموضوع في " عمقيرة محمد " ٣٧٧ - ٣٨٤

أ - الفكرة : الكتاب تقدير وتعظيم للرسول محمد ، وإثبات  
أنه عظيم بجميع المقاييس ص ٣٧٨ - ٣٨٠ . ب - الموضوع :  
عمقيرة الرسول وجوانبها المتعددة ص ٣٨٠ - ٣٨١ . استعراض  
العقاد لجميع مظاهر المبقرية المحمدية ص ٣٨١ - ٣٨٤ .

٤٣٢ — ٣٨٥

### الفصل الثالث : خصائص طريقة العقاد

- ١ — التبحر والاستقصاء : أمثلة على استقصاء العقاد لصفات المظنة المحمدية : الفصاحة ص ٣٨٧. الصداقة ص ٣٨٧  
معاملة الرسول الطيبة لزوجاته ص ٣٨٧. بر الرسول بخدمه وعبيده ص ٣٨٧
- ٢ — التفریع والتفصيل : أمثلة على طريقة العقاد في التفریع والتفصيل عندما يتناول الصفات : أ — الفصاحة ص ٣٨٨ — ٣٨٩ ب — عاطفة الرسول الانسانية ص ٣٩٠ — ٣٩٤ ج — معاملة الرسول لزوجاته ص ٣٩٤ — ٣٩٦ د — معاملة الرسول لخدمه وعبيده ص ٣٩٧ — ٤٠٠ هـ — تقصيص البواعث والأسباب : أ — الرجوع بالصفات المحمدية الى بواعثها وأسبابها : ١ — الرسالة ومحمد صلى الله عليه وسلم ص ٤٠٢ — ٤٠٥ ب — محمد الداعية ص ٤٠٥ — ٤٠٨ ج — محمد الصديق ص ٤٠٨ — ٤١١ د — الرجوع بتصرفات النبي وأحواله الى بواعثها وأسبابها : ١ — تعدد زوجات الرسول ص ٤١٢ — ٤٢٠ ب — نجاح الدعوة الاسلامية ص ٤٢٠ — ٤٢٢ ج — صرع بـ من المشركين وخروج الرسول لرؤيتهم ص ٤٢٢ — ٤٢٧ د — الشواهد والأدلة : العقاد يورد أدلته من الحوادث المنتقاة والتصرفات المشهورة والشواهد البارزة ص ٤٢٨ — ٤٢٩. ترقى العقاد في إيراد الأدلة ص ٤٢٩ — ٤٣٢

٤٤١ — ٤٣٣

### الفصل الرابع : أسلوب العقاد وسامته

- ١ — الطابع العام لأسلوب العقاد : غلبة الأسلوب العلمي المنطقي عليه ص ٤٣٤ — ٤٣٧ ب — غلبة التراكم سبب

المنطقية : أدوات التقسيم والتفريع ص ٤٣٨ . القضايا المنطقية  
ص ٤٣٨ . الجمل والأدوات الشرطية ص ٤٣٨ — ٤٣٩ .  
٣ — قوة الاقتناع والحجة ص ٤٣٩ — ٤٤١ .

#### ٤٤٢ — ٤٥٤ الفصل الخامس : منهج العقاد وأأسه

١ — الجانب التحليلي ص ٤٤٣ . ٢ — الجانب النفسى :  
تطبيق نظرية " المبقرية الفردية " على شخصية الرسول  
الكريم ص ٤٤٣ — ٤٤٤ . العقاد يتفق فى هذه النظرية  
مع " توماس كارليل " ص ٤٤٥ — ٤٤٦ . العقاد يقيم المقارنات  
بين الرسول وبين عباقرة الحرب والسياسة والتشريع  
والاجتماع ص ٤٤٦ — ٤٥٢ . النتيجة التى انتهى إليها  
العقاد من هذه المقارنات ص ٤٥٢ . ٣ — الجانب  
المقلى : التدليل على عظمة الرسول وعبقريته بما يؤمن  
به العقل ص ٤٥٢ — ٤٥٤ .

#### ٤٥٥ — ٤٧٥ الفصل السادس : " عبقرية محمد " فى ميزان النقد

١ — قيمة الكتاب وأثره . . . . . وبيان مكانه من الدراسات  
الأدبية : طريقة العقاد فى عبقرياته اضافة جديدة نفسى  
فن التراجم الشخصية ص ٤٥٦ . " عبقرية محمد " ليس ترجمة  
أدبية ، وليس سيرة تاريخية ص ٤٥٦ — ٤٥٩ . طريقة العقاد  
فى الكشف عن جوانب المبقرية ص ٤٥٩ — ٤٦٠ . " عبقرية  
محمد " " صورة نفسية " ٤٦٠ — ٤٦١ . ميزة طريقة  
العقاد : تجلية معالم الشخصية وإبراز خصائصها ص ٤٦٢ —  
٤٦٤ . قيمة طريقة العقاد فى الكشف عن المبقرية : أعلاؤها  
للشائل الانسانية ص ٤٦٤ — ٤٦٥ . ٢ — نقد طريقة  
العقاد ( الاعتماد على الصفات البارزة ) ص ٤٦٦ — ٤٦٨ .

٣ - نقد أسلوب المقاد ( غلبة الأسلوب العلمي المنطقي عليه ) ص ٤٦٨ - ٤٧٠ - ٤٠٤٧٠ - نقد منهج المقاد ( الجانب النفسى ) ص ٤٧٠ - ٤٧٥ .

### الباب الخامس

#### السيرة النبوية وأسلوب الفلسفى التاريخى

من خلال " فقه السيرة " للفزائلى ٤٧٦ - ٥٣٤

الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند الفزالى ٤٧٧ - ٤٨٢  
الرغبة فى تجلية جوانب السيرة النبوية واستخراج ما فيها من دروس وعبر ص ٤٧٨ - ٤٧٩ . جهل الناس بالسيرة النبوية ص ٤٧٩ - ٤٨٠ . جهل الناس بالاعتقاد الأمثل بالرسول الكريم ص ٤٨٠ - ٤٨٢ .

الفصل الثانى : طريقة الفزالى فى " فقه السيرة " وخصائصها ٤٨٣ - ٥٢٠  
طريقة الفزالى تجمع بين الطريقتين : القديمة والحديثة ص ٤٨٤ - ٤٨٥ . سمات طريقته :-

- ١ - الوحدة الموضوعية ص ٤٨٥ - ٤٨٦ . ٢ - الربط بين الأحداث والوقائع ص ٤٨٧ - ٤٩٣ . ٣ - تعليل الأحداث وفلسفتها : أ - لماذا أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم قبيلة بنى سمد ؟ ص ٤٩٤ - ٤٩٥ . ب - سر الصراع بين اليهود والمسلمين ص ٤٩٥ - ٤٩٨ . ٤ - تحقيق بعض الأحداث وتحصيلها : تحقيق قصة " الفرانيسق " وتفنيدها ما فيها من مزاعم ص ٤٩٨ - ٥٠٠ . ٥ - إبراز الحكم واستنباط العبر : أ - حكم الاسراء والمعراج ص ٥٠١ - ٥٠٣ . ب - نشأة الرسول وأسرعته ص ٥٠٣ - ٥٠٤ .

ح - ميلاد شميرة الأذان ص ٥٠٤ - ٥٠٥ + ٦ - الربط  
 بين أحداث السيرة النبوية وما يشابهها من أحداث  
 عصرية : أ - مصعب بن عمير ومبشرو المسيحية اليوم  
 ص ٥٠٦ - ٥٠٧ + ب - نجاح المسلمين في تأسيس  
 وطن للإسلام بالمدينة ونجاح اليهود في تأسيس وطن  
 لهم بفلسطين ص ٥٠٧ - ٥٠٩ + ج - مسجد الرسول  
 ومساجد المسلمين اليوم ص ٥٠٩ - ٥١٠ + د - مشاركة  
 الرسول أصحابه في العمل ومشاركة حكّام اليوم ص ٥١٠ -  
 ٥١١ + هـ - التعلّق على الأحداث والوقائع : أ - موقف  
 أبي لهب من دعوة الرسول ص ٥١٢ - ٥١٣ + ب - هجرة  
 المسلمين من مكة إلى المدينة وما تحلوه من صواب ص ٥١٣  
 ح - بهمة العقبة الكبرى ص ٥١٤ + ٨ - إيراد النصوص  
 والآثار : أ - حب الصحابة للرسول ص ٥١٥ - ٥١٦ +  
 ب - ثبات المؤمنين الصادقين ص ٥١٦ - ٥١٧ +  
 ج - معركة الأحزاب ص ٥١٧ - ٥١٨ - تفسير بعض  
 النصوص والأدلة : أ - تفسير بعض الآيات الواردة في  
 غزوة أحد ص ٥١٨ - ٥٢٠ + ب - تفسير بعض  
 الآيات الواردة في غزوة تبوك ص ٥٢٠ +

الفصل الثالث : أسلوب الفزالي في " فقه السيرة " وسماعه . ٥٢١ - ٥٣١

١ - هل نعد " فقه السيرة " كتاب تاريخ أم كتاب  
 أدب ؟ ص ٥٢٢ - ٥٢٤ +

٢ - سمات أسلوب " فقه السيرة " : أ - السمة الفلسفية :

فلسفة الأذان ص ٥٢٥ - ٥٢٧ + ب - السمة الأدبية :

١ - في غار حراء ص ٥٢٧ - ٥٢٩ + ٢ - إلى دار الهجرة

ص ٥٢٩ - ح - المصنف الخطيب : ١ - المصنفون  
الأخبار ص ٥٢٠ - ٥٢١ . ٢ - مؤلفه ليس له سبب  
من المصنف ص ٥٢١ .

المفصل للرجوع : كتاب " نقد السيرة " في ميزان النقد  
١ - نقد الكتاب وأثره ص ٥٢٢ . ٢ - نقد أسلوب  
الكتاب ( عليه السيرة المستقيمة عليه ) ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

الكلمة الأخيرة :  
الكتاب :  
فهرس المصادر والمراجع :  
فهرس الموضوعات :  
٥٢٦ - ٥٢٥  
٥٥٦ - ٥٢٧  
٥٦٩ - ٥٥٧  
٥٨٦ - ٥٧٠